

سِيرَتُهُ | مَقَالاتُهُ | مُحَاضَرَاتُهُ | بُحُوثُهُ

جَمْعُ وَتَرْتِيبُ

الدكتور مبارك بن حمد الحامد الشريف

الجُزْءُ الأَوَّل

دار كنوز إشبيليا
للنشر والتوزيع

جعفر شيخ إدريس

سيرته - مقالاته – محاضراته - بحوثه

[١]

ح دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشريف، مبارك حمد آل حامد

جعفر شيخ إدريس: مجموعة مقالات ومحاضرات وبحوث.

مبارك آل حامد الشريف - الرياض، ١٤٣٩هـ (٢مج)

528 ص ١٧×٢٤؛

ردمك: ٤-٩٤-٨١٩٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

١-٩٥-٨١٩٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)

١. المقالات العربية أ. العنوان

ديوي ٨١ ١٤٣٩/٢٢٦٨

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٢٢٦٨هـ

ردمك: ٤-٩٤-٨١٩٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

١-٩٥-٨١٩٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

Dar Kounouz Eshbelia
For Publishing & Distribution
Kingdom of Saudia Arabia
P.O. Box 27261 Riyadh 11417
Tel.: +96611 4914776
+96611 4968994
Fax.: +966114453203



دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية
ص.ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧
هاتف: ٤٩١٤٧٧٦ ٩٦٦١١ +
٤٩٦٨٩٩٤ ٩٦٦١١ +
فاكس: ٤٤٥٣٢٠٣ ٩٦٦١١ +

E-mail eshbelia@hotmail.com

جعفر شيخ إدريس

سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه

جمع وترتيب

د. مبارك بن حمد الحامد الشريف

الجزء الأول



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن ما قام به الابن الدكتور مبارك بن حمد الحامد الشريف من جمع وترتيب ونشر مجموعة مقالات وبحوث ودراسات ومحاضرات سبق أن ألقيتها أو كتبتها عمل وجهد يشكر عليه، وكما هو معلوم أن من طبيعة البشر أنه ليس معصوم فيما يقول ويفعل فهو يصيب ويخطئ، وكما قال الإمام مالك رحمه الله: «كل يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر»، فما كان في هذا المجموع من صواب فبفضل الله وتوفيقه، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان، وأسأل الله أن يتجاوز عنا تقصيرنا وخطأنا، كما أسأله أن ينفع بهذا المجموع، وأن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

جعفر شيخ إدريس

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وخاتم المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصبه أجمعين، أما بعد:

فمن أعظم النعم التي أنعم الله بها علي بعد نعمة الإسلام أن وفقني بالاستفادة وتلقي العلم على أيدي أساتذة فضلاء وعلماء أجلاء، ومنهم أستاذنا الدكتور جعفر شيخ إدريس، الذي شابه شيخه عبد العزيز بن باز في حب الدعوة إلى الله والحرص على هداية الناس، وتأثر بابن تيمية في مجادلة أهل الأهواء والضلال من المسلمين، وأهل الكفر والإلحاد من اليهود والنصارى والوثنيين والشيوعيين، فكان - جزاه الله خيرا وأمد في عمره على طاعة - منذ نعومة أظفاره وهو يصول ويجول في مناظرة أهل الضلال والانحراف، سواء في بلده السودان أو خارج السودان، لاسيما في أوربا وأمريكا، ولقد أكرمني الله تعالى بمعرفته قبل أكثر من خمس وثلاثين سنة حينما كنت طالبا في مرحلة الماجستير في المعهد العالي للدعوة الإسلامية بجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، ومنذ ذلك الحين وأنا أستفيد من علمه، سواء بزيارته والحديث معه، أو بقراءة بحوثه ومقالته أو سماع دروسه ومحاضراته، فقد كنت حريصا منذ عرفته أن أجمع كل ما أجده للشيخ حتى أصبح عندي مجموعة قيمة من البحوث والمحاضرات والندوات والمقالات، ولأن كثيرا منها - خاصة المحاضرات التي ألقاها الشيخ في الغرب بعضها له ما يقارب من أربعين سنة - كان مسجلا في أشرطة فيدو ومعرضا للتلف، لذا قمت بتفريغها وكتابتها، وذلك وفاء مني لأستاذي، وقبل هذا حاجة المسلمين الشديدة في هذا الزمن لما كتبه الشيخ من علم في كثير من القضايا المعاصرة المهمة، لاسيما فيما يتعلق بالحضارة الغربية، فقمت بجمع هذا التراث النفيس وسميته بالتشاور مع أبنائه الكرام:

جعفر شيخ إدريس (مجموعة مقالات ومحاضرات وبحوث).

وهذا المجموع يحوي:

١) ترجمة موجزة لشيخنا.

٢) حوارات ومقابلات صحفية وإذاعية وبلغ عددها ثلاثة وعشرين حوارا[١].

---

(١) وهي:

١. حوار مع مجلة الدعوة السعودية في ندوة عن الحوار وأهميته في بناء المجتمع الإسلامي في ١٤١٠/١/٣٠.

٢. حوار مع مجلة البيان حول الفكر الاسلامي والفكر الغربي العدد ٥٥ربيع الاول ١٤١٣الموافق سبتمبر م١٩٩٢ ، والعدد٥٦ربيع الاخر ١٤١٣الموافق اكتوبر ١٩٩٢م.

٣.حوار مع مجلة اليمامة العدد ١٣٧٩ ٨/جمادى الآخرة ١٤١٦الموافق ١/ نوفمبر ١٩٩٥م.

٤.حوار مع مجلة العصر الإلكترونية بعنوان هذه تجربتي وهذه شهادتي عام ١٤٢١ .

٥.حوار مع مجلة الدعوة العدد ١٨٤٠ في ١٩صفر ١٤٢٣الموافق ٢٠٠٢م عن الإرهاب ..لن يفهم إلا بنصوص الكتاب والسنة .

٦. حوار مع مجلة البيان العدد١٩٧محرم ١٤٢٥عن الخوف من الإسلام وأثر في توجه السياسة الأمريكية

٧. حوار مراجعات مع الاستاذ الطاهر حسن التوم في ٢٠١٠/٣/١٨م.

٨. حوارات مركز نما للبحوث والدراسات وقد طبعت في كتاب(حوارات ما بعد الثورة)عام ١٤٣٣ الموافق٢٠١٢م ضمن حوارات أخرى عن الثورات العربية .

٩. حوار حول صراع الحضارات مع مجلة الفيصل السعودية العدد ٢٥٧.

١٠. حوار مع صحيفة الشرق الاوسط ا الجمعة ٠٧ ذو الحجة ١٤٢٤ هـ ٣٠ يناير ٢٠٠٤ العدد ٩١٩٤ .

١١. حوار (جريدة المسلمون العدد٣١٢ ، ١٤١١/٧/١٠.) مع الداعية الذي رفض أن يكون فقيه العامة ، أجرى الحوار جمال خاشقجي.

١٢. حوار جريدة الوفاق مع الشيخ الدكتور جعفر شيخ إدريس حاوره الهندي عز الدين.

١٣.حوار حول أحداث الحادي عشر من سبتمبر مع مجلة الإسلام اليوم ٢٦/ ٨ /١٤٢٢الموافق ٢٠٠١/١١/١٢م.

١٤.حوار في جريدة الرياض حاوره على الشثري.

١٥. حوار في قناة المجد حول إشكاليات الديمقراطية والبدائل الإسلامية حاوره فهد السنيدي.

١٦. حوار في قناة المجد حول قرار شيرك والحرية الدينية حاوره فهد السنيدي.

١٧. حوار في قناة طيبة الفضائية السودانية بعنوان ذكرياتي .

١٨. حوار في جريدة الرياض حاوره عبد الحي شاهين في ١٤/ ٦/ ٢٠٠٢م

١٩. حوار جريدة الصحافة السودانية، العدد ٣١٣٤، الأحد ٢١ شوال ١٤٢٢هـ الموافق ٦ يناير ٢٠٠٢.

٢٠. حوار صحيفة الاستجابة السودانية صفر ١٤١٢.

٢١.حوار مجلة منارات العدد٢٢ أجرى الحوار الدكتور محمد الخرعان .

٢٢. حوار مع مجلة الأمل التي تصدرها رابطة الشباب المسلم العربي في امريكا واجرى الحوار الدكتور أحمد سيف الدين تركستاني عام ١٩٨٦م.

٢٣. حوار حول صراع الحضارات وهو مقابلة أجرتها مجلة الفيصل مع الدكتور جعفر شيخ إدريس العدد ٢٥٧.

٣) المقالات وبلغ مجموعها تقريبا ثلاثة وستين مقالا نشرت في صحف ومجلات عربية وإسلامية، وهذه غير المقالات التي كان كتبها الشيخ في مجلة البيان وطبعت في كتاب مستقل وهي تزيد على مائة مقال، وقد اكتفيت بالتعريف بها والإشارة إلى تاريخ نشرها في مجلة البيان[1].

---

(١) وهي كالآتي:

١. أضواء قرآنية على ظاهرة الشذوذ الجنسي(جريدة منار السبيل ذو القعدة ١٤١٣).

٢. إلا رحم الله ناشر السنة (شبكة المشكاة الإسلامية الأربعاء ٠٧شوال ١٤٢٨هـ ١٧أكتوبر ٢٠٠٧ م).

٣. الآخر ،(شبكة المشكاة الإسلامية الاثنين ٣٠ذوالقعدة ١٤٢٥هـ١٠ ابناير ٢٠٠٥ م

٤. الإسلام عقل وإيمان (جريد المسلمون السعودية).

٥. الإسلاموتحقيقالمجتمعالإنساني (مجلةالمجتمعالكويتية١٦١رجب ١٣٩٣يوليو ١٣٧٣).

٦. الحرية (جريدة الميثاق الاسلامي عدد ١٦ شوال ١٣٨٧ يناير ١٩٦٨م).

٧. الحوار مجادلة لا مداهنه (شبكة المشكاة الإسلامية ٢شعبان ١٤٢٤هـ٢٤أكتوبر ٢٠٠٣ م).

٨ . الخمر والعدوان شبكة (المشكاةالإسلامية ١٩صفر ١٤٢٧هـ١٨مارس ٢٠٠٦).

٩. الصلة بين ظاهر الإنسان وباطنه (منارالسبيل، السنةالثانية. محرم١٤١٤هيوليو١٣٩٣—).

١٠. الصيام وتفاضل الأزمان(شبكة المشكاة الإسلامية الجمعة ١٩ رمضان ١٤٣١ هـ أغسطس ٢٠١٠م).

١١. إنسانيتنا جوهر ثابت وواقع يتغير (موقع الشيخ جعفر شيخ إدريس ٢٠١٦/٦/١م).

١٢. أهمية العقيدة وأسبقيتها على الأفعال (موقع المختار الإسلامي ٢٠جمادى الآخرة ١٤٣٦.

١٣. أين المرجعية ؟ (الشبكة العنكبوتية.

١٤. بشاعة التمثيل بالجثث (موقع الدكتور جعفر شيخ إدريس ١٩ صفر ١ الموافق ٤٢٥ أبريل ٢٠٠٤).

١٥. بل ليس في الإمكان إبداع (مجلة المعرفة السعودية العدد٣٢ذوالقعدة ١٤١٨).

١٦. تحريم الشيوعية (جريدة الميثاق الإسلامي ، العدد ١٦، صفحة ١٢.

١٧. رد شبهات المكذبين بعذاب القبر (شبكة المشكاة الإسلامية الجمعة ٢٩ ربيع الثاني ١٤٢٧الموافق ٢٦مايو ٢٠٠٦م

١٨. عالم النبوة الرحيب (شبكة المشكاة الإسلامية ١٣ ذو القعدة ١٤٢٨الموافق ٢١نوفمبر ٢٠٠٧م

١٩. غلو في فهم التوحيد (مجلة منار السبيل جمادى الآخرة ١٤١٦هـ، الموافق نوفمبر ١٩٩٥م

٢٠. فكيف يهدم الإعلام العقيدة (شبكة المشكاة الإسلامية الجمعة ٢٩شعبان ١٤٢٤هـ ٢٤أكتوبر ٢٠٠٣ م).

٢١. لا تعلق بالأشخاص : معالم في طريق الاستمساك بالمبادئ (جريدة الميثاق الإسلامي، العدد ٦٣٧، ١٠ أكتوبر ١٩٦٧ م).

٢٢. لا مداهنة في دين الله شبكة المشكاة الإسلامية ١٠ رجب ١٤٢٦الموافق ١٣ اغسطس ٢٠٠٥م.

٢٣. من قواعد الدين المحافظة على سمعة المسلمين (جريدة الميثاق الإسلامية ربيع الثاني ١٤٢٥).

٢٤. من مزالق الدعاة (شبكة المشكاة الإسلاميةالجمعة ٢٩ شعبان ١٤٢٤ أكتوبر ٢٠٠٣ م).

٢٥ . مناقشة هادئة مع المفجرين (الشبكة العنكبوتية).

٢٦. مهمة الداعية البلاغ(مجلة التوعية الإسلامية في الحج العدد ١٨ذو الحجة ١٤٠٢).

٢٧.نبي الرحمة الايمانية (شبكة المشكاة الإسلامية ٤/١٢/ ١٤٣١الموافق ٩ نوفمبر ٢٠١٠.

٢٨. ازدياد حرارة الأرض شبكة المشكاة الإسلامية ٧ذو الحجة ١٤٢٥الموافق ١٧يناير ٢٠٠٥م.

٢٩. مزايا حقيقية لثورة الاتصالات الشبكة العنكبوتية.

٣٠. إطلالة إسلامية على الحضارة الغربية (جريدة المسلمون السعودية العدد ٤٣٢ تاريخ ١٤١٣/١١/٢٣).

٣١. العقلانية الرشيدة في التعامل مع الحضارة الغربية (ورقة مقدمة للحلقة العلمية بكلية الدعوة والاعلام بجامعة الامام ١٤١٣/١١/٢٧) .

٣٢. العلمانية ليست محايدة وماهي بالقومية (شبكة المشكاة الإسلامية ٧رجب ١٤٣٤الموافق ١٥مايو٢٠١٣م).

٣٣. العلمانية والجاهلية وجهان لعملة واحدة (مجلة منار السبيل ١٩٩٣م).

٣٤. أمريكا المنشقة (شبكة المشكاة الإسلامية ١٤٢٥/١٢/٢١الموافق ٣١يناير ٢٠٠٥م.

٣٥. حرب الكذابين (شبكة المشكاة الإسلامية ١٢محرم ١٤٢٦الموافق ٢١فبراير ٢٠٠٥م.

٣٦. حين تصير الديمقراطية وثنا يعبد (شبكة المشكاة الإسلامية ٢٩رجب ١٤٢٨الموافق ١١اغسطس ٢٠٠٧م).

٣٧. علمانية باسم الإسلام (شبكة المشكاة الإسلامية ١ذو القعدة ١٤٢٥الموافق ١١ديسمبر ٢٠٠٤م.

٣٨. عنز ولو طارت (شبكة المشكاة الإسلامية ١٨ذو القعدة ١٤٢٥الموافق ٢٨ديسمبر ٢٠٠٤م.

٣٩. فشل النظرية الرأسمالية (مقال للأستاذ الدكتور جعفر شيخ إدريس بمناسبة الأزمة المالية العالمية سنة ٢٠٠٨م ونُشر هذا المقال في صحيفة الاقتصادية بتاريخ١١/١٠/٢٠٠٨م).

٤٠. فلنحدد ماذا نعني بالديمقراطية (شبكة المشكاة الإسلامية ٢٥ذو القعدة ١٤٣٢الموافق ٢١اكتوبر ٢٠١١م).

٤١. ماذا يعدون لمواجهة المد الاسلامي(شبكة المشكاة الإسلامية ١٠ جمادى الاولى ١٤٢٥الموافق ٢٧يونيو ٢٠٠٤م)

٤٢. ما هؤلاء بمسلمين (شبكة المشكاة الإسلامية ٨شوال ١٤٢٥الموافق ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٤م).

٤٣. مجتمع الرذيلة (شبكة المشكاة الإسلامية ٢٩شعبان ١٤٢٤الموافق ٢٤ اكتوبر ٢٠٠٣م).
٤٤. هل تحل العلمانية مشكلة التعددية (شبكة المشكاة الإسلامية ٢٧شوال ١٤٣٢الموافق ٢٤ سبتمبر ٢٠٢٢م).
٤٥. هل يكون الحكم الديمقراطي فاسدا ؟(شبكة المشكاة الإسلامية ٢٩ جمادى الآخرة ١٤٣٢).
٤٦. ودوا لو تكفرون كما كفروا ؟(شبكة المشكاة الإسلامية ٢٠ محرم ١٤٢٦الموافق ٢٨ فبراير ٢٠٠٥م.
٤٧. ارتكاب أخف الضررين موقع الشيخ جعفر ١٤١٨الموافق ٢٩٩٨.
٤٨. فائدة الالتزام بالمنهج العلمي الصحيح (كلمة للشيخ جعفر بمناسبة تكريمه في مجلة البيان يوم الخميس ١٤٣٣/٤/١٢).
٤٩. النقد الشامل مستحيل شبكة المشكاة الإسلامية ١٤٢٥/١١/٢٣الموافق ٣يناير ٢٠٠٥م.
٥٠. الاجوبة الإسلامية عن الأسئلة الفلسفية مجلة منار السبيل السنة الثانية العدد ٨ رمضان ١٤١٤هـ الموافق ١٩٩٣م.
٥١. مقدمة عن المنهج العلمي والمناهج المخالفة.
٥٢. الصحفيون وتحريف الكلام (جريدة المسلمون السعودية العدد٤٤٣).
٥٣. القيم التي أشعلت الثورة الحلقة الأولى جريدة الميثاق الإسلامي، العدد ٧٩ ، ٢٥ جمادى الثاني ١٣٨٥ هـ الموافق ٢٠ أكتوبر ١٩٦٥م الحلقة الثانية جريدة الميثاق الإسلامي، العدد ٨٠، ٢٨ جمادى الثاني ١٣٨٥ الموافق ٢٤ أكتوبر ١٩٦٥م.
٥٤. بهدوء عن الدستور جريدة الوفاق صفحة، الاربعاء ١٧محرم ١٤١٩هـ الموافق ١٣مايو ١٩٩٨م.
٥٥. دارفور شبكة المشكاة الإسلامية ١٨ذو الحجة ١٤٢٥الموافق ٧فبراير ٢٠٠٥.
٥٦. طالب يذكر طرائف من مناقب شيخه العلامة عبدالله الطيب المختار الاسلامي شعبان ١٤٣٧هـ الموافق ٢٣ مايو ٢٠١٦م.
٥٧. .عبد الناصر دكتاتور جريدة الميثاق الإسلامي ، جمادى الأولى ١٣٨٥هـ الموافق فبراير ١٩٦٥.
٥٨. عدو العدو أصديق دائما هو؟ شبكة المشكاة الإسلاميةالجمعة ٢٩ شعبان ١٤٢٤هـ/٢٤ أكتوبر ٢٠٠٣م.
٥٩. فليكن اجتماعكم القادم بالمكسيك(الشبكة العنكبوتية) .
٦٠ .لهذا كان اهتمامنا بفكر الشيخ مجلة منار السبيل شعبان ٤١٤ الموافق يناير ١٩٩٣م.
٦١. نذر الشر تقترب الشبكة العنكبوتية ٩ ذو القعدة ١٤٢٥الموافق ١٩ديسمبر ٢٠٠٤م.
٦٢. نظرات فكرية في السياسة السودانية جريدة الميثاق الإسلامي ٤أبريل ١٩٦٥م.
٦٣. يوميات الميثاق عن الصحافة والصحفيين جريدة الميثاق الإسلامي، العدد ٩٠، ٩ شعبان ١٣٨٥هـ الموافق ٢ ديسمبر.

٤) المحاضرات وعددها تقريبا ثمان وأربعون محاضرة، وقد أخذ هذا العمل مني وقتا طويلا وجهداً كبيراً[١].

---

(١) وهي كالآتي:

١. أزمة الأمة وخطوات نحو الحل (وهي ندوة شارك فيها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا مع الدكتور محمد أبو فارس حول أزمة الأمة في حرب الخليج عام ١٩٩٠م).

٢. استعمال القرآن الكريم للغة التجارة (في برنامج آية وقضية في قناة دليل).

٣. الأقوال والأعمال تدل على ما في القلوب((في برنامج آية وقضية في قناة دليل).

٤. التربية الدينية أو الإرشاد الديني (ندوة عن التربية الدينية أو الإرشاد الديني في الرياض شارك فيها الدكتور جعفر شيخ إدريس والدكتور أحمد العسال رحمه الله).

٥. التعريف بالإسلام وبيان حقيقته (محاضرة القاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في الجامع الكبير في الرياض وعلق عليه سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله باز رحمه الله.

٦. التنظيمات الإسلامية المعاصرة (محاضرة ألقاها الشيخ الدكتور جعفر شيخ إدريس في الخرطوم بالسودان ونشرتها مجلة (الحرس الوطني) الصادرة في شعبان ١٤٢٢الموافق ١٩٩٢م).

٧. الدعوى بأن لله ولدا (في برنامج آية وقضية في قناة دليل).

٨. السؤال عن أصل الخلقة (في برنامج آية وقضية في قناة دليل).

٩. الصحوة الإسلامية بين مفهومين (محاضرة ألقاها الدكتور في منى بمكة المكرمة في موسم الحج

١٠. الطريق إلى المجتمع الإنساني (محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في الموسم الثقافي لوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف بدولة الكويت بالتعاون مع جامعة الكويت).

١١. العلاقة بين الفرد والمجتمع (في برنامج آية وقضية في قناة دليل).

١٢. العمل الجماعي الإسلامي (محاضر ألقاها الدكتور في مؤتمر رابطة الشباب العربي المسلم في أمريكا).

١٣. القرآن الكريم كلام الله تعالى (في برنامج آية وقضية في قناة دليل).

١٤. المسلمون في الغرب (ندوة شارك فيها الدكتور جعفر شيخ إدريس في المؤتمر السنوي الخامس لجمعية القرآن والسنة في أمريكا الشمالية ١٤١٢ مع كل من عبد الله إدريس وعلي التميمي).

١٥. أهمية العقيدة وأثر الإعلام الغربي عليها (محاضرة القاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا).

١٦. أين الخلل؟ (محاضرة القاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا).

١٧. عوامل انحطاط الأمة الإسلامية وسبيل النهوض بها (ندوة شارك فيها الدكتور جعفر في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا بالاشتراك مع إسماعيل راجي الفاروقي رحمه الله).
١٨. فرفرة دجال (محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في الخرطوم يوم السبت ١٤٢٧/٣/١ه الموافق ٢٠٠٦/٤/٢٥م).
١٩. منهج أهل السنة في التغير السياسي (محاضر ألقاها الدكتور في مؤتمر رابطة الشباب العربي المسلم في أمريكا).
٢٠. موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى (محاضرة ألقاها الدكتور في المهرجان الوطني للتراث والثقافة الحادي عشر لعام ١٤١٦).
٢١. موقف المسلم من حكومات العالم الإسلامي (محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في المنتدى الإسلامي بلندن بريطانيا).
٢٢. ندوة التعاون الإسلامي (ندوة في المنتدى الإسلامي لندن).
٢٣. ندوة تجديد الفكر الإسلامي (ندوة عن تجديد الفكر الإسلامي أقامتها جامعة الملك سعود بالرياض وشارك فيها كل من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز والأستاذ محمد قطب والدكتور جعفر شيخ إدريس).
٢٤. نظرات على واقع الأمة منذ سقوط الخلافة (محاضر ألقاها الدكتور في مؤتمر رابطة الشباب العربي المسلم في أمريكا).
٢٥. هل الإنسان يولد ومعه علم (في برنامج آية وقضية في قناة دليل) .
٢٦. وجود الخالق سبحانه وتعالى (في برنامج آية وقضية في قناة دليل).
٢٧. تصور إسلامي للتعايش السلمي.
٢٨. أصول إسلامية للعلاقات الدولية (وهذه محاضرة ألقاها الشيخ في ندوة الإسلام في شرق آسيا حضارة ومعاصرة تايبية بتايوان ١٤٢٥الموافق ٢٠٠٤م).
٢٩. وحدة لصد الحرب الغربية على الإسلام (وهذه محاضرة ألقاها الشيخ في مؤتمر وحدة الأمة الإسلامية الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي سنة ١٤٢٥).
٣٠. بعض المسائل العلمية التصورية المتعلقة بقضية الكراهية وصدام الحضارات، وهي ورقة عمل قدمها الدكتور جعفر شيخ إدريس لندوة العالم وثقافة الكراهية حول التعصب والهيمنة وصراع الثقافات والذي شارك فيها مع الدكتور جعفر كل من الدكتور علي النملة والدكتور محمد الجوز ضمن ندوات المهرجان الثاني والعشرين للمهرجان الوطني للتراث والثقافة بالحرس الوطني بالمملكة العربية السعودية عام ١٤٢٩الموافق٢٠٠٨م .
٣١. الانعكاسات الثقافية على المشرق العربي بعد أحداث سبتمبر وما تلاها ، وهي ورقة مقدمة لندوة مستقبل المشرق العربي بعد أحداث ١١ سبتمبر وما تلاها بعنوان الانعكاسات الثقافية على المشرق العربي بعد أحداث ١١ سبتمبر وما تلاها ، وشارك مع الدكتور جعفر الدكتور سامي الدلال والتي عقدت في الدوحة (قطر) من ٢٠- ٢٢ يناير ٢٠٠٣م.

٣٢. أزمة الحرية والتخلف السياسي في العالم الإسلامي (محاضرة ألقاها الدكتور ضمن محاضرات رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا).

٣٣. الأصولية والعلمانية والديمقراطية (وجهة نظر إسلامية). محاضرة ألقاها الدكتور ضمن محاضرات رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

٣٤. الحضارة المعاصرة في الميزان. (محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في كلية الدعوة والإعلام بالرياض بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ضمن برنامج الطلبة المبتعثين للدراسة في خارج المملكة)

٣٥. الغزو الفكري، وهو لقاء مفتوح مع الدكتور جعفر ضمن فعاليات مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا .

٣٦. صراع الحضارات ومستقبل الدعوة الإسلامية. قُدم هذا البحث لمؤتمر عقدته مجلة البيان بقاعة الصداقة بالخرطوم ١٧ رجب ١٤٢٣ هـ الموافق ٢٤سبتمبر سنة.

٣٧. مزالق الإيمان بالديمقراطية. محاضرة القاها الدكتور جعفر في الخرطوم في السودان.

٣٨. ما فرص نجاح الإمبريالية الجديدة؟ مؤتمر الإسلام والغرب في عالم متغير، الخرطوم وزارة الإرشاد والأوقاف ٢٠٠٣.

٣٩. علاقة الغرب الاستعمارية بالعالم. مؤتمر العلاقات الدولية بين الإسلام والحضارة المعاصرة. رابطة العالم الاسلامي مكة المكرمة ٢٠٠٣.

٤٠. إسلامية العلوم وموضوعيتها، مجلة المسلم المعاصر السنة الثالثة عشر العدد الخمسون ربيع الثاني، جمادى الأولى ، جمادى الثانية ١٤٠٨هـ ، الموافق ديسمبر، يناير، فبراير ١٩٨٧م.

٤١. علوم الدين والعلوم التجريبية، محاضرة ألقاها الدكتور في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٤٢. مناهج العلوم الإنسانية ومشكلاتها ، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في ١٤٠٧/٧/٢٥هـ، الموافق ١٩٨٧/٣/٢٥م .

٤٣. الحجج العقلية، محاضرة ألقاها الدكتور في البوسنة والهرسك.

٤٤. المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي (محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في روسيا).

٤٥. علاقة العقل بالشرع، برنامج في قناة الرسالة بعنوان: آية وقضية.

٤٦. منهج التفكير الإسلامي، محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه.

٤٧. وحدة الموضوعات العامة، من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه.

٤٨. قضايا في فلسفة العلوم بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي، محاضرة في الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

٥) البحوث والدراسات والندوات وقد بلغت اثنين وعشرين ما بين كتب مطبوعة أو بحوث ودراسات[1].

---

(١) وهي كالآتي:

١. الإسلام دين سلام وليس استسلام، وهذه الدراسة هي بحث شارك به الدكتور جعفر شيخ إدريس في مشروع كتاب: السعوديون والإرهاب (رؤى عالمية)، وأشرف على إخراجه الدكتور محمد البشر، وأصدرته غيناء للنشر عام ١٤٢٦ الموافق ٢٠٠٥م .

٢. الإسلام والإرهاب، (ورقة قدمت لمؤتمر رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة) .

٣. البرامج الدينية الموجهة لمن لا يتحدثون العربية من تلفزات دول الخليج، بحث قدمه الدكتور جعفر شيخ إدريس للندوة التي عقدت في كلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عن البرامج الدينية الموجهة لمن لا يتحدثون العربية ٢٩رجب -٣شعبان ١٤٠٧، الموافق ٢٩مارس- ٣١مارس ١٩٨٧م .

٤. الردة وحقوق الإنسان، بحث قدمه الشيخ لمشروع مفاهيم في الحريات الدينية رؤية شرعية، الذي نظمته هيئة حقوق الإنسان بالمملكة العربية السعودية في ٨/ ٣/ ١٤٣١هـ، الموافق ٢٢/٢/ ٢٠١٠م.

٥. في سبيل استراتيجية أهدى وأجدى للحركة الإسلامية، ورقة قدمها الدكتور جعفر شيخ إدريس في الندوة التي نظمتها الندوة العالمية للشباب الإسلامي في الرياض في ٨/١٤ ١٤١٢هـ، الموافق ١٩٩٢/٢/١٧م.

٦. في منهج العمل الإسلامي، بحث نشر في مجلة المسلم المعاصر العدد الثالث عشر محرم -صفر- ربيع الأول ١٣٩٨هـ يناير - فبراير - مارس ١٩٧٨م.

٧. قضية المنهج عند سيد قطب، وهذا البحث قدمه الدكتور جعفر شيخ إدريس إلى ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر التي نظمها مكتب التربية العربي لدول الخليج، والتي عقدت في البحرين ٣-٦جمادى الثاني ١٤٠٥هـ، الموافق ٢٢-٢٥ فبراير ١٩٨٥م.

٨. قواعد أصولية واقتراحات عملية للتعاون بين العاملين للإسلام، ورقة مقدمة من الدكتور جعفر شيخ إدريس لمؤتمر العمل الإسلامي بين الاتفاق والافتراق في قاعة الصداقة في الخرطوم، السودان في الفترة ٢٣- ٢٦جمادى الأولى ١٤٢٥هـ، الموافق ١٠-١٢يوليو٢٠٠٤م ونشرتها جامعة الخرطوم .

٩. مفهوم الثقافة الإسلامية. هذا البحث من منشورات رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا في ٢٧ محرم ١٤٠٩هـ.

١٠. منهج التحول للإسلام. بحث قدمه الدكتور جعفر شيخ إدريس في المؤتمر السنوي الثالث عشر لاتحاد الطلبة المسلمين الذي عقد في جامعة توليدو بولاية أوهايو بالولايات المتحدة الأمريكية في أواخر شهر أغسطس ١٩٧٥م ونشرته مجلة المسلم المعاصر ١٩٧٩م.

١١. البخاري غير معصوم، لكن كل ما في كتابه صحيح. دراسة نشرت في مجلة الدعوة السعودية بتاريخ ١/١/٤ ١٤١١هـ. في هذه الدراسة رد الشيخ على من زعم أن في البخاري أحاديث غير صحيحة، وأنه لا يلزم من كون البخاري غير معصوم أن توجد في كتابه الذي بين أيدينا أحاديث غير صحيحة مخالفة لكتاب الله أو صريح العقل أو للحقائق المحسوسة.

١٢. منهج مونتغمري واط في دراسة نبوة محمد ﷺ. وهي دراسة قدمها الدكتور جعفر شيخ إدريس ضمن بحوث عن مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية التي تولتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربي لدول الخليج بمناسبة احتفائهما بحلول القرن الخامس عشر الهجري، ونشرها مكتب التربية لدول الخليج ١٤٠٥هـ الموافق ١٩٨٥م.

١٣. صراع الحضارات بين عولمة غربية وبعث إسلامي، وهذا الكتاب قام بإصداره مركز البيان، وهو عبارة عن مجموع مقالات في مجلة البيان وموضوعات أخرى سبق أن نشر بعضها في كتب وبعضها في مجلات عربية وإسلامية.

١٤- صراع الحضارات ومستقبل الدعوة الإسلامية. وهو بحث قدم لمؤتمر عقد في قاعة الصداقة بالخرطوم في ١٧رجب ١٤٢٣هـ الموافق ٢٤سبتمبر ٢٠٠٢م.

١٥. نقد الفكر الغربي بمنهج علمي، وهو بحث نشر في التقرير الاستراتيجي للبيان ١٤٣١هـ الموافق ٢٠١٠م.

١٦. عناصر الشرك والاستكبار والفحش في القيم الغربية، وهي ورقة كتبت لمؤتمر تعظيم حرمات الإسلام الذي عقد في الكويت من ٢٢-٢٤ يناير ٢٠٠٧م.

١٧. الدعوة الإسلامية والغزو الفكري، وهو بحث قدم في المؤتمر العالمي للدعوة الإسلامية الذي عقد في الخرطوم ٢٢-٢٦جمادى الأولى عام ١٤٠١هـ الموافق ٢٨مارس -١ أبريل ١٩٨١م بمناسبة القرن الخامس الهجري، وقد نشر قبل ذلك في مجلة هذه سبيلي العدد الخامس ١٤٠٣/١٩٨٣م التي تصدر في المعهد العالي للدعوة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ثم طبعته رابطة الشباب المسلم العربي (اللجنة الثقافية) سلسلة البحوث والدراسات عام ١٩٨٧م.

١٨. الأسس الفلسفية للمذهب المادي. وهذه الدراسة بحث كتبه الدكتور جعفر شيخ إدريس ونشر في مجلة المسلم المعاصر العدد الثامن شوال / ذو القعدة ١٣٩٦هـ الموافق أكتوبر / نوفمبر ١٩٧٦م.

١٩. الإسلام وحقوق الإنسان: مناقشة لأفكار غربية. الندوة العالمية لحقوق الإنسان في الإسلام، روما، إيطاليا ١٩ ذو القعدة ١٤٢٠هـ الموافق ٢٥ فبراير ٢٠٠٠م.

٢٠. كتاب: بناء الدولة لفوكوياما عرض كتاب: بناء الدولة: الحكم والنظام العالمي في القرن الواحد والعشرين، تأليف: فرانسيس فوكوياما تلخيص: أد. جعفر شيخ إدريس ١٠نوفمبر٢٠١٣م.

٢١. التصور الإسلامي للإنسان أساس لفلسفة الإسلام التربوية. بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٢ ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ - الموافق ٢ أبريل ١٩٧٧م ثم نُشر في مجلة المسلم المعاصر العدد ١٢.صفحة ٦١ - ٨٠.

٢٢. الفيزياء ووجود الخالق، هذا الكتاب ألفه الشيخ من أجل أن يبين أن القول بالاستغناء عن الخالق لم يكن له ما يسوغه حتى في فيزياء نيوتن، ثم فصل القول في مناقشة الحجج التي يتعلل بها بعض الفيزيائيين المعاصرين في إنكارهم لوجود الخالق رغم قولهم بنظرية الانفجار العظيم. وقد طبع هذا الكتاب الطبعة الأولى عام ١٤١٧هـ الموافق ١٩٧٩م وقد طبعه معهد العلوم الإسلامية والعربية في امريكا، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وأما الطبعة الثانية ففي عام١٤٢٢هـ الموافق ٢٠٠٢طبعه المنتدى الإسلامي.

واتماما للفائدة فقد قمت بتقسيم هذا المجموع إلى أقسام:

١- الثقافة الإسلامية والدعوة إلى الله.

٢- الإسلام والفكر الغربي.

٣- علوم الدين والعلوم الطبيعية.

٤- نظرية المعرفة ومناهج التفكير.

٥-موضوعات متنوعة.

وكل قسم يحوي مقالات ومحاضرات وكتبا وبحوثا ودراسات. وقد يجد القارئ الكريم أحيانا تشابها وتداخلا بين هذه الموضوعات في محتوى بعض المقالات والمحاضرات والدراسات ولكنه قليل، علماً أنه قد تم حذف بعض الحوارات، والمقالات والمحاضرات والبحوث والدراسات لعدم ملاءمتها للنشر.

وختاما لا يسعني بعد شكر الله تعالى إلا أن أشكر الأساتذة أبناء الشيخ: عبدالرحمن وعبدالمنعم ويوسف، فقد استفدت منهم في مراجعة وترتيب مواد الكتاب، وصياغة عنوانه، والإضافات على ترجمة الشيخ ومتابعة طباعة الكتاب وإخراجه.

أسأل الله أن يبارك في شيخنا وأن يجزيه على ما قدم للإسلام والمسلمين، وأن يديم عليه الصحة والعافية، وأن يطيل في عمره على طاعته سبحانه، إنه سميع مجيب وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وكتبه

د/ مبارك بن حمد الحامد الشريف

* * * * *

ترجمة
الدكتور جعفر شيخ ادريس

نسبه ومولده:

هو الدكتور جعفر شيخ إدريس محمد صالح بابكر عبد الرحمن آل بلل. ولد عام ١٩٣١م بمدينة بورسودان. ترجع أصولهم إلى شمال السودان من بلدة اسمها السقاي وهي تقابل مدينة كريمة من الضفة الأخرى لنهر النيل، وهي مناطق قبائل الشايقية إحدى أكبر القبائل العربية بالسودان، وإليهم ينتسب الشيخ جعفر. أما بورسودان فقد كانت مدينة حديثة نسبياً خططها الإنجليز، وأصبحت الميناء الرئيس للسودان خلفاً للميناء التاريخي بمدينة سواكن التي لا تبعد كثيراً عن مدينة بورسودان، وكان سكان بورسودان خليطاً بين قبائل الهدندوة ذوي الأصول النوبية وبين مهاجرين من داخل السودان وخارجه، فقد كانت تقطن بالمدينة جالية كبيرة من اليمن وحضرموت، وجالية هندية وغيرهم من التجار، وكان والده رحمه الله من المهاجرين للعمل في تلك المدينة.

وفي الفترة التي ولد فيها الشيخ كان السودان تحت الحكم البريطاني الذي استمر إلى الأول من يناير ١٩٥٦م.

ففي تلك المدينة على ضفاف البحر الأحمر نشأ الشيخ جعفر وبقي فيها إلى أن سافر للدراسة الثانوية في مدرسة حنتوب بمنطقة الجزيرة وسط السودان.

ولعلنا نترك الشيخ يحدثنا عن نفسه وعن نشأته، وتعليمه والأحداث التي مرت عليه في حياته وجهوده في العمل الإسلامي والدعوة إلى الله ورحلاته وصلاته وغير ذلك من الجوانب المهمة في حياة الشيخ أمد الله في عمره. وقد استندت في هذه الترجمة إلى بعض الحوارات التي أجريت معه في مناسبات مختلفة، أو ممن ذكر ترجمته في بعض المناسبات، أو مما سمعته منه يحدث به عن نفسه.

نشأته وأثر الوالدين عليه:

يقول الشيخ حفظه الله: أنا من عائلة سودانية كانت تنتمي كمعظم السودانيين آنذاك إلى طريقة صوفية، وكانت الطريقة التي ينتمي إليها الوالدان هي الختمية، وكما هو معلوم أن الطرق الصوفية، ولا سيما المنتشرة في بلادنا الآن، مبتلاة بكثير

من المسائل الشركية، لكن ربنا سبحانه أنعم عليّ بوالدين أثرا في حياتي الدينية والخلقية، فالوالدة لم تكن امرأة عالمة ولكنها كانت شديدة التدين وحازمة جداً، وقد أثرت علي تأثيرا كبيراً في موضوع الصلاة أكثر من الوالد، فقد كانت حازمة جداً في هذا الموضوع، وأذكر أنها كانت توقظنا أحياناً لتسألنا هل صلينا العشاء؟ وأنعم الله سبحانه علينا بالوالد وكان رجلا متسامحاً معنا، فكان يعاملنا معاملة الكبار آنذاك، ويستشيرنا في بعض أموره، وهذا لم يكن شائعاً في السودان، ولكنهما كانا ينتميان إلى هذه الطائفة، ومما أثر في حياتي تأثيرا كبيرا ما زلت أحمد الله عليه هو أن أحد أقاربنا كان من أول من نشر الدعوة السلفية في السودان، وكان من جماعة أنصار السنة المحمدية في بلدنا بورسودان، مما أحدث مشكلة بيني وبين الوالدين لاسيما أمي، حيث كانت تظن أن هذا نوع من الانحراف فقاطعتني وصارت لا تتكلم معي، لكن ساعدني أن هؤلاء الذين تأثرت بهم كانوا من الأقارب وكان منهم رجل تحترمه الوالدة احتراماً كبيراً، وهو رجل بسيط يعمل خياطاً لكنه كان رجلاً عالما اسمه سيد أحمد حاج عثمان، فجاء إلى أمي عند حصول هذه المقاطعة وأصلح بيننا، وبعد مدة تغير الوالد- وكان رجلاً يحفظ القرآن– حيث كنت آتي إليه وأقرأ عليه بعض الكتب و كانت كتباً صغيرة مؤلفة في مصر، من ضمنها كتاب غاب عني اسمه الآن كان له أثر عظيم آنذاك، وما زلت أقرأ على الوالد حتى اقتنع، وتغيرت بعده الوالدة أيضا، وأعد ذلك من نعم الله علي أن كنت السبب في إنقاذهما من الخرافات والشركيّات ولله الحمد سبحانه.

مما سبق هل يمكن أن يقال إن الدكتور جعفر كان صوفيا ثم ترك التصوف؟

صاحب كتاب (هؤلاء تركوا التصوف) ذكر أن الدكتور جعفر شيخ إدريس كان صوفيا ثم تحول إلى جماعة أنصار السنة، والذي يسمع مثل هذا الكلام يتصور أن الشيخ كان صوفيا إلى أن بلغ الأربعين أو الخمسين ثم تحول من الصوفية إلى أنصار السنة، ولكن صاحب الكتاب قال إن سبب هدايته أن أحد أقاربه أثر عليه وهو في سن الثانية عشرة حيث ترك انتماءه للطريقة الختمية، و لما سألت الشيخ حفظه الله عن ذلك قال لي: ما كنت ختميا أنا أيامها كنت صغيرا.

حادث في الصغر:

يقول الشيخ حفظه الله: كان الحادث الذي تعرضت له في الصغر أثر في تأثيراً ليس بالضرورة فكرياً، ولكنّي لمست نتائجه فيما بعد، إذ أصبت آنذاك، وكنت ألعب على صناديق كبيرة كانت لبعض السيارات، فقفزت من فوق إحداها على مسمار يبدو أنّه أحدث كسراً في العظم بالداخل، وتألمت لذلك ألماً شديداً وتعقّدت الأمور- وكنت حينئذ في السادسة من عمري - واستمر المرض إلى السنة التاسعة تقريباً، وكان ذلك في زمن الإنجليز، وعندما عرضت على الطبيب قرر أن تُقطع رجلي، فوافق الوالد لكن الوالدة رفضت وبحزم شديد، ثم ذهبت تستشير السيد علي الميرغني- وكانت ما تزال في الطائفة حينئذ - فأجابها قائلاً: نعم اسمعوا كلام الطبيب.

وما كان يظن أحد أن أمي ستخالف رئيس الطائفة، لكنها فعلت ورفضت قوله ذاك فقال لها الطبيب: إما أن تقطع رجله أو يموت. فقالت: خلّيه يموت!!! .يموت برجلين ولا يعيش بواحدة، فكان من نتائج ذلك أن تأخرت في الالتحاق بالدراسة، لكن هذا التأخير أفادني جداً، إذ جئت إلى الدراسة بعد ذلك بنهم شديد، فأنا ما كنت بدأت أصلاً، وعندما بدأت الدراسة كان زملائي في السنة الرابعة، وأنا في السنة الأولى، وكان لي أخ ضمنهم، وكنا قد ذهبنا سويّة إلى المدرسة فقُبل هو ولم أُقبل لصغر سني، فكان أخي هذا يمازحني بعد ذلك فيقول: احمد الله على هذا الحادث فلولاه ما دخلت الجامعة.

وقد كانت المنافسة في الدخول إلى الثانوية كبيرة جداً آنذاك .إذ لم يكن وقتئذ غير ثلاث مدارس ثانوية فقط، فكان الدخول إلى إحداها في غاية الصعوبة، لكني أتيت إلى المدرسة في مرحلة نضج واجتهاد شديد، فكنت أذهب إلى الكتّاب باختياري إذ يوقظني الوالد لصلاة الفجر وأبقى في الكتّاب إلى السادسة، ثم أعود فأستعد للذهاب إلى المدرسة وعند رجوعي منها أذهب إلى الكتّاب مرة أخرى وبعد ذلك أنال شيئاً من الراحة، أعود بعدها إلى الكتّاب عند المغرب.

حلقات المساجد:

يقول الشيخ حفظه الله: بدأت بعد ذلك أحضر دروسا كان يلقيها رجل سني فكنت أذهب إليها، ومن الرسائل التي بدأت أقرأها مبكراً وأمارس حفظ بعض

الأحاديث منها رسالة الأربعين النووية، ثم لما ذهبنا إلى المدرسة المتوسطة كنت أحضر مع الوالد دروساً في السنة كان يلقيه رجل عالم بالسنة اسمه أبو طاهر السواكني، تخرج بالأزهر وكان مشهوراً في بلدنا، يدرّس كتب السنة فقط، وفي هذه الفترة بدأت أقرأ بعض الرسائل الصغيرة لشيخ الإسلام ابن تيمية ربّما يكون منها العبودية، وأظن أن معظمها فصول كانت تستخرج من بعض مؤلفات شيخ الإسلام يسمونها بأسماء لا أذكرها الآن، وكانت معظم هذه الكتب تأتي من مصر.

دراسة الشيخ للمذهب المالكي:

يقول الشيخ حفظه الله : كان الناس لا يدرسون إلا عند الشيوخ آنذاك لكن كان معظم ما يدرسون هو كتب المذهب المالكي، وكان هذا ما بدأت به أنا فدرست بعض متون المذهب المالكي مثل العزية والعشماوية، وكنت معجبا بشخصيتين (أبو الوفا محمد درويش) الذي كتب (صيحة الحق) وكنت أوزعه وأعطيه لبعض إخواننا في المدرسة حتى بعد أن انضممت إلى الإخوان المسلمين، ورجل آخر اسمه (محمد صادق عرنوس)، وكان من الذين يدرّسوننا إخواننا الموريتانيون من الشناقطة، إذ كانوا يأتون إلى الحج عبر بورسودان، فكانوا يمكثون مدة في السودان، وكان وضعه آنذاك أحسن مما هوعليه اليوم، فكنت أدرس على بعضهم، ومن الناس الذين حبّبوا إليّ السنة آنذاك – وكان ذلك بعد المرحلة الثانوية - رجل علامة فاضل من آل شنقيط، وكان يحفظ القرآن الكريم حفظاً ما رأيت مثله، لقد كان معجماً مفهرسا لألفاظ القرآن - إذا صح هذا التعبير - فإذا سألته عن أي كلمة في القرآن أتى لك بكل الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة، وأظنه كان مالكيا متعصّباً ثم تحول فكان عنده رد فعل عنيف على كتب الفقه، إذ كان يقول لنا: إن الأربعين النووية خير من كتب الفقه كلها. فكنت أحضر عنده ...ثم ذهب إلى السعودية وصار هنالك من كبار العلماء وإن لم يشتهر كثيراً ربما لأنه ليس من أهل البلد، فكان مع الشيخ ابن باز في إدارة البحوث والإفتاء وكان يحقق بعض الكتب هذا العالم الفاضل كان الشيخ إسماعيل الأنصاري رحمه الله.

شيوخه:

مما سبق يمكن ان نقول إن الشيوخ الذين استفاد منهم الدكتور جعفر ودرس عندهم في مرحلة صغره وشبابه:

مصطفي ناجي.

سيد أحمد حاج عثمان.

أبو طاهر السواكني.

علماء من الشناقطة من موريتانيا.

إسماعيل الأنصاري.

سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز لما قدم الدكتور جعفر إلى السعودية وسيأتي تفصيل ذلك.

مرحلة الدراسة الجامعية والتعليم العالي:

التحق الشيخ بكلية الآداب بجامعة الخرطوم وحصل على درجة البكالوريوس مع مرتبة الشرف من جامعة الخرطوم في تخصص الفلسفة، وتخصص ثانوي اقتصاد (١٩٦١م). ثم عُين معيدا بالجامعة وسجل لدراسة الماجستير، لكن الجامعة ابتعثته في العام التالي للدراسة بجامعة لندن.

بعد سنتين سقط نظام عبود فترك الدراسة واستقال من الجامعة ليشارك في العمل السياسي الإسلامي، وكان مرشح جبهة الميثاق بمدينة بورتسودان، ثم عاد للجامعة مرة أخرى عام ١٩٦٧م، وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة الخرطوم في تخصص فلسفة العلوم عام ١٩٧٠م، وكانت الدراسة الفعليَّة في جامعة لندن وذلك حسب الاتفاقية بين الجامعتين في ذلك الوقت.

الدكتور جعفر ومحمود محمد طه:

وكان مما أثر في تحصيل الشيخ وثقافته بوقت مبكر تصديه للأفكار الضالة والآراء المنحرفة لبعض السودانيين في بلده أمثال محمود محمد طه، فقد رد عليه في مقالات متعددة ومناسبات مختلفة، الأمر الذي جعل الدكتور جعفر يبحث ويطلع ويراجع كثيرا من القضايا والمسائل التي يثيرها أمثال هؤلاء، حتى أن محمود محمد طه ضاق بالطالب الجامعي ذرعا فطلب مناظرته في الجامعة- كما حدثني هو بذلك- فوافق الدكتور جعفر ولكن محمود محمد طه انسحب في الأخير وقال يناظره نظيره، يعني من هو في مستواه، وحقيقة الأمر هو هروب وانسحاب من محمود محمد طه من مواجهة ومناظرة الشيخ .

مع الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله:

يقول الشيخ حفظه الله: المرحلة الأخرى التي تركت أثراً في حياتي هي التي كانت بعد أن سافرت إلى السعودية، وهناك التقيت بالشيخ العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله، وكانت هذه من نعم الله عليَّ، فقد كان الشيخ رجلاً عالماً زاهداً تقياً وأعده في مقدمة علماء العصر الجهابذة، والحق أقول إني لم أر مثل الشيخ لا بين المسلمين ولا غيرهم، ، فالشيخ عبد العزيز بن باز أعتبره شيخي، ما أظن انني تتلمذت على شيخ مثل ما تتلمذت عليه، وإن كان ذلك بعد الخمسين ولا أعرف على وجه الأرض في هذا الزمان رجلا أعلم منه ولا لقيت في كل من عرفت من البشر من العلماء والقادة المفكرين من المسلمين وغير المسلمين رجلا في ورعه وتواضعه، ومن العيوب المنتشرة جدا بين العلماء سواء كانوا من علماء الدين أو علماء الدنيا أنهم لا يعترفون بأقرانهم ويقدحون فيهم وينتقدونهم، ما رأيت رجلا عافاه الله من هذا مثل الشيخ عبدالعزيز بن باز، لا يذكر رجلا من العلماء المعاصرين إلا ويمدحه ويلقبه بأحسن الألقاب ثم إن خالفه يقول لكن أخطأ في الشيء الفلاني وكذا وكذا ثم يعتذر له أن هذه المسائل يخطئ فيها كبار العلماء قبله، وهو رجل كريم وما أعرف على وجه الأرض رجل يعرف من أحوال المسلمين في العالم وجمعياتهم وجماعاتهم وقادتهم ويهتم بهم كأنهم من أبناء بلده مثل الشيخ عبدالعزيز، لذلك حزنت حزنا شديداً عندما كنت أسمع أن بعض الناس يتكلمون عنه ويصورنه كأنه مجرد رجل من (تنابلة) السلطان أو أنه يضغط عليه ليقول كلاما لا يؤمن به، هذا كلام إنسان لا يعرفه، الرجل لا يقول ما لا يؤمن به أبدا، ولا أحد يستطيع أن يضغط عليه. أما أن يخطئ، فهو بشر وكل العلماء يخطئون. ربنا سبحانه وتعالى ما كتب العصمة إلا للرسول ﷺ.

وقد تميز الشيخ ابن باز بعدة خصائص أوجزها كالآتي:

أولاً: التقوى: لقد عرفت علماء عدة من المسلمين عرباً وغير عرب، فكان مما يؤسف له أن تجد الكثير منهم ينتقد رموز المعاصرين إلى درجة تصل به إلى احتقارهم، إلا الشيخ رحمه الله فقد كان ينقد غيره بأدب قل نظيره، لا يحتقر أحداً ولا تجري على لسانه تلك الكلمات الشنيعة التي تسمعها اليوم هنا وهناك في حق الدعاة والعلماء، وكان رحمه الله يمدح الكثير من الدعاة أمثال المودودي والبنّا،

ويجل غيره من العلماء فكان لا يذكر الشيخ الألباني إلا ويصفه بالعلامة، ويثني على زملائنا الموجودين حوله، وأذكر أنه سُئل مرة عن الشيخ المودودي وأنه يؤوّل، فأجاب قائلاً: إنه – أي المودودي –أخطأ، لكن هذه المسألة دقيقة، وإن الإنسان إذا اشتهر فضله ينتَقد لكن لا يشنَّع عليه.

ثانيا: الكرم: فقد كان رحمه الله حاتمياً، مشهوراً بالكرم، ولكم تمنيت أن إخواننا الذين أكرمهم الله بالسلفية كانوا مثله، فقد كان عنده من المزايا التي كنا نجدها لدى شيوخ التصوف، فهؤلاء عندهم رقة وعندهم كرم، وكانت كلاهما في الشيخ، فكلّما تناولت عنده الغداء مثلاً أجد لديه جمعاً كبيراً لا يقل عن خمسة عشر شخصاً، من الذين يأتون لسؤاله أو طلب المساعدة منه أو زيارته.

ثالثاً: لقد منَّ الله على الشيخ بذاكرة علمية عجيبة جداً، فلم يكن يتميز بقوة الحفظ فقط، فالحفظ قد يتقنه الكثير، لكنه تميز بقوة الاستحضار وسرعته، وقد تمنيت أني عرفت الشيخ مبكراً واستفدت من نصائحه في طريقة الدراسة، و كنت أحضر دروسه في الجامع الكبير وكانت كتباً كثيرة، أتذكر عندما بدأت الحضور، كانوا يقرأون في فضائل الصحابة من صحيح البخاري، ثم بعد ذلك يقرأ المبتدئون عنده كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وقد كان من الغريب أن الشيخ في تدريس المبتدئين يفيض في الشرح ويفصّل، بينما كان في درس الكتب الواسعة لا يعلق إلا الشيء اليسير، فاستمعنا إلى كتب كثيرة، وبعض دروس تفسير القرآن الكريم وكان يفضّل تفسير ابن كثير ويحبّه جداً. كان حضوري للدروس بعد عام ١٩٧٥م، حيث كنت أحرص على الاستفادة منه، وقد استفدنا منه رحمه الله سمتاً وعلماً، وكان دائم الذكر لله في كل أحيانه، وما رأيت إنسانا مثله يعتقد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبادة، ويلمس حاجة العصر لها وكان ذلك إلى آخر حياته رحمه الله.

كيفية قراءة الدكتور جعفر:

يقول الشيخ حفظه الله: أنا بطيء في القراءة، واذكر أني عندما كنت في بريطانيا حضرت دورة في زيادة سرعة القراءة فتعلمت شيئاً من الناحية النظرية، لكن بالرغم من ذلك كنت من البطيئين في القراءة في الفصل، لكن الذي آنسني نوعاً ما أن

المدرس أخبرنا أن هناك مهارات أخرى غير سرعة القراءة، فبدأ يسألنا فكنت الأول، فضحك المدرس قائلاً: لأنك بطيء القراءة طورت المهارات الأخرى وظني أن سرعة القراءة متعلقة بسرعة الكلام وأنا لست سريعاً في أي منهما، ولقد استفدت من الدروس التي حضرتها وقد أقنعني المدرس أن البطء ليس من العقل ولكنه من العينين فالذي يدرب على القراءة كلمة كلمة منذ الصغر، لو أنه وسع المجال تدريجياً لصار يقرأ ربما يقرأ سطراً كاملاً كما يفعل الكثير من سريعي القراءة، وعلى العموم بالرغم من كوني بطيء القراءة لكني أقرا كثيراً، وممّا استفدته من الشيخ ابن باز في هذا المجال– ولو كان متأخراً - أنه رحمه الله بذاكرته القوية وحرصه على فهم كل سطر يسمعه يركز اهتمامه على بعض الكتب ويحرص على سماعها عدة مرات فأنا سمعت أنه قرأ صحيح مسلم أكثر من ستين مرة، ولذلك كانت الأحاديث تسيل لديه كالماء، وقرأ البداية والنهاية سبع مرات، فكان دائماً يتكلم عن المذاكرة قائلاً: إن العلم يضيع بدون مذاكرة، ولم أكن أقرأ الكتاب أكثر من مرة ربما لبطئي في القراءة - إلا نادراً، وأنا في قراءتي واسع الاهتمامات، لا أقتصر على مجال واحد، فأقرأ في الأدب الإنجليزي بمجالاته المتعددة، وأقرأ الكتب الفكرية والفلسفية والسياسية، وعندي اهتمام بالكتب العلمية خصوصاً التي تكتب لعامة المثقفين، وأستفيد منها وقد تحدثت عنها في كتابي عن وجود الخالق، حتى الكتب التي قد تشرح جانباً معيناً في المجال العلمي، كما أحب قراءة كتب الفلك فقرأت كتباً كتبها فيزيائيون عما يسمى بالانفجار العظيمت، وخصوصاً الكتب التي تثير قضايا فلسفية مع كونها علمية، وللأسف أننا تنقصنا أمثال هذه الكتب في اللغة العربية مع أهمية هذا الموضوع، وقد قرأت كتاباً من أحسن الكتب عن الداروينية اسمه: "Darwin's Black Box" (صندوق دارون الأسود) كتبه رجل علامة كاثوليكي، استفدت من هذا كثيراً جداً. من الكتب التي قرأتها أكثر من مرة كتاب "معالم في الطريق" لأنني درّسته وكنت من أوائل من لفت الأنظار إلى هذا الكتاب، ثم لما رأيت بعض آثاره السلبية بين الناس عملت عنه دروساً في السودان في الجامع كان يحضرها عشرات الشباب، وكنت أنتقد بعض المواضع في الكتاب، فكان هذا شيئاً خطيراً في نظر البعض، مع أني أقول لهم إني أُقدر سيد قطب وأقر له

بالفضل لكن لا مانع من نقده في مثل هذه الأمور كما أكرر قراءة الكتب الأساسية أكثر من مرة، و أحب الكتب التي فيها الجوانب الفكرية، لذلك فالكتب التي تمتلئ بالإحصاءات والأسماء لا أميل إليها، ولذلك طالما قلت للناس إن من رحمة الله بنا أن القرآن ليس كذلك، وبالرغم من ضعف ذاكرتي لكني في ذكري الحجج جيد فلا أنساها، سواءً كانت هذه إسلامية أو غير ذلك، وهناك كتاب قليل من الناس الذين يقرأونه لكني استمتعت به جدا وقرأته كاملاً، وهو كتاب "درء تعارض العقل والنقل" وأظن أن الجزء الأول من أصعب ما قرأت وبقية الكتاب سهل، وقد ركزت اهتمامي على كتب ابن تيميه التي لها علاقة بأصول الدين، كـ"درء تعارض العقل والنقل" و"منهاج السنة"، ولم أهتم كثيراً بكتبه الفقهية.

استفادة الشيخ من إقامته في بلاد الغرب وما أضافه خلال مكوثه هناك إلى رصيده الدعوي والمعرفي:

يقول الشيخ حفظه الله : ذهبت إلى الغرب في عام ١٩٦٢م لإكمال الدراسات العليا بعد انتهائي من الدراسة في جامعة الخرطوم، وكنت في بعثة رسمية لنيل الدكتوراه، لكن نحن صلتنا بالغرب لم تبدأ منذ ذهابنا إليه، بل بدأت في الثانوية والجامعة حيث كان التدريس باللغة الإنجليزية، وكانت جامعة الخرطوم تبدأ الدراسة بها في السنة الأولى بأربع مواد ثم الثانية بثلاث ثم الثالثة باثنتين ثم الرابعة بمادة واحدة، يسمونها الدراسة الخاصة، فتعرضنا للفكر الغربي في آخر سنتين حيث درسنا الاقتصاد والفلسفة في الثالثة ثم الفلسفة في الرابعة، وكل هذا فكر غربي، وأرى أنه لا بد أنه قد أثر في فكرنا سلباً أو إيجابا، ومن الأمور التي تحزنني أن معالجة القضايا والأفكار في الكتب الغربية أشمل وأعمق من كتب عالمنا العربي بكثير، فتجد البعض يكتب عن الماركسية كلاماً لو رآه ماركس لضحك، إن الكثير من نقد الماركسية عرفناه من كتب الغربيين، وهذه من الأشياء التي استفدتها من الشيخ ابن تيمية إذ يقول: أنه يستفاد من نقد أهل الأهواء لبعضهم البعض لأن كلا منهم يذكر أخطاء الآخر. لكني أقول إن هذه الكتب هي من وجهة نظر الكاتب، فما كل ما يذكره الرأسمالي عن الشيوعية صحيح، وما كل ما يقوله الشيوعي عن الرأسمالية صحيح أيضاً، فمثلاً: يقول الغربي إنّ الملكية الشخصية شيء فطري يعني إذا أنت لم

تملك شيئاً تعد منحرفاً فطرياً!! وهذا ليس في الإسلام أبداً، وقد راجعت كتاب الله الكريم فلم أجده يمدح الشخص لأنه يملك، بل يمدح الإنفاق مثل قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة: ١-٣]، وبعض نقد الشيوعيين للرأسمالية صحيح جداً، فمثلاً يقولون: نعم هناك انتخابات لكنها شكلية لأن الفرصة فيها للأغنياء أو لمن يسنده الأغنياء، ولا ينجح الفرد غير الغني في ذاته أو غير المسنود من الأغنياء، وهذا عيب كبير في مسألة الديموقراطية لا بد أن يعدَّل إذا أراد الناس الاستفادة من تجربة الغرب. ثم الكتب هذه التي تسمى العلوم العامة، كان أحسن من يهتم بها الاتحاد السوفيتي واستفدنا من كتبهم التي كتبوها في هذا المجال، وهم يخلطونها أحياناً بفلسفتهم، وتوجد بالغرب بعض الكتب المهتمة بهذه الناحية لكنها ليست بمستوى تلك، كما أنني استفدت من إقامتي في الغرب حيث ترى من عيوب الغرب بالمعاينة ما لا يمكنك إدراكه عن طريق الكتب، فأنت هنا تتابع الأخبار والتحليلات فتكسب شيئاً جديداً، ومن أحسن الكتب التي تنقد الديموقراطية بشكل واسع وعميق ما كتبه الغربيون أنفسهم، ولأحد مشاهير الصحفيين وأظن اسمه "ليبمان" قول عجيب فهو يقول: "إن الديموقراطية تصل بالإنسان إلى الحكم، لكن لا تقول له ماذا يفعل بعد أن يصل" وهذا عيب كبير، لذلك قلت لأحد إخواننا إن هذا عكس ما يعتقده أهل السنة، فالديموقراطية يهمها طريقة الوصول إلى الحكم ولا تهتم بما بعد ذلك، أما أهل السنة فبعد الوصول إلى الحكم عندهم أهم من طريقة الوصول إليه، فجوزوا إمارة المتغلّب ما دام سيطبق الكتاب والسنة ويقيم الشريعة، وهناك كاتب روسي اسمه "سورجنستين" جاء إلى الغرب وإلى أمريكا وانتقد الرأسمالية، وكان من ضمن ما يقوله عن الديموقراطية أنه قال: إن الديموقراطية كانت مفيدة عندما كانت مرتبطة بالدين، فالديموقراطية تعطيك حرية القول والدين يرشدك إلى ما عليك فعله، لكن عندما ذهب الدين صارت الحرية هي حرية "فعل الشر"!! وقد قرأت قريباً في ملحق الكتب التي تنشرها الواشنطن بوست، عن صدور كتاب يتحدث فيه الكاتب عن هذه المشكلة التي تكلم عنها الشيوعيون قديماً لكن بأدلة حديثة، وبيّن عيوب الديموقراطية مضيفاً أن الثروة في هذه المجتمعات تتركز بأيدي جزء بسيط من

أفرادها وضرب مثلا "بيل غيتس" إذ قال أن ثروته تساوي ثروة بضع وأربعين بالمائة من المجتمع الأمريكي، فأمثال هذه العيوب في أنظمة هذه المجتمعات السياسية والاقتصادية وقفنا عليها من خلال المكوث هناك، أضف إلى ذلك المشكلة الخلقية التي يعانيها هذا المجتمع وهي جداً مخيفة، فانتشار المخدرات في المدارس والجامعات وغيرها من صنوف المجتمع الغربي وكذلك ذيوع الانحلال الجنسي وغيرها من المشاكل الخلقية، والتي قد لا يتنبه إليها الكثير من أفراد هذه المجتمعات، إلا عقلاء مثقفيهم، ومن الأشياء التي استفدتها أثناء إقامتي في الغرب هي قراءة البحوث الموثّقة الموضوعية المبنية على حقائق ملموسة، وقد لا توافق على النتائج التي توصل إليها هذا الكاتب أو ذاك وكثيرا ما أبني على الحقائق التي يذكرونها وأتوصل إلى نتائج مختلفة لما توصلوا هم إليه وعلى سبيل المثال أذكر أني قرأت كتاباً لإحدى رائدات الفكر النسائي في الغرب، حيث تذكر في إحدى فصول كتابها هذا أنّهن لا يقصدن من دعوى المساواة بين الرجل والمرأة أن تكون المرأة رجلاً!! ولكن يقصدن أن تعتز المرأة بأنوثتها، إذ أن ما يحدث الآن أن همّ المرأة الأوّل أن تكون مثل الرجل أو أن ترضي الرجال!! ثم ذكرت تفاصيل ما تصرفه المرأة من المال على مظهرها، وهنا قلت لو كانت المرأة هنا مستترة ما كانت في هذا الوضع المزرى، وهنا تظهر الحكمة من الحجاب فقد قالت إحدى الأمريكيات لأستاذها المسلم: أنها كانت تعمل في مجال تصميم الأزياء وأنهم كانوا لا يصممون إلا ما يرضي الرجال، وأنها تعتقد أن أكثر شيء يعطى المرأة حريتها هو الحجاب، إذ لا علاقة لها حينئذ بالرجال!!.

لذا يجب أن ننظر إلى الغرب كتجربة أعطانا الله إياها، ليرينا ماذا يحل بالمجتمعات التى تبتعد عن أوامر الله سبحانه وتعالى، لذلك ترى هنا بالإحصاءات والدراسات من مظاهر الفساد ما قد يغيب عنك ظاهراً من رؤية المجتمع ولصاحب كتاب"نهاية التاريخ" كتاب ذكر فيه من الإحصاءات ما يدل على مدى التدهور المخيف الذي تعانيه هذه المجتمعات .

الشيخ جعفر و الترابي:

يقول الشيخ جعفر حفظه الله: كنت والترابي في نفس المدرسة التي أدرس فيها وكنا نسكن في نفس الداخلية (سكن الطلاب) ، وكان الترابي أمامي في الدراسة سنتين، ولم يكن معنا في الجماعة آنذاك، وعندما كنت في السنة الأولى بالجامعة

سمعنا أنه انضم إلى الجماعة وفرحنا بذلك، ثم عرفته عن قرب وصحبته في الجامعة، لكني بدأت ألمس فيه عيوباً في الفكر والسلوك، والبعض يظن أن دافع نقدي له هو التنافس، ولكني لاحظت عليه ذلك وأنا مسؤول عن التنظيم ولم يكن هو آنذاك شيئاً يذكر، وانتقدته وقتها ولم تكن بيننا أي منافسة. ورغم تحفظاتي التي في قلبي عليه فقد تعاونت معه بعد أن صار مسؤولاً وكنت أسمع منه فلتات، فمثلاً في وقت مبكر جداً كان يكره أهل السنة، ويشمئز من ذكر البخاري وابن كثير وغيرهما، وليس عنده توقير للصحابة، وقد قلت لبعض إخواننا الذين إذا انتقد أحداً رماه بالاعتزال، قلت لهم لا تظلموا المعتزلة فهؤلاء كانوا عبّاداً ومخلصين، وكان ما يدعون إليه فكراً بالنسبة لهم، وكان دافعهم إليه حسناً وهو اعتقاد تنزيه الله سبحانه فكثير ممن يسمّى اليوم معتزلة لو رآهم المعتزلة لتبرّأوا منهم، أو يقول لك أشعري حتى الأشاعرة لم يكونوا كذلك، لذا أقول إن هؤلاء أقرب إلى ما يسمّى بالزنادقة أو الفلاسفة الذين لم يكونوا متدينين، ولا أقول عقلانيين فقد تتبعت آيات القرآن الكريم التي ورد فيها ذكر العقل فما وجدت الله سبحانه يذم فيها العقل بل يجعل الله العقل مع الإيمان وعدم العقل مع الكفر، وأهل الأهواء يختلفون فمنهم صاحب هوى في الاعتقاد ومنهم في السلوك، ومنهم من جمع بين الأمرين، وقد كانت هناك مجاراة لما يقوله الترابي من البعض، ونحن استطعنا إقناع البعض، لكن لم يكن نقدنا تيّاراً لأنهم أشاعوا أن هذه مسائل شخصية، وأنها من قبيل منافسة الأقران، والناس مهيؤون لقبول أمثال هذه الحجج البسيطة فهم يميلون إلى ما يعرفون، والمشكلة أن الرجل يتنكّر وأنا لا ألوم الناس لأني لا أميل إلى أن يسرع الناس إلى قبول كل اتهام يتهم به شخص من الناس خصوصاً إذا كان هذا الشخص ينكر، وقد كان الترابي رجلاً منافقاً يقول في جلساته الخاصة خلاف ما يعلنه للناس، ولا يزال حتى اليوم وما كان يقوله في جلساته آنذاك أقل بكثير مما يقوله الآن، وليس ذلك فقط فقد صار محبوباً مرغوباً لذلك صارت فيه صفات ما كانت لتظهر فيه قديماً معنا نحن زملاؤه فقد صار يحب القهر، دكتاتورياً متسلّطاً بل حتى لما ظهر لبعض الناس انحرافه لم يجاهروه بالنقد، وبعضهم يرى أنه لا يتكلم في ذلك حفاظاً على غيري من أن يكتب، ومن هؤلاء الشيخ سفر الحوالي وكان مهتماً بذلك في وقت مبكر جداً، وجمع أشياء في هذا الصدد، لكن لعل عذري أن الوقت آنذاك كان

وقت انتخابات وكان الترابي هو زعيم التيار الإسلامي ومنافسوه ليسوا من الإسلاميين، فخشيت أن يؤثر ذلك على الناس، وأظن أن السبب في هذا هو الفكر التنظيمي إذ يرى الكتابة في هذا تشق الصف مع أن بيان الحق أهم من ذلك بالطّبع.

فراسة الشيخ جعفر (زرقاء اليمامة):

وصف أحد السودانيين الدكتور جعفر بأنه مثل زرقاء اليمامة في بعد نظره وذلك بمناسبة الأخطاء التي وقع فيها الترابي ولم يعرفها الكثير من الناس إلا في وقت متأخر، بينما الدكتور جعفر كان مدركاً لهذه الأخطاء والانحرافات في وقت مبكر، وكان يرد على الترابي في ذلك الوقت وينبه الناس عن هذه الأخطاء والانحرافات مما جعل الأخ السوداني يصف الدكتور جعفر بزرقاء اليمامة، ولكن الدكتور جعفر قال له: أنا لست مثل زرقاء اليمامة ولكن كثيرا منكم مثل العميان، وفي الحقيقة أن الدكتور حفظه الله له نظرات بعيدة وثاقبة وتوقعات لأمور وقعت بعد كلامه عنها بزمن طويل فهو كما قال عن نفسه: «وقد حدث كثيرا أن اعترض البعض على آراء لي، ثم تبين فيما بعد أن ما قلت به كان صحيحا»(٥).

فمنها على سبيل المثال:

١- موقفه من الترابي فقد نبه على أخطائه وضلالاته في وقت مبكر وكان يناقشه ويرد عليه في حين أن كثيراً من الناس لم يعرف حقيقة الترابي إلا في وقت متأخر جدا.

٢- موقفه من الاعتداء على الترابي، وذلك لما اعتدي على الترابي في كندا، وكان ذلك قبل وفاته بأكثر من عشر سنين وكان الذي اعتدى عليه ضربه ضربة قاتلة توقع الناس أنه سيموت بسببها ولكن أحد السودانيين (بسطامي سعيد) قال إنه لن يموت وقال كلاما فحواه، ولو أن الأعمار بيد الله ولكن الله أحكم وأعدل أن يموت رجل ضال وهو عند الكثير يعدونه من الدعاة والمصلحين، ولما سمع الدكتور جعفر هذا الكلام أيده ووافقه وتوقع الشيخ حفظه الله أنه لن يموت حتى يعرفه الناس على حقيقته من الزيغ والضلال والزندقة والانحراف، فكان الواقع أن الترابي نجا من هذا الاعتداء وعاش بعدها سنين ثم مات بعد ذلك وقد انكشف للناس زيغه وضلاله.

---

(٥) في حوار له مع جريدة المسلمون العدد٣١٢، ١٤١١/٧/١٠.

٣- موقفه من الحرية الدينية للمسلمين في الغرب وأمريكا؛ وقد سمعته قال في محاضرة له في مؤتمر رابطة الشباب العربي المسلم في أمريكا في الثمانينات الميلادية «لا تغرنكم الحرية التي تستمتعون بها في أمريكا، فأنتم تعطونها الآن لأنكم لستم مؤثرين ولا أحد يخاف منكم، أما إذا صار عددكم كبيراً، وصرتم تمثلون جهة تخشى منها الأحزاب، أو الجماعات التي تقوم عليها الحياة هنا، فلن يكونوا مغفلين، ولن يلتزموا بالديمقراطية ولتكن النتيجة ما تكون»، والعجيب أن كثيرا من الحاضرين سخر من هذا الكلام واستغربه لأنه في ظنه لا يمكن أن يحصل في بلد ديمقراطي مثل أمريكا فحصل الآن ما توقعه الشيخ فأصبحت أمريكا بلد الحرية والديمقراطية المزعومة تضيق على المسلمين في داخل أمريكا وتبيد الشعوب المسلمة وتقتلها في البلدان الإسلامية كما فعلت في أفغانستان والعراق وسوريا والصومال وغيرها من بلاد المسلمين.

٤-موقفه من سؤال الفيزيائيين عن وجود الخالق: فقد قال في أحد المؤتمرات في أمريكا وذلك في السبعينات الميلادية لعلماء الطبيعة والفيزياء: «أنه سيأتي اليوم الذي سيسأل فيه علماء الفيزياء عن وجود خالق لهذا الكون، وأن هذا السؤال سيصبح سؤالا مشروعاً وملحاً، لأنه كان في ذلك الوقت كان السؤال عن وجود خالق لهذا الكون سؤالا مستنكرا وغريبا، وحصل ما توقعه الدكتور فأصبح اليوم السؤال عن وجود خالق لهذا الكون في محيط علماء العلوم الطبيعية بسبب النظريات الفيزيائية الحديثة أصبح سؤالا ملحا ومشروعا. قال حفظه الله (والله قلت هذا الكلام في سنة سبعين وبعض الناس استغربوا منه وأجد الآن الكثير من الأمريكيين المتدينين وكأنهم أخذوه مني، وأنا متأكد أن أي أحد منهم لم يقرأ لي شيئاً أو سمع بمقولاتي».

٥- وكما كان شائعا في ذلك الوقت استنكار السؤال عن وجود خالق لهذا الكون فكذلك شاع أن العلوم لاسيما الطبيعية محايدة ولا علاقة لها بالدين، وكان الشيخ قد ألقى محاضرة في أحد المؤتمرات الإسلامية في أمريكا في التسعينات الهجرية من القرن الماضي، فأيد من أيد واعترض من اعترض وسخر من سخر، وكانت أعلى الاعتراضات صوتا من دكتور يحاضر في إحدى الجامعات الأمريكية، وحجته أن العلم

محايد لا يتأثر بدين أو ثقافة. يقول الشيخ وبعد سنة وفي مؤتمر مماثل حضر البروفسور نفسه ومعه بحث طويل يؤيد ما قلته فقلت ماذا حصل يا فلان فقال: " I did my homework" "لقد عملت واجبي المنزلي" وهكذا كثير من العلماء والباحثين لاسيما من المسلمين تغيرت نظرتهم وأصبحت لدى بعضهم أن العلوم ليست محايدة كما يقال.

٦- والشيخ حفظه الله كثيرا ما استمعت إليه وهو يخاطب الطلاب المبتعثين في أمريكا في المؤتمرات والملتقيات الإسلامية قائلا إنني أخشى على أمتكم منكم فربما كنتم سببا في تغريبها وأن تكونوا قنطرة للعلمانية، فلعل بعضكم ينقل سيء الحضارة الغربية إلى أمته ظانا أنه حسن، ومن استمع إليكم ربما أحسن فيكم الظن بسبب مظهركم الإسلامي فصدقه وتأثر به، وقد وقع ما حذر فانتشرت العلمانية عن طريق بعض هؤلاء الفضلاء وصارت العلمانية في المجتمعات الإسلامية كما قال الشيخ علمانية في ثياب إسلامية.

٧- موقفه من فوز الجبهة الإسلامية في الجزائر : وذلك أن الدكتور جعفر يرى أن النظام الديمقراطي لن يسمح للإسلاميين بالوصول للحكم، وأن الغرب مستعد للتضحية بالديمقراطية من أجل العلمانية، ويستشهد بقول أحد الفلاسفة لما سئل إلى أي مدى تتسامح الديمقراطية مع الشيوعية، قال: تتسامح معها مالم تصل للحكم، فلما فازت الجبهة الإسلامية في الجزائر علق البعض بأن نظرية الدكتور جعفر فشلت وفاز الإسلاميون عن طريق الانتخابات الديمقراطية، ولكن لم يستمر الحال فقد أبعد الإسلاميون وحيل بينهم وبين ما وصلوا إليه، وقد سمعته يقول كنت أسعد الناس أن تفشل نظريتي ويستمر فوز الجبهة الإسلامية، ثم جاءت بعدها الانتخابات في غزة وفازت حماس ولكن الغرب لم يرض بذلك وضحى بالديمقراطية، وأخيرا الانتخابات في مصر وفوز "محمد مرسي" بالحكم فكل هذا وأمثاله يؤيد توقع الشيخ جعفر أن الإسلاميين لن يسمح لهم بالوصول للحكم عن طريق الديمقراطية وإذا وصلوا فلن يستمروا.

٨- موقفه من دخول القوات الأمريكية للخليج عام ١٩٩٠م فقد كان كثير من الناس يجزمون بأن القوات الأمريكية لم تأت إلا لاحتلال الخليج والجزيرة بينما الدكتور جعفر يستبعد وقوع ذلك وينفيه فكان الأمر كما ذكر.

٩- موقفة في عدم ترك شمال السودان متحداً مع جنوبه، ولقد سمعته منذ أكثر من عشرين سنة يقول إن الغرب لن يتركوا السودان متحدا مع الجنوب فلا بد من يوم يسعى الغرب لفصل جنوب السودان عن شماله فحصل الذي توقعه.

١٠- خشيته على بعض الأفاضل ممن كان يزوره من الانحراف فقد قال لي الشيخ يوما إنني أشم من فلان رائحة كريهة فظننت أنه يقصد رائحة بسبب الوساخة والقذارة الحسية ولكنه كان يعني القذارة الفكرية فحصل ما توقعه الشيخ، فأصبح هذا المسكين (رده الله إلى جادة الصواب) أصبح حربا على الخير وأهله منافحا عن الأفكار الضالة ومدافعاً عن الزنادقة والملحدين معادياً للدعاة والعلماء والصالحين.

مواقف الدكتور جعفر ورؤيته لقضايا مختلفة:

لست متشدداً ولا أرفض الحوار مع الآخرين:

من حوار مع الدكتور جعفر شيخ إدريس سأله مندوب صحيفة الشرق الأوسط في الرياض: إسماعيل محمد علي يوم الجمعة ٧ ذو الحجة ١٤٢٤ هـ ٣٠ يناير ٢٠٠٤م.

❖ **اتهمت أنك تتعامل مع مؤسسات إسلامية ـ أميركية تدعو إلى نوع متشدد من الفكر الإسلامي ما ردك؟**

فأجاب الدكتور جعفر: التشدد وعدم التشدد أوصاف نسبية تعتمد على تصور الواصف للأمر . إن السائد في الفكر الغربي هو أن كل من يرى دينه هو الحق الذي أوحاه الله تعالى، ويأخذه لذلك مأخذ الجد، نصوصاً، وعبادة وسلوكاً بقدر استطاعته، هذا في رأيهم إنسان متشدد؛ لأنهم يرونه حسب الدين الذي عرفوه، ثم إنه يصدق على سائر الأديان أنه متأثر بثقافة عصره فلا ينبغي أن يفرض على ثقافات عصور جاءت بعده، فالدين صار عندهم تابعاً للثقافة السائدة، وهو عندنا حكم على الثقافات وقائد لا تابع، فأنا لا أعد بالمقاييس الإسلامية متشدداً، ولست من الذين يرفضون الحوار مع الآخرين ومجادلتهم بطريقة عقلانية.

الدكتور جعفر يرفض أن يكون فقيه العامة.

من حوار أجراه جمال خاشقجي في جريدة المسلمون العدد ٣١٢، ١٤١١/٧/١٠هـ.

مع الداعية الدكتور جعفر الذي رفض أن يكون فقيهاً للعامة الكثيرون – علماء وعامة – ربما لا يريدون أن يسمعوا مثل هذه الكلمات منك، ولكنك تصر عليها، فلماذا؟ وهل أنت ممن يرفضون أن يخاطبوا الناس بما يحبون؟

فأجاب الدكتور جعفر: هناك مثل إنجليزي شهير يتهكمون به على هؤلاء الذين يتملقون مشاعر الجماهير . يقول المثل (أنا قائدكم . دلوني على الطريق) والمسلم عندي ليس هو من يقود الجماهير، بل هو من يهديهم إلى الحق . ومن يظل على موقفه هذا حتى لو رفض يكون قائداً لهم. وأحمد الله أنني قادر على أن أقول رأيي دائما . وقد حدث كثيراً أن اعترض البعض على آراء لي، ثم تبين فيما بعد أن ما قلت به كان صحيحاً.

وبعد هذا لنتساءل: من الذي كون آراء الناس؟ إنها أفكار الآخرين، ومعنى أن أسير وراء الناس حيث يريدون أني أتبع آراء وأفكار أشخاص قد يكون بينهم البعثي والعلماني والملحد. ولهذا لابد أن أتمسك بأفكاري ومبدئي الإسلامي، وأن أعاني من نشر ما أعتقد أنه حق.

الديمقراطية ليس لها محتوى:

❖ من حوار في قناة المجد في ساعة حوار مع الدكتور جعفر شيخ إدريس:

س: لكن ما تلاحظ أن هذه من المفارقة بين هذه الدول التي ترفع شعار الحرية شعار الديمقراطية شعار العلمنة وبين التدخل الصريح في صميم العقائد والحريات الشخصية في تباين واضح؟

أنا أرى أننا نحن في العالم الإسلامي والعربي كثيراً ما نتوقع من الديمقراطية ما ليس فيها، ما الديمقراطية؟ الديمقراطية هي حكم الشعب، الديمقراطية لا تلزم أي شعب بأي مبدأ ولا قيمة ولا ولا، تقول للشعب أنت الحاكم واختر لنفسك ما تريد هذه الديمقراطية المبدأ، هذا المبدأ يأخذ شكلاً معيناً في الشعب هذا وفي الشعب هذا وفي الشعب هذا فالديمقراطية ليس لها محتوى، يعني مثلاً عندما تقول مثلاً حكم إسلامي هذا لها محتوى تقول الإسلام هو هذا القرآن والسنة ربما حتى لو قلت حكم نصراني عندهم مرجع حكم شيوعي عندهم مرجع الحكم الديمقراطي ما عندهم مرجع الشعب هو السلطة العليا، وما يختاره الشعب هو الديمقراطية أنا كنت أقول لأناس في أمريكا يعني الآن يمكن أغلبية الناس تقول كل إنسان يكون عمره في العمر هذا يقتل، هذا قرار ديمقراطي، لو صوتوا عليه ونجح ممكن أن يكون هذا قرار ديمقراطي، فالديمقراطية لا تلزم بخلق ولا تلزم بدين ولا تلزم بأي شيء، أنت

يمكن أن تعترض على هذا القرار وتقول هذا القرار مخالف للدين أو مخالف للخلق لكن لا تستطيع أن تقول إنه مخالف للديمقراطية ما دام الإجراء فيه كان إجراء تصويت.

❖ ما تتلمذت على شيخ مثل تتلمذي على الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله.

من حوار أجرته مجلة الاستجابة السودانية مع الدكتور جعفر شيخ إدريس

الاستجابة: إلى أي حد استفدت من فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز؟

الدكتور جعفر: تأثرت منذ الطفولة بأنصار السنة، وما تتلمذت على شيخ مثل تتلمذي على الشيخ عبد العزيز بن باز، عبد العزيز بن بار أعتبره شيخي ما أظن أنني تتلمذت على شيخ مثل ما تتلمذت عليه، وإن كان ذلك بعد الخمسين ولا أعرف على وجه الأرض في هذا الزمان رجلا أعلم منه ولا لقيت في كل من عرفت من البشر من العلماء والقادة المفكرين من المسلمين وغير المسلمين رجلا في ورعه وتواضعه، ومن العيوب المنتشرة جدا بين العلماء سواء كانوا من علماء الدين أو علماء الدنيا أنهم لا يعترفون بأقرانهم ويقدحون فيهم وينتقدونهم ما رأيت رجلا عافاه الله من هذا مثل الشيخ عبد العزيز بن بار لا يذكر رجلا من العلماء المعاصرين إلا ويمدحه ويلقبه بأحسن الألقاب ثم إن خالفه يقول لكن أخطأ في الشيء الفلاني وكذا وكذا ثم يعتذر له أن هذه المسائل يخطئ فيها كبار العلماء قبله . وهو رجل كريم وما أعرف على وجه الأرض رجلاً يعرف من أحوال المسلمين في العالم وجمعياتهم وجماعاتهم وقادتهم ويهتم بهم كأنهم من أبناء بلده مثل الشيخ عبد العزيز لذلك حزنت حزناً شديداً عندما كنت أسمع أن بعض الناس يتكلمون عنه ويصوورنه كأنه مجرد رجل من تنابلة السلطان أو أنه يضغط عليه ليقول كلاما لا يؤمن به، هذا كلام إنسان لا يعرفه، الرجل لا يقول ما لا يؤمن به أبداً، ولا أحد يستطيع أن يضغط عليه. أما أن يخطئ، فهو بشر كل العلماء يخطئون . ربنا سبحانه وتعالى ما كتب العصمة إلا للرسول ﷺ.

س: هل كانت القضايا التي أثيرت عن الترابي جديدة أم كانت قديمة؟

ج: أنا قلت للناس هذه ليست من القضايا المهمة أو الخطيرة بالنسبة له، وسوف أتحدث عن مسؤولية ما يسمى بالحركة الإسلامية عن ضلالات الترابي؛ لأنها كانت

معروفة لكثير من الإخوان والدعاة، رووا عنه أنه قال كذا وقال كذا، وأنا من الناس الذين تكلموا كثيراً، وكنا في حركة واحدة وكان فيه شيء اسمه مجلس الشورى، وأذكر أنه في يوم من الأيام أنا وقفت وهو كان بجانبي، وقلت لهم يا إخواني هذا الرجل ليس عنده دين، ولكن بعد ذلك لم يحصل شيء، والمفروض إما تحاسبوني أو تحاسبوه هو، لكن لم يحدث شيء من ذلك!.

واستكمالا للتعرف على شخصية الدكتور جعفر نورد عدداً من الحوارات التي أجريت معه في مناسبات مختلفة وأماكن متعددة:

❊ ❊ ❊ ❊ ❊


حوارات
مع جعفر شيخ إدريس

مقابلة مع الشيخ جعفر شيخ إدريس

مع مجلة الأمل التي تصدرها رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا وأجرى الحوار الدكتور أحمد سيف الدين تركستاني عام ١٩٨٦م

س/ لو حصلنا على تعريف بالشيخ؟.

الدكتور جعفر: أنا من السودان من مواليد ١٩٣١م درست بالسودان بجامعة الخرطوم، ودرست في بريطانيا، عملت في الحركة الإسلامية، اشتركت في النشاط السياسي مع طلبة الجامعة، ثم لخلاف مع حكومة نميري تركت السودان واستقر بي المقام في مدينة الرياض في جامعة الرياض كانت تسمى آنذاك، في قسم الثقافة الإسلامية، ثم انتقلت الآن إلى كلية الدعوة والإعلام في جامعة الإمام محمد بن سعود.

س/ أنت درست في الغرب ورأيت التجربة الغربية في الجانب الأكاديمي وكثير من شبابنا المسلم اليوم يعيش هذه التجربة يعيش في الغرب، في رأيك ماهي النظرة التي يمكن أن تنظر بها إلى العلوم في الغرب، وكيف يمكن أن نسخر هذه المعرفة التي نتلقاها في بلاد الغرب إلى توظيفها في النهضة الإسلامية في بلاد المسلمين؟

الدكتور جعفر: أقول وبالله العون إنني لم أدرس في بلاد الغرب فقط، بل إنني حتى في السودان درست على أيدي غربيين منذ أن كنت بالمرحلة الثانوية أساتذتنا في العلوم الطبيعية وفي التاريخ والجغرافيا وفي كل العلوم كان معظمهم من الإنجليز، وكذا في جامعة الخرطوم درسنا الجغرافيا والاقتصاد والفلسفة على أيدي غربيين، فالذي أقوله نصيحتي لإخواننا وأقولها عن تجربة ثم عن بعض معرفة سبب تخصصي بالفلسفة لا سيما ما يسمى فلسفة العلوم، أنصحهم بأن ينظروا إلى هذه العلوم نظرة نقدية مع الأسف الذي يحدث الآن في العالم الإسلامي سواءً في المدارس أو الجامعات أن الأمر يعني انقلب، فصار الطلاب ينظرون إلى العلوم الإسلامية نظرة نقدية، فلا يسلمون بما يقوله أستاذ العلوم الدينية في المدارس وكثيراً ما يشكو الأساتذة من كثرة أسئلة الطلبة وكثرة اعتراضاتهم، وأما إذا دخل عليهم أستاذ الجغرافيا أو التاريخ أو الطبيعة أو الفيزياء وكذا فكلما يقوله لهم يسلموا به بل حتى أساتذة ما يسمى العلوم

الاجتماعية ونفس هذا الاتجاه في الجامعات أصبح اتجاهاً تلقينياً يأتي الأستاذ ويقول لهم إن علم النفس الحديث أصبح كذا، وإن الفيزياء يقول كذا، وأضرب لكم مثلاً كنت أدرس في قسم الثقافة الإسلامية مادة لها علاقة بهذا الموضوع فكنت أقول للطلاب بأن القول أن المادة لا تستحدث ولا تفنى هذا قول مخالف للدين، ثم إنه ليس قولاً علمياً؛ فكنت أجد معارضة شديدة مع أن الواقع الذي يقوله العلماء في الغرب أنفسهم أن هذا ليس جزءًا من الفيزياء يعني ليس شيئاً عرف بالتجربة ولا بالمشاهدة ولا هناك دليل عليه رياضي ولا شيء من هذا، لكنه من الفروض التي يفترضها العلماء وكثير من العلماء انتقد هذا وقال الأحسن أن نقول إن كمية المادة ثابته ولا ندخل في مسألة فلسفية هل هي تحدث أو تفنى لكن كان كثير من الطلاب يعترضون على هذا ويظنون أن هذا الكلام معناه رفض الفيزياء، فالناس أصبحوا يخشون جداً من نقد أي جانب من العلوم الطبيعية أو حتى الاجتماعية خوفاً من أن يقال إن هذا يعني إضعاف لموقف المسلمين من العلوم هذه، فرجائي أن ينظر طلابنا سيما أقول للمتدينين منهم أن ينظروا إلى هذه العلوم نظرة نقدية وهذا سيفيدهم حتى في معرفة هذه العلوم و في أن يكونوا أصلاء فيها لأنهم إذا نظروا الآن إلى الغربيين سيجدون أن كثيراً من النظريات التي يقول بها بعض الناس في فترة من الفترات يأتي وينتقدها آخرون فلولا أن هؤلاء كانوا ينظرون نظرة نقدية إلى ما يقوله أصحابهم لما أتوا بشيء أصيل فنحن ما دام الله سبحانه وتعالى قد أعطانا معرفة ليست عندهم، ويمكن أن ننظر إلى هذه الأشياء من زاوية لم يعطوا هم الفرصة لأن ينظروا من خلالها، فلننظر إلى هذه العلوم مهما كانت ننظر إليها من عدة نواحٍ مثلاً إلى أي مدى هذا الكلام فعلاً مطابق للواقع وإلى أي مدى هذا الكلام متناسق في نفسه وليس متناقضاً وإلى أي مدى هذا الكلام متفق مع ما يقوله الشرع الإسلامي وهذا في نظري يعني تدريباً رياضياً لعقل الإنسان ولا يأتي إن شاء الله إلا بخير، فملخص النصيحة أن لا يكونوا متلقين فقط، ويعجبني في هذا المجال أن أذكر كلاماً قاله الشهيد إن شاء الله إسماعيل الفاروقي سمعته يقول في بعض الاجتماعات التي حضرتها أنه يريد للطلاب المسلمين أن لا يكتفوا في علم من العلوم بأن يكونوا مثل أساتذتهم، بل يريدهم أن يكون أحسن منهم في ذلك العلم يعني

أن تعرف ما عرف فلا يتهمك بالجهل، ثم أن تمضي أكثر من هذا فتنظر إلى هذا الذي عرفته من نظرة إسلامية وتنتقده وتأتي بما يفتح الله سبحانه وتعالى عليك من رأي وفكر.

س/ هناك مشكلة أظنها تواجه كثيراً من الشباب المسلم، وهي أنه يريد التفوق العلمي يريد أن ينصرف إلى هذا الجانب ويبرز فيه ولكنه في الوقت نفسه منشغل بالعمل الإسلامي فكيف تظنه حقاً يمكن أن يوفق بين العمل الإسلامي من جهة والذي يطلب منه وقتاً كثيراً لقضائه مع الشباب وقضائه بالأنشطة الإسلامية في المسجد إلى آخره وبين أن يبرز علمياً حيث يكون ملتصقاً بمادته وأستاذه ومدرسته ؟

الدكتور جعفر : هذا موضوع مهم، والذي أراه أنه لابد أولاً من ناحية القاعدة العامة أنه ينبغي لكل طالب أن يحاول التوفيق بين هذين الأمرين فلا يتطرف في ناحية على حساب الناحية الأخرى، يعني هذه قاعدة عامة وهذه كانت تجربة كثيراً من إخوانهم الذين سبقوهم في الدراسة والذين مكنهم الله سبحانه وتعالى أن يكون في قيادة الحركة الإسلامية فلولا أنهم نالوا نصيباً جيداً من هذه العلوم ومن تخصصاتهم وبرزوا فيها لما كانت لهم هذه المكانة التي هي لهم الآن سواءً كانت مكانة في الحركة الإسلامية أو مكانة في بلادهم تمكنهم من المساعدة في أسلمة المؤسسات، هذه القاعدة العامة، لكن الذي «أراه أعرف أن بعض القادة الدعاة يخالفوني هذا الذي أراه» أن الحركة الإسلامية بحاجة إلى علماء أكثر من حاجتها إلى أُناس يتحركون من هنا إلى هناك، ويتكلمون كلاماً عاماً وعندما أقول علماء أعني أُناساً نالوا نصيباً جيداً من العلوم الشرعية مع توسعهم في تخصصاتهم، ولا أعني بهذا أن يكونوا من خريجي الكليات الإسلامية بل أرى أن من واجب كل شاب أعطاه الله سبحانه وتعالى المقدرة على الدرس والتحصيل أن يعتبر أن من واجبه أن يلم إلماماً جيداً عاماً بالعلوم الإسلامية من تفسير وحديث وكذا وأن يركز على ما يتصل بعلمه من هذه العلوم لأننا الآن في العالم الإسلامي نواجه مشكلات كثيرة تحتاج إلى اجتهاد وتحتاج إلى حلول فتحتاج إلى عقول كبيرة فلا يمكن كما تعرفون من شروط الاجتهاد أن يعرف الإنسان طبيعة المشكلة لا يكفي العلم الشرعي بل لا بد أن يعرف المشكلة، وقد

تعقدت الحياة بحيث إنه لم يعد من الممكن لعالم من العلماء مهما كان متبحراً في العلوم الإسلامية أن يلم بكل جوانب الحياة الآن من اقتصادية وقانونية فتعقدت جداً فلابد من تخصص، فالذي أراه أننا محتاجون إلى ما يسمى بالاجتهاد الجزئي، هذا كان يقول به العلماء، ومعظم الاجتهاد كان هكذا يعني أن يختص الإنسان بمسألة من المسائل ويعرف كل ما يتصل بها من الآيات والأحاديث ويقرأ ما قاله العلماء في هذا الموضوع ثم يكون هو أهلاً لأن يجتهد في هذا الجانب الذي تخصص فيه، وعلماؤنا يقولون العلم إمام العمل، فلا يمكن للعمل الإسلامي أن يكون عملاً على هدى ولا يمكن لأسلمة العالم الإسلامي أن تسير على هدى إلا بأن تكون لنا عقول كبيرة وعلماء، فأرجو أن يعتقد الأخ الطالب أو الابن الطالب أن هذا التحصيل العلمي هو أيضاً عمل إسلامي ولا يكون مفهومه للعمل الإسلامي ضيقاً، وهو أن يلقي محاضرة هنا أو حديثاً عاماً هنا أو أن يحضر جلسة هنا أو هنالك، فمن أعطاه الله سبحانه وتعالى هذه المقدرة عليه أن يعطيها نصيباً أكبر من العمل الإسلامي العام ومن كان لا يميل إلى الدراسة الأكاديمية ميلاً كبيراً وإنما يريد أن تكون له الشهادة فقط وأعطاه الله مقدرة أكثر على الاتصال بالناس والتأثير فيهم فليركز على هذا ولكن ينبغي أن لا نقول للناس جميعاً انصرفوا عن العلم أو نعتقد أن هذا نوعاً من التقصير من جانبه هو، هذه مسألة أنا أرى خصوصا عندنا في السودان بجامعة الخرطوم وساءني فعلاً أن أجد من الشباب لا يكادون يحضرون محاضرات حتى بعضهم لا يعرف من الأساتذة في القسم فقلت لهم: نحن ما كنا كذلك وأنتم إذا تخرجتم وصرتم وكبرتم ستلومونا ستلاحظون أثر هذا ستلومونا ستقولون نحن شغلناكم بهذه المسائل عن العلم وهذه حالكم الآن لا تسر لا نريد هذا نريد لهم ما أردنا لأنفسنا.

س/ قبل أن نبحث مسألة الإعلامية التطبيقية أو النظرية التي لمحنا إليها في السؤال السابق أود أن تؤكد على هذه الناحية؛ لأنها تهمنا كطلاب مسلمين في هذه البلد يهمنا معرفتها معرفة جيدة أقول هل العلوم التطبيقية أو الطبيعية التي تدرس اليوم في الغرب وفي مناهج التعليم علوم محايدة أي ليس وراءها مُسلمات أوفرضيات فلسفية أو فكرية معينة ؟

الدكتور جعفر: هي ليست محايدة، وهذا الكلام يعني كلاماً أصبح من المسلمات عند المشتغلين بما يسمى بفلسفة العلوم بل هناك كتب في هذا والآن كنت اقرأ في كتاب يقول إن العالم يمكن أن ينتقد مسلماته الميتافيزيقية لكنه لا يمكن أن يتخلى من كل المُسلمات الميتافيزيقية فكل هذه العلوم تقوم على مُسلمات ميتافيزيقية يعني ما وراء الطبيعة؛ أي أشياء لا علاقة لها مباشرة؛ أي أشياء لا يستطيع أن يقيم الدليل عليها من خلال علمه بل يبني عليها العلم، مثلاً كالمسألة التي كنت أقولها إن المادة لا تستحدث ولا تفنى هذه مسألة ما وصل إليها العالم الطبيعي بالمنهج التجريبي لأنه لا يمكن لكن هي فرض يقوم عليه العلم وهم يتحدثون عن فروض كثيرة أخرى لكن أنا في رأيي أن من الفروض التي يقوم عليها الآن كل العلوم سواءً كان من العلوم الطبيعية أو غير الطبيعية، هي أن هذا العالم مكتفي بنفسه معنى ذلك أنك إذا أردت أن تبحث عن علة لأي شيء في هذا العالم فابحث عن هذه العلة من داخل هذا العالم كل كلام عن علة أو سبب أو فاعل خارج هذا العالم يعتبر شيئاً غير علمي فإذا أصبح الإلحاد جزءًا من مفهوم العلم هذا الكلام لا يقال لطالب الفيزياء أو الأحياء ولا يقال في مقدمة الكتاب بل قد لا يشعر فيه الأستاذ نفسه، وهذا مما يقوله علماء فلاسفة العلوم يقولون ذلك و"أينشتاين" له عبارة يحبها فلاسفة العلوم قال: لا تسأل العالم الطبيعي عن منهجه ولكن انظر ماذا يفعل لأنه كثيراً ما يكون تصوره للمنهج غير مطابق لواقع المنهج الذي يسير عليه فمن باب أولى أيضاً وهنالك رجل اسمه "كون" كتب كتاباً عن الأطر وملخص هذا الرأي أنه في كل عصر من العصور تكون هنالك مُسلمات يأتي بها أولاً بعض القادة الرواد، ثم تكون إلى كثير من العلماء الآخرين من المُسلمات ويشتغلون كل عملهم يكون مبنياً عليها ثم بعد قليل تحدث ثورة أخرى فيتغير المُسلم الأولى ويأتي الآخر أصبح هذا شيئاً مُسلماً به عندهم، فالذي نستطيعه نحن كما كان يقول أحد فلاسفة العلوم يقول إن مهمة فيلسوف العلوم هي كمهمة عالم النفس وهي أن يكتشف ما في اللاشعور لأن المريض النفسي حسب النظرية يكون سبب مرضه شيئاً ليس في شعوره الواعي ولكن في اللاشعور وكذلك يقول إن العالم الطبيعي هنالك أشياء لا يشعر بها فمهمة الفيلسوف يبحث عن هذه الأشياء وينقب عنها ويكون علمه مبنياً على هذا فإذا

غيرت هذا يحصل كذا في العلم، إذا كانت هذه مهمة فلاسفة العلوم في الغرب فمهمتنا نحن أيضاً أقول بأننا ننظر من زاوية لا تتهيأ لهم؛ فنستطيع أن نكتشف من هذه المُسلمات ما لا يكتشف فيلسوف العلوم الغربي، وأظن أن أي طالب إذا فكر في علومه بهذه الطريقة ولم يحصر نفسه فقط في الجزئيات التي تلقى عليه في المحاضرات أو في الكتب المدرسية وإنما فكر في علمه بهذه الطريقة أنا لا أقول فقط أن هذه العلوم ستقترب من الإسلام ولكن سيكون هو رجل أصيل في علمه، وسيأتي إن شاء الله بنظريات وكذا يحترمها الغربيون فأنا لا أريد للطلاب ولا أريد للعالم الإسلامي أن تظل حياتنا كلها تلاميذ للغربيين لكن الآن الغربيين تجد الفرنسي يستفيد من الإنجليزي والإنجليزي يستفيد من الأمريكي وكلهم يحترم بعض لأن كل واحد منهم له نظريات وله نقد وله اكتشافات، هذا الذي نريده لإخواننا المختصين بهذه العلوم سواءً كانت طبيعية أو اجتماعية.

س/ لعلنا نحن نقترب من نهاية هذا اللقاء نود أن نتحدث عن قضية نظنها في أهمية لدى الشباب المسلم، وهو أنه توجد الاختلافات دائماً بين الشباب المسلم بحسب نشأته وإتيانهم من بلاد مختلفة خصوصاً في بلاد الغرب وتكون هذه الخلفيات أحياناً سبباً في وجود الاختلاف بينهم، إلى أي حد يمكن أن يقبل الاختلاف بين الشباب المسلم مثلاً أولئك الذي لا يرون بأساً في الصوفية، أولئك الذي لا يرون بأساً بالاحتفال بالمولد النبوي بطريقة أو بأخرى، أولئك الذي يتعاملون مثلا مع المرأة بطريقة فيها كثير من التسامح أو سمه التحرر أكثر من غيرهم وغير ذلك من أوجه الاختلاف، إلى أي حد يمكن أن يقبل هذا في سبيل تجميع كلمة المسلمين والشباب المسلم، وأن يتآلف فيما بينهم دون أن يضحي بشيء من مبادئ الإسلام؟

الدكتور جعفر: القاعدة هي إنما المؤمنون إخوة، هذه الرابطة الأخوية وهي في الأصل رابطة في القلب لابد أن ينتج عنها تعاون بين المسلمين؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعانوا على الإثم والعدوان) وهذا التعاون يقتضي أن يكون المسلمون حيث ما كانوا في جماعة منظمة، ولذلك قال الرسول ﷺ: **(الزم جماعة المسلمين وإمامهم)** فهذه هي القاعدة أن المسلمين ينبغي أن يجتمعوا وأن تكون

العلاقة بينهم علاقة أخوية، وأن يتعاونوا على البر والتقوى، فسواءً كنتم في الولايات المتحدة أو في كندا أو كذا أنا أرى أن كل من يقول لا إله إلا الله ينبغي أن يتعاون مع الذي يقول هذه الكلمة والوضع الأمثل كان هو أن يكون لكل المسلمين في هذا البلد أو في غيره من البلاد قيادة واحدة لكن هذا لم يحدث، إذا كانت هنالك جماعات مثلاً من الطلاب في جامعة واحدة وهنالك أشياء كثيرة يمكن أن يتعاونوا فيها فلابد لهم من أن ينظموا أنفسهم وأن تكون لهم قيادة واحدة وأن يتعاونوا في الأشياء التي يتفقون عليها ولا أقول يعذر بعضهم بعضاً فيما اختلفوا فيه لأن ما اختلفوا فيه قد يمكن مما لا يعذر الإنسان الآخر فيه لا أعذر إنساناً في مسألة من مسائل العقيدة أرى أنها تخرجه عن الملة لكن إذا كان جاهلاً نبصره ونكلمه وكذا لكن لا آمره بالخروج من هذه الجماعة إذا كنت أنا في مركز القيادة لا أسمح له بأن يفعل أشياء في المسجد أو في أماكن بعض الاجتماعات أرى أنها بدعة مخالفة للدين إذا كنت أنا أستطيع أن أفعل هذا إذا لم أستطع وكنت أنا في الأقلية فلا أخرج عن هذه الجماعة بسبب ما يرتكبون من بدع لأن بقائي معهم وهم يرتكبون هذه البدع خير من أن أعيش فرداً في مجتمع كافر يعني بعد ما خرج من جماعة المسلمين مهما كانت منحرفة وذهبت إلى جماعة الكفار فلا أفعل هذا، وأكرر إن كنت أنا في موضع الأغلبية والقوة فلا أسمح بأشياء أراها مخالفة للشرع، وإن كنت في موضع الضعف أتعاون معهم فيما أرى أنه الخير ولا أقرهم على ما أرى أنه باطل وهذه المشكلة واجهتها في كثير من بلاد العالم الإسلامي كثيراً وفي بعض الأماكن لا أرى لها من حل لأن الذين يختلفون هم من عوام المسلمين الشخص الذي لا يفرق بين القرآن والحديث وبين مذهبه أو ما كان الناس عليه في بلده فهؤلاء يعني تكاد تكون ميؤوس منهم بل في بعض الأماكن اختلفوا حتى صار لكل جماعة منهم مسجد فالذي يأتي من تركيا يريد أن يصلي بطريقة معينة لا يفرق فيها بين الواجب والمندوب ولا حتى في مذهبه فالذي لا يضع غطاء على رأسه كأن صلاته في رأيه باطلة مع أن هذا شيء لا يوجد له لا في الكتاب ولا في السنة ولا في أي شيء يعني غاية ما يقوله مذهبه أن هذا مندوب، لكن بسبب الثقافة التي عاش فيها يصبح هذا من أركان الدين، لكن أرجو أن لا يكون هذا هو حال الطلاب الذين أعطاهم الله سبحانه وتعالى المقدرة على أن يحلوا هذه

المشكلات بالطريقة التي قالها الله سبحانه وتعالى، الله سبحانه وتعالى ما قال إن المؤمنين لا يمكن أن يختلفوا ولا يمكن أن يتنازعوا وأنهو إذا تنازعوا هذا دليل على أنهم ليسوا مؤمنين، وإنما قال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، فادعوا إخوانكم إلى هذا وقولوا لهم يا إخوة نحن ملتزمون بدين واحد وهذا الدين مصادره هذه هي الكتاب والسنة فإن تنازعنا فليكن محاولتنا لحل النزاع محاولة علمية وإسلامية بحسب ما وجهنا الله سبحانه وتعالى، وإن شاء الله يكون هذا نفسه يكون نوعاً من التثقيف والتعليم لإخواننا؛ لأني أرى "خصوصاً بالنسبة للطلاب" أن كثيراً منهم يستفيد يعني يكون قد جاء من مكان أصبحت بعض العقائد الفاسدة من المُسَلمَات عندهم ولا ينكرها عالم، ولا يعرف أنها منكر فإذا جاء هنا واتصل ببعض إخوانه كان من حظهم أنهم عاشوا في بلد ينكر هذا فيستفيد منهم.

س/ هل من كلمة أخيرة للشباب المسلم في الغرب عدا ما تعرضنا إليه؟

أنصحهم بما نصح الله للناس قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، والرسول ﷺ يقول: **(اتق الله حيث ما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)**، وأنا كتبت مرة أن هذا الحديث ينبغي أن يكون دستوراً لإخواننا خصوصاً في الغرب، اتق الله حيثما كنت فالتقوى ليست مرتبطة بمكة والمدينة والقاهرة وإنما تتقي الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها لأن الإنسان يتعرض هنا ربما لانحرافات ويقع في بعض المحظورات فليتذكر أن الله سبحانه وتعالى جعل له مخرجاً من هذا اتبع السيئة الحسنة تمحها ولا يأتيك الشيطان فيغريك أولاً بالوقوع فإذا وقعت يحبسك من النهوض فأنت تقاومه فلا تقع وإذا وقعت تخالفه فتنهض، وخالق الناس بخلق حسن ما قال خالق المسلمين فقط وإنما خالق الناس بخُلق حسن فأرجو أيضاً أن تخالقوا كل الناس بخُلق حسن، وأن يكون خُلقكم هذا وسيلة من وسائل دعوة الناس إلى الخير .

* * *

مع الداعية الذي رفض أن يكون فقيه العامة

حوار (جريدة المسلمون العدد ٣١٢، ١٠/٧/١٤١١) أجرى الحوار جمال خاشقجي

مخطئون أولئك الذين يشفقون على تحطم قوة صدام:

❖ **المسلون**: وكانت الفتنة القاصمة التي تعيشها الأمة العربية والإسلامية ممثلة في أزمة الخليج هي مدخل هذا الحوار، فكيف وقع ما وقع ولماذا، وكيف تباينت المواقف تجاه الحدث الجليل على نحو لا يكاد يصدق؟

❖ **الدكتور جعفر**: إن فهم ما حدث وتحليله يبدأ بتحديد معاني الكلمات وأولها هذه الكلمة (الفتنة)، وعندي أن الفتنة هي ما يجعل قبول الحق عسيراً، وقد يكون أحدنا على نحو أو آخر سببا للفتنة عندما يكون رمزاً للدين ويعرف الناس الإسلام عن طريقة، يكون هذا الشخص في موقع قيادي. فإذا ما اتخذ مثل هذا الشخص موقفا فيه ميل إلى الظلم، أثر بذلك على العامة، فمالوا معه. إن واجب العلماء أن يكونوا قدوة للناس، ويجب أن يتخذوا مواقفهم بناء على هذا الموقع؛ لأن العامة يتخذونهم نموذجاً وأسوة، ومن المؤلم أن بعض الإسلامين – في هذه الأزمة – قد ضحوا بالمبادئ والمثل العليا من أجل مواقف جزئية ومصالح موقوتة. صحيح أن الإسلام دين عملي، وهو يرتبط بالحياة وواقع الناس، ولكن هذا لا يعني أن نضحي بالمبادئ أو المثل من أجل هذه الجزئيات التي هي أدخل في باب التفاصيل منها إلى الدخول في باب الكليات، إن في الناس جهلا وانفعالا عاطفيا، وغالبا ما تحكمهم سيكولوجية الجماعة، ولهذا فهم دائما بحاجة إلى قائد أو موجه أو نموذج يحتذى به؛ لأنهم غير قادرين بذواتهم على اختيار الموقف الصحيح. وفي هذه الأزمة سار الناس وراء قادتهم أو وراء نماذجهم الإسلامية فضلوا، وهم هنا - أعني العامة – غير ملومين. ولهذا جاءت الفتنة وتباين المواقف. قارن هذا الموقف، بموقف أبي بكر وعمر أمام أزمة المرتدين عن الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ. لقد حارت عقول كبار الرجال من صحابة رسول الله أمام الموقف الصعب، وقال المؤرخون: إن عمر قد تابع أبا بكر في رأيه، وهذا غير صحيح، والصحيح هو أن عمر قد استبان له الحق برأي أبي بكر فاتبعه. أما في أزمتنا هذه فقد طاشت عقول بعض القيادات أكثر مما طاشت عقول العامة.

❖ **المسلمون**: تلك مشكلة سير العامة وراء قادتهم، فكيف انحرف هؤلاء القادة أنفسهم؟

❖ **الدكتور جعفر**: لأننا - إذا أحسنا الظن - ورغم انتسابنا للإسلام، لانزال متأثرين في سلوكنا العملي بمبادئ غير إسلامية، لقد كشفت هذه الأزمة عن أهمية التربية الإسلامية التي كثيرا ما تحدثنا عنها، والتي قصرناها على أداء الشعائر في العبادة والصلاة وبعض السلوكيات، مع أن هذه التربية يجب إلا تنعزل عن الفكر، بحيث لا يكون هناك تناقض بين العبادة والعقل، أو الفكر والسلوك. والذي يحدث في واقعنا غير هذا. فكثيرا ما نرى الإنسان المسلم صادقا في حياته الخاصة، لا يكذب ولا يسرق ولا يخون، لكنه ما إن يبدأ التعامل مع السياسة حتى تجد نفسك إزاء إنسان آخر، حيث لا يجد حرجا في الكذب والمراوغة معتقدا أن السياسة معايير تختلف عن المعايير الشرعية. نعم فعل هذا ويفعله كثير من الإسلامين، حتى إنني راجعت بعضهم وقلت له في موقف أو آخر إن هذا لا يجوز لأن فيه كذبا أو مخالفة، ولكن هذا البعض كان يقول لي إن العمل في السياسة يحتاج إلى مثل هذا السلوك. وذلك نمط من التفكير الغربي الذي لا نزال متأثرين به للأسف.

❖ **المسلمون**: هل توافق على ضرب العراق عسكريا بقيام الحرب؟

❖ **الدكتور جعفر**: لا. أبداً، فأنا لا أوافق على الحرب ولا أريدها، ولكن لا أصدر في هذا الموقف حرصا على صدام حسين أو قوته، ولكن حرصا على شعب العراق والسعودية والكويت، فليس ثمة سبب واحد معقول لهذه الفتنة كلها، وهذا الدمار، كله وهذا الإزهاق لأرواح الأبرياء. من هنا فأنا أرفض الحرب.

❖ **المسلمون**: يرد بعض الشباب على دعوتك برفع الصوت عاليا ضد العراق حتى تنسحب من الكويت بأن في ذلك خدمة لأمريكا والإمبريالية العالمية؟

❖ **الدكتور جعفر**: يعتقد بعض الإسلامين أن للسياسة معايير تختلف عن المعايير الشرعية. وهذا خطأ لأنه نمط غربي في التفكير، الذين يقولون إن أمريكا تريد احتلال الخليج لا يدركون ما يجري في العالم اليوم، ليس من الحكمة أن أتخلى عن مبادئ إذا توافقت في قضية ما مع مواقف عدوي، ثم إن هذا ليس عمليًّا أيضا. فالانتهازي العاقل يقول: «أنا أقف الموقف الذي فيه مصلحتي حتى لو اصطدم بمصلحة غيري» أما المسلم العاقل فيقول: «أنا أقف مع الحق حتى لو كان فيه ضرر بي ومصلحة لعدوي»، إذ إن على المسلم أن ينصر الحق لا أن ينصر شخصا. يقول الله سبحانه

وتعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وفي هذا الصدد يقول كثيرون إن أمريكا تكيل بمكيالين، فهي تقف مع الحق في قضية الكويت، وتقف مع الباطل في قضية فلسطين. حسن جدا. علينا إذن أن ننتهز هذه الفرصة ونمارس عليهم ضغطا، ونقول لهم: لماذا لا تقفون نفس الموقف العادل تجاه الفلسطينيين؟ صححوا موقفكم لتكونوا مع الحق والعدل على نحو ما فعلتم إزاء الكويت. هذا ما ينبغي أن نقوله ونفعله انطلاقا من المبادئ الإسلامية الحقة .

❖ **المسلمون: إنهم** يعودون بالذاكرة إلى تأييد الإسلاميين لعبد الناصر في أزمة السويس رغم أن يديه كان غارقة في دمائهم يومئذ؟

❖ **الدكتور جعفر:** ثمة فرق كبير بين الموقفين، ولأحدثك عن نفسي. كنت يومها طالبا في الجامعة وكان لي نشاط في اتحاد الطلبة وكانت علاقتنا سيئة بعبد الناصر. ورغم هذا وقفنا معه في أزمة السويس؛ لأن مصر كانت تتعرض لعدوان مدبر من ثلاث دول بينها إسرائيل. أما مشكلة اليوم فمختلفة. وبعد أن فشل العدوان على مصر عدنا إلى صراعنا مع عبد الناصر من جديد.

❖ **المسلمون: ثمة** شبهة أخرى، حيث يقول البعض إن احتلال العراق للسعودية هو أقل ضررا من دخول القوات الأمريكية إليها فما رأيك؟

❖ **الدكتور جعفر:** ليس هذا صحيحا؛ لأنني أعتقد جازما أن صدام حسين لو دخل السعودية لفعل بها ما فعله بالكويت. نعم، لو غزا هذه الديار لقتل العلماء وأهل الدعوة وطلاب العلم ولانتهك الأعراض وسلب الثروات. ودليلي هنا هو ما فعله هو نفسه في الكويت، ومعنى هذا أن استدعاء القوات الأمريكية وفق شروط معينة يظل أقل خطرا وضررا من دخول العراق إلى السعودية. ثم ما هذا التفكير القومي الضيق. ما الفرق بين كافر عربي وكافر غربي؟ كلاهما سواء، إن لم يكن الكافر الغربي أقل سوءاً لأنه محكوم بنظام الحكم والرأي العام في بلده، وكلاهما له تأثير. على عكس الكافر العربي الذي يعربد كما يحلو له بلا رادع أو ضابط. وهل هناك ما هو أسوأ من هدم المدن وانتهاك الأعراض وقتل المدنيين بالغازات كما تقتل الحشرات.

❖ **المسلمون: الكثيرون** – علماء وعامة – ربما لا يريدون أن يسمعوا مثل هذه الكلمات منك، ولكنك تصر عليها، فلماذا وهل أنت ممن يرفضون أن يخاطبوا الناس بما يحبون؟

❖ **الدكتور جعفر**: هناك مثل إنجليزي شهير يتهكمون به على هؤلاء الذين يتملقون مشاعر الجماهير. يقول المثل «أنا قائدكم... دلوني على الطريق». والمسلم عندي ليس هو من يقود الجماهير، بل هو من يهديهم إلى الحق. ومن يظل على موقفه هذا حتى لو رفض قائداً لهم. وأحمد الله أنني قادر على أن أقول رأيي دائما. وقد حدث كثيرا أن اعترض البعض على آراء لي، ثم تبين فيما بعد أن ما قلت به كان صحيحاً، وبعد هذا لنتساءل: من الذي كون آراء الناس؟ انها أفكار الآخرين. ومعنى أن أسير وراء الناس حيث يريدون أني أتبع آراء وأفكار أشخاص قد يكون بينهم البعثي والعلماني والملحد. ولهذا لابد أن أتمسك بأفكاري ومبدئي الإسلامي، وأن أعاني من نشر ما أعتقد أنه حق.

❖ **المسلمون: أنت** تدعو إلى نوع من الواقعية في التعامل مع الغرب. فكيف يتم هذا مع الإحساس بأن هناك مؤامرة صليبية كبرى ضد الإسلام والمسلمين لا يصلح العمل معها إلا بالجهاد؟

❖ **الدكتور جعفر**: أنا لا أدعو إلى التعاون مع الكافر في كفره، بل أدعو إلى فهم روح العصر؛ لأن رفض التعامل مطلقا مع الغرب أمر مستحيل، على المستوى الاقتصادي على الأقل، فهو يشتري بترولنا ونحن نستخدم منجزاته الصناعية.

إن تجاهل الحقائق خطأ يقع فيه الشباب وبعض الكبار أيضاً. ومن قبيل هذا التجاهل ما يقول به هؤلاء من إعلان الجهاد ضد الغرب الملحد وعدم التعامل معه، ونموذج صدام حسين هو أشهر هذه النماذج. فمن أين له بهذه القوة كلها من الغرب. لقد سمعت حوارا مع مسؤول فرنسي في الإذاعة البريطانية بعد أن سأله المذيع ألستم نادمين على ما قدمتموه من مساعدات لصدام حتى تحول إلى طاغية يهدد الغرب ومصالحه؟ قال المسؤول: نحن نعلم أنه طاغية ولكنه علماني، وهذا يعني أنه يظل أفضل من الإسلاميين بالنسبة لنا. معنى هذا أن أحداً لا يملك أن يرفض التعامل مع الغرب بكل سواءته. وهذا ما أقول به، بل إنني أذهب إلى حد القول إن تعبير "محاربة الغرب" لا ينبغي أن يقال. فهو شعار لا يعني شيئاً، لأن الحركات الإسلامية ليست مستعدة له حالياً. فضلاً عن أن مثل هذه الكلمات الرنانة تدفع الآخرين للنظر إلى الإسلام والحركات المعبرة عنه على أساس أنها حركات غير متحضرة إن لم تكن همجية وبربرية تستهدف القضاء على الحضارة الإنسانية السائدة. وليس هذا هدفاً

للإسلام بالطبع؛ لأننا نأخذ ما في هذه الحضارة من خير ونرفض ما فيها من شر، بل إن الإسلام ينهانا عن استخدام مثل هذا التعبير لأن القرآن يستخدم كلمات الكفر والإيمان، ولم يقل محاربة قريش أو الروم، فهدفنا ليس تدمير حضارة الغرب بل الدعوة إلى الحق. ولو آمنوا بهذا الحق لأصبحوا إخوانا لنا.

إن الصراع موجود، وهو ممتد أيضا ولكن ليس هذا هو الوقت المناسب له؛ لأننا لا نملك مقومات الانتصار في هذه المعركة حتى الآن. فلننتظر إذاً ولنعمل. ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧]؛ لأنهم لم يكونوا مستعدين لقتال المشركين.

❖ **المسلمون: لعل** من أخطر سلبيات هذه الأزمة ذلك الجفاء الذي وقع بين الإسلاميين الخليجيين وإخوانهم في الدول الأخرى، والذي كان من أهم أسبابه مقولة أن هناك ظلماً في توزيع الثروة على نحو يزرع الحقد في النفوس، فهل يمكن أن يتأثر شباب الصحوة بمثل هذه الافكار؟

❖ **الدكتور جعفر**: الحق إنني فوجئت بهذا الكم من المرارة ضد أهل الخليج، وهو كم أكبر مما كنت أتوقعه أو أتصوره بكثير. والغريب أن هذه المرارة كانت تعتمل في صدور مسلمين خلص يصلون ويصومون. وثمة عدة تفسيرات لهذا الموقف. السعوديون والخليجيون بشكل عام يقولون إنه الحسد. وأنا أقول إن السبب ربما يعود إلى نوع المعاملة التي عومل بها البعض في تلك البلاد؛ لأن أكثر الناس مرارة كانوا من هؤلاء الذين عملوا في الخليج، أما الذين لم يعملوا في الخليج ولم يزوروه فيحملون تصورات خاطئة عن هذه البلاد وأهلها، إذ يعتقدون أنهم مجرد أناس خاملون مترفون، ولهذا حين وقعت الأزمة لم يتعاطفوا مع الخليجين؛ لأنهم يقارنون بين المعاناة التي يعيشونها في بلادهم من أجل لقمة العيش وبين إخوة لهم عرب ومسلمين يعيشون في بحبوحة تصل إلى حد الرغد. وأما العرب في الغرب بشكل عام - وخصوصا الطلبة - فهم يفهمون الإسلام من خلال النموذج الاسمي - أي حكومة المثل الأعلى كما يجسدها المصطفى عليه الصلاة والسلام وخلفاؤه الراشدون - وهم يريدون إسلام اليوم على هذا النحو ومن هنا نتج ذلك الجفاء الذي يشعرون به تجاه الخليج وأهله.

* * *

صحيفة الاستجابة السودانية

في حوار صريح مع الدكتور جعفر شيخ إدريس

مجلة الاستجابة صفر ١٤١٢هـ

الاستجابة: في البدء نريد أن نتعرف على أهداف ونشاطات ومستقبل معهد الدراسات الإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية؟

د. جعفر : معهد الدراسات الإسلامية هو كلية تابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود والغرض منها تدريس اللغة العربية والعلوم الإسلامية للمسلمين الأمريكان، وأظن أن الاقتراح كان من بعض المسلمين في أمريكا؛ لأنهم جربوا الدراسة في العالم الإسلامي فللاختلاف بين مجتمعهم والمجتمعات هناك وبعض ما يلاقون من متاعب وعدم استطاعة كثير منهم السفر إلى البلاد الإسلامية، اقترحوا أن تنشأ كلية في أمريكا يتلقون فيها هذه الدراسات، ثم إذا وجد الواحد منهم فرصة للمجيء، إلى بلد عربي كالسودان أو مصر أو السعودية ليجود لغته فرأوا أن هذا أحسن. المعهد لم يبدأ بعد في التدريس وللمعهد أهداف أخرى فهو يقوم الآن، وفي المستقبل بما يسمى بالدورات، فكل مجموعة من المسلمين سواء كانوا من الأمريكان أو المسلمين العرب أو الباكستان أو غيرهم متجمعون في منطقة من مناطق أمريكا ويريدون دورة لمدة أسبوعين أو شهر، فالمعهد يقوم بهذا فيؤجر المكان، ويرسل الأساتذة، ويقوم بكل المصاريف وغالباً ما تكون هذه الدراسات مكثفة، ويراعى فيها مستوى الدارسين، فإذا كانوا عرباً ومسلمين ويحتاجون مثلا إلى دراسة يتوسع بعض الشيء في مسائل العقيدة، أو أصول الفقه، أو التفسير فالمعهد يقوم بهذا، والمعهد ينوي في المستقبل أن يقدم دراسات صيفية باللغة الإنجليزية يؤمها الطلاب من المسلمين وغير المسلمين الذين يدرسون في جامعات أخرى، فنريد أن نتصل بالجامعات الأخرى لتعترف بالمعهد فتقبل الساعات التي يدرسونها، للمعهد أيضا طموح كبير في أن ينشئ مركزاً كبيراً للبحوث تقوم فيه مكتبة يرجى أن تكون أكبر مكتبة إسلامية في العالم الغربي، وفي هذه المرحلة الحاضرة شخصي مسؤول عن جزء من هذا العمل وهو الإشراف على البحوث.

الاستجابة: من خلال تواجدكم في أمريكا ما هو تقييمكم للجماعات الإسلامية وسط الزنوج المسلمين؛ لأننا نسمع عن وجود حركات انحراف كثيرة كالحركة التابعة لمدعي المهدية وحركة "اليجا محمد".

د. جعفر: نعم هذه معروفة وبحمد الله الآن الجماعات السنية والأفراد السنيون في ازدياد. وهم يعرفون هذه الجماعات، وما فيها من انحرافات، الحركة التي تدعي صلتها بمحمد أحمد المهدي هي أكثر هذه الحركات انحرافا الآن، وهي في الحقيقة ليست لها أية علاقة بالمهدية؛ لأن صاحبها يأخذ من القرآن ويأخذ من التوراة ومن الإنجيل وكذا وكذا وفي الحقيقة أنها تسيء إلى المسلمين؛ لأنها تعتمد على التسول فيلبسون ملابس قريبة من الملابس السودانية، ويقفون في الشوارع ويتسولون الناس فهي دعاية سيئة للسودانيين وللإسلام وللمهدية بصفة خاصة أيضا، وإن كان كثير من الناس لا يعرفون المهدية ولكنهم يعرفون أن هؤلاء مسلمون او سودانيون، الحركة الثانية التي فيها انحراف شديد هي الحركة التي يقودها الأستاذ (فرقان) فهو يحتفظ بكثير من مبادئ وأفكار اليجا محمد المنحرفة، أقرب حركة من الحركات الكبيرة والتي حصل فيها كثير من التحصين هي الحركة التي يقودها (وارث الدين محمد) لكن هناك حركات أصغر من هذه منها جماعة انفصلت عن هذه الجماعة يقودها الأخ الشاب (سراج وهاج) إذن فهناك حركات مستقيمة...!!

الاستجابة: ما هي معوقات وإشكالات الدعوة الإسلامية في الغرب؟

د. جعفر: في رأيي أن أكبر مشكلة تواجه الدعوة الإسلامية في العالم الداخلي وفي العالم الخارجي هي قلة الدعاة، أفريقيا هذه تحتاج إلى مئات إن لم أقل إلى آلاف الدعاة ودع عنك أمريكا وإنجلترا، فحتى البلاد الإسلامية الكبيرة إندونيسيا. الهند ماليزيا كل هذه تحتاج إلى دعاة علماء، ومع الأسف نحن حتى الدعاة منا معرفتهم بالإسلام معرفة عامة وهذه من الأشياء التي أرجو أن تعتنوا بها، لابد أن يتخرج من هؤلاء الشباب علماء بالمعنى الحقيقي للكلمة، يكونون قد حفظوا القرآن الكريم ودرسوا تفسيره بدقة، علماء يعرفون السنة ومصطلح الحديث ويحفظون مئات أو آلاف من الأحاديث النبوية ويعرفون معانيها، علماء اطلعوا على تاريخ الإسلام وعلى الفقه الإسلامي والمذاهب وهكذا؛ حتى يستفيد منهم المسلمون بالنسبة للغرب نحتاج بالإضافة إلى هذا إلى علماء يجيدون اللغات ولا سيما اللغة الإنجليزية، الآن اللغة الإنجليزية هي الأساس بالنسبة للدعوة، هناك مسلمون في فرنسا وفي ألمانيا ولكن عدد المسلمين الذين يتكلمون الإنجليزية الآن أكثر من الذين يتكلمون العربية في إنجلترا وأمريكا وأستراليا والهند وباكستان خصوصا من المثقفين من الناس، فلا تفصلوا بين الدين وتعلم هذه اللغات هذه اللغة بالذات شجعوا كثيراً من الشباب ليتعلموها ويتقنوها

حتى يكونوا دعاة بل حتى يكونوا دعاة في بلادهم لكي تطلع أنت الآن على ما يكتب عن الإسلام، وما يحاك ضد المسلمين ينبغي أن لا تعتمد فقط على ما يترجم أو ما تكتبه الصحف بطريقة مبتورة لابد أن يكون لنا بعض الشباب الذين يطلعون على هذه الأشياء يفهمونها بيسر، وهنالك مشاكل أخرى، المال فمعظم المسلمين فقراء في كل بلاد الدنيا بما في ذلك أمريكا لكن ركزت على النقطة الأساسية – الدعاة – ثم تأتي بعد ذلك مشكلة المال، من مزايا البلاد الغربية أن المجال فيها مفتوح الديمقراطية تسمح بأن تدعو وفي رأيي أن هذا شيء مؤقت كثير من إخواننا يفرحون بأن هذه البلاد تعطيهم من الحرية في الدعوة ما لا تعطيها بعض البلاد الإسلامية لكن في رأيي أن هذا لأن المسلمين لا زالوا ضعفاء وليسوا مؤثرين، ولكن إذا أصبحنا قوة يمكن أن تصل إلى الحكم فسيتغير الوضع، فينبغي أن ننتهز هذه الفرصة الآن قبل فوات الأوان.

الاستجابة: كثيراً ما نسمع عن اعتزازك بالتأثير السلفي أو تأثير بعض السلفين على شخصيتك، فإلى أي حد هذا التأثير السلفي؟

د. جعفر: هذا منذ الطفولة: فلقد كان من أوائل الذين بدأوا حركة جماعة أنصار السنة المحمدية بعض أقاربنا ببورتسودان، وتقريبا كنت في سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة وانضممت إليها، وممن عرفت في تلك السن الباكرة الأخ مصطفي ناجي فأحمد الله سبحانه وتعالى منذ ذلك الوقت الباكر في سن الطفولة تخلصت من الخرافات الطائفية، ومسائل الشرك وكذا، واتصلت قبل الثامنة عشرة بكتب ابن القيم وكنت أفضلها على كتب ابن تيمية لأنها أيسر وأسهل، وقرأت بعض كتب شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن كبرت في السن وصارت عندي مقدرة أكثر على الاستيعاب، وأحمد الله أنني قد اهتممت بوالديَّ وكانا ينتميان إلى طائفة الختمية رغم أن الوالد عليه رحمة الله كان يحفظ القرآن الكريم كان يقرأ بعض هذه الأشياء التي فيها شرك فكنت أناقشه حتى هداه الله تعالى والوالدة أيضا كانت إذا جلست أو قامت يا سيدي الحسن و يا سيدي علي فتابت فصارت حتى إذا قالت شيئاً من هذا الكلام استغفرت الله العظيم، فهذه مسألة أحمد الله سبحانه وتعالى عليها.

الاستجابة: إلى أي حد استفدت من فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز؟

د. جعفر : تأثرت منذ الطفولة بأنصار السنة، وما تتلمذت على شيخ مثل تتلمذي على الشيخ عبدالعزيز بن باز، فالشيخ عبد العزيز بن باز أعتبره شيخي، ما أظن أنني

تتلمذت على شيخ مثل ما تتلمذت عليه وإن كان ذلك بعد الخمسين، ولا أعرف على وجه الأرض في هذا الزمان رجلاً أعلم منه ولا لقيت في كل من عرفت من البشر من العلماء والقادة المفكرين من المسلمين وغير المسلمين رجلاً في ورعه وتواضعه، ومن العيوب المنتشرة جدا بين العلماء سواء كانوا من علماء الدين أو علماء الدنيا أنهم لا يعترفون بأقرانهم ويقدحون فيهم وينتقدونهم ما رأيت رجلا عافاه الله من هذا مثل الشيخ عبد العزيز بن باز لا يذكر رجلا من العلماء المعاصرين إلا ويمدحه ويلقبه بأحسن الألقاب، ثم إن خالفه يقول لكن أخطأ في الشيء الفلاني وكذا وكذا ثم يعتذر له أن هذه المسائل يخطئ فيها كبار العلماء قبله. وهو رجل كريم وما أعرف على وجه الأرض رجل يعرف من أحوال المسلمين في العالم وجمعياتهم وجماعاتهم وقادتهم ويهتم بهم كأنهم من أبناء بلده مثل الشيخ عبد العزيز، لذلك حزنت حزنا شديداً عندما كنت أسمع أن بعض الناس يتكلمون عنه ويصورونه كأنه مجرد رجل من (تنابلة) السلطان أو أنه يضغط عليه ليقول كلاماً لا يؤمن به، هذا كلام إنسان لا يعرفه، الرجل لا يقول ما لا يؤمن به أبدا، ولا أحد يستطيع أن يضغط عليه. أما أن يخطئ، فهو بشر كل العلماء يخطئون. ربنا سبحانه وتعالى ما كتب العصمة إلا للرسول ﷺ فهناك فرق بين ان الإنسان يخطئ وبين ان يكون مجرماً.

الاستجابة: فضيلة الدكتور لو سمحتم تتكلم بشيء من الصراحة عما يتعلق بزيارتكم للسودان هنالك كثير من الآراء والتحليلات في الشارع السوداني وسط الإسلاميين لأسباب زيارتكم للسودان في الوقت الراهن بعضهم يقول الزيارة سببها هدم شخصية معينة وتصحيح مسار العمل، بعضهم يقول بأنها باتفاق بين جماعات الإخوان المسلمين بأن يتولى الدكتور جعفر شيخ إدريس قيادة الإخوان المسلمين والخروج بهم من المأزق الذي دخلوا فيه كخيار مقبول بين الإخوان المسلمين، بعضهم يقول هو جاء للوساطة في موضوع المركز الإسلامي الإفريقي وتطوراته وكذا، فما أدرى هل هي أم غيرها؟ أم هي زيارة عادية؟

د. جعفر: أبدا أنا أزور السودان في العام مرتين أو ثلاث كل الذي أدى لهذه التأويلات أنه حدث أن الأخ الدكتور التيجاني عبد القادر قابلني وقال لي إذا ممكن أن تلقي لنا محاضرة وليس بتدبير بيني وبينه، أظنه بالنسبة له كان عملاً روتينيًّا. فقلت له: إن الموضوع الذي يشغلني هو كذا، فاتفقنا على أن يكون هذا الموضوع هذا

الذي أدى لكل هذه التأويلات وإلا لو جلست ولم ألقِ المحاضرة لما عرف بوجودي كثير من الناس ولخرجت كما دخلت. الشخصية المعنية التي يتكلمون عنها عهدي بنقدها ليس بقريب، وما أحتاج إلى أن أجيء في زيارة لبضعة أيام ولأفعل هذا. هذا بالنسبة لي موقف ثابت، وأما أنها اتفاق فهذا ليس بصحيح فليس عندي طمع في زعامة كل الذي أريده إذا رجعت إلى السودان أن أبث هذا الحق الذي أومن به بقدر ما أستطيع، وأن يكون موجهاً إلى كل الشباب من الشباب الذين كانوا ينتمون إلى الجبهة أو الإخوان المسلمين أو أنصار السنة أو جماعة التبليغ وكذا أرجو إن شاء الله أن لا أفرق بينهم.. المهم أن من الأشياء التي تعلمتها من وجودي خارج البلاد أن الذي يجمع الناس حقا ليس هو التنظيمات وإنما الذي يوحد قلوبهم - هذا الشيء في القرآن الكريم وثم عرفنا بالتجربة - في الحقيقة هو استمساكهم بالحق فكلما التقينا وتعاونا على نشر هذا الحق وعلى فهمه وعلى العمل به كلما كان إن شاء الله أجمع للقلوب. بل إن بعضا من الإخوان قبل أن ينفصلوا عرضوا عليَّ أن يبايعوني فرفضت وقلت لهم إن المهم ليس هو أن نكوِّن جماعة جديدة ولكن المهم هو أن نكونها على أساس؟ وما زلت أرى الآن هذا الموضوع وأنا متفائل كنت متفائلا وازداد تفاؤلي بعد زيارتي للسودان وأرجو بإذن الله تعالى أن تتطور الحركات التي في السودان إلى حركة سنية جامعة، إن لم تكن تنظيماً واحداً حتى لو كانت تنظيمات مختلفة لكنها تكون حركة سنية بمعنى أنها حركة ملتزمة بالعقيدة السليمة كما هي في القرآن الكريم وكما بينها أهل السنة والجماعة حركة تلتزم بالعبادات الصحيحة التي لا بدع فيها ولا خرافات، حركة أيضا تهتم بالعمل السياسي وبالتصور الصحيح للدولة وموقف المسلمين منها تهتم بشؤون المسلمين بالعالم بل بالعالم كله العلاقات بين المسلمين وبين غيرهم، وتؤسس كل هذا على القرآن الكريم والسنة النبوية في ضوء منهج أهل السنة والجماعة، وأنا أرى في السودان الآن بذور لهذا فأريد بإذن الله تعالى أن أساعد في هذا الاتجاه فقط، فأنا واحد من الناس وليس بأكثرهم علماً ولا بأجدرهم بأن أكون قائداً. فليطمئن زعماء الجماعات فلا أريد أن أنافس أحداً منهم أو أكون جماعة جديدة.

* * *

مقتطفات من حوار مع مجلة البيان

العدد ٥٥ ربيع الأول ١٤١٣ الموافق سبتمبر ١٩٩٢.
والعدد (٥٦) ربيع الآخر ١٤١٣هـ الموافق أكتوبر ١٩٩٢م

❖ **البيان:** ذكرتم في الحديث عن الغرب أن في الغرب الآن عودة إلى الإيمان بالخالق، كيف هذا، وهل نعتبر هذه نقلة تساعدنا في دعوتهم للإسلام؟

- استقر في أذهان الغربيين في الماضي أن مسألة وجود الخالق هذه مسألة انتهت، عندما كنت طالباً أدرس الفلسفة (الغربية) ؛ كان الشيء الشائع بين الفلاسفة أن هذا الموضوع انتهى، لكن الذي فتحه الآن ليس الفلاسفة وليس رجال الدين، بل رجال الفيزياء، الفكرة ببساطة أنه في الماضي كان يقال بحسب النظرية الفيزيائية القديمة أن هذه المادة أزلية لم تخلق ولا تنعدم، فالسؤال من أين جاءت لا يطرأ، وهذه هي التي بني عليها الإلحاد الأوروبي تقريباً ولا سيما الإلحاد الماركسي، النظرية الحديثة التي يسمونها الانفجار الكوني العظيم تقول: إن الكون كله كان في شكل ذرة صغيرة وأن هذه الذرة مسبوقة بالعدم، فصار السؤال: من أين جاءت، - سؤالا مشروعاً - ففتح الباب بهذه الطريقة، لكن مع الأسف من الأشياء التي نحن ملامون عليها أنهم عندما بدأوا بمناقشة هذا الكلام لم يجدوا عندهم شيئاً إلا كتابات فلاسفتهم وفيها الكثير من الخلط الفكري، وأنا حاولت في مقال سينشر في شكل رسالة صغيرة أن أجمع حججهم الحديثة التي يدافعون بها عن الإلحاد بالرغم من حدوث المادة، وجئت بكلام العلماء المسلمين كالغزالي وابن تيمية في رد الحجج العقلية الشائعة بين الفلاسفة، تستغرب أن عقل إنسان يقول لهم أن شيئاً يأتي من العدم، القرآن يقول: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، يعنى إما أحد هذين أو أن له خالقاً، وكل من هذين مستحيل لذلك جاء ذلك في القرآن بصيغة سؤال استنكاري ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ خلقوا أنفسهم؟! هذا مستحيل، الذي يقوله الآن كبار هؤلاء الفيزيائيين والفلاسفة هو أحد هذين : إما أن يقول المادة خلقت نفسها، أو يقول إنها جاءت من العدم، وقليلون هم الذين يقولون ليس هناك مخرج إلا في وجود خالق، فلو أن الفكر الإسلامى كان متصلاً بهذه المسائل، ولو أن المسلمين شاركوا لربما ساعد ذلك على أن يعود هذا العلم الشارد إلى الله، وقد شجعت بعض الإخوان الذين أعرف أنهم متعمقون بعلم الفيزياء ولهم معرفة حسنة بدينهم أن يكتبوا في هذه القضية التي أصبحت الآن مفتوحة.

❖ **البيان:** لا يسمحون، فهم لا يعترفون بعالم عربي أو مسلم فيزيائي أحب أن يكتب بحثاً في هذا الموضوع. لا أظن أن هناك دورية أو مجلة تنشر له هذا البحث.

- ما داموا هم يكتبون تستطيع أن تناقشهم، وبعض الإخوة الآن يكتبون في المجلات الفيزيائية في الاتجاه العادي، أما الموضوع الديني فقد أصبح موضوعاً شائعاً بينهم، والمهتمون بعلم الفلك وأصل الكون يسمحون، ولا يشترط أن أقول لهم هذا إسلام أو غير إسلام، الحجج التي عرفتها من الدين وعلماء المسلمين أذكرها وأبطل بها حججهم.

❖ **البيان:** لكن أنت سوف تتعرض لأشياء إسلامية استقيتها من القرآن الذي نعتقد - نحن المسلمين - أنه وحي من السماء، وهم يرون أنك تتحدث عن أمور هي عندهم غيبية وليست عالمية.

- لا ينبغي أن أطرح هذه المسألة، لأن المناقشة عقلية : هل الكون له خالق؟ ومن المفروض أن أواجهه بما عندي من حجج عقلية أخذتها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أو بحسب ما وسعها علماء المسلمين وشرحوها، طبعاً لا أواجهه بأن القرآن قال كذا أو السنة قالت كذا. لأنه لا يؤمن بالأصل حتى إني قرأت منذ أيام كلاماً لشيخ الإسلام فحواه أن الخطاب في مكة كان: يا أيها الناس، لأن الكلام كان عن أصول الدين، والذي لا يؤمن بالأصول لا يخاطب بالفروع، وما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلا في المدينة ومعها أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، فنحن الآن في عصر نقول فيه يا أيها الناس ويا أيها الذين آمنوا، فعندما أقول يا أيها الناس نواجههم بأصول الدين وبحججه العقلية والعلمية لا بالاستناد إلى مصدرها.

البيان: قلتم: إن الفكر الإسلامي لا يمثل تحدياً فكرياً، وعنيتم بالتحدي الفكري الذي يحمل سياسة ويتجسد بقوة، أما الفكرة فلا قيمة لها إلا بآثارها، ومثلتم ذلك بالشيوعية التي كانت تحدياً فكرياً للغرب، هذا التحدي الفكري يحمل فكرة ويحمل نظاماً معيناً، نظاماً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً.. فهل مثلت الفكرة الشيوعية تحدياً للرأسمالية؟ أم هل تعني أنهم يرون فينا تجمعاً بشرياً مخيفاً فقط؟

يرون فينا - نحن المسلمين - أننا تجمع وأننا أناس رافضون للحضارة الغربية، هذا معروف، حتى فوكوياما هذا الذي كتب كتاب «نهاية التاريخ» كان فحوى كتابه أن كل العالم استسلم للمنهج الأمريكي في السياسة الليبرالية والديمقراطية، وفي الاقتصاد الحر، واستثنى من ذلك العالم الإسلامي، لأنهم ما زالوا يعتقدون أن عندهم بديلاً، لكن

هل فوكوياما قرأ كتباً للمسلمين تشرح له ما البديل الذي يرونه ؟ ! هذا الذي أقصده بالفكرة، هل هنالك كتب يقرأها الغربيون سواء بلغتهم، أو مترجمة عن اللغة العربية وشائعة بينهم كما كان الفكر الماركسي له أنصار ليست لهم علاقة بالدولة الروسية، بل ينتقدون الشيوعية ويميزون بين الفكر الماركسي والشيوعية، ومازال حتى بعد سقوط الشيوعية الكثير من الأفكار الماركسية التي دخلت في الفكر الغربي : في علم الاجتماع، في علم الاقتصاد والسياسة، وحتى في البلاد التي سقطت فيها الماركسية، لا تظنوا أن الفكر الماركسي سيسقط كما سقط النظام الشيوعي، إنه ما زال يعيش في عقول الناس، وهذا الذي تربوا عليه، فسيبقى عندهم وستبقى منه آثار كثيرة، وعندما كنا في البوسنة والهرسك - قبل الحرب - قلت لإخواننا هناك : لا تخدعوا أنفسكم وتظنوا أن سقوط الشيوعية معناه أن هذا الفكر خرج من رؤوس أبنائكم ورؤوسكم، فالماركسية كانت تمثل تحدياً فكرياً لأنه ما من قضية من القضايا التي يناقشها الغرب إلا لها فيها رأي مكتوب بتوسع ومعروف عند كثير من المفكرين الغربيين.

البيان: يعني كأنك ترى أن مشكلتنا أننا لسنا حاضرين حضوراً فكرياً في أذهانهم؟

نعم ولكننا حاضرون سياسياً، أناس يتجمعون، حركات أصولية.. ويخلطون بين الأصولي والقومي، لأن كل هؤلاء آتون من هذا الذي يسمونه "الشرق الأوسط" العجيب والمعقد! إنهم ليسوا معجبين بنا، وأذكر أنه في أيام حرب الخليج كتب أحدهم وقال: لماذا نحن مشغولون بهؤلاء الناس؟! إنهم لا يستحقون منا كل هذه الانشغال، الديموقراطية تسري في العالم كله: الدول الشيوعية، جنوب شرق آسيا، أفريقيا.. إلا هذا العالم الذي ليس فيه حاكم واحد منتخب ! وبعضهم يربط هذا بالإسلام. أنا لا أماري ولا أشكك في أنهم يخافون من العالم الإسلامي من الناحية السياسية؛ ولكن الذي أقوله دائماً، وبعض الإخوة يختلط عليهم الأمر أحيانا فيظنون أنني أقول إن الغرب لا يعادي الإسلام، ولا يعادي المسلمين أو أنه صديق لهم، أنا لا أقصد ذلك، بل أعني أنه لا يعدنا تحدياً فكرياً - وهذه مسألة أحزن لها - وأمثل لكم بمثال عندما أراد المركز الإسلامي في أكسفورد، وقد تعب بعضهم حتى وافقت الجامعة على إنشائه، فمن ضمن الأشياء التي طرحت كاعتراض على فكرة إقامته : هل في العالم الإسلامي من يكتب بحوثاً في مستوى أكسفورد؟! وهذا لو كان في ذهنه أدنى شك ما قال هذا الكلام، والذين أجابوا قالوا : طبعاً، هناك من يكتب، والمقصود بحوث باللغة الإنجليزية.

البيان: بما إنكم عشتم فترة طويلة في الغرب هل تتوقعون أن يسلم عدد كبير منهم وخاصة المثقفين؟

أولاً: كما قلت لكم من الناحية الفكرية بدأت تحصل من العلوم نفسها أشياء تزعزع الأساس الذي قام عليه الإلحاد الغربي.

ثانياً: هذه الأمراض التي انتشرت مثل الإيدز زعزعت بعض المسلَّمات عندهم، كان في الغرب شيء يسمى الحرية الجنسية، كانوا يعتقدون أن الإباحية وعدم التقيد بالزواج أمراً إنسانياً، وأنها حررت الإنسان من القيود التي قيده بها الدين ورجاله، وكانوا يعتقدون أن كل ما جاءت به الأديان هي قيود لا داعي لها، وأن الإنسان يمكن أن يتحرر منها دون أن تعود عليه هذه الحرية بالضرر. لكن انتشار الإيدز قضى على هذه الفكرة، حيث بدأ يعتقد كثير منهم أن الإباحية ليست أمراً طبيعياً، وكذلك انتشار المخدرات التي ينظر إليها في أمريكا والغرب على أنها عدوهم الأول، وأنها مع الإباحية والشذوذ الجنسي هي التي ستقضي على حضارتهم، وليس قوى من الخارج، فكل هذا يزعزع ثقة الناس بهذه الحضارة، فإذا جاءهم إنسان عنده بديل يحل هذه المشكلات، ويبقي لهم ما هو نافع، وما يفتخرون به من حضارتهم من تقدم علمي وتكنولوجيا، أظن أن هذا إن شاء الله سيكون سبباً في إسلام عدد كبير منهم. المتعصبون لن يتغيروا (السياسيون)، لكن عامة الناس، عقول الناس ليست ملكاً لأحد، قد «يريد السياسيون شيئاً أما عامة الناس الذين لا يعرفون عن خطر العالم الإسلامي شيئاً هم أفراد عاديون، الإنسان منهم يريد أن ينقذ نفسه، ولو وجد من يدعوه إلى الدين الصحيح بعد أن تزعزعت ثقته سيكون لذلك نتيجة طيبة.

البيان: ما رأيكم بالمراكز الفكرية والدعوية التي قامت في بلاد الغرب ؟ وهل سيكون لها أثر في الغرب أو في العالم الإسلامي؟

لا نحب أن نظلم هذه المراكز، لكن ليس لها دور من الناحية الفكرية، لأنها نفسها ليست مشغولة بقضايا فكرية، وكثير من الناس فيها يعيشون هموم بلادهم، وكثير من الجاليات الإسلامية في البلاد الأجنبية غير متمسكين بدينهم وإن كان هناك بعض الأشياء عند المسلمين - مهما كانوا ضعفاء - تبهر الغربيين، أذكر أن تاتشر قالت مرة إنها معجبة بالتماسك الأسري عند المسلمين، وهذا أمر يُعتز به بحمد الله، وعلى الرغم من الانحرافات الكثيرة عندنا فما زالت علاقتنا بالوالدين والأقارب أحسن بكثير مما عندهم، وهذا قد يكون له أثر بينهم.

***

هذه تجربتي..
وهذه شهادتي

حوار مع مجلة العصر الإلكترونية
عام ١٤٢١هـ

نتشرف بلقاء شيخ فاضل له أثره في مسيرة العمل الإسلامي ككل والعمل الإسلامي في السودان على وجه الخصوص، فضيلة الشيخ الدكتور جعفر الشيخ إدريس حفظه الله. نلتقي به ونصول ونجول معه في مختلف جوانب الحياة ومجالات الفكر والتجربة والرصيد.

بداية نستأذن فضيلة الشيخ في أن نتعرض لبعض جوانب حياته الفكرية والثقافية، يحدثنا الشيخ عن أبرز الأحداث التي أثرت في مسيرة حياته الدعوية ومن ثم الشخصيات والأفكار والتوجّهات التي أثرت أيضاً في مسيرة الشيخ ورصيده وتجربته.

أثر الوالدين:

الشيخ جعفر: الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله صلى الله عليه وآله وصحبه أجمعين. أنا من عائلة سودانية كانت تنتمي كمعظم السودانيين آنذاك إلى طريقة صوفية، وكانت الطريقة التي ينتمي إليها الوالدان هي الختمية، وكما هو معلوم أن الطرق الصوفية ولا سيما المنتشرة في بلادنا الآن، مبتلاة بكثير من المسائل الشركية لكن ربنا سبحانه أنعم عليّ بوالدين أثرا في حياتي الدينية والخلقية، فالوالدة لم تكن امرأة عالمة ولكنها كانت شديدة التدين وحازمة جداً، وقد أثرت علي تأثيراً كبيراً في موضوع الصلاة أكثر من الوالد، فقد كانت حازمة جداً في هذا الموضوع، وأذكر أنها كانت توقظنا أحياناً لتسألنا هل صلينا العشاء؟ وانعم الله سبحانه علينا بالوالد وكان رجلاً متسامحاً معنا، فكان يعاملنا معاملة الكبار آنذاك، ويستشيرنا في بعض أموره، وهذا لم يكن شائعاً في السودان ، ولكنهما كانا ينتميا إلى هذه الطائفة، فأول شيء أثر في حياتي تأثيرا كبيرا مازلت أحمد الله عليه وأن أحد أقاربنا كان من أول من نشر الدعوة السلفية في السودان، وكان من جماعة أنصار السنة المحمدية في بلدنا ببورسودان، وكنت آنذاك في الثانية عشرة حيث

تركت انتمائي إلى طائفة والديّ تحت تأثير هذا القريب، مما أحدث مشكلة بيني وبين الوالدين لاسيما أمي، حيث كانت تظن أن هذا نوع من الانحراف فقاطعتني وصارت لا تتكلم معي.

لكن ساعدني أن هؤلاء الذين تأثرت بهم كانوا من الأقارب وكان منهم رجلاً تحترمه الوالدة احتراماً كبيراً، وهو رجل بسيط يعمل خياطاً لكنه كان رجلاً عالماً، فجاء إلى أمي عند حصول هذه المقاطعة وأصلح بيننا، وبعد مدة تغير الوالد -وكان رجلاً يحفظ القرآن -حيث كنت آتي إليه وأقرأ عليه بعض الكتب.

العصر: هل تتذكر بعض عناوينها؟

الشيخ جعفر: كانت كتباً صغيرة مؤلفة في مصر، وكان ضمنها كتاب غاب عني اسمه الآن كان له أثراً عظيماً آنذاك، ومازلت أقرأ على الوالد حتى اقتنع وتغيرت بعده الوالدة أيضا وأعد ذلك من نعم الله علي أن كنت السبب في إنقاذهما من الخرافات والشركيّات ولله الحمد سبحانه.

حادث في الصغر:

وكان الحادث تعرضت له في الصغر أثر فيَّ تأثيراً ليس بالضرورة فكرياً، ولكنّي لمست نتائجه فيما بعد، إذ أصبت آنذاك، وكنت ألعب على صناديق كبيرة كانت لبعض السيارات، فقفزت من فوق واحد منها على مسمار يبدو أنّه أحدث كسراً في العظم بالداخل، وتألمت لذلك ألماً شديداً وتعقّدت الأمور -وكنت حينئذ في السادسة من عمري- واستمر المرض إلى السنة التاسعة تقريباً، وكان ذلك في زمن الإنجليز، وعند أن عرضت على الطبيب قرر هذا أن تُقطع رجلي، فوافق الوالد لكن الوالدة رفضت وبحزم شديد، ثم ذهبت تستشير السيد علي الميرغني -وكانت ما تزال في الطائفة حينئذ- فأجابها قائلاً: نعم.. اسمعوا كلام الطبيب. وما كان يظن أحد أن أمي ستخالف رئيس الطائفة لكنها فعلت ورفضت قوله ذاك فقال لها الطبيب: إما أن تقطع رجله أو يموت فقالت: خلّيه يموت!!!.. يموت برجلين ولا يعيش بواحدة. فكان من نتائج ذلك أن تأخرت في الالتحاق بالدراسة، لكن هذا التأخير أفادني جداً، إذ جئت إلى الدراسة بعد ذلك بنهم شديد، فأنا ما كنت بدأت أصلاً، وعندما بدأت الدراسة

كان زملائي في السنة الرابعة، وأنا في السنة الأولى، وكان لي أخ ضمنهم، وكنا قد ذهبنا سويّة إلى المدرسة فقُبل هو ولم أُقبل لصغر سني، فكان أخي هذا يمازحني بعد ذلك فيقول: احمد الله على هذا الحادث فلولاه ما دخلت الجامعة. وقد كانت المنافسة في الدخول إلى الثانوية كبيرة جداً آنذاك. إذ لم يكن في السودان وقتئذ غير ثلاث مدارس ثانوية فقط، فكان الدخول إلى أحدها في غاية الصعوبة.لكني أتيت إلى المدرسة في مرحلة نضج واجتهاد شديد، فكنت أذهب إلى الكتّاب باختياري إذ يوقظني الوالد لصلاة الفجر وأبقى في الكتّاب إلى السادسة، ثم أعود فأستعد للذهاب إلى المدرسة وعند رجوعي منها أذهب إلى الكتّاب مرة أخرى وبعد ذلك أنال شيئاً من الراحة، أعود بعدها إلى الكتّاب عند المغرب .

حلقات المساجد:

بدأت بعد ذلك دروس كان يلقيها رجل سنّي، فكنت أذهب إليها، ومن الرسائل التي بدأت أقرأها مبكراً وأمارس حفظ بعض الأحاديث منها رسالة الأربعين النووية، ثم لما ذهبنا المدرسة المتوسطة كنت أحضر مع الوالد دروساً في السنة كان يلقيها رجل عالم بالسنة،تخرج بالأزهر وكان مشهوراً في بلدنا، يدرّس كتب السنة فقط، وفي هذه الفترة بدأت أقرأ بعض الرسائل الصغيرة لشيخ الإسلام ابن تيميه....

العصر: أتتذكرون بعض عناوين تلك الرسائل؟

الشيخ جعفر إدريس: ربّما يكون منها العبودية، وأظن أن معظمها فصول كانت تستخرج من بعض مؤلفات شيخ الإسلام يسمونها بأسماء لا أذكرها الآن، وكانت معظم هذه الكتب تأتي من مصر...

العصر: هل نستطيع أن تقول أن هذا كان شيئاً نادراً في السودان آنذاك. أن يحضر تلميذ عند الشيوخ ويدرس بعض كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وكتب السنة؟ !

الشيخ جعفر إدريس: لا، لم يكن الحضور على المشايخ شيئاً نادراً، بل كان الناس لا يدرسون إلا عند الشيوخ آنذاك، لكن كان معظم ما يدرسون هو كتب المذهب المالكي، وكان هذا ما بدأت به أنا، فدرست بعض متون المذهب المالكي مثل العزية والعشماوية... وكان من الذين يدرّسوننا إخواننا الموريتانيون من الشناقطة، إذ كانوا

يأتون إلى الحج عبر بورتسودان، فكانوا يمكثون مدة في السودان وكان وضعه آنذاك أحسن مما هو عليه اليوم، فكنت أدرس على بعضهم، ومن الناس الذين حبّبوا إليّ السنة آنذاك – وكان ذلك بعد المرحلة الثانوية- رجل علامة فاضل من آل شنقيط، وكان يحفظ القرآن الكريم حفظاً ما رأيت مثله، لقد كان معجماً مفهرساً لألفاظ القرآن -إذا صح هذا التعبير- فإذا سألته عن أي كلمة في القرآن أتى لك بكل الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة!. وأظنه كان مالكيا متعصّباً ثم تحول فكان عنده رد فعل عنيف على كتب الفقه إذ كان يقول لنا: إن الأربعين النووية خير من كتب الفقه كلها.

فكنت أحضر عنده... ثم ذهب إلى السعودية وصار هنالك من كبار العلماء وإن لم يشتهر كثيراً ربما لأنه ليس من أهل البلد، فكان مع الشيخ ابن باز في إدارة البحوث والإفتاء، وكان يحقق بعض الكتب. هذا العالم الفاضل كان الشيخ إسماعيل الأنصاري رحمه الله .

العصر: ومتى كان هذا يا شيخ؟

الشيخ جعفر إدريس: كان ذلك بالنسبة لصحبتي له تقريباً في بداية الخمسينات سنة ١٩٥١- ١٩٥٢م على وجه التقريب.

مع الشيخ عبد العزيز ابن باز رحمه الله:

المرحلة الأخرى التي تركت أثراً في حياتي هي تلك التي بعد أن هاجرت إلى السعودية، وهناك التقيت بالشيخ العلامة عبد العزيز ابن باز رحمه الله، وكانت هذه من نعم الله عليَّ، فقد كان الشيخ رجلاً عالماً زاهداً تقياً، وأعده في مقدمة علماء العصر الجهابذة، والحق أقول إني لم أر مثل الشيخ لا بين المسلمين ولا غيرهم، فقد تميز بعده خصائص أوجزها كالآتي:

أولاً: التقوى: لقد عرفت علماء عدة من المسلمين عرباً وغير عرب، فكان مما يؤسف له أن تجد الكثير منهم ينتقد رموز المعاصرين إلى درجة تصل به إلى احتقارهم إلا الشيخ رحمه الله فقد كان ينقد غيره بأدب قل نظيره، لا يحتقر أحداً ولا تجري على لسانه تلك الكلمات الشنيعة التي تسمعها اليوم هنا وهناك في حق الدعاة

والعلماء، وكان رحمه الله يمدح الكثير من الدعاة أمثال المودودي والبنّا، ويجل غيره من العلماء فكان لا يذكر الشيخ الألباني إلا ويصفه بالعلامة، ويثني على زملائنا الموجودين حوله، وأذكر أنه سُئل مرة عن الشيخ المودودي وأنه يؤول فأجاب قائلاً: أنه -أي المودودي- أخطأ- لكن هذه المسالة دقيقة، وأن الإنسان إذا اشتهر فضله ينتقد لكن لا يشنَّع عليه.

ثانيا: الكرم: فقد كان رحمه الله حاتمياً، مشهوراً بالكرم، ولكم تمنيت أن إخواننا الذين أكرمهم الله بالسلفية كانوا مثله، فقد كان عنده من المزايا التي كنا نجدها لدى شيوخ التصوف فهؤلاء عندهم رقة وعندهم كرم، وكانت كلاهما في الشيخ، فكلّما تناولت عنده الغداء مثلاً أجد لديه جمعاً كبيراً لا يقل عن خمسة عشر شخصاً، من الذين يأتون لسؤاله أو طلب المساعدة منه أو زيارته.

ثالثاً: لقد منَّ الله على الشيخ بذاكرة علمية عجيبة جداً، فلم يكن يتميز بقوة الحفظ فقط، فالحفظ قد يتقنه الكثير، لكنه تميز بقوة الاستحضار وسرعته، وقد تمنيت أني عرفت الشيخ مبكراً واستفدت من نصائحه في طريقة الدراسة ..

العصر: هلا ذكرتم لنا بعض ما قرأتم على الشيخ؟

الشيخ جعفر إدريس: لم أقرأ عليه قراءة شخصية، لكني كنت أحضر دروسه في الجامع الكبير وكانت كتباً كثيرة، أتذكر عندما بدأت الحضور، كانوا يقرءون في فضائل الصحابة من صحيح البخاري، ثم بعد ذلك يقرأ المبتدءون عنده كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وقد كان من الغريب أنا لشيخ في تدريس المبتدئين يفيض في الشرح ويفصّل، بينما كان في درس الكتب الواسعة لا يعلق إلا الشيء البسيط، فاستمعنا إلى كتب كثيرة، وبعض دروس تفسيرالقرآن الكريم وكان يفضّل تفسير ابن كثير ويحبّه جداً، كان حضوري للدروس بعد عام ١٩٧٥م، حيث كنت أحرص على الاستعادة منه، وقد استفدنا منه رحمه الله سمتاً وعلماً، وكان دائم الذكر لله في كل أحيانه وما رأيت إنسانا مثله يعتقد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبادة، ويلمس حاجة العصر لها وكان ذلك إلى آخر حياته رحمه الله.

العصر: نعود إلى الكتب، ونسأل الشيخ جعفر عن معدل قراءته اليومية؟

الشيخ جعفر إدريس: أولاً أنا بطيء في القراءة، وأذكر أني عندما كنت في بريطانيا حضرت دورة في زيادة سرعة القراءة، فتعلمت شيئاً من الناحية النظرية، لكن بالرغم من ذلك كنت من البطيئين في القراءة في الفصل، لكن الذي آنسني نوعاً ما أن المدرس أخبرنا أن هناك مهارات أخرى غير سرعة القراءة، فبدأ يسألنا فكنت الأول، فضحك المدرس قائلاً: لأنك بطيء القراءة طورت المهارات الأخرى" وظني أن سرعة القراءة متعلقة بسرعة الكلام وأنا لست سريعاً في أي منهما، ولقد استفدت من الدروس التي حضرتها وقد أقنعني المدرس أن البطء ليس من العقل ولكنه من العينين فالذي يدرب على القراءة كلمة كلمة منذ الصغر لو أنه وسع المجال تدريجياً لصار يقرأ ربما يقرأ سطراً كاملاً كما يفعل الكثير من سريعي القراءة.

وعلى العموم بالرغم من كوني بطيء القراءة لكني أقرأ كثيراً، ومما استفدته من الشيخ ابن باز في هذا المجال -ولو كان متأخراً- أنه رحمه الله بذاكرته القوية وحرصه على فهم كل سطر يسمعه يركز اهتمامه على بعض الكتب ويحرص على سماعها عدة مرات فأنا سمعت أنه قرأ صحيح مسلم أكثر من ستين مرة، ولذلك كانت الأحاديث تسيل لديه كالماء.

وقرأ البداية والنهاية سبع مرات، فكان دائماً يتكلم عن المذاكرة، قائلاً: إن العلم يضيع بدون مذاكرة، ولم أكن أقرأ الكتاب أكثر من مرة ربما لبطئي في القراءة- إلا نادراً.

وأنا في قراءتي واسع الاهتمامات، لا أقتصر على مجال واحد، فأقرأ في الأدب الإنجليزي بمجالاته المتعددة، وأقرأ الكتب الفكرية والفلسفية والسياسية وعندي اهتمام بالكتب العلمية خصوصاً التي تكتب لعامة المثقفين، وأستفيد منها، وقد تحدثت عنها في كتابي عن وجود الخالق، حتى الكتب التي قد تشرح جانباً معيناً في المجال العلمي، فأنا أقرأ الآن -مثلا- كتاباً في الجينات؛ فهذا موضوع مهم، كما أحب قراءة كتب الفلك فقرأت كتباً كتبها فيزيائيون عن ما يسمى بالانفجار

العظيم، وخصوصاً الكتب التي تثير قضايا فلسفية مع كونها علمية، وللأسف أننا تنقصنا أمثال هذه الكتب في اللغة العربية مع أهمية هذا الموضوع.

وقد قرأت كتاباً من أحسن الكتب عن الداروينيه اسمه: "Darwin's Black Box" كتبه رجل علامة كاثوليكي، استفدت من هذا كثيراً جداً.

العصر: هل يفضل الشيخ جعفر كتباً بعينها؟

الشيخ جعفر إدريس: كما أسلفت أنا أحب الكتب التي فيها الجوانب الفكرية، لذلك فالكتب التي تمتلئ بالإحصاءات والأسماء لا أميل إليها، ولذلك طالما قلت للناس أن من رحمة الله بنا أن القرآن ليس كذلك، وبالرغم من ضعف ذاكرتي لكني في ذكري الحجج جيد فلا أنساها، سواءً كانت هذه إسلامية أو غير ذلك، وهناك كتاب قليل من الناس الذين يقرءونه لكني استمتعت به جداً وقرأته كاملاً، وهو كتاب "درء تعارض العقل والنقل" وأظن أن الجزء الأول، من أصعب ما قرأت وبقية الكتاب سهل، وقد ركزت اهتمامي على كتب ابن تيمية التي لها علاقة بأصول الدين، كدرء تعارض العقل والنقل" ومنهاج السنة، ولم اهتم كثيراً بكتبه الفقهية.

العصر: عرفنا الشيخ جعفر في السودان وعرفناه في الجزيرة فماذا عن الشيخ في بلاد الغرب ماذا استفاد الشيخ من إقامته هنا؟

الشيخ جعفر إدريس: أنا ذهبت إلى الغرب في عام ١٩٦٢م لإكمال الدراسات العليا بعد انتهائي من الدراسة في جامعة الخرطوم، وكنت في بعثة رسمية لنيل الدكتوراه، لكن نحن صلتنا بالغرب لم تبدأ منذ ذهابنا إليه، بل بدأت في الثانوية والجامعة حيث كان التدريس باللغة الإنجليزية، وكانت جامعة الخرطوم تبدأ الدراسة بها في السنة الأولى بأربع مواد ثم الثانية بثلاث ثم الثالثة باثنتين ثم الرابعة بمادة واحدة، يسمونها الدراسة الخاصة، فتعرضنا للفكر الغربي في آخر سنتين، حيث درسنا الاقتصاد والفلسفة في الثالثة، ثم الفلسفة في الرابعة، وكل هذا فكر غربي، وأرى أنه لا بد وقد أثر في فكرنا سلباً أو إيجابا.

ومن الأمور التي تحزنني أن معالجة القضايا والأفكار في الكتب الغربية أشمل وأعمق من كتب عالمنا العربي بكثير فتجد البعض يكتب عن الماركسية كلاماً لو رآه

ماركس لضحك، إن الكثير من نقد الماركسية عرفناه من كتب الغربيين، وهذه من الأشياء التي استفدتها من الشيخ ابن تيمية إذ يقول: إنه يستفاد من نقد أهل الأهواء لبعضهم البعض لأن كل منهم يذكر أخطاء الآخر لكني أقول إن هذه الكتب هي من وجهة نظر الكاتب، فما كل ما يذكره الرأسمالي عن الشيوعية صحيح وما كل ما يقوله الشيوعي عن الرأسمالية صحيح أيضاً، فمثلاً: يقول الغربي إنّ الملكية الشخصية شيء فطري، يعني إذا أنت لم تملك شيئاً تعد منحرفاً فطرياً!! وهذا ليس في الإسلام أبداً، وقد راجعت كتاب الله الكريم فلم أجده يمدح الشخص لأنّه يملك بل يمدح الإنفاق مثل قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ١-٣]، وبعض نقد الشيوعيين للرأسمالية صحيح جداً فمثلاً الانتخابات يقولون نعم هناك انتخابات لكنها شكلية لأن الفرصة فيها للأغنياء أو لمن يسنده الأغنياء، ولا ينجح الفرد غير الغني في ذاته أو غير المسنود من الأغنياء، وهذا عيب كبير في مسألة الديموقراطية لا بد أن يعدَّل إذا أراد الناس الاستفادة من تجربة الغرب ثم الكتب هذه التي تسمى (Public Science) كان أحسن من يهتم بها الاتحاد السوفيتي واستفدنا من كتبهم التي كتبوها في هذا المجال، وهم يخلطونها أحياناً بفلسفتهم، وتوجد بالغرب بعض الكتب المهتمة بهذه الناحية لكنها ليست بمستوى تلك.

العصر: ماذا أضاف الشيخ جعفر خلال مكوثه في الغرب إلى رصيده الدعوي والمعرفي؟

الشيخ جعفر إدريس: استفدت من إقامتي في الغرب أنّك ترى من عيوب الغرب بالمعاينة مالا يمكنك إدراكه عن طريق الكتب، فأنت هنا تتابع الأخبار والتحليلات فتكسب شيئاً جديداً، لذلك من الأشياء التي أنوي إن شاء الله الحديث عنها في السودان هي الديموقراطية، فقد رأيت الناس يتكلمون عن الديموقراطية كلاماً مثالياً، وكأن آثار الديموقراطية من انتخابات وغيرها هي التي ستحل لهم مشاكلهم، لذا سأقول لهؤلاء إن الناس الذين يطبقون الديموقراطية في مجتمعاتهم هم أكثر الناس نقداً لها، فمن أحسن الكتب التي تنقد الديموقراطية بشكل واسع وعميق ما كتبه الغربيون أنفسهم، ولأحد مشاهير الصحفيين وأظن اسمه "ليبمان" قول عجيب فهو

يقول: إن الديموقراطية تصل بالإنسان إلى الحكم، لكن لا تقول له ماذا يفعل بعد أن يصل" وهذا عيب كبير، لذلك قلت لأحد إخواننا أن هذا عكس ما يعتقده أهل السنة، فالديموقراطية يهمها طريقة الوصول إلى الحكم ولا تهتم بما بعد ذلك، أما أهل السنة فبعد الوصول إلى الحكم عندهم أهم من طريقة الوصول، فجوزوا إمارة المتغلّب ما دام سيطبق الكتاب والسنة ويقيم الشريعة، وهناك كاتب روسي اسمه "سورجنستين" جاء إلى الغرب وإلى أمريكا وانتقد الرأسمالية، وكان من ضمن ما يقوله عن الديموقراطية أنه قال: إن الديموقراطية كانت مفيدة عندما كانت مرتبطة بالدين، فالديموقراطية تعطيك حرية القول والدين يرشدك إلى ما عليك فعله، لكن عندما ذهب الدين صارت الحرية هي حرية" فعل الشر!!" وقد قرأت قريباً في ملحق عن الكتب تنشره الواشنطن بوست، عن صدور كتاب يتحدث فيه الكاتب عن هذه المشكلة التي تكلم عنها الشيوعيون قديماً لكن بأدلة حديثة، وبيّن عيوب الديموقراطية مضيفاً أن الثروة في هذه المجتمعات تتركز بأيدي جزء بسيط من أفرادها وضرب مثلا "بيل غيتس" إذ قال إن ثروته تساوي ثروة بضع وأربعين بالمائة من المجتمع الأمريكي. فأمثال هذه العيوب في أنظمة هذه المجتمعات السياسية والاقتصادية، وقفنا عليها من خلال المكوث هنا، أضف إلى ذلك المشكلة الخلقية التي يعانيها هذا المجتمع وهي جداً مخيفة، فانتشار المخدرات في المدارس والجامعات وغيرها من صفوف المجتمع الغربي وكذلك ذيوع الانحلال الجنسي وغيرها من المشاكل الخلقية، والتي قد لا يتنبه إليها الكثير من أفراد هذه المجتمعات، إلا عقلاء مثقفيهم.

ومن الأشياء التي استفدتها أثناء إقامتي هنا، هي قراءة البحوث الموثّقة الموضوعية المبنية على حقائق ملموسة، وقد لا توافق على النتائج التي توصل إليها هذا الكاتب أو ذاك وكثيرا ما أبني على الحقائق التي يذكرونها وأتوصل إلى نتائج مختلفة لما توصلوا هم إليه وعلى سبيل المثال أذكر أني أقرأ حالياً كتاباً لإحدى رائدات الفكر النسائي في الغرب، حيث تذكر في أحد فصول كتابها هذا أنهن لا يقصدن من دعوى المساواة بين الرجل والمرأة أن تكون المرأة رجلاً!! ولكن يقصدن أن تعتز المرأة بأنوثتها، إذ إن ما يحدث الآن أن همّ المرأة الأوّل أن تكون مثل الرجل أو أن ترضي الرجال!! ثم ذكرت تفاصيل ما

تصرفه المرأة من المال على مظهرها، وهنا قلت لو كانت المرأة هنا مستترة ما كانت في هذا الوضع المزري، وهنا تظهر الحكمة من الحجاب فقد قالت إحدى الأمريكيات لأستاذها المسلم: إنها كانت تعمل في مجال تصميم الأزياء وأنهم كانوا لا يصممون إلا ما يرضي الرجال، وأنها تعتقد أن أكثر شيء يعطي المرأة حريتها هو الحجاب، إذ لا علاقة لها حينئذ بالرجال!!؛ لذا يجب أن ننظر إلى الغرب كتجربة أعطانا الله إياها، ليرينا ماذا يحل بالمجتمعات التي تبتعد عن أوامر الله سبحانه وتعالى، لذلك ترى هنا بالإحصاءات والدراسات من مظاهر الفساد ما قد يغيب عنك ظاهراً من رؤية المجتمع ولصاحب كتاب "نهاية التاريخ" كتاب ذكر فيه من الإحصاءات ما يدل على مدى التدهور المخيف الذي تعانيه المجتمعات الغربية في مجال الأخلاق والقيم.

العصر: تعرّضتم في معرض حديثكم للعودة إلى السودان، فماذا ينوي الشيخ جعفر فعله هناك عند عودته؟

الشيخ جعفر إدريس: طبعاً أنا مستقر الآن هناك وإتياني إلى هنا إنما هو لتتبع أوضاع الجامعة وحضور اجتماعاتها.

وما أنوي فعله هو نقل ما أكرمني الله به من خبرة وتجربة، للاستفادة من ذلك هناك، وصرت الآن على صلة بالحكومة، بعيداً عن المناصب، حيث أستعد للمشاركة بالنصح والإرشاد، كما أعزم -إن شاء الله- الكتابة في الصحف بحيث يكون لي عمود ثابت في إحداها، كما أنوي إلقاء دروس في المساجد وإقامة علاقات حسنة بالجماعات الإسلامية جميعها هنالك، وأحرص على أن تستمر هذه العلاقة حسنة، وأنا الآن -والحمد لله- على صلة طيبة بهم، فقد جعلنا الله سبحانه، أدوات لنقل التجارب إلى الغير للاستفادة منها.

العصر: كيف ينظر الشيخ جعفر الآن إلى الحكم بعد مسيرة أكثر من إحدى عشرة سنة؟

الشيخ جعفر إدريس: الحكم هناك أول من ينتقده هم أصحابه، وقد صرح البشير أنهم شغلوا عن قضايا الناس، بمشاكلهم في الحكم، وإن كنت أتعجب من قوله أن الخلافات بدأت منذ عام ١٩٩٢م، فربما بعد إبعاد الترابي وحصول هذه القطيعة أن يكون هناك شيء من سير الأحوال إلى الأفضل.

العصر: هل ينوي الشيخ جعفر رأب الصدع أم التقويم الداخلي ولو كان ذلك على حساب قضايا ذات أهمية كبرى في السودان؟

الشيخ جعفر إدريس: لا بالعكس، فهناك أحد الإخوة كان مسؤولاً عن لجنة اسمها لجنة رأب الصدع، فاتصلت به أقول له: ولماذا ترأب الصدع يا أخي فما كل صدع يرأب؟.! فبعض الصدع مفيد فكتبوها في الصحف!!

لذلك أقول: أنا ما أرى ذلك، ثم إني لست في موضع يمكّنني من إصلاح ذات البين بحكم خلافاتي مع الترابي لذلك أتمنّى أن موضوع الترابي انتهى، والمتعلّقون بالرجل الآن هم متعلقون بشخصه وهذا لن يستمر طويلاً، وأغلب هؤلاء طلاب جامعات، ولم أكن أظن أنه سيكون عنده هذا العدد لذلك كان هذا غريباً بالنسبة لي، وقد شرح لي الذين اختلفوا معه أنهم كانوا يعطونه ميزانية بالملايين للتحرك بين الناس، ولم يعرف الطلبة غيره لذلك تعصّبوا له، وهذا كله في العشر سنوات الأخيرة، فلم يكن يذهب إلى الطلبة غيره يتكلم معهم ويؤثر فيهم، ومما قاله لي أخ منهم: أن الناس ينتقدون شباب الحركة الإسلامية في الجامعات بأن ليس عندهم معرفة بالدين، وأنهم متعصبون لقياداتهم فقط، فقال: إن الترابي قصد هذا، وحسب تعبيره: أن الترابي مجتهد في التجهيل، لأنّه وجد أنّ من آثار هذا الجهل الطاعة العمياء له.

العصر: بما أن الشيء بالشيء يذكر نسألكم عن رجل عرفتموه، وعلمتم عيوبه في وقت مبكر، وانتقدتموه مبينين أخطاءه هذا هو الدكتور حسن الترابي ماذا لدى الشيخ جعفر عن هذا الرجل؟

الشيخ جعفر إدريس: ذهبت والترابي إلى نفس المدرسة، وكنا نسكن في نفس الداخلية (سكن الطلاب)، وكان الترابي أمامي في الدراسة سنتين، ولم يكن معنا في الجماعة آنذاك، وعندما كنت في السنة الأولى بالجامعة سمعنا أنه انضم إلى الجماعة وفرحنا بذلك، ثم عرفته عن قرب وصحبته في الجامعة، لكني بدأت ألمس فيه عيوباً في الفكر والسلوك، والبعض يظن أن دافع نقدي له هو التنافس، ولكني لاحظت عليه ذلك وأنا مسؤول عن التنظيم ولم يكن هو آنذاك شيئاً يذكر، وانتقدته وقتها ولم تكن بيننا أي منافسة. ورغم تحفظاتي التي في قلبي عليه فقد تعاونت معه بعد أن صار مسؤولاً وكنت أسمع منه فلتات فمثلاً في وقت مبكر جداً كان يكره أهل السنة ويشمئز من ذكر البخاري وابن كثير وغيرهما، وليس عنده توقير للصحابة، وقد قلت لبعض إخواننا الذين

إذا انتقد أحداً رماه بالاعتزال، قلت لهم لا تظلموا المعتزلة فهؤلاء كانوا عبّاداً ومخلصين، وكان ما يدعون إليه فكراً بالنسبة لهم وكان دافعهم إليه حسناً وهو اعتقاد تنزيه الله سبحانه فكثير ممن يسمّى اليوم معتزلة لو رآهم المعتزلة لتبرّأوا منهم، أو يقول لك أشعري حتى الأشاعرة لم يكونوا كذلك، لذا أقول إن هؤلاء أقرب إلى ما يسمّى بالزنادقة أو الفلاسفة الذين لم يكونوا متدينين ولا أقول عقلانيين فقد تتبعت آيات القرآن الكريم التي ورد فيها ذكر العقل فما وجدت الله سبحانه يذم فيها العقل بل يجعل الله العقل مع الإيمان وعدم العقل مع الكفر، وأهل الأهواء يختلفون فمنهم صاحب هوى في الاعتقاد ومنهم في السلوك، ومنهم من جمع بين الأمرين.

العصر: هل أحدث هذا النقد تأثيراً في الصف بمعنى إيجاد نوع من اليقظة والاستدراك أم كانت هناك مجاراة ومسايرة للترابي؟

الشيخ جعفر إدريس: نعم كانت هناك مجاراة لما يقوله الترابي، نحن استطعنا إقناع البعض، لكن لم يكن نقدنا تيّاراً لأنهم أشاعوا أن هذه مسائل شخصية وأنها من قبيل منافسة الأقران، والناس مهيئون لقبول أمثال هذه الحجج البسيطة فهم يميلون إلى ما يعرفون، والمشكلة أن الرجل يتنكّر وأنا لا ألوم الناس لأني لا أميل إلى أن يسرع الناس إلى قبول كل اتهام يتهم به شخص من الناس خصوصاً إذا كان هذا الشخص ينكر وقد كان الترابي رجلاً منافقاً يقول في جلساته الخاصة خلاف ما يعلنه للناس ولا يزال حتى اليوم وما كان يقوله في جلساته آنذاك أقل بكثير مما يقوله الآن، فهو مسكين عقله يقبل الشبهات (كل ما خالطه أثّر فيه) كما يعبر ابن القيم.

العصر: خاصة في غياب الرادع الداخلي داخل الصف يزداد الترويج لأمثال هؤلاء.

الشيخ جعفر إدريس: نعم، وليس ذلك فقط فقد صار محبوباً مرغوباً لذلك صارت فيه صفات ما كانت لتظهر فيه قديماً معنا نحن زملاؤه فقد صار يحب القهر، دكتاتورياً متسلّطاً بل حتى لما ظهر لبعض الناس انحرافه لم يجاهروه بالنقد وبعضهم يرى أنه لا يتكلم في ذلك حفاظاً على الصف حسب زعمهم.

العصر: ألا ترى أنه كان من الأولى أن تفنّد مثل هذه الشبهات والانحرافات في بداية المسيرة، فهل يتأسف الشيخ جعفر أنه لم يكتب شيئاً عن ذلك؟

الشيخ جعفر إدريس: نعم أتأسّف لذلك وأعتقد أنّ من أخطائي الكبيرة أنني لم أكتب شيئاً في ذلك وظننت أن عندي ثقة بالناس، خاصة أننا انتقدنا وبيّنّا لهم وأنه

شخص واحد ولن يؤثر لكن كان ظني خطأ ولم يقتصر خطأي على عدم الكتابة بل ومنعت غيري من أن يكتب، ومن هؤلاء الشيخ سفر الحوالي وكان مهتم بذلك في وقت مبكر جداً، وجمع أشياء في هذا الصدد، لكن لعل عذري أن الوقت آنذاك كان وقت انتخابات، وكان الترابي هو زعيم التيار الإسلامي، ومنافسوه ليسوا من الإسلاميين، فخشيت أن يؤثر ذلك على الناس وأظن أن السبب في هذا هو الفكر التنظيمي إذ يرى الكتابة في هذا تشق الصف مع أن بيان الحق أهم من ذلك بالطّبع.

العصر: لكن كما تعلمون يا شيخ أن للتأثير شروطاً، وأكثر المتصدرين اليوم لهذا الجانب أناس ضعيفو التأصيل قليلو البضاعة الشرعية مما يجعل عملهم هذا تمييعاً للمنهج لا تأثير فيه يذكر.

الشيخ جعفر إدريس: نعم هذا صحيح .

العصر: كما ترون اليوم يخلط الكثير اليوم بين المنهج الشرعي القويم وبين المنهج الحركي، وصار الأخير عندهم ديناً مما سبّب انحرافات كثيرة في الصف الإسلامي فما هو الحل بالنسبة لهذه القضية وما هو الفرق بين المنهجين؟

الشيخ: الحل أن ينشط أصحاب المنهج الشرعي أكثر من قبل، فكثير من أتباع المنهج الصحيح مصاب بالانعزال والانكماش بعيد عن معمعة الواقع وأماكن التأثير، ويذكر لي الأخ عبد الله إدريس أنه عندما كان مسؤولاً في إسنا كان يذهب إلى بعض إخواننا السلفيين يعرض عليهم التعاون فيما بينهم وقد اقتنع البعض، فلا بد من المشاركة والذهاب لهداية الناس، فنحن إذا انتظرنا مجيء الناس متى سنؤثر في المجتمع؟ فما دام الناس مسلمين فلا بد من العطف عليهم عند بيان الحق وهذه مسؤولية الذين يعلمون، ولم يكن أهل السنة هكذا فابن تيمية لم يترك أحداً في عصره إلا وناقشه، وهناك علماء اليوم سلفيون يتمتّعون بسعة الصدر لكن مشكلتهم أنهم من أبناء الجيل الماضي فليس لديهم معرفة بالأمور الحادثة اليوم، وهناك أفراد من الجيل الحالي يعرف عن هذه الأمور فلو ضمت هذه المعرفة إلى سعة الصدر يكون هناك تأثير بإذن الله تعالى.

***

الداعية د. جعفر شيخ إدريس في حوار للرياض

الرياض -عبد الحي شاهين
١٤/٠٦/٢٠٠٢

الرياض: يتحدث كثيرون عن صراع بين الإسلام والغرب، ما دوافع هذا الصراع؟

الدكتور جعفر: الصراع بمعنى أن يكون الإسلام مختلفاً عن الغرب في عقائده الأساسية فهذا أمر بدهي، فالعالم الإسلامي مبني على عقائد الدين الإسلامي، وهي ألا يعبد إلا الله سبحانه وتعالى، وأن يشهد أن محمداً رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وخاتم النبيين، وأن القرآن حق وهكذا، أما الغرب فتتقاسمه اعتقادات مختلفة، فهناك العقيدة النصرانية باختلاف طوائفها، ثم هناك العقيدة اليهودية، لكن الغالب على الغرب من الناحية العملية، بغض النظر عن الانتماءات الدينية، هو عدم أخذ الدين مأخذ الجد ووضعه في ركن من أركان الحياة، فلا يتدخل في السياسة ولا في الاقتصاد ولا يراعى في القرارات الديمقراطية، مثل القرار الذي أقره البرلمان البريطاني قبل أيام بالسماح للشاذين جنسيا من الرجال بتبني الأطفال، فهم لا يراعون الناحية الدينية التي هي أساس الصراع، وأجد نفسي متفقا مع هنتنغتون في رأيه أن لب الحضارة هو الدين، وإذا كنا مختلفين مع الغرب في لب الحضارة فبيننا خلاف حضاري بجانب ما بيننا من اختلافات في المصالح، وهنالك خلافات سببها الناحية التاريخية، والغربيون والمسلمون لا ينسون الحروب الصليبية، وأن الغرب سيطر على العالم الإسلامي بقوة السلاح، وهنتنغتون نفسه يعترف بذلك في كتابه حيث يقول: «لم نقنع الناس بفكرنا ولا غيره، لكن هزمناهم بقوة السلاح، وإن المسلمين لم ينسوا هذا أبدا»، وكلامه في هذا صحيح، لكن هذا الصراع يمكن أن يحل بغير السلاح، باستخدام الحوار المباشر والفاعل، لكن تقسيم هنتنغتون للحضارات بأنها الحضارة الإسلامية مع الكونفوشية ضد الغرب، هو تقسيم خاطئ، فلو أخذنا في الاعتبار كلامه السابق بأن لب الحضارة هو الدين، فمن المؤكد أن الإسلام والنصرانية أقرب إلى بعضهما من الكونفوشية، فوضع الإسلام مع الكونفوشية من الناحية الدينية خطأ، أما من الناحية السياسية فمرد ذلك أن مشكلة الحضارة الغربية ممثلة في أمريكا خصوصا- مع أنها دولة قوية وذات اقتصاد ضخم - لكنها تعيش حالة هلع

خشية أن تزول سيطرتها وقوتها، ولذلك لا تريد لأي دولة أخرى أن يكون لديها قوة، فربما هذا يجعل الحضارة الإسلامية فعلا تتعاون مع الحضارات الأخرى التي تستهدف الغرب بقيادة الولايات المتحدة ويستهدفهم الغرب كذلك، ويحاول أن يكبتهم بمنعهم من التقدم أو يكبت لديهم أي نوع من القوة.

الرياض: هل ترون أن ذهنية الحروب الصليبية ما تزال تسيطر على الغرب، وكيف يفهم خطاب بوش الأخير بعد أحداث سبتمبر الذي تعرض فيه إلى ذكر كلمة الحرب الصليبية؟

الدكتور جعفر: كلمة "كروسيد" التي استخدمها بوش تستخدم أحيانا مجازا ولا تستعمل بمعنى الدين أو الصليبية، وكل عمل قوي حتى لو كان من الناحية المعنوية يسمونه كروسيد، وأظنه قصد هذا المعنى، لكن ربما كانت زلة منه، ولذلك انتقده فيها بعض الأمريكيين، ومنذ ذلك الوقت لم تتكرر أبدا، لكن الرئيس الأمريكي فعلا ينظر إلى هذا الصراع من الناحية الدينية، ويعتبر أن كل هذه الدول وكل هذه الأشكال من الحكومات الإسلامية والجماعات يجمعها الإسلام، وأنها خطر على الغرب، لكن من ناحية المسلمين فهم حتى لا ينطلقون من ناحية إسلامية، ولا ينظرون إلى الغرب على أنه خصم من الناحية الدينية، الدول الغربية تأثرت في نظرتها بالفكرة الغربية القومية التي ما كانت عند المسلمين أبدا.

الرياض: في ظل هذا الصراع ماذا عن إمكانية الحوار؟

الدكتور جعفر: الحوار بالنسبة للمسلم لا ينقطع، ونحن مستعدون دائمًا لكل من يريد أن يحاورنا حتى لو كان أكبر الأعداء، والله سبحانه وتعالى أمرنا بالدعوة والتي لا بد لها من حوار، والذي يسميه القرآن المجادلة، فعندما تدعو إلى ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، أحيانا تثير هذه الدعوة عند من دعوته أسئلة واعتراضات فيحتاج إلى حوار، لذلك قال الله سبحانه وتعالى : (وجادلهم بالتي هي أحسن) حتى إن بعض العلماء قالوا: إن من الخطأ أن يقال بأن الدعوة هي بالحكمة والموعظة الحسنة والحوار، حيث إن هذين شيئان مختلفان، فيجب أن ندعو بالحكمة والموعظة الحسنة، وبعد ذلك نجادلهم، أي "جادلهم" معطوفة على "ادع" وهما شيئان مختلفان، فكل من يستمع إلى الدعوة ويعرف شيئًا عن الإسلام ويريد أن يحاورنا فأهلا به، حيث تكمن قوتنا

الحقيقية في أن الحق معنا، فالحوار دائما في مصلحتنا إن شاء الله، وإذا كنا الآن ضعفاء من الناحية الاقتصادية والإعلامية ومن ناحية السلاح المادي، فما نزال أقوياء من ناحية الدين الذي نحمله، وهذا هو السبب في أن الناس في الغرب يسلمون، ولا أحد من العالم الإسلامي يتنصر أو يتحول عن دينه، بسبب امتلاكنا لقوة الحق، وكثير من العقلاء إذا عرفوا الإسلام رأوا فيه أنه الدين الحق ، فالله سبحانه وتعالى أمرنا بالدعوة قبل الأمر بالقتال وأمرنا بالجهاد بالقرآن قبل الجهاد بالسنان، وقال: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، حتى بعد أن أذن للمسلمين أن يقاتلوا وبعد أن أمروا بالقتال لم يتوقف الأمر بالدعوة بالتي هي أحسن ولا بالمجادلة، فالحوار واجب، وإذا طلب غير المسلم الحوار فيجب أن نراه واجبا شرعيا.

الرياض: الدين الإسلامي يدعو إلى الحوار والتسامح لكن من نحاوره (الغرب) غير جاد في ذلك وخطابه غالبًا ما يكون استعلائيًا؟

الدكتور جعفر: نعم هناك استعلاء والغربيون مغرورون فعلاً، والأمريكيون يقولون كما قال قوم عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، ويقولون: ليس هناك دولة في التاريخ كان لها من القوة ما لنا، ويرون نظامهم السياسي هو النظام الأمثل، وإذا نظرت إلى العالم ورأيت كيف أن الناس في العالم كله معجبون بالديمقراطية، ولا أحد ينتقدها إلا الغربيون أنفسهم، فكأن النظام السياسي الغربي صار حتى بالنسبة لأعداء الغرب هو النظام النموذجي الذي ينبغي أن يحتذى، وهذا يغرهم، ويدعون كذلك أن النظام الرأسمالي هو الذي جعلهم أقوياء من الناحية الاقتصادية، وأن جميع البشر يريدون أن يحتذوا بهم، فهم لديهم الأسباب التي تجعلهم مغرورين، لكن هنالك كثير من العقلاء منهم، ينظرون إلى ما وراء هذا، وإلى الأسئلة الأساسية في هذه الحياة عن الخالق سبحانه وتعالى وعن حقوقه، وكثير ممن يسلمون - إن لم يكونوا جميعهم - فإن سبب انتقالهم من النصرانية إلى الإسلام هو عدم اقتناعهم بأنه يمكن أن يكون للخالق (ولد)، نعم هنالك كثير منهم يتحدث بغير موضوعية كالبيان الذي أخرجه مجموعة من المثقفين الأمريكيين، ورد عليه مجموعة من المثقفين العرب، وهو فعلاً فيه نوع من الاستعلاء، وقد رد عليه أيضا مجموعة من المثقفين الألمان، وقالوا لهم: نحن نوافقكم في القيم الخلقية التي ذكرتموها، لكنكم لم تلتزموا بها في حربكم ضد المسلمين

في أفغانستان، وليس هناك من فرق بين أن يقتل الأبرياء في نيويورك وأن يقتل الأبرياء في أفغانستان.

الرياض: هل تلحظون دورًا للحركة الصهيونية في تعزيز هذا الصراع؟

الدكتور جعفر: بعض اليهود نصبوا أنفسهم متخصصين في كل ما له علاقة بالإسلام، وهم يخيفون الغربيين من المسلمين إخافة شديدة، ويقولون عن الإسلام والحركات الإسلامية كلاما نحن نقول ليته كان صحيحا.

وقد كتب أحدهم، وهو متخصص في شؤون العالم الإسلامي، بحثا قال فيه: إن كل الحركات الإسلامية في الحقيقة حركة واحدة بأسماء مختلفة، وإن قيادتها العليا هي الدكتور حسن الترابي في السودان والشيخ حسن نصر الله في لبنان. وبالإضافة إلى الحركة الصهيونية هنالك جماعات متعصبة من النصارى، وهم وراء تشويه الإسلام، ويعملون على إقناع الكونغرس وغيره من المؤسسات الأمريكية بأن السودان مثلا أكثر بلد لا توجد فيه حرية للأديان، مع أني أظنه من أكثر البلاد تساهلاً في هذا الأمر مع النصارى، فهذه الجماعات هي التي تؤلب القيادات السياسية في أمريكا ضد بلد كالسودان والسبب هو الناحية الدينية.

الرياض: ذكر بحث صدر حديثا أن لليهود نفوذاً كبيراً في المؤسسات الرسمية في أمريكا، وأن غالبية العلماء في الغرب هم من أصل يهودي، وهم يعملون بشتى السبل لتشويه صورة الإسلام والمسلمين؟

الدكتور جعفر: من المبالغ به أن يقال بأن غالبيتهم من اليهود لأن نسبتهم ضئيلة جداً بالنسبة للشعوب الغربية، لكن نسبتهم في العلماء أكثر من نسبة عددهم، واليهود كالآخرين ليسوا على قلب رجل واحد، فهناك جماعة من اليهود ضد دولة إسرائيل نفسها، ويرون أن هذا شيء مخالف للدين، ويعتقدون أن الصهيونية ليست هي حركة دينية، وإنما هي حركة علمانية لبست ثوب الدين، كما أن كثيرا منهم ملحدون لا يؤمنون بأي دين، لأن اليهودية اختلط فيها الانتساب الديني مع الانتساب العرقي فصارت اليهودية كأنها جنس، وهنالك فعلا عدد كبير من المؤثرين في مجالات الإعلام مثل فريدمان أو ويليام سفاريام الكاتب في نيويورك تايمز، وهؤلاء مؤيدون لإسرائيل تأييدا مطلقا، هذا بالنسبة للولايات المتحدة، أما في أوروبا وإن كان

هنالك تأييد لكنه أقل بكثير مما في أمريكا، ومؤخراً قرأت مقالا في صحيفة الإندبنديت يقول كاتبه: إن الأمريكيين يريدون أن يتهموا كل من ينتقد إسرائيل بمعاداة السامية، وهذا خطأ كبير.

الرياض: بعد هجمات سبتمبر هل حدثت لكم كدعاة أي مضايقات من الأمريكيين؟

الدكتور جعفر: لم نلحظ تضييقاً في مجال الدعوة، لكن هناك تضييق بشكل عام على المسلمين وغيرهم، وهذه من المسائل التي تناقش كثيراً في الصحف، وهي قضية الموازنة بين الأمن والحرية، وهذه مشكلة كبيرة عندهم الآن، نعم هناك تضييق بصفة خاصة على المسلمين، لكن ليس في الدعوة بمعنى أن يقال لك: لا تقل هذا الكلام أو لا تخطب هذه الخطبة.

الرياض: إذن ماذا عن التفتيش الذي طال بعض المؤسسات الإسلامية في أمريكا مؤخراً؟

الدكتور جعفر: هذا يدل كما ظهر بعد حوادث ١١-٩ على أن الأجهزة الأمريكية لا تتعاون كثيراً فيما بينها، فيمكن أن تكون هناك مؤسسة ذات صلات قوية بالحكومة الأمريكية لدرجة اتهامها بالعمالة للحكومة، ثم بعد ذلك تأتي جهة أخرى من الأجهزة الحكومية وتعتبرها جماعة إسلامية كالجماعات الأخرى فتتعرض لها بالتفتيش والتضييق، لكن الحكومة الأمريكية أعادت كل ما أخذته من هذه المؤسسات التي تعرضت للتفتيش والمصادرة. والأمريكيون أكثر ما يخافون من المنظمات الإسلامية التي لديها أموال طائلة، فيخشون أن تمول هذه المنظمات الإرهاب في العالم حتى وإن ظهرت بمظهر المؤيد لأمريكا.

الرياض: بعد ١١/سبتمبر دخلت مجموعات كبيرة في الإسلام، ألم تنزعج الحكومة الأمريكية من ذلك؟

الدكتور جعفر: حتى لو كان هناك انزعاج فهي لا تصرح بذلك، وحتى قبل ١١/سبتمبر فقد اعترفت مستشارة البيت الأبيض لشؤون الأمن القومي كوندوليزا رايس بأن الإسلام هو أسرع الأديان انتشاراً في الولايات المتحدة، وهذا صحيح، فلابد

أن يكون مصدر قلق بالنسبة لهم لكن ماذا يفعلون؟ وربما تكون حوادث سبتمبر أعطتهم فرصة للتضييق على المسلمين، وكنت أظن دائما أن التضييق قادم لا محالة، وقلت لبعض الدعاة أن ينتهزوا هذه الفرصة ويعملوا على نشر الدعوة؛ لأنهم يخافون أن تأتي الحضارة الإسلامية وتهاجمهم وتنافسهم من الداخل وهو ما لا يقبلونه أبدا.

الرياض: هلا عقدت لنا مقارنة بين حرية الدعوة في الغرب وبين العالم الإسلامي؟

الدكتور جعفر: في البلاد الغربية معروف أن هناك حرية كلمة للحق وللباطل، وهم يقولون لنا: نحن نسمح لكم بنشر دينكم، فلماذا لا تسمحون لنا بنشر ديننا، فرددنا بأنهم لا يفعلون ذلك تفضلاً منهم على المسلمين، هم يعتقدون أن هذا النظام يصلح لهم ويفيدهم، وكما يسمحون للمسلمين يسمحون للبوذيين والعراة والشواذ والشيوعيين حتى لمن يعبدون الشيطان، فهو ليس تفضلا منهم على المسلمين، هذا نظامهم، وعلينا نحن أن نستغل هذا النظام في الدعوة إلى الحق، أما في العالم الإسلامي، وخاصة في البلاد التي فيها نوع من الاستمساك بالدين فلا يمكن أن تكون حرية الدعوة مفتوحة إلى كل الأديان بهذه الطريقة التي في الغرب، لكن هناك بعض البلاد المنتسبة إلى الإسلام تحارب حتى الدعوة إلى الإسلام الصحيح، ومن المؤكد أنها في هذا أسوأ من الدول الغربية، لأن الغرب يسمح لمن يدعو إلى هذه الدعوة الصحيحة، كما يسمح لغيره أن يدعو إلى دعواه الباطلة لكن هنا السماح للدعوات الباطلة وتضييق على الدعوة الحق.

الرياض: هل هناك عدد كبير من الدعاة في أمريكا ؟

الدكتور جعفر: عدد الدعاة الذين يعرفون دينهم ويتكلمون الإنجليزية بطلاقة فيه ندرة كبيرة، ونحن نعاني من ذلك معاناة شديدة.

الرياض: ألم يسبب ذلك إشكالا، خاصة وأن الإسلام يواجه حملة شديدة لتشويه صورته، الأمر الذي يستدعي الكثير من الجهود؟

الدكتور جعفر: نعم سبب الكثير، و قد لا يتمكن بعض الدعاة الذين كانوا يأتون في المواسم من القدوم، أو يقل عددهم في أحسن تقدير، وعلى العالم الإسلامي أن يعين المسلمين هناك، فلو ركزنا جهودنا على المسلمين الأمريكيين الأصليين، سواء كانوا من البيض أم السود وفتحنا لهم أبواب التعليم في البلاد الإسلامية ودعمنا

مؤسساتهم التعليمية واهتممنا بهم حينها يمكن أن نخرج منهم دعاة، وهناك فعلا بعض الدعاة الممتازين منهم، لكن عددهم قليل جداً، فحبذا لو اهتم الناس بهم في العالم الإسلامي، فهم لا يدخلون في الإسلام فقط، بل سيكونون عونا للمسلمين في قضاياهم السياسية الآن، لأن الجالية المسلمة دائما ما تشتكي من اللوبي الصهيوني، فيمكن أن يصبح هؤلاء قوة ضغط كبيرة توازي اللوبي الصهيوني.

الرياض: في الغرب العديد من الطوائف والجماعات الإسلامية، وكل واحدة منها تعمل على نشر الإسلام بحسب تصورها، ألم يخلق ذلك خلطا في أذهان الغربيين عن الإسلام؟

الدكتور جعفر: طبعا يسبب خلطاً كبيراً، لكن هذه هي أمراض العالم الإسلامي تنقل إلى كل مكان يذهب إليه المسلمون، وفعلا بعض هذه الجهات عرقلت الدعوة إلى الإسلام، فأنت تقول كلاما، ويأتي غيرك فيقول كلاما آخر مناقضا لما قلت، لكني أظن أن التيار العام هو تيار سني.

الرياض :هل نأمل في أن تلقى الدعوة الإسلامية قبولا كبيرا في الغرب؟

الدكتور جعفر: في أمريكا خاصة، فإن معدل انتشار الإسلام يزيد سنويا، وأنا متفائل جدا بمستقبل الإسلام في أمريكا.

الرياض: هل تعتقدون أن الأقليات الإسلامية في الغرب في حاجة إلى فقه جديد؟

الدكتور جعفر: غالبية المسلمين ذهبوا إلى الغرب لتأمين حياة معيشية أفضل وليس للدعوة، ومعظم هؤلاء يضيعون أو يضيع أبناؤهم، حتى إن بعضهم يقول: (لا ندري هل عدد الأطفال الذين نفقدهم أكبر أم عدد الأمريكيين الذين ندخلهم في الإسلام). ولا يوجد فقه أمريكي أو أوروبي أو غيره، لكن هناك ما يسمى بفقه النوازل، بمعنى إذا كان هناك حالات لا يوجد لها مثيل في العالم الإسلامي، على الأقل في الوقت الراهن، وتحتاج إلى نظر، فهذا شيء مستمر بالنسبة للدين الإسلامي، والعلماء قالوا إن النصوص محدودة والحوادث والنوازل غير محدودة، سواء أكان في العالم الإسلامي أم الغربي، لذلك لا بد من الاجتهاد دائما، فلا يجدد الإسلام إلا بالاجتهاد العلمي الصحيح الذي يتحرى الإجابات الأقرب للنصوص.

* * *

لست متشدداً ولا أرفض الحوار مع الآخرين

جعفر شيخ إدريس: لست متشدداً ولا أرفض الحوار مع الآخرين وإبعادي من أميركا يدخل ضمن الحملة المتشددة ضد السعودية.

صحيفة الشرق الاوسط. إسماعيل محمد علي. الجمعة ٠٧ ذو الحجة ١٤٢٤هـ ٣٠ يناير ٢٠٠٤ العدد ٩١٩٤. الرياض

❖ **الشرق الاوسط**: بداية لماذا سحبت منك التأشيرة الدبلوماسية في واشنطن؟.

❖ **الدكتور جعفر**: علمت أن وزارة الخارجية الأميركية التي ألغت التأشيرة زعمت أنني قمت بأعمال لا تتناسب مع الوظيفة الدبلوماسية، ولم يذكروا لي من الأعمال سوى كثرة المؤتمرات والندوات التي شهدتها والمحاضرات التي ألقيتها، وكل هذا عمل ظللت أقوم به منذ ذهابي إلى الولايات المتحدة. واسمح لي بهذه المناسبة أن أتقدم بالشكر للأمير بندر بن سلطان سفير السعودية بواشنطن على ما تفضل به من كلمات الثناء والتوضيح التي دلت على ما في نفسه من روح الوفاء والإنصاف، والتي كان لها عظيم الأثر على أهلنا وأصدقائنا ومعارفنا في بلاد الله كلها.

❖ **الشرق الأوسط**: ما طبيعة العمل الذي كنت تقوم به في واشنطن؟

❖ **الدكتور جعفر**: ظللت منذ عام ١٩٧٤ أتردد على الولايات المتحدة مبتعثاً من الجامعات السعودية التي كنت أعمل بها أو من الشيخ عبد العزيز ابن باز للمشاركة في أعمال تتعلق بالدعوة، ومن ثم بدأت صلتي بالسفارة السعودية، وعندما افتتحت جامعة الإمام بالتعاون مع السفارة معهداً للعلوم الإسلامية والعربية كلفت مع غيري من الأساتذة السعوديين وغير السعوديين للعمل به، وأعطينا جميعاً تأشيرات دبلوماسية على جوازات بلادنا التي نحملها، وكنت مختصاً بالبحوث المتعلقة بالإسلام. وكانت وزارة الخارجية الأميركية على علم بكل هذا.

❖ **الشرق الأوسط**: ما نوع الجواز الذي تحمله حالياً وسابقاً؟.

❖ **الدكتور جعفر**: أنا لا احمل جوازاً دبلوماسياً لا سعودياً ولا سودانياً، وليس لي جنسية غير جنسيتي السودانية. وأنا إنما أقول هذا بياناً لحقيقة لا دفعاً لتهمة، بل إنه

ليشرفني أن أنتسب إلى بلد قضيت فيه زمناً طويلاً من عمري، واستفدت منه علماً وخبرة وصداقات ومعارف. والحمد لله لم يجعل حمل الجواز شرطاً في مثل هذه العلاقات.

❖ **الشرق الأوسط**: متى أخطرت بقرار سحب التأشيرة؟.

❖ **الدكتور جعفر**: كان ذلك في بداية شهر رمضان المبارك، وأعطوني مهلة شهر لمغادرة البلاد.

❖ **الشرق الأوسط**: هل صحيح أن واشنطن أوقفت الدعم الذي كانت تقدمه للمعهد الإسلامي في فيرجينيا بسبب ارتباطك به؟

❖ **الدكتور جعفر**: أي دعم؟ المعهد كما قلت لك تابع لجامعة الإمام، وما زال يواصل عمله، ونسأل الله تعالى له الاستمرار والتوفيق لأنه يقوم بعمل عظيم.

❖ **الشرق الأوسط**: هل صحيح أن السلطات السعودية سحبت التأشيرات الدبلوماسية من المدرسين السعوديين في الخارج لإبعاد السفارة عن أية مهام تتعلق بالشؤون الدينية؟.

❖ **الدكتور جعفر**: الذي أعلمه هو أنهم لم يصرحوا أن ذلك تم من أجل قيامهم بنشاطات دينية، ولكنهم قالوا إنها لا تتناسب مع المهام الدبلوماسية ولذلك فإن تأشيراتهم ستتغير إلى تأشيرات أخرى تناسب عملهم.

❖ **الشرق الأوسط**: اتهمت أنك تتعامل مع مؤسسات إسلامية أميركية تدعو إلى نوع متشدد من الفكر الإسلامي ما ردك؟.

❖ **الدكتور جعفر**: التشدد وعدم التشدد أوصاف نسبية تعتمد على تصور الواصف للأمر. إن السائد في الفكر الغربي هو أن كل من يرى دينه هو الحق الذي أوحاه الله تعالى، ويأخذه لذلك مأخذ الجد، نصوصاً وعبادة وسلوكاً بقدر استطاعته، هذا في رأيهم إنسان متشدد لأنهم يرون - حسب الدين الذي عرفوه، ثم إنه يصدق على سائر الأديان - أنه متأثر بثقافة عصره فلا ينبغي أن يفرض على ثقافات عصور جاءت بعده، فالدين صار عندهم تابعاً للثقافة السائدة، وهو عندنا حكم على الثقافات وقائد لا تابع، فأنا لا أعد بالمقاييس الإسلامية متشدداً ولست من الذين يرفضون الحوار مع الآخرين ومجادلتهم بطريقة عقلانية.

❖ **الشرق الأوسط**: ذكرت أنك خضعت لتحقيقات من قبل المباحث الأميركية «اف. بي. سي»، فماذا جرى معك بالضبط؟.

❖ **الدكتور جعفر**: نعم، لكنني خدعت فمعظم من سألوني وحققوا معي كانوا في المطارات، ولم أكن أعرف أنهم من رجال المخابرات، ولما عرفت، وكان ذلك في آخر دخول لي قادماً من بريطانيا، لم أجبهم لأنني علمت أنه لا حق لهم في استجوابي، وأن صلتي إنما هي بوزارة الخارجية، بل علمت من بعض رجال القانون أنه لا حق لهم في استجواب أي أحد إلا إذا جاءوا بوثيقة تبيح لهم ذلك، لكنهم في الغالب يستغلون جهل الناس بالقانون فيسألونهم أسئلة يورطونهم بها. لم تتعد أسئلتهم ما ذكرت لك من محاضرات وندوات، وقد غضبت ذات مرة فقلت لأحدهم إنكم تعلمون إنني كنت من أوائل من انتقدوا ما حدث في ١١ سبتمبر (أيلول) ٢٠٠١ في خطبة جمعة شهدها مراسلو قنوات تلفزيونية مشهورة منها «سي إن إن» ثم قلت له بالمناسبة أنا لست حريصاً على البقاء في بلدكم، وأنا لا أستفيد منكم أي فائدة مادية.

❖ **الشرق الأوسط**: الآن في السعودية، هل لديك نشاط معين أو عمل بعينه يرتبط بعملك السابق في واشنطن؟

❖ **الدكتور جعفر**: لا.

❖ **الشرق الأوسط**: هل يمنعك قرار سحب التأشيرة الدبلوماسية من السفر إلى الولايات المتحدة ولو بتأشيرة عادية، وهل تنوي السفر إلى واشنطن مرة ثانية؟

❖ **الدكتور جعفر**: من الناحية الرسمية لا يمنعني لكنك تعلم أن إعطاء التأشيرة يخضع لشروط أخرى، لا أفكر الآن في الذهاب للولايات المتحدة، وأنا آسف لذلك لأن أميركا هي الآن من أخصب البلاد للدعوة الإسلامية، وربما كان أقرب الشعوب الغربية إلى الفطرة، والإسلام هو دين الفطرة، فكل من احتفظ بها يجد في نفسه راحة به حين يعرفه. وأنا كثيراً ما أذكر إخواننا الدعاة بأن لا يخلطوا بين الموقف السياسي من هذه الإدارة أو تلك وهذه السياسة أو تلك وبين الموقف من الأمة الأميركية أو البريطانية أو اليابانية أو غيرها. إن دعوتنا إلى الناس تقوم على رصيد في نفوسهم لا تخلو منه أمة منهم، ولولا وجود هذا الرصيد من الخير في الأمم لما أسلم منهم أحد. لقد عشت في أميركا مدة واستفدت منها علماً وثقافة وكونت بها صداقات غزيرة، فأنا لا أخرج منها كارهاً لكل ما فيها ولا شاعراً بمرارة نحو كل أهلها.

❖ **الشرق الأوسط:** ما طبيعة المواضيع التي كنت تتناولها في المحاضرات والندوات التي كنت تقيمها في أميركا؟.

❖ **الدكتور جعفر:** أغلبها إسلامية وجزء بسيط يتعلق بالسياسة سواء في الشأن الأميركي أو العربي أو الإسلامي وغيره.

❖ **الشرق الأوسط:** هل كنت تنتقد في هذه المحاضرات والندوات السياسة الأميركية؟

❖ **الدكتور جعفر: نعم،** كنت أوجه بعض الانتقادات للسياسة الأميركية، ولكن ما أقوله ليس أكثر مما يقوله الأميركيون عما يحدث في الساحة الأميركية سواء في السياسة الداخلية أو الخارجية. وأنا لا أتحدث عن السياسة في كل المحاضرات والندوات.

❖ **الشرق الأوسط:** متى كانت آخر محاضرة ألقيتها هناك؟.

❖ **الدكتور جعفر:** قبل إبعادي بأسبوع.

❖ **الشرق الأوسط:** وهل وجدت أي اعتراض صريح على هذا النشاط الذي تمارسه؟.

❖ **الدكتور جعفر:** نعم، قالوا لي أنت دبلوماسي ويجب ألا تقوم بمثل هذا العمل الذي تخاطب به آلاف الناس. وفي الحقيقة إن العدد الذي يحضر هذه المحاضرات في الغالب يتراوح ما بين ١٠٠و٢٠٠ شخص من العرب والمسلمين.

❖ **الشرق الأوسط: وهل** صحيح أن إلغاء تأشيرتك الدبلوماسية كان بسبب التغييرات في القانون الأميركي؟

❖ **الدكتور جعفر:** الأميركيون دائماً لا يفصحون عن السبب، ولا أعتقد أن ذلك يتطلب تغييراً في القانون، ولكن يمكن أن ترجع ذلك إلى التشدد الحاصل مع السعودية.

❖ **الشرق الأوسط: هل** تتهم جهات بعينها بأنها وراء إبعادك من أميركا؟.

❖ **الدكتور جعفر:** نعم ولكنني أرفض الإفصاح عنها على الأقل في الوقت الحاضر، وما أحب أن أقوله في هذا الخصوص هو أن الصحافية الأميركية، سوزان سميث، التي أوردت قرار إبعادي في جريدة «واشنطن بوست» طلبت أن تجري معي مقابلة صحافية إلا أنني رفضت، وهي صحافية معروفة بمعاداتها للإسلام والمسلمين، وأعتقد أنها يهودية الديانة.

* * *

إشكاليات الديمقراطية والبدائل الإسلامية

حوار مع الدكتور جعفر في قناة المجد
في برنامج ساعة حوار

س/دكتور جعفر شيخ إدريس عنده مشكلة كما يقول بعضهم في معنى الديمقراطية؛ فهو لا يرى أن الديمقراطية الحالية هي حكم الشعب، ولا يرى أنها حل، وبالتالي عند الدكتور جعفر شيخ إدريس مفهوم آخر للديمقراطية فما هو مفهومك للديمقراطية؟

الدكتور جعفر : والله الحقيقة ليس مفهومي **أنا، والرأي هذا أنا** معظم ما أعرفه عن الديمقراطية هو مما قرأته لمفكرين غربيين، وأضفت إليه وجهة نظري الإسلامية فمثلاً في الموضوع الذي بدأته الآن سمعت أحد المفكرين الإنجليز يقول إن الديمقراطية بفعل الساسة الدعاية السياسية ولا سيما دعاية بوش يقول صارت كلمة طنانة لا معنى لها، وصار كل إنسان يعجبه شيء في الحكم يسميه ديمقراطية، فأنا في رأيي لمصلحة إخواننا المستمعين من يوافقنا ومن يخالفنا يحسن أن نتفق على ماذا نعني بالديمقراطية، الديمقراطية أولاً هي كلمة يونانية ففي معناها اللغوي معناه حكم الشعب هذا معظم الناس يقولون هذا إلا الرئيس القذافي، والله لولا أنني شاهدته بصورته يقول هذا الكلام ما صدقت قال أصلها كلمة عربية معناها (ديما كرسي) يعني من جلس على الكرسي لا يحب أن يقوم من عليه أبداً، فالديمقراطية هذا معناها اللغوي، ثم هو المعنى الذي يمكن أن أقول يجمع عليه منظروها الكبار المفكرون والفلاسفة أرجو من الإخوان أن لا يغتروا بالكلام الذي يقوله السياسيون؛ لأن هذه مسألة فكرية كبيرة؛ لأن الديمقراطية بهذا المعنى تجيب عن سؤال مهم في السياسة ممكن أكثر من السياسة أيضاً، وهو سؤال دائماً يسأله الناس طوال التاريخ لمن يكون الحكم؟ الحكم بمعنى التشريع ليس الحكم التنفيذي، التنفيذي معروف أنه للبشر، قال المفكر المشهور جان جاك روسو قال ما يمكن للشعب أن يكون حاكماً تنفيذياً ما يمكن أن يكونوا كلهم رؤساء جمهورية أو ملوك أو وزراء أو كذا وكذا فإذاً المقصود بها التشريع، فالسؤال هو لمن تكون السلطة التشريعية العليا؟ لمن هذا سؤال

هذا في غاية الأهمية، الديمقراطية تقول إن هذه السلطة للشعب، هذه إجابتها، الديمقراطية بهذا المعنى يكون واضح جداً لكل إنسان سواءً كان مسلم أو غير مسلم أنها تخالف الإجابة الإسلامية لمن الحكم لله؟ الواحد القهار؛ الحكم التشريع، يعني بهذا المفهوم الديمقراطية كفر بهذا المفهوم كفر لماذا لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠]، فالطاغوت جعله في مقابل حكم الله فكل حكم بغير ما أنزل الله هو طاغوت سواءً كان الحاكم دكتاتوراً أو كان حكم حزب من الأحزاب أو كان حكم أغلبية أو كان حكم مجالس نيابية، المهم ما دام أنه ليس بحكم الله فهو حكم الطاغوت. فلذلك لا يمكن للإنسان المسلم أن يقول إنه يؤمن بالديمقراطية بهذا المعنى. لكن إذا قال لي إنسان أنا أريد ديمقراطية في حدود الإسلام سأقول له خلافي معك لم يكن في أصول الدين خلافي معك جزء منه لفظي يعني هناك بعض الناس عندهم حجة معقوله يقول الديمقراطية هذه قيدها الغرب بدساتير، الديمقراطية في حدود هذا الدستور، أنا أريد أن أقيدها بالقرآن والسنة كما أنكم أنتم عندكم دستور يقيد الديمقراطية وأنا أريد أن أقول الديمقراطية التي أريدها هي ديمقراطية في حدود كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

س/ وهذه الدساتير تختلف من مجتمع لمجتمع؟ نعم يعني إذاً هي تناسب مجتمعاتهم أو أنظمتهم؟

لا لا ما كل شيء يختاره الناس يعني أنه يناسبهم، وإلا لكان الكفر والضلال والفسوق يناسب الذين اختاروه، كل الأشياء التي تعجب الناس في الديمقراطية تقريباً يعني كلها لها أصول في الدين فأنا لذلك أقول لإخواننا الكلام الذي قلته، لماذا تعطيها هذا الشرف ما دام هذه عندك، يقول نحن لا نطبقها، طيب إذا كنت لا تطبقها وهي من عند الله فلن تطبقها لأنها ديمقراطية فمشكلتك ليست في النظرية ما دمت كتاب الله عندك وحولت الحكم إلى دكتاتورية وإلى كذا وكذا، يعني ما في مبدأ في الدنيا سواءً كان حقاً أو باطلاً يلزم الناس، الناس هم الذين يختارونه، فالديمقراطية مثلاً حرية التعبير ما في الإسلام حرية تعبير؟! بلى لأن ما في كلمة حرية

لكن الدين قائم على ما يسمى بالبراءة الأصلية يعني كل إنسان له حق أن يتصرف بالبراءة الأصلية إلا إذا قال الدين لا، أنا ما أقول أريد أن أشتري سيارة أذهب أسأل العالم أقول له اشتري مرسيدس أو، ربنا ما قال هذا، أنا أميز بين النظرية والتطبيق أنا معظم كلامي عن الديمقراطية النظرية أنها مبدأ ما طبق أصلاً ولا يمكن أن يطبق ولا في اليونان طبق وهذا أيضاً ليس كلامي أنا، استثنوا من الشعب ولا أدري من الذي استثنى استثنوا كل النساء والمنظمون والأرقاء والأجانب، الذين كان لهم الحق سُدس الشعب هؤلاء يجتمعون أربعين مرة في السنة يجتمعون، أنا حسبت وقلت لنفرض أنهم يجتمعون من الصباح إلى المساء عشر ساعات أنا حسبت وجدت كل واحد نصيبه منهم ثانية قال أحد كبار المنظرين الديمقراطيين دكتور "دال" وأضيف له كلاماً آخر أن الذين يتكلمون كانوا هم في الحقيقة القادة فقط والباقين يستمعون والذين يستمعون ويتابعونهم كانوا في الغالب من أهلهم أو أقربائهم أو أصدقائهم أو كذا، فالصورة هذه المثالية التي في ذهن الناس غير مطبقة، الديمقراطية المثالية هي الديمقراطية من الناحية النظرية هي التي يجتمع الناس كلهم فهذه لا يمكن أن تكون نظام حكم، ولذلك أنا من الأشياء التي تعجبني في كثير من الذين وضعوا الدستور الأمريكي كان كثير منهم أُناس عقلاء عندما جاءوا يضعون دستورهم ما قالوا نريد النموذج الفلاني أو النموذج الفلاني قالوا هذه بلادنا وهذه ظروفنا نريد أن نختار الشيء الذي يناسب معنا، فهذا هو الذي يناسبنا ليس هو الديمقراطية بعضهم قال كذا قال بعضهم الديمقراطية الحكم المباشر وحكمنا ليس حكم مباشر، فإذاً نظامنا جمهوري نيابي وليس ديمقراطياً قالوا لأنه لا يمكن الذي سموا نظامهم نظام ديمقراطي، ديمقراطية غير مباشرة لكن إذا كان غير مباشر إذاً هي ليست ديمقراطية.

س/ لكن هم قالوا "ليدمان" واشنطن وغيرهما قالوا بأنهم يخشون مما أسموه بالدكتاتورية الأغلبية؟

نعم وضعوا قيود كثيرة لذلك أقول إنهم كان كثير منهم كانوا عُقلاء أولاً قالوا لا يمكن أصلاً في بلد عدد سكانها ملايين ما يمكن يطبق إلا عن طريق النواب وحكم النواب ليس حكم الشعب، وقلت لبعض إخواننا في أمريكا إذا كان هذا حكم

الشعب إذا كل واحد من الشعب يكون عارف القوانين وإذا أنا لا أعرف القوانين يكون أنا وضعتها.

س/ الذي يعاب على الإسلاميين ما يأتي إذا انتقدتم أيها الإسلاميون الديمقراطية فأنتم تدعون إلى الدكتاتورية؟

إذا أنا ما رضيت حكم الشعب أرضى بحكم الفرد، أنا أرضى بحكم الله سبحانه وتعالى، نحن الآن نتكلم عن الناحية النظرية كيف نحكم كذا كذا أنا أريد أن أقول لك بعض الأشياء التي يريدها الناس في الديمقراطية هي عندي لا تقول لا نطبقها حتى إذا قلنا نظامنا ديمقراطي ربما لا نطبق نظام الديمقراطية كلها مثلا حرية التعبير، ما يسمونه حكم القانون، بالله يا أخي هل وجدت تطبيقاً لمبدأ حكم القانون أكثر من رسول يقول لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها، أي حكم قانون أكثر من هذا حكم القانون هو حكم العدالة، طيب فهذا أنا لا أحتاج إلى أن آخذ حرية التعبير منه، لا أحتاج إلى أن آخذ حكم القانون منه، اليوم كنت أراجع كلاماً قرأته قبل مدة؛ أراجعه من أجل المقابلة عبدالرحمن بن عوف قال إنه كان في الحج وجالس مع عمر وجاء رجل وقال لأمير المؤمنين أكلمك عن فلان قال لو قد مات عمر لقد بايعت فلان مثل ما بايع عمر أبو بكر أنا كمان أبايع فلان نظر من الناحية الشكلية وغضب عمر إني قائم في العشية بالناس فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم حقهم وإنه إذا بايع رجل رجلاً من غير من مشورة المسلمين فلا يبايع هو ولا يبايع الذي بايعه، فأنا أيضاً لا أحتاج أن آخذ هذا منهم، فبعض الأشياء التي يربطها الناس أيضاً بالديمقراطية هذا الذي اختارته هذه الشعوب تصور أن شعباً يقال له أنت حر، الحكم لك فالديمقراطية ما فيها محتوى، الديمقراطية لا تقول لك أحكم بكذا ولا تحكم بكذا، تقول لك أنت في مكان الله جل وعلا فأنت لا تسأل عما تفعل فماذا يريد هؤلاء قالوا نريد حرية التعبير نريد حكم القانون نريد اختيار الحاكم ما كان عندهم أحزاب في البداية فقالوا نريد أحزاباً وجاء ناس عندنا لا يريدون أن يفكروا لا في الدين ولا في الدنيا لا يريدون التفكير لأن التفكير متعب يريدون شيئاً جاهزاً فالديمقراطية عندهم هي ما اختاره الشعب الأمريكي أو الشعب الإنجليزي أو الشعب كذا حتى لنفرض أن شعب من الشعوب قال الحكم لي، طيب أنا

أريد من الحاكم أن تكون دورته عشر سنوات تقول له أنت حكمك ليس ديمقراطياً فرنسا كانت سبع سنين غيرته إلى أربع سنوات الآن كل الناس يريدون أن يقولوا أربع سنوات، من الذي قال أربع سنوات يعني قانون طبيعي هذا الذي اختاره الناس، فأنا أريد للناس أن يكونوا أُصلاء حتى من الذين غير مسلمين هذه بلدك يا أخي كن إنساناً أصيلاً والله أنا أريد أن أفعل ما فعل الأمريكان أريد أن أختار لبلدي نوع الحكم الذي يتناسب مع قيم الناس ومع ظروفهم ومع عصرهم حتى مثلاً اختيار الحاكم، هل اختيار الحاكم يجب أن يكون بالطريقة التي يختارون بها هم؟ يكون بالمناسبة بهذا هم مختلفون بالطريقة وفي أشياء كثيرة أنت تعرف الديمقراطية الانتخابات التمثيلية والانتخابات كذا بل قالوا في تاريخ وضع الدستور الأمريكي إنهم كانوا في البداية يريدون أن يكون رئيس الجمهورية يختاره الكونجرس؛ لأنهم قالوا الشعب ما أدراه كم مليون يعني هذا صالح وهذا غير صالح.

س/ هناك أيضاً اتهام آخر بأن الذين يرفضون الديمقراطية يرفضون المجالس والانتخابات والتنويع والمؤسسات الحكومية؟

هذا جهل منهم لأنهم ربطوا الديمقراطية بهذه، ولأنه اعتبر أن رفض الديمقراطية رفضاً لهذه، بعض المدافعين عن الديمقراطية من اليساريين قالوا إن الانتخابات هذه غير مناسبة مع الديمقراطية هذا كلام الغرب أنفسهم ورأيه في غاية الوجاهة قال لأن الانتخابات هي تفترض أن في ناس يصلحون للحكم وفيه ناس ما يصلحون والديمقراطية تقول إن الحكم للشعب، طيب ماذا نفعل؟ قال نعمل بالقرعة كما كان الحال في الديمقراطية الاثينية ما كان في انتخابات أنت تريد أن تحكم وأنا أريد أن أحكم نختار والذي يطلع له يصير حاكماً. قال وانظروا إلى البرلمانات هذه لأنها بالانتخابات تجدون أن نسبة أصحاب المال نسبتهم أكبر، المتعلمون من الجامعات وكذا نسبتهم أكبر الرجال نسبتهم أكبر من النساء، لكن إذا صار بالقرعة سيأتي ناس من عامة الشعب، وستأتي النساء وسيأتي غير خريجي الجامعات وكذا، فالانتخابات ليست هي من لوازم الديمقراطية، بل هي ممن يتعارض مع الديمقراطية، لكن المقلدين عندنا يظن أنه لا يمكن أن تكون هناك ديمقراطية من غير انتخابات، فلنفرض أننا نريد انتخابات وقلت هذا الكلام لبعض إخواننا في السودان، الوسائل لها

علاقة بالأهداف، الانتخابات في البلاد الديمقراطية يشترك فيها كل الناس لماذا لأن الحكم لهم هم، أنا إذا جئت قلت الحكم لله ليس للشعب فكيف تكون انتخاباتي أضعها بحيث إن الناس يختارون من يرونه أجدر لتنفيذ حكم الله، فستكون وسيلتي مختلفة عن وسائلهم، وحتى بالنسبة للحكم كثير من إخواننا يحرجهم أن الخلفاء الراشدين ما اختارهم الشعب كله يعني أغلبهم اختارهم الصحابة الذين في المدينة وبعض رؤساء الأجناد وكذا، لكن على أي أساس عندما عمر رشح الستة ماذا قال عنهم ما قال هؤلاء أحسن من يمثل الشعب قال هؤلاء النفر الذي توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فأنا أختار من أرى أنه أجدر الناس من الناحية العلمية ومن ناحية القدرة لأنه ممكن أن يكون الإنسان عالماً ولكن ما عنده القدرة أو كما يقول علماء المسلمين ليس من أهل الشوكة لأن الحكم يحتاج إلى قوة وهذا هو السر أن الرسول ﷺ قال، - والناس يظنون أنها مسألة عنصرية وهي ليست مسالة عنصرية مسألة قريش هذه لأن الرسول حكى شيئا واقعياً- قال الناس تبع لقريش لأن مؤمنهم تبع لمؤمنهم وكافرهم تبع لكافرهم يعني هذه قاعدة فأنت لا تخالف الحقيقة هذه تروح تأتي بواحد ليس من قريش الناس لا يردونه فما يستطيع ينفذ حكم الله، لكن لو كان من بلد لا تعرف قريشاً فما ينطبق عليها هذا .

لا تشغل نفسك بالديمقراطية قل ماذا أريد لبلدي هذا، أريد كذا وكذا وكذا لماذا تسميه ديمقراطية أو تضع لنفسك نموذج تقول أنا اقتربت منه أو بعدت منه.

مسألة الشورى الناس عندما يكونوا مقلدين وتابعين ينظرون إلى ما عندهم بنظارات الآخر هذا يفتش هل نحن عندنا شيء يشبه ما عندهم، نعم عندنا الشورى إذاً نحن عندنا ديمقراطية، لكن الشورى ليست هي الديمقراطية الشورى جزء من الحكم الإسلامي وليست بديلا إسلاميًا هل الحكم بالإسلام كله شورى؟ لا إذاً الحكم ليس شورى لكن الحكم شورى في نطاق معين وبالمناسبة بعض الغربيين يقولون لا أقول إنهم أخذوه من الإسلام إن رفع الأيدي بالتصويت وحده هذا لا يكفي لابد من التشاور، وهذا الذي قاله الدين ويضربون عليه أمثلة علمية يقول لك أحضر خمسين شخصاً وأعرض عليهم قضية ويقال لهم صوتوا فترتفع أيدٍ وبعد المداولات تقل هذه الأيدي وتتضح صور ما كانت واضحة فهذا هو المقصود بالشورى المسألة التي

ليست بكتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ ومسألة جديدة نتشاور فيها وإذا واحد أعطانا دليلاً سواءً من الدين أو من الدنيا دليل فلن يكون هناك تصويت.

س/ كيف نربط بين كلامك إن الديمقراطية ترعرعت في ظل الديمقراطية وبين أن الديمقراطية ما عندها محتوى؟

الديمقراطية ما عندها محتوى يعني الديمقراطية لا تقول لك ينبغي أن يكون كذا وينبغي كذا، كل ما تختاره أنت وأنت حر في اختيارك فأنت مع الديمقراطية، إن في النظم التي كانت تسمى ديمقراطية في العالم العربي وكان هناك حرية تنظيم وحرية تعبير وكذا نعم ترعرعت الحركة الإسلامية، أقول لك شيئاً في أمريكا قلت لهم إن الأمريكان الآن يسمحون بالشذوذ يسمحون بالزنا لكنهم يعترضون اعتراضاً شديداً على مسألة الأطفال هذه: استغلال الأطفال جنسياً. قلت لهم حتى هذه غير مضمونه ممكن يأتي من يصوّت عليها وتلغى، فرفع أحدهم يده وقال الذي قلته نظرياً هو الآن حاصل إن بعض الناس الأن يطالبون بإباحة شذوذ الأطفال ومع أولادهم ويقول هذا ولدي ليس لك أي تدخل به، فالديمقراطية ما فيها محتوى هذا الفرق بينها وبين الإسلام، فعندما أقول حكماً إسلامياً ليس كما يقول بعض الناس ثيوقراطيه يأخذون الكلام من الغرب، الحكم الثيوقراطي ما هو بعض الناس يقولون نحن نتلقى الأوامر من الله هذا ما أستطيع أن أناقشه الناس تعالوا ناقشوا يعني كلام جاءهم من الله أنا ماذا أفعل، لكن أنا عندما أقول الحكم من الله هذا الكتاب وهذه السنة فالإسلام عنده محتوى.

س/ أنت قلت في خطبة جمعة ألقيتها في أمريكا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر والتي كان من تداعياتها أن اتصلت السلطات الأمريكية بالدكتور جعفر وأعطته مهلة شهر بأن يغادر أمريكا قلتم في خطبة الجمعة إن أمريكا ديمقراطية في الداخل ودكتاتورية في الخارج هل طردت بسبب هذا؟

والله ما أدري عن هذا أنا أقول لك شيئا قلته، قلت قبل ثلاثين عاماً لإخواننا في أمريكا لا تظنوا أن هذه الحرية في الكلام عن الإسلام ستستمر قلت لهم لا يمكن أن يرى الأمريكان هذا الإسلام ينتشر في بلادهم ويقولون نحن ناس ديمقراطيين واتركه

ينتشر، لابد أن تقيد، كان إخواننا يستغربون يقولون ماذا سيفعلون قلت لهم والله لا أعلم ماذا سيفعلون لكن ممكن يعملون جمعيات إسلامية كاذبه هم يعملونها وهذه الجمعيات تحرق كنايس وتعمل مشاكل ويجدون فرصة، وجاءت جماعة إسلامية حقيقية وحرقت أكبر من الكنيسة ووجدوا الفرصة .

س/ قلت أمريكا ديمقراطية بالداخل دكتاتورية في الخارج هل تقصد بالممارسات مع أنها تطالب البلدان العربية أن تطبق الديمقراطية في بلدانهم؟

هم يقولون لا بد أن تطبق الديمقراطية على شرط أن تكون تابعه لي وتبعي أليس هذا دكتاتورية؟ هذا كمثل شخص يقول لك أنا أحررك من الرق على شرط أن تكون تابعاً لي، أنت ما حررتني.

أنا عندي سوء ظن بالدعوة إلى الديمقراطية بالعالم الإسلامي، والله أنا في قلبي لا أعتقد أبداً ومنذ أن عرفت الغربيين يا أخي هل تتصور يضحون كل هذه التضحيات في العراق من أجل الشعب العراقي يتخلص من دكتاتور وتكون له حرية تدري ماذا أنا في ظني أنهم يريدون الديمقراطية بالمعنى الذي قلنا إنه كفر، عندما يدعون إلى الديمقراطية ليس المهم عندهم هو الانتخابات المهم عندهم أنك لا تحكم بما أنزل الله هذا هو الذي يهمهم؛ لأنك إذا ما حكمت بما أنزل الله صار ليس هناك فرق بينك وبينهم وانتهت المشكلة، فهم يعرفون أن معظم العالم الإسلامي لا يحكمون بما أنزل الله لكن هناك اعتقاد بأن الحكم بما أنزل الله واجب ولذلك يؤثر في الحكم يعني الحكومات.. في العالم العربي إن الحكومات العلمانية فيه ليست محاربة للدين مئة بالمئة أليس كذلك ؟ يعني ما يتصور الغربيون أن حكومة علمانية وعندها إذاعة للقرآن الكريم لو كانت الإذاعة إذاعة خاصة قلنا لا بأس لكن الدولة ترعى إذاعة للقرآن الكريم وتكون مسؤولة عليها وأيضاً مسائل الزواج والطلاق وكذا فنحن ما صرنا علمانيين بالمعنى هذا، وما صرنا دكتاتوريين. الحكم بما أنزل الله جعل الدكتاتورية في التاريخ الإسلامي محدودة جداً؛ لأن الحاكم لا يستطيع أن يقول للناس أن الربا حلال إلى بعد ما جاءت النظم الحالية، وما يستطيع أن يقول الناس تتزوج بالطريقة

الفلانية والطريقة الفلانية فمعظم القوانين التي يسير عليها الناس لا علاقة لها بالحاكم، فلذلك الدكتاتورية عندنا ما كانت مثل الدكتاتورية عندهم.

س/ أنتم أشرتهم إلى أن مفهوم الشعب نفسه مفهوم غامض؟

نعم الشعب هل يدخل فيه النساء، ولو قلنا إن الشعب هو كل الناس في إطار الدولة الوطنية هل هؤلاء هم الذين يحكمون؟! مستحيل أنهم يحكمون، مثلاً في أمريكا عملت إحصاءات الذين يسجلون لكي ينتخبوا هم أكثر من خمسين بالمئة بقليل، ثم إذا جاءوا للتصويت نقص هذا العدد ثم الشخص الذي يفوز على أكثر تقدير هو أكثر من نصف هذا النصف بقليل ثم تقول للناس إن هذا هو حكمكم وأنتم الذين تحكمون، لكن ينبغي ألا نقول إن الديمقراطية كما هي مطبقة في الدول الغربية ما فيها محاسن، هناك كتاب وأنا شاب قرأته كان عنوانه بيعة الرئيس، مصور الرئيس في علبة كوكا كولا، فالرئيس يباع للناس، القيود على الديمقراطية في الغرب كثيرة جداً جداً أقصد بالديمقراطية بمعنى حكم الشعب، كانوا يخافون ما يسمونهم دكتاتورية الأغلبية لذلك فعلوا شيئاً إلى الآن هو محل نقاش من الناحية النظرية لماذا؟ قالوا ديمقراطيتنا ليست ديمقراطية شعبية، وهذا صحيح وإنما هي ديمقراطية ليبرالية ما معنى ليبرالية أن هناك حقوقا للفرد ما يجوز حتى للأغلبية أن تتغول عليها فقال بعض المفكرين منهم مفكر ألماني مفكر قديم قال هذا تناقض أنت تقول الحكم للشعب وبعد ذلك تقول الشعب لا يجوز أن يفعل كذا من أنت الذي وضعت هذا القيد، هم يقولون إذا تعارضت مصلحة الديمقراطية مع الليبرالية من يقدم؟ يقدم الليبرالية لأن الليبرالية هي قيد على الديمقراطية، مثلاً الأغلبية في أمريكا من البيض لو كانت الديمقراطية بحتة يمكن هؤلاء البيض أن يقولوا بالتصويت والله نحن لا نريد هؤلاء السود أن يشتركوا معنا بالانتخابات، الليبرالية تقول لهم لا هذا حق للأفراد لابد منه، ولذلك قال بعضهم من الذين وضعوا الدستور الأمريكي قال كلمة طريفة قال الديمقراطية هي كمثل ذئبين وحمل يريدون أن يصوتوا على ماذا يأكلون في الغداء أكيد سيأكلون الحمل، والليبرالية هي حمل مسلح فإذا الحمل هذا لن يقبل برأي الأغلبية فالليبرالية قيد على الديمقراطية.

س: هاجم "بوش" قبل أيام الحزب الديمقراطي هجوماً عنيفاً، هل هناك إعادة نظر في التشكيل الديمقراطي؟

لا لا، أنا قرأت كتاباً، الذي كتبه اسمه "بوب" قال فيه "بوش: في حالة إنكار والكتاب تقريبا تسعة وتسعون منه أقوال للذين عملوا مع بوش وكلهم يتكلمون عن بعض وكلهم ينتقدون بعض ولا يكاد يجتمع منهم ثلاثة على رأي خصوصاً في مسألة حرب العراق، فهم الآن لا يدرون ماذا يفعلون أنا حتى لا أدري إذا جاء الديمقراطيون ماذا سيفعلون إذا استمررت فيها فكل يوم يموت بعض الناس فهم لا يريدون هذا لا يمكن أن يستمر الآن سنة كاملة لو مات كل يوم واحد تعتبر خسارة كبيرة بالنسبة لهم هل ينسحبون خسارة كبيرة أيضاً فهم صاروا في ورطة ما أدري ماذا سيفعلون ربما أنا سمعت في الأخبار يقولون للعراقيين الحكومة العراقية أنتم المسؤولون بسرعة يعطوهم المسؤولية ويخرجون من العراق، ويرى بعض الأمريكان أن هذا يؤدي إلى حرب أهلية في أمريكا ما لها علاقة بمسألة الحكم الديمقراطي وكذا وكما قلت لك هم أصلاً حكمهم ما كان يسمى حكما ديمقراطياً حتى قال أحد الأمريكان إن كلمة الديمقراطية لم ترد في أي من الوثائق الثلاث التي تُحكم بها أمريكا ليس موجودة في الدستور ولا موجوده في إعلان حقوق الإنسان ولا في إعلان الاستقلال أبداً، ولذلك كانوا يقولون جمهورية نيابية لا ديمقراطية والحزب الديمقراطي اسم فقط. وهناك شخص من أصل هندي عنده كتاب اسمه مستقبل الحرية وهو يعتبر من كبار المفكرين المحافظين الآن في أمريكا يرى أن الحرية أهم من الديمقراطية وأنه ربما لو أعطي الناس فرصة للديمقراطية سيأتي الإسلاميون في العالم العربي، وبالتالي لا تكون هناك ليبرالية فأحسن لنا حكم غير ديمقراطي وفيه ليبيرالية بالنسبة للنساء وكذا ولا حكم بالانتخابات وليس فيه ليبرالية لأن الليبرالية عند بعضهم أهم من الديمقراطية.

نحن نشغل الغرب بالبديل الذي عندنا ونشغلهم كثيراً وهم مشغولون بنا شغلاً كثيراً لكن ليس في قضية سياسية، وأنا في رأيي الآن مشكلتهم الأساسية معنا هي ما شغلناهم به في مسألة الدين، لأنهم بالرغم من كل الكلام الذي يقال عنا ومن

تخلفنا وهو تخلف من ناحية العلوم الطبيعية والتقدم التقني شيء مزري والشخص يستحي أن نكون بهذا القدر من الضعف، لكن بالرغم من هذا عندها شيء تقدمه للغرب والناس يقبلون عليه. والله أذكر أحد الذين هداهم الله يقول الحمد لله أنني أسلمت في أمريكا وليس في العالم الإسلامي! أنا أرى أن كثيراً من إخواننا الذين يأتون من العالم الإسلامي وهم مندهشين بالعمارات والسيارات والصناعة وأنا عشت في بلدي وهذا شيء طبيعي ليس مبهوراً به، عندي الآن هذا الدين وهو أعز هو هذا الدين وهم هذه المسألة التي تخيفهم وتسبب لهم مشكلة مع هذا الانتشار للإسلام ببلادهم أذكر أيضاً واحدة في حوار كان القشة التي قصمت ظهر البعير كان حوار في إحدى الجامعات وكانوا مؤدبين وناقشوني لمدة ساعة، فواحدة قالت لي أنا أحب الإسلام لكني ما أحب للنساء الأمريكيات أن يلبسن الحجاب. قلت أنتِ أليست ديمقراطية قالت نعم. قلت: فلنفرض أن أغلبية الناس قالوا نرغب بلبس هذا، فضحكت وسكتت لكن أنا متأكد أعتقد اعتقادات الناس أهم وقيمهم هي أهم من الديمقراطية.

س/ ما تعليقكم على تراجع عدد المقترعين في الولايات المتحدة ؟

تراجع المقترعين في الانتخابات هو ضمور في الديمقراطية خصوصاً في أمريكا هذا كلام صحيح حتى كتبت كتاب لماذا لا يصوت الأمريكان حتى سؤال بعضهم لماذا لا تصوت قال أنا لا أرى فرق بين الجمهوريين والديمقراطيين، أمريكا هذه فيها ما يقارب ثلاثمائة مليون ما فيها إلا حزبين هذا معقول المفروض يكون فيها ثلاثمائة حزب وكتبت بالمناسبة كتباً في هذا لماذا لا يصوتون.

س/ وهل طلب الغرب بتطبيق الديمقراطية في العالم الإسلامي ليس جاداً؟

ليس المطلوب في العالم الإسلامي تطبيق الديمقراطية بحد ذاتها وبشكل جاد لخوفهم من ظهور البعبع الإسلامي. أنا في رأيي ليس المقصود منها انتخابات ولا كذا وإنما المقصود محاربة الذين يدعون إلى الحكم بما أنزل الله، لذلك لابد لنا أن نقول لهم نحن نريد أن نحكم بما أنزل الله لكن نريد أن نوضح الصورة هذه؟ لا يكفي أن نقول للناس نريد أن نحكم بما أنزل الله فقط، هل لو حكم بما أنزل الله سيعطى الناس الحرية في إطار القانون؟ هل ستسمح لنا أن ننتخب حكامنا الناس عندهم أسئلة فلا بد أن تكون هناك إجابات واضحة.

س/ تعليقكم على عبارة المشروع الديمقراطي في الوطن العربي إنما هو توسيع للنطاق الأيدلوجي للولايات المتحدة؟

كل إنسان يؤمن بشيء يريد أن يحققه فأنا أجيء وأقول لماذا يدعون إلى الديمقراطية في بلادنا، كما أنت تدعو إلى الإسلام في بلادهم هو أيضاً يدعو إلى هذا في بلدك لكن يصل الأمر أحيانا إلى نوع من الغربيين عندهم عيب كبير، كثير من الناس لا يعرفون الغربيين عندهم نوع من الانغلاق الفكري، يظنون أن كل شيء لا بد أن يكون مثل ما عندهم، يعني إذا نظروا في التاريخ الإسلامي يقولون لك إن المسلمين ما حصل عندهم حركة تنوير مثل ما حصل عندنا، ولذلك قال "فوكوياما" كلمته المشهورة وإن كان قال الآن تنازل عنها : إن العالم كله سائر نحو الطريق الذي نحن انتهينا إليه نهاية التاريخ في هذه المسألة وهي الديمقراطية الليبرالية في الحكم والرأسمالية في الاقتصاد.

س/ هل الديمقراطية الإسلامية ممكنة؟

لا تستعملوا كلمة ديمقراطية إسلامية لماذا تعطونهم هذا الشرف، قولوا نحن نريد كذا نريد كذا ولا تنسبها للديمقراطية..

س/ هل الكلام عن الديمقراطية هل يعني تأييداً للدكتاتورية؟

الكلام عن الديمقراطية بالنسبة للذي نقوله لا يساوي شيئاً بالنسبة للذين يكتبونه يمكن ما يكتب عن الديمقراطية في الغرب أكثر من الذي كتبناه عنها ولا يزال يناقشوننا أنا الذي دعاني للاهتمام بها أن الديمقراطية بغض النظر عن الإسلام والحركات الإسلامية وغيرها إن الديمقراطية نفسها فيها مشكلات الناس لا يعرفونها ليست منتشرة بينهم لكنها منتشرة بين المفكرين، وأرجو أن يكون إذا كتبت هذا الكلام أن يكون مفيداً حتى لغير الإسلاميين، أنا أريد للناس أن يكونوا أحراراً، أن يفكروا أن يقولوا والله لو اختار الأمريكان لأنفسهم هذا فلماذا لا نختار لأنفسنا كذا وكذا وكذا.

س/ وهل الدعوة للديمقراطية صورة من صور الاستعمار؟

أنا لا أقول إن الديمقراطية صورة من صور الاستعمار لكن دعوتهم إلى الديمقراطية دعوة إلى أن يكون الحكم مثل حكمهم بل ليس هذا فقط ولذلك كثيرون منهم يقولون إنه إذا صار حكماً ديمقراطياً حقيقيًا فهذا ليس من مصلحة الغرب؛ لأنه يضر

بمصالحهم عندما فازوا في الجزائر وقفوا كلهم ضد نتائج الانتخابات؛ لأنهم قالوا إذا فاز الإسلاميون ستكون هذه الانتخابات الأخيرة، وعندما فاز نجاتي في إيران كتب أحدهم يحذر الأمريكان، قال لهم الذي حدث في إيران سيحدث أيضاً في البلاد العربية إذا كان فيها انتخابات فلا تقولوا لي إن الانتخابات في إيران كانت مزورة، لم تكن مزورة هذه انتخابات حقيقة وأتت بهذا النوع من الناس، وأذكر قبل سنين طويلة جاءت جماعة من الأمريكان قالوا إنهم قابلوا بعض من تأثر بالفكر الغربي، وكتبوا عن هذا قال العلمانيون السعوديون قالوا نحن لا نريد انتخابات في هذا الوقت؛ لأنه إذا جاءت الانتخابات سيأتي المطوع، المهم بالنسبة لهم ولا تنسى هذا يا إخواني هو ما يسمونه بالمصلحة الوطنية لأمريكا لذلك بوش يتكلم لكم أنتم بصوت للناس، ويتكلم لناس في أمريكا بشيء يقنعهم أن هذا لمصلحتنا، وأن العراق خطر علينا، وأن هناك علاقة بين صدام وبن لادن ويكلمهم على أساس المصلحة الوطنية للولايات المتحدة.

لا تخلطوا يا إخوان بين الوسائل التي اختارتها أمريكا وبريطانيا لتنفيذ الديمقراطية وبين مفهوم الديمقراطية هذه وسائل للديمقراطية، والتقليد لن يعيننا على اختيار البديل، التقليد كسل فينا يقولون نحن أوضاعنا دكتاتورية نريد نظام الغرب، الغرب ما قال هذا ما قال أعطونا من اليونان من السودان هم جلسوا وفكروا وأنت أجلس وفكر؛ لأن بعض الأشياء حتى لو كانت في نفسها حسنة قد لا تناسب الظرف الذي أنت فيه، يعني يكون ضررها أكبر. أنا أذكر بعض إخواننا في العالم العربي مرة كان جاءته فرصة للانتخابات، والبلد فيها قبائل وكذا. قلت لهم أنا والله لو في مكانكم ما أعمل انتخابات بالطريقة الغربية هذه، وبعدها أعمل فتنه بين الناس وهم قبيلة واحدة لأن من الأشياء المهمة في السياسة الاستقرار وهو هدف كبير في السياسة قولوا للقبائل أنتم اختاروا ناسكم كل جماعة قبيلة تختار بالطريقة التي تريدها وكفى فلا يلزم الانتخابات.

* * *

قرار شيرك والحرية الدينية

حوار الدكتور جعفر في قناة المجد

س/ لماذا بين الحين والآخر نلحظ أن قضية الحجاب تترد وبالذات بالمجتمعات الغربية إلى اعتبار الحجاب أمراً عدوانيًا وهذا عبر به الرئيس الفرنسي في تصريح له ما تفسير هذه المفارقة؟ لماذا تدار هذه القضية باستمرار وبالذات بالدول الغربية؟

الدكتور جعفر: لسببين أو ربما أسباب كثيرة. الذي يخطر ببالي الآن سببان أولاً هي المظهر شيء مهم جداً يقول بعض علماء النفس: إن المجتمع يمكن أن يتحملك إذا خالفته في الرأي، ولكن لا يتحمل أن تخالفه في المظهر، ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية إن الله سبحانه وتعالى ما فرض على المسلمين الهدي الظاهر وهم في المجتمع المكي، لأنه من الصعب على الشخص أن يخالف الناس، سواء كان في مجتمع ديمقراطي أو غير ديمقراطي الناس لا يريدون من يخالفهم ولا يريدون أحد أن يخالفهم، ولذلك أنا أعتقد أن أخواتنا اللاتي يلبسن الحجاب هن في الحقيقة فوارس، هذا شيء يصعب جداً على الإنسان أن يخالفه، يعني جرب أنت في المجتمع السعودي غير شكلك والبس قبعة، الناس لا يتحملون هذا السبب الأول، السبب الثاني قضية المرأة هذه منذ زمن طويل وهم كأنهم يعتقدون أنها المدخل لتغيير العالم الإسلامي قضية المرأة وكل ما يتعلق بها، والمرأة عندهم متعلقة بالجنس والجنس شيء مغري بالنسبة للناس، وما من إنسان إلا وفيه ضعف من الناحية الجنسية هذه، فيريدون أن ينفذوا عن طريق المرأة إلى تغيير الأفكار وهناك تجد بعض المسلمين معهم يعني المفارقات التي حصلت في فرنسا أن بعض اليهود والكاثوليك احتجوا على القرار، وقالوا رأينا أنه لا يصدر قرار مثل هذا طبعاً ربما كانوا يدافعون عن أنفسهم لأنها من مصلحتهم، وأيدته بعض النساء المحسوبات على الإسلام، ومن أسوأ ما قلن الكلام يعتبر كفراً أن هذا رمز لإذلال المرأة، وأذكر بالمناسبة هذه أذكر قيل لي أنا ما رأيت المرأة، امرأه أسلمت وكانت عارضة أزياء في أمريكا أو كندا ثم تحجبت وقالت للناس هذه أول مرة أشعر فيها أنني ألبس لباس يخصني أنا باعتباري أمرأه، قالت في السابق كل ما نفعله عرض لجذب الرجال، أما الآن فأنا ألبس هذا وأقول للرجال لا علاقة لكم بي، فالحجاب ليس أمراً سهلاً وفيه نوع من التحدي.

س/ لكن ما تلاحظ أن هذه من المفارقة بين هذه الدول التي ترفع شعار الحرية شعار الديمقراطية شعار العلمنة، وبين التدخل الصريح في صميم العقائد والحريات الشخصية في تباين واضح إلا إذا كان هناك تفسير لم يظهر؟

الدكتور جعفر: أنا أرى أننا نحن في العالم الإسلامي والعربي كثيراً ما نتوقع من الديمقراطية ما ليس فيها، ما الديمقراطية؟ الديمقراطية هي حكم الشعب الديمقراطية لا تلزم أي شعب بأي مبدأ ولا قيمة ولا ولا تقول للشعب أنت الحاكم واختر لنفسك ما تريد، هذه الديمقراطية المبدأ، هذا المبدأ يأخذ شكلاً معيناً في الشعب هذا وفي الشعب هذا فالدمقراطية ليس لها محتوى، يعني مثلاً عندما تقول مثلاً حكم إسلامي هذا لها محتوى تقول الإسلام هو هذا القرآن و السنة ربما حتى لو قلت حكما نصرانياً عندهم مرجع حكم شيوعي عندهم مرجع، الحكم الديمقراطي ما عندهم مرجع الشعب هو السلطة العليا، وما يختاره الشعب هو الديمقراطية، أنا كنت أقول لأناس في أمريكا يعني الآن يمكن أغلبية الناس تقول كل إنسان عمره في مثل عمر جعفر هذا يقتل هذا قرار ديمقراطي، لو صوتوا عليه ونجح ممكن أن يكون هذا قرارا ديمقراطياً، فالديمقراطية لا تلزم بخلق ولا تلزم بدين ولا تلزم بأي شيء، أنت يمكن أن تعترض على هذا القرار وتقول هذا القرار مخالف للدين أو مخالف للخلق، لكن لا تستطيع أن تقول أنه مخالف للديمقراطية ما دام الإجراء فيه كان إجراء تصويت.

س/ هل تم إجراء قرار الحجاب بهذه الصورة ؟

الدكتور جعفر: نعم لأن الديمقراطية حسب ما اختارته فرنسا أن الديمقراطية رئاسية كما هي في أمريكا وأن هذا الحاكم يمثل الشعب هو يمثل الشعب، فبحسب نظامهم الديمقراطي هذا فالمبدأ الذي يقول الحكم للشعب صورته في فرنسا هي هذه أن هذا الرئيس والمجالس هي التي تمثل الشعب، فهذه المجالس رأت أنه من مصلحة الشعب الفرنسي أن يحافظ على هذا، وعندهم شيء آخر ليس الديمقراطية فقط نحن نريد ديمقراطية علمانية، ديمقراطية ولكن مبدأه هو العلمانية فنحن الشعب الفرنسي الديمقراطي اخترنا لأنفسنا العلمانية، ولذلك نريد أن نحافظ على هذه العلمانية من كل المخاطر، التناقض أين لو أن أُناسا قالوا نحن الشعب السعودي اخترنا لأنفسنا

الإسلام ونريد أن نحافظ ونحمي الإسلام من كل شيء يشكل خطراً عليه قيل لنا هذا يتناقض مع الحرية، هذا يتناقض مع الديمقراطية، وهذا كذا، فهو كيل بمكيالين، لكن حتى الكيل لا يتناقض مع الديمقراطية هذه المشكلة لأن أنا يمكن أن أقول نحن شعب ديمقراطي ونرى من مصلحتنا أن تكون الديمقراطية في بلدنا، ولكن ليس من مصلحتنا أن تكون ديمقراطية في مصر مثلاً، فلذلك لا ندعو إلى الديمقراطية في مصر الآن إذا كانت ديمقراطية النتيجة ستكون ضدنا فلذلك لا ندعو إليها بل ممكن أن نعرقل سيرها، وهذا لا يعتبر مخالفاً، من الكتب التي قرأتها حديثاً وأتيت ببعض منها أن صاحب الكتاب هذا الكتاب نشرته جامعة عن حقوق الإنسان جامعة كريستون فيقول "رميل روسفل" زوجة روسفل هي كانت رئيس اللجنة التي كتبت حقوق الإنسان، وأن أمريكا ظلت منذ ذلك الوقت تنشر مبدأ حقوق الإنسان في العالم لكن أمريكا لا ترى أن هذا ينطبق على الأمريكان ولا على المؤسسات الأمريكية، وإنما ينطبق على الآخرين خارج المجتمع الأمريكي قالوا مثلاً مبدأ قانون الإعدام قال يمكن إن بعض الأوربيين أو الكنديين أو كذا يقولون لنا إن قانون الإعدام هذا يتناقض مع حق الحياة الوارد في البند الثالث من حقوق الإنسان، قال لكن معظم الشعب الأمريكي سيقول لكن هذه العقوبة هي التي ارتضاها الشعب الأمريكي وعبر عن هذه ديمقراطياً، فإنها مقبولة وأن الكلام عن حقوق الإنسان كلام ما له علاقة بالموضوع وهذا تطفّل و تدخل في شؤوننا ومن الغرائب أيضاً أن الولايات المتحدة قراراتها كلها لا تسري عليها بحسب دستورهم إلا إذا أجازها الكونجرس الأمريكي بينما هي تلزم بها الآخرين لكنها لا تلتزم به، أنا في أحد الاجتماعات حضرنا في بعض الجلسات قلت لهم انظروا نحن بالنسبة للقرآن مثل دستوركم هذا بالضبط فلا ترون في موقفنا شيئاً غريب نحن أيضاً نقول نحن غير ملزمين بأي قرار مالم يوافق القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، فأمريكا يعني أنا في رأيي أن الدول الغربية هذه لا يكفي أن نعرف سياستها فقط لا بد أن نعرف نفسياتهم وطريقة التفكير وكذا، يعني صاحب كتاب أخر يقول إن الأمريكان يعتقدون فعلاً أن مصلحة أمريكا هي مصلحة العالم، ويقول إن "روزفلت" قال "لجيفتن" بعد الحرب العالمية الثانية: ما دام أمريكا تسلحت ما يحتاج الدول

الأخرى تتسلح، بل يجب أن ننزع السلاح من كل الدول ما دام أمريكا متسلحة فلا تستغربوا في القرارات، وكثير من إخواننا حتى من غير المتدينين في العالم الإسلامي هم متأثرون بروح الدين فيفكر بالديمقراطية كأنها دين، ويظن أنه إذا كنت أنا ديمقراطي في بلدي فيجب أن أدعو للديمقراطية كما لو كنت مسلماً أحب الناس الآخرين أن يكونوا مسلمين لكن ليس هذا صحيحاً.

س/ أنت تشير الآن إلى النزعة العنصرية وجه آخر للديمقراطية ممكن أن يفهم هذا من كلامك؟

الدكتور جعفر : حسب البلد؛ حسب ثقافة البلد.

س/ دعنا نتحدث عن فرنسا مثلاً باعتبار هذا القرار يعتبر تدخلاً صريحاً في الحريات الشخصية وإن كان مر بالفلترة الديمقراطية كما تذكر؟

الدكتور جعفر: نحن ربما إنصافاً لهم نقول هناك كان حزب عنصري ما فاز بالانتخابات والناس وقفت ضده، هو دفاع عن العلمانية، ولماذا في فرنسا بالذات لأن نسبة المسلمين كبيرة؛ فهم يشعرون بالخطر أكثر مما تشعر به دول أخرى، يعني مثلاً سمعت بالأمس إحدى السيدات في بريطانيا قالت نحن لا يمكن أن نفعل شيئاً كهذا؛ لأننا نحن كذا وكذا، فأنا ضحكت، قلت أبداً غير صحيح إذا كان عدد المسلمين صار كبيراً مثلاً نسبة المسلمين في فرنسا أكبر من بريطانيا و لذلك عمل القرار كلما زادت نسبة المسلمين كان الأولى أن يعمل مثل هذا القرار، وأنا كنت أقول لإخواننا كثير منهم يذكرون الآن منذ عشرين سنة كانوا يقولون نحن الآن في أمريكا وعندنا حرية ولا توجد في أي بلد إسلامي، وأن الإسلام سينطلق من هنا من الولايات المتحدة الأمريكية، فأنا أضحك أقول لهم نعم عندكم حرية الآن لأنكم غير مؤثرين وهكذا أيضاً كانت في كثير من البلاد العربية كانت ديمقراطية وترعرعت الحركة الإسلامية في ظل الديمقراطية، وإذا بدأ التأثير وقفت هذه الديمقراطية، وهناك لا تكونوا مغفلين يعني أنتم تظنون أن الأمريكان أو الإنجليز أو كذا يقولون نحن ديمقراطيون وسنقف وننصر الإسلام ليخطو خطوات واسعة، وبريطانيا تتحول إلى دولة إسلامية أبداً، وكلام شيراك الآن ما كان يدافع عن الديمقراطية، كان يدافع عن العلمانية لأنها هي التي اختارها الشعب الفرنسي.

س/ لكن أنا ما زلت مصراً على أن أثير قضية أن العنصرية وجه صريح في فرنسا ظاهر مثلاً ما تكتبه الصحف الليبرالية المتطرفة جداً باعتبار المسلمين أعداء وتحقير الأجانب وهذا ظاهر بالصحف اليمينية المتطرفة الفرنسية كثيراً..

الدكتور جعفر: نعم إلا أن يربط الإنسان بين الدين والعنصرية؛ لأن المسلمين في فرنسا فيهم عرب، فإذا قلنا عنصرية يكون معناها أنهم ضد العرب وليس ضد الإسلام فقط، الدين كما يرون هم في ثقافة المسلمين وينبغي أيضاً أن نذكر ما كل تصرف أو مظهر يحسب على المسلمين ويكون نابعاً من الدين الإسلامي وإلا تكون كارثه هذه، يعني كثير من اللصوص وتجار المخدرات فيهم مسلمون، الظلم ماذا إذا رأى مسلم يفعل هذا قال الإسلام لكن إذا رأى يهودياً يفعل هذا لا يقول اليهودية أو يرى نصرانياً يفعل هذا لا يقول النصرانية لكن إذا عدد من المسلمين ضربوا مبنى في أمريكا أو البلد كلها الذي جاء هؤلاء منها كلها ارهابيون، أنا لا أقول إنه لا يوجد عنصرية الفارق بين ما يسمى بالمصلحة الوطنية والعنصرية يعني ضئيل، بالنسبة للفرنسي المواطن الحقيقي ليس هذا الذي جاء وأخذ جوازاً فرنسياً أو كذا، المواطن الحقيقي هو الفرنسي الأصل عن أب وجد وكذا هذا هو الفرنسي الأصلي، أما هؤلاء يعنى تحملناه لمصالح لكن ليس هم الفرنسيون الحقيقون، فالفارق بين الوطنية الشديدة والعنصرية فارق بسيط.

س/ لكن إيصال قضية الحجاب للمحاكم الفرنسية هل فيه نزعة ظاهرة بينما لا يتخذ نفس الإجراء في لباس الراهبات فلهن لباس معين وأشبه ما يكون بالحجاب؟

الدكتور جعفر: بحسب القرار الآن أن هذا ينطبق على أي إنسان سواء كان مسلماً أو غير مسلم يظهر بمظهر يدل على دينه في المدارس الحكومية، ما قال لا تلبس الحجاب في الشارع، ما قال لا تلبس الحجاب في مدرسة خاصة أنت مخير، لكن هذه المدرسة التي تصرف عليها الدولة العلمانية، ليس لك الحق، وهذا يتناقض مع المبدأ العلماني ونصرة للدين سواء كان ديننا نصرانياً أو إسلامياً، لذلك لا يشمل هذا الرأي في الكنائس، ولا المسلمين في المراكز الإسلامية، ولا الشوارع حسب مافهمت.

س/ هل يمكن أن يقال إن هذا القرار حد للحريات وليس قراراً ديمقراطيًّا ؟

الدكتور جعفر: أنا أستغرب عندما يقول بعض إخواني إن هذا القرار ليس ديمقراطياً لا يكون ديمقراطياً إذا توصل إليه بطريقة غير ديمقراطية، أما كل قرار

يتوصل إليه بطريقة ديمقراطية فهو ديمقراطي، سواءً كان مخالفاً للإسلام أو مخالفاً للمسيحية أو مخالفاً للخلق أو مخالفاً للدين فهو ديمقراطي، لأن كثيراً من إخواننا حتى من الأمريكان أنفسهم يخلطون بين الديمقراطية المبدأ الذي يقول الحكم للشعب والسيادة للشعب، والديمقراطية كما هي مطبقة في مكان وزمان معين، كنت مرة أقول هذا الكلام في أمريكا، وقلت إن الأمريكان الآن يستفظعون الاعتداء على الأطفال، ما عندهم مانع الزنا بين الرجال والنساء ما داموا متراضين لكن يستفظعون الاعتداء، وقلت يأتي وقت من الأوقات ويباح هذا، فوقف أحد الإخوان وقال بالمناسبة هناك جماعات الآن تدعو إلى هذا وتقول ما الفرق بين الكبار والصغار، فمن الناحية النظرية كل شيء مهما كان فظيعاً هو ممكن من الناحية الديمقراطية، ولذلك بالمناسبة الديمقراطية فيها مشاكل كثيره مع الأسف كثير من الناس لا يعرفون، ولذلك الذين وضعوا الدستور الأمريكي أعقل من الذين جاءوا بعدهم ما كانوا يريدون الديمقراطية التي يسمونها الديمقراطية الخالصة، ولذلك قالوا نحن نريد ديمقراطية ليبرالية، ما معنى ليبرالية أي التي تتكلم عن حقوق الإنسان وكذا وكذا، لكن نشأت مشكلة قالوا أنتم الآن تقولون السيادة للشعب ولكن في الوقت نفسه تقولون إنه لا يحق للشعب أن يعتدي على الحريات، من الذي قال لا يحق له كأنكم تفترضون أن هناك قوة أكبر من قوة الشعب وإلا صار الكلام متناقضاً، وأحد الألمان كتب قبل مدة كتاباً عن تناقض الديمقراطية الليبرالية وأثار ضجة وما حلت المشكلة إلى الآن، وأنا في كثير من المؤتمرات عندما يأتي موضوع حقوق الإنسان أقول لهم من الذي أعطى الإنسان هذه الحقوق ؟ قالت واحدة متخصصة: هذا إجماع، طيب أنت قبل قليل قلت إن بعض المسلمين تحفظوا عليه فكيف الآن تقولوا إجماع؟ طيب هو إجماع متى كان الإجماع هذا في وقت من الأوقات يمكن الآن بعض الناس يقولون غيرنا رأينا مشكلتهم الآن رغم الضجيج الكبير عن الديمقراطية مالها أساس كان أساسها الدين قالوا لا نريد الدين كانوا يقولون شيئاً طبيعياً فصارت الحجة واهية هل الطبيعي أن الرجل يتزوج رجلاً. خرجوا عن الطبيعي، فما أصبح لها أي أساس تعتمد عليه غير أن هذا هو الذي اختاره الغرب الآن، ولذلك صاروا يقولون عن كل شيء يدعون إليه يقولون هذا ليس خاصاً في الغرب ليس هذا ثقافة محلية هذه مسألة إنسانية، أنا إنسان ولا أريده.

بالنسبة لكلام الأخ، أمريكا مختلفة عن بعض البلاد الأوروبية بلد أصلاً تكونت من أجناس مختلفة وثقافات مختلفة ومازالت أبوابها مفتوحة، وأصل تكوينها من شعوب مختلفة ولو كان في الغالب اللغة الإنجليزية يعني مثلاً اللغة الإسبانية لغة مهمة جداً في أمريكا هذه واحدة الشيء، الثاني أن أمريكا إذا ما استعلمت القوانين تستعمل سياسيات، وأنا لا أريد في الحرية الدينية أن تفهم فهماً ضيقاً، قال لي أحد النصارى قبل مدة: لا تخدعوا كما خدعنا، نحن كنا نعتقد أن العلمانية محايدة ثم وجدنا أن العلمانية في الحقيقة صارت دينا معادياً للأديان، قلت له شكراً لك لأن هذا في ذهني، لأنه لا يمكن للدولة لا يكون لها دين بالمعنى العربي كلمة دين لأن هذا له دين وهذا له دين (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) يعني قوانينه، وكذا لا يمكن لدولة ما يكون لها منهاج حياة لأنها لابد أن يكون لها رأي في الاقتصاد، لابد لها رأي في العلاقات الخارجية على أي أساس تعمل قوانينها وكذا، فالكلام على أن العلمانية تعطي للأديان حرياتها ليس بصحيح، قال بعض المفكرين المتدينين قال نعم تعطي الحرية للدين بمفهومها هي للدين، لكن العلمانية نفسها ما هو الدين تعطي الحرية على هذا الأساس.

س/ دكتور هو أشار إلى موضوع مهم إلى هذا الجانب هو ما يتعلق بالمسؤولين الأمريكيين باعتبارهم تحدثوا عن هذه القضية بالمفهوم الديمقراطي نفسه في المعارضة، والمسؤولين الأمريكيين حذروا جاك شيراك من هذا الأمر ومن مغبته ومخالفته للديمقراطية.

الدكتور جعفر : لا يمكن أن نقول خالف الديمقراطية، حتى نحن أنا في رأيي عندما نعترض على هذا الكلام معهم على أساس أن هذا ليس ديمقراطية وكذا غير مقنع نحن نقول لهم أنتم تريدون مصلحة بلدكم وعندكم مصالح في العالم الإسلامي هذا هو المنطق الذي يفيد، تريدون مصلحة بلدكم وفي إمكانكم أن تصدروا قرارات ديمقراطية في مصلحة بلدكم، ولا تتعارض مع ما يريده المسلمون، هذه الحجة التي تنفع.

ممكن أيضاً المتشائم أن يقول وهي نجحت في العالم الإسلامي ونحن موقفنا لو كنت فرنسياً لقلت للمسلمين أنتم متناقضون أنتم عندكم بلاد إسلامية سبقتنا إلى هذا

ومنعت الحجاب ليس في المدارس فقط منعت في القنوات الفضائية، ومنعت الموظفات ومنعت أساتذة الجامعات، منعت في بعض البلاد حتى السير بالشارع يعني فرنسا أحسن في مثل هذا ونحن سكتنا لأن هؤلاء عرب، لو كنت فرنسياً لقلت أنتم متناقضون. أيضاً هذا كلام صرنا نقوله منذ سنين سواء فرنسا أخرجت قوانين أم لم تخرج ما دمت أنت مثل الكلام الذي نسب للبابا كلام صحيح إذا كان المسلمون مهما كانوا هم أقلية، وابنك يذهب إلى المدرسة وإذا عاد من المدرسة يلعب مع أطفال غير المسلمين، ويشاهد التلفاز، ولذلك الاستمساك بالدين يكون بالجيل الأول، الجيل الثاني يكون أضعف، الجيل الثالث ربما يذوب، وهذا حدث في كل بلدان العالم، في أستراليا أذكر أننا قابلنا بعض الناس أحفاد المسلمين الذين جاءوا إلى أستراليا، فواحد يقول لي ماي فاذر موم يعني جدي اسمه محمد يعني حتى الكلمة محمد إلى موم، فأنا في رأيي أنها تقريباً معركة خاسرة، ولا يمكن للمسلم أن يعيش في مجتمعات غير مسلمة، كثير من المسلمين الآن المتدينين والله أود أن لو خرجوا من بعض البلدان الغربية، بسبب أن المجتمع غالبيته من المسلمين، الآن في أمريكا مثلا مشكلة كبيرة يعني البنات يأتين إلى المدرسة لا تكاد تلبس شيئاً ومدارس مختلطة وهؤلاء من حسنات هؤلاء المتعصبين دينياً أنهم الآن يقولون إنه يجب أن يسمح بالعزل، إذا كان الناس في منطقة معينة يريدون لأبنائهم أن لا يدرسوا مع البنات لماذا لا نعطيهم هذا الحق، الليبراليون يقولون لا، فهي سواء صدرت قوانين أو لم تصدر معظم المسلمين في الحياة الغربية.

س/ أ.د. زيد العز أشار قبل قليل إلى لغة الأرقام واعتبرها هي مؤشر الخطر في هذه القضية، وصدر حديثه بالمثل الفرنسي ليس هذا ضربة سيف بنا كأنه يشير إلى أن هذا الأمر خطير وأن القرار له أبعاد أخرى، وأنه ربما تكون فرنسا جس نبض لبقية الدول في موقف الإسلامي؟

الدكتور جعفر: الكلام الذي قاله صحيح، أن الإنجاب في هذه المجتمعات صار ضعيفاً جداً، كأنها هي تحكم على نفسها بالإعدام، وهذا كلام كتب، أنا مرة لخصت كتاباً لفوكوياما اسمه الانفراط العظيم، فذكر هذا ليس المجتمعات الأوروبية فقط حتى اليابان كل البلدان المتقدمة صناعياً بدأت تقل نسبة المواليد عندهم، وبعضها في تاريخه وثقافته ما عندهم تقبل الآخرين كاليابان لا يقبلون الناس من الخارج، الأمريكان أحسن وضعاً في هذا لأنهم يقبلون فيحلون الإشكال.

س/هل هذا القرار يجعل الأطفال يتربون على نزع الحجاب ويذوبون ؟

الدكتور جعفر : أنا لا أقول أن ما فعله شيراك صحيح، لكن هو سيعجل بتذويب المسلمين، أما كونهم يذوبون فأنا في رأيي أنهم أصلاً يذوبون، في قضايا أخر تذيب المسلمين، ما مشكلة الحجاب بالنسبة لهم؟ هم يقولون هذه المتحجبة هذا ليس أمر يخصها كأنها تقول للفتيات الأخريات أنتن لستن مسلمات حقيقيات إذا كنتِ مسلمة حقيقية فليكن مظهرك كمظهري، فهم يعتبرون أن هذا كأنه تدخل في شؤون الأخرين وكأنك تفرض الدين، وفعلاً يستجيب معه في الأخير لأن المرأة التي تظهر بالحجاب تستفز النساء اللاتي غير محجبات فيكون كأنه الحجاب ليس مسألة شخصية كما قال الأخ، وليس لباساً فقط، فعلاً ليس لباساً فقط هو نوع من الدعوة، ثم إن القوانين ماذا يا أخي غير القانون، هذا في الدستور غير الدستور.

س/ ما رأيك في تأييد الدول الغربية الأخرى مثل ألمانيا ؟

الدكتور جعفر : ألمانيا إلى الآن حتى لو جلست فيها ثلاثين عاما لا تعطيك الجنسية، وكل إنسان من أصل ألماني حتى لو لم ير ألمانيا أبداً ولا يتكلم لغتها يعطوه الجنسية، يعني بعض الناس من أصل ألماني وهو في روسيا ترحب بهم ألمانيا يأتي اليوم وتعطيه الجنسية.

ويمكن أن لا يحاربك بالقانون لكن يحاربك بالسياسة يعني ما مشكلة الآن في فرنسا مع كثير من المسلمين ليست الإرهاب، ولكن زيادة عدد المسلمين، ولذلك هم يتكلمون، هذه التي كتبت عننا وقالت إنهم يوزعون مصاحف في كل يوم أربعين مصحفاً قلت لهم وهل هذه مشكلة، ومن الأشياء التي أتهمتنا بها أننا نحن نوزع أربعين مصحفاً في اليوم المهم قلت لها هنالك جماعات نصرانيين توزع مئات الإنجيل في كل غرفة في كل فندق من فنادق أمريكا لماذا هذا لا يكون مشكلة وهذا يكون مشكلة، طبعاً هم يقولون هذه بلدنا ونحن نصارى، بعضهم يقول هذا ما وصلوا أن جعلوا هذا قانون لكن من الأشياء التي تزعجهم الآن وسيحاربون، الآن عندما تحارب المؤسسات الخيرية، أصلاً من الذي يبني المساجد في أمريكا المؤسسات الخيرية، ومن أين هذه المؤسسات الخيرية معظمها من السعودية، ثم من دول الخليج الأخرى، فأنت عندما تخيف هؤلاء حتى الأفراد صاروا يخافون.

س/ القرار لم يفرق بين اللباس والرمز هل هذا فعلاً موجود ؟

الدكتور جعفر : أنا في رأيي أن حجتهم و فيها بعض الصواب أن هذا تعبير عن دين وليس لباساً عادياً؛ لأن هنالك مسلمون، من هذه البلاد نفسها التي أتت منها هؤلاء البنات ولا يلبسن الحجاب، بعض إخواننا الأمريكان كانوا في بعض البلدان الإسلامية فقالوا وهم كانوا جنوداً أمريكان في بلد إسلامي قالوا عدنا، قلت لماذا عدتم ؟ لأننا كنا في وقت العطلة يلبس نساؤنا ورجالنا يلبسون ما يعتبر زياً إسلامياً الرجال يلبسون ثوباً وكذا، فهذه الدولة اشتكت من هذا للقيادة الأمريكية، وأن هذا يشجع الأصوليين عندنا خصوصاً وأن هؤلاء أمريكان.

س/ هل يمكن أن هذه الخطوة من فرنسا يمكن تعميمها في أوروبا ؟

الدكتور جعفر : مجرد أن تخطو فرنسا هذه الخطوة هذا يشجع الآخرين، يعني ربما يكون بعض البلاد عندها نفس التفكير، فإذا نجحت فرنسا فهذا يشجعها، أن يكون هنالك معارضون هذا أمر طبيعي في كل بلد من البلاد بعض السياسات لها معارضون يعني في أمريكا الآن هناك معارضة شديدة لموقف أمريكا من حرب العراق أفغانستان كذا وكذا، فهذا ينبغي أن لا يخدعنا، أصلاً البشر عندهم هذا ضعف بشري الناس كما قلت لك لا يريدون المخالف، يريدون أن يكون الإنسان معهم، ولولا الكلام الكثير عن الحرية، وحرية الدين وكذا وكذا لمشى هذا الأمر من غير معارضة.

س/ هل هناك انقسام في أوروبا تجاه الحجاب ؟

الدكتور جعفر : أنا أقول إذا كان هناك في أوروبا انقسام فهذا انقسام طبيعي؛ لأن موقف الإنسان يعتمد على أفكاره، وعلى أنه كيف يرى مصلحة بلده وعلى مدى إيمانه بالدين وبالحرية، المشكلة أن كثيراً من المتسامحين هو متسامح، لأنه لا ينتسب للدين حتى غير نصراني.

س/ هل يمكن يحصل منع لبعض المظاهر الإسلامية كاللحية ؟

الدكتور جعفر : أحب أن أطمئن بالنسبة للحية لن يحصل فيها مشكلة أبداً والسبب أنهم عندهم لحى منذ زمن وهي جزء من ثقافتهم، الملحد عنده لحية، والنصراني عنده لحية، كارل ماركس عنده لحيه.

س/ وهل يخافون من توسع المسلمين في مطالبهم الإسلامية ؟

أنت إذا قلت أنا دولة علمانية وأنا محايد بين الأديان، فيجب أن تعامل الأديان كلها معاملة واحدة، لأن هناك قوانين لا معنى لها إلا أن أصلها من دين نصراني، أنا الحقيقة

كلام الأمير جعلني أسأل سؤالاً هل هنالك مشكلة سياسية؟ لأن السياسي لا يتخذ قراره فقط في معزل؟ وهو لا يمكن أن يكون مجرد مبدأ أو كذا وكذا، يرى أنه ربما أن يكون الجماعات المتطرفة هذه يخشى منها أنها تسلبه بعض الأصوات لأنه لابد أن يفكر تفكيراً سياسياً بالنسبة لحزبه، ثم هل غالبية المسلمين؟ هذا سؤال أيضاً هو لو كان يعلم أن الخمسة ملايين من المسلمين سيعارضون ما أقدم على هذا لا يمكن، بل ربما لو كان يعلم أن نصف هؤلاء سيعترضون ما أقدم عليه.

الغريب أنني الذي لاحظته في السويد أن هنالك عدم تسامح في الشارع، يعني يسخرون من النساء المتحجبات وهذا أمر لا تجده في بريطانيا ولا في أمريكا، والسويد أبعد بلاد الله عن الدين، ربما بالنسبة لهم حجاب أو غير حجاب لا يؤثر عليهم.

س/ ما أشار إليه الكاتب الفرنسي من أن مطالب المسلمين ربما لا تنتهي، ولذلك التوقف ضد هذه المطالب هو المهم في الدول الأوروبية حتى لا يفتح المجال لذلك ليس القضية قضية حجاب المطالب ستستمر أليس محقا فيما يطلبه ؟

الدكتور جعفر : إن هذا هو من أحد الأسباب نعم ممكن، بالمناسبة في أمريكا هنالك كتابات في هذا يعني الكونجرس هذا الذي كان زعيم الأغلبية في الكونجرس عنده كتاب يقول إن الذي يأتينا يجب أن يتحول إلى أمريكي، وهكذا الكلام يقال في كندا وكذا هذا الذي يسمونه يعني الذوبان يعني إذا أتيت لا تكون شاذا وقالوا إن مشكلة المسلمين هذه أن كثيراً من المسلمين يأتي ويجلس عشرات السنين وهو محتفظ بشخصيته، فهم يريدون منك إذا جئت إلى بلادهم هذه أن تتحول إلى فرنسي وتذوب في المجتمع هم ما يستعملون كلمة ذوبان، مثلاً أحد رؤساء بعض المدن قال إن على المسلمين أن يدعوا إلى إسلام فرنسي ليس الحجاب فقط، يعني لا تأتوا وتدعون إلى إسلام العرب نحن نريد إسلاما فرنسياً.

س/ هل الإسلام بشكله الحالي يمكن أن يشكل خطراً على الغرب، وبالتالي الغرب متوجس من الإسلام بشكله الحالي؟

الدكتور جعفر: هذه المشكلة في نظري نعم، وليس فقط بوجود المسلمين في الغرب، كثير منهم يقولون إنه إذا كانت المعركة صارت المعركة فكرية فهي بيننا وبين المسلمين، وأنا قلت في مناسبات كثيرة إن "فوكوياما" لما كتب كتابه نهاية

التاريخ قال إن كل العالم ماشي في طريقنا هذا إلا فئة واحدة المسلمون، تقول إنها ما زالت ترى أن عندها بديلاً، ويقولون أيضا إن هؤلاء المسلمين هم وقفوا ضد الشيوعيين وفي ذلك الوقت طبعاً هم كان يسرهم أن وقفوا، لكن أخافهم طبعاً الذين وقفوا ضد الشيوعيين هؤلاء يقفون أيضاً ضد الحضارة الغربية، فقوة المسلمين ليست قوة اقتصادية ولا قوة عسكرية وإنما هي قوة الدين، هذا خطرهم سواءً كانوا ذهبوا إليها أم لم يذهبوا.

س/ كيف يمكن للمسلمين في الغرب أن يواجهوا مثل هذه القضايا والضغوط؟

الدكتور جعفر: هنالك عدة أشياء يمكن أن تُعمل، أولاً لا تحصر نفسك في القضية الجزئية هذه، بل استغل هذه القضية للكلام عن الإسلام بصفة عامة، هم الآن مهتمون بقضية الحجاب، يأتي المسلمون يقولون لماذا الحجاب هذا، وأنه جزء من حياة متكاملة، وأن السبب فيه كذا وكذا، مثلاً قال لماذا الحجاب قلنا له أولاً أنتم لا تقيسون، أولا يكون معياركم الوحيد هو ثقافتكم، لأنك إذا قلت لماذا تتحجب المرأة وأنا أقول لك ولماذا تسير المرأة عندكم شبه عارية، لا لكن إذا أردت أن تناقشني ناقشني إما بالعقل أو من باب المصلحة آنذاك أنا أناقشك، أنا أقول لك مثلا إن من المعروف أن الناس تجذبهم أجساد النساء في العالم كله، الإسلام يريد من المرأة أنها إذا خرجت من بيتها أن تعامل على اعتبار أنها إنسان وليس على اعتبار أنها جنس فتغطي كل جسدها وحتى إذا تكلمت فلا يخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض فيمكن أن ننتقل من الحجاب إلى الأسر.

س/ رسالة إلى المنظمات الإنسانية في الغرب أو المعنيين أو المجالس الإسلامية في الغرب.

الدكتور جعفر : الرسالة لهم الأولى ذكرناها أن لا يحصروا أنفسهم في القضية الجزئية في الحجاب فقط، عندما تثار قضية فتحت الأذان فتحت الأذان هذه أنا أصب فيها شيئا آخر.

المسألة الثانية أننا نحاول أن نتحد أو نتعاون بقدر الإمكان، أما إذا صرنا متفرقين فلا نستطيع أن نؤثر لا سياسياً ولا دينياً.

* * *

ذكرياتي ـ جعفر شيخ إدريس

لقاء قناة طيبة الفضائية

البطاقة التعريفية:

أنا جعفر شيخ إدريس محمد صالح، وجدنا الكبير اسمه بلل، وأهلنا مشهورون بالبلال من الشايقية. الوالد هاجر وهو شاب إلى بور تسودان وعمل بالسودان في الشرطة فأنا ولدت في بور تسودان سنة ١٩٣١م ونشأت فيها ودرست الدراسة كلها فيها لكن صلتنا لم تنقطع في كريمة كان الوالد يذهب وكنا أحيانا نذهب معه فمكثت في بور تسودان وتعلمت فيها ثم ذهبت إلى مدرسة حنتوب وبعدها إلى جامعة الخرطوم.

س/ لعلك أنت تنزع أصلاً من الشمال ومولداً نحو الشرق المولد زمان عُلم ما ذكرت لنا لكن عموما العصر الذي ولدت فيه أنت ومنطقة شرق السودان والأحداث التي وجدتها وأنت في بداية حياتك عموم العصر؟

ما أظن كان هناك شيء يميز بورتسودان عن بقية مدن السودان نعم كان هنالك شيء يميزها النظافة كانت مشهورة مع الأسف الأمر تغير قليلا لكن كانت مشهورة جداً بأنها بلد في غاية النظافة، حتى إن أحد أساتذتنا كان إنجليزياً جاء ليسافر عن طريق البحر لبلده فقابلته هنالك فأول ما قاله لي إن هذه مدينة في غاية النظافة، الشيء الثاني أن الناس الذين أحسوا بالحرب العالمية الثانية كان هم أهل بور تسودان فقط من بين السودانيين لأن الطائرات كانت تأتي من شرق إفريقيا من الصومال لأن الصومال كانت تحت الاحتلال الإيطالي كانت الطائرات تأتي من الصومال وتضرب مدينة بورتسودان، وأذكر أن الناس ما كانوا يعرفون كيف يتحركون وأذكر جدا وأنا صغير عندما جاءت أول طائرة وأسقطت بعض القنابل والناس تقول رمت قنبلة وفرضوا علينا أن نحفر خنادق في داخل البيوت أنا أذكر أنه كان عندنا خندق في البيت، وإذا ضربت صفارة الإنذار ندخل داخل الخندق وكذلك كانت هناك خنادق في الشوارع فأظن أن بور تسودان ربما هي البلد الوحيدة ربما بلاد أخرى في شرق السودان هي التي كانت أحست بالحرب العالمية الثانية.

س/ ما السر في هجرة قبائل الشايقية؟

أظن أن هجرة الوالد لأن بلادهم كانت بلاد ضيقة يعني أنا في أيام الشباب ذهبت إلى مصر وجدت أن عدداً كبيراً جداً من الشايقية كانوا في مدينة عين شمس، وأيضاً كانوا يعملون في الشرطة ما السر في أنهم يعملون في الشرطة والله لا أعلم ربما كانت هذه هي المهنة المتاحة، لكن أنا لا أذكر بدقة هذه الفترة التي عمل فيها الوالد. والوالد خرج من الشرطة ولم يتقاعد وفتح الوالد دكاناً صغيراً وندم على الفترة التي قضاها في الشرطة وكانت تجارته صغيرة ليس تجارة كبيرة لكن كانت بالنسبة له أحسن.

س/ كم كان عدد العائلة؟

عددنا نحن -ما شاء الله ستة- إخوان وخمس أخوات كلنا من أم واحدة، وكنا أسرة مترابطة والوالد والوالدة كانا ينتميان إلى طائفة الختمية، وكانوا متدينين جدا محافظين خصوصاً الوالدة كانت شديدة جداً في أمرنا بالصلاة، يعني تقريباً قامت بمهمة كبيرة في تربيتنا على الدين، كانت لا تتلاعب في هذا أبداً فحتى إذا نام أحد كانت توقظه وتقول له: صليت العشاء؟ كان لها أثر كبير جداً على تربيتنا وكنا نخاف من أمنا كنا الأطفال الوحيدين الذين يخافون من أمهم، كان بقية الأطفال لا يخافون من أمهاتهم ما تغيروا، لكن -الحمد لله- ربنا هداهم فتغيروا وصاروا سُنيين.

س/ في فترة الطفولة هل هناك أحداث حصلت لك؟

أكثر شيء حصل في حياتي هو عندما كان الحركة السلفية بدأها في بور تسودان جماعة بعضهم من أقاربنا، وأنا عمري ست سنين الوالد أخذني ليدخلني المدرسة فقالوا له الولد صغير دعه للسنة القادمة في أثناء هذه السنة كنت ألعب في سيارة قديمة فقفزت على مسمار فطعنني ويبدو أنه كسر العظم من الداخل، وكانوا يعالجوني من الخارج فتعبت جداً ومكثت على السرير حوالي ثلاث سنوات، فقرر الطبيب أن يقطع رجلي طبيب سوداني، وإلى الأن أذكر شكله وعنده قلم يضعه فوق أذنه فقال للوالد تنقطع من الساق، الوالدة رفضت وكانت في ذلك الوقت مازالوا على الختمية، فقالوا لها خلاص نسأل السيد علي فقال السيد علي: اسمعوا كلام الطبيب، والوالدة لم تسمع كلام الطبيب ولا كلام السيد علي فقال لها الطبيب سيصاب بالغرغرينه ويموت فقالت أحسن يموت برجليه ولا تقطع ويقعد في السرير، فصارت دائماً تذكرني

بهذا الأمر كلما كلمتها مثلاً ذهبت إلى طبيب، وتعالج في بعض أشياء إحمد الله أنت كنت ستكون برجل واحدة.

كان عندنا أستاذ في جامعة الخرطوم سويدي درسنا فلسفة، فكنت أنا أضرب لهم مثلاً كذا كان عنده تصور أن النسوان السودانيات المتلفلفات كذا أنهن مضطهدات، قلت له يا أخي الكلام هذا غير صحيح، هؤلاء عندهن شخصية وأنا أمي حصل منها كذا وكذا، وهؤلاء ليس مساكين كما أنت متصور أو تفتكر. وبالنسبة لحادثة المسمار أخرني كثير عن الدراسة قالوا لي تأتي وعمره سبع سنوات كما قلت لك وما دخلت المدرسة بعد الحادثة إلا بعد عمر عشر سنوات لكن هل له نتائج حسنة نعم كان له نتائج حسنة، أخي الذي أكبر مني ودخل المدرسة كان يقول لي يا جعفر والله لولا رجلك هذه ما دخلت الجامعة. فكنت عندما دخلت المدرسة شعرت أنه أنا في سنة أولى والناس الذين في عمري كانوا في سنة رابعة فاجتهدت اجتهادا شديد لأني رأيت الفرق كبيراً بيني وبين زملائي، فكنت أصحى الصباح أمشي إلى الخلوة قريبة من البيت فأدرس في الخلوة، وفي الخلوة يعطوننا فسحة لشراب الشاي كل الأطفال، ففي هذه الفترة أذهب للمدرسة، وأرجع من المدرسة، أمشي الخلوة مرة ثانية، وفي المساء أرجع للخلوة واستمريت هكذا إلى أن بعض الجيران فيهم رجل عنده علم وكان رجلا سنياً عمل درساً في الخلوة في المساء، فكنت أذهب وأحضر دروسه وكان يدرس الأربعين النووية وكان يدرس كتب المالكية: كتاب العزية.

س/ ما هو التحليل العقدي لما يحصل للأطفال من ابتلاءات؟

الغريب من الأشياء التي لاحظتها وأنا كبير لا أستطيع أن أقول لك، أنا في ذلك الوقت لم أجد عقدة من الذي أصابني وأنا صغير، ولاحظت هذا في طفل أمريكي نسيت الآن ما كانت مشكلته لكن كان مرتاحاً جداً، الناس الآخرون هم الذين يسألون الأسئلة التشكيكية والرجل المصاب كان مرتاحاً جداً وأظنني كنت من هذا النوع، لا أظن أن هذا له أثر علي من الناحية العقلية، يجب على الإنسان بعد ما يحصل الشيء لا يقول لو لأن لو تفتح عمل الشيطان، لا يقول ياليت لو كنت عملت كذا أو عملت كذا فالقدر هنا شيء مهم جداً في حياة الإنسان وفي دينه، وينفعه في الدنيا

والآخرة بدل ما يضيع وقته في الندم وفي التحسر، بل ينظر إلى الجوانب الإيجابية التي حدثت بسبب هذا البلاء الذي أصابه.

س/ كيف كانت بداية الدعوة السلفية وكيف كان اتصالك بها؟

بالنسبة لظهور الحركة السلفية كانت بيئتنا ختمية قحة، وأذكر من الطرائف أنه حصلت مشكلة سياسية، والشرطة ضربت الناس بالرصاص الحي، وجاء أحد إخواننا مستغرباً في هذا وقال للوالد -والوالد ختمي مثله- العساكر هؤلاء أليس من الطائفة الختمية فكيف يضربون الناس بهذه الطريقة؟ وكان مجيء السيد علي للمدينة حدث كبير جداً يخرج مئات الناس إن لم يكون الآلاف ينتظرون فقط الفاتحة في هذه الفترة الغريبة - أنا لست مؤرخاً للأسف - ما أدري بالضبط متى بدأت الحركة السلفية لكني من المؤكد أنني انضممت إليها قبل دخولي للثانوي في مدينة بور تسودان

س/ من هم رموز الدعوة السلفية؟

كان مصطفى ناجي من مدينة بور تسودان أصله، وكان يأتي شيخ الهدية أذكره رغم أنه ليس من بور تسودان وواحد من أقاربنا اسمه الشيخ سيد أحمد حاج عثمان، وهو خياط لكن كان من الناس الذين عندهم علم بالسنة، وكان عنده قرابة مع الوالدة فهذه أيضاً سهلت علي؛ لأن الوالدة كانت متشددة في البداية وما كانت راضية أبداً أن أنضم إلى السلفية.

س/ ما الذي أعجبك في الدعوة السلفية؟

طبعاً ما قارنت بين السلفية والختمية لكن بعض الذي قالوه والذي كان بعض الناس ينكرونه أنا عرفت بالتجربة أنه كلام صحيح بالتجربة، يعني كان وأنا الوالدة تعالجني في رجلي وأتألم جداً وكانت هناك صورة لواحد من رجال الختمية على الحائط، وكان الناس يقولون هذا مكان استغاثه وكذا، فقلت لهم أنا كنت أستغيث فيه بقلبي؟ وكنت قد قضيت فترة مع جدي وجدتي في مدينة كريمة السقاي وكان يأخذني إلى مسجد اسمه مسجد ود حاج، يعني شيخ مدفون هناك، وكان يدخل رجلي في تراب قبره ليشفيني، فعندما ذكر السلفية أن هذا لا يجوز وكذا اقتنعت بسرعة، ولا زلت أذكر يوم جاءتني هلوسة النوم كأن واحداً يقول لي الشريفة

الشريفة وهذه كانت من نساء الختمية المشهورة محترمة جداً وأنا أقول لا أعبد إلا الله لا أعبد إلا الله، يعني ما كانت مقارنة وكذا إنما دُعيت واستجبت للدعوة.

س/ ماهي بدايتك في دراسة العلوم الشرعية؟

كما قلت لك إننا في الخلوة كان معنا شيخ رجل فاضل، يعني ليس شيخاً بالمعنى التقليدي هو رجل كان كما يقولون جنايني، وكان رجلاً سنيًا يدرسنا في المساء الأربعين النووية وبعض الكتب المالكية هذا الذي بدأت به، لكن استفدت أكثر وكثير جداً من عالم من أهل البحر الأحمر اسمه الشيخ أبو طاهر السواكني، هذا رجل متخرج من الأزهر وكان أيضاً على عكس ما كان يدرس الناس كان ما يدرس إلا كتب السنة في المسجد الكبير، فكان يدرس بالطريقة التي رأيت في النهاية أنها هي الطريقة التي كان يدرس بها العلماء، فاستمعت إلى هذا سنة أو أكثر أنا والوالد كنا نذهب، سمعنا البخاري كله وجزءًا كبيراً منه وأبو داود، وهو نفسه مؤلف كتيبات صغيرة في السنة، عنده كتيب اسمه صحيح السواكني مئة حديث أو كذا كنا نحفظه، قبل ما أذهب إلى الثانوي إخواننا أنصار السنة عرفوني بابن تيمية وابن القيم وابن تيمية كان صعباً عليَّ فكنت أحب ابن القيم أكثر، والأمور تغيرت يعني كبرت وكذا، وعندما أقول ابن القيم أقصد الرسائل الصغيرة ما دخلت في الكتب الكبيرة إلا بعد مدة.

س/ وماهي قصة الشناقيط؟

كان أهل شنقيط يذهبون إلى الحج عن طريق السودان، يتعبون ويستقرون في بور تسودان ومن بور تسودان يركبون البحر فجاء واحد منهم علامة من غرائب الدنيا رجل كبير الآن أظن أنه ما زال حيا الآن في السعودية صار من العلماء الكبار في السعودية أول رجل رأيناه يحفظ آلاف الأحاديث، ويحفظ القرآن كأنه معجم مفهرس نقول له يا شيخ عيسى مذكور في أي الآيات فيذكرها كلها هذا شيء، الشيء الثاني جماعة أقل منه بكثير هؤلاء درسنا عليهم جماعة منهم كانوا يدرسون النحو، وأذكر واحداً فيهم كان دائماً كل شواهده من البردة درسنا عليهم شيئاً من النحو.

س/ ماهي نصيحتك في تعلم العلم الشرعي؟

اليوم كنا في المنتدى كنا نقرأ في كتاب الموافقات للشاطبي، فناقشنا أحدهم وهو نصح قال إن الإنسان لازم يدرس على عالم قال العلم ممكن تقرأ لكن الأساس هو السماع تقرأ على شيخ، ونصح في القراءة نفسها تقرأ كتب الراسخين في العلم من العلماء حتى ذكرنا في الكلام حبذا لو كلمنا الشباب يقرأون كتب مثل الأربعين النووية ورياض الصالحين وبلوغ المرام من أدلة الأحكام، والكتب التي لا تدل على أن الإنسان ينتمي للجماعة هذه أو الجماعة هذه كتب لكل المسلمين يعني، أنا قلت لهم الواحد يحزن عندما يرى كثيراً من الشباب وهم إسلاميون ما عندهم شيوخ أنا أستغرب أنهم يتعلمون العلم كيف أصلاً الإنسان إذا ما تعلم العلم الصحيح يكون عرضة للزلل قال العلماء ممكن أن الإنسان يكون عنده عبادة ويكفر، وأنا أعرف شخصاً كان عنده عبادة سوداني ويمشي كان في السعودية يمشي يعتمر كم مرة ولكن ألحد بالمرة، أصبح ينكر وجود الخالق. فلا بد مع العبادة من العلم قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨]، مما يساعد الإنسان على الاستمساك بالدين و البقاء في دائرته أن يكون له من يعينه على هذا.

س/ ماهي ملاحظاتك حول القراءة وكيف يستفاد من الكتب؟

أنا عندما ذهبت إلى بريطانيا في عام ١٩٦٢م الكلية التي أنا فيها كانت تقدم خدمات للطلاب مالها علاقة في دراستهم لكن كان من ضمن الخدمات أنهم أتونا بشخص متخصص في القراءة والقراءة السريعة، فذهب إليه البطيؤون في القراءة وكنت منهم بل كنت أبطأهم ربما لأن اللغة الإنجليزية ليست لغتي لكن قال لي ما دام أنت بطيء في القراءة معناها أنت بطيء حتى في لغتك وتعلمنا منه أشياء وزادت السرعة بعض الشيء لكن عرفت في النهاية أن سرعة القراءة لابد أن يتعلمها الطفل وهو صغير ، ولها قواعد سهلة جداً ممكن أن يتقنها الطفل لأنهم يقولون البطء ليس من عدم الفهم ليس من العقل، البطء من العين لأنه قال الإنسان يشوف الكلمة بعد ما يقف في القراءة يعني البطيء يقرأ واحد اثنين ثلاثة يقف ستة سبع مرات في السطر

يزداد قليلا يزداد سرعة يقف ثلاث مرات يزداد سرعة يقف مرتين يزداد يقرأ السطر كله مرة واحدة يزداد يقرأ ثلاثة أسطر مرة واحدة، وواحد أمريكي هذا كان يقرأ في الدقيقة ألفي كلمة، هناك أشياء أخرى ممكن يتعلمها الإنسان بعدما يكبر.. من الأشياء التي استفدتها مثلاً أنك قبل ما تقرأ الكتاب انظر إليه وقلبه هل تريد أن تقرأ هذا الكتاب أم لا تريد لا تضيع وقتك فتبدأ تقرأ وبعدها تكتشف أن هذا الكتاب لا يستحق القراءة، وتعلم أيضاً أنك تتجاوز بعض الأسطر غير المهمة فليس من المهم قراءة كل سطر تنظر بسرعه للأسطر وهكذا الواحد هناك أشياء يستفيد منها جداً وربما يكون الآن في كتابات باللغة العربية فأنا أنصح إخواننا أن يعتنوا بهذا ويعلموا أولادهم وهذه مسألة مهمة جداً ما تقرأه في ساعة ممكن تتعلم و تقرأه في عشر دقائق.

س/ ما هو تقبل الأسرة للتوجه الجديد مع أنصار السنة؟

بالنسبة لقصتي مع الوالدة والوالد و الختمية وكيف انتهت.. الوالدة ما كانت تقرأ كتباً، والوالد ما كان يطلع على الكتب التي كنت أقرأها ما كان هناك مشكلة، زعلوا مرة زعلا شديداً خصوصاً الوالدة كان في حولية في الحلة فالناس كلهم طلعوا وأنا ما طلعت وكنت أقرأ، وقالت الوالدة لماذا ما تطلع قلت لها أنا مشغول بالدراسة فما رضيت قالت لازم تطلع، فما سمعت كلامها وهذا كبر عليها جداً؛ فما كانت تتصور أن أرفض، فبدأت تتكلم معي وقاطعتني حتى تدخل قريب لها وهو الشيخ سيد أحمد، وجاء وتكلم معها وقال لها أنت تعرفي الدين أكثر أم جعفر؟ قالت له جعفر. قال طيب وتصالحنا، ويمكن كان عمري خمسة عشر أو ستة عشر ما أذكر وعمنا السيد أحمد هذا له قصة طريفة هو عنده علم بالسنة، فمرة محمود محمد طه جاء بورتسودان وألقى محاضرة، ومحمود كانت محاضراته مليئة بالأحاديث الموضوعة والتي لا أصل لها أذكر منها من أحاديثه أن النار تفنى وينبت في مكانها الجرجير، فعمنا وقف وقال له الحديث الفلاني موضوع، والحديث الفلاني ضعيف، والحديث الفلاني كذا فسخر منه وقال يأخذ التصحيح والتضعيف من الكتب أما نحن فعندنا نور نعرف به الحديث الصحيح من الحديث الضعيف، فعمنا السيد أحمد استأذن مرة أخرى وقال: والله إن كان الحكاية بقت أنوار فأنا ذاتي عندي نور، فالوالد كان عنده كتاب

ختمية اسمه "مسبعة" مقسم بالأسبوع أوراد سبع مرات، وأنا كنت أخشى الوالد ومؤدب معه. بعض إخواننا السلفيين عندهم فظاظة الحمد لله أنا لا خصوصاً مع الوالدين، ووالدي عنده سماحه ومرح وحافظ للقرآن، فقلت يا والدي أحسن تقرأ القرآن أم هذه المسبعة، والحمد لله في الآخر ربنا هداهم الاثنين، وحكى لي الشيخ هدية أن الختمية وخصومهم كانوا يسموننا أولاد الكلب، فقال أنا البارحة كنت مع أولاد الكلب، وكانت العلاقة بين الختمية والسلفية حادة أبداً، ومرة أنا سافرت سفرة مع المدرسة رحلة رسمية فلما رجع أبي قال لي والله ربنا نجاك جماعتك كل واحد أخذ علقة ضرب، وكذلك في الخرطوم كانوا يضربونهم وبعدها الأمور تغيرت.

س/ كيف وضعكم في الثانوية؟

أنا كنت طالباً مجتهداً وقبلت بالثانوية بسرعه، وكانت المدارس الثانوية محدودة فقط ثلاث مدارس: خورطقت وحنتوب ووادي سيدنا، وكنت بمدرسة حنتوب وفي مدرسة كمبوني الذي حدث بالنسبة لي بالثانوي التطور الكبير الذي حدث أنه عندما ذهبت إلى الثانوي كنت مزوداً بكتب إخواننا السلفيين وبالعلم الذي تعلمته منهم وفي بعض الكتب وكنت أقرأ في التفسير نحن في ذلك الوقت كان علينا ضغط طوال الوقت لازم نناقش ونجاوب وكذا، وهذا أيضاً أفادنا لأننا كلما نحرج نرجع نقرأ ونبحث، في المرحلة الثانوية أكبر تحدي كان التحدي الشيوعي، وكانت الشيوعية صارخة في ذلك الوقت طبعاً هم ندموا على هذا لأنه أضرهم والزعم بأنه لا يوجد إله، طبعاً مستوى اللغة الإنجليزية كان عالياً بشكل كبير أكثر من الآن بكثير كان الطلبة يقرأون الكتب الإنجليزية المترجمة كتب الشيوعيين وكتب غير الشيوعيين ومن الكتب التي قرأناها بالابتدائية جزء منها من الثقافة الأوروبية يعني نحن بالثانوي درسنا كثيراً القصص الإنجليزية، ولابد أنها أثرت فينا بعض التأثير، وكنا نقارع الشيوعيين لكن ما أظن الآن كان معنا "الجزولي دفع الله" ومعنا عدد كبير مازال من إخواننا أحياء، وكان العدو واحداً وكنا محتاجين نقف مع بعض ليس الكل يقرأ بل بعضهم يقرأون الكتب الشيوعية ويردون على الشيوعيين ويناقشونهم، كان معنا "لقم" وذكرته بالحكاية كان يدعوننا للشيوعية وأول ما دعانا رفعت يدي وناقشته وعمره قريب من عمري، وبحمد لله كثير ممن ما كانوا شيوعيين بالثانوي أو بالجامعة ما

بقي أحد على الشيوعية بعد ما كبروا وكان هناك تأثير بالدعوة وجزء منها التربية الأولى هذه تأثر بالإنسان تأثيراً كبيراً، فالإنسان وهو صغير يرى أمه وأباه يصلون ويذكرون الله فيبقى أثره وربما يزيد عليها الكلام الذي يسمعه من الدعاة فهذه مع هذه، لا يكاد يكون بقي منهم أحد على الإلحاد لكن هذا التحدي الذي كان وربما كان هذا السبب في مسألة الاهتمام بالعقل والردود، وكذا لأنك إذا جادلت إنسانا لا يؤمن بالله ويعتبر أن مذهبه هذا مذهب عقلاني فلا بد أن ترد عليه بالعقل وأكثر ما أفادني في هذا كتب ابن تيمية في مسألة الردود العقلانية، وأذكر في كتاب واحد لكن لا أذكر من المؤلف لازلت اذكر اسم الكتاب لأني كنت مهتماً بهذا الموضوع اسمه الدين من طريق العقل. فالتحدي الذي حصل كما قلت لك إنني كنت مجتهداً ودخلت الثانوي، الآن انشغلت بأشياء أخرى فصرت قليل القراءة والمذاكرة الذي أحفظه بالفصل أحفظه والذي لا أحفظه تأتي القضية أكبر.

س/ ما أثر النقد على علاقاتك؟

بالمناسبة من الأشياء التي ساعدت على هذا أنني ناقد لما أقرأ أيضاً الفكر الغربي كانوا يشجعوننا جداً على النقد. أنت تعرف أن الفكر الغربي كانت فكر سائر على الدين وعلى كل مُسَلمات نحن الحمد لله ما كنا سائرين على المُسلمات، لكن تعلمنا منهم مسألة النقد وكانت الفلسفة إذا في الاختبار سئلت سؤالاً وذكرت المعلومات التي قيلت لك يمكن تمر، لكن إذا انتقدت تأخذ درجة أكبر حتى كلام الأستاذ لو انتقدته تأخذ درجة أكبر، فإنصاف لهم نقول إنهم أسهموا في بناء العقلية النقدية والحمد لله أننا عندما قرأنا كتابات شيخ الإسلام ابن تيمية وجدنا العقل هذا شيئاً واحداً. كان عندنا أستاذ في جامعة الخرطوم زميلنا في قسم الفلسفة قال وهو يستعد لمغادرة السودان: إن أكثر شيء استفاده من صلته بنا في السودان أنه اقتنع أن العقل البشري هذا عقل واحد ليس هناك شيء اسمه عقل غربي ولا عقل شرقي كما الناس يقولون الآن أن العقلية الغربية ولذلك البشر ممكن أن يتناقشوا مع بعض لو أنت عقل شرقي وأنا عقل غربي كيف نتفاهم لا يمكن أن يكون في تفاهم لابد أن يكون في أسس مشتركة بيننا كي نستطيع أن نتفاهم مع بعض.

س/ كيف مارست نقد الذات؟

نقدي لنفسي لا أذكر، وبالنسبة لنقدي للجماعة الإسلامية سبَّب لي بعض المشكلات، وأنا لست نادماً على هذا لأن مازلت أرى أن موقفي كان صحيحاً، وناقشت فيه عدداً حتى من كبار الدعاة منهم الأستاذ المودودي وقلت له إن هنالك أشياء نحن أخذناها من الشيوعيين تأثرنا بهم وهي الالتزام في الرأي بقول الأغلبية، وقلت له أنا لا أعرف في هذا أصل في الدين الالتزام هو في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن لو كان أنا في جماعة تسعين بالمئة منهم قالوا كلاماً وعشرة بالمئة قالوا كلاماً وأنا من العشرة بالمئة لا يجوز لي أن أقف وأكذب على نفسي وأقول والله أنا رأيي هو رأي التسعين بالمئة، لكن يمكن أن يقال لي رأيك هذا احتفظ به لا تعمل لنا فتنة طيب ممكن أن أحتفظ به لكن لا أكذب على نفسي وأقول كلاماً غير صحيح وغير مقتنع به لكن هذا في الشيوعية موجود هذا جزء من مبادئ الحزب الشيوعي أن هنالك لجنة مركزية أنت حر في أنك تقول رأيك في داخل اللجنة هذه، وبعد أن يحصل التصويت تلتزم برأي بقول الأغلبية وتدافع عنه لازم، وأنا كنت أقول لإخواننا أنا لا يمكن أدافع عن شيء غير مقتنع به، وهنالك أشياء صغيرة في الكتب التي كنا نقرأوها.

***

حوار مجلة منارات

العدد٢٢ اجرى الحوار الدكتور محمد الخرعان

لعلنا نبدأ حقيقة بالحديث في هذا اللقاء حول المحاضرة التي ألقاها فضيلتكم في السودان، ربما كانت مرتبطة ببعض الأحداث والقضايا التي أثيرت في الآونة الأخيرة، لو تكرمت بإعطائنا شيئاً عن عنوان المحاضرة وموضوعها.

س: عنوان المحاضرة (فرفرة دجال) ماذا يعني هذا العنوان؟

ج: عندنا في السودان يستعملون كلمة (فرفرة) يعني اضطرب، ويستعمل أكثر ما يستعمل في البهيمة عندما تذبح وتتحرك وهذه الحركة فرفرة فهي فرفرة مقتول، فأنا قلت: فرفرة الدجال، ثم أردت أن أتأكد أن كلمة (فرفرة) هذه كلمة عربية فرجعت إلى القاموس فوجدت أكثر مما قلت فقال: فرفر يعني تحرك بالمعنى السوداني، وفرفر: سارع إلى الحماقة، وفرفر: أكثر وخلط.

فقلت في المحاضرة إن صاحب القاموس ما كان يظن أن كل هذه الثلاث تجتمع في شخص واحد، فأنا كان قصدي فعلاً أنه فقد كل شيء وهذه فرفرة مقتول أو منتهي.

س: هل كانت القضايا التي أثيرت عن الترابي جديدة أم كانت قديمة؟

ج: أنا قلت للناس هذه ليست القضايا المهمة أو الخطيرة بالنسبة له، وسوف أتحدث عن مسؤولية ما يسمى بالحركة الإسلامية عن ضلالات الترابي لأنها كانت معروفة لكثير من الإخوان والدعاة، رووا عنه أنه قال كذا وقال كذا، وأنا من الناس الذين تكلموا كثيراً، وكنا في حركة واحدة وكان هناك شيء اسمه مجلس الشورى، وأذكر أنه في يوم من الأيام أنا وقفت وهو كان بجانبي وقلت لهم يا إخواني هذا الرجل ليس عنده دين، ولكن بعد ذلك لم يحصل شيء، والمفروض إما تحاسبوني أو تحاسبوه هو، لكن لم يحدث شيء من ذلك!، ثم إنه كلما قال كلاماً فيه ضلال يسمونه اجتهادات. ثم هو رجل مراوغ، كان يقول الكلام في بعض الجلسات الخاصة وسمعوا منه بعض الناس فإذا قيل عنه أنه قال كذا وكذا ينكر، فأهم ضلال له وقاله من زمن بعيد جداً، أنه لا يؤمن بعصمة النبي ﷺ.

س: لكن قبل هذا فضيلة الشيخ، إلى أي شيء ترجع التساهل في هذه الشذوذات أو هذه الانحرافات وهي قديمة كما تقول منذ الستينات الميلادية؟

ج: معظم الناس لا يعرف عنه شيئاً، ويحسنون به الظن، والقيادات أيضاً عدد كبير منهم لا يعرفون عنه ذلك، وينكرون عليك إذا قلت لهم عنه مثل هذا الكلام، والبعض

سمع، لكن عيب الذين لم يسمعوا أنهم لا يريدون أن يسمعوا، أقول لهم يا إخوة نحن قلنا كذا اسألوه، عندهم احترام له لدرجة أنه ليس فيهم واحد يستطيع أن يقول له يا أخي قيل عنك كذا، فهل هذا الكلام صحيح أم لا، استسلام عجيب!!

س: ذكرت أن من أهم الشذوذات أو الأخطاء التي عنده أنه لا يؤمن بعصمة النبي ﷺ، ماذا كان يقول؟

ج: نعم الذي عرفت عنه من زمان أنه لا يؤمن بعصمة النبي ﷺ، ويعتبر أن النبي ﷺ يمكن أن يروى عنه حديث صحيح من ناحية السند، وأن النبي ﷺ قاله فعلا، لكن الكلام خطأ، وكان أكثر ما يتكلم فيه حديث الذبابة، ويقول: أنا في مسائل الطب أقدم رأي الطبيب الكافر على حديث النبي ﷺ، وكان أيضاً من الضلالات المعروفة عنه ولها علاقة بعدم احترامه للسنة النبوية، أنه كان يجيز الردة، أنا قلت في محاضرة من قبل، قلت إن المشكلة الآن أننا لا نتكلم عن حكم المرتد ولكن نتكلم عن حكم الردة، فالترابي يقول في محاضرة له: لا بأس على الإنسان أن يبدل دينه، مع أنه من الثابت عن النبي ﷺ قوله: **(من بدل دينه فاقتلوه)**. ونقلت عنه جريدة اسمها "المستقلة" أنه قال: «إن الحديث هذا كان خاصاً بجماعة من المسلمين ارتدوا، وذهبوا وانضموا إلى الكفار، وجاءوا مع الكفار لقتال المسلمين، فالمسلمون تحرجوا هل يقتلوهم، وهم كانوا بالأمس إخوانهم؟؟.أنا قلت هذه القصة مخترعة، وليس هناك أحد قال من قبل إن هذا هو سبب الحديث، ثم إنها أيضاً قصة سخيفة، فالناس لا يتحرجون من قتل من كان معهم ثم صار ضدهم، بل بالعكس يتحمسون لقتله أكثر من الكافر الأصلي. وأما الموضوع الآخر الذي قاله وقاله ناس قبله، وصار الآن تقريباً رأيا شائعاً، أن المرتد لا يقتل إلا إذا حارب، وأنا أكاد أعرف أول من قال هذا الكلام».

س: لكن هل لهذا الكلام قيمة، فمن حارب المسلمين حتى ولو بقي على إسلامه إلا يقاتل لحمله السلاح عليهم؟

ج : نعم، هذا صحيح، ومعروف.

س: من أول من قال بهذا الكلام؟

ج: نحن كنا طلاب في جامعة الخرطوم، في الخمسينات، وكانت الثقافة الإنجليزية قوية في ذلك الوقت، وكان كثير من إخواننا الذين بدءوا الحركة

الإسلامية في السودان يتبرؤون باللغة الإنجليزية، وكان من ضمن ما قرءوا ترجمة محمد علي القادياني للقرآن الكريم، وهي من أوائل الترجمات، محمد علي هذا كان عنده علم، وهو غير يوسف علي، فمن ضمن ما قاله تعليقا على باب في كتاب البخاري عنوانه: قتل المرتدين والمحاربين، فهو رجل عجمي اعتبر المحاربين وصفاً للمرتدين، واستدل بتبويب البخاري هذا، فكأن البخاري قال: قتل المرتدين المحاربين، مع أنه معروف في اللغة العربية أنه ما يفصل بين الشيء وصفته بالواو، فما تقول: محمد والأحمر، إذا كنت تقصد محمد الأحمر، فهو قال هذا وقلده الترابي فيه، والحقيقة أن معظم ضلالاته هو مقلد فيها. ومن الأشياء الكبيرة التي صرح بها أنه ينكر أشياء واضحة جدا في القرآن، مثل موضوع أن آدم أول البشر، فهو ينكر ذلك ويقول أن أول البشر امرأة، وأن الحور العين لسن نساء خاصة بالجنة، وإنما هن نساء الدنيا.

س: بماذا نفسر بعد كل هذا ارتباطه بالحركة الإسلامية، هل لأنه يطلب الزعامة وجعل الدين مطية له؟

ج: أنا أظن ذلك، أنا أعرف ذلك عنه في الستينات وهو في أوج شبابه، وتلبس بالدين لأغراض دنيوية، حتى ولتعرفنهم في لحن القول، مرة كنا في محاضرة في بورتسودان، اشتركت فيها وهو، فقال للناس إن الإنسان إذا أراد أن يجمع السودانيين على شيء لابد أن يأتيهم عن طريق الدين، وبعد المحاضرة قلت له: كأنك تقول للناس نحن نريد أن نستغلكم؟ فهو جاء يريد الدنيا باسم الدين، وربنا سبحانه مكر به، كلما أوشك أن يصل إلى غايته ضربه حتى يسقط.

من الأشياء التي ما ذكرتها في المحاضرة، ولم يصرح بها بشكل علني إلى الآن، لكن رواها عدد من الإخوان عنه وكانوا قريبين منه جداً، قال في جلسة من الجلسات أنا أعلم من النبي ﷺ.

س: بماذا أعلم من النبي ﷺ؟

ج: لما سألوه بعد ذلك قال لهم: أنا قلت لكم أنا أعلم من أبي!، ضحكت من ذلك وقلت: ليس هناك سوداني يقول (أبي)، السوداني يقول: (أبوي). كرر الكلام نفسه مع شخص آخر، عندما أنكر عليه، قال: أقصد في المسائل الدنيوية. قلت: ما أدراه أنه أعلم من النبي ﷺ، كيف تعرف أنك أعلم من النبي ﷺ، قال أنا أعرف اللغات الفرنسية، قلت له: يا أخي النبي ﷺ كان يتكلم مع الجمادات والحيوانات ومع

الجن. من الأشياء التي شاعت عنه، وذكرها لي أحد المقربين منه قال: إنه تستفزه الصلاة على النبي ﷺ، يقول: لماذا عندما نقول (الله) لا نقول سبحانه وتعالى، وعندما نقول النبي نقول ﷺ، قال: قلت له: لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، نحن نضع جبهتنا في الأرض سجوداً وذلا لله عز وجل، هل رأيتنا في يوم من الأيام سجدنا للنبي ﷺ؟ فأنا استغربت من هذا الكلام، وكلمت فيما بعد الصادق عبد الماجد فالصادق قال لي: أنا سمعت هذا الكلام في الستينات، يقول كنا في مسجد ذاهبين للدعوة فجاءت مناسبة، الناس صلوا على النبي ﷺ، فقال لهم هذا الكلام، فكثير من المصلين أخذوا أحذيتهم وخرجوا!

س: يعني هو سبق الدانمارك في الإساءة للنبي ﷺ؟؟

ج: نعم.. ثم هو عنده شك في الأحاديث النبوية، أنا جئت السعودية سنة ١٩٧٤م، جاء وعمل محاضرة هنا، والدكتور أحمد العسال كان أستاذ في قسم الثقافة، قال له: أنت تدعو إلى ماذا؟ إذا كان عندك شك في الأحاديث النبوية فما هي الدعوة التي تدعو إليها، اجلس في الأرض وتأكد من دينك هذا ما هو؟ ثم بعد ذلك ادع.. هذا كان سنة ١٣٩٥هـ، أي قبل ٣٠ سنة، ثم شهد عدد كبير من الناس أنه لا يحافظ على الصلاة..

س: يصلي في غير وقتها؟؟

ج: لا ما يصلي.. يأتي الوقت ولا يصلي. واحد من إخواننا يقول أيام الدعوة إلى الدستور الإسلامي كنا نذهب إلى القرى، وبعض الناس موسرين، يكون عنده أسرة للنوم، فالناس يبيتون عندهم في البيت، فيقول إن واحداً من الجماعة قال: بات عندنا ولم يصل الفجر، وعندما استيقظ أخذ فرشاة الأسنان، ثم جاء يشرب الشاي، فقال له: ياشيخ أنت ما صليت، قال له: خرج الوقت، فقال صاحب البيت: والله ما تشرب الشاي!

س: الشيخ عبدالعزيز بن باز - رحمه الله - هل تعرف له رأي يتعلق بالترابي؟

ج: أنا ما سمعت، لكن أنا بلغت الشيخ رحمه الله بهذا الكلام، ولم أقل له من فعله، لكن الشيخ كان يعرف بعض الأشياء، وما تكلمت معه في هذا الموضوع أبداً.

س: أثار الترابي أخيراً قضية حجاب المرأة، وقال بأن الحجاب هو تغطية الصدر، هل تعد هذه مرحلة من مراحل تطور الفتوى لديه حيث لم يسبق لذلك من قبل؟

ج: هذا أيضاً من الاستكبار والغرور، كيف تعتقد أن الناس ما فهموا حتى أتى هو، أنا أقول بأنه من البلادة أن يعتقد الإنسان أنه ليس هناك أحد يفهم غيره، الإنسان العاقل يعتقد أن للناس عقولا.

س: في مثل هذه القضايا التي تتعلق بمبادئ الدعوة التي تدعو لها الجماعة، من هو الشخص الذي يستطيع أن يحسم مثل هذا الموضوع؟

ج: الناس لأنهم معجبين به لا يهتمون بهذا الأمر كثيراً، أحد إخواننا قال إن الترابي في سفراته للبلاد العربية، يقول للإخوان إن المسألة مسألة شخصية بيني وبين جعفر، وهذه من الأشياء التي غلبني بها، لأننا كلما تناقشنا في موضوع يحوله إلى مسألة يمكن أن يتكلم فيها أي واحد في الشارع، لا تحتاج إلى علم ولا إلى شيء.. حسد، أو تنافس على المناصب، والذين عندهم شيء من العلم يقول هذا حسد الأقران، لكن مع الوقت ظهر للناس أن ما كنت أقوله حقاً، أحدهم قال بأن جعفر كان زرقاء اليمامة، قلت له أنا لست زرقاء اليمامة، لكن أنتم كنتم عميان!!، ثم هو الآن لم يترك فرصة لإنسان يكون معه، ومثل هذه الأمور لا تحصل في الجماعات السلفية التي تجتمع على الكتاب والسنة، لأنها تجتمع على مبادئ واضحة، من وافقها وافق الحق، ومن خالفها خالف الحق، بخلاف غيرها ممن يجمعها التنظيم أكثر من غيره.

س: يظهر أن المعجبين بالترابي قد لا يكونون معجبين بمعنى الإعجاب، الترابي في الفترة الماضية ما كانت تعرف عنه هذه الأقوال خارج السودان، وكان الناس ينظرون إلى الترابي باعتباره زعيماً للحركة الإسلامية، وكانت الحركة الإسلامية في العالم العربي أو في غيره تتبنى الترابي وتعده واحداً منها، وهذا أعطاه دعاية واسعة.أليس كذلك؟

ج: لا.. لكن كان فيه إعجاب به شخصياً، يعني ما كل من كان رئيساً للحركة في بلد ما أنه كان يزين للناس الفكر الغربي.

س: الناس ما كانت تعرف هذا عنه، كانوا يقيسون الترابي بما يعرفونه عنده من العلماء وأنه كان واحداً من هؤلاء؟؟

ج: كيف يا أخي، لا لا، في الأشياء الأخرى، كان هو مثلا يتحدث عن حرية المرأة، من زمان، وحتى كان من المعجبين به وعنده موقف مني أنا القرضاوي، وأنا رأيت بعيني كلاما كتبه لبعض الشباب السودانيين في التعبير عن الإعجاب به.

س: هل للنجاحات السياسية التي حققها أثر في هذا الإعجاب؟

ج: هذي جزء منها، وإن كان كثير من الناس الذين يزورون السودان عرف ما عنده، فيه أشياء أصلها موجودة في حركتنا في السودان قبل ما يكون الترابي، لكن الناس عزوا كل ميزة في الحركة الإسلامية في السودان للترابي، مع أنه في بعض الأشياء كان هو ضدها، لكن عزوها له.

س: محمد أحمد الراشد تكلم عن الترابي، وذكر جانباً من صفات الداعية والزعيم المسلم، واستدل بكتابين، الإيمان وأثره في حياة الإنسان، والصلاة عماد الدين، وذكر الترابي في قضية الإيمان وفي قضية الصلاة، والمحافظة عليها..

ج: أنا ما قرأت الكتابين، ولا أستطيع أن أقرأ له مقالاً، وهو كذلك..

س: هذه قضية شخصية يا شيخ؟..

ج: نعم هو لا يطيقني وأنا لا أطيقه..

س: قضية تاريخية النص من القضايا التي أثارها الترابي في بعض كتبه، ما أبعاد هذه القضية؟ ولا سيما أن هناك من يقول بهذا القول.؟

ج: نعم.. مثل هذه الأشياء الناس يعجبون بها، أن النص قيل في ظرف معين، وتاريخ معين، فلا يمكن أن تعممه..

س: الحق والصواب في هذه القضية، ما هو؟؟

ج: هذه ليست حقيقة إطلاقاً ولا حتى في الأمور الدنيوية، يمكن واحد في ظروف معينة ظروف جغرافية ومناخية تاريخية ثقافية يقول كلاماً حقاً، بغض النظر عن الظرف الذي قاله فيه، ولأنه إذا صارت الحقائق نسبية ما يكون فيه علم لا في الدين ولا في الدنيا، أنا أقول الأرض كرة، قلتها قبل مائة عام، هل يعني أنها الآن يجب أن تكون مكعبة وإلا يكون الكلام فيه خطأ..

س: لكن ما الخطورة في هذا؟؟

ج: قلت لك إنه ما يكون فيه علم أصلاً لا في الدين ولا في الدينا، وأنه لا تكون فيه رسالة، وبالمناسبة هذا الكلام قاله الصادق المهدي على قناة الجزيرة، والصادق في رأيي مفكر أكثر من الترابي، ولكن ليس في الفكر الإسلامي.. قال إن ربنا سبحانه وتعالى الذي أوحى هذا القرآن كان يعلم أن الظروف ستتغير، فلا يمكن أن يكون قصد أن المعاني تظل كما هي رغم تغير الظروف، ولذلك نحن محتاجون إلى أن نحرك هذه النصوص من داخلها!!!! أنا قلت للجماعة: هو عمل مقدمة وانتهى إلى عكسها، مادام أن الله هو الذي أنزل الكتاب، ويعلم أن الدنيا ستتغير، وما قال لنا غيروا المعنى معناه أن هذا المعنى ما يتغير، أو إذا كان يتغير كان يقول لنا إنه سيأتيكم في آخر الزمان واحد اسمه صادق المهدي يعطيكم معاني جديدة اسمعوها منه، وإلا يتركنا كل واحد فينا يعطي النصوص المعنى الذي يريد؟؟

س: البعض يقول نحن نقول نقدس نصوص الكتاب والسنة، لكن فهم العلماء لها مرتبط بظروفهم التاريخية والاجتماعية والسياسية؟؟..

ج: أيضاً هذا يرجع إلى مسألة النسبية، وهذا ليس خاصاً بالدين، لذلك كل ما قيل عن الفلسفة اليونانية، أفلاطون قال وأرسطو قال واليونان قالوا كذا نرفضه، لأن الظروف تختلف، وكلما قيل حتى لو واحد قال كلاماً بالأمس والناس فهموه، أقول لهم هذا الكلام قيل أمس، قبل ٢٤ ساعة، والظروف الآن تغيرت، ثم في كثير من الأحيان الناس يظنون أو يفترضون أن الظروف ما تغيرت من زمن النبي إلا في القرن العشرين.. لماذا؟ لم لم تتغير من خمسين سنة بعد موت النبي ﷺ؟؟ وبعد مائة سنة؟. وبالمناسبة هذا الكلام قاله ملحدون مصريون، النص مقدس لكن الفهم متغير، حتى هناك جماعة من الأمريكان قالوا مثل هذا، قلت لهم لا بأس، طبقوا هذا على القوانين، أنا أقف أمام القاضي، ويقول لي حكمنا عليك بكذا وكذا، أقول له والله هذا بحسب فهمك، أنا فهمي للقانون أنني بريء، فلم تحاكمني بفهمك؟؟ ولو كان الأمر كذلك ما يكون فيه قانون، ولا محاكم، لأن أصلا اللغة القصد منها التفاهم بين الناس، فإذا صار كل واحد يفهم اللغة فهماً مختلفاً عن الثاني، فقدت اللغة وظيفتها.

س: ما رأيك بما يثار من الفقه الصحراوي والفقه البدوي؟؟..

ج: نفس الكلام، لأن هذا الذي قال الفقه الصحراوي، إذا كان الناس الآن بدو كان في زمن النبي ﷺ أكثر بداوة، أليس كذلك؟ وإذا كانوا في زمن الشيخ محمد بن عبدالوهاب بدو، فإذاً في زمن النبي ﷺ أكثر بداوة كذلك، فإذا رفضت هذا الكلام لأنه جاء من البدو يلزمك أن ترفض الأحاديث النبوية أيضاً، ثم كل هذا له علاقة بمسألة النسبية هذه، يعني من الأشياء التي ربنا سبحانه وتعالى تفضل بها على الناس أن الإنسان يمكن أن يعرف الحق بغض النظر عن الظروف التي هو فيها، لأن هذا الحق ربنا بناه على شيء لا يتغير.. ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، فما دام هذه الفطرة موجودة فالإنسان عنده مقدرة أنه يرى الحق حقاً بغض النظر عن الظروف التي يعيش فيها، وهذا عندنا عليه أدلة من الواقع، ناس يقرءون القرآن في أفريقيا ويؤمنون، أناس يقرءون القرآن في أستراليا ويؤمنون، وهكذا، ويسمعه العامي الذي لا يقرأ ولا يكتب فيؤمن كذلك.. أنا أعرف شابا أسلم، قال بأنه أسلم بسبب ترجمة لسورة الفاتحة، والكتاب الذي اعتمد عليه ترجمه واحد غير مسلم، كان يتكلم عن الأديان، ويأتي من كل دين ببعض النصوص، فهو قرأ هذه الأديان، لما جاء إلى الإسلام ترجم سورة الفاتحة، يقول هذا الشاب: أنا في العادة أتأثر فكرياً بالكلام، أما هذا الكلام أثر في قلبي، وما أحد دعاه، قرر أن يسلم، ثم سأل عن الإسلام .

س: ما يتعلق بنصوص مثل بعض أحكام أهل الذمة، مثل ما ورد من اضطرارهم إلى أضيق الطريق، وما شابهه، كيف يمكن فهم هذا النص في ظل واقعنا اليوم؟

ج: كل نص له شروط في تطبيقه، الدين ما قال إذا ما فيه شارع مثل هذا الشارع تضطروه، أو إذا كنت أنت في بلدهم، واحد قال إذا كنت في (أوكسفورد استريت) كيف أضطره؟ قلت يا أخي: تضطره وهو في بلده؟!! هو يضطرك؟ ثم كيف تضطره إلى أضيق الطريق أو أقصى الطريق؟ قال: أسد على سيارته. قلت: تأتي الشرطة ويجروا سيارتك ويغرموك.

س: ما معنى اضطروهم؟ البعض يظن أن ذلك يعني إيذاءهم، مع أنها وردت نصوص تدعو إلى منع إيذائهم؟

ج: لا، يعني أن تمشي أنت وتتركه، ثم الآن نحن الذين هم يضطروننا حتى خارج الطريق.

س: لو خرجنا يا شيخ إلى قضية دارفور، الجانب السياسي فيها، والحملة الغربية.. أولاً: ما تقييمك لقضية دارفور كقضية سياسية داخلية؟

ج: أنا أقول لك بعض الحقائق، المشكلة أصلا بين الذين يسمون بالعرب والذين يسمون بالأفارقة، المشكلة تاريخياً دائماً أن العرب رحل، أصحاب جمال ومراعي والأفارقة مزارعون، فأحياناً يحصل شح في الأمطار، والعرب لا يجدون مراعي فيهجمون على مزارع الأفارقة، وتكون مناوشات، ويقتل عدد من الناس، حتى عندما جاء الإنجليز كان هذا موجوداً. ثم استغل هذا سياسياً، من الذي زود الأفارقة أو العرب بالسلاح؟؟ الحكومة متهمة بأنها زودت العرب بالسلاح، في مقابل السلاح الذي أعطي للأفارقة، وأعطتهم إياه دول من الخارج، وكلهم مسلمون، وما هناك فرق كبير في الألوان، لأنهم امتزجوا ببعضهم، وتزوجوا من بعض، حتى حكومة السودان لما جاء باول ضحكوا عليه، قال أريد زعيم من العرب، وزعيم من الأفارقة، فأتوا له بزعيم من العرب أسود من الزعيم الأفريقي، فجلسوا، حتى هو قال فيما بعد: يبدو أنني الرجل الوحيد الأبيض فيكم! والأفارقة هؤلاء كانوا متدينين أكثر من العرب، فالعرب هم في الواقع أعراب، بينما الأفارقة فيهم من يحفظ القرآن.. من الأشياء التي قالها الرئيس - وهو كلام كان مؤثراً ومحزنا - قال: نحن الحكومة الوحيدة التي اهتمت بمنطقة دارفور، عندما جئت إلى الحكومة، كانت هناك مدرستان فقط، مئتا مدرسة. لم يكن فيها مطارات، الآن فيها ثلاثة مطارات، ما كان فيها جامعات الآن فيها أكثر من جامعة، وما بدأت المشكلة إلا بعد أن بدأنا نهتم بها.

التفسير الذي يقال: هو أن الغرب يعرف أن السودان هذا بلد كبير، فيه الآن بترول، وفيه كذلك إمكانات زراعية هائلة، وبالتالي لا يمكن أن يترك هذا البلد للمسلمين.

س: البعض يذهب إلى أبعد من هذا، وهو أن أمريكا تريد أن يكون لها وجود عسكري في أفريقيا..

ج: الآن أنا قرأت أن لديها قواعد في أثيوبيا والصومال، لأن أمريكا صار همها الأكبر الآن أنه يوجد شح في البترول، وأن الشح يزداد مع الأيام، فأمريكا عندها سعر الآن لتحافظ على أي قطرة بترول في العالم، وأن تسيطر عليها وتضمن وصولها إليها، تريد أن تضمن آبار البترول، وتضمن تصديره إليها.

س: وتضمن أن يكون بأسعار مناسبة لها؟

ج: الأسعار ليست مهمة الآن، المهم أن البترول بالنسبة لها أصبح حياة أو موت، والسودان صار فيه بترول الآن، وفيه غاز طبيعي في شرق السودان، فلا بد أن تسيطر عليه. أنا لا أريد أن أدافع عن الحكومة، أنه ما فيها أخطاء، أو أنها سلحت الجنجويد هؤلاء، لكن لو كنت أنا في الأفارقة، وبعضهم أيضاً: بالمناسبة الجماعات المسلحة لا تمثل كل الأفارقة، بل هي جماعات أقلية، لكن صارت قوية لأنه لديها سلاح، وإلا الناس هؤلاء يعرفون أنهم لا يمكنهم أن يعتمدوا على إنسان كافر، وأن علاقتهم بإخوانهم في الشمال علاقة دين، ثم إن الأمور تسير نحو الاختلاط، يعني الآن الخرطوم أكثر أفريقية بكثير جداً مما كانت عندما كنت في الجامعة، كثير من إخواننا الذين يسمون بالأفارقة في جنوب السودان وفي غرب السودان يملأون الخرطوم الآن، في الماضي كانت الخرطوم فعلا للقبائل العربية، لكن هذا كله الآن تغير، والتزاوج في تزايد، ففكرة أن هناك منطقة معزولة أو قبيلة، كل هذا ما له مستقبل، مجرد فتنة.

في الختام نشكر فضيلة الشيخ، ونسأل الله أن يبارك فيه وفي وقته، وأن يجعلنا وإياه ممن يهتدون بالحق وبه يعدلون، وأن نلتقي به مرات ومرات.

***


الثقافة الإسلامية
والدعوة إلى الله

للدكتور جعفر شيخ إدريس مقالات عديدة ومتنوعة نشرت في عدد من المجلات والصحف العربية والإسلامية تعالج قضايا الإسلام والدعوة إلى الله، وسأذكر المقالات التي تمكنت من الحصول عليها، أما المقالات التي كتبها الشيخ ونشرتها مجلة البيان فسأكتفي بذكر عناوينها والتعريف بكل مقال بشكل موجز.

أولاً: المقالات

أهمية العقيدة وأسبقيتها على الأفعال

موقع المختار الإسلامي جمادى الآخرة ١٤٣٦ ٢٠

عقيدة التوحيد هي جوهر الدين وأساسه، فالتأثير فيها سلباً أو إيجابًا هو أخطر التأثيرات على دين المسلم. ولما كان الإعلام من أقوى المؤثرات - إن لم يكن أقواها - في عصرنا هذا على حياة الناس الفكرية والسلوكية؛ كان البحث في تأثير الإعلام الغربي على عقيدة المسلم المتعرض له، من أهم ما ينبغي أن ينشغل به الباحثون؛ لذلك سرني أن يكون النظر فيه ضمن اهتمامات هذه الورقة المباركة. وإن كنت أعلم أنني لن أستطيع أن أوفيه حقه.

ولما كان البحث في هذا التأثير لا يتم إلا ببيان المكانة العظيمة التي تحتلها العقيدة في الهدي الإسلامي، وبالتالي في حياة المسلم الملتزم به، فقد كان من التوفيق أيضًا أن يطلب من الناظر فيه البدء ببيان هذه المكانة العظيمة.

البعد القلبي في تقييم سلوك المسلم:

أقول إذن مستعينًا بالله ومبتدئًا حديثي هذا بسؤال: لماذا جُعلت العقيدة أساس الدين وركنه الأول؟ ربما تبادر إلى أذهان بعض الناس - ولا سيما أناس في عصرنا هذا الذي يرفع من قدر الظاهر المحسوس - أن الجدير بهذه المكانة هو الأعمال الصالحة الظاهرة، كالإنفاق، وحسن معاملة الناس، والجهاد لرفع راية الدين، فلماذا جعل الله هذه المكانة السامية غاية السمو لشيء باطني غير عملي؟ مع أننا إنما نقوِّم الناس بحركات جوارحهم، لا بحركات قلوبهم وما يكمن في ضمائرهم؟

الجواب الموجز هو أن ما في الباطن مُقدّم على ما في الظاهر؛ لأنه هو أساسه ومصدره. فما من عمل ظاهري حسناً كان أم سيئاً إلا وله أساس باطني، هذه حقيقة يعلمها كل إنسان من نفسه، ولو كان يعلم ما في نفوس الآخرين كما يعلم نفسه؛ لكان تقويمه لأعمالهم بأساسها الباطني هذا لا بشكلها الخارجي. تصوّر لو أن إنساناً أهدى إليك هدية قيمة، لكنك شاهدته في قلبه يقول لك: «ما أحقرك! والله إنك لا تستحقها ولا تستحق أقل منها، ولولا أني أطمع منك في أكثر منها لما أعطيتك إياها». هذا علم غيّبه الله عنا، فلم يبق لنا إلا الحكم بالظاهر، والاستدلال به أحياناً على ما في الباطن. أما الخالق سبحانه فإنه عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؛ ولهذا كان تقويمه

سبحانه للناس بهذا الباطن الذي هو أساس الظاهر. إن أصل تكريم الباطن هو أن حكمة الله تعالى اقتضت أن يكون الإنسان من عنصرين من مخلوقاته: عنصر الطين وعنصر الروح. فجعل اللهُ المكوّنَ من الطين هو صورته المرئية، وجعل العنصر الروحي حقيقته الخفية. لكنه سبحانه جعل بين ظاهر الإنسان وباطنه صلةً ونسبًا. فالروح إنما تسكن في الجسد، وإنما تبدو تصرفاتها وتأثيراتها عليه وبوساطته؛ وربما كان هذا هو السر في أن بعض أعمال الروح تُنسب إلى أعضاء جسدية لصلتها الخاصة بها. إن القلب الجسدي ليس هو الذي يعقل كما يحدثنا شيخ الإسلام ابن تيمية. وعليه فإن السلامة والمرض المنسوبتين إليه في الكتاب والسنة ليستا أحوالا جسدية كما هو المشاهد، وإنما هي أحوال روحية نُسبت إلى ما يلائمها من الأعضاء الجسد، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل الإنسان إنسانا بجوهره الروحي الداخلي الخفي لا بشكله الجسدي الخارجي. فالروح هي محل الإدراك والإيمان والتصورات والإرادات والمشاعر. والإنسان إنما يتحرك ويتصرف بما يعتقد، حقًا كان أو باطلاً، وبما يتصور واقعًا كان أم وهمًا. وإذا كان الأمر كذلك كان ما يظهر لنا من صلاح الإنسان أو فساده السلوكي راجعًا بالضرورة إلى صلاح معتقداته وتصوراته أو فسادها؛ إذن فالجانب الذي نسميه عمليًا في حياة الإنسان والذي قد نخطئ فنظنه أهم جانبيه، إنما هو أثر وناتج عن جانبه الداخلي الذي قد نجنح إلى التقليل من أهميته؛ فنَصِفُه بالنظري أو المثالي. كلا، إنه لهو الجانب الفعال الذي يحدد مصير الإنسان والذي ينبغي لذلك أن تكون العناية به أكبر.

وكما جعل الله تعالى غذاء الجسد وبقاءه في بعض المطاعم والمشارب، وجعل مرضه أو موته في غيرها، فقد جعل غذاء الروح وبقاءها في بعض العلوم، وجعل مرضها وموتها في حرمانها منها، وجعل حياته الروحية هي حياته الحقيقية، وموتها هو موته الحقيقي.، والحقائق التي يمكن للإنسان أن يعلمها كثيرة، والعلوم النافعة كثيرة، لكن أشرف العلوم وأجلها نفعًا هو العلم بالله ربًا لا رب سواه، وإلهًا لا معبود بحق إلا إياه. هذا هو العلم الذي لا تحيا القلوب إلا به، ولا يكون الإنسان مخلوقًا كريمًا إلا بمعرفته، والاعتراف به.

نعم، الاعتراف؛ لأن هذا العلم لا يؤتي ثماره إلا إذا اختار من علمه أن يعترف بما علم ويؤمن به. فالروح لا تحيا بالمعرفة وحدها، بل لا بد أن تنضم إليها الإرادة، إرادة الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤]. فتأثير هذا العلم معتمد على قبوله أو رفضه لا على مجرد

اكتسابه. قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

فإذا ما عرف الإنسان ربه وآمن به تفجرت ينابيع الخير في قلبه، ثم فاضت على جوارحه بمقدار علمه وقوة إيمانه. لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى كما جعل الروح جوهر الإنسان، فقد جعل الإيمان به منبع كل خير فيه. ولذلك كانت الدعوة إليه والتذكير به مفتاح كل دعوة إلى فكر قويم وسلوك مستقيم، وكانت الدواء الذي لا غناء عنه لكل أنواع الانحرافات السلوكية. ولذلك كانت البداية به في جهود الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لإصلاح المجتمعات التي بُعثوا إليها. يدعو أحدهم قومه إلى إفراد الله تعالى بالعبودية ثم يدعوهم بعد ذلك إلى تفاصيل الشريعة وإلى ترك ما هم عليه من أنواع الانحرافات السلوكية، خلقية كانت أم اقتصادية أم سياسية أم اجتماعية.

فالإيمان هو الذي يهيئ النفوس لعبادة الله وينشط الجوارح لها، وكما يقول الشاعر:

وإذا حلت الهداية قلباً   نشطت للعبادة الأعضاء

وهو الذي يهيئها لقبول تفاصيل الشريعة، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: "لقد نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام. ولو نزل لا تشربوا الخمر، لقالوا لا ندع الخمر أبداً. ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبداً. لقد نزل بمكة على ﷺ، وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده. وهو السبب الأساس لحل المشكلات الاقتصادية والسياسية والخلقية. أقول إنه الأساس ولا أقول إنه يغني عن التفاصيل التشريعية المبنية عليه، ولا عن الأسباب الطبيعية والاجتماعية التي جعلها الله أسبابا مؤثرة. وهو السبب الأساس لبقاء النعم المادية وزيادتها. والكفر والإخلال به هو السبب الأساس لنقصانها وزوالها. والمتتبع لنهج القرآن يجد هذه السيرة. فالله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا

تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾ [هود: ٢٤-٢٥]. ثم يقول: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ [نوح: ١٠-١٢]. ويقول: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠]. ثم يقول: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]. ويقول: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ [هود: ٦١]. ويقول: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾، ثم يقول: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤]، ويقول: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٦٠ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦١ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٦٢ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٦٣ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠-١٦٤]. ويقول: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦]. ويقول: ﴿ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ١٧٢ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ١٧٣ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٤ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٧٢-١٧٥]. ويقول تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٦٥ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦].

وأهم من هذا كله أن عقيدة التوحيد هي سبب السعادة النفسية، يقول تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، بل هي سبب السعادة الأبدية لأنها هي السبب الأساس لدخول الجنة وللنجاة من النار، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ويقول تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

فكيف يهدم الإعلام العقيدة؟

شبكة المشكاة الإسلامية
الجمعة ٢٩ شعبان ١٤٢٤هـ/ ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٣م

الإعلام والعولمة ضد الهوية والخصوصية:

وسائل الإعلام ليست قاصرة ـ كما هو معروف ـ على الصحف والمجلات والراديو والتلفاز، بل تشمل الكتب العامة والسينما، وربما المسرح، وتشمل الآن الشبكة العالمية (الإنترنت) .لكنني أريد أن أضيف في هذا المقال إليها حتى الكتب المدرسية؛ لعظم تأثيرها على الآلاف المؤلفة من أبناء المسلمين .وإذا استثنينا الإعلام الكنسي بكل وسائله ـ وهو إعلام لا يكاد يتعرض له المسلم ـ فربما استطعنا أن نقول بأن الإعلام الغربي نادرًا ما يتعرض للمسائل الدينية بطريقة مباشرة .فكيف يكون له إذن تأثير إيجابي أو سلبي على الدين؟ نعم إن له تأثيرًا أيما تأثير؛ لأنه ليس من شرط التأثير أن يكون مباشرًا ، بل إن التأثير غير المباشر قد يكون أعظم من التأثير المباشر كما سنرى، وهو في غالبه تأثير سيئ، وإن كان لا يخلو من بعض التأثيرات الحسنة .ونعني بالتأثير غير المباشر هنا تلك المعتقدات العلمانية الإلحادية المادية الشائعة في الغرب، والتي يفترض صحتها، والتي تكمن وراء تفسيراتهم للحوادث الطبيعية والاجتماعية والنفسية، وإن كان لا يُصرَّح بها إلا نادرًا ، وهذه التفسيرات تتسرّب في مقولاتهم وتفسيراتهم التي تصل إلينا عبر الكتاب أو الخبر أو المواد الدرامية، وغيرها الكثير.

المضمون اللاديني للعملية الإعلامية:

تأثيرات الإعلام الغربي السلبية على عقيدة المسلم كثيرة، نذكر منها فيما يلي بعض ما يحضرنا ونراه مهما:

أولاً: من التأثيرات الشديدة الخفاء، البالغة الضرر، الاعتقاد السائد بين كثير من علماء الطبيعة والاجتماع ـ وبالتالي بين عامة المفكرين والصحفيين والمحللين في الغرب ـ أن التفسير العلمي للحوادث، سواء كانت طبيعية أو اجتماعية، هو ذلك التفسير القائم على افتراض أن هذا الكون مكتف بنفسه، وأن تفسير حوادثه ينبغي لذلك أن يكون من داخله، أعني أن الظواهر يجب أن تفسر بظواهر أخرى، وأن كل تفسير لشيء من حوادث الكون بإرجاعها إلى سبب خارج عنه هو تفسير خرافي غير علمي.

هذا هو المبدأ المفترض، لكنه لا يقرر في وسائل الإعلام التي نستوردها بهذه الطريقة الصريحة التي ذكرتها، وإنما يفترض افتراضًا، وقد يفترضه ويلتزم به حتى من لم

يفكر فيه من العلماء الطبيعيين وسائر المفكرين، والصحافيين ومن مظاهر افتراضهم له أنهم يقفون في تفسيرهم للحوادث عند أسبابها الدنيوية، ظاهرة كانت أم خفية، ولا يتجاوزونها. .وما ذلك إلا للاعتقاد بأنها هي الأسباب الحقيقية الكافية.

لكن المسلم مع اعتقاده بفاعلية الأسباب الطبيعية أو الاجتماعية أو النفسية، لا يقف عند حدودها، بل يذكّر نفسه بأنها إنما صارت أسبابًا بجعل الله لها أسبابًا، وأن الفاعل الحقيقي إنما هو الخالق سبحانه .قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله: أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، وتقاة نتقيها، هل تردّ من قدر الله شيئًا؟ قال: **(هي من قدر الله)**.

قلت إن هذا المبدأ الإلحادي قليلاً ما يصرّح به، وأقول إن التزامه في الواقع قد لا يبدو فيه ما يخالف عقيدة المسلم، ما دام المسلم معترفًا بتأثير الأسباب المخلوقة وفاعليتها .لكن الأمر في الحقيقة ليس كذلك .إن المتلقي إذا كان لا يسمع لله ذكرًا أبدًا في كل ما يخبر به من حوادث طبيعية واجتماعية يوشك أن يتأثر بذلك المبدأ فينسى هو الآخر ذكر الله تعالى، وينحو نحو أصحابه في تفسيره للحوادث، فلا تكون له فيها عبرة.

المبدأ الغربي الثاني الذي أراه أيضا ذا أثر سيئ، والذي أراه قد بدأ ينتشر حتى بين المسلمين في العالم الإسلامي بسبب التأثر بالثقافة الغربية التي تنقل عن طريق وسائل الإعلام، هو مبدأ النسبية، أعني نسبية الحقائق والقيم .لقد أصبح من المسلمات عند كثير من الناس في الغرب أنه لا توجد حقيقة مطلقة، ولا قيمة مطلقة، وإنما الحقائق والقيم نسبية، أي: أنها منسوبة وتابعة لزمانها أو مكانها أو الحضارة والثقافة التي ظهرت فيها، وهكذا .فما قاله الناس في عصر معين، أو اعتقدوه في مكان معين، أو رأوه حسنًا في حضارة معينة، كل هذا صحيح أو معقول بالنسبة لهذه الحضارات والأزمنة والأمكنة فقط، وإن كنا نراه نحن في ظروفنا أو زماننا أو حضارتنا على غير ما رأوه .وما دام الأمر كذلك فليس من حق أحد أن يقول: «إن فهمه لنص من النصوص هو الفهم الصحيح، أو إن فهم خصمه خطأ، وإننا ينبغي لذلك أن نكون سلفيين في فهمنا للنصوص، فللسلف زمانهم ولنا زماننا، ولهم ظروفهم ولنا ظروفنا!!» .

بل قد رأيت بعضهم غلا في هذا الأمر حتى قال: إن الرسول ﷺ لا يمكن أن يفسر القرآن لعصرنا لأنه لا يعرفه.

ثالثًا: الاعتقاد في المفهوم السلبي للحرية: وإذا كان الاعتقادان السابقان مما يُفترض ولا يُذكر، فإن هذا مما يكثر ترداده والتصريح به، والدعوة إليه، والتفاخر به، في كل أجهزة الإعلام .وقد أثر لذلك في الناس تأثيرًا بالغًا حتى صار من المسلمات حتى عند كثير من المسلمين.

إن الحرية تعني أن الله تعالى أعطى الإنسان المقدرة على الاختيار كما أعطاه المقدرة على العمل، وهذا أمر لا شك فيه، بل ربما كان هو مما يتميز به الإنسان . وقد شاء الله تعالى أن يجعل الإنسان شائيًا، ومسؤولاً عن مشيئته، حيث قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

فالمنازعة ليست إذن في كون الإنسان ذا إرادة ومشيئة واختيار، وإنما هي في الطريقة التي تُستعمل بها هذه المشيئة أو الحرية التي منحها الله تعالى للإنسان. المفهوم السلبي للحرية يجعلها غاية في ذاتها، بمعنى أن كرامة الإنسان تزداد بازدياد استقلاله في اتخاذ قراره، أياً كان ذلك القرار . أي إن العبرة في الاختيار لا فيما يختار. وعليه؛ فكلما تمكن الإنسان من أن يفعل ما يشاء كان هذا أكرم له وأكثر تحقيقاً لإنسانيته.

هذا المفهوم السلبي للحرية مفهوم قديم وإن ارتدى زيًا حديثًا. إنه المفهوم المرتبط بالاستكبار والكفر. وهو المفهوم الذي لجأ إليه قوم شعيب في احتجاجهم على أمره لهم بعبادة الله وعدم الظلم في المعاملات المالية، حيث قال الله تعالى على لسانهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، وهو المفهوم الذي ذمه الله تعالى في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، أي لا يُؤمر ولا يُنهى .فالإسلام يعلمنا أن كرامة الإنسان لا تتحقق بمجرد الاختيار؛ لأن هَلَكة الإنسان قد تكون فيما يختار، فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]، وإنما تتحقق باختياره للحق وللخير، ولما يختاره له ربه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

رابعًا: في الإعلام الغربي هجوم على المسلمين ولا سيما العرب، هجوم قال عنه الأستاذ "إدوارد سعيد": «إنه من النوع الذي لم يعد مقبولاً في الغرب حين يوجّه لليهود أو السود أو الآسيويين أو الأفارقة .حيث يُتهم العرب بعدم الأصالة وبالمحافظة وبعدم القدرة على التحضر، وبالإرهاب، بل وبالتواكل وبالقذارة، ثم يُقال إن سبب هذا كله هو الإسلام .هذا كلام يبدو لأمثالنا سخيفًا لا يستحق حتى أن يُرد عليه، لكن ينبغي إلا نقلل من تأثيره على شاب في مقتبل عمره، ولد في بلد غربي وترعرع فيه .فعندما ظهر كتاب الآيات الشيطانية لمؤلفه الإيراني طلب مني إخواننا في مجلة Impact أن أكتب نقدًا له .فعندما قرأته قلت لهم كلامًا فحواه أنه كتاب سخيف ثقيل ما أظن أحدًا سيكمل قراءته، فأرى لذلك أن لا تهتموا به، بل اتركوه ليموت .لا زلت أذكر ردهم . قالوا إن الكاتب معروف في أوساط الشباب ذوي الأصول الهندية الباكستانية، وأنهم قارئوه لا محالة».

خامسًا: يكثر في الإعلام الغربي الحديث عن الدين بطريقة هازلة، ولإثارة الضحك، حتى فيما يتعلق بالخالق سبحانه وتعالى .ويكثر فيه وصف الخالق بكلمات لا احترام فيها، كما نرى ذلك مثلاً في عنوان الكتاب الذي دخل ضمن أكثر الكتب بيعًا في أمريكا. إن اسمه: "سيرة الله": تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، إن كثيرًا من المسلمين المعاصرين لا يدرون أن الكلام عن الخالق بمثل هذه الطريقة يخرج صاحبه عن ملة الإسلام .ألم يقل الله تعالى عن بعض أمثال هؤلاء: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

سادسًا: ومما يتصل بهذا أنهم لم يعودوا يأخذون الدين مأخذ الجد، ويصورون هذا بأنه تسامح، وسعة أفق، ويصفون كل من يبدو منه استمساكًا شديدًا بالدين بالتطرف أو ضيق الأفق والتعصب وعدم العقلانية، وهكذا، لذلك تعجَّب كثير من الغربيين من الضجة التي أثارها المسلمون بسبب ما قاله مؤلف الآيات الشيطانية عن الله تعالى .وقد تأثر الإعلام في البلاد العربية والإسلامية بهذا الانحراف، فعاد هو الآخر يطبقه على كل من يبدو منه شدة استمساك بنصوص الكتاب والسنة، وعاد يمدح كل منتسب للعلم يبدو منه هذا النوع من التحلل.

سابعًا: الإعلام الغربي - التلفاز والمجلات والقصص والأفلام والإنترنت - كلها ملأى بما يثير الشهوات الجنسية، ويحفل قدر كبير منها بكل نوع من أنواع الإثارة، بالكلمة والصورة، بالشعر والقصة، بأخبار المنحرفين وبنشر الفضائح . قد يُقال: لكن ما علاقة هذا بالعقيدة التي هي موضوع بحثنا؟ وأقول إن له علاقة وثيقة .إن الإنسان قد يقع في المعاصي الجنسية ويظل مع ذلك محتفظًا بإيمانه وصفاء عقيدته . لكن من هنالك تنبت الصلة بين الشهوات والشبهات كما نبهنا إلى ذلك علماء السلف .فالذي يشتد ضعفه أمام الشهوات يضعف قلبه، فيكون مهيأ للتأثر بالشبهات المتعلقة بالعقيدة، كتلك التي ذكرناها آنفا.

ثامنًا: وهنالك شبهات مباشرة وجدت في الإنترنت مرتعًا خصبًا لها، شبهات يثيرها خصوم الإسلام المختصون بمحاربته على صعيد الفكر، ويثيرها أهل الأهواء من المنتسبين إلى الإسلام من مفكري الفرق الضالة .كلاهما أصبح يتستر وراء هذه الشبكة، ويعلن فيها ما قد يتردد من التصريح به في وسائل الإعلام الأخرى .وقد رأيت بعض الشباب يتابعون ما يُنشر في أمثال هذه الصفحات، ثم يأتون ليسألوا عن كيفية الرد عليها، لأن علمهم بالدين قليل، والشبهات قوية مضلة.

تاسعًا: وربما كان سبب هذا كله أن في الغرب عدم اطمئنان إلى الدينين الشائعين فيه، وعدم ثقة برجالهم، بل وشكاً في إمكانية الاستقامة .وهذا داء في الغرب قديم أكثر ما يظهر في الأدب، حتى لقد قال أحد نقادهم - أظنه ألدوس هكسلي - إنه لا يوجد في أبطال روايات شكسبير رجل خيِّر .وأنت تلاحظ هذا في القصص التي يقرؤها الناس بشغف .إن الشخصية المستقيمة أو المتدينة في القصة كثيرًا ما تصور بأنها شخصية منافقة تفعل في الخفاء ما يخالف مسلكها الظاهري، حتى لقد أصبحت المجاهرة بالسوء نوعًا من الصدق مع النفس والصراحة .وبما أن الغربيين لا يعرفون ديناً غير دينهم فإنهم لا يتحدثون عن اليهودية والنصرانية بخصوصهما، وإنما يتحدثون عن الدين بصفة عامة .ومن هنا يأتي خطر كلامهم على الطفل أو الشاب المسلم الذي يعيش بين ظهرانهم، بل حتى الذي يتعرض في بلده الإسلامي لإعلامهم وثقافتهم.

* * *

تعظيم التوحيد!!!

المصدر: مجلة منار السبيل
السنة الرابعة. العدد الثاني. جمادى الآخرة
١٤١٦هـ الموافق نوفمبر ١٩٩٥م

عبادة الله وحده لا شريك له هي لب لباب رسالة الإسلام من لدن نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ.

فلا نجاة لأحد لا يحقق هذا التوحيد فيأتي اللهَ بقلب سليم من أمراض الشرك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

هذه حقيقة لا شك فيها. والحقيقة الثانية -وهي حقيقة محزنة- هي أن جماهير كبيرة من المنتسبين إلى الإسلام لم تعد تحقق هذا التوحيد، فلا بد من دعوتهم إلى هذا الأصل الأصيل قبل دعوتهم إلى فروع العبادات ومكارم الأخلاق واجتناب المحرمات.

لكن بعض إخواننا -عفا الله عنهم- غلو في تعظيم التوحيد غلواً يكاد يجعلهم يهونون من شأن شرائع الإسلام الأخرى، ويكاد يغري المستمع إليهم بالأمن والنجاة ما دام قد حقق كلمة التوحيد مهما ارتكب بعد ذلك من ذنوب.

وهذا خطأ عظيم. نعم إن أمور الحلال والحرام العملية أقل شأناً من التوحيد، لكنها هي في نفسها عظيمة، وهي كلها مرتبطة بالعقيدة أوثق رباط.

فالإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. والانغماس في شهوات الخمر والميسر والزنا وأكل الربا، واتباع النفس هواها في ظلم العباد وأكل أموال الناس بالباطل وبخسهم أشياءهم، كل هذا ذو تأثير عظيم على التوحيد مهما كان في بداية الأمر قوياً وخالصاً.

وإذا كان الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فكيف يأمن من يظل إيمانه في نقص مستمر؟ والذنوب من شأنها أن تحدث في النفس غفلة يقسو بها القلب قسوة قد

تزيل عنه حقيقة الإيمان. ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

والمعروف أن الشهوات تفتح باب الشبهات فينتقل صاحبها من ارتكاب المحرمات إلى حبها ثم الضيق بالتشريع الذي حرمها، والميل إلى شبهات الذين يكرهون تحريمها من شياطين الإنس والجن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥-٢٨].

وعن عبد الله بن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول على أعواد منبره: **(لينتهين أقوامٌ عن ودعهم الجُمُعات، أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين).** [أخرجه مسلم].

إن التوحيد ليس مجرد قناعة فكرية، وما هو بمجرد استقامة لغوية، وإنما هو حال وعمل قلبي يحتاج إلى رعاية دائمة وغذاء مستمر وهو إنما يتغذى بالاجتهاد في الطاعات واجتناب المحرمات.

اللهم أدم علينا نعمة الإيمان بك ووفقنا لطاعتك واجتناب مساخطك والغفلة عن ذكرك.

* * *

لا مداهنة في دين الله

السبت ١٠ رجب ١٤٢٦هـ/ ١٣ أغسطس ٢٠٠٥ م
شبكة المشكاة الإسلامية

ديننا يحثنا على أن نعامل المسالمين لنا من غير المسلمين معاملة حسنة، بل وأن نتعاون معهم في كل أمر نرى فيه خيرا. لكن الحد الديني الفاصل بيننا وبينهم يظل قائما لا تمحوه مواطنة ولا يمحوه أي إحسان يسدونه إلينا أو نسديه إليهم مهما كان عظيما. فإذا علمنا عن إنسان أنه قد بلغته الرسالة المحمدية ولم يؤمن بها، بل أنكر أن يكون محمد رسول الله، أو أن القرآن كلام الله، فإنه لا يحق لنا أن نعامله وكأنه مؤمن بالله ورسوله. هذا من التناقض الذي لا نقدم عليه في حياتنا الدنيوية فما بال بعضنا يتجاهلونه في حياتهم الدينية؟ إنك لا تعطي كل حقوق السوداني لشخص تعلم أنه ليس سودانيا مهما كان فضله على السودانيين. وأهل الرياضة لا يقبلون في نادي هلالهم شخصا يعرفون أنه من كبار أنصار المريخ حتى لو كان هو المهندس الذي بنى لهم استادهم. .

وكذلك بل أعظم من ذلك ينبغي أن يكون الأمر بالنسبة للدين. إن الدين ينبغي أن يؤخذ مأخذ جد وحزم لا مجاملة فيه ولا مداهنة. لقد كان أبو طالب عما للنبي ﷺ، وكان من أكثر الناس حباً له، ومدحه مدحاً رائعاً في قصائد هي من عيون الشعر العربي، بل كان يحوطه ويدافع عنه ويضحي في سبيل أمنه، لكنه لم يكن يؤمن بأنه رسول الله، ولذلك فإن شيئا من ذلك لم ينقذه من عذاب النار، بل كل ما استفاده من إحسانه للنبي أن كان أقل أهل النار عذابا. إن الذي يموت منكرا لرسالة محمد ﷺ لا يدخل الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط. لا يغير مصيره هذا حتى استغفار النبي ﷺ له. **﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾** [التوبة: ٨٠].

ولا تغيرها صلة قرابة حتى ببعض أولي العزم من الرسل.

- فابن سيدنا نوح غرق فيمن غرق من أهل الكفر، ولم تنقله صلة البنوة إلى سفينة النجاة.

- وامرأة لوط ظلت مع الغابرين الذين قلب الله بهم الأرض.

- وإبراهيم كف عن الاستغفار لوالده لما تبين له أنه من أصحاب الجحيم.

- ونبينا محمد ﷺ قيل له: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤].

- وقيل لسائرنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

لذلك عجبت وعجب الآلاف من المسلمين في العالم من إطلاق بعض الناس صفة الشهيد على جون قرنق. ولسؤال بعضهم له الرحمة، بل قيل لي إن بعضهم بلغت به الوقاحة أن سأل الله تعالى أن يسكنه فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

أيحسب هؤلاء الجهلة أن الله تعالى يكتب هذا المصير لإنسان لأنه كان رئيس حركة حاربت المسلمين أكثر من عشرين عاما ثم سالمتهم؟ أيحسبون أنه يكتبه لإنسان لأنه عين نائبا أول لرئيس جمهورية السودان؟ أيحسبون أنه يكتبه إرضاء لبعض السياسيين؟ كلا والله. كيف يكون النبيون رفقاء لمن يكفر بخيرهم وخاتمهم؟ وإذا أمكن لرجل ينكر نبوة محمد ﷺ أن يكون مع الأنبياء والشهداء والصديقين فليكن معهم أيضا أبو لهب وفرعون. وليكن معهم ستالين ولينين وأمثال بوش وسائر أئمة الكفر. وليكن الإسلام دينا لا معنى له ولا تمييز فيه بين من كان من أهله أو كان من أعدائه.

هل بلغ جهلنا بالدين واستخفافنا به إلى هذا الحد؟

إننا أمة تأخذ دينها مأخذ الجد فمن ظهر لنا من كلامه وتصرفاته أنه مسلم سألنا له المغفرة ورجونا أن يدخله الله الجنة. لكننا لا نجزم بذلك لأن الشخص ربما كان منافقا يظهر لنا غير ما يبطن. ومن ظهر لنا من أقواله وأفعاله أنه كافر عاملناه معاملة الكافر وحسبناه من أهل النار.

***

نبي الرحمة الإيمانية

شبكة المشكاة الإسلامية
الثلاثاء ٤ ذو الحجة ١٤٣١هـ ٩ نوفمبر ٢٠١٠م

أرسل الله تعالى رسوله محمداW ﷺ رحمة للعالمين..

رحمته بشخصه:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ورحمتة برسالته:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

اهتم كثير من إخواننا العلماء والدعاة في هذه الأيام بالرحمة المتعلقة بشخص الرسول ﷺ وما كان عليه من مكارم الأخلاق وكتبوا في ذلك بحوثا وافية قُرِئت في كثير من المؤتمرات في أنحاء العالم الإسلامي ونُشرت .بيد أنني أريد في هذه الورقة المختصرة أن أركز على الجانب الآخر، جانب الرسالة التي أرسل بها رسول الرحمة، بل على جزء واحد من أجزائها هو لبها والأساس الذي تقوم عليه كل أنواع الرحمة التي أرسل بها، إلا وهي رحمة هذه الرسالة بقلوب العباد.

إن كل ما يزيل عن الإنسان أسباب الضيق والعنت والضرر والشقاء وييسر له ما يجعل حياته أطيب هو من رحمة الله تعالى بعباده.

ورحمة الله تعالى بهذا المعنى وسعت كل شيء .وهي نوعان رحمة قدرية ورحمة تشريعية. وفي كتاب الله تعالى عشرات الأمثلة التي تدل على أنواع الرحمة قدرية كانت أم شرعية. من ذلك قوله تعالى على لسان عبده نوح موجها الكلام إلى ابنه: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

عندما أبى أن يركب معه في السفينة وظن أنه سينجو من شقاء الغرق بأن يأوي إلى جبل يعصمه من الماء.

وشفاء أمراض النفوس مما تأمر به من أنواع السوء هو من رحمة الله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].

والفوز العظيم يوم القيامة إنما يكون برحمة من الله تقي الإنسان من سيئاتها. ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٩].

والنجاة من العذاب رحمة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك: ٢٨].

وكشف الضر رحمة: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥].

من أنواع الرحمة التي يذهل عنها كثير من الناس ما نسميه اليوم بالمنجزات المادية التي تيسر الحياة .فهذا ذو القرنين يقول عن السد الذي وفقه الله تعالى لبنائه. ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨].

وهذا صاحب موسى يقول عن كشفه لكنز الغلامين بأمر من الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ

رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

جاء هذا الكتاب هادياً إلى كل أنواع الرحمة التي يسعد بها الإنسان في حياته وبعد مماته .جاء بالرحمة النفسية التي هي أصل كل رحمة .ثم جاء بالرحمة العملية التي هي من لوازم تلك الرحمة النفسية ومكملاتها .لكن تركيزنا في هذا المقال إنما هو كما ذكرنا على الرحمة المتعلقة بالقلوب، على الرحمة الإيمانية .فنقول: إن الإنسان يسعد وتطيب نفسه إذا ما كانت حاله النفسية الواقعية من معتقدات وتصورات مناسبة مع الحالة النفسية التي فطره الله عليها .فكلما اقترب حاله الواقعي من حال الفطرة ومقتضياتها كانت حياته النفسية أسعد وأطيب، وكلما ازداد بعده عنها ازداد شقاؤه النفسي مهما عاش في أنواع من النعم الخارجية .

وقد أرسل الله تعالى محمدا ﷺ كما أرسل سائر إخوانه الرسل برسالة مبناها على فطرته التي فطر الناس عليها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

فالدين الحنيف يأتي مقرا لهذه الفطرة ومبنيا عليها، ومفصلا لمقتضيات الإيمان بحقائقها، ومعطياً الأدلة على صدق تلك الحقائق، والأدلة على زيف ما يخالفها من أنواع الدعاوى والشبهات .وفي هذا كله رحمة واسعة بالمؤمن بما يدعوه إليه رسل الله لأنه يكون حينئذ ذا قلب سليم وعلم وأدلة وحجج يقهر بها الخصوم.

الإنسان مخلوق لله فهو مفطور على الاعتراف بهذه الحقيقة كما هو المشاهد على مر الزمان، وكما تشهد به الدراسات الانثروبولجية الحديثة التي درست ثقافات معظم الشعوب .لكن إذا كان هذا الأصل الإيماني بالاعتراف بوجود الخالق هو الغالب على معظم البشر، فإن أكثر الناس يحيدون عن لوازمه ومقتضياته، فيأتي رسل الله تعالى ليهدوهم إلى هذه المقتضيات ويدعوهم إلى الإيمان بها ليكون إيمانهم كاملاً.

يؤمن الإنسان حتى قبل مجيء الرسول بأن له خالقا، لكنه قد لا يذكر هذا الخالق إلا قليلا وقد لا يعرف من صفاته ما يؤثر في حياته، فتكون حياته في الواقع كحياة الذين ينكرون وجوده سبحانه .كتب أحد الانجليز المعاصرين كتابا يدعو فيه إلى الالحاد، وكان مما ذكره في كتابه أن بعض الدراسات أثبتت أن المؤمنين ليسوا بأكثر استمساكا بمكارم الأخلاق من الملحدين .شاركت بورقة في أحد المؤتمرات كانت ردا على بعض دعاوى هذا الملحد فقلت للناس فيما يتعلق بهذه المسألة إن كلامه قد يكون صحيحا لأن ذلك يعتمد على نوع الذين عدهم من المؤمنين .ثم ذكرت لهم أن مجرد الإيمان بوجود الخالق لم يعصم العرب الذين أرسل إليهم الرسول ﷺ من أن يعبدوا معه غيره من كل أنواع الأصنام والأوثان .بل أقول الآن وإنه لم يعصم الغربيين المتدينين من مثل هذا الشرك.

يأتي الرسول ليقول للناس إنكم على حق في إيمانكم بوجود الخالق وربوبيته، ويهديه إلى حجج تؤيد هذا الإيمان الفطري وترد على منكريه .من ذلك قوله تعالى في كتابه ردا على منكري وجوده سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧].

ثم يقول له إن هذا الإله الذي تؤمن بأنه هو وحده الذي خلقك وهو وحده الذي يرزقك والذي بيده حياتك ومماتك هو أيضا هووحده الذي ينبغي لك أن تعبده، ويعطيه أدلة كثيرة على ذلك منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاس ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]. ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ

ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦-١٧].

في هذه الآيات وغيرها كثير يرشد الله تعالى عباده إلى أنه بما أن العبادة إنما هي في أصلها شكر، فإن هذا الشكر ينبغي أن يكون لصاحب النعمة لا لغيره.

إذا استجاب الإنسان لهذا الأمر الإلهي فعبد الله تعالى وحده ولم يشرك معه شيئا في هذه العبادة يكون قد استحق بفضل الله تعالى أكبر رحمة يرحم بها بشر لأن توحيد الله تعالى هو لب كل خير، ولأن الشرك به هو أساس كل شر .وهي رحمة يشعر بها الإنسان في قلبه ويجد لها حلاوة لا تدانيها حلاوة، وتجعله يعيش حياة لا حياة أطيب منها .لكنه يبين له أن إيمانه بهذا الخالق لا يكتمل إلا بإيمانه بحقائق أخرى هي من لوازم الإيمان بربوبيته وألوهيته.

الحقيقة الأولى من هذه الحقائق: معرفة صفات هذا الخالق وأسمائه الحسنى .وذلك لأن الإنسان كلما ازدادت معرفته بربه ازدادت خشيته له وازداد قربه منه فازدادت بذلك سعادته .وكلما ازدادت معرفة العبد بربه ازدادت كذلك معرفته بمقتضيات تلك الصفات، فازداد فقهه لكلام الله، وازداد تفكره في آيات الله الكونية والكلامية وعلمه بها وبمقتضياتها .كتاب الرحمة الذي أنزله الله تعالى على عبده محمد صلى الله عليه وسلم مليء بذكر هذه الصفات .فالرب الذي جرد عبادته له هو المتصف بكل صفات الكمال المنزه عن كل صفات النقص .فمن صفات كماله أنه:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

ومنها أنه هو: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا

خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الحقيقة الثانية التي هي من مكملات الإيمان بالله تعالى: الإيقان بأنه سبحانه لا بد أن يرسل إلى عباده رسلا وينزل عليهم كتبا تتضمن هدايته لهم .كيف يمد الله تعالى عباده بكل ما يحتاجون إليه من أنواع الرزق المادي الذي لا تقوم حياتهم الجسدية إلا به، ثم لا يمدهم بما يحتاجون إليه من أنواع الهداية التي هي قوام حياتهم الروحية التي هي الحياة الحقيقية؟ فالإيمان بضرورة إرساله سبحانه للرسل وإنزاله للكتب هو من لوازم معرفة الإنسان بصفات ربه سبحانه. لذلك ذم الله تعالى أقواما أنكروا رسالات السماء ووصفهم بأنهم لا يقدرون الله حق قدره إذ ينكرون بعض ما هو من لوازم صفاته. ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

وكما يهديه سبحانه إلى هذه الحقيقة فإنه يهديه إلى مقتضياتها .فمن ذلك أنه يهديه إلى الدليل الذي يدل على أن الرسالة هي حقا من الله تعالى وهو أن لا يكون فيها تناقض واختلاف.. ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وأن يكون فيها ما يدل على هدايتها ولا سيما إذا ما قورنت بغيرها من الكتب البشرية: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩].

وإذا كانت الرسالة السماوية أكبر رحمة يرحم الله تعالى بها عباده فلا بد أن تكون موجودة في كل زمان ومكان وأن يكون بإمكان البشر أن يطلعوا عليها ويهتدوا بها كما يوجد الهواء اللازم لحياتهم الحسية في كل زمان ومكان، بل أكثر من ذلك .ينظر الإنسان العاقل حوله باحثا عن هذه الرسالة في عصره هذا فيكتشف أنه لم يبق من رسالات السماء إلا الرسالة التي انزلت على محمد بن عبد الله، ولم يبق

من رسل الله رسول تعرف سيرته ليقتدى به إلا محمد بن عبد الله .فيقول في نفسه هذا والله إذن هو خاتم رسل الله.

إن الإنسان لا يعيش فرداً منبت الصلة بغيره من البشر لا يتأثر بهم في طريقة أكل أو شرب أو لبس أو سلوك أو عبادة، بل إن بعض الناس ليتأثر ببعض في كل ذلك ويحذو حذوهم .فمن رحمة الله تعالى بالإنسان المؤمن أن يدله على رجل شهد له سبحانه بالسير على صراطه المستقيم وجعله قدوة لغيره من الذين يبتغون الوصول إلى الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

فمن أراد الوصول إلى الله تعالى بذل جهده في الاقتداء برسوله في عبادته وفي خلقه وفي معاملاته.

فالذين يحاولون التنقص من قدر هذا النبي لا يعادونه أو المسلمين فحسب وإنما يعادون البشرية كلها إذا يحاولون أن يسدوا عليها الطريق الموصل إلى الرحمة التي جاء بها محمد بن عبد الله.

وإذا آمن الإنسان برسول الله وبالرسالة التي أنزلت عليه فإن الله تعالى يرحمه رحمة ثانية بأن يهديه إلى الطريقة التي يتعامل بها مع هذه الرسالة السماوية ومع الرسول الذي أنزلت عليه، فلا يقدم على كلام الله أو كلام رسوله شيئا من رأي أو ظن أو أمر لمخلوق، بل ويتجنب حتى رفع صوته على صوت الرسول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ١-٣].

وإذا كانت رسالة كالرسالة المحمدية موجهة إلى البشر جميعا، بل وحتى إلى الجن، فإنه يلزم من ذلك أن تكون رسالة واحدة تفهم على حقيقتها في كل زمان

ومكان بعد نزولها، لمن أراد فهمها وحقق شروط ذلك الفهم .أعني أنها لا يمكن أن تكون في طبيعتها قابلة لأن تفهم بأوجه مختلفة متناقضة بحسب زمان القارئ ومكانه كما يقول بعض الجهلاء اليوم، لأنها إذا كانت كذلك لم تكن رسالة واحدة، بل كانت رسائل متعددة، وسبحان الله عن مثل هذا العبث.

الحقيقة الثالثة التي لا يكتمل الإيمان إلا بها والتي هي من لوازم صفاته: ومن لوازم طبيعة مخلوقاته لمن تأملها هي أن بعد هذه الحياة الدنيا حياة أخرى يلقى فيها المطيع لله جزاء إحسانه ويعاقب فيها الكافر على إساءته .وفي القرآن الكريم أدلة كثيرة على ضرورة وجود هذه الدار وكونها أمر تقتضيه صفات الخالق وطبيعة مخلوقاته . فالله تعالى حكيم لا يمكن أن يفعل شيئا عبثا .وإرسال الرسل ثم عدم التفريق بين من آمن منهم بالرسالة التي أرسل بها رسله ومن كفر بها وأنكرها نوع من العبث الذي يتنزه الله تعالى عنه: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦]، ﴿**كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾ [القلم: ٣٣-٣٦].

بل إن وجود السنوات والأرض وغيرها من أنواع الخلق هو من الأدلة على وجود تلك الدار الآخرة لأن الله تعالى إنما خلق هذه المخلوقات الدنيوية وسخرها لمنافع الناس مسلمهم وكافرهم فكيف يكون مصير النوعين واحداً بعد انقضاء هذه الحياة الدنيا وماقيها؟ ولذلك فكثيراً ما نجد القرآن يقرن بين البعث وخلق السموات والأرض بالحق: ﴿**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ**﴾ [الروم: ٨]، ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ [الجاثية: ٢١-٢٢].

وللإمام ابن كثير كلام نفيس في هذا الصدد قال رحمه الله تعالى: «قَالَ تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] أَيْ لاَ نَفْعَل ذَلِكَ وَلا يَسْتَوُونَ عِنْد اللَّه وَإِذا كَانَ الأَمْر كَذَلِكَ فَلا بُدّ مِنْ دَار أُخْرَى يُثَاب فِيهَا هَذَا الْمُطِيع وَيُعَاقَب فِيهَا هَذَا الْفَاجِر وَهَذَا الإِرْشَاد يَدُلّ الْعُقُول السَّلِيمَة وَالْفِطَر الْمُسْتَقِيمَة عَلَى أَنَّهُ لا بُدّ مِنْ مَعَاد وَجَزَاء فَإِنَّا نَرَى الظَّالِم الْبَاغِي يَزْدَاد مَاله وَوَلَده وَنَعِيمه وَيَمُوت كَذَلِكَ وَنَرَى الْمُطِيع الْمَظْلُوم يَمُوت بِكَمَدِهِ فَلا بُدّ فِي حِكْمَة الْحَكِيم الْعَلِيم الْعَادِل الَّذِي لا يَظْلِم مِثْقَال ذَرَّة مِنْ إِنْصَاف هَذَا مِنْ هَذَا وَإِذا لَمْ يَقَع هَذَا فِي هَذِهِ الدَّار فَتَعَيَّنَ أَنَّ هُنَاكَ دَارًا أُخْرَى لِهَذَا الْجَزَاء وَالْمُوَاسَاة وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآن يُرْشِد إلى الْمَقَاصِد الصَّحِيحَة وَالْمَآخِذ الْعَقْلِيَّة الصَّرِيحَة».

وكما أن مجرد الإيمان بوجود الخالق، بل حتى بربوبيته من غير معرفة بأسمائه وصفاته سبحانه وما تقتضيه هذه الصفات لا يكفي لإصلاح حال الإنسان وتعرضه لرحمة الله تعالى، فكذلك مجرد الإيمان بوجود دار آخرة لا يؤثر في حياة الإنسان ويصلحها إذا لم تكن له معرفة بتلك الدار وتصور صحيح لها .ولذلك نجد في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم وصفاً مفصلاً للجنة التي يجازى بها المتقون والنار التي يعاقب بها الكافرون حتى كأنهما رأي عين.

يبين الله تعالى أن أكبر نعمة ينعم بها على عباده في دار جزائه هي تمكينهم من رؤيته تعالى.

قال النبي ﷺ: (**إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة؟ وتنجينا من النار؟ .قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل**)، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

وإذا كانت رؤية الله تعالى هي أرقى أنواع النعم في الجنة فهنالك نعم نفسية أخرى منها كون أهل الجنة إخوة متحابون أزال الله تعالى عن قلوبهم كل أثر لغل .ومع النعيم المادي هنالك رزق يشبه في شكله وأسمائه ما يعرفون من أحسن أرزاق الدنيا

من المآكل والمشارب والمساكن والملابس والمناكح، لكنه مختلف عنه في حقيقته وإن شابهه في اسمه. ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

وكما بين سبحانه تفاصيل وصف الجنة وما فيها من أنواع النعيم فقد بين كذلك بين تفاصيل وصف النار وما فيها من أنواع العذاب .بين سبحانه أنه إذا كان أكبر نعيم ينعم به أهل الجنة هو رؤيتهم لربهم، فإن أكبر عذاب يعذب به أهل النار هو حجبهم عن تلك الرؤية. ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥-١٦].

وإذا كان مما ينعم به أهل الجنة كونهم إخوة متحابين فإن من أشد ما يشقى به أهل الجحيم كونهم أعداء متباغضين يلعن بعضهم بعضا .ثم يضاف إلى ذلك أنواع العذاب الأليم من نار وحر وسموم وزمهرير وأكل يقطع البطون ولباس يحرق الجسوم.

يذكر الله تعالى عباده بحقيقة مهمة تتعلق بالدار الآخرة هي كونها دار خلود وأن الحياة الدنيوية دار مؤقتة لا تساوي مدة بقائها شيئا بالنسبة للدار الآخرة ولذلك فإن الإنسان العاقل لا يغتر بنعيمها وإن أخذ بحظ وافر منه ويصبر على أذاها وإن ناله ما ناله شدائدها .بين رسول الله ﷺ الحقيقة التي تدعو إلى ذلك بصورة مؤثرة

فعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: **(يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة ثم يقال له: ياابن آدم هل رأيت خيراW قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول لا والله يارب ويؤتى بأشد الناس في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ في الجنة صبغة فيقال له ياابن آدم هل رأيت بؤسا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول لا والله يارب ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط)** [رواه أحمد ومسلم].

ومن تمام الإيمان بالله أن يعرف الإنسان شيئا عن ملائكة الله تعالى وما كلفوا به من أعمال تتعلق بصلة العبد بربه .فأعظم رسالة يؤديها هؤلاء العبيد الذين يفعلون ما

يؤمرون هي حملهم لرسالة الله إلى رسله .ثم إنهم هم الموكلون بكل ما يتعلق بحياة الإنسان من أكل وشرب ونعيم وبؤس، وحياة وموت، وغير ذلك.

وكما هو ضروري للإنسان أن يعـرف مـلائكة الله المطيعين له ويؤمن بهم، فإنه من الضروري له كذلك أن يعرف أعدى أعـداء الله ويكفر به، ويحذر من طاعته فيما يأمره به من أنواع الكفر والذنوب، ومـا يلقيه في قلبه مـن أنواع الشهوات والشبهات.

وإذا كان هذا الإيمان هو جوهر الرحمة التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه إيمان تلزم عنه أعمال ظاهرة وباطنة يرحم الله تعالى عباده المؤمنين بهدايتهم إليها وإعانتهم عليها فيزدادون بها سعادة وحياة طيبة .فالشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله تعبير باللسان عن إيمان استقر في القلب، والصلاة هي أهم العبادات التي تنهى المؤمن عن الفحشاء والمنكر وتجعله دائم الصلة بالله: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ثم بقية العبادات من صوم وزكاة وحج كلها مما يقي الإنسان من عذاب الله ويعينه على رضوانه ودخول جنانه.

ثم مكارم الأخلاق التي بعث الرسول بإتمامها والتي هي من لوازم الإيمان وما يتبعه من عبادات .

فالمؤمن بالله تعالى والعامل لتلك الأعمال الصالحة يجد في نفسه ميلاً إلى الاستمساك بمكارم الأخلاق من صدق وأمانة ورحمة بالناس وعدل بينهم.

وإذا ما تهيأ الناس بإيمانهم وعباداتهم ومكارم أخلاقهم ليحسنوا التعامل بينهم جاءهم هذا الدين بكل ما يصلح حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية من أنواع التشريعات التي هي أيضا رحمة بهم.

* * *

الصيام وتفاضل الأزمان

شبكة المشكاة الإسلامية

الجمعة ١٩ رمضان ١٤٣١هـ/ ٢٧ أغسطس ٢٠١٠ م

خلق الله سبحانه وتعالى الخلق وجعله متفاضلاً فالمخلوقات الحية متفاضله ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٠]، والبشر متفاضلون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، والأنبياء متفاضلون ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [الإسراء: ٥٥]، والجمادات متفاضله **(أُحُد جبل يحبنا ونحبه)**، والأماكن متفاضله ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [الحج: ٢٢]، والأزمان متفاضله، فخير العصور عصر النبي ﷺ، وخير أيام الأسبوع يوم الجمعة، وخير أيام السنة يوم عرفة، وخير لياليها ليلة القدر، وخير الشهور شهر رمضان. والأفضلية كلها كما ترى مرتبطة بأسباب دينية، فالله سبحانه وتعالى يختار الحي أو الجماد أو الزمان أو المكان لفضل جعله فيه، قد نعلمه نحن وربما لا نعلمه، ثم يكرمه بسبب ذلك الفضل فيجعله مكاناً لخير ديني، ثم يجعله بسبب ذلك الخير الديني القدري محلاً أو مناسبة أو أهلاً لخير ديني شرعي.

اختار الله سبحانه وتعالى شهر رمضان لفضل علمه فيه فجعله وقتاً لنزول خاتم رسالاته، ثم دعانا لصيامه وعلل صيامه بأنه الشهر الذي ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ولما كانت ليلة القدر منه خاصة هي الليلة التي نزل فيها القرآن، فقد زادها تشريفاً على سائر لياليه، ثم دعانا لقيامها وجعل ذلك القيام خيراً من عبادة ألف شهر.

وكذلك ما من يوم أو أيام دُعينا لصيامها نفلاً إلا كان تخصيصها بذلك الصيام راجعاً إلى فضل فيها. فعاشوراء يوم نجى الله فيه موسى، وأغرق فرعون، وشعبان شهر

ترفع فيه الأعمال، وتاسع ذي الحجة هو يوم عرفة وخير أيام العام، ويوما الاثنين والخميس يومان ترفع فيهما الأعمال.

وهكذا يعقب على التشريع المدني البحت بهذا التوجيه الوجداني البحت؛ ويربط بين التشريعات للحياة وخالق الحياة، بذلك الرباط الوثيق، المؤلف من الخوف والرجاء في مالك الأرض والسماء. فيضيف إلى ضمانات التشريع القانونية ضمانات القلب الوجدانية.. وهي الضمان الوثيق المميز لشرائع الإسلام في قلوب المسلمين في المجتمع المسلم.. وهي والتشريع في الإسلام متكاملان. فالإسلام يصنع القلوب التي يشرع لها؛ ويصنع المجتمع الذي يقنن له. صنعة إلهية متكاملة متناسقة. تربية وتشريع. وتقوى وسلطان.. ومنهج للإنسان من صنع خالق الإنسان. فأنى تذهب شرائع الأرض. وقوانين الأرض، ومناهج الأرض، أنى تذهب نظرة إنسان قاصر، محدود العمر، محدود المعرفة، محدود الرؤية، يتقلب هواه هنا وهناك، فلا يستقر على حال، ولا يكاد يجتمع اثنان منه على رأي، ولا على رؤية، ولا على إدراك؟ وأنى تذهب البشرية شاردة عن ربها. ربها الذي خلق، والذي يعلم من خلق، والذي يعلم ما يصلح لخلقه، في كل حالة وفي كل آن؟

إلا إنها الشقوة للبشرية في هذا الشرود عن منهج الله وشرعه. الشقوة التي بدأت في الغرب هرباً من الكنيسة الطاغية الباغية هناك؛ ومن إلهها الذي كانت تزعم أنها تنطق باسمه وتحرم على الناس أن يتفكروا وأن يتدبروا؛ وتفرض عليهم باسمه الإتاوات الباهظة والاستبداد المنفر.. فلما هم الناس أن يتخلصوا من هذا الكابوس، تخلصوا من الكنيسة وسلطانها. ولكنهم لم يقفوا عند حد الاعتدال، فتخلصوا كذلك من إله الكنيسة وسلطانه! ثم تخلصوا من كل دين يقودهم في حياتهم الأرضية بمنهج الله.. وكانت الشقوة وكان البلاء!!

فأما نحن - نحن الذين نزعم الإسلام - فما بالنا؟ ما بالنا نشرد عن الله ومنهجه وشريعته وقانونه؟ ما بالنا وديننا السمح القويم لم يفرض علينا إلا كل ما يرفع عنا الأغلال، ويحط عنا الأثقال، ويفيض علينا الرحمة والهدى واليسر والاستقامة على الطريق المؤدي إليه وإلى الرقي والفلاح؟!

***

الإسلام عقل وإيمان

(جريدة المسلمون السعودية)

فطر الله تعالى الناس على العبودية له، وجعل هذه العبودية جوهر إنسانيتهم. فكلما ارتقى الإنسان في درجاتها كان أكثر اقترابا من جوهره الذي فطره الله عليه وكلما بعد عنها وتردى في حماة الشرك كان كالأنعام بل أضل سبيلا.

وبما أن العبودية هي جوهر الإنسانية فإنها المحور الذي يدور حوله، والمعين الذي يستقى منه كل ما فطر الله تعالى الإنسان عليه من فضائل خلقية وأحاسيس جمالية وقوى عقلية. فكلما كان الإنسان أكثر تحقيقاً للعبودية كان أحسن خلقاً وأرقى ذوقاً وأجود عقلاً. فإذا رأيت ذا دين هابطاً في ذوق أو ضعيفاً في عقل فاعلم أن مرد ذلك إلى خلل في دينه، خلل في تصوره له والتزامه به، وإذا أعجبك من غير ذي دين شيئاً من رفعة في ذوق أو جودة في عقل فاعلم أنه مازال محتفظاً بشيء من فطرته. فلا تقطعن الأمل في هدايته. ثم إن الدين الذي أنزله الله من السماء موافقاً لذلك الدين الفطري الذي يأتي بالهدى الذي يكمل الفطرة فيزيد الإيمان قوة، والذوق رفعة، والعقل جودة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر : ١٨].

أرأيت إلى هذا الجمع البديع بين الهداية والعقلانية بل أرأيت كيف حصرت الآية العقلانية في المهتدين ؟ إن أولي الألباب هم أولو العقول فلا يغرنك بعد ذلك وصف بعض الإسلاميين لبعض الضالين بالعقلانيين فحاشا العقل – وهو نصير الدين – أن يكون سبباً في ضلال الضالين بل الذين لا يعقلون هم الذين لا يهتدون. ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة : ١٧٠].

إن الضلال هوى لا عقل. فسم هؤلاء بأهل الأهواء كما كان يسميهم سلفك الصالحون العالمون.

الإيمان نور للعقل تزداد به مقدرته على التمييز بين الحق والباطل والهدى والضلال وتزداد به مقدرته على الاعتبار بل تزداد به كفاءته في رؤية الفروق الدقيقة بين المعاني. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩].

وإن كان الإيمان دعاية للذوق الرفيع والعقل السليم، فإن الكفر مفسد للذوق مضعف لقدرة العقل، بل لقدرات الحواس. ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ليس المقصود – بداهة – أنهم لا يدركون الأشكال والأصوات والألوان، بلى إنهم ليدركون كل هذه الظواهر كما تدركها الحيوانات ويستفيدون منها – بعقولهم – فائدة عظيمة في حياتهم الدنيوية. ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم : ٧].

لكن الغفلة التي يسببها الكفر تحجب عقولهم عن رؤية الدلالات العلوية لهذه الظواهر الأرضية. ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠].

أفلم يكونوا يرونها بل كانوا يرونها، يرونها الرؤية الحسية التي يراها المؤمنون لكنهم يقفون عند حدود هذه الرؤية فلا يتساءلون : لم حدث لهؤلاء الناس ما حدث. وإن هم تساءلوا لا يهتدون إلى الجواب الصحيح. لأن كفرهم – لا يرجون نشورا – حصرهم في دائرة ضيقة من الوجود، لا يتجاوزونها بل يحاولون أن يفسروا كل شيء في حدودها، وهيهات إن الكافر قد يكون من أذكى الأذكياء لكن مرض الكفر والنفاق يذهب ببركة الذكاء فيكون صاحبه ذكياً غير عاقل.

يدلك على عدم اعتبار الذين مروا على هذه القرية راجع إلى نقص في عقولهم قوله تعالى عن هذه القرية في سورة أخرى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت : ٣٥].

إن الذي لا يؤمن يعيش – على المستوى الروحي – في مستنقع آسن. وكذلك الذي لا يعقل، لأن العقل قرين الدين ورفيقه الذي لا يفارقه. ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥]. ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[يونس:١٠٠].

هذا الرجس هو الذي يجعل قلب الكافر والمنافق والزنديق مصيدة للشكوك والشبهات وأنواع الضلالات، ومزبلة لا تتجمع فيها إلا أمثال هذه الأوساخ التي يحسبها بعض الجهلاء فكراً عميقاً وعقلاً كبيرا. ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

وإذا كان سماع الحق يزيد الإنسان السوي العاقل إيمانا ويزيده استبشاراً فإنه يتحول عند الذين لا يؤمنون ولا يعقلون إلى مزيد من الرجس الذي يناسبهم.

الإسلام وتحقيق المجتمع الإنساني

مجلة المجتمع الكويتية رجب ١٣٩٣ يوليو ١٣٧٣

السؤال الذي تحاول كل النظريات والفلسفات الاجتماعية الإجابة عنه يمكن وضعه بالصيغة التالية: كيف يتخلص الإنسان من المعوقات التي تحط من قدره الإنساني ؟، وما هي الشروط التي يجب توافرها ليصبح الإنسان إنساناً حقيقياً ويصبح المجتمع مجتمعاً إنسانياً؟.

تقول النظرية الفردية في شكلها المتطرف إن الإنسان أساساً فرد، وأن وجوده في المجتمع أمر طارئ عليه، وكان مضطراً إليه، ولذلك فإن أهم ما ينبغي أن يسعى إليه التنظيم الاجتماعي هو تقليل أثر المجتمع على الفرد إلى أقصى حد وتمكين الفرد من أن يمارس حريته إلى أقصى حد، ومن هنا جاءت فكرة (دعه يعمل) التي كانت حلم الرأسمالية في شكلها السياسي والاقتصادي، والذي حققت منه ما تسنى لها فلم تكن النتيجة أن تحرر الفرد، بل أن ظهرت في المجتمع طائفتان فقدت إحداهما إنسانيتها بذل البؤس والاستغلال ,والعبودية وفقدت الأخرى إنسانيتها ببطر الثراء و الترف والانغماس في الشهوات الحيوانية، وبقي بالطبع بين هاتين أفراد كثيرون لم يبلغوا من الثراء أن يكونوا رأسماليين، ولا من البؤس أن يكونوا مسحوقين، فتفرقوا مذاهب واتجاهات كل حزب بما لديهم فرحون .فمنهم الشيوعيون ومنهم الاشتراكيون غير الماركسيين، ومنهم المتدينون، ومنهم الهيبون، ومنهم الرافضون لما أسموه بمجتمع الاستهلاك، الراغبون في مجتمع أكثر إنسانية وأن كانوا لا يدرون الطريق إليه .ومنهم أفراد المفكرين والفلاسفة ذوي الآراء والمذاهب الخاصة ومنهم ومنهم، ذلك ما آل إليه واقع النظرية الفردية .وجاءت بعدها النظرية الماركسية لتقول إن الملكية الفردية لوسائل الإنتاج والتوزيع هي العامل الأساس الحاسم في المصير المؤسف الذي قادت إليه الرأسمالية .فالعلاج إذن سهل ميسور، وهو الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج والتوزيع فإذا ما تحقق هذا الإجراء الاقتصادي حلت تدريجياً كل العقد التي أقعدت الإنسان عن تطوره الإنساني، فحلت الأريحية أو الجماعة محل الأنانية والفردية، وحل الإخاء محل التنافس والبغضاء، وصار عمل العامل – شأنه في ذلك شأن الشعر والموسيقى – عملاً خلاقاً يعبر عن جوهر الإنسان ويعلي من قدره، وزالت أمراض الكذب والخيانة والسرقة والإدمان وغيرها.

لماذا لا يحصل كل هذا؟ لأن الوضع الاقتصادي للمجتمع هو أساسه، وكل ما عداه من آداب وفن وخلق وقانون ودين وعلاقات اجتماعية، إنما هي بنى فوقية تابعة لذلك الأساس، فإذا تغير تغيرت معه، ولا أمل في تغييرها إذا ظل هو ثابتاً.

ووجدت الماركسية الفرصة لتطبيق نظريتها وأزيلت الملكية الفردية، وتحققت الملكية الجماعية، أو بالأحرى الملكية الدولية لوسائل الإنتاج والتوزيع وانتظر الناس أن يتغير البناء الفوقي بعد أن تغير الأساس، وطال الانتظار، وبقي البناء الفوقي شامخاً يتحدى الذين زعموا أن أساسه الوضع الاقتصادي، فقد بقي الكذب وبقيت الخيانة وبقي النفاق بل ازداد، وبقيت السرقة والاختلاس، وازداد الانغماس في الشهوات المادية وتفاقم الإدمان، هذا إلى جانب شرور أخرى صاحبت النظام فبدلاً من أن تكون إزالة الملكية الفردية كسراً لقيد العبودية وتحريراً للإنسان – كما تصورها المفكرون الاشتراكيون، ارتبطت الملكية الجماعية في تجربة الاتحاد السوفيتي بأسوأ أنواع القهر السياسي التي عرفتها البشرية، ولم يكتف هذا النظام بخنق الحريات الداخلية وتسليط المخابرات لحصر أنفاس الناس، ومراقبة ألسنتهم وأقلامهم، وعلاقتهم بل أرسل جنده المسلح لإسكات أي صوت خارج الاتحاد السوفيتي زعم أنه سيجعل للاشتراكية وجهاً إنسانياً .وبدلاً من أن تكون الماركسية علمية تسلم بنتيجة التجربة التي أثبتت كذب الافتراض، راحت تبحث عن المبررات التي حالت دون ظهور النتيجة المرجوة.

فقالوا مرة إن الأساس المزال لم تزل معه كل آثاره الفوقية لأن رواسيها بقيت في الرؤوس وفي الكتب وفي كثير من العادات والتقاليد وظلت لهذا تعمل عملها ولكنها لا شك زائلة بالتدريج.

وقالوا مرة أنه ما دام الأساس الرأسمالي ما زال باقياً بأدواره الفوقية في كل البلاد غير الاشتراكية، وما دامت البلاد الاشتراكية مفتوحة لتلقى آثاره ليس من الغريب أن تتأثر به.

وقال بعض الماركسيين خارج الاتحاد السوفيتي إن النتيجة السوفيتية ليست بالضرورة النتيجة الحتمية لتطبيق الماركسية نعم إن السوفييت طبقوا من الجانب الاقتصادي جانب إزالة الملكية الفردية ولكنهم جعلوها ملكية دولة وملكية الدولة لا تزيل الاغتراب أو الاستلاب، بل الملكية الجماعية هي التي تفعل هذا .إن المهم في

الاشتراكية أن يكون الإنتاج لصالح الجماعة كلها، وهذا يحتم ارتباط الاشتراكية بالديمقراطية الحقيقة، بحرية التعبير ومشاركة الشعب في صنع القرارات، لأنه ما دام المقصود أن يكون الإنتاج لصالح الجماعة فينبغي أن تقرر الجماعة ما تراه صالحاً لها.

وقال بعض هؤلاء إننا والماركسيين داخل البلاد الاشتراكية لم نكن محقين في أن نتوقع ما توقعناه، لقد أخطأنا فهم الماركسية الحقة وتأثرنا بالتفسير الستاليني لها . وذلك أن ستالين هو الذي قال إن العامل الاقتصادي هو الذي لا يؤثر في غيره من البنى الفوقية فحسب، بل هو الذي يحتم شكلها ومصيرها .أما ماركس فلك ما قاله إنه في الفترة التاريخية التي تقوم فيها العلاقات الاقتصادية على أساس الملكية الفردية فإن العامل الاقتصادي يكون أهم العوامل في تحديد سائر العلاقات الاجتماعية، أما حين تزول الملكية الفردية فإن العامل المادي يفقد هذه الأهمية ويبقى الناس أحراراً في اختيار المجتمع الذي يريدون بعد أن كسرت أغلال الملكية الفردية، أي أن العامل الثقافي الفكري يصبح أهم العوامل، لتأكيد هذا الفهم ودعمه رجع أصحابه إلى كتابات ماركس الأولى سيما مخطوطات عام ١٨٤٤م .ذلك ما قيل في الغرب.

ولقد كرر شيء من هذا التاريخ في عالمنا العربي، فحين بدأت التجربة الاشتراكية عندنا، قال المتأثرون بالماركسية منا إن أخلاقنا ستتغير تبعاً لتغيير أوضاعنا الاقتصادية .فقريباً تحل الأخلاق الاشتراكية محل الأخلاق الرعوية الزراعية المرتبطة بالمفاهيم الدينية الغيبية، قريباً تزول الأنانية وتأخذ مكانتها الجماعية، قريباً يحل التفكير العلمي محل التفكير الخرافي .فلما مرت السنون ولم تأت النتيجة المرجوة تحول الشعار، فبعد أن كان تبشيراً بحلول الأخلاق الاشتراكية الناتجة عن الأوضاع الاشتراكية، أصبحنا نسمع نداء مثل (نحو أخلاق اشتراكية لحراسة منجزاتنا الاشتراكية) أي أن المنجزات بدلاً من أن تنتج الأخلاق أصبحت هي المحتاجة إليها لتحرسها.

وإذن فالنتيجة التي خلصت إليها الماركسية واعترف بها كثير من الماركسيين والمتأثرين بالفكر الماركسي هي أن إزالة الملكية الفردية لا تكفي وحدها لتحقيق المجتمع الإنساني .فما هي إذن الشروط اللازمة لتحقيق هذا المجتمع؟ يقولون – كما رأينا – أنه لا بد من أن تحل الملكية الجماعية محل ملكية الدولة، ولا بد – لذلك من توفير الحرية والمشاركة الجماهيرية.

هب أن كل هذا حدث فهل يكفي للوصول بنا إلى النتيجة التي نريدها؟ ولنتذكر أن النتيجة التي نريدها – كما ذكرت في صدر هذا الحديث – هي أن يصبح الإنسان إنساناً حقيقياً، أو بعبارة أخرى أن يصبح المجتمع مجتمعاً إنسانياً.

ولكن هذا يقودنا إلى سؤال آخر: ما هو الإنسان الحقيقي؟ وقد اضطربت الماركسية في الإجابة على هذا السؤال، فماركس يقول لنا تارة ليس هنالك ما يسمى الجوهر الإنساني، فطبيعة الإنسان إن هي إلا مجموعة علاقاته الاجتماعية .وبما أن هذه العلاقات تختلف حسب نظريته من طور إلى طور تبعاً لاختلاف الأساس الاقتصادي للمجتمع، فالطبيعة الإنسانية إذن ليست ثابتة، فلكل مرحلة اقتصادية إنسانها المختلف كيفاً عن المرحلة السابقة والمرحلة اللاحقة، هذا ما يقتضيه القول بأن طبيعة الإنسان إن هي إلا مجموع علاقاته الاجتماعية .

ولكن ماركس يتحدث عن – لاسيما في مخطوطات عام ١٨٤٤م – عن الإنسان (الحقيقي)، وإدانته للرأسمالية مرتكزة أساساً على أنها مسخت هذا الإنسان، وشوهت حقيقته، وجعلته مغترباً عن ذاته، بل جعلته حيواناً، وهو لن يعود إلا من غربته ولن يستعيد حقيقته إلا في المجتمع الشيوعي. وهو يقول في هذا الصدد في كتابه آنف الذكر» وثالثاً هناك الشيوعية التي تزيل الملكية الفردية إزالة ايجابية فتزيل اغتراب الذات الإنسانية، فهي – لذلك – أن يستعيد الإنسان – من أجل الإنسان – جوهره الحقيقي استعادة حقيقية.

هذه هي الشيوعية بما هي عودة الإنسان عوداً تاماً وواعياً محتفظاً بكل ثراء التطور والسابق للإنسان بما هو كائن اجتماعي، أي كائن إنساني .الشيوعية بما هي الطبيعية المكتملة هي الإنسانية، وبما هي الإنسانية المكتملة فهي الطبيعة .إنها الحل الحقيقي للعداوة بين الإنسان والطبيعة وبين الإنسان والإنسان، إنها الحل الحقيقي للصراع بين الوجود والجوهر، بين الفعل الموضوعي وتأكيد الذات، بين الحرية والضرورة، بين الفرد والنوع .إنها حل معضلة التاريخ وأنها لتعرف أنها هذا الحل. «ويقول بعد قليل من هذا» إن الإزالة الإيجابية للملكية الفردية، واكتساب الحياة الإنسانية، هي إذن لإزالة الإيجابية للاغتراب كله فهي لذلك عودة الإنسان من الدين، ومن الأسرة، ومن الدولة إلى كينونته الإنسانية أي الاجتماعية.

ما هو الإنسان؟ لا مجال هنا ولا داعي للدخول في التفاصيل الشائكة للإجابة على هذا السؤال وفي مناقشة الإجابة الماركسية له .ولذلك فسنكتفي بالقدر المشترك بيننا وبينهم في تصور هذا الإنسان الحقيقي غافلين عن نقاط الاختلاف وعن الاضطراب والتناقض الذي وقعوا فيها .ما هي سمات المجتمع الإنساني الذي يتكون من أناس حقيقيين غير مشوهين ولا مغتربين؟

إنه مجتمع تزول عنه الأنانية والأثرة، فيعمل فيه كل إنسان حسب جهده ليكفي حاجات نفسه وحاجات غيره من غير أن يغلب الأولى على الثانية، ومن غير أن يشعر بالتناقض بينهما .فهو مجتمع تقوم علاقات الناس فيه على الإخاء والحب والتعاون، لا التنافس والتباغض، وهو مجتمع يتسم أفراده بالصدق والأمانة، فلا يكذبون ولا يخونون ولا يسرقون ولا يحاولون الهروب من أنفسهم بالإدمان أو البغاء أو غير ذلك من الملهيات القاتلة، ذلك أهم ما قالته الماركسية، في تصورها للمجتمع الإنساني.

والمجتمع الإنساني شيء أعظم من هذا بكثير، ولكن لنقف عند هذا الحد الذي يمثل جزءاً كبيراً من التصور الماركسي وهو حد نتفق معها فيه وإن كنا نراه ضئيلاً.

كيف نصل إلى هذا المجتمع الإنساني؟

لقد عرفنا من قبل أن مجرد إزالة الملكية الفردية لا توصل ولم توصلنا إليه كما بينت التجربة السوفيتية .فهل تأتي الملكية الجماعية بما عجزت تأتي الملكية الفردية؟ لا دليل نظري على ذلك، ولا واقع عملي يصدقه وهذا بالطبع لا ينفي كون الملكية الجماعية خير من الملكية الدولية.

وماذا عن الحرية؟ إن الحرية بمعنى إتاحة الفرصة للناس كي يعبروا عن آرائهم ولكي يقرروا مصيرهم لا تؤتي هي الأخرى بهذه الثمار، بل غاية ما تفعله هو أن تهيئ المناخ للذين يريدون الوصول إلى ذلك المجتمع .وإذن فهي والأوضاع الاقتصادية المناسبة بمثابة الطريق المعد للسيارات فهو وحده لا يكفي لتحريكها، بل لا بد أن تكون السيارة قادرة على الحركة وأن يكون قائدها راغباً في تحريكها عارفاً بالجهة التي يقصدها، فإذا كانت الجهة معروفة وهي المجتمع الإنساني وإذا كانت الرغبة في السير نحو ذلك المجتمع مفروضا توفرها فقد بقي أن تتوفر المقدرة على الحركة

والسير.

يبدو من كلام البعض أنهم يفترضون أن هذه المقدرة أيضاً معطاة متوفرة فلا حاجة للبحث عنها أنهم يرون أن لكل شعب قيماً موروثة قابلة للتطور، وأنه إذا كان النظام الرأسمالي يضاد القيم القومية بإشاعته للأنانية والاستغلال، وإذا كانت الديكتاتورية تفرض على الشعب قيما لا يقبلها فإن - الشعب هو الذي سيصوغ حياته في دولته الديمقراطية - وما دام الشعب هو صاحب الكلمة فإنه سيفرض قيمه في النظام الاشتراكي لا خوف على مصير الشعب ما دام مصيره بيده.

ولكن هذه الإجابة تشير إلى أسئلة كثيرة تكشف عن قصورها أن هذا كلام حسن إذا افترضنا أن لكل شعب قيماً إنسانية كتلك التي قلنا إن المجتمع الإنساني يتطلبها، وأن كل مشكلة الشعوب أن أوضاعها الاقتصادية القائمة على الاستغلال وأوضاعها السياسة القائمة على الديكتاتورية كان تعوقها عن صياغة حياتها وفق تلك القيم، فإذا زالت هذه العوائق بالاشتراكية والديمقراطية تمكن الشعب من إبراز قيمه الحبيسة.

فهل هذه صورة واقعية؟ إذا سلم لنا صاحب هذا الرأي بأن بعض الشعوب ليس لها مثل هذه القيم، فالسؤال هو: كيف نجعلها تلتزم بها؟ أيكفي أن نصدر لهم الأوامر تلو الأوامر قائلين كونوا خيرين احترموا الفرد الإنساني كونوا أريحيين ولا تكونوا أنانيين، كونوا أمناء ولا تكونوا خونة. ..الخ.

بالطبع إن هذا لا يكفي - فماذا تفعل وقد أثبتت التجربة أن تغيير الواقع الاقتصادي أيضاً لا يكفي - لجعل الشعوب تلتزم مثل هذه القيم، بل وقد أثبتت لنا التجربة أن الواقع الاقتصادي أو السياسي هو نفسه بحاجة إلى قيم إنسانية تحرسه فأين تجد مثل هذه القيم؟

إن سؤالنا هذا ليس الجاهل بالقيم فنحن قد اتفقنا على أن المجتمع يكون أكثر إنسانية إذا ما التزم بصدق القول، والأمانة في المعاملة، وإذا ما قامت على أن المجتمع يكون أكثر إنسانية إذا ما التزم بصدق القول، والأمانة في المعاملة، وإذا ما قامت علاقتهم على الحب والأخوة والإيثار إننا نعرف هذا والذي نبحث عنه هو سبب إذا ما

وفرناه كان التزامنا بهذه القيم نتيجة طبيعية له، وقد عرفنا الوضع الاقتصادي ليس هو هذا السبب فما هو إذن؟ تلك هي المشكلة البشرية اليوم، والحل الحاسم الجلي لها إنما في الإسلام لماذا؟

فيما يلي أحاول أن أجيب بإيجاز شديد عن هذا السؤال أن منبع القيم وأساسها المتين إنما هو الفطرة فالإنسان مفطور فطره الله على الاعتراف بحسن الشكر والصدق والأمانة والكرم، وقبح الجحود والكذب والخيانة والبخل.

لكن الفطرة وحدها لا تكفي لأنها قد تنحرف وقد تضعف، وقد تقوى عليها الإغراءات فلا بد من فكرة تؤيد هذه الفطرة وتكملها وتشد من أزرها، فإن اهتدى الإنسان إلى مثل هذه الفكرة قوي على الالتزام بتلك المبادئ الخلقية، وإلا فإن مقتضيات فكرته قد تتصادم مع دواعي فطرته فيحدث الانفصام وتتعقد المشاكل النفسية والخارجية كما هو حادث في عالم اليوم ثم يأتي دور البيئة: التربية، والأوضاع الاقتصادية والنظم السياسية والعلاقات بين الجنسين، والصلات الاجتماعية الخ كل هذه إذا كانت متمشية مع الفطرة سهلت على الإنسان أن يعيش إنساناً متوافق الشخصية، وإلا عاش في فتنة نتيجة التنازع بين دواعي فطرته ومقتضيات فكرته، وواقع بيئته.

في مجال أن الإنسان مفطور على الخير يقول الله تعالى في محكم التنزيل ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠]، ونفس وما سواها فالنفس أذن أساساً سوية خيرة فلا هي محايدة بين الخير والشر منتظرة لأن تكفيها البيئة والأفكار كيف شاءت ولا هي مريدة للشر بطبيعتها.

فألهمها فجورها وتقواها عرفها ما يفسد تلك الفطرة السوية وما يقيها ويحافظ عليها، قد أفلح فصار إنساناً حقيقياً من نمى هذه الفطرة السوية وأدام تنقيتها مما يعلق بها من شوائب، وقد خاب فصار من الأنعام بل أضل من كبت هذه الفطرة وحرمها من النمو والازدهار.

بالإضافة إلى كلمة (سواها) التي تدل دلالة صريحة على أصالة الخير في الإنسان، فإن لكلمات – الفجور والتقوى والتزكية والدس – أيضاً تستلزم هذه النتيجة. فالفجور هو الإفساد والعدول والميل عن الأمر الطبيعي والتقوى من الوقاية والتزكية

تعني النمو وتعني التنظيف والتنقية، والدس يعني الإخفاء والدفن .فالذي يفجر ويفسد، والذي يحمي ويحافظ عليه، والذي يزكو وينمو والذي يدس فيمنع من النمو إنما هو الشيء الصالح السوي المستقيم .ومعنى هذه الآية يزيده بياناً قول الرسول ﷺ: **(كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء).**

فالإنسان يولد سالماً صحيحاً غير مشوه أو منحرف كما تولد البهيمة سليمة من العيوب هي فطرته وهي دين الإسلام أو التوحيد والتشويه والانحراف إنما يأتيه من الخارج من الأفكار والعقائد والتربية المنحرفة.

وفي القرآن والسنة دلائل كثيرة على هذا المعنى الذي أوجزناه لأنه لا مجال هنا للإفاضة فيه، فالإسلام إذن لا يتلجلج تلجلج الماركسية في القول بأن للإنسان فطرة وإن هذه الفطرة خيرة.

لنعد سؤالنا مرة أخرى لتتضح الإجابة عليه: ما هو الشرط أو السبب الذي إذا ما حققناه كان التزاما بالإيثار والصدق والأمانة وسائر القيم نتيجة طبيعية له؟

أول ما قلناه في الإجابة على هذا السؤال هو حسن هذه القيم والميل إليها أمر فطر الله النفوس عليه فهي ليست بحاجة إلى عامل خارجي يغرسه فيها .

ولكننا قلنا إن هذه الفطرة قد تفسد وقد تنحرف فهي محتاجة إلى عامل يقويها وينمي بذرة الخير فيها ويكملها وقلنا إن هذا العامل هو الفكرة، هو معرفة حقائق من شأن العلم بها والإيمان بصحتها أن يفجر الإنسان طاقات الخير .فما هي هذه الحقائق؟ أهي حقائق الفيزياء، أم الأحياء أهي حقائق التاريخ أم الجغرافيا أم الاجتماع أهي الأدب أم الفلسفة؟ إن الذي يتحدثون عن أهمية الثقافة التي تهذب الإنسان يتركون الأمر غامضاً فيوهمون السامع بأن مجرد الاستزادة من هذه العلوم والآداب يرقي الإنسان ويهذبه وهو أمر يكذبه الواقع ولا يدل عليه النظر.

مرة أخرى ما هي هذه الحقائق التي تثمر معرفتها والإيمان بها سلوكاً إنسانياً ولماذا تفعل هذا؟ أنها حقيقة واحدة وإنها لأكبر حقيقة عن الكون والإنسان أنها العلم اليقيني والإيمان بأن الإنسان وسائر الكون مخلوق لإله واحد هو الذي أوجده وهو الذي يرعاه ويحفظه ويصرفه أمره وإليها مصيره.

ما الدليل على هذه الحقيقة؟ ولما يكون لها هذا الأثر؟ أما الدليل بل البرهان المنطقي الجازم على صحتها فهو ميسور وأن كنت لا أستطيع الدخول في تفاصيله هنا، ولكم هذه الآية تكفينا هذا المجال: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥- ٣٦]، فكان هذا الدليل القرآني يقول للإنسان تأمل نفسك – ألست تعرف أنك كفرد حادث وجدت بعد أن لم تكن، وإنك كنوع حادث أيضاً ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]. فهل الذي أوجدك هو العدم المحض ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ مستحيل أم أنك أن الذي أوجدت نفسك؟ وهذا مستحيل عقلاً فإن الأثر لا يكون سبباً لنفسه فالشيء لكي يكون مؤثراً لا بد أن يكون موجوداً ولكنه إذا كان موجوداً فهو غير محتاج إلى ما يوجده.

وهناك في الوجود أشياء غيرك يقال عنها ما قيل عنك، فهي حادثة ولم توجد نفسها ولم توجد من غير شيء فهل أنت الذي أوجدتها؟ كلا وإذن فلا بد لك ولها من موجد، فمن هو هذا الموجد؟ أن معظم القرآن الكريم يمكن أن يعتبر تفصيلاً للإجابة على هذا السؤال وكل مفهوم لهذا الموجود يخالف القرآن كان يقال أنه النجوم أو الكواكب أو يقال إنه المادة الأولية ويمكن إقامة الدليل العقلي على قصوره وتناقضه وعدم إيفائه بالمطلوب. إن القرآن الكريم يقدم الأدلة على أن هذا الخالق لا بد أن يكون أزلياً لا بداية له أبدياً لا نهاية له – هو الأول والآخر – ويمكننا أن نثبت أن المادة في أي شكل من أشكالها لا يمكن أن تكون كذلك فهي بالصورة حادثة فإذا كانت حادثة فيستحيل أن تكون موجودة وخالقة، بل هي مفتقرة إلى من يوجدها ويقيمها والقرآن يقيم الأدلة العقلية على أن هذا الخالق لا بد أن يكون واحداً ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ولا بد أن يكون حياً عالماً مريداً حكيماً رحيماً إلى آخر الصفات الإلهية المعروفة، والمادة لا يمكن أن تكون كذلك فيستحيل إذاً أن تكون الخالق الذي نبحث عنه.

يؤسفني أنني هنا إنما أقرر كل هذا مجرد تقرير، وقد حاولت في بحث آخر أعده للنشر أن أقيم الأدلة العقلية القرآنية على كل هذا الذي قررت هنا.

إذا اقتنعنا بالأدلة العقلية على أن الكون – بما فيه الإنسان – لا بد أن يكون له خالق بالصفات التي ذكرها القرآن، فننتقل الآن إلى السؤال الثاني: لماذا يكون للإيمان بهذه الحقيقية تلك النتائج التي ذكرناها؟

إن تأثير الحقيقة التي يدركها الإنسان على سلوكه يعتمد على طبيعة تلك الحقيقة ومدى صلتها بالإنسان فالذي يستيقن أن العمارة التي يسكنها قد اشتعلت فيها النار وأنها سائرة نحو الغرفة التي يسكنها يعلم كل ما في وسعه ليبارح هذه الغرفة والتاجر الذي يسعى وراء الربح، ويعلم أن السلعة الفلانية الغالية في السودان رخيصة في ليبيا يحاول أن يشتريها من هنا، ويوصلها هنالك ولكن علمه بأن في ليبيا مؤتمراً يناقش فيه شيء اسمه النظرية الثالثة قد لا يثير اهتمامه فلا يؤثر في سلوكه. وواضح من طبيعة الحقيقة القائلة إن لا إله إلا الله، إنها أهم حقيقة وأكبرها بالنسبة للإنسان .فلا جرم أن يكون لها أكبر أثر وأحسنه على حياة من يدركها ويقر بصحتها وذلك لسببين:

أولهما: إذا كان للإنسان جوهراً إنسانياً هو الذي يمثل حقيقته الفطرية، وكان الإنسان مخلوقاً لإله واحد هو الذي يحفظه ويرعاه وإليه مصيره فماذا يكون هذا الجوهر الإنساني إن لم تكن هذه الحقيقة؟ فالذي يدرك هذه الحقيقة يكون قد أدرك وعرض أهم شيء يتعلق به وبالكون من حوله والذي يدرك أهم حقيقة تتعلق بذاته لا يمكن أن يكون ضالا ولا مغترباً عن نفسه ولا يكون قلقاً، فالعبودية عبودية الإنسان لله هي التي تمثل جوهره الإنساني، فهي بالتالي أساس كل قيمه الإنسانية من حب وإخاء وإيثار وصدق وأمانة وعفة وعدالة الخ، وهي أساس سعادته النفسية ولهذا فإن القرآن الكريم دائماً يربط بين هذه القيم وبين الإيمان بالله تعالى.

ففي مجال الإخاء يقول: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]، وفي مجال الخلق يقول: ﴿نٓ ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 1-4]، ويقول: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: 7-8]، وفي مجال الراحة النفسية يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

وثانيهما: أن فكرة الإيمان بالله تتناقض مع السلوك المنحرف فإذا كان الملحد لا يجد في فكرته التي تقول: له إنه جاء للوجود مصادفة وأنه سائر إلى غير غاية، وإن حياته هذه هي النهاية إذا كان لا يجد في هذه الفكرة دعماً ولا مبرراً لسلوك خلقي، يكفي عن الانغماس في الشهوات أو يدعوه للإيثار، فإن المؤمن كما قلنا إنسان تتوافر فيه مقتضيات فكره مع دواعي فطرته . فهو يؤمن بإله ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: 255]، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: 19]، إله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي – إله حكيم لا يترك الناس، عادل لا يسوي بين المحسن والمسيء بل يجازي كلاً بما يناسب عمله وإذا كان المشاهد أن هذه الدار من دار آخرة يلقى فيها المحسن جزاء إحسانه ويعاقب فيها المسيء على إساءته ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115]، ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: 35 – 36]، فالإيمان بالدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب أمر يستلزمه الإيمان بالله تعالى ولا يكتمل إلا به.

فإذا حدثت المؤمن نفسه في حالة ضعف بارتكاب إثم من الآثام التي تتناقض مع إنسانيته والتي حذره ربه من الوقوع فيها فإنه يذكر هذه الحقائق فيكف نفسه .فإذا اشتد ضعفه فإنه قد ينساها فيقع في الذنب ولكنه لا يلبث أن يقف فيذكر هذه الحقائق ويندم على ما فعل.. ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: 17]، ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201].

لقد كنا نحاول حتى الآن أن نثبت بالنظر العقلي وحده أن الفكرة الإسلامية حرية بطبعها أن تثمر في المؤمن بها قيماً إنسانية ولكن الدليل النظري ليس هو شاهدنا الوحيد على ما نقول، بل إن الواقع العملي ليصدق هذا الاستنتاج النظري ويؤيده أيما تأييد .فالواقع التاريخي يحدثنا أن الجماعة التي التفت حول الرسول ﷺ بمكة والتي نصرته بالمدينة تحولت بعد إيمانها بالله والدار الآخرة تحولا عجيباً .فالعرب الذين كانوا يعيشون في جاهلية غلاظ الأكباد جفاة الطباع يئدون البنات ويزنون بغير حرج، ويجمعون في الزواج بين الأخوات، ويعاقرون الخمر، ويلعبون الميسر، ويشنون حروب العدوان، هؤلاء ما إن صدقوا في إيمانهم بالله وأيقنوا بالدار الآخرة إلا وتركوا كل هذه الموبقات، وصاروا مثالا للمجتمع الإنساني، مجتمع الأخوة والحب والشجاعة والعفة والرحمة والتوقير والإيثار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل الدائب والقناعة والطمأنينة النفسية .ذلكم واقع الفكرة التاريخ .ولكن واقعها الماثل أمامنا فيه أيضاً الشهادة على ما نقول .ولبيان ذلك يمكن أن نقوم بتجربة نقارن فيها "نوع" الإنسان الذي تصنعه الماركسية والذي تصنعه الأفكار السائدة في العالم الرأسمالي .وذلك بأن نأخذ عدداً من المسلمين الملتزمين بأركان الإسلام الخمسة الواعين بفكرتهم الداعين لها، نأخذهم بعض النظر عن موقعهم الجغرافي، أو واقعهم الاقتصادي، أو نظامهم السياسي، أو مستواهم العلمي، أو رباطهما لقومي، ونأخذ عدداً مماثلاً من قادة الفكر الرأسمالي، وعدداً مماثلاً من أكثر الماركسيين فهما لفكرتهم والتزاماً بها وعيشاً في واقعها ونقارن بين هذه المجموعات، ولئلا نكون مجحفين فليكن مقياس المقارنة هو مدى قربهم أو بعدهم من الإنسان الحقيقي كما تصوره هم .أو كما تصورته الماركسية كما سبق شرحنا لها. إنني واثق من أن نتيجة المقارنة لا بد أن تكشف أن أقرب الناس إلى هذا المثال الإنساني الذي تصوره الماركسيون هم المسلمون .قلنا إن منبع القيم وأساسها هو فطرة الله التي فطر الناس عليها .وأن الأفكار أو فلسفات الحياة تأتي مؤيدة لهذه الفطرة فتقويها وتكملها أو تضادها وتضعفها .وأن البيئة بما فيها من تربة وأوضاع اقتصادية ونظم سياسية وتشريعات قانونية، وعلاقات اجتماعية إلخ، تأتي مؤيدة للفطرة السوية والفكرة القويمة فتكمل للإنسان العوامل المحققة لإنسانيته، أو تأتي مضادة لفطرته وفكرته، فيعيش في مجتمع الفتنة ويكون رقيه الإنساني بقدر التزامه بفكره ومقاومته لأوضاع الفتنة المضادة لها .أي أن البيئة وإن كانت تساعد

الإنسان في استكمال إنسانيته إن كانت موافقة لها، فإنها لا تسلبه بالضرورة هذه الإنسانية إذا كانت مضادة لها، بل إنه يستطيع أن يحتفظ بإنسانيته رغم وجوده في مجتمع الاغتراب، ولا مجال هنا لإثبات موافقة الهدى الإسلامي في التربية والاقتصاد والسياسة والقانون الخ للفطرة الإنسانية . والتوسع فيه مجال الأخوة المتخصصين في هذه الفروع المدركين لفلسفة الإسلام العامة في الحياة كما حاولنا أن نرسم الخطوط العريضة لمعالمها.

أود أن اختم هذه الكلمة ببعض الملاحظات في المقارنة بين الإسلام والنظريات الأخرى، فالماركسية تعتبر الملكية الفردية السبب الأساسي لاغتراب الإنسان عن ذاته ولكنها تعتبر هذه الملكية الفردية أمراً محتوماً على الإنسان في الفترة ما بين المشاعية البدائية والشيوعية الحقيقية، وأذن فاغتراب الإنسان أم مفروض عليه غير خاضع لإرادته، ولا أمل له في وجدان نفسه إلا حين تتهيأ الظروف التاريخية لذلك.

أما في الإسلام فإن الإنسان يولد حين يولد إنساناً حقيقياً وإن حادت به عن هذه الفطرة أفكار نشأ عليها، أو بيئة نشأ فيها فهو قادر بإرادته على اعتناق الفكرة الصحيحة التي تعيده ذاته، فالاغتراب ليس أمراً مفروضاً على الإنسان.

وبينما تعتبر الماركسية الأوضاع الاقتصادية شرطاً ضرورياً لاكتشاف الإنسان لذاته وعودته من الاغتراب فإن الإسلام يعتبره وسائر المؤسسات الاجتماعية عوامل مساعدة لا شروطاً ضرورية.

وإذا كان الشائع في فلسفات اليوم وفي افتراضات علمائه هو مقابلة الطبيعة بما وراءها أو الفيزية بالميتافيزية فالميتافيزية عندهم إنما يتحدث عنها الناس بمجرد التأمل المجرد المنفصم عن حقائق الطبيعية، والطبيعة ينبغي لكي نتعامل معها تعاملاً علمياً أن نغض النظر عن أصلها وسبب وجودها وأن نأخذها كما هي . فالإسلام كما قلت لا يعرف هذه الانفصام المفتعل ذي النتائج البالغة الضرر .أن حقيقة ما وراء الطبيعة إنما يتوصل إليها بالتأمل في الطبيعة نفسها.

والصفة المشتركة بين كل مظاهر الطبيعة هو كونها حادثة وإذن فإن الطبيعة نفسها تشير إلى ما وراءها، تقول إنها ما دامت حادثة فلا بد لها من موجد أزلي غير حادث، وطبيعتها – كأثر من آثار هذا الخالق- تدل على صفاته، وتجاهل هذه الحقيقة التي تدل عليها الطبيعة نفسها أمر تعسفي لا يقتضيه علم ولا عقل.

ثم إذا كانت الطبيعة تدل على أن لها خالقاً وهو الذي أوجدها وهو الذي بيده أمرها فكيف يمكن أن نفترضها مستقلة عن هذا الخالق؟

ليس صحيحاً إذن ما يقوله الدكتور عصمت سيف الدولة في كتابه آنف الذكر من أن لدى كل إنسان (قوة ما) مهما يكن اسمها، فهو يسند إليها ما لا يعرف سببه . وهو يؤمن بصحة إسناده إيماناً غيبياً لأنه لا يستطيع أن يثبته علمياً. وفي مشكلة الألوهية بالذات، ليس الملحدون أقل إيماناً من غيرهم، غيرهم يؤمن بأن الله موجود وهم مؤمنون (بأن الله غير موجود) وكلهم عاجزون عن إثبات إيمانهم بالاختيار والتجربة العلمية وكلهم فيما يؤمنون متدينون.

هذا كلام غاص بالأخطاء لكنني سأكتفي بالرد على ما يتعلق بموضوعنا هنا.

أولاً: لا تناقض في الإسلام بين عزو الأثر إلى سببه الطبيعي المباشر وعزوه إلى قوة الله تعالى، لا تناقض في قولي إن فلان قتل فلاناً فلا بد أن يعاقب على فعله، وقولي إنه إنما مات لأن أجله قد تم وكان مقدراً له أن يموت، فالله تعالى خالق الأسباب وجاعلها أسباباً لآثارها، والله تعالى إنما يقدر الأشياء حين يقدرها بأسبابها، فنحن المسلمين لا ننسب إلى الله تعالى فقط ما لا نعرف أسبابه كما ظن كثير من المفكرين الغربيين الذين تأثر بهم الدكتور عصمت، بل ننسب إليه ما نعرف أسبابه وما لا نعرف أسبابه.

ثانياً: لا تناقض كما قلت بين الإيمان الغيبي والإثبات العملي إذا كان الحس هو الذي يدل على الحقيقة الغيبية كأثر من آثارها .واستنتاج خصائص الشيء من آثاره منهج علمي معترف به .فالعلماء يتحدثون عن الذرة وعن خصائصها ولم يرها منهم أحد وإنما يستنتجون خصائصها من آثارها.

ثالثاً: الإثبات العلمي ليس محصوراً في الاختبار والتجربة بل إن كثيراً من حقائق العلم إنما تستنبط استنباطاً منطقياً عقلياً من حقائق أخرى .وكذلك الأمر بالنسبة لوجود الخالق .كما قلت لا يعرف هذا الانفصام المفتعل ذي النتائج البالغة الضرر .أن حقيقة ما وراء الطبيعة إنما يتوصل إليها بالتأمل في الطبيعة نفسها.

والصفة المشتركة بين كل مظاهر الطبيعة هو كونها حادثة، وأذن فإن الطبيعة نفسها تشير إلى ما وراءها، تقول إنها مادامت حادثة فلا بد لها من موجد أزلي غير

حادث، وطبيعتها – كاثر من آثار الخالق – تدل على صفاته، وتجاهل هذه الحقيقة التي تدل عليها الطبيعة نفسها أمر تعسفي لا يقتضيه علم ولا عقل.

ثم إذا كانت الطبيعة تدل على أن لها خالقاً أوجدها، وهو الذي بيده أمرها فكيف يمكن أن نفترضها مستقلة عن هذا الخالق؟

رابعاً: التقابل بين العلم والإيمان ليس أمراً ضرورياً فمن الإيمان ما يقوم على علم يقيني وهو الإيمان الصحيح الذي يدعو إليه القرآن، ومنه ما يقوم على مجرد الهوى والخرافة والأباطيل وهو إيمان يذمه القرآن الإيمان علم معه إقرار وهو يستلزم عملاً.

خامساً: وأما قوله: وقد انفصلت الميتافيزية عن العلم عندما قبل الناس أن يتعاملوا مع الوجود - كما هو - وأن يحاولوا اكتشاف قوانين حركته، ووجدوا في هذا ما يكفيهم لتحقيق ما يريدونه في المستقبل بدون حاجة إلى البحث في الماضي عن القوة التي حركت الوجود أولاً، وكان هذا الانفصال مقدمة لانطلاق العلم إلى مزيد من المعرفة فهو أيضاً مليء بالأخطاء أصحيح أن الناس وجدوا في هذا النهج ما يكفيهم لتحقيق ما يريدونه في المستقبل؟ إن هذا كلام غامض فما هو هذا الذي أراده الناس ووجدوه؟ ومن هم هؤلاء الناس الذين وجدوا ما يريدون؟ والعلم بين أيدينا غاص بالمشاكل التي تفتقر إلى حلول والبشر الماثلون أمامنا تكاد أن تقتل الكثيرين منهم الحيرة والاضطراب! هذا إلى أن الله في التصور الإسلامي لا يقتصر عمله على تحريك العالم تلك الحركة الأولى بل هو الذي يحفظه ويرعاه ويصرف أمره وإليه مصيره ما تسقط ورقة إلا يعلمها. ..

وبعد، فإن ما بيناه من ضرورة التلازم النظري والواقعي بين الإيمان بالله وتحقيق المجتمع الإنساني ليدل دلالة قاطعة على عقم الرأي القائل بإمكانية التعامل مع الكون كما لو كان مستقلاً عن القوة التي خلقته.

سادساً: وإذا كان البحث العلمي لا يعني أكثر من البحث عن أسباب الظواهر، والقوانين التي تحكم أفرادها فليت شعري لماذا يستثنى من هذه الأسباب سببها الأول والأكبر، الذي هو علة وجوده، وسبب فعاليتها؟

إنه مجرد التحكم الناتج عن التصور الغربي الخاطئ لطبيعة الصلة بين العلم والدين.

***

الخمر والعدوان

شبكة المشكاة الإسلامية السبت ١٩ صفر ١٤٢٧ هـ ١٨ مارس ٢٠٠٦ م

سأله صاحبه: ما رأيك في القول بأن شرب الخمر ينبغي أن لا يعد جريمة يعاقب عليها القانون إلا إذا ارتبط بعدوان.

فأجابه: هذا كلام من لا عقل له.

سأله: لماذا؟

فأجاب: وهل يعاقب القانون على العدوان إذا لم يكن مرتبطاً بخمر؟

سأله: ماذا تعني؟

فأجاب: إذا ضربك إنسان بعصا فهشم أسنانك هل يعد القانون فعله عدواناً يعاقبه عليه أم أنه يشترط فيه أن يكون مخموراً؟

قال صاحبه: إن تهشيم الأسنان عدوان سواء كان المعتدي مخموراً أو غير مخمور؟

فأجابه: ما دام القانون يعاقب المعتدي مخموراً كان أو غير مخمور، فإنه لا تكون لشرب الخمر علاقة بالعقوبة. فصاحب القول الذي رويته عنه يريد أن يقول للناس إنه لا بأس عليكم من أن تشربوا الخمر، لكن احذروا إذا شربتم أن تسكروا، لأنكم إن سكرتم فربما اعتديتم وإذا اعتديتم فربما عوقبتم.

سأله: لكن بعض البلاد التي لا تحرم شرب الخمر تعاقب السائق السكران إذا ارتكب حادثا ما لا تعاقب غير السكران.

فأجاب: ذلك لأنها وإن لم تحرم شرب الخمر تحرم القيادة والسائق سكران سواء ارتكب حادثا أو لم يرتكب. إذا رآك شرطي الحركة وأنت تقود بطريقة تجعله يظن أنك سكران فإن من حقه أن يوقفك ويختبرك فإذا وجدك ثملا كان من حقه أن يتهمك وأن تعاقب سواء اعتديت أم لم تعتد. أما ما رويته عن صاحبك فإنه يدل على أنه لا يرى بأسا بالسكر نفسه، وإنما البأس بالاعتداء، أي أنه إذا ثمل ولم يعتد فلا يكون قد ارتكب مخالفة قانونية، نعم أرى الفرق، قال صاحبه: ثم إن الله تعالى لم يحرم الخمر لمجرد أنها تقود إلى الاعتداء الحسي، وإنما قال في تعليل تحريمها ومعاقبة شاربها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

إلا رحم الله ناشر السنة

شبكة المشكاة الإسلامية
الأربعاء ٧ شوال ١٤٢٨هـ الموافق ١٧ أكتوبر ٢٠٠٧م

كان نعم الهدية التي أهداها الله تعالى للأمة السودانية .وهل رأيت من هدية لأمة أعظم من أن يشرف الله أحد أبنائها فيجعله داعية لها إلى السنة المحمدية عقيدة وعبادة وسلوكا؟ وكما كرم الله الأمة بأن جعل الهدية من أبنائها الهداة إلى سنة نبيه، فقد أقر عين الشيخ بأن أراه ثمرات جهوده وإخوانه الرواد في انتشار دعوتهم في ربوع السودان وفي مؤسسات البلاد التعليمية وغير التعليمية. كيف لا تقر عينه وهو يذكر كيف كان حالهم قبل أكثر من خمسين عاما حين أسسوا جماعتهم، وحالهم حين وفاته رحمه الله. كانوا قلة من الرجال يضطهدون ويشتمون بل ويضربون وهم الآن يملكون أكثر من أربعين مسجدًا كما قيل لي. وأما المساجد التي ينادى فيها بدعوة التوحيد فتبلغ المئات .وإذا كان الشيطان قد أثار الفتنة في جماعته الخاصة فشقها، فإن عزاء الشيخ أن القائمين بتلك الدعوة لم يعودوا محصورين في تلك الجماعة الخاصة، بل إنه يقوم بها الآن أعداد كبيرة من الرجال والنساء من الأفراد والجماعات التي لا تنتمي رسميًا لجماعة أنصار السنة المحمدية.

ولقد كان لجماعته تأثير حسن حتى على الجماعات الإسلامية السياسية، بل وعلى الجماعات الصوفية.

ولا بد أن عين الشيخ قرت بنعمة أخرى وحمد ربه عليها هي نعمة القبول الذي لقيه شخصيا لا في داخل بلده، بل في كثير من بلاد العالم الإسلامي .لقي في هذه البلاد أكابر العلماء وكثيرا من الوجهاء الذين كانوا يثقون به ويحترمونه ويظنون به خيرا كثيرا، كان الشيخ عبد العزيزبن باز رحمه الله كلما لقيته بعد عودة من سفر إلى السودان يسألني أول ما يسألني عن شيخ الهدية، وكانت تزكياته التي بلغت المئات لطلاب العلم وطلاب المساعدة لا تحتاج عند من يعرفونها إلى تزكية بعدها.

سيعجب البعض ويقولون إنك تكتب عن شيخ الهدية وعن جماعة أنصار السنة كأنك عضو فيها، وأقول نعم إنني والله لعضو فيها إذا كانت العضوية هي عضوية

الانتساب إلى الدعوة السنية لا عضوية التسجيل في وثيقة حزبية .شرفني الله بالانضمام إلى هذه الجماعة في أول نشأتها بمدينة بورتسودان وأنا في مقتبل الشباب، وعرفت الشيخ الهدية منذ ذلك الوقت لأنه كان كثيرا ما يزور إخوانه ببورتسودان .

كان والداي من طائفة الختمية فكنت أناقشهما برفق وأدب حتى هداهما الله، فكانت الوالدة إذا زل لسانها دعت أو استغاثت بغير الله استدركت فاستغفرت .قلت لها ذات يوم بعد أن هداها الله تعالى إنني تكلمت معك كثيرا فما الذي كان سبب إقناعك من كل ما قلت، فذكرت الحديث الصحيح الذي فيه **(يافاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئا)**. وقالت إنها قالت لنفسها: «ديل كلهن نحن متعقلين بيهن عشان فاطني، وفاطني يقولوا ليها كدي؟».

أما الوالد فحكى لي عنه الشيخ الهدية رحمهما الله قصة طريفة ما كنت أعرفها . قال إن خصومهم ببورتسودان كانوا يسمونهم أولاد الكلب، وقال إن بعض هؤلاء كانوا من جلساء شيخ إدريس.

فلما هداه الله تعالى قال لهم ذات يوم وكانت في الوالد كما في شيخ الهدية دعابة: «إنتو عارفين؟ أنا البارح بقيت مع أولاد الكلب».

أما الفائدة الكبرى الثالثة التي استفدتها من صلتي بجماعة أنصار السنة فهي أنني عرفت عن طريقهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم فصحبتهما إلى يومي هذا.

وكنت كثيرا ما أذكر شيخ الإسلام ابن تيمية لزملائي حتي إن أحدهم ـ صديقنا العزير محمود برات عليه رحمه الله ـ قال إنه مر عليه زمان كان يظن فيه أن ابن تيمية شيخ ببورتسودان!

أنتهز هذه العلاقة الشخصية بشيخنا الهدية وبالجماعة لأبدي لهم رأيا أرجو أن يجدوه مفيدا.

بما أن جماعة أنصار السنة المحمدية إنما قامت في الأساس لرد الناس إلى العقيدة الصحيحة، وتخليصهم من كل أنواع الشرك، ثم ردهم ردا عاما إلى الاستمسك بالسنة.

وبما أنها قد نجحت في تحقيق هدفها هذا نجاحا كبيرًا بعون من الله وتوفيق، فكان من رأيي أن لا تقلد الأحزاب السياسية أو الجاعمات الإسلامية السياسية في طريقة عملها.

لا داعي للتوسع في العضوية الرسمية، وما يتبع ذلك من اجتماعات وتصويت يشترك فيه العالم والجاهل، ولا داعي لإلزام برأي ولا سيما في الأمور السياسية التي قد يختلف فيها الناس مع صحة عقائدهم.

أرى للجماعة أن تكون في أساسها جماعة صفوة من العلماء هم الذين يحلون ويعقدون، بعد أن يستشيروا ويستمعوا إلى من يشير .وأرى لها أن تعد كل من قبل دعوتها أخا لها أيا كان موضعه، وأن لا تلزم أحدًا من المنتسبين إليها برأي سياسي.

وهذا يعني أن لا تكون الجماعة باعتبار صفوتها التي ذكرناها جماعة سياسية، وأن لا تحرم على أحد من المنتسبين إليها الخوض في السياسة ما دام لا يتكلم باسمها وما دام لا يخالف في مواقفه قاعدة شرعية ولا سيما ما كان متصلاً منها بأصول الإيمان.

وهــذا لا يمنع أيضا من أن تصدر الجماعة بيانات تعليمية توضح للناس فيهــا حكم الشرع في القضايا التي تتعلق بالحكم ولا سيما ما كان منها خطيراً يمس العقيدة.

الذي أريده للجماعة أن تحذر أشد الحذر من أن تتحول إلى جماعة من العوام، فإن ذلك أضر ببعض الجماعات ضررًا بليغًا.

وبما أنه من مكملات الدعوة أن تكون للجماعة مؤسسات تعبدية وتعليمية وإعلامية فلتفتح باب المشاركة فيها لكل من انتسب إليها انتسابا وكان من المؤمنين بدعوتها.

هذا وفي الأمر تفاصيل لا بد من التعرض لها إذا ما قبل هذا الرأي قبولاً عاماً، قبولا أرجو أن يساعد في لم شمل الجماعة، بل وأن تنضم إليها جماعات أخرى منهجها كمنهجها.

* * *

الصلة بين ظاهر الإنسان وباطنه

منار السبيل. السنة الثانية
محرم ١٤١٤هـ يوليو ١٩٩٣ العدد ١ صفحة ٣

الحمد لله والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وبعد:

جعل الله سبحانه وتعالى لكل إنسان باطناً وظاهراً..

باطنه هو قلبه وعقله، وما في هذا القلب من معتقدات وتصورات، وما تنتجه هذه المعتقدات والتصورات من مشاعر وميول ورغبات.

وظاهره هو هذا الجسم وتصرفاته.

لكن ظاهر الإنسان وباطنه ليسا عالمين مستقلين مفترقين، بل إن بينهما اتصالا وثيقاً، وتأثيراً متبادلاً.

فالباطن هو الأساس، وهو المحرك للظاهر والمتحكم في تصرفاته، وهو الذي يتقرر به صلاح الإنسان وفساده، وجزاؤه عند الله أو عقابه، لأن الباطن هو المقرر.

وأما الظاهر فإنما هو منفذ ومعبر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ [الأنفال: ٧٠].

﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

(إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى).

لكن حكمة الله اقتضت أن لا يكون هذا الظاهر منفعلاً فحسب، بل قد يكون أيضاً فاعلاً. فهو حين ينفذ ويعبر تعود تصرفاته هذه فتؤثر على الباطن، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ولذلك فإذا كان الباطن منطوياً على خير عام لا يعرف تفاصيله.

فلا يفلح في أن يرسل إلى الظاهر رسالة واضحة به، أو يرسل إليه رسالة لا تتناسب مع الخير العام الذي هو مجبول عليه، فإن الظاهر قد يكون على حال تناقض الباطن، ثم تعود فتؤثر فيه تأثيراً سيئاً.

ولهذا فإن صلاح الإنسان لا يكتمل إلا بقلب مريد للخير، متصور له.

فالإرادة وحدها لا تجدي كما أن التصور وحده لا يجدي.

قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ١-٢].

فقال العلماء العارفون: إن حسن العمل لا يتم إلا بشرطي الإخلاص والصواب.

ثم قالوا: الإخلاص أن يكون مبتغى به وجه الله، والصواب أن يكون على سنة رسول الله ﷺ.

وهذا الذي قالوه مأخوذ من عدد من نصوص الكتاب والسنة.

فالله تعالى يقول مثلاً: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

فجعل شرط سعي الآخرة المشكور إرادةً للآخرة وإيماناً.

وهما مسألتان قلبيتان، وسعياً مناسباً للآخرة وهو عمل ظاهر، أو على الأقل لا بد فيه من عمل ظاهر.

* * *

بين الفردية والشورى

مجلة منار السبيل السنة الأولى العدد العاشر شوال ١٤١٣هـ الموافق أبريل ١٩٩٣م

كان الكاتب الأمريكي هوارد فاست Hoard Fast شيوعياً فترك الشيوعية وكتب في نقدها كتاباً أسماه Naked God أو المعبود العريان. ذكر فيه أن ستالين لم يكن فرداً يحكم روسيا فحسب لكنه كان ظاهرة عالمية في الأحزاب الشيوعية كلها بما ذلك الحزب الشيوعي الأمريكي، وذكر أمثلة غريبة للطريقة المستبدة المذلة التي كان رئيس الحزب الأمريكي يعامل بها الأعضاء بمن فيهم"فاست" نفسه. قرأت هذا الكتاب عندما كنت طالباً بالجامعة وذكرت ما جاء فيه لبعض زملائنا الشيوعيين، وكان ذلك بعد زوال ستالين، فأيد ما قال فاست وأضاف «كنا في ذلك الوقت (نُشلّت الزملاء)». تصوروا طالباً بالجامعة يرضى بأن يركله طالب مثله لأنه رئيسه في فرع الحزب بتلك المؤسسة!

لا أعرف جماعة إسلامية وصل الأمر فيها إلى حد "التشليت" هذا، إلا ما كان من أمر أتباع محمود محمد طه الذين غلوا في طاعة صاحبهم حتى عبدوه من دون الله، وهو حال أسوأ من ذل الركل بالأقدام، لكن عزاءنا أن تلك رغم اسمها لم تكن جماعة مسلمة. وعلى ذكر محمود نذكر أنه كان في مرحلة من مراحل دعواه التي تسلط بها على رقاب بعض الناس زعم أنه "وصل" وأنه لذلك لم يعد مكلفاً بما يكلف به غير الواصلين من أعمال الصلاة والصيام والحج وغيرها، ويبدو أن أحد الأتباع كان طموحاً فقال لهم ذات يوم"أحب أن أزف لكم البشرى بأنني قد وصلت ليلة أمس." فلما اعترض بقية الأتباع على دعواه أفحمهم بقوله"هل وصلتم أنتم؟" قالوا: لا، قال"إذن لا تناقشوني لأن هذه درجة لا تعرفون عنها شيئاً" فتركوا أمر مناقشته للواصل الأول، فكانت النتيجة أن فصله من الحزب؛ لأن الحزب لا يتحمل واصلَين، كما أن الزريبة لا تتحمل ثورين كما يقول المثل السوداني؛ قلت: إنني لا أعرف جماعة إسلامية وصل الأمر فيها إلى حد الرضى بالركل والضرب، لكنني أعرف جماعات رضيت لنفسها -باختيار منها، وبإغراء من زعمائها- أن تنتقل رويداً رويداً من مبدأ المشاركة في اتخاذ القرار، وجعل الأمر شورى بين أعضائها إلى تكريس السلطة في يد القائد، وتفويضه في اتخاذ كل القرارات أو جلها، فكان لابد لها من أن تذوق بعض الثمار المرة لهذا التكريس.

***

الآخـــر

شبكة المشكاة الإسلامية
الاثنين ٣٠ ذو القعدة ١٤٢٥هـ/ ١٠ يناير ٢٠٠٥م

كثر الكلام في أيامنا هذه عما يسمى بالآخر، عن الاعتراف به وعن قبوله .فما المقصود بالآخر؟ يدل اللفظ على أن المقصود به من ليس مثلك، من هو مختلف عنك، فأنت شيء وهو شيء آخر .فإذا كان الواحد أبيض اللون فأسود اللون آخر، أو كان الواحد مسلمًا فالنصراني أو اليهودي بالنسبة له آخر.

ما المقصود بالاعتراف به؟ إن كان المقصود الاعتراف بوجوده فهذا تحصيل حاصل، لأنه لو لم يكن موجودًا لما سمي بآخر، أما إن كان المقصود به حقه في الوجود وعدم تطهير العالم من أمثاله؟ إعطاء هذا الحق يعتمد على نوع العقيدة التي يؤمن بها كل من الأول والآخر .أما صاحب العقيدة الإسلامية، فإنه يعطي الآخر هذا الحق في الوجود والله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

ما المقصود بقبول الآخر؟ إن كان المقصود به أن تقول مثلي ولا فرق بيننا البتة، فهذه مغالطة، لأنه لولا وجود الفارق لما سُمي آخر .فاليهودي ليس كالنصراني، والملحد ليس كالمؤمن بوجود الخالق، والعربي ليس كالأعجمي .فلا بد أن يكون للقبول معنى آخر إذن .والمعنى المتبادر إلى الذهن هو أن تعده مثلك في أمر هو أهم عندك من الأمر الذي أنتم مختلفون فيه .فإذا كنت مسلمًا فستأخذ بمعيار التقوى الذي قرره الرسول صلى الله عليه وسلم والذي يقتضي أنه لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى .فأنت هنا لم تعترف بالوجود الحسي للآخر وبحقه في هذا الوجود فحسب، بل اعترفت بأن فارق اللغة أو اللون لا تأثير له في قيمة الإنسان، فقد يكون الأبيض خيرًا من الأسود أو العكس، وقد يكون العجمي خيرًا من العربي أو العكس. وإذا كنت مسؤولاً عن دولة علمانية فقد تجعل القيمة العليا هي المواطنة فلا تفرق بين المواطنين بسبب لونهم أو دينهم.

فقبول الآخر يعتمد إذن على نوع القيمة أو المعيار الأعلى الذي تؤمن به .لكن هذا معناه أن الآخر إذا كان مختلفاً بذلك المعيار فلن يقبل ولن يعامل معاملة الأول .فالمسؤول في الدولة العلمانية لا يعامل الأجانب معاملة المواطنين، والمسلم الذي يجعل القيمة العليا للتقوى لا يسوي بين المسلم والنصراني أو اليهودي أو الملحد .فالذي يسوي بينهم إذا كان منتسبًا إلى الإسلام مثلاً فكأنه يقول أنا أعتقد أن الله لم يلد ولم يولد، لكنني أعتقد كذلك أنه لا فرق بيني وبين الآخر الذي يقول إن عيسى ابن الله، هذا تناقض. ليس هنالك إذن قبول للآخر بإطلاق وإنما هو أمر نسبي .والذي يقول بغير هذا لا يتصور حقيقة ما يقول.

رد شبهات المكذبين بعذاب القبر

شبكة المشكاة الإسلامية الجمعة
٢٩ ربيع الثاني ١٤٢٧ هـ / ٢٦ مايو ٢٠٠٦ م

كون بعض الناس يعذبون في قبورهم أمر جاءت به أحاديث متواترة عن النبي ﷺ، والتواتر يدل دلالة قاطعة على نسبة الحديث إلى النبي ﷺ.

فالذي ينكر عذاب القبر مكذب له ﷺ، إلا أن يكون جاهلا بهذا التواتر، أو جاهلا بأمر عقلي وهو أن التواتر يدل دلالة قاطعة على نسبة القول أو الفعل إلى من نسب إليه.. ومن كان مكذبا للنبي في أمر يعلم أنه قاله فلا يكون مؤمنا به، ولا بربه الذي أرسله، وإن كرر النطق بالشهادتين ألف مرة أو زاد.

وكل حجة يتشبث بها من ينكر أمرا جاء به كتاب الله، أو قاله رسول الله لا بد أن تكون باطلة عقلا؛ كما هي باطلة شرعا.. بل إنها لتدل على ضيق أفق صاحبها؛ لأنها كثيرا ما تعتمد على الخلط بين الممكن والمألوف.. أعني أن أحدهم ينكر إمكان حدوث شيء ما لمجرد أنه أمر غير مألوف؛ فهو يخلط بين المستحيل وغير المعهود.. هكذا فعل العرب الجاهليون في إنكارهم للبعث.. كانوا يرون أنه من المستحيل أن تبعث أجسادهم بعد أن يصيروا عظاما نخرة..

فكان الرد القرآني العقلي عليهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾ [الإسراء: ٤٩-٥١]. أي إذا كنتم مؤمنين بأن الله تعالى هو الذي خلقكم أول مرة ولم تكونوا شيئا – وقد كانوا مؤمنين بذلك – فكيف يستحيل عليه أن يعيد خلقكم مرة ثانية؟!.. أليست الإعادة أهون من البداية؟!..

كذلك الأمر بالنسبة لعذاب القبر؛ أنكره بعض الزنادقة في الماضي، ويقلدهم في إنكارهم بعض الزنادقة المحدثين.. لكن الزنادقة الذين أنكروا عذاب القبر قديما

كانوا أذكي من زنادقتنا المحدثين؛ ولذلك أثاروا من الشبهات أعظم مما يثير هؤلاء المقلدون لهم.. ولم ير أهل السنة بأسا في رواية شبهاتهم؛ لأنهم كانوا موقنين بأنها حجج باطلة؛ يسهل محقها.. نذكر في ما يلي مثلا لهذه الردود السنية:

رد ابن القيم على الزنادقة:

ذكر الإمام ابن القيم في كتابه الروح (تحقيق سعيد محمود عقيل، نشر دار النخيل) كثيرا من هذه الشبهات، وفصل فيها، وكان مما ذكر عنهم قولهم: (ونحن نرى المصلوب على خشبة مدة طويلة لا يسأل، ولا يجيب، ولا يتحرك، ولا يتوقد جسمه نارا، ومن افترسته السباع، ونهشته الطيور، وتفرقت أجزاؤه في أجواف السباع، وحواصل الطيور، وبطون الحيتان، ومدارج الرياح كيف تسأل أجزاؤه مع تفرقها؟!.... ثم بدأ رحمه الله في الرد عليهم ردا استغرق أكثر من عشر صفحات (٧٧-٩١)؛ لكننا نلخصه في هذه الكلمات:

– أن الرسل لم يخبروا بما تقطع العقول باستحالته.

– أن يفهم عن الرسول مراده من غير غلو ولا تقصير؛ فلا يُحَمَّل كلامه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان.. إن سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، بل هو أصل كل خطأ في الأصول والفروع، ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد.

– أن الله تعالى جعل الدور ثلاثا: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار.. وجعل لكل دار أحكاما تختص بها.. جعل أحكام دار الدنيا على الأبدان، والأرواح تبعا لها.. وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعا لها.. تجري أحكام البرزخ على الأرواح؛ فتسري إلى أبدانها نعيما أو عذابا، كما تجري أحكام الدنيا على الأبدان فتسري إلى أرواحها نعيما أو عذابا.. فأحِطْ بهذا الموضع علما، واعرفه كما ينبغي يزل عنك كل إشكال يرد عليك.

فإذا كان يوم حشر الأجساد، وقيام الناس من قبورهم صار الحكم، والنعيم، والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهرًا باديًا..

- أن الله تعالى جعل أمر الآخرة وما كان متصلا بها غيبا؛ فأول ذلك أن الملائكة تنزل على المحتضر، وتجلس قريبا منه، ويشاهدهم عيانا، ويتحدثون عنده؛ قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٥].

- أن النار التي في القبر والخضرة ليست من نار الدنيا؛ وإنما هي من نار الآخرة وخضرتها؛ وهي أشد من نار الدنيا؛ فلا يحس بها أهل الدنيا.. وقدرة الرب تعالى أوسع، وأعجب من ذلك.. وقد أرانا الله من آيات قدرته في هذه الدنيا ما هو أعجب من ذلك بكثير؛ ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علما إلا من وفقه الله وعصمه.. فهذا جبريل كان ينزل على النبي ﷺ، ويتمثل له رجلا؛ فيكلمه بكلام يسمعه؛ ومن إلى جانب النبي لا يراه، ولا يسمعه.. وهؤلاء الجن يتحدثون، ويتكلمون بالأصوات المرتفعة بيننا ونحن لا نسمعهم.

- ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونعيمه، وهو (يعني البرزخ) ما بين الدنيا والآخرة، وسمي عذاب القبر ونعيمه باعتبار غالب الخلق؛ فالمصلوب، والمحروق، والغرق، وأكيل السباع والطيور لهم من عذاب القبر ونعيمه قسطهم الذي تقتضيه أعمالهم.

وزيادة من عندنا:

- يقال لمن ينكر عذاب القبر بحجة أن بعض الناس يموتون غرقا أو حرقا: أ أنت من المؤمنين بالبعث؟ إن كنت مؤمنا به فأنت تعتقد أن الله تعالى سيبعث الذين ماتوا حرقا؛ حتى ولو تفتت أجسادهم وذرت في الهواء.. فما الذي يمنعه سبحانه إذا من أن يجمعها، ويجعلها جسدا كما كانت فور تفتتها؟ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

- إن ما قلته عن الذين يحترقون أو يغرقون يقال مثله عن الذين يقبرون؛ ذلك أن المقبور لا يلبث - إن لم يكن نبياً - أن يتفتت، ويصير عظامًا نخرة؛ كما قال

المشركون، بل حتى عظامه ستتفتت وتتحول إلى المواد الأولية التي خلق منها الجسد!؛ فكيف إذاً يسأل أو يعذب؟!.

– إننا نعلم حتى في هذه الحياة الدنيا أن الإنسان إنما هو إنسان بروحه؛ لا بجسده؛ وذلك أننا نرى الجسم يتغير؛ فيزداد وزن الإنسان بضع أرطال أو ينقص، وتبتر بعض أجزاء جسمه، ويصح بعضها أو يمرض، ويظل الإنسان مع ذلك هو الشخص الذي نعرفه..

– بل نزيد على ذلك أمرا ربما لم يكن معروفاً للأقدمين، بل ولكثير من المحدثين؛ وهو أن جسم الإنسان في تغير مستمر؛ حتى إنه لا يبقى من خلاياه شيء كان قبل بضع سنوات ما عدا خلايا الدماغ التي يقال إنها إذا فقدت لا تعوض، وإن كانت بعض الخلايا الباقية تقوم بمهمتها.

والجسم إنما هو وسيلة لعذاب الروح؛ قال تعالى عن المعذبين في النار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

– ثم نضيف إلى ما ذكره الإمام بعض ما نعرف الآن من عجائب خلق الله في هذه الدنيا؛ مما يتصل بهذا الأمر؛ مما لم يكن بعضه معروفا في زمنه رحمه الله.. فنحن نعرف الآن أنه كما أن هنالك حدًا أدني لما يسمعه الإنسان من أصوات؛ فهنالك أيضا حد أعلى!!.. أعني أنه كما أن هنالك أصواتا لا تسمعها الأذن البشرية لخفوتها وقد تسمعها بعض الحيوانات؛ فهنالك أيضا أصوات لا تسمعها هذه الأذن لشدة علوها؛ وقد يسمعها حيوان مثل الكلب!!.. وهذا يعني أنه قد توجد الآن في المكان الذي أنت فيه أصوات أعلى بكثير من أصوات الطائرات التي تصك الآذان لكننا لا نسمعها، بينما تسمعها بعض الحيوانات.

***

الحرية

(جريدة الميثاق الاسلامي عدد ١٦ شوال ١٣٨٧ يناير ١٩٦٨م)

الأصل في التصرفات الطبيعية من كلام وحركة وأكل وشرب وغيرها أن تكون مباحة. والإباحة معناها أن يكون المرء حرًا في فعلها.

لا يمكن أن يوجد مجتمع بشري إلا بتوفر حد أدنى من هذه الحرية الفردية، ولا يمكن أن يبقى مجتمعًا إذا جاوز حدًا أقصى منها.

وإذن فلا يمكن لأي نظام مهما بلغت درجة قهره و دكتاتوريته أن يمنع هذه الحرية منعًا كاملاً، كما لا يمكن لأي نظام مهما بلغت درجة ليبراليته أن يطلقها إطلاقا كاملا.

ولذلك فقد كنت منذ سنين مثلت المجتمع بالنسبة للحرية بالماء بالنسبة لدرجات الحرارة. ففي درجة الصفر يتحول الماء إلى ثلج، وفي درجة المئة يبدأ في التحول إلى بخار. ولا يبقى ماء إلا بين الصفر والمئة. كذلك المجتمع لا يبقى مجتمعًا إلا بحد أدنى وحد أقصى من الحرية.

وعليه فإن التفاضل بين المجتمعات لا يكون بقدر ما فيها من حرية، وإلا لكان أفضلها مجتمع لا قوانين فيه، لأن كل قانون يأمر أو ينهى يمثل قيدًا على الحرية الفردية. التفاضل يكون إذن بنوع ما يبيحه المجتمع وما يحرمه أو يوجبه.

المجتمع الذي يبيح شرب الخمر والزنا والشذوذ يعطي الأفراد حرية أكبر من الذي يمنعها. فهل يكون المبيح لها أفضل من الذي يحرمها لمجرد إباحته؟ إذا قلت نعم فيلزمك أن تقول إن المجتمع الذي يبيح المخدرات، والاغتصاب والتشهير أفضل من الذي يمنعها.

تتفاضل المجتمعات إذن بنوع ما تبيح وما تمنع. ومعيار الأفضلية هو مدى النفع الذي يعود على المجتمع من الإباحة أو المنع أو الإيجاب. فكل أوامر ونواه تساعد على تماسك المجتمع، وأمنه وقوته ورقيه الروحي والمادي أوامر ونواه حسنة، وكل ما أدى إلى عكس ذلك فأمر سيئ.

في المجتمع الذي يريده الإسلام كما في غيره من المجتمعات أوامر ونواه تبيح وتمنع وتوجب، لكن فضله عليها هو في نوعها بالمعايير التي ذكرناها.

المجتمع الذي يريده الإسلام هو مجتمع من أفراد متآخين. فهو يأمر أمر إيجاب أو ندب بكل ما من شأنه أن يرسخ هذه الأخوة، وينهى نهي تحريم أو كراهة عن كل ما من شأنه أن يوهنها.

ولما كان التعبير ــ سواء كان باللسان أو باليد أو بحركات الوجه، وسواء كان كتابة أو رسما أو غير ذلك ــ هو من أكثر تصرفات الناس تأثيرًا في العلاقات بينهم فقد عني به الإسلام عناية خاصة فجعل القاعدة هي الإباحة، ثم نهى عن كل ما هو ضار منه وأوجب كل ما هو ضروري منه. ففي التشريع الإسلامي قواعد عامة لما يقال وما لا يقال، بأي من هذه الوسائل. وفيه أيضا تفصيل للأمر بأشياء معينة والنهي عن أخرى.

من القواعد العامة قوله تعالى في صفة المؤمنين (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) وقال (وأمرهم شورى بينهم) فهذا كله يقتضي تعبيرا. ويقول تعالى (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول) ويقول الرسول ﷺ: **(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت)** وهذا معناه أن يعتقد أن ما يقوله خير لا أن يكون خيرا في نفس الأمر، لأننا نعلم أن كثيرًا مما قاله الصحابة ولا سيما في أمور الشورى لم يكن صواباً. من أمثلة ذلك تحفظ عمر رضي الله عنه على صلح الحديبية ومنها أنه رضي الله عنه لما قرر بعد مشاورة بعض الصحابة ألا يدخل الشام بالصحابة لما علم أن بها وباء، وأن أبا عبيدة اعترض على القرار قائلا: (أفرارا من قدر الله؟) فبين له عمر خطأه، وأوضح له أن الفرار هو من قدر الله إلى قدر الله.

وكما ذكر التعبير باللسان فقد ذكر التعبير بغيره في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. من ذلك قول تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ ونهى الرسول ﷺ عن محاكاة الناس على سبيل التهكم.

إن دينا يأمر بالدعوة وبالإصلاح بين الناس وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبالشورى وبالتعليم لا يمكن أن يكون ديناً لا حرية للأفراد فيه. ولا يمكن أن يكون ديناً يعاقب كل فرد على كل خطأ تعبيري ارتكبه.

إن كل حد لحرية التعبير في الإسلام هو بمثابة الحدود التي توضع على طرف الجسور لتقي السيارات والمشاة من الوقوع في البحار أو الهاويات. إنها (وهي من العليم القدير الرحيم) ليست مجرد تسلط كتسلط الحكام من البشر، وليست مبنية على نظريات باطلة كما هو شأن كثير من النظريات البشرية المسوغة لما يؤمر به وينهى عنه.

لا تعلق بالأشخاص..

معالم في طريق الاستمساك بالمبادئ

(جريدة الميثاق الإسلامي، العدد ٦٣٧، ١٠ أكتوبر ١٩٦٧م)

قبل فترة نشرت الميثاق خبراً صحيحاً عن مرض الرئيس جمال عبدالناصر. وقبل قرون أشاع المشركون خبراً كاذباً عن مقتل الرسول ﷺ في غزوة أحد.

وفي كلا الحالتين ذهل بعض الناس للخبر، واضطربوا ونالهم شيء من اليأس. فماذا كان التعليق على هؤلاء الذين أطَار الخبر لُبَّهم؟

أما في حال المسلمين الأوائل فإن كتب السيرة تروي: (أن أنساً بن النضر مرَّ على بعض الصحابة فوجدهم جالسين محزونين فسألهم فقالوا مات رسول الله. فكان جوابه فما تصنعون بالحياة بعده؟ فقوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ. ثم استقبل المشركين ولقي سعد بن معاذ، فقال: يا سعد واهاً لريح الجنة إني أجدها من دون أحد. فقاتل حتى قُتل ووجد فيه بضع وسبعون ضربة ولم تعرفه إلا أخته، عرفته ببنانه).

وجاءت آيات القرآن الكريم معاتبة بعض أصحاب محمد ﷺ على ما كان منهم من الهلع والجزع كما يقول الطبري. قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وأما في حال العرب الأواخر فإن بعض الذين يعلمون صحة الخبر لم يعاتبوا أولئك الذين استنكروا مرض الرئيس وهلعوا وجزعوا، بل عدوا هذا منهم سلوكاً طبيعياً مرضياً ولكنهم استكثروا على بعض الناس أن يذيعوا هذا الخبر الذي أسموه شائعة رغم علمهم بصحته لأن في إذاعته توهيناً لروح الجماهير المؤمنة بقيادة الرئيس.

حقاً إن الفرق بين الحالين شاسع! ولكن لا عجب، فتلك أمة مدعوة لأن تؤمن برسالة تحرك كل فرد فيها حركة ذاتية نحو النضال المستميت في سبيل إقرار حقائقها. أمة لا يحركها أو يلنها عن الحركة حياة شخص ولا موته، ولو كان هذا الشخص محمداً الذي حمل رسالة الله إليها فما محمد ﷺ إلا رسول يؤدي مهمته ويذهب كما ذهبت الرسل من قبله. إن الرسالة ليست مرتبطة بوجود شخص فكيف إذن يرتد عنها بعد موته من كان يؤمن بها في حياته؟

وهذه جماعة مدعوة لأن تؤمن بشخص يدفعها للحركة من وراء أو يجذبها من أمام فإذا مرض أو مات توقف دفعه وجذبه فسكنت حركة الجماعة المؤمنة بمحركها الأول، فلئلا تسكن حركة المؤمنين به ولئلا يرتدوا على أعقابهم بعد موته – فارتدادهم على أعقابهم بعد موته حتمي- لهذا يلام الذين ينشرون خبر مرضه ويقال للجماهير كذباً إنه لم يمرض وربما قيل لها إنه لن يموت ولكن هيهات فبالأمس مات محمد رسول الله ﷺ. وغداً يموت جمال عبدالناصر والفرق بين نتائج الموتين عظيم.

أما الأمة المستمسكة برسالتها فقد استمعت بعد موت رسول الله ﷺ إلى صوت يقول لها"من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت" ويذكرها بما قال المعبود الذي لا يموت للبشر الرسول الذي مات: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. وكان هذا صوت الرجل الذي عرفت الأمة صدق وده للرسول ﷺ، عرفته من سلوكه هو، ومن قول الرسول ومن كلام رب العالمين. الرجل الذي استخلفه على الصلاة الراحل الكريم، واختارته الأمة لكي يخلفه في إمارة المسلمين ولكن الصداقة شيء وعبادة الأشخاص شيءٌ آخر.

لقد بلَّغ محمد ﷺ رسالته فاستجاب له مؤمنون حملوا الرسالة بعد موته وهذا شأن القادة أصحاب الدعوات، وشأن المؤمنين بالمبادئ والدعوات. إن موت القائد لا يؤثر في رسالته بل إن كلماته لترتوي بدمه وتحيا بموته وتزدهر بعد ذهابه.

وغداً يموت جمال عبدالناصر فتتحطم لموته نفسيات، وييأس من جدوى العمل أفراد وتختفي باختفائه أحزاب وجماعات وصحف ومجلات وشارات وشعارات؛ لأنها كانت تعيش عليه لا على مبدأ تشاركه الإيمان به.

سيحتج أقوام قائلين نحن لا نهاجمه أو ننتقده، كما يفعل الحاقدون أمثالكم، لا لأننا نعبده –كما تدعون- ولكن لإيماننا بأفكاره الاشتراكية وبمواقفه الوطنية، فهو الذي حرر مصر من الملكية وطهرها من الرجعية وهو الذي أمَّم القناة ورفع مستوى العامل والفلاح، وهو الذي رفع في العالم رأس الأمة العربية –قبل الهزيمة-.

أقول وليت شعري وهل تكون العبادة إلا بمثل هذه المبررات؟ إن العبادة لا تبدأ في فراغ فلا بد في باديء الأمر أن يفعل المعبود شيئاً، أو أن يُخيل إلى بعض الناس أنه قد فعل شيئاً، ينال رضى العابدين وإعجابهم حتى إذا تمكن الحب من قلوبهم، وأسلموه

أمرهم، لم يبالوا بعد ذلك ما يفعل بنفسه وبهم، ورأوا من الكبائر أن يجرؤ أحد على الاعتراض عليه فقد حل هو بشخصه محل الفكرة التي عُبد من أجلها، فأصبح هو الفكرة وهو المبدأ الذي تُقاس به الأفكار والأفراد والمواقف بمدى قربها أو بعدها من نيل رضاه.

إن العابد لا يقول أبداً إنني أعبد شيئاً لشخصه، حتى عُباد الأصنام لم يعدموا مبرراً، فقد قالوا عن آلهتهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

إذن فليس المهم أن تجد مبرراً للعبادة، ولكن المهم أن يكون المبرر مقبولاً. ولا سبب مهما كان يبرر عبادة شيء من دون الله حتى لو كان الشيء شخصاً مرسلاً من عند الله.. ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

قلت إن العبادة لا تبدأ في فراغ، وإن المعبود لا بد أن يفعل، أو يتوهم العابد أنه قد فعل شيئاً يستحق الرضى والتقدير، ثم يتطور الأمر من رضى وتقدير وإعجاب إلى تسليم مطلق وانقياد أعمى. إن القرآن يحكي عن اليهود والنصارى أنهم ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، فلماذا عبدوا الأحبار والرهبان والمسيح؟ لابد أنهم في بادئ الأمر قدروهم وأحبوهم لمعرفتهم بتعاليم الدين ولقربهم من الله رب العالمين، ولكن هذا الحب والتقدير ازداد وازداد حتى فات حده وهزم غايته. لقد عبدوهم في بادئ الأمر لقربهم من الله، ولأنهم ظنوا أنهم خير من يقودونهم إلى الله، فإذا بهم في النهاية يعبدونهم من دون الله، ولا يقولن أحد إننا لا نعبد فلاناً كما يعبد النصارى عيسى، أو كما يعبد المشركون أصنامهم، فإن المهم هو مبدأ العبادة لا كيفيتها. والعبادة تكون حيث ما كان التسليم المطلق لشيء من الأشياء، وهذا التسليم المطلق ليس حالة نفسية فحسب ولكن له مظاهر بينة مشهودة، ومن مظاهره عدم النقد وعدم الإنكار وعدم الاعتراض، بل واستنكار الاستفسار. فالإنسان إذا كانت تربطه بآخر آصرة الفكر والعقيدة فإنه مهما أحبه وقدره ووثق فيه واطمأن إلى إخلاصه فلابد أن يزن تصرفاته بميزان الفكرة التي تربطهما ولا بد

أن يسأله لم فعلت هذا، أو أن يقول له لا تفعل ذاك من الأمور التي يبدو له أنها لا تتمشى مع الفكرة التي التقيا على الإيمان بها.

أيشك أحد في تصديق عمر وحبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ولكن انظروا كيف يجادله يوم الحديبية؟

قال عمر مخاطباً رسول الله ﷺ: ألست برسول الله؟

قال: **(بلى)**.

قال: أولسنا بالمسلمين؟

قال: **(بلى)**.

قال: أوليسوا بالمشركين؟

قال: **(بلى)**.

قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

قال: **(أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعني)**.

فهذا الذي ظنه عمر دنية وأراد أن يثني الرسول عنه ليس من فعل الرسول وإنما هو أمر الله الذي يعبده عمر كما يعبده الرسول ﷺ. فتصرف الرسول ﷺ إذن له ما يبرره من المبدأ الذي آمن به عمر، وهذا شأن المستمسكين بالمبادئ، وليس كذلك المتعلقون بالأشخاص، إنه يردونهم موارد الهلاك فلا يقوى أحد أن يقول للسيد الرئيس: كيف حدث هذا؟ ولم حدث؟ وينبغي إلا يتكرر، ولابد من أن نزيل الأسباب التي أدت إليه ونحاسب المسؤولين عنه.

لا شيء من هذا فالقاعدة أن الرئيس لا يمكن أن يقع في خطأ كهذا أو يشارك فيه وأن كل من يشير ولو إشارة بعيدة إلى أنه مسؤول عما حدث فهو –شعر أم لم يشعر– خادم للسياسة الاستعمارية واقع في حبائل الإمبريالية العالمية، عامل ضد مصلحة الشعوب العربية.

القاعدة أن الرئيس مخلص لا يرتكب خطأ، وإذن فلابد من البحث عن أسباب الكارثة في كل مكان إلا عند الرئيس فإذا قال الرئيس إنني مسؤول عن الخطأ أضيف هذا إلى حسناته. أليس من النبل أن يخطئ غيره فيتبرع هو بحمل الخطأ؟!! فقد عبد الناس المسيح لأنه في وهمهم جاء ليحمل عن البشر خطاياهم.

ولكن ماذا استفدنا نحن؟ ما هي الأخطاء وكيف حدثت ومن المسؤول عنها أولاً؟ نريد أن نعرف هذا لأننا نستفيد منه في معركتنا القادمة. ولكن ما الفائدة في أن يتحمل الرئيس الأخطاء ويستقيل؟

وبعد أن عاد الرئيس إلى الحكم بعد دقائق حاملاً أخطاءه، وبعد أن اعتقل من اعتقل من كبار القادة العسكريين، قال الرئيس -الذي تحمل الخطأ- أنه بريء مما حدث فهو قد أخبر المسؤولين جميعاً بميقات الهجوم الاسرائيلي. فقال المعجبون العابدون: ألم نقل لكم إن الرئيس لا يخطيء؟ وأنه تحمل الأخطاء نبلاً لا ذنباً؟ ويموت مشير الرئيس وصفيه وخليله فيجرؤ الناس على النيل منه، وعلى تجريمه لأنه جرؤ قبل موته على معارضة الرئيس. إذن فلتنبش أخطاؤه كلها منذ أن استلم مسؤوليته على أن لا يمس الرئيس منها شيء، فتغاضيه عما علم منها كان حلماً ووفاءً، وجهله بما جهل كان عذراً مقبولاً.

ويتحدث لسان الرئيس هيكل فيقول كلاماً مقبولاً فيجرؤ بعض الناس على التعبير عن قلقهم مما يقول فيلتمسون من السيد الرئيس أن يقول بلسانه العضوي كلاماً ينفي ما قاله لسانه الصحفي. يطلبون هذا لا شكاً بعد إيمان ولكن لتطمئن القلوب.

ولكن المؤمنين بالرئيس حقاً يرون حتى في هذا النقد اللطيف المتحرج المتردد خروجاً على اللياقة وتشكيكاً في القيادة. إن ما يقوله هيكل هو رأي الرئيس لا شك في هذا، ولكن الأمور ينبغي إلا نأخذها بظواهرها. فإن لكل كلام ظاهراً يتسرع إلى قبوله العوام الجاهلون، وباطناً لا يدركه إلا الغائصون في بواطن الأمور وعلى الذين لم يتمرسوا في فنون التأويل أن يكفوا عن الاعتراض والتفسير و إلا وقعوا في المحاذير.

يا ليت شعري، أقولها أخيراً بملء فمي: ماذا تكون العبادة إن لم تكن هذه؟! وكيف تخرج من محنتها وكيف تستعيد أرضها أمة لم تستعد رشدها؟ ولكن أستغفر الله فلا داعي للأسى واليأس فإذا كان بعض الناس ما زالوا يسيرون بدفع ما قبل الهزيمة، فإن كثيراً من الناس قد انتبهوا وأعلنوا بحالهم ولسانهم أنهم لا يريدون متابعة السير في الطريق الذي أدى إلى الهزيمة. فإلى هؤلاء نقول تجردوا من عبادة البشر مهما كانوا ومهما منوا ومهما قالوا، واستمسكوا بالحق أنى وجدتموه، فذلك هو طريق الانتصار.

ونرجو أن يأذن الله بمتابعة الحديث حول استكشاف معالم هذا الطريق.

من قواعد الدين.... المحافظة على حسن سمعة المسلمين

جريدة الميثاق الإسلامية ربيع الثاني ١٤٢٥

ما زالت أفئدة الخيرين من البشر في أنحاء الأرض كلها تهوي إلى الإسلام لأنها تجده دين الحق والعدال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، ولذلك كان من حكمة الله تعالى أن يسد في تشريعه كل ثغرة يمكن أن تنفذ منها شبهة تشكك في امتياز دينه بهاتين الخصلتين فتجعله يبدو للناس كأنه دين يتضمن باطلا أو ينصر ظلما.

ولتأكيد الاهتمام بحسن صورة هذا الدين في أذهان الناس، كان من قواعده المهمة أن يمنع كل قول أو عمل يؤدي – في حالة من الأحوال – إلى تشويه هذه الصورة حتى لو كان العمل في نفسه مشروعا!!. لكن أناسا من المنتسبين إلى الإسلام جعلوا التدين ضيقا في العطن وتبلداً في الإحساس وعدم اكتراث بما يقوله أو يشعر به غير المؤمنين من الناس. بل ربما ظنوا هذا التبلد وعدم الاكتراث دلالة على قوة الاستمساك بالدين. مع أنه في حقيقته عدم فقه به، بل وصد للناس عنه.

ماذا يقول أمثال هؤلاء في قول الله تعالى لعبادة المؤمنين من أصحاب رسوله الكريم: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٥]. في هذه الآية الكريمة يبين الله لعباده العله في منعهم من دخول المسجد الحرام لمقاتلة أعدائهم المعتدين من المشركين. العلة هي أنه كان بمكة آنذاك أناس قد آمنوا ولم يكن المسلمون يعرفون ذلك عنهم. فلو أنهم دخلوا على الكفار ربما قتلوا بعض إخوانهم هؤلاء ماذا كان سيحدث حينئذ؟ سيعير الكفار المسلمين بأنهم لا يبالون حتى بقتل إخوانهم، وربما شاع هذا بين الناس فصدقة بعضهم ولئلا يحدث هذا الأمر الشنيع منع الله المؤمنين من عمل هو في أصله مشروع لأنه كان سيؤدي في تلك الحال إلى أن تصيب المسلمين بسببه معرة وكيف يفهم أمثال هؤلاء قول الرسول ﷺ: **(لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل اصحابه)**؟ قال ﷺ هذا عندما اقترح عليه بعض اصحابه قتل بعض المنافقين فالرسول ﷺ لم يعلل عدم أخذه برأيهم بأن أولئك المنافقين لا يستحقون القتل وإنما علله بأن قتلهم يشوه صورة الإسلام في أذهان الناس. فالمنافقون في الظاهر للناس هم من أصحاب محمد ﷺ فقتله لهم هو فيما يبدو لهم قتل لأصحابه. لكن قتل الأصحاب ليس مما يتناسب مع دين يقوم على الحق والعدل لو كان الحكم في هذا إلى بعض ضيقي الأفق عديمي الفقه أولئك لقال قائلهم ما دامت الحقيقة أنهم منافقون فسأقتلهم ولا يهمني ما يقول الناس.

فإنه منهم!!

مقال للدكتور جعفر
نشر في الشبكة العنكبوتية ٣/١/٢٠١٥م

في عالمنا الإسلامي - العربي منه وغير العربي - مخلوقات غريبة تريد أن تجمع بين المتناقضات ولا تريد مع ذلك أن يعترض على تناقضها معترض. يريدون أن يقولوا لإخوانهم الذين كفروا من أهل الغرب إنما نحن مثلكم ننتقد الدين كما تنتقدون، ولا نلتزم به كما أنكم لا تلتزمون، ولا نترك فرصة للسخرية منه ومن المستمسكين به إلا اهتبلناها كما تهتبلون. ونرى كما ترون أن من حق الأديب والفنان أن ينتقد قيم المجتمع ومعتقداته ويدعو إلى نبذها، لأنه لا يكون أديبا أو فنانا مبدعا إلا إذا فعل كل هذا بحرية كاملة كما تفعلون.

لكن الفرق بين مخلوقاتنا الغريبة الممسوخة المقلدة هذه، وبين من هم أسوة لهم من إخوانهم الذين كفروا في الغرب، أن أولئك إذا قيل للواحد منهم إنك كافر بالمسيحية أو اليهودية اعترف بهذا وعده من تحصيل الحاصل. لكن مخلوقنا الممسوخ يرتجف ويولول ويطلب النجدة إذا قيل عن كلام كتبه هو أو أحد من شاكلته إنه كفر وخروج عن دين الإسلام. إنه يريد أن يكون كافراً حقاً، لكنه يرتعد حين يوصف بالكفر المعبر عن تلك الحقيقة. يريد أن يكون كافراً لكنه يريد أن يعيش في أمن، وأن يكون ذا سمعة حسنة في المجتمع الذي يتنكر لأحسن ما فيه من معتقدات وقيم، ويريد - شأن كل منافق - أن يتخذ من انتمائه للإسلام حصناً لهدمه، وهيهات.

وهو حين يواجه هذا الخطر على نفسه وعلى سمعته يتحول إلى واعظ يذكر من رموه بتهمة الكفر بقول الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل : ١٢٥]، وهي الآية التي لا يكاد الواحد منهم يحفظ من كتاب الله تعالى غيرها. يحفظها ليحتمي بها بعد أن يحرف معناها ويؤولها على غير تأويلها. نعم نحن مأمورون بأن ندعو بالحكمة والموعظة الحسنة، لكن الذي نحن مأمورون بالدعوة إليه هو سبيل ربنا، وهو أمر واضح المعالم، بيّن الحدود. فنحن لا

نفهم من الدعوة بالحكمة وبالتي هي أحسن أن نميع حقائق هذا الدين، أو أن نطمس معالمه، أو نزيل الحدود التي تميزه عن غيره. فيكون شيئا هلامياً لا يعرف أوله من آخره، ولا يعثر فيه على ما يميزه عن غيره، فلا يمكن لذلك أن يُحكَم على إنسان بأنه داخل فيه أو خارج عنه. وما هكذا يكون الدين المنزل من عند الله، بل ما هكذا يكون أي مذهب حقا كان أم باطلا. لا بد لكل مذهب من معالم تحدد هويته، وتميزه عن غيره، حتى يقال عن إنسان إنه منتمٍ إليه أو ليس بمنتمٍ، وأنه مؤمن به أو كافر به. إن المذهب الذي ليس فيه ما يميزه عن غيره ليس بمذهب. والإسلام دين منزل من عند الله مرتكز على مجموعة من الحقائق، من آمن بها كان مسلما، ومن أنكرها أو سخر منها أو استهزأ بها كان كافراً. فإمكانية الحكم على إنسان بالكفر أمر لازم لهوية الدين. فالدين الذي لا إكفار فيه ليس بدين، لأنه لا هوية له. إذا لم تكن للدين هوية ولم تكن له معالم، فإلى أي شيء تكون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة؟ والآية الكريمة التي يستدل بها هؤلاء الممسوخون تبطل دعواهم، وتدل على تحريفهم. وذلك أنها تبدأ كما قلنا بقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل : ١٢٥] وسبيل الله هو مجموعة الحقائق والقيم المبيّنة في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ. إنها دعوة إلى توحيد الله تعالى وعدم الإشراك به، دعوة إلى حبه وتقديره حق قدره، دعوة إلى الإيمان برسوله وتعزيرِه وتوقيرِه، دعوة إلى الإيمان بأن ما قرره الإسلام حق لا ريب فيه، وما أمر به فعدل لا ظلم فيه ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥].

فكل قول أو فعل يتناقض مع هذا فهو كفر، وكل قائل به وعامل به على بصيرة فهو كافر خارج عن ملة الإسلام، روائيّاً كان أم ممثلا أم فناناً، ناطقاً بالشهادتين أو غير ناطق.

لكن المخلوقات الممسوخة تريد أن تتستر بكفرها وراء الأدب والفن، فتزعم تارة أننا لم نفهم ما قيل على أنه عمل أدبي فني. هكذا قال المدافعون عن سلمان رشدي في آياته الشيطانية في البلاد الغربية، وهكذا يقول المدافعون عن حيدر حيدر في وليمته لأعشاب البحر. وإن المرء ليعجب إذا كان جماهير الناس، بل خاصتهم لا يفهمون

القصص والروايات، فيا ليت شعري ما ذا يفهمون؟ ثم هل يعقل أن يكتب كاتب قصة لا تفهمها الجماهير؟ إذن من الذي سيشتريها، ومن ذا الذي يقرؤها؟

وتزعم أخرى بأن الفنان لا يحاكَم بالمعايير نفسها التي يحاكَم بها سائر عباد الله. أي إنه من حقه - وليس من حق السياسي مثلا - أن يظهر الكفر ويدعو إلى التهتك مادام يعرض علينا كفره وتهتكه في صورة أدبية أو فنية، ومادام الكلام ليس صادرا منه هو مباشرة وإنما يقال على لسان شخصيات روايته أو قصته. فهنيئا إذن لكل فاحش بذيء. إذ ما عليه - لكي ينجو من كل محاسبة - إلا أن يضع شتمه وبذاءته على لسان شخصية يخترعها، في قصة أو رواية أو قصيدة يكتبها.

ماذا يعني هذا؟ أيعني أن الأعمال الفنية إنما هي أشكال لا محتوي لها؟ وأنها إنما يُحكَم عليها لذلك بشكلها لا بمضمونها؟ هل هذا صحيح؟ هل هذا هو الذي يفعله النقاد في تقويمهم للأعمال الفنية؟ وهل الشكل وحده هو الذي يبتغيه متعاطوا هذه الأعمال؟ وهل معنى هذا أنه إذا كان كاتب ذو مواهب فنية رائعة أنه يجوز له أن يكتب قصة فحواها الاستسلام لإسرائيل، وأنه لا يحق للفلسطينيين ولا غيرهم أن يعترضوا على ما فيها لأنها عمل فني؟ أم أن المحتوى الوحيد الذي لا يجوز الاعتراض عليه هو الاستهزاء بدين الله وتنقص أنبياء الله؟

وإذا كان بعض الناس يضعون الجمال الفني فوق الحق وفوق القيم، فما هكذا يرى المسلم المهتدي بكتاب ربه الذي يعلي من قدر الصدق والعدل، ويذم الكذب والجور في شكل جاء هذا أو ذاك.

ولهذا حكم على الشعر بمحتواه لا بمجرد شكله.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧].

* * *

أين المرجعية ؟

الشبكة العنكبوتية

المقصود بالمرجعية الطريقة التي يحسم بها الخلاف في قضية من القضايا. والمرجعية بهذا المعنى أمر ضروري لكل أناس يكونون أمة.

لو أن الناس كانوا أفرادًا لا علاقة بينهم لما احتاجوا إلى مرجعية، بل لاكتفى كل إنسان بقول أو عمل ما يراه مناسباً. أما إذا صاروا أمة فإنهم يحاولون أن يتصرفوا وكأنهم جسد واحد. لكن الأمة تتكون من أفراد، ومن شأن الأفراد أن يختلفوا في ما يرونه صالحًا لأنفسهم أو لأمتهم، وبما أنه من المستحيل عليهم أن يعملوا بكل الآراء الفردية المختلفة، كان من الضروري أن يتفقوا على مرجعية تحسم الخلاف بينهم وتكون هي الممثلة لأمتهم.

المرجعية بهذا المعنى لها جانبان: جانب يسمى بلغة العصر **ثقافيا** هو مجموعة المعتقدات والقيم التي تكون الأمة، وهي معتقدات قد تكون في صورة تقاليد متوارثة، وقد تكون في صورة كتب كما هو الحال بالنسبة لبعض الأديان، وبالنسبة للمجتمعات الحديثة التي تجعلها في شكل دساتير وقوانين.

المرجعية الثقافية هذه هي الأساس. لكن الأفراد قد يختلفون حتى في تفسيرهم لمبادئ ثقافتهم، فهم محتاجون إذن إلى مرجعية بشرية تنوب عنهم في تفسير مبادئ المرجعية الثقافية وتحسم الخلاف فيها بينهم.

المسلمون أمة ذات كتاب هو الذي يمثل مرجعيتها الثقافية الأولى. ولهم كما لغيرهم مرجعية بشرية هي التي يسميها القرآن الكريم أولي الأمر وهم علماء الأمة وأمراؤها. قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا**﴾ [النساء:٥٩].

العلماء هم الذين يمثلون المرجعية الأولى، مرجعية الكتاب. والأمراء يمثلون المرجعية الثانية، مرجعية التنفيذ.

فأولو الأمر لا يطاعون طاعة مطلقة كما هو الحال في الحكومات الدكتاتورية لأنهم لا يملكون حق التشريع.

فإذا حدث خلاف بينهم وبين المحكومين كان لا بد من رد الأمر إلى المرجعية الأولى، مرجعية الكتاب التي يمثلها العلماء.

قرر الإمام البخاري هذه القاعدة تقريرا موجزا في عنوان أحد أبواب جامعه الصحيح فقال رحمه الله : «باب إذا قضى الحاكم بجور أو خلاف أهل العلم فهو رد». - أي إن حكمه مردود غير مقبول - والخلاف له جانبان، جانب عملي القرار النهائي فيه للسلطة السياسية ما دام قرارا لا يخالف ما يراه العلماء شرعا.

وجانب نظري لا يلزم الإنسان فيه بقرار حاكم ولا برأي غيره من العلماء ما دام أمرا يسوغ فيه الاجتهاد. لا إلزام فيه إلا بالإجماع.

هذا هو الوضع الأمثل.

فإذا لم يكن من الممكن تحققه لظرف من الظروف كان الواجب الاقتراب منه بقدر الإمكان.

فإذا لم يكن للناس سلطة سياسية أمرها نافذ، وكان من الممكن لهم أن يكونوا لجانا أو هيئات من العلماء يأتمرون بأمرهم تطوعا في الجوانب العملية، كما كان الحال بالنسبة لمقاطعة البضائع الدنماركية، لجؤوا إلى هذا الخيار الثاني.

لكن هذا لا يمنع - لا شرعاً ولا واقعاً - بعض العلماء من أن يخالفوا ما تراه تلك الهيئة المرجعية.

بيد أن الأقرب إلى الوضع المثالي هو إما أن لا يصرحوا برأيهم المخالف، أو أن يقولوا إنهم مع مخالفتهم ملتزمون برأي الهيئة المرجعية سيما إذا كان التصريح بالخلاف من غير هذا القيد سيؤدي إلى إفساد القرار إذا كان قراراً يحتاج تنفيذه إلى إجماع أو شبه إجماع.

هذا والله الموفق للصواب والهادي إلى سبيل الرشاد.

***

من مزالق الدعاة

شبكة المشكاة الإسلامية
الجمعة ٢٩ شعبان ١٤٢٤هـ/ ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٣ م

الدعوة إلى الله أشرف مهمة يقوم بها إنسان، لذلك اصطفى الله تعالى لها أكرم خلقه فجعلهم رسله إلى الناس، والداعية المسلم داعٍ إلى الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وهو نائب عن الرسول ﷺ في هذه المهمة؛ لذلك كان من الطبيعي أن تكون دعوته على بصيرة، أي عن علم بما يقول الله تعالى، وما يقوله رسوله ﷺ، وكان من الطبيعي أن يكون ملتزماً في دعوته أشد الالتزام بما أوحى الله إلى رسوله ﷺ، لا يحيد عنه قيْد أنملة، وإلا لم تكن دعوته إلى الله، بل كانت إلى ما يراه هو وما يهواه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

لكن ما أصعب أن يلتزم الداعية - حتى لو كان مخلصاً - بمثل هذا الالتزام، في بيئة تكون فيها شرائع الإسلام التي يدعو إليها غريبة غير مألوفة! ما أسهل أن ينزلق الداعية فيحيد عما أوحى الله، وهو يحسب أنه يدعو إلى الله! لقد كان سبب العزلة التي سقط فيها بعض الناس - وهم من الدعاة - أنهم في سبيل جعل الحكم الإسلامي مقبولاً للعقلية الغربية أو المستغربة، بدؤوا يضيقون ذرعاً بكل ما لا تقبله هذه العقلية من تعاليم هذا الدين، وإن كان مما جاءت به النصوص الصريحة، وإن كان محلَّ إجماع بين علماء المسلمين، تراهم لذلك يهرعون إلى تلقُّف كل رأي يخلِّصهم من هذه التعاليم ويسمونه اجتهاداً.

لكنني وجدت في مؤتمر عربي إسلامي نظَّمه المعهد العالمي للفكر الإسلامي هنا بالولايات المتحدة، أن هذا الانحراف أدى عند بعض الناس إلى انحراف آخر أخطر منه، فقد بدا لي من أقوال بعض الذين شاركوا في هذا المؤتمر أنهم - في سبيل قبول بعض التقاليد الغربية السياسية - بدؤوا يقبلون معها ما يرونه لازماً لها من الأفكار والمعتقدات الغربية، ومن ذلك أنهم - في سبيل إيجاد مكان للتعددية السياسية في الدولة الإسلامية - صاروا يذمون كل من يظهر استمساكاً شديداً بما يعتقد أنه الحق ويقولون لا أحد غير الله تعالى - الذي يسميه بعضهم بالمطلق - يمتلك الحقيقة. فكأنهم يقولون إنك لكي تعترف بالآخر لا بد أن تعتقد أنه قد يكون على صواب وتكون أنت على خطأ.

قلت لهؤلاء الإخوة: إن هذا يمكن أن يقال في مجال الأمور الدينية الاجتهادية، والأمور الدنيوية المبنية على الرأي، أما إذا قام الدليل القاطع على أمر ما أنه الحق، فلا مجال للتشكيك فيه سواء كان من الأمور الدين أو من أمور الدنيا. وإلا كان معنى هذا القول الاعتقاد بنسبية الحقيقة، والقول بنسبية الحقيقة - في غير مجال العلوم الطبيعية - هو من أمراض الحضارة الغربية الخطيرة التي تعدُ كثيرٌ من مشكلاتها الاجتماعية أعراضاً لها. إن القول بنسبية الحقيقة هو الذي يجعل القيم الخلقية قيماً نسبية، فلا يجيز لذلك لإنسان أن يقول عن سلوك إنسان آخر إنه خطأ أو غير خُلُقي أو يذمه بأي نوع من أنواع الذم. ولذلك صاروا الآن يستبدلون بعبارة (الشذوذ الجنسي) عبارة (الميل الجنسي)، أي إن الرجل الذي يكون ميله إلى الرجال أو المرأة التي يكون ميلها إلى النساء هما كالرجال والنساء الذين يكون ميلهم إلى الجنس الآخر، لا فرق بين الميلين، لذلك ينبغي إلا يكون هنالك تفرقة في المعاملة.

وقلت لهم هل معنى ذلك أنني في سبيل قبول ما يسمونه بالآخر ينبغي ألا أجزم بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن القرآن كلام الله، وأن الشرك باطل ومذموم؟ هل يقول بهذا عاقل؟ ولكن هذا هو الذي يؤدي إليه القول بعدم امتلاك الحقيقة. نعم إنه لا أحد غير الله تعالى يعرف كل الحقائق، لكن من نعمة الله علينا أن جعل لنا نحن البشر الناقصين سبيلاً إلى معرفة بعض الحقائق التي تهمنا والتي تعتمد عليها حياتنا، وجعل العلم بها والإيمان اليقيني بصوابها شرطاً في نيل مرضاته سبحانه ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥]، بل جعل اليقين بها شرطاً للدعوة إليه ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢٤].

وقلت إن تحملي للآخر وتسامحي معه لا يلزم أن يكون مبنياً على شكي وارتيابي فيما عندي، بل يمكن أن أتحمل وأُحسِن إلى من يخالفني وأنا موقن أنني على الحق وأنه على باطل. ألم يقل الله تعالى عن بعض الكفار: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

* * *

مهمة الداعية البلاغ

كلمة للدكتور جعفر شيخ إدريس

وتعقيب لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله ابن باز

مجلة التوعية الإسلامية في الحج العدد ١٨ ذو الحجة ١٤٠٢هـ

قال الدكتور جعفر:

أعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا وبعد: فإن الله تعالى قد حصر مهمة الرسول ﷺ في البلاغ فقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، وكرر الله هذا المعنى في آيات كثيرة، وكما أنه سبحانه وتعالى بين للرسول ﷺ مهمته فقد بين له أيضاً نتائج هذه المهمة وما لا يتصل بهذه المهمة كي لا يشغل نفسه بها، وأريد أن أتكلم لكم في كلمات موجزة عن بعض هذه المهام التي تتصل بمهمة البلاغ كما ذكرها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم

فأولاً: ما دامت مهمة الرسول ﷺ وبالتالي مهمة كل داعية يتتبع خطى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما دامت هذه المهمة محصورة في البلاغ فينبغي على الداعية أن يبلغ الرسالة كما هي وإلا يزيد فيها ولا ينقص منها، وأن يستمسك بها كما أنزلها الله سبحانه وتعالى.

وينبغي عليه ثانياً: أن لا يظن أن من مهمته أن يدخل الإيمان في قلوب الناس فذلك أمر قد تكفل الله سبحانه وتعالى به ولم يتركه لنبي أو لداعية أو لأحد من البشر، ولكن هذا مما يصعب على الإنسان جداً، فالإنسان عجول يريد أن يرى نتائج عمله والناس كما قيل كأسراب القطا مجبولون على حب التقليد والموافقة فالإنسان يحب إذا قال للناس كلاماً أن يقبلوا منه هذا الكلام وأن يعيدوه لكي يكونوا مثله فإذا لم يفعلوا هذا غره شياطين الإنس والجن على أن يغير هو في دعوته كي تناسب ما عندهم هم، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى حذر رسوله ﷺ من أمثال هؤلاء فقال: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا

﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥]، قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ هذا كلام في غاية الأهمية، وذلك لأن دعاة الباطل والكفار ليغرون الداعية بأنه إذا غير هنا أو غير هناك أو أول الدين أو فسره بما يناسب أهواءهم فإنهم يحبونه ويعظمونه، وهذا ما يحدث الآن في واقعنا فإن المستشرقين وأمثالهم من الشيوعين وغيرهم كثيراً ما يمدحون الدعاة أو المنتسبين إلى الإسلام الذين يعمدون إلى مثل هذا التغير فيصفونهم بسعة الأفق وفهم العصر ويصفونهم بأنهم يجعلون الدين للناس يسراً ويصفونهم بأنهم أذكياء وبأنهم متحررون وبأنهم كذا وكذا وهذا يغر الإنسان فيتمادى في التحريف وهم لا يريدون لهذا التحريف أن يقف عند حد فكل ما وجدوا إنساناً أكثر تحريفاً عظموه عمن هو أقل منه تحريفاً لأنهم لم يرضوا عنه ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، هذه الغاية التي يريدون للإنسان الداعية أن يصل إليها، وإذا كان هذا قد حدث في زمان الرسول ﷺ فإنه موجود عندما الآن، إن المجتمع وإن المنحرفين فيه كثيراً ما يضغطون على الدعاة بأن يفسروا الدين وأن يؤولوه بما يناسب أهواءهم، والداعية المخلص يظن أنه إذا استجاب لكلامهم فإن هذا مما يدعوهم لأن يقبلوا كلام الله سبحانه وتعالى ويقبلوا دعوته ولكن الله سبحانه وتعالى يحذر الرسول ﷺ ويبين له أن الإنسان الصالح الذي يريد الهدى يكفيه هذا الذي أنزلناه إليه وأما الذي يقترح عليه بأن يغير هنا أو يبدل هناك لكي يستجيب لدعوتك فإنه لن يستجب أبداً ولهذا يقول اله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، ولذلك كما قلت في عصرنا هذا رأينا كثيراً من الناس يضيقون صبراً بكثير من أحكام الإسلام التي لا تتمشى مع أهواء العصر فهم يضيقون بتعدد الزوجات وبرجم الزاني المحصن لأن الغربيين يرون أن هذا من القسوة بل كل الحدود يرون أنها من القسوة ويضيقون صدراً

بالربا لأن البنوك كلها تتعامل به ويظنون أن الحياة لا يمكن أن تسير إلا به ويضيقون صدراً بقتل المرتد لأن هذا لا يتناسب مع التسامح الديني كما هو مفهوم في الغرب بل إن هذا الضيق قد يصل إلى بعض العقائد فإن كثيراً من المنتسبين إلى الإسلام أصبحوا يضيقون صدرًا بالمعجزات لما فيها من خوارق العادات وقد قرأت قريباً في كتاب ترجمة لمعاني القرآن باللغة الإنجليزية وتعليقاً عليها لم يكد الكاتب يترك معجزة من المعجزات التي وردت في القرآن الكريم إلا أولها تأويلاً يصرفها عن معناها فقال مثلاً في معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧١]، إن هذا كان زلزالا وقال في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، إن هذا كان وباء وهكذا وكما قلت قد يصل الأمر إلى بعض العقائد فيضيق الداعية صدراً بكل ما يجد في القرآن مما يتناسب مع أهواء العصر بل هذا قد يقع فيه بعض الموحدين فيبالغون في التنزيه وفي البعد عن الخرافات حتى إنهم ليضيقون بكل ما ليس مناسباً كما قلت مع أهواء العصر مثل تقبيل الحجر الأسود ومثل رمي الجمرات وهكذا فعلينا أيها الإخوة الكرام ونحن نترسم خطى الأنبياء -عليهم صلوات الله وسلامه- أن نحذر من كل هذا، وأن نستمسك استمساكاً شديداً بما أنزل الله سبحانه وتعالى، وأن لا نلتفت إلى أهواء العصر.

المسألة الثالثة: التي حذر الله سبحانه وتعالى الرسول ﷺ هي الحزن لأنه إذا كانت مهمتك أيها الرسول أن تبلغ فينبغي أن لا تحزن مهما كان رد فعل الناس ومهما أعرضوا قال الله تعالى للرسول ﷺ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

المسألة الرابعة: هي أن لا ييأس أبداً لأن الإنسان الذي ييأس هو الذي يظن أن عليه أن يهدي الناس وأن يحملهم على أن يقبلوا دعوة الله سبحانه وتعالى، أما الذي يتذكر أن مهمته هي البلاغ فيستمر في هذا التبليغ حتى ولو أعطاه الله سبحانه عمراً كعمر نوح عليه السلام ولا ييأس أبداً لأنه يعلم أن مهمته إنما هي أن يوصل هذا الحق للناس لا أن يحملهم عليه حملا، والله سبحانه وتعالى يقول للرسول ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ

مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، إن هدى الله ليس من مهمة الرسول وليس من مهمة أي بشر وأي داعية ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

أقول قولي هذا وأستغر الله سبحانه وتعالى لي ولكم وأساله عز وجل أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قال سماحة الشيخ / عبد العزيز بن عبد الله بن باز:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله وصلى الله على رسوله الله، أما بعد:

فقد سمعنا جميعاً هذه الكلمة المباركة الطيبة التي تهم كل داعية في كل عصر ولا سيما في هذا العصر من أخينا الشيخ جعفر شيخ إدريس، وفي الحقيقة كلامه في محله وقد أصاب وأجاد وأحسن جزاه الله خيراً وضاعف الله في مثوبته، هذه المسألة التي نبه عليها وهي مهمة الرسول ومهمة الداعية وهي البلاغ والبيان والإيضاح وإرشاد الخلق إلى ما خلقوا له. أما الهداية وقذف النور في القلب وقبول الحق وإيثاره هذا إلى الله عز وجل ليس إلى الداعية وليس إلى الرسول ﷺ هذه في الحقيقة مسألة عظيمة قد أحسن في التنبيه عليها فإن كثيراً من الدعاة يضيقون صدراً إذا لم يستجب له وربما يئسوا فتركوا لضيق الأفق وعدم الصبر وليس هذا شأن الرسل عليهم الصلاة والسلام ولا من أخلاقهم بل أخلاقهم الصبر وعدم اليأس وعدم الحزن. وقد نبه الله نبيه على ذلك عليه الصلاة والسلام فجدير بالداعية أن يتأسى برسوله عليه الصلاة والسلام، وأن يتبع خطاه وأن يحذر التغيير والتحريف من أجل الرغبة في هداية الناس، ومن أجل الرغبة في موافقتهم لما يقول، وهذا باب عظيم وخطير جدا، وقد نبه الله على ذلك في الآيات التي سمعتم ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥]

هذه الآيات فيها العظة العظيمة والتنبيه العظيم لرسولنا عليه الصلاة والسلام وللدعاة بعده، وأن الواجب أن يبلغ رسالات الله جل وعلا ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] ومعلوم ما جرى للرسول ﷺ مع الناس وما فعلت قريش من قولها إن شئت جمعنا لك كذا وكذا، وإن شئت سودناك علينا، وإن شئت زوجناك أحسن امرأة الخ... كل ذلك ليصدوه عما جاء به ويصرفوه عن دعوته ولعله يستجيب لهم فأبى ذلك واستمر في دعوته وإرشاده وتبليغه حتى أصابه ما أصابه من أذاهم الذي لا يخفى على من له علم بالسيرة في مكة، ثم عزموا على قتله فخلصه الله منهم وأنجاه من شرهم وكيدهم وانتقل إلى دار الهجرة وصبر على أذى المنافقين وأذى اليهود وأذى غيرهم من أمثالهم حتى أظهر الله دينه وأعلى كلمته ونصر عبده ونبيه ونصر حرمه، المقصود أن هذا أمر واضح وأن الواجب على الدعاة إلى الله عز وجل أن يكون عندهم من التحمل والصبر على الدعوة ما يمكنهم من الوصول إلى ما أرادوا من التبليغ وايصال الحق إلى الناس وبيان ما جاء به عليه الصلاة والسلام من الهدى ثم ذلك الأمر إلى الله وحده ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ [الرعد: ٧]، إنما أنت مبلغ إنما أنت مرشد أنما أنت هاد، فمهمتك البلاغ والبيان ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا رَبَّكَعَزِيزًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٥-١٢٧]، فالمؤمن لا يحزن ولا يتضايق، وقد نبه الله نبيه ﷺ على هذا فقال سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ

ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٣-٣٤]، فالداعية يتحمل ولا يحزن ولا يهلك نفسه من أجلهم ولكنه يكون واسع البال صبوراً على ما قد يصيبه من الأذى من سخرية وغير ذلك وقد صبر نوح عليه السلام على قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً لم ييأس وهو يدعوهم إلى الله عز وجل حتى أوحى اليه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]، حينئذ دعا عليهم بقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]؛ لأنهم لا خير فيهم بعد ذلك فلو عمرت ألف سنة إلا خمسين عاماً كما عمر نوح عليه السلام فلا تيأس فالداعية قد يبتلى إما بالتغيير أو التحريف ليرضيهم لعلهم يتابعونه وإما بالحزن العظيم والضيق الشديد والحرج حتى يشق عليه الكلام وإما باليأس والعياذ بالله حتى يدع الدعوة ويقول هؤلاء لا خير فيهم لا فائدة منهم وهم في هذا العصر قدا انحرفوا ولا يقبلون هداية فييأس عند هذا ويتحسر ويدع الدعوة وكل هذا غلط لأنه مخالف لهدى الرسول عليهم الصلاة والسلام فلا يأس ولا حزن ولا مضايقة ولكنه يتحمل وليصبر قال جل وعلا: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨-١٩]، فالله جل وعلا ما أبقى شيئاً للرسل ولا لأتباعهم دون بيان فقد أوضح لهم الأمر ثم جعلناك على شريعة من الأمر أي شيء واضح بين فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ليس لنا أن نتبع أهواءهم ولو ظننا أنهم إذا اتبعنا بعض أهوائهم فعلوا وفعلوا وساعدونا إنهم لن يغنوا عنك من أحد شيئا فالأمر بيده سبحانه وتعالى ينصرمن يشاء ويعز من يشاء ويذلك من يشاء ويخذل من يشاء ولو كانوا أقوى من على ظهر الأرض فربك قادر على أن يبطل قواهم ويبطل كيدهم وينصر الحق عليهم مهما كانت قواهم ومهما ضعف أهل الحق فربك على كل شيء قدير ولا يخفي ما جرى يوم الأحزاب اذ تجمعت قريش وتجمع من تجمع من الأحابيش وغيرهم وجمعوا من القوى ما جمعوا حتى بلغت قواهم فيما ذكر أهل السير عشرة الاف، وعشرة آلاف

لها شأن في ذاك الوقت عظيم عشرة ألاف توجهوا إلى المدينة وحاصروا المدنية مدة طويلة، وحصل على المدينة ما حصل من الضيق الشديد، فما حزن المؤمنون بل زادهم إيماناً وتسليماً، وضاق بذلك المنافقون وضعفاء البصائر ثم يسر الله للمسلمين النصر والتأييد من عنده جل وعلا كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: ٩-١١]، فالأمر بيده سبحانه وتعالى زلزلهم ورجعوا خائبين ولم يصيبوا شيئا ولم يقتلوا أحدا سوى ما جرى من إصابة سعد بن معاذ من الجرح الذي انفتق عليه بعد وقعه بني قريظة وصار فيها قتيل واحد من المسلمين وقتيل واحد من الكفار ثم انصرف الناس ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتوجه إلى بني قريظة الذين ظاهروا المشركين على حرب المسلمين وخانوا عهدهم وغدروا برسول الله ﷺ وأصحابه وحاصروهم مدة رضوا بعدها بأن يحكموا سعد بن معاذ رضي الله عنه وحكم سعد بأن يقتل الرجال ويسبى الذراري والنساء، وتقسم الأموال، ونزلوا على حكم سعد وقتلوا وقسمت أموالهم وصارت ذريتهم ونساؤهم سبياً للمسلمين. هذه من آيات الله ومن الدلائل العظيمة على نصر الله للمؤمنين التي وقعت أول هذا الأمر وللدعاة وللمجاهدين ولأهل العقل عبرة وعظة في ذلك. ونسأل الله للجميع البصيرة والتوفيق والهدى. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه. وجزى الله الشيخ جعفر خيراً وبارك فيه وزاده وإياكم نعيماً وتوفيقاً وهدى.

* * *

عالم النبوة الرحيب

شبكة المشكاة الإسلامية الأربعاء ١٣ ذو القعدة ١٤٢٨هـ/ ٢١ نوفمبر ٢٠٠٧م

يتسع عالم الإنسان الذي يعيش فيه أو يضيق بحسب سعة علمه وضيقه، فقد يسكن شخصان في بلد واحد، بل قرية واحدة، ثم يكونان عائشين بعلمهما في عالمين مختلفين غاية الاختلاف في نوعهما وسعتهما بسبب ما بينهما من الاختلاف في نوع العلم وسعته.

يولد الإنسان جاهلا ثم ييسر الله تعالى له أسبابا للعلم كلما توفر له قدر منها أكبر كان علمه أكثر. قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. لكن هذا الإنسان: يولد ومعه بذور العلم التي تنمو في داخله بنمو عقله، ولا تحتاج لأن تكتسب من خارجه لأن " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء؛ هل تحسون فيها من جدعاء؟" فكل ما أنزل الله على رسوله من علم له أصل وجذور في هذه الفطرة. ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وهو علم يشمل أصول الدين وأصول المبادئ العقلية والخلقية والذوقية. فكل من احتفظ بفطرته هذه نقية لم تكدرها عوامل خارجية كان حظه من هذا العلم الفطري أكثر وأشد رسوخاً.

ثم إن الإنسان يكتسب العلم بالوسائل المذكورة في هذه الآية، الحواس والعقل. ومن العلم وأشرفه ما هو وحي من الله تعالى، يعلمه الأنبياء علما مباشرا من خالقهم أو بوساطة ملائكته، ويعلمه سائر الناس بتبليغ الأنبياء.

ومنه ما هو مستخرج من ذلك الفطري والمكتسب والمنزل من عند الله تعالى، يستخرجه الإنسان بكثرة التفكر والتأمل.

كان رسل الله أحب خلق الله إلى الله، فلا جرم آتاهم من العلم بنفسه تعالى وبخلقه ما لم يؤت أحداً، وآتاهم من أسباب العلم ووسائله ما لم يؤت أحداً من سائر خلقه. ومحمد ﷺ هو أحب رسل الله إلى الله، فلا جرم كان أعلمهم به وبخلقه، ولا جرم كان عالمه الذي يعيش فيه أرحب عالم.

بل ليس في الإمكان إبداع

مجلة المعرفة السعودية العدد (٣٢) ذو العقدة ١٤١٨هـ

ربما كانت أسباب هذه المحنة متعددة، لكنني لست أشك في أن أهم أسبابها، أو من أهم أسبابها، علة تتعلق بالتصور، فهي لذلك علة يمكن أن تعالج، إنه لا يمكن أن يقال إن العربي المعاصر إنسان مطبوع على الغباء أو الكسل أو عدم المقدرة على مراعاة الظروف ومواكبه المتغيرات. كلا ! فلدينا من الشواهد ما يثبت نقيض ذلك. لكن المشكلة تكمن في التصور، إنها المشكلة التي ذكرتم طرفاً منها بإشارتكم إلى الاعتقاد بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، لكنكم أهملتم طرفها الآخر الذي هو الآن علة عللنا -أعني الاعتقاد بأنه ليس بالإمكان أفضل مما علية الأوربيون والأمريكان.

الجمود والتقليد الناتجان عن هذين التصورين هما إذن علتنا.

إننا نقول إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، لكن أنّى يكون كذلك في الواقع إذا لم يكن العالمون به عارفين بزمانهم ومكانهم جغرافية وسياسة واقتصاداً، وفكراً ولغة وغير ذلك كما كان أسلافهم بالنسبة لزمانهم ومكانهم؟ وليس المطلوب هنا معرفة المختص، فذلك أمر فوق طاقة البشر، وإنما هو معرفة المثقف الذي يلم من كل شيء مهم بطرف، إلماماً يمكّنه من التواصل مع أبناء عصره، ويعينه على عرض بضاعته عرضاً مغرياً ومؤثراً، بل ويجعله قادراً كسائر زملائه المختصين بالعلوم الأخرى على معرفة مؤسسات عصره وحسن تسييرها واستغلاها، لماذا يكون بعض الأطباء أو المهندسين -ودعك من علماء الاجتماع والسياسة- قادرين على أن يكونوا وزارة داخلية أو خارجية أو إعلام، ولا يكون كذلك المختصون بالعلوم الإسلامية؟ السبب في ذلك هو المناهج الدراسية التي تجعل دراسة العلوم الدينية منعزلة عن المعارف والأفكار والمؤسسات العصرية فالعلة ليست إذن في طبيعة دين الإسلام، حاشاه، ولكنها في مناهج المؤسسات التعليمية الإسلامية، وهي علة يمكن علاجها، ولي بعض اقتراحات بشأنها، ليس هذا مكان تفصيلها.

إنه لا أمل في أن تكون ثوابت الماضي حاضرة وفعالة وموجهة لمتغيرات المستقبل إذا لم يكن العالمون بها حاضرين وفاعلين في مؤسسات الدولة الحديثة.

أما علة العلل-ليس بالإمكان أفضل مما عليه الأوروبيون والأمريكان-العلة التي قعدت بنا ولا تزال تقعد، فهي التي تحتاج إلى وقت طويل وجهد جهيد، لأن الدعاة إليها كانوا ولا يزالون من كبار الساسة وقادة الرأي والأدباء والصحفيين والأساتذة والمعلمين .لقد تربت عليها ولا تزال تتربى الأجيال في المدارس والجامعات ووسائل الإعلام.

هذه الدعوة إلى تقليد الغرب والجمود على ما هو عليه لا تقدم للأجيال على حقيقتها هذه وإنما تعرض على أنها هي الوسيلة الوحيدة لنا؛ لكي نعيش عصرنا ولأن نتقدم ببلادنا كما تقدم الغربيون .ومَنْ من الناس يرضى بأن يعيش خارج عصره، أو أن يبقى على تخلفه؟!

لكن هذه الدعوة إلى الجمود والتقليد مبنية على أوهام وأباطيل ليس من العسير كشفها، ولكن ليس هذا مكان تحليلها والرد عليها، لكن مما يمكن أن يقال في عجالة إنها دعوة تحمل جرثومة موتها، لأن المقلد للغرب لا يمكن أن يكون حراً وأصيلاً، مع أن الحرية والأصالة من القيم التي يعتز بها الغربيون ويشجعونها، ثم إن من أكبر أباطيلها عدم التمييز بين ما كان من ملابسات ثقافية وعادات وتقاليد غربية صاحبت هذا التقدم، إن دعاة التقليد يدعون بأن الحضارة الغربية كل لا يتجزأ وأنها بكل مكوناتها العلمية والتقنية والفلسفية والأدبية والفنية وبكل تقاليدها الاجتماعية ونظمها السياسية هي حضارة العصر لمن أراد من المجتمعات أن يكون معاصراً .فإما أن تؤخذ جملة فيكون الأخذ بها معاصراً متقدماً، وإما أن تترك جملة فيكون تاركها ضعيفاً متخلفاً، ألم يقل الأستاذ زكي نجيب محمود إنه مر عليه زمان كان يرى مثل هذا الرأي، وكان لذلك يعتقد أننا لكي نتقدم فيجب علينا أن. ...وأن نكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون؟ وقد سبقه إلى قول شبيه بهذا الدكتور طه حسين وسبقهما إليه أتاتورك الذي دعا قومة إلى أن يأخذوا من الغربيين كل شيء حتى الديدان التي في بطونهم ! ثم هذا الاعتقاد ساد وانتشر حتى كاد أن يكون بديهة من بدهيات العقل العربي، فأقعد الناس أو كاد عن التفكير المستقبل، وجعلهم يتحرجون من كل ما له صلة بتاريخهم، اللهم إلا إذا كان من النوع الذي ترضى عنه الحضارة الغربية وتعظمه . وكان من نتائج ذلك أن رضي كثير من المفكرين لأنفسهم -حتى أساتذة الفلسفة منهم، كالدكتور زكي نجيب محمود -عليه رحمه الله- أن يظلوا طوال حياتهم دارسين ومترجمين وشارحين للإنتاج الغربي ومدافعين عنه . وكما دعت

هذه الفئه إلى أخذ الحضارة الغربية كلها من غير تمييز بين مكوناتها فقد رفضوا التراث كله بكل مكوناته، واعتبروا الدعوة إلى الرجوع إلى شيء منه صنو الدعوة إلى التخلف، وكان هذا سبباً في انقسام الأمه انقساماً حاداً حال بينها وبين أن تكون أمة واحدة، والأمة لا تستطيع أن تنهض إذا هي انقسمت إلى أمتين متعارضتين متعاديتين ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٤].

ما المخرج؟

إذا كانت الدعوة إلى التقليد الغبي لكل ما هو غربي معتمدة -كما ذكرنا- على دعاوى باطلة عن أسباب التقدم الغربي العلمي التقني، فإن العتبة الأولى في باب المخرج:

- كشف هذه الدعاوى كشفاً مفصلاً بأدلة علمية وحجج منطقية قوية، ويحسن أن يستعان في هذا بما يقوله العلماء والمفكرون الغربيون أنفسهم، فقد كتبوا كثيراً في هذا المجال.

- تقويم الحضارة الغربية تقويماً علمياً منصفاً، يستعان فيه أيضاً بما يقوله الغربيون أنفسهم عن مزايا حضارتهم ومثالبها.

- ثم إشاعة هذه المعرفة بين الناس إشاعة تراعي مختلف المستويات العلمية والعقلية.

- العمل على توطين العلم والتقنية توطيناً يجعلنا من أهل الكشف والاختراع، وينهض بنا عن مستوى التلمذة الدائمة التي أوقعتنا فيها تلك الدعوة إلى التقليد.

- وفي مجال التدريس سواء كان على المستوى الجامعي أو المدرسي:

- تقديم المادة العلمية -أيّا كانت- بطريقة تعتمد على الأدلة والابتعاد قدر المستطاع عن الطرائق التقليدية البحتة.

- في المسائل النظرية يحسن أن يعرض الأستاذ على الدارسين أكثر من رأي أو أكثر من مدرسة، وأن يطلعهم على الخلافات بين المدارس في علم الاجتماع أو علم النفس مثلاً، وعلى نقد المختصين بعضهم لبعض.

-وأن يعبر لهم الأستاذ عن رأيه هو فيما عرض عليهم، ثم يشجعهم على إبداء آرائهم ويعطي درجات أكبر لمن ينتقد منهم حتى لو كان نقده غير مقبول عنده.

- أن يتجنب الأستاذ تمجيد الشخصيات -مهما كان إعجابه بها- تمجيداً يخيف الطلاب من نقدهم أو الاعتراض عليهم.

أضواء قرآنية على ظاهرة الشذوذ الجنسي

جريدة منار السبيل ذو القعدة ١٤١٣

التظاهرة التي أقيمت بواشنطن دفاعاً عن الشذوذ الجنسي أثارت نقاشاً بين الناس عن طبيعة هذه الظاهرة وخطرها لذلك، رأيت أن أقدم للقارئ المسلم الإجابات القرآنية عن بعض الأسئلة والشبهات والدعاوى التي أثارها المدافعون عن هذه الظاهرة.

١- من دعاوى أصحاب هذا الانحراف أن ميلهم هذا أمر ولدوا به فهو في "جيناتهم" وطبعهم، لكن القرآن يُكَذب هذا لأنه يخبرنا بأن قوم لوط كانوا أول من اخترع هذه الفاحشة، قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١]، فلو كانت أمراً طبيعياً لما ذمهم الله تعالى على فعله، حتى لو كان أصل الميل طبيعياً فلا يعفي ضرورة أن المجاهرة بفعله هو أمر طبيعي.

٢- وكما أن هؤلاء الشاذين اليوم يريدون أن ينتقلوا من مرحلة الاستخفاء بهذا الأمر إلى مرحلة المجاهرة به، فكذلك فعل قوم لوط: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، إن كل ما يطالب به أصحاب هذا الميل اليوم هو ألا يضطرهم المجتمع للاستخفاء بأمرهم، وأن يعدهم رغم مجاهرتهم بحالهم أناساً عاديين أسوياء، لهم ما لغيرهم من الناس في المجتمع من حقوق الزواج، والاحترام، والعمل في كل مرافق الدولة العسكرية والسياسية والتعليمية والدبلوماسية.

لماذا -يقول بعضهم- تتدخلون في أمر أفعله في غرفة نومي؟ ما الفرق بين أن يفعل الإنسان هذه الفعلة مع شكله، رجلاً كان أو امرأة، أو أن يفعله مع الشكل الآخر؟ إنه محض تعصب لأمر موروث. لكن الحقيقة أن ما يطالبون به ليس أن يفعلوا ما يفعلونه سراً وفي غرف نومهم، فإن ما يفعلونه سراً أمر لا يحتاج إلى إذن في المجتمعات الغربية المعاصرة، ولا يعد جريمة ما دام برضىً من الطرفين. وإنما ما يطالبون به الآن هو أن يسمح لهم بأن يعلنوا أنهم من هذا الصنف، بل ألا يعترض المجتمع على سلوكهم المعلن الذي يدل على هذا الانحراف. إن المجاهرة بالفواحش أشد نكراً من الاستتار بها لأنه يسيء إلى الأسوياء من الناس، ولأنه يغري الضعفاء منهم بارتكاب ما يرتكبه هؤلاء المجاهرون.

٣-لكن حال قوم لوط -كما قصه علينا ربنا -يدلنا على أنه حتى هذا الاستعلان ليس هو نهاية الطريق، وإنما هو مرحلة أولى، تليها -إذا لم يجدوا من يردعهم -مرحلة الاستعلاء. وإذا صار المنحرفون هم الأعلون في المجتمع ضاقوا بالصالحين من الناس ولم

يسمحوا لهم بأن يشاركوهم السكن في بلد واحد، ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

٤-بل إنهم سيذهبون إلى أبعد من هذا: سيتواطؤون على إذلال بعض هؤلاء الصالحين بارتكاب هذه الفاحشة معهم قسراً، إن هم استطاعوا ذلك .فهذا رسول الله لوط عليه السلام لما جاءته الملائكة في صور رجال حسان الوجوه، اكتأب لمجيئهم، لأنه ظنهم رجالا حقيقيين، ولأنه كان يعلم ما سيحدث لهم من قومه، وقد حدث ما توقع فإنه ما إن تسامع بهم قومه حتى جاؤوا يلهثون مسرعين، فعرض عليهم لوط أن يتزوجوا بناته -إما بناته من صلبه أو بناته بمعنى بنات قومه - وأن لا يحرجوه ويخزوه مع ضيوفه: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾؟ لكنهم أجابوه في صفاقة ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي من حاجة ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٧٧-٧٨، و٧٩-٨٠].

٥-إن أصحاب الشذوذ الجنسي يطالبون اليوم بأن يعد القانون علاقة أحدهما بالآخر علاقة زواج، وأن يعطيهم كل الحقوق التي يعطيها للمتزوجين، لكن الذي نعرفه من حال قوم لوط أن هذه الفاحشة من طبيعتها الإباحية المطلقة وعدم التقيد بقرين واحد، أو عدد محدود من القرناء، بل إن أحدهم إذا استمكن منه هذا الانحراف لا يعود يعرف لممارسته حد، إنه حين يسمع بما يثير شهوته يصيبه نوع من الجنون، فيندفع لارتكابها مع أي إنسان رضي بذلك أم لم يرض .تأمل قوله تعالى في وصف حالهم وهم مقبلون على أضياف لوط عليه السلام ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ إنها فاحشة من طبيعتها الإسراف ومجاوزة الحد: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]، فأصحابها لا يكتفون بممارستها ممارسة فردية، بل إن متعتهم بها لا تتم إلا إذا تعاطوها تعاطياً جماعياً.

٦-وهي فاحشة مرتبطة -على عكس ما يظن معظم الناس -بالعنف والاعتداء على الآخرين اعتداء يتجاوز الاعتداء الجنسي .فقوم لوط كانوا يأتون هذه الفاحشة في ناديهم، كانوا أيضاً قطاع طريق: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

مزايا حقيقية لثورة الاتصالات

الشبكة العنكبوتية

الإعلام كوسيلة اتصالية تخدم الجميع أحياناً، قلنا من قبل بأن وسائل الإعلام ليست قاصرة ـ كما هو معروف ـ على الصحف والمجلات والراديو والتلفاز، بل تشمل الكتب العامة والسينما وربما المسرح، وتشمل الآن الشبكة العالمية (الإنترنت). لكنني أريد أن أضيف في هذا المقال إليها حتى الكتب المدرسية؛ لعظم تأثيرها على الآلاف المؤلفة من أبناء المسلمين. وكما أن لمحتوى المواد الإعلامية المستوردة آثارًا بالغة الضرر على العقيدة، فإن الأدوات الاتصالية كوسيلة لها مزايا لا يمكن حصرها. مزايا ثورة الاتصالات مع كل ما ذكرنا من مثالب الإعلام الغربي فيما يتعلق بالعقيدة، فإن له محاسن تتعلق بها ليس من الإنصاف تجاهلها. من ذلك:

أولاً: أن البلاد الغربية أضحت في زماننا هي موطن الكشوف العلمية والتقدم في العلوم الطبيعية، وأضحى إعلامها هو المختص بإذاعتها على المستوى العالمي حتى لو حدث الاكتشاف في بلد غير غربي.

فهنالك قنوات تلفازية كالقناة الأمريكية المسماة Discovery وقناة وكالة Nasa وهنالك مجلات أسبوعية كمجلة Scientific American ومجلة Discovery الأمريكية، ومجلة New Scientist الإنجليزية.

وهنالك البرامج العلمية التي لا تكاد تخلو منها إذاعة غربية. وقد تطورت هذه الكشوف تطورًا هائلاً، فأظهرت من عجائب صنع الله تعالى في العالم الخارجي وفي المخلوقات الأرضية الدقيقة ما يكاد يجعل من المستحيل على الملحد أن يستمر في الادعاء بأن كل هذا إنما حدث مصادفة وبغير قوة مدبرة.

ولهذا فقد بدأ بعض هؤلاء الملحدين يتراجعون عن إلحادهم وصار بعضهم يشك فيه. أما المؤمنون بوجود الخالق فقد زادتهم هذه الكشوف إيمانًا. وأما المسلمون منهم فإنها لا تكون بالنسبة لهم تأكيدًا لوجود الخالق فحسب، بل زيادة يقين بدينهم وعودة إليه إن كان قد حدث عنه منهم بعد.

* * *

تحريم الشيوعية

جريدة الميثاق الإسلامي، العدد ١٦، صفحة ١٢
الجمعة ١٩ شوال ١٣٨٧ هـ الموافق ١٩ يناير ١٩٦٨

بدأ قبل بضعة أسابيع بعض الناس يهمسون بأنه لاداعي للنص بتحريم الشيوعية في الدستور الدائم، وأنه يكفي النص على تحريم الإلحاد، والآن والمناقشات الجادة للدستور توشك أن تبتدي تحول ذلك الهمس إلى تصريح وإعلان وبدأت تُساق لحذف كلمة "الشيوعية" الحجج والمبررات. وأنا وإن كنت أعلم علم اليقين أن بعض الذين يقودون لواء هذه الحملة لا يفعلون ذلك لحجج ولا لبراهين ولا لمبادئ أو نظريات؛ وإنما نتيجة تآمر وتبرير تم بليل بينهم وبين الشيوعيين، إلا أنني سآخذ حججهم على ظاهرها وأحاول تفنيدها.

❖ **قالوا: إن الشيء الذي يأخذونه على الشيوعية هو الإلحاد ولا شيء غيره.**

ونقول:

١- وهل ثارت ثورة الناس على الشيوعية إلا لدعوتها الإلحادية؟ ولكن الإلحاد بالنسبة للمسلمين مسألة جوهرية لا تقبل المساومة، فكل دعوة تنطوي على الإلحاد فهي مرفوضة منذ البداية مهما كانت موافقتنا أو مسامحتنا لها في بعض تفاصيلها، فالوضع الصحيح أن نقول إننا نرفض الشيوعية لإنها ملحدة ولكننا نتسامح ونعطي الحرية لكل من يدعو لشيء آخر (لا يصطدم مع مسألة جوهرية) أتى به من الشيوعية أو من غيرها. أما أن نقول إن الشيوعية ملحدة، ونحن نحرم الإلحاد، ولكننا نحل الشيوعية فهذا منطق لا أكاد أفهمه.

٢- إن الحركة الشعبية التي جاء تعديل الدستور المؤقت نتيجة لها لم تثر على الإلحاد كمعنىً ذهني مجرد، ولكنها ثارت عليه ورفضته في صورته المشخصة الحية الماثلة أمامنا وهي الحزب الشيوعي السوداني.

فتحويل هذا المطلب الشعبي المحدد إلى معنى ذهني معروف من الدين بالضرورة، تفريغ له من محتواه الواقعي الإيجابي، ولعب على عقول الجماهير

المؤمنة. تصور لو أن أحداً من الزعماء وقف ليقول للجماهير المحيطة بالبرلمان أيام شعبان، مبروك! لقد استجاب البرلمان لمطلبكم فحرم الإلحاد لكن الحزب الشيوعي سيظل باقياً مشروعاً.

٣- ما أظن أن أحداً ذاق حلاوة الإيمان وكره الإلحاد يسمح برؤية شيء اسمه الشيوعية أمام ناظريه ذلك لأن تاريخ العالم لم يَعرف -فيما أظن- حركة كالشيوعية في مثل عدائها لله وسخريتها منه ومن المؤمنين وملاحقتهم ومطاردتهم ومحاولة القضاء عليهم بكل وسيلة سواءً كانوا يهوداً أو نصارى أو مسلمين. ومن شك في هذ فليقرأ تاريخ الحكم الشيوعي بروسيا ليعلم عن عدد الجبهات الإلحادية والجماعات الإلحادية التي كونتها وأعانتها الدولة لتنشر الإلحاد وتقضي على بذور الإيمان.

٤- يقول البعض إن الشيوعيين أنفسهم لم يعودُوا متحمسين للإلحاد، وأنهم بدؤوا يهتمون بالجوانب الأخرى في الشيوعية أكثر من اهتمامهم بالإلحاد. وهذا خبر يسرنا ويثلج صدورنا وسنعمل جهد طاقتنا لتحقيقه، ولكن إذا كان بعض الماركسيين خارج البلاد العربية والبلاد الشيوعية قد بدؤوا يصرحون بشكهم في ضرورة الربط بين الإلحاد والماركسية وإذا كانت هذه الدعوة قد أثرت في بعض أفراد الشيوعيين ممن اطلعوا عليها أو فكروا فيها فإن الموقف الرسمي للأحزاب الشيوعية كلها ومن بينها الحزب الشيوعي السوداني ما زال هو الاستمساك بالماركسية اللينينية التقليدية، ولم تثمر المحاورات التي أجراها بعض الناس معهم إلا في قولهم إنهم يحترمون الأديان، وحتى هذه لم تأت في ظني نتيجة اقتناع وإنما تراجع أمام الضغط الشعبي المؤمن. إنه لا اعتراض لديَّ على استمرار الحوار والجدل مع الشيوعيين ولا مانع لديَّ من الاشتراك فيه، ولكن هذا شيء ومساومة الشيوعية على حساب مبادئنا شيء آخر. فما دام الموقف الرسمي للشيوعية لم يتغير فإن موقفنا منها ينبغي إلا يتغير.

وإذا كان الشيوعيون ليسوا حريصين على الإلحاد فلم الحرص إذن والإصرار على كلمة الشيوعية، التي أصبحت رمزاً لهذا المعنى البغيض؟ لماذا لا يتسمون باسم آخر كالاشتراكية لا إلحاد في مضمونه أو في ظلاله؟

٥-ماذا يعني التعديل المقترح بحذف كلمة "الشيوعية"؟ لو أن هذه المادة جاءت منذ البداية خلواً من كلمة "الشيوعية" ربما استطاع المشرع فيما بعد أن يصدر قوانين تحظر الأحزاب الشيوعية باعتبار أن الدعوة إلى الشيوعية هي بالضرورة دعوة إلى الإلحاد لكن التعديل الجديد قد يؤكد أن روح الدستور تمنع مثل هذا التفسير، وقد يؤكد أن الدعوة للشيوعية ليست -عند واضعي الدستور- محرمة وأنها لا تعني بالضرورة الدعوة إلى الإلحاد.

الحجة الثانية الأساسية التي يرددها بعض أنصار التعديل المقترح هي أن النص على كلمة الشيوعية قد يثير علينا ثائرة الدول الشيوعية، وقد تعتبره موقفاً عدائياً وقد يوهن علاقاتنا معها. إلخ.

ولكن هذه أيضاً حجة واهية، فنحن لا نريد أن ننص على محاربة الدول الشيوعية ولا على محاربة الشيوعية أينما حلت وحيثما حلت، وإنما على الدعوة إلى الشيوعية في بلادنا.

وهذا ليس اعتداء منا على الدول الشيوعية ولكنه تأكيد لخلافنا الأيدُلُوجي معها وصد لعدوانها علينا باتخاذ عملاء في بلادنا يروجون لمذهبها وسياستها، ومعاملة لها بأقل من المثل في محاربتها للإسلام والمسلمين.

وهذا كله لا يعني ولم يفهم منه أحد عدم التعامل مع الدول الشيوعية في كل مجال آخر فيه مصلحة لنا ولهم، وشاهدنا على ذلك أن تحريم الشيوعية بتعديل الدستور المؤقت لم يدفعنا إلى قطع العلاقات مع الدول الاشتراكية ولا أوهى من صلتنا بها، بل إن هذه الصلة كما ذكر لنا أحد السياسيين قويت وزادت في غيبة الحزب الشيوعي.

***

بشاعة التمثيل بالجثث

(موقع الدكتور جعفر شيخ إدريس
١٩ صفر ١٤٢٥ الموافق ٩ أبريل ٢٠٠٤)

الإسلام غايات ووسائل. فكما أن الله سبحانه وتعالى يحدد لعباده غايات نبيلة، فإنه يلزمهم بوسائل شريفة لبلوغ تلك الغايات النبيلة. إنه لا يحدد الغايات ثم يترك للعباد محاولة السير إليها بأي طريق شاءوا. إن الوسائل عبادة، كما أن الغايات عبادة لا يجوز أن يتجاوز فيها حدود الشرع.

فمن الغايات النبيلة التي جعلها الله تعالى وصفاً ثابتاً لعباده المؤمنين يعبر عن عزتهم ويحفظ لهم كرامتهم أنهم لا يقبلون الضيم، ولا يرضون بالهوان بل ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩].

يدخل في هذا الانتصار الدفاع عن الوطن والمال والولد، دفاعاً يصل درجة القتال ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦].

لكن الله تعالى جعل لقتال الأعداء المعتدين حدوداً يجب الالتزام بها. من هذه الحدود التي يجب أن يقف عندها المسلم عدم التمثيل بجثث المقتولين تشويهاً أو تقطيعاً أو حرقاً. إن قتل المعتدي يكفي لرد شره ولعقابه، فالتمثيل بجثته أمر زائد لا يحقق غرضاً بل يسبب أضراراً.

من أضراره أنه يشبه فعل الحيوانات، والتشبه بالحيوانات في السلوك أمر غير مشروع حتى في المسائل التي تبدو صغيرة. فالمسلم لا يجعل جلوسه في صلاته كإقعاء الكلب، ولا يجعل سجوده كنقر الغراب ولا يلبس جلود النمور، وهكذا. فكيف بالتشبه بالحيوانات في تقطيع الجثث وجرها في الشوارع؟ نعم إن المرء إنما يلجأ إلى مثل هذا السلوك إمعانا في التعبير عن غضبه وكراهيته لعدوه. لكن المسلم مأمور بأن يضبط نفسه ولا يخرج عن حدود العدل حتى في معاملته لعدو يكرهه ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وإن من الغايات النبيلة التي ندب الله المسلمين إليها أن تكون صورتهم حتى عند أعدائهم صورة خلقية جميلة.

ولذلك منعهم من الإقدام على أي عمل يشين هذه الصورة في أذهان الأعداء.

من ذلك أن الله تعالى ذكر من حكمته في عقد الصلح مع كفار مكة وعدم قتالهم أنه لو حدث قتال لقتل المسلمون إخواناً لهم بمكة لا يعلمون أنهم أسلموا، لكن الذين يعلمون ذلك كانوا سيعيرونهم بفعلهم، ويشيعون الدعايات عنهم ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٥].

وقد حدث شيء من هذه المعرة لنا عند مشاهدة الناس لصور تلك الجثث تقطع وتحرق. إن كثيرا من الناس – حتى في الولايات المتحدة – يرون أن جنودهم هم المعتدين، وأن من حق العراقيين اللجوء إلى حمل السلاح دفاعا عن وطنهم، لكنهم جميعا يستبشعون بفطرتهم ذلك المنظر، وهذا من شأنه أن يقلل من تعاطفهم معنا ومن نقدهم لحكوماتهم المعتدية.

وأكبر ضرر ينتج عن مثل هذا العمل أنه يؤخر نصر الله تعالى إذ إن الله تعالى إنما ينصر من ينصره، وإنما ينصره الناس بطاعتهم له سبحانه، فكلما قلَّت الطاعة وكثرت التجاوزات قلَّت فرص النصر.

وإذا كان الذين ارتكبوا تلك الافعال أناساً من عوام المسلمين لا علم لهم بهذا الذي نتحدث عنه، فإن من حق من يعلمون أن يرفعوا أصواتهم بإنكاره رفعاً يسمعه غير المسلمين.

إن الدفاع عن الوطن واجب، وهو من الجهاد في سبيل الله، لكنه لا يكون بالإساءة إلى دين الله وصد الناس عنه.

* * *

مناقشة شبهات

المفجرين

بما أن أعمال الناس حسنة كانت أم سيئة إنما تنتج عن تصوراتهم، فإن أنجع وسيلة لعلاج ميولهم إلى الأعمال الشريرة هو إقناعهم بخطأ التصورات التي أدت إليها. لكن هذا الأمر لا يتيسر دائما لأسباب كثيرة:

- منها أن العمل الذي نراه شراً ويراه فاعله خيراً قد يكون من النوع الذي يحتاج إلى سرية شديدة كأعمال التفجير.

- ومنها أن المستعد للإقدام على مثل هذا العمل يكون قد سجن نفسه في جماعة ضيقة صارت تمثل بالنسبة له العالم كله، فما رأته خيراً فهو خير وما رأته شراً فهو شر رغم أنف المعترضين من خارجها.

- ومنها أن الذي ينضم إلى مثل هذه الجماعة، ويأتمر بأوامرها أمراً مطلقاً يكون في العادة من شبان فيهم إخلاص وإقدام لكن يغلب عليهم الجهل وقلة التجربة.

فما العمل إذن؟

عدم معرفة أعيانهم لا تمنع من مخاطبتهم مخاطبة عامة تصلح لكل إنسان عاقل ولا سيما إذا كان مسلماً وهذا ما يقوم به الآن كثير من السياسيين والكتاب الفقهاء.

لكن هذه المخاطبة العامة لا تغني عن مخاطبتهم مخاطبة خاصة تتناول الحجج التي يعتمدون عليها في تسويغهم لعملهم.

أين نجد هذه الحجج؟

نجدها أحياناً عند بعض من يرون رأيهم، ويدافعون عنهم ممن قد يكونون أو لا يكونون معهم. وقد قُدر لي أن أعرف بعض هذه الحجج بسبب الأسئلة التي تعقب المحاضرات العامة، أقول بعضها ولا أقول كلها ولا أهمها.

سألني أحد الشباب الصغار عقب محاضرة ألقيتها بمسجد بالخرطوم عن رأيي في حوادث لندن، فلم يعجبه جوابي فرد عليّ قائلاً: إن هؤلاء الغربيين فعلوا كذا وكذا وقتلوا الآلاف من الأبرياء في أفغانستان والعراق.

قلت نعم وهم في هذا مجرمون وظالمون، فنحن لا ندافع عنهم ولا نبحث عن مسوغات لجرمهم.

قال فماذا نفعل إذن؟ هل نظل ساكتين وهم يفعلون ما يفعلون.

قلت: لا.

قال لكن ليس لنا وسيلة غير هذه التفجيرات نرد بها عليهم.

أقول أولاً: إن هذا ليس بصحيح. فالناس في أفغانستان والعراق ما زالوا يقاتلون المحتلين. وهذا من حقهم.

وثانياً: إنك لا تنصر دين الله بعمل يبغضه الله. والله تعالى نهانا عن قتل الأبرياء، إن إقدام عدوك على جرائم يحرمها عليك دينك لا يحل لك هذه الجرائم. هل ترى أن نفعل بأسراهم ما فعلوا هم بأسرانا في أبي غريب؟ هل ترى أن ترتكب الفواحش مع رجالهم إذا ارتكبوها هم مع الأسرى من رجالنا؟

يستدل بعضهم بمشروعية هذه الأعمال بما يراه من نتائج حسنة أدت إليها. لكن اعتبار النتائج الحسنة دون النظر إلى السيئة، أو السيئة دون النظر إلى الحسنة ليس من شأن العقلاء، لأنك تستطيع بمثل هذا المنطق أن تسوغ كثيراً من أنواع الظلم، أو تعترض على كثير من وسائل الخير.

إن المنهج الصحيح هو أن توازن بين آثار الشيء الحسنة والسيئة فما غلب حسنه على سوئه كان في جملته حسناً، وما غلب سوؤه على حسنه كان ممنوعاً. كما قال الله تعالى في تعليله لتحريم الخمر والميسر: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، وكما قال في نهيه عن سب آلهة المشركين: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

لو أن حكومة ما ضاقت ذرعاً بالكذابين فقررت أن تقطع لسان كل من ثبت عليه كذب لأدى ذلك إلى تقليل عدد الكذابين ما في ذلك شك. لكن الأضرار الناتجة عنه ستكون أكبر.

يتصل بهذه المسألة مسألة أخرى تتعلق بسمعة الإسلام والمسلمين. إن أعظم مهمة يقوم بها إنسان هي الدعوة إلى الله. وهذه الدعوة تقتضي أن تبلغ دين الله إلى الناس كما هو فلا تحرفه بقول أو عمل. وإلا كنا من الذين يصدون عن سبيل الله بدلا من أن نكون من الداعين إليه. إن الإساءة إلى سمعة المسلمين هي من نوع الصد عن سبيل الله، ولذلك فإن الله تعالى علل منعه للمسلمين من مهاجمة عدوهم بمكة بقوله سبحانه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

هذا الذي فعله كفار مكة كان عملاً عدوانياً حتى بمقاييس التقاليد العربية التي لم تكن تبيح صد إنسان يريد زيارة بيت الله الحرام. فكان من حق المؤمنين إذن أن يهاجموهم دفاعاً عن حقهم هذا. لكن الله تعالى منعهم وعلل منعه لهم بأن العرب ستعيّرهم بقولهم إنهم قتلوا إخوانهم مع أنهم لو قتلوهم في من قتلوا لكانوا معذورين لعدم علمهم بوجودهم.

فكيف يُقدم مسلم على قتل أناس يعلم أنه قد يكون فيهم بعض إخوانه المسلمين، ويعلم أن أغلبهم بل ربما كانوا جميعاً من الأبرياء الذين لا مشاركة لهم في قتل المسلمين بقول أو فعل، بل ربما كان بعضهم من الذين اعترضوا على ذلك؟

إن أكثر الناس فرحا بهذه الأعمال هم أعداء الإسلام الحقيقيون الذين يغيظهم سرعة انتشاره بين ذويهم. إنهم يعلمون أن مثل هذا العمل هو أحسن وسيلة لصد الناس عن الإسلام. من ذا الذي يقدم على اعتناق دين يرى أن أهله لا يبالون بقتل الأبرياء حتى لو كانوا من إخوانهم في الدين؟

* * *

إنسانيتنا جوهر ثابت وواقع يتغير

موقع الشيخ جعفر شيخ إدريس
١ يناير ٢٠٠٦م

لقد كان من حسنات التطورات التي حدثت في علم الجينات أن أثارت اهتمام العلماء، بل وسائرنا، في قضايا أصولية تتعلق بحياتنا .

ما جوهر إنسانيتنا؟ هل لنا من طبيعة ثابتة هي التي بمقتضاها نكون بشراً؟ أم أن طبيعتنا لوح فارغ تكتب عليه الثقافة والبيئة والهندسة الوراثية ما تريد؟ هل لنا من روح؟ وإن كانت لنا فما الفرق بينها وبين جلودنا؟

لقد كان من الطبيعي أن يكون المؤمنون بوجود الخالق من أوائل المهتمين بهذه الأسئلة وأن يجيبوا عنها إجابات مبنية على تعاليم أديانهم. فيسرني لذلك أن يكون لي شرف المشاركة في هذه المناقشة المهمة، وأن أعطى الفرصة لأقدم ما أراه نظرة إسلامية أصيلة إلى هذه المسائل المهمة.

أنا مهتم هنا أساساً بمسألة الطبيعة. إذا كان ما نسميه طبيعة الشيء هو مجموع الخصال التي تكون هويته، فيلزم ضرورة أن يكون لكل شيء طبيعة. قد نختلف فيما إذا كانت بعض الخواص هي من مكونات طبيعة شيء ما، لكن لا يمكن أن نقول عن شيء نعرفه ونتعامل معه أن ليس له من طبيعة ألبته، أو أن طبيعته في تغير مستمر. هذه قضية منطقية. وإذن فيجب أن لا يكون هنالك خلاف في أن للبشر طبيعة محددة يكونون بمقتضاها بشراً. ويجب أن لا يكون هنالك خلاف في ثبات هذه الطبيعة واستمرارها، لأنها إذا تغيرت فإن الشيء ذا الطبيعة الجديدة لا يكون إنسانا بل شيئا آخر غير البشر الذين عرفناهم وتعاملنا معهم.

وعليه فإن السؤال ينبغي أن لا يكون عما إذا كانت للناس طبيعة، أو عما إذا كانت تلك الطبيعة ثابتة أم متغيرة، وإنما يكون عن الخصائص التي تتكون منها هذه الطبيعة.

إننا جميعاً متفقون على أن لنا أجساماً، وأن لهذه الأجساد طبيعة تفتضي حاجتها إلى أشياء معينة لبقائها. ونحن متفقون كذلك على أن لنا خصائص عقلية لا نكون بغيرها أناساً. إن كائنا لا يستطيع بطبيعته أن يفكر أو يريد أو يعلم لا يمكن أن يكون إنساناً حتى لو كان له جسم مشابه لأجسام البشر، وحتى لو كانت له بعض

الخصائص الإنسانية الأخرى. وعليه فإذا استطاعت الهندسة الجينية أن تنتج كائنات كهذه فإنها لا تكون قد غيرت الطبيعة البشرية، وإنما تكون قد أنتجت كائنات جديدة لا علاقة لها بنا. إذا افترضنا حدوث شيء كهذا، فإنه لن يكون إنهاء لوجود الكائنات البشرية. إن البشر العاديين سيستمرون في الوجود وسيتوالدون بالطريقة الطبيعية التي ما زالوا يتوالدون بها حتى الآن.

السؤال سيكون إذن: هل من مصلحتنا نحن البشر العاديين أن نسمح لشيء كهذا أن يحدث؟

إن إجابة المؤمن بالله ستكون كلا. لماذا؟ لأنه يعتقد أنه لا يمكن أن يستحدث كائن ذو طبيعة أفضل من طبيعة البشر أو حتى مساوية لها. هذا على كل حال ينبغي أن يكون موقف المسلم.

إن لبني آدم في حكم الإسلام خصائص كثيرة يفضلون بها سائر المخلوقات. لكن هذه الخصائص تختلف في أهميتها.

فلنبدأ بالخصائص التي يقول الإسلام إنها مشتركة بين كل المخلوقات، ثم نعرج على ذكر ما يميز الإنسان باعتباره مخلوقا خاصاً.

كل المخلوقات مسلمة: المخلوقات جميعها تعبد الله تعالى، كل بحسب طبيعته الخاصة. القرآن الكريم بيان لنوع هذه العبادة المشتركة بين المخلوقات.

الإسلام: المخلوقات مسلمة لله بمعنى أنها تخضع وتستسلم له ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

التسبيح: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١].

السجود: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

القنوت: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦].

إن البشر مخلوقات خاصة لكنهم لا يختلفون عن سائر المخلوقات في أن جوهرهم يتمثل في كونهم عبيدا لله تعالى. بيد أن الله تعالى حباهم بخصائص تجعلهم أعلى درجة من سائر المخلوقات.

فأولا: إن أباهم آدم خلق بطريقة خاصة. فالله تعالى يخبرنا أنه سبحانه خلقه بيديه. (٣٨ : ٥٧)

ثانيا: ويخبرنا أنه أمر ملائكته بأن تسجد له، [البقرة: ٣٤].

ثالثا: أنه تعالى خصه من بين سائر الحيوانات بأن نفخ فيه روحا شرفها الله بأن نسبها إلى نفسه، [السجدة: ٩].

رابعا: سخر له كل ما في الأرض، [البقرة: ٢٩].

خامسا: جعله مخلوقا كريما: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

سادسا: أعطاه علما لم يعطه الملائكة، ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

الجسم والروح:

الجسم والروح كائنان مختلفان لكل منهما خصائص ووظائف غير خصائص الآخر ووظائفه. لكنهما متصلان ومتعاضدان من عدة وجوه.

أما اختلافهما فتدل عليه نصوص كثيرة منها:

أولاً: أنه في خلق آدم كان النفخ بالروح في جسم قد سبق أن خلق. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩].

ثانياً: عندما يموت الإنسان فإن روحه تفارق جسده.

ثالثاً: إذا سعد الإنسان بدخول الجنة فإنه يمنح جسداً جديداً يتناسب مع نعيمها، وكذلك إذا شقي بدخول النار.

الروح الإنسانية:

يقول الإسلام إن الإنسان يولد خيراً، وخيريته هذه صفة لروحه، وهي تتمثل فيما يلي:

(أ) أنه يولد بقدرة طبيعية على أنه عبد لله، الخالق الأحد الذي يجب لذلك أن يعبد وحده. كل خواص الإنسان الخيرة الأخرى مرتبطة بهذا الخير الأساس. أعني خاصيات المعرفة والإرادة، وحسن الخلق والتدبير، والعقلانية والذوق الرفيع، وغيرها. إنها مرتبطة بها من حيث كونها تتقوى بها، ومن حيث كونها تسوغ بها، ومن حيث كونها قنوات تؤدي إليها. ولذلك فإنها تستعمل في القرآن الكريم معايير يبنى عليها حججه في دعوة الناس إلى عبادة الله تعالى.

(ب) أن الروح تخلق سالمة من العيوب.

(جـ) أن الإنسان يستطيع لذلك أن يميز بفطرته بين ما هو من مكارم الأخلاق وما هو من مساوئها ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

(د) كل ما في كتاب الله من الأوامر والنواهي له أصل في هذه الفطرة. ولذلك فإن الدين الحق الذي جاء به الأنبياء يسمى دين الفطرة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

ولذلك فإن الأوامر والنواهي الإلهية تسوغ بكونها موافقة لهذه الفطرة. فالخمر والميسر منهي عنهما؛ لأن الشيطان عدو الإنسان الأول يستغلهما لإيقاع العداوة والبغضاء بين عباد الله الذين تقتضي فطرتهم الخيرة أن يكونوا إخوة متحابين، وليصدهم عن الصلاة التي هي عماد فطرتهم وغذاؤها. والقصاص يسوغ بكونه يحفظ الحياة. وحق أقرباء المقتول في العفو أو أخذ الدية أدعى لحفظ الحياة. والصلاة مأمور بها لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأن ما فيها من ذكر الله يمنح القلوب اطمئنانا وسلامة.

(هـ) لكن الله تعالى منح الإنسان إرادة يخير بها بين أن تكون حياته الواقعية تعبيراً عن حقيقته الإنسانية الفطرية الخيرة، أو خروجاً عليها واختياراً لحياة غريبة عنها.

إن الله تعالى يرضى لهم أن يختاروا حياة الفطرة المتمثلة في عبادته ويعينهم بوسائل شتى ليكون هذا خيارهم:

١- فهو لا يخلقهم محايدين بين هذين الخيارين، بل يجعل هذا هو الخيار الطبيعي الذي تميل إليه فطرتهم، و الذي يجعلهم لذلك يعيشون في سلام مع أنفسهم.

٢- ويجعل مخلوقاته كلها آيات (علامات ودلائل) على وجوده سبحانه وعلى صفاته الحسنى، ويجعل فيها أدلة على صدق من يرسل من رسله، وصدق الرسالات التي يأتون بها.

٣- يجعل الإيمان بالله العقيدة الوحيدة التي تتوافق مع كل ما فطر عليه الإنسان من صفات الكمال: العقل، ومكارم الأخلاق، والعدل، والرحمة، والحكمة وغيرها.

٤- يرسل لهم رسلاً يبينون لهم تفاصيل الحياة التي تلائم تلك الفطرة، ويعطيهم أدلة على ذلك، ويزودهم بحجج تبين زيف حياة الاغتراب عن الفطرة، وعن الخالق سبحانه.

٥- وإذا ما اختاروا الخيار الخطأ، فإن فطرتهم الجوهرية لا تتغير مهما كانت حياتهم الواقعية ضالة منحرفة. وعليه فإنهم مهما بعدوا في حياتهم الواقعية عن إنسانيتهم الجوهرية فإنهم يستطيعون الرجوع إليها في أي وقت يختارون ما داموا على قيد الحياة. وإذا ما عادوا وآبوا فسيجدون ربا يحب التوابين

يبدو من هذا أنه لا شيء خارجي يستطيع أن يغير الروح الإنسانية أو يفسدها ويحرمها من خواصها الحسنة كلها أو بعضها (لا تبديل لخلق الله). بل الإنسان وحده لا مخلوق غيره هو الذي يستطيع باختياره أن يفسد نفسه.

الجسم البشري:

قلنا إن طبيعة الروح تختلف عن طبيعة الجسم، لكن الروح بحاجة إلى جسم لتجعل حياة الإنسان الواقعية تعبيرا عن إنسانيته الروحية. لكن الجسم الذي تحتاج إليه ليؤدي هذه الوظيفة ليس أي جسم كان، وإنما هو جسم خاص مصمم ليتناسب مع هذه المهمة.

١) إن جسم الإنسان يشبه إلى حد كبير أجسام سائر الحيوانات لكنه أحسنها تقويما كما يخبرنا القرآن الكريم.

٢) ولأنه جسم خاص فإنه يجب أن يعامل باحترام حتى عندما يصير ميتا. فالرسول صلى الله عليه وسلم يخبرنا ان قطع جزء من إنسان ميت كقطعه من جسم إنسان حي.

٣) عندما يموت الإنسان ويصبح جسما بلا روح، فإن هذا الجسم الميت يجب أن يغسل وينقى، ويلف في ثوب نظيف، ثم يجب أن يدفن. والمؤمنون مأمورون بأن يقفوا للجنازة إذا مرت بهم.

٤) يحرم التمثيل بالأجسام البشرية حتى في حالة الحرب.

٥) ولأن الروح تستعمل الجسم فإن كثيرا من أعمالها تنسب إلى أجزاء منه ولا سيما القلب. لكن اللغة المستعملة للتعبير عن هذه النسبة تجعلنا نقطع بأن المقصود ليس هو الجسم الحسي.

٦) الناس مأمورون بأن لا يحطوا من أقدارهم البشرية بأن يتصرفوا تصرف الحيوان ولا سيما في أدائهم للعبادة. فنحن مأمورون بأن نغض من أصواتنا ولا نجعلها منكرة كأصوات الحمير. رأي النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يقود آخر بحبل، فقطع الحبل وأمره أن يقوده بيده. وهو يأمرنا بأن لا نتشبه بأي حيوان في أدائنا لحركات الصلاة، فلا نهوي إلى الأرض هوي البعير، ولا يكون سجودنا كنقر الغراب، ولا يكون جلوسنا كجلسة الكلاب. بل نحن مأمورون بأن لا نلبس جلود الوحوش حتى لا نشبهها.

ليس المقصود من هذا ازدراء الحيوان وإنما المقصود منه أن يتصرف الإنسان التصرف اللائق به المناسب مع فطرته الإنسانية. لأن الإنسان مأمور مع هذا أن يعامل الحيوانات معاملة حسنة ويرحمها، فالرسول صلى الله عليه وسلم يخبرنا عن امرأة بغي أدخلها الله الجنة لأنها نزلت بئرا وحملت منها ماء في خفها لتسقي كلبا كاد يموت ظمأ. ويخبرنا في المقابل بامرأة دخلت النار بسبب هرة حبستها حتى ماتت جوعاً، فلا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض. ونحن مأمورون بأن لا نمثل بأجساد الحيوانات، ولا أن نسمها ولا سيما في وجوهها، فقد رأى ﷺ حمارًا على وجهه وسم فلعن من وسمه.

الهندسة الجينية:

في الإسلام موجهات عامة تهدينا إلى الطريقة التي نتعامل بها مع مخلوقات الله تعالى، والتي تصلح لذلك أن تكون هادية لنا في الموقف الذي نتخذه من قضية الهندسة الجينية. من هذه الموجهات:

(أ) أن الله تعالى أحسن كل شيء خلقه.

(ب) أن المخلوقات مسخرة للإنسان.

(جـ) وعليه فإن هذا الخلق يجب أن لا يغير.

(د) هنالك علاقات وروابط ليس بين مكونات المخلوق الواحد وأجزائه وإنما بين المخلوقات كلها.

(هـ) التجربة تشهد بأن مثل هذه التغييرات لا ينتج عنها إلا الضرر.

قد تقول إنه لا مفر لنا من أن نحرث الأرض، ونبذر الحب، ونذبح الحيوان، ونحفر الآبار ونشق القنوات. أجل إننا نفعل هذا كله لكن فعلنا له هو تصرف في إطار النظام الطبيعي لا خروجا عليه. إننا نفعل الشيء نفسه عندما نصلح شيئا قد فسد. إننا نبحث عن دواء لأمراضنا وأمراض حيواناتنا. وقد نحتاج حتى لبتر أجزاء من أجسامنا. هذا لأن إتقان الخلق لا يعنى أن له كمإلا ككمال خالقه.

فالجينات يجب أن تعامل بالطريقة نفسها. لا ضرر من أن يبدل بجين قد فسد جينا صالحا. إن الهندسة الوراثية ينبغي أن لا تهدف إلي تحسين خلق الله لأنها إن غيرته فلا محالة تفسده. لهذا فإن إن الهندسة الوزاثية يجب أن لا يلجأ إليها للعلاج إلا لأغراض علاجية.

أما استنساخ البشر فلا أرى له مسوغا. إن الطريقة الطبيعية المعهود التي يأتي بها الإنسان إلى الوجود طريقة ذات ارتباط وثيق بالطبيعة؛ إن لها ارتباطا بالشهوة الجنسية، وعلاقة بتقارب الأجسام، نموا في رحم لإمرأة طبيعية، حب، رضاعة، إخوة وأخوات. لكن الكائن المستنسخ يفقد كثيرا من هذه الصفات والعلاقات. فأي كائن سيكون؟ وما الحاجة إليه؟ أليس من الغريب أنه في الوقت الذي يسعى الناس فيه للحد من الإنجاب الطبيعي، يسعون لانجاب كائنات أقل ما يقال عنها إنها تفقد كثيراً من الخصائص البشرية؟

ازدياد حرارة الأرض

شبكة المشكاة الاسلامية

الاثنين ٠٧ ذو الحجة ١٤٢٥ هـ / ١٧ يناير ٢٠٠٥ م

الفساد المشار إليه في قوله تعالى: (ظهر الفساد في البر والبحر)، هو فساد في الطبيعة برها وبحرها سببه فساد في سلوك الناس.. (بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا). ليس من شرط ذلك الفساد الحسي المترتب على هذا الفساد السلوكي أن يحدث بطريقة خارقة لسنن الطبيعة المعروفة. بل قد يحدث بأسباب كثيرة وسيطة بينه وبين السلوك الفاسد: يؤدي السلوك الفاسد إلى نتيجة، وتؤدي تلك النتيجة إلى أخرى، إلى أن تؤدي الأخيرة إلى الفساد.

من أعظم أمثلة هذا الفساد في الطبيعة في عصرنا، فساد صار اليوم موضع اهتمام كبير بين العلماء تعقد له المؤتمرات وتبرم بشأنه الاتفاقات، إنه الفساد المتعلق بزيادة درجة الحرارة في الكرة الأرضية.

ملخص ما يقوله العلماء المختصون في تفسيرهم لهذه الظاهرة هو أن أشعة الشمس التي تصل إلى أرضنا تتحول إلى حرارة، وأن الأرض تعكس هذه الحرارة إلى خارجها، لكنها لا تعكسها كلها، بل تحبس جزءًا منها، وأنها لو عكستها كلها لتجمدت كل البحار ولم تعد الأرض صالحة للحياة، وأنها تحبس ما تحبسه من حرارة بفعل الغازات المتصاعدة منها، وأهمها بخار الماء وثاني أكسيد الكربون والميثان. تكون هذه الغازات طبقة حول الأرض فتكون شبيهة بذلك البيت الزجاجي الذي تزرع بداخله بعض النباتات، ولهذا تسمى بغازات البيت الأخضر.

مشكلتنا الآن هي أن كمية هذه الغازات بدأت تزداد بازدياد ما يتصاعد من الماكينات التي تحرق الوقود الحيوي كالفحم والبترول والأخشاب.

كانت حرارة الأرض ١٥ درجة مئوية لكنها الآن ازدادت قليلاً (اقل من درجة). لكن المختصين يقولون إنها مع قلتها قد تسببت في إثارة العواصف العنيفة وارتفاع مستوى البحار واضمحلال البيئات الحيوانية. وأن من شأن هذه الزيادة إذا ما استمرت

أن تؤدي إلى ذوبان الجليد ، وبالتالي إلى ارتفاع مستوى البحار التي ستفيض حينئذ على الشواطئ وتغمر بعض الجزر.

لا حل لهذه المشكلة إلا بالتقليل من استهلاك ذلك النوع من الوقود ، ولكن مع أن الولايات المتحدة هي المسؤولة عن ربع ما يتصاعد من تلك الغازات فهي التي تتباطأ في التقليل من ذلك الاستهلاك.

اجتمع في السابع من شهر ديسمبر في "بوناس آيرس" كبريات المنظمات العالمية المعنية بحماية البيئة لمناقشة هذه المشكلة والضغط على الحكومات للحد من ذلك الاستهلاك. ولكي تلفت النظر إلى خطورة الأمر فقد صنعت فلكًا ضخمًا يشبه سفينة نوح حسب ما جاء وصفها في كتبهم، وأسموها بذلك الاسم. لكنهم نسوا أن الذي أنجا نوحاً ومن معه لم يكن الفلك وإنما كان الفلك وسيلة أمر الله نوحًا أن يصنعها لكي ينجيه ومن معه من المؤمنين. ثم إنه بعد أن أغرق الله من يستحق الإغراق من الكافرين أمر السماء بأن تقلع وأمر الأرض بأن تبلع ماءها فاستقر الفلك على أرض يابسة.

فما الذي سيحدث لأرضنا يا ترى؟ إنهم يبحثون عن بدائل نظيفة لذلك النوع من الوقود منها البديل النووي الذي لا ندري ما ذا ستكون نتائجه هو الآخر. وماذا إذا لم يوجد هذا البديل أو لم يكن كافيًا؟ إما أن تقلل الدول من استعمالها لذلك الوقود ، وبالتالي يقل انتاجها المادي والخدمي، وإما أن تصر على الاستمرار في استعماله فيحدث ما يخشى منه حماة البيئة: تفيض البحار ، وتثور الأعاصير العنيفة، وتموت البيئات التي تعيش فيها الحيوانات الآن ، ويزداد معدل الأمطار في البلاد ذات الأمطار القليلة الآن ويزداد معه تصحرها لأن شدة الحرارة تقضي على النباتات .فالله المستعان، وعليه التكلان في فترات الجفاف.

* * *

المقالات التي نشرت في مجلة البيان حسب تاريخ نشرها

١) الإسلام لعصرنا.. لماذا وكيف؟:

مجلة البيان ١٣٧محرم ١٤٢٠ مايو ١٩٩٩م

وهذا المقال هو عنوان للمقالات التي كتبها الشيخ في مجلة البيان، فالإسلام كما أنزله الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ومن غير تحريف ولا تبديل هو الذي رضيه سبحانه للناس أجمعين في كل مكان وكل عصر منذ مبعث رسوله الأمين، وإلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

٢) السلام وانتشار الإسلام:

مجلة البيان العدد ١٣٨ — صفر ١٤٢٠ الموافق يونيو ١٩٩٩

وهو مقال يذكر الشيخ فيه أثر السلام في انتشار الإسلام، وهذا المقال كان قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ولاحظ بُعد نظر الشيخ، حفظه الله، حين دعا للمحافظة على الحالة السلمية، وتوقعه بأن لا تدوم تلك الحال طالما كان الإسلام في انتشار. وقد سمعته قال أيضا في محاضرة له في مؤتمر رابطة الشباب العربي المسلم في أمريكا في الثمانينات الميلادية: إن الأمريكان إذا شعروا بأن مثل اجتماعاتكم هذه يشكل خطرًا عليهم فإنهم لن يسمحوا لكم بها.

٣) دعاة يستحقون المساعدة:

مجلة البيان ١٤٠ربيع الآخر ١٤٢٠ أغسطس ١٩٩٩م

وهو مقال يدعو فيه الشيخ المسلمين أن يوسعوا مساعدتهم لكل داعية يدعو إلى الله على منهج أهل السنة، ولو لم يكن من المتخصصين في العلوم الشرعية.

٤) آيات الصيام والدعوة إلى الإسلام:

مجلة البيان ١٤٥ رمضان ١٤٢٠ ديسمبر / يناير ١٩٩٩/٢٠٠٠م

وفي هذا المقال يبين الشيخ أن الآيات التي أمر الله بها عباده بصيام شهر رمضان هي منهج في الدعوة إلى الإسلام ويسره، فلم يأمر بالصيام أمراً مجرداً بل يسوق كل الحقائق التي من شأنها أن تعطف القلوب إلى الخير الذي يأمر به سبحانه.

٥) الدعوة.. ووسائل الاتصال الحديثة:

مجلة البيان العدد ١٤٦ -شوال ١٤٢٠ الموافق فبراير ٢٠٠٠

يشير الشيخ -حفظه الله- إلى أن وسائل الاتصال الحديثة فرصة كبيرة لنشر رسالة الإسلام، لكنها أيضا أكبر تحد يواجه الدعاة في نشر هذه الرسالة.

٦) وسائل الاتصال وعلاقتنا بالثقافات الأخرى:

مجلة البيان ١٤٨ذو الحجة ١٤٢٠مارس ٢٠٠٠

في هذا المقال يشير الشيخ إلى أن وسائل الاتصال تساعد على وصول الثقافات الأخرى للمسلمين وانتشارها بينهم، ومع ما فيها من شرور، ولكن ذلك قد ينطوي على بعض الخير؛ لأن معرفة ثقافة غير المسلمين أمر ضروري لحسن إبلاغ الدعوة إليهم ومجادلتهم .

٧) دين الحق والخير والجمال:

مجلة البيان ١٥٠ صفر ١٤٢١ مايو / يونيو ٢٠٠٠م

يبين الشيخ في هذا المقال كيف أن دين الإسلام هو دين الحق والخير والجمال لأنه حق كله وخير كله وجمال كله فلا باطل فيه ولا قبح فيه، وأما ما عداه فيختلط فيه الحق بالباطل والخير بالشر والجميل بالقبيح.

٨) دين لا تكفير فيه ليس بدين:

مجلة البيان ١٥٢ ربيع الثاني ١٤٢١ يوليو ٢٠٠٠م

يبين الشيخ أن الإسلام دين منزل من عند الله مرتكز على مجموعة من الحقائق من آمن بها كان مسلماً، ومن أنكرها أو سخر منها أو استهزأ بها كان كافرًا فإمكانية الحكم على إنسان بالكفر أمر لازم لهوية الدين، فالدين الذي لا إكفار فيه ليس بدين؛ لأنه لا هوية له، وإذا لم يكن للدين هوية ولم تكن له معالم فإلى أي شيء تكون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ؟

٩) ماذا وراء كسر الحكومة الأفغانية للأوثان:

مجلة البيان ١٦٢صفر ١٤٢٢مايو ٢٠٠١م

يشير الشيخ في هذا المقال أن الحجر الذي أقدمت على تكسيره الحكومة الأفغانية ليس مجرد حجر في صورة إنسان ولوكان كذلك لما حرص على تكسيره الأفغان وإنما لأن الناس رأوه إلهاً وما هو بإله ورأوا أنهم يضاهون به خلق الله فكان كسره كسراً لهذا التصور المفسد لقلب الإنسان، فالكسر وسيلة لإقامة الدليل القاطع على بطلان ذلك التصور الفاسد.

١٠) لا تحسبوه شراً لكم:

مجلة البيان ١٦٨ شعبان ١٤٢٢ نوفمبر ٢٠٠١م

بين الشيخ في هذا المقال أن الله -سبحانه وتعالى- قد يجعل من المصائب أبواباً يأتي منها خير كثير، وقد كتب هذا المقال بمناسبة أحداث الحادي عشر من سبتمبر وقال

إنني أرى في هذه المصيبة فرصة كبيرة للدعوة إلى الله وتصحيح الصورة المشوهة للإسلام في أذهان الأمريكان.

١١- الحرية والعبودية:

مجلة البيان ١٨٣ ذو القعدة ١٤٢٣ يناير ٢٠٠٢م

في هذا المقال يبين الشيخ بأن القول إن الإنسان حر، أو أنه ينبغي أن يكون حراً بالمعنى الغربي الشائع كلام يكذبه الواقع، ثم إنه مخالف للإيمان بأن الإنسان عبد لله يأتمر بأوامره، وقد أدرك هذا بعض الكتاب النصارى، منهم كاتبهم الإنجليزي المشهور لويس الذي قال كلاماً فحواه : إنني لم أولد لأكون حراً ، وإنما ولدت لأسمع وأطيع.

١٢) الإنصاف في معاملة غير المسلمين:

(مجلة البيان ١٧٥ ربيع أول ١٤٢٣ مايو -يونيو ٢٠٠٢)

بين الشيخ في هذا المقال أن معاملة المسلمين لغيرهم يجب أن تؤسس على الحقائق، حقائق الدين المتلوة وحقائق الواقع المشهودة، فغير المسلمين وإن كانوا غير مسلمين فهم ليسوا سواء في قربهم وبعدهم من حقائق الدين، وليسوا سواء في معاملتهم للمسلمين وهذا يحتم علينا أن لا نغفلها في تعاملنا معهم، وهذا ليس إنصافاً لهم فحسب بل هو أمر ضروري لتحصيل كثير من المصالح ودفع كثير من المفاسد.

١٣) الاعتبار بمآلات معاصي الكفار:

مجلة البيان العدد , 177 جمادى الأولى 1423هـ يوليو/ أغسطس

يؤكد الشيخ في هذا المقال أن الآثار العظيمة للمعاصي إنما تظهر في المجتمعات الكافرة، وكلما كثرت هذه المعاصي وكلما طال أمد مقارفتها والجهر بها كان ظهور آثارها السيئة أبين وأكثر.

١٤) الحوار مجادلة جادة.. لا مداهنة

مجلة البيان العدد ١٩٠. جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ الموافق أغسطس ٢٠٠٣

يقرر الشيخ في هذا المقال أن الحوار لا يكون ناجحاً إلا إذا توفرت فيه بعض الشروط، وخلا من بعض المفسدات، فمن الشروط صدق المتحاورين وإخلاصهما في الوصول إلى ما أعلنوه من أهداف، ومنها أن يستند الحوار إلى معايير يؤمن بها الطرفان.

١٥) الاعتقاد في حفظ السنة:

(مجلة البيان العدد ١٩٤ . شوال ١٤٢٤ ديسمبر ٢٠٠٢)

يبين الشيخ في هذا المقال أن من لوازم الإيمان الاعتقاد في حفظ السنة النبوية؛ لأن الله تعالى يقول: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" فالسنة محفوظة لأنها من الذكر كما يقوله بعض العلماء، أو أن السنة تستلزم كلمة الذكر وهو ما شرح ذلك وبينه الشيخ في هذه المقالة.

١٦) الإسلام السياسي:

مجلة البيان ٢٠٢ جمادى الآخرة ١٤٢٥ يوليو أغسطس ٢٠٠٤م

بين الشيخ في هذه المقالة المقصود بالإسلام السياسي عند الغربيين هو وصف للدعاة الذين يدعون إلى أن تكون دولهم إسلامية تحكم بما أنزل الله سبحانه، وكذلك بين الشيخ في هذا المقال ما الذي يأخذه خصوم الإسلام السياسي عليه ؟

١٧) الدين دينان: منزلٌ من السماء.. ومتخذٌ في الأرض:

مجلة البيان ٢٠٣ رجب ١٤٢٥ اغسطس / سبتمبر ٢٠٠٤م

يفرق الشيخ في هذه المقالة بين دين الله الحق المنزل وبين دين البشر الذي هو خليط بين الدين الحق والدين الباطل، أو هو دين لا علاقة له بالدين المنزل إنما هو من اختراع الناس، ويقرر الشيخ نتيجة وهي أن الدين الذي يجدد هو دين الناس الذي يمارسون، وذلك بجعله موافقاً للدين الحق، وليس الدين الذي يجدد هو دين الله المنزل.

١٨) الإسلام الهَيولاني:

(مجلة البيان ٢٠٦ شوال ١٤٢٥ نوفمبر /ديسمبر ٢٠٠٤)

يعبر الشيخ بالإسلام الهيولاني عن إسلام الأهواء الذي ليس إسلاما لله إنما هو إسلام لأهواء كل من يدعي الانتساب إليه، فهو إسلام لا صورة له ولا محتوى ولا يمكن أن يعرف أو يوصف؛ لأنه دائم التغير والتشكل بأشكال تلك الأهواء التي لا تستقر على حال فهو هيولاني نسبة لهيولى؛ وهي في فلسفة أرسطاريس مادة ليس لها شكل ولا صورة ثابتة، إنما هي قابلة لأن تأخذ صورا وأشكالا مختلفة.

١٩) الأخلاق والنظم:

مجلة البيان -٢١٥ رجب ١٤٢٦هـ أغسطس 2005م

يؤكد الشيخ في هذه المقالة علاقة النظم بالأخلاق، حيث لا يمكن قيام نظام سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي أو حتى أسري إلا بقدر من الأخلاق والفضائل .

٢٠) الاعتراف بالآخر:

مجلة البيان العدد ٢٢٤. ربيع الآخر ١٤٢٧هـ الموافق مايو ٢٠٠٦م

هذا المقال عبارة عن حوار تمثله الشيخ بين علماني يسأل صاحبه الإسلامي عن الاعتراف بالآخر من أصحاب الديانات الأخرى من المواطنين وغير المواطنين، ويصل إلى نتيجة مقدار الحرية التي يمنحها كل منهما للآخر حسب تصور كل منهما للحرية التي يراها تتناسب مع مبدئه، سواء العلماني أو الإسلامي.

٢١) من الحرية الدينية إلى الدولة العلمانية:

مجلة البيان ٢٢٥ جمادى الأولى ١٤٢٧هـ يونيو ٢٠٠٦م

في هذا المقال يرد الشيخ على من يحرف الاستدلال بالآية الكريمة " لا إكراه في الدين " بحيث تصبح دليلاً على الحرية الدينية بالمعنى الغربي للحرية الدينية بحث من حق الشخص يدخل في الدين ويخرج منه متى شاء وتكون الردة أمرا مباحا لا جريمة يعاقب مرتكبها مخالفاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم "من بدل دينه فاقتلوه".

٢٢) الوسطية لا التميعية:

البيان العدد ٢٢٦. جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ الموافق يونيو ٢٠٠٦

في هذا المقال يتحدث الشيخ عن الاستخدام الخاطئ لمعنى الوسطية وقياسها على مفهوم المودريت عند الغربيين الذي لا يأخذ دينه بقوة بل يجامل فيه ويداهن ويغير ويبدل بحسب ما تقتضيه أهواء الثقافة الغربية، بل ومصالحها السياسية والاقتصادية ثم يبين الشيخ المعنى الشرعي الصحيح لمفهوم الوسطية.

٢٣) الممكن والمعهود:

مجلة البيان ٢٢٧ رجب ١٤٢٧ اغسطس ٢٠٠٦

يبين الشيخ في هذا المقال أن الممكن أوسع دائرة من المعهود فالذين لا يدركون ذلك يسارعون في إنكار ما لم يعهدوا ويسارعوا إلى إنكار ما لا تفسير له في حدود ما عندنا من علم، بل إن بعضهم يظن أن غير المعهود أو غير ما يمكن تفسيره في حدود العلم المعهود مستحيل عقلا، ويزداد الأمر عجباً حين ترى أن ضيقي الأفق هؤلاء كثيراً ما يدعون العقلانية أو العلمية.

٢٤) الاتباع العلمي والتبعيّة الجاهلية:

مجلة البيان ٢٣٣محرم ١٤٢٨يناير ٢٠٠٧

يبين الشيخ في هذا المقال أن الاتباع في حقيقته إنما هو اتباع العلم ثم يدخل فيه اتباع من قام عندنا دليل علمي على أن له علماً وهذا المقصود بالاتباع العلمي وأما إذا لم

يكن الاتباع مؤسساً على علم بأن المتبع ذو علم وكان مبنياً على غير ذلك من الأسباب الداخلة في مفهوم الهوى فهو بالضرورة تبعية جاهلية.

٢٥) مفهوم اليسر في الإسلام:

مجلة البيان ٢٣٥ربيع الاول ١٤٢٨مارس ٢٠٠٧م

يتحدث الشيخ في هذه المقالة عن مفهوم اليسر في الإسلام، وأنه فعل ما يحقق الغاية بأدنى قدر من المشقة وليس معنى التيسير أن لا يؤمر الناس بشيء فيه أدنى مشقة؛ لأنه لوكان كذلك لما كان هناك تكليف بصلاة ولا صيام ولاحج ولا زكاة ولا جهاد.

٢٦) المستقبل لنا:

مجلة البيان ٢٣٩ رجب ١٤٢٨ يوليو ٢٠٠٧م

يتحدث الشيخ في هذه المقالة عن أن المستقبل لقيم الإسلام وتعاليمه لأنها قيم الحق والخير التي جاءت بها الرسل، ودعا إليها خاتمهم فهي قيم ستغزو القيم الباطلة وتزهقها في عقر دارها، وتضيء لأهلها أنوار الحق فتجعلهم يفيئون بإذن الله إلى دين الله أفواجا.

٢٧) معجزة الاتساق التشريعي:

مجلة البيان ٢٤١رمضان ١٤٢٨ سبتمبر ٢٠٠٧م

وفي هذه المقالة يتحدث الشيخ عن الاتساق التشريعي، وهو أن في القرآن تشريعات تشمل كل ما يحتاجه الإنسان من عقائد وعبادات وسلوك وعلاقات اقتصادية وسياسية واجتماعية وغيرها ومع ذلك لا تجد منها تشريعاً يخالف الآخر أو ينافيه أو يعوق تحقيقه لهدفه، بل تجد التشريعات كلها متعاضدة متساندة يشد بعضها بعضا.

٢٨) دين يتسع به الأفق:

مجلة البيان ٢٤٣ذو القعدة ١٤٢٨ نوفمبر ٢٠٠٧م

وفي هذه المقالة يبين الشيخ لماذا يتسع الأفق بالتدين بدين الإسلام، وأنه كلما كان التدين أعمق كان الأفق أرحب ؟

٢٩) الإيمان الشامل:

مجلة البيان ٢٥٤شوال ١٤٢٩ أكتوبر ٢٠٠٨م

يبين الشيخ في هذه المقالة أن الايمان بالله يختلف عن التصديق بالله، فليس كل مصدق بوجود الخالق مؤمن به لأن الإيمان بالله يقتضي عبادته وحده، والإيمان برسالاته وملائكته وكتبه واليوم الآخر وهكذا، ولذا يتعين علينا أن نبين هذا

التصور الإسلامي للإيمان. لأن ما يسمونه اليوم في الغرب إيمانا بالله لا يكاد يوجد فرق عملي بينه وبين الإلحاد.

٣٠) الأزمة المالية.. ومبادئ الاقتصاد الإسلامي:

(مجلة البيان ٢٥٥ ذو القعدة ١٤٢٩ نوفمبر ٢٠٠٨)

يبين الشيخ في هذه المقالة كيف أن الأزمة المالية التي بدأت في الولايات المتحدة الأمريكية ثم أخذت تجتاح أوروبا والعالم من ورائها لفتت أنظار كثير من رجال الاقتصاد والسياسيين في أوروبا إلى مبادئ الاقتصاد الاسلامي وإمكانية أن يكون بديلاً للنظام السائد وعلاجاً لما تسبب فيه من مشكلات.

٣١) نسبية الزمان في القرآن:

مجلة البيان ٢٥٩ ربيع الاول ١٤٣٠ مارس ٢٠٠٩م

يبين الشيخ في هذه المقالة أنه كما يتغير مقدار كل زمان بالنسبة لزمان آخر، فكذلك يتغير إدراك الناس له أو شعورهم به بحسب الحال التي هم فيها، ثم يذكر الشيخ أمثلة من القرآن على ذلك كتقدير أصحاب الكهف نومهم بأنهم لبثوا يوما أو بعض يوم، والناس في الآخرة يقولون إنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا يوما أو بعض يوم، وبعضهم يقسم بأن لبثهم كان ساعة.

٣٢) الأمر بالمعروف يقتضي النهي عن المنكر:

البيان ٢٦١ جمادى الأولى ١٤٣٠ مايو ٢٠٠٩م

وفي هذه المقالة يرد الشيخ على شبهة من يقول أنه يكفي للإنسان أن يأمر بالمعروف ويعرف به أنه إذا عرف المعروف أنكر المنكر من غير تعرض للمنكر؛ لأن مجرد الدعوة إلى المعروف هي نهي عن المنكر الذي يضاده، فالشيخ يرد على هذا المفهوم لأن النهي عن المنكر هو من مقتضيات الأمر بالمعروف، فإذا أمرت بمعروف ولم تنه عن المنكر الذي يضاده ويقابله لا تكون قد أعطيت الأمر بالمعروف حقَّه، ولا تكون حصنت من أمرته بالمعروف تحصيناً كاملاً.

٣٣) القراءة والثقافة:

(مجلة البيان ٢٦٢ جمادى الآخرة ١٤٣٠ يونيو ٢٠٠٩م)

وفي هذه المقالة يصحح الشيخ الاستنتاج الغالط؛ وهو الارتباط بين أن الأمة الأكثر قراءة هي بالضرورة الأكثر ثقافة، ووجه الغلط هو عدم التمييز بين المعاني المختلفة للثقافة وصلة كل منها بالقراءة، وكذلك عدم التمييز بين أنواع القراءات وأنواع القراء.

٣٤) عندما تؤيد الدراسات العلمية الحقائق الإسلامية:

مجلة البيان ٢٦٤ شعبان ١٤٣٠ أغسطس ٢٠٠٩م

في هذه المقالة أورد الشيخ عدداً من الدراسات العلمية التي تؤيد الحقائق الإسلامية، وهو ما يسمى الآن بالإعجاز العلمي.

٣٥) شهر للجهاد بالقرآن:

مجلة البيان ٢٦٥ رمضان ١٤٣٠ سبتمبر ٢٠٠٩م

يبين الشيخ في هذه المقالة أن رمضان الكريم هو الشهر الذي أنزل الله فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، والقرآن هو أساس الجهاد الكبير المستمر، الجهاد بالكلمة حيث أمر الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين معه بأن يجاهدوا الكفار بالقرآن الكريم جهاداً كبيراً، وهم مضطهدون بمكة، منهيون عن القتال بالسيف مأمورون بأن يكفوا أيديهم ويقيموا الصلاة.

٣٦) خلق الله وشرع الله:

مجلة البيان ٢٦٧ ذو القعدة ١٤٣٠ نوفمبر ٢٠٠٩م

بين الشيخ في هذه المقالة أن الله خلق الخلق وأنزل الشرع وجعل بينهما علاقة وثيقة إذ جعل الخلق مناسباً لتحقيق أهداف الشرع من حيث أن خلق الله هو سبب لعبادته التي هي الغاية من أجلها خلق الإنسان، ثم ذكر أن مناسبة الخلق للعبادة هي أن الخلق يدل على قدرة الخالق، فالقادر هو المستحق للعبادة وكذلك هو المنعم، فالمنعم يستحق أن يشكر بالعبادة وغيرها من الدلائل التي ذكرها الشيخ في ثنايا المقال.

٣٧) لمن الحكم للخالق أم المخلوق:

مجلة البيان ٢٦٨ محرم ١٤٣١ يناير ٢٠١٠م

يبين الشيخ في هذا المقالة أن الحكم لا يكون إلا لله الخالق سبحانه وليس للمخلوق سواء كانوا أفراداً أو حتى الناس جميعاً؛ لأنه لا أحد من البشر يمكن أن يعرف مصالح الناس كلها، وإنما الذي يعرف هذا هو خالقهم سبحانه.

٣٨) يا عباد الله فاثبتوا:

مجلة البيان ٢٧٣ جمادى الأولى ١٤٣١ مايو ٢٠١٠م

في هذه المقالة ينهى الشيخ عن الحزن بسبب إعراض الناس عن دين الله في بعض الأماكن، بل ينبغي أن يثبت على دينه، ثم يذكر الأسباب في عدم حزن المسلم حين يرى الإعراض عن دين الله تعالى.

٣٩) التدين الفردي والتدين الجماعي:

(مجلة البيان ٢٧٤ جمادى الأخرة ١٤٣١ مايو /يونيو ٢٠١٠م

يبين الشيخ في هذا المقال مظاهر التدين الفردي والتدين الجماعي، ونقده لبعض أوضاع المسلمين في الغرب ممن تأثروا بالثقافة الغربية، حيث صاروا يحصرون الدين في الشرائع الفردية ولا يهتمون كثيراً بالشرائع الجماعية.

٤٠) الاتباع العلمي والتبعية الجاهلية:

مجلة البيان ٢٧٦ رجب ١٤٣١ يونيو/يوليو ٢٠١٠

يبين الشيخ في هذه المقالة الفرق بين الاتباع العلمي، وهو أن يتبع الإنسان طريق من علم بالدليل القطعي أن طريقه هو الطريق الموصل إلى الله وهم أنبياء الله ومن سار على نهجهم وطريقهم من العلماء والدعاة، وأما التبعية الجاهلية فهي أن يسلم الإنسان قياده لإنسان يقوده بمجرد هواه، وهو إنما يسلم قياده له لمجرد الهوى كأن يكون معجبا به، أو لكونه من أجداده، أو يكون مقلداً لغيره في قبوله لزعامته والسير خلفه، أو لغير ذلك من الأسباب التي لا علاقة لها بالعلم.

٤١) الانتماء إلى الوطن أم إلى المبدأ:

(مجلة البيان شعبان ٣٠٠ شعبان ١٤٣٣ يوليو ٢٠١٢م)

في هذه المقولة يرد الشيخ حفظه الله فرضية أن هناك تناقضاً بين الانتماء للوطن أو الانتماء إلى فكرة أو عقيدة معينة أيًا كانت، ويقول إن هذا افتراض غير صحيح ويذكر الأسباب على ذلك.

* * * * *

ثانياً: المحاضرات

أزمة الأمة وخطوات نحو الحل

وهي ندوة شارك فيها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا مع الدكتور محمد أبو فارس حول أزمة الأمة في حرب الخليج عام ١٩٩٠م.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا، ثم أما بعد :

أيها الإخوة الأعزاء إنني من المؤمنين بأنه مع السعي للتغير الشامل لابد من معالجة القضايا الجزئية التي تصادفنا في حياتنا اليومية، بل إنني لا أرى تناقضاً بين هذا وذاك؛ فإن كل لبنة خير يسعى الإنسان لوضعها في بناء الإسلام الكبير هي تقدم نحو ما نسمية بالتغيير الشامل، والذي رأيته في معالجة هذه القضية (يعني حرب الخليج) من كثير من إخواننا الإسلاميين أنهم يريدون أن يهربوا عن مواجهة المشكلة التي أمامهم إلى الحديث عن التغيير الشامل، ولكن سبق أن تحدثنا عنها كثيراً. يا أيها الإخوة إنه لا تناقض بين العمل للأهداف الكبيرة ومعالجة القضايا الجزئية. والقضايا الجزئية تصادفها في ظروف كثير منها لا صلة لنا فيه، كل قضية جزئية هي في وضع من الأوضاع جزء كبير منه ليس من صنعنا ولا نستطيع أن نغير فيه شيئاً ولكننا نعمل ما نستطع في ظروفنا المكانية والزمانية، وهذا ما يكلفنا الله سبحانه وتعالى به، قال رسول الله ﷺ: **(من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)**. والذي لفت نظري في هذا الحديث هذا اليوم وأنا أعد لهذا الكلام أن الرسول لماذا سمى كلام اللسان تغيراً، التغيير باليد واضح، هذا هنا أغيره وأضعه بيدي هنا، لكن إذا كان هنا وأقول ينبغي أن يكون هنا باللسان وحتى عجزت أن أقول باللسان قلت بقلبي ما ينبغي أن يكون هنا ينبغي أن يكون هنا، لماذا سمى الرسول ﷺ هذا تغييراً لعل من قدر الله تعالى أنه يربط بين البيان بين قول الحق أو إرادة الحق وبين هذا التغيير الظاهر .

أقول هذا لأنني أرجو إلا تصابوا بالإحباط، فلا تقولوا لا حيلة لنا، والأمر كله في يد غيرنا ولا نستطيع ان نفعل شيئاً. إن أقل ما نستطع أن نفعله هو ان نتكلم ونبين

حكم الشرع في القضايا التي تصادفنا في حياتنا اليومية أخذ بها الناس أم لم يأخذوا، وإذا فعلنا هذا نكون قد أدينا واجبنا، ولا نشعر بعقدة من الذنب ولا بشيء من الإحباط، ولا نهرب إلى أن هذه المشكلات من صنع كذا وإلى أن يأتي كذا وكذا فستحل كلها. نسأل الله تعالى الإخلاص، ونسأله -سبحانه وتعالى- أن يلهمنا الرشد والسداد في قضية وفتنة تدع الحليم حيران. أيها الإخوة الأعزاء، المشكلة التي أمامنا وبحسب نقاشنا لها وبحسب نقاش المسلمين لها في العالم كله تتلخص في أمرين:

- اعتداء العراق على الكويت أو دخول القوات العراقية إلى الكويت.
- وجود القوات الأمريكية والغربية في منطقة الخليج.

كل واحد من هاتين القضيتين أثارت مشكلات واختلافات، بحيث صار الناس حائرين حتى عن تقديم حل نظري تطمئن إليه أنفسهم، لأن الإنسان إذا وصل إلى حل نظري فسيقول - على الأقل - لنفسه، ويسأل الله عز وجل أن يجعل هذا الحل هو الحل الذي ينطبق على الواقع، وأما إذا احتار الإنسان فإنه لا يستطيع أن يدعو، إلا أن يقول اللهم أنجنا من هذه القضية.

بالنسبة للقضية الأولى:

أظن أن الناس جميعاً أيضا متفقون على أن هذا اعتداء وظلم ولا ينبغي أن يفعل، لكن حتى هذه القضية ثارت حولها شبهات جعلت مواقف كثير من إخواننا فيه تردد، وأقول من إخواننا المصلين الذين يصومون ويزكون ويدعون إلى الإسلام .

١) بعض من سمع رأيا لي من الشباب مرة قال لي:إنك تستدل بهذه الآية: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، وهاتان الفئتان ليستا مسلمتين، لا العراق ولا الكويت تحكمان بالشريعة، فلا علاقة للآية بهذه الموضوع ! وأريد أن أقول لكم أيها الإخوة : إن أحكام الله سبحانه وتعالى هي الحكم العدل، وهذا الحكم العدل يقال للناس سواء كانوا كفاراً او مسلمين، بل حتى لو كانوا من أسوء أنواع الكفار، وأتلو عليكم قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ

ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٌۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـًٔاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤١-٤٢]، ولذلك قال العماء: إذا جاءك كافران واحتكما إليك في قضية، فاحكم بينهما بحكم الله الذي نزل في القرآن الكريم، وإن كان هذا الحكم قد جاء في أصله للحكم بين المسلمين فارجو أن تنتهي هذه الشبهة.

٢) قضية الحدود وأنها من صنع الأجانب، وهي كذلك، وكثير من الحدود من صنع اهلها، وهذا ليس امر خاصاً بالعالم الاسلامي، الحدود بين المانيا وبولندا ليست من صنع ألمانيا، المشاكل بين الصين والاتحاد السوفيتي، بين اليابان والاتحاد السوفيتي، كل الدنيا فيها منازعات حدود، ثم أيها الإخوة ما كل شيء صنعه الاستعمار فلابد أن يغير، وإلا لكسرنا المصانع والشوارع لأن كثيرًا منها وضعها الاستعمار، والرسول ﷺ أقر بعض أشياء عملها الجاهليون وهي خطأ؛ لأنه رأى المصلحة في أن لا تغير، منها هذه الكعبة التي نصلي إليها هذا البناء الذي ترونه ليس هو البناء الذي ينبغي أن يكون ولكن الرسول ﷺ ترك هذا لمصلحة. فالحدود نعم هي من صنع الاستعمار ونحن لا نريدها، ولكن هاتين الدولتين (العراق والكويت) أقرتا بهذه الحدود، العراق عضو في هيئة الأمم ومقر بالحدود، وفي الجامعة العربية ومقر بالحدود، وفي منظمة المؤتمر الإسلامي، وللعراق معاهدة خاصة بينه وبين الكويت فيها إقرار للحدود، فلا يأتي من يفتي له بأن الحدود ليست من الإسلام، ومن قال لك هذا، وكثير من الإخوان الذين يفتون بهذه الفتوى يقولون إن العلماء لم يستفتوا، أو أنهم أفتوا بعدما انتهت المشكلة وهو ما سئل لا بعد ما انتهت ولا قبل أن تنتهي ولكنه تبرع أن يعطي مسوغاً من الشرع لهذه الحدود لا تزال بهذه الطريقة، وتوحيد الأمة لا يكون بهذه الطريقة، ولو أن صداماً أعلن أنه دولة إسلامية، وطبق

الشريعة الإسلامية، ودعا إخوانه في الكويت إلى أن يفعلوا ما فعل حتى لو لم ترض حكومتهم ودخل هو بجيشه لهلل له الناس وكبروا له كما يكبر بعض إخواننا هنا، وقالوا له تدخل، وصدام لم يقل هذ، وإنما قال هذه جزء من العراق، ويعني هذا أنه معترف بحدود العراق، ولكنه غير معترف بحدود الكويت، وهناك مشاكل كثيرة أخرى لا أحب أن أدخل في تفاصيلها. نأتي إلى وجود القوات الكافرة في الجزيرة العربية، هذه القضية أيضا هناك أمر متفق عليه، وهو أنه من حيث المبدأ لا يجوز وجود الكفار – سواء كانوا قوات أو أفراداً عاديين – في الجزيرة العربية كلها وليس في السعودية وحدها، ومرة سمعت الشيخ ابن باز حين سئل عن استقدام الخدم من الكافرات قال: لا يجوز، فقال له بعض الحاضرين: لكن الدولة تسمح بذلك؟ وقال سمحت أو ما سمحت، الدين للأولين والآخرين، لا يجوز، فقال له أحدهم: إذا كنا محتاجين؟ قال : إلا حاجة لا يستطيع ان يسدها مسلم. والشيء الثاني المتفق عليه: أن هؤلاء الناس جاؤوا لمصلحتهم. هم يقولون هذا والسعوديون الرسميون يقولون هذا، والخليجيون كلهم يعرفون هذا، هذه مسألة واضحة. الشيء الثالث: أن وجودهم فيه ضرر، هذا أمر لاشك فيه، ولولا أن فيه ضرراً لما حرمه الله سبحانه وتعالى، اتفقنا على هذا ؟ الشيء الذي اختلفنا فيه بعد ذلك هو:

١) أن بعضنا قال: لا يجوز شيء مثل هذا إطلاقاً، وتحت أي ظرف من الظروف، وقال الآخرون : لا بل حتى الأشياء المحرمة تصبح في ظروف معينة مباحة أهم شيء في الدين هو إعلان: **(لا إله إلا الله)** فإذا أجبرني إنسان وأكرهني على أن أقول لا إله إلا صدام قلتها، والله تعالى قال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقال: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]، إذا الذين يقولون تحت أي ظرف من الظروف هذا خطأ سواء بالنسبة لهذا الأمر أو لأمر آخر حرمه الله سبحانه وتعالى.

٢) المسألة الثانية التي اختلفنا فيها هي: مع التسليم بأنه في الظروف الطارئة يمكن أن يفعل الإنسان الشيء الحرام اختلفنا في تقدير الضرورة. قال بعضنا: هناك ضرورة نحن ضعفاء، ولا نستطيع أن نواجه جيوش صدام، وإذا دخل صدام حصلت شرور

كبيرة ووجود القوات مع أنه شر إلا أنه في تقديرنا أقل من هذا الشر، وقال آخرون : لا، صدام ما كان سيدخل. فقال لهم هنا تقديركم وهذا تقديرنا قالوا : كان ينبغي ان نأخذ بالعزم، فنواجهه بما لدينا من قوة ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، فقالوا : هذا موقف عزم لا يجبر عليه الناس من أراد أن يفعل هذا فله ذلك ولكن لا يمكننا أن نقول لإنسان ينبغي أن نقف موقف العزم هذا وإلا فأنت مارق عن الدين. ماذا نفعل بعد هذا الاختلاف ؟

يمكن أن نريح أنفسنا فنقول كما يقول بعض الإخوة: هذا خطأ وهذا خطأ ولكن ثم ماذا؟ واحد قال لي: أريد أن أكون منصفاً، فأقول العراق مخطئ والسعودية مخطئة، قلت له ليس هذا بإنصاف، فلو جاءك وقال لك يا أخي هذا سرق مالي تقول أريد أن أكون منصفاً بأنك ترضي هذا وترضي هذا، لا فإن قلت لهذا أنت سرقت المال فرده فأنت مع هذا وإن قلت لهذا ما سرق مالك فأنت مع هذا لابد أن نفعل شيئاً أو أن نقول شيئا على الأقل أنا في رأيي أننا نقول نطالب بأن يخرج العراق من الكويت، ونقول إنه إذا ما خرج العراق من الكويت نطالب السعودية بأن تخرج القوات الأمريكية والغربية من أراضيها ودول الخليج كلها، يا أخي أنت لا تريد من العلماء أن يكونوا علماء سلطان، فأنا لست عالم العوام ينبغي أن تتعلموا وأنتم في بلد يقول الناس فيه الحق والباطل والبر والفجور تعلموا لأن تسمعوا أنا ما عندي سلاح رجل أعزل وأعرج كمان ولا أمثل قوة، لا أتحدث حكومة السودان ولا الحكومة السعودية، إنما أنا جعفر شيخ إدريس، فنطالب بخروج العراق من الكويت مطالبة قوية ولو أن الجماهير المسلمة في العالم كله، في مساجدها، وفي تجمعاتها، وفي مظاهراتها، وقفت وقالت هذا الكلام لحسب له صدام ألف حساب، ولكن صداماً كان ذكياً فربط بين قضيته وبين قضية فلسطين وتكلم عن الجهاد، واسترخى بعضنا، بعد الخروج، لنفرض أنه خرج ماذا نفعل، قل تخرج القوات الغربية ثم بحسب تلك الآية الكريمة، لابد من صلح لأن الله سبحانه وتعالى يقول (فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا) فنكون لجنة مجلساً ويشترك فيه عدد من العلماء هذا اقتراح نقترحه وهذه اللجنة تزيل ما في النفوس من اختلافات، حتى نكون قد وضعنا بذوراً لحل أدوم، يضمن للعراق عدم الاعتداء عليه إذا هو خرج من الكويت، وعدم اعتدائه هو على الكويت أو السعودية مرة ثانية، هذه هي المرحلة

الأولى من الأشياء المباشرة بعد الخروج، أما الأشياء البعيدة والتي تحدث عنها بعض الإخوان هنا وليست بعيدة بعداً كبيراً ولكن أيضا هي مرحلة ثانية، وأعجبني أن الذي تحدث عن الكويت قال هذا الكلام، وكلامه في هذا أهم من كلامي، فأنا أرى:

١) أن الدولة الصغيرة خطأ على نفسها وخطر على غيرها.. دولة سكانها ٢٥٠ - ٤٠٠ ألف هذه دولة لا يمكن أن تدافع عن نفسها مهما أوتيت من مال، فلذلك ستضطر إلى الارتماء في أحضان غيرها، إذا فعلت هذا صارت خطراً على نفسها وعلى غيرها، لذلك أنا مع الأخ الذي طالب أن تصبح دول مجلس التعاون دولة واحدة بشيء من التدرج.

٢) أن يقوم نظام الحكم في هذه الدولة الجديدة على الشورى.

٣) أن تبنى هذه الدولة جيشاً قوياً، بحيث لا تحتاج إلى أن تستنجد بقوات أجنبية، وأرى أيضا مع الأخ ينبغي أن ندرب شبابنا في الجامعات و في المدارس عندما يبلغون سناً معيناً ونستفيد من هذا من تجربة إسرائيل. والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * *

استعمال القرآن الكريم للغة التجارة

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلِّ وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، ثم أما بعد :

آيتنا في هذه الحلقة هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]، وهنالك آيات كثيرة في نفس المعنى القضية هي استعمال القرآن الكريم للغة التجارة هذا شيء خطر في بالي ربما خطر في بالكم هو أننا نجد في القرآن الكريم أنه يستعمل لغة التجارة في الدعوة إلى حقائق الدين في القرآن البيع والشراء والربح والخسارة والعمل والثمن والأجر وغير ذلك، وأيضاً حتى غير الألفاظ المعاني التي يضعها الناس في أذهانهم عندما يتعاملون معاملة تجارية فالإنسان التاجر يضحي في القليل العاجل في سبيل أنه يكسب غداً أكثر منه وهكذا وكل هذه المعاني يستعمله القرآن الكريم في دعوة الناس إلى حقائق الدين فمن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠- ١١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [النحل: ٤١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ [الكهف: ١٠٣]، واستعمل كلمة القرض قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١٨]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١]، ما السر في هذا ؟ هذا سؤال سألته نفسي، وأقول الإجابة والله أعلم يعني لم أقرأ هذا في كتاب ولكن سؤالاً سألته نفسي، ثم خطر في بالي إجابة أرجو أن تكون صحيحة، ما السر في هذا لماذا يستعمل القرآن لغة التجارة في دعوة الناس إلى الحق خطر ببالي أن القرآن يدعو الناس إلى أن يكونوا عقلاء أن يستعملوا عقولهم والقرآن دائماً يتكلم عن الذين لا يؤمنون بأنهم لا يعقلون ويتكلم عن الذين يهتدون هم الذين يعقلون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]، فالذي خطر في بالي أن الإنسان أكثر ما يكون

عقلاً حين يتعامل معاملة تجارية الإنسان عنده خرافات وعنده خزعبلات وكذا ولكنه إذا جاء ليبيع ويشتري يكون عاقلاً جداً لا يبيع شيئا يملكه هو يجده ثمن أغلى ولا يشتري سلعة بثمن غالٍ وهو يجد لها ثمناً رخيصاً، فالإنسان أكثر ما يكون عقلاً عندما يتعامل هذا المعاملة التجارية، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول للناس هذه الطريقة العقلية التي تستعملونها في أعمالكم التجارية، وهذه المعايير التي تستعملونها استعملوا نفس هذه المعايير حين يأتي الأمر إلى الحقائق الدينية لا تشتروا الدنيا بالآخرة لأن متاع الدنيا قليل والآخرة أجرها كبير، فما في إنسان تاجر عاقل يبيع شيء اليوم بثمن رخيص وهو يعلم أنه غداً سيكسب فيه مكسباً كثيراً فكأن الله سبحانه وتعالى يقول للناس استعملوا هذا المنطق التجاري حين تتعاملون مع الحقائق الدينية فاعتبروا الأعمال الصالحة تجارة رابحة والمعاصي أعمالا خاسرة واعتبروا الأموال التي تنفقونها في سبيل الله قرضاً تقرضونه ربكم سبحانه وتعالى ليجزيكم عليه أكثر مما أقرضتموه، فهذا ربما يكون السر في هذا الاستعمال القرآني لقضية الربح والخسارة، وهنالك في غير مسائل التجارة القرآن الكريم دائماً يقول للناس إن عندكم معايير بعضها معايير صحيحة فلا تنسوا هذه المعايير حين تأتون إلى الدين، كثير من الناس يكون عاقلاً جداً في الأمور الدنيوية ولا سيما في الأمور التجارية ولكنه إذا جاء إلى الدين حتى بعض المتدينين يترك عقله جانباً ويتعامل بطريقة فيها عدم عقلانية أو فيها نوع من الخرافة، والله سبحانه وتعالى يقول للناس كونوا عقلانيين حتى في تقويمكم للدين، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يذكر هذه المعاني لو المعنى الذي قلته لكم، فالإنسان العاقل هو الذي تربح تجارته، والإنسان العاقل هو الذي لا يعرض نفسه للخسارة، والإنسان العاقل هو الذي كما قال سبحانه وتعالى عن بعض الناس إنهم يفضلون العاجل عن الآجل، وهذا شيء لا يفعلونه في حياتهم التجارية لا يفضل العاجل القليل عن الآجل الكثير بل يضحي في هذا في سبيل ذلك، فهذا أكرر لعله هذا هو السبب في أن القرآن الكريم استعمل هذه الألفاظ أو هذه اللغة التجارية، وأرجو ممن يستمع إلى هذا من إخواننا المستمعين إن كانت لهم آراء في هذا أن يكتبوا لي في هذا؛ لعلي أستفيد مما يقولون.تدبرتم الآيات التي استعمل القرآن الكريم فيها هذه المعاني التجارية تجدونها بهذا

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم..

* * *

الأقوال والأعمال
تدل على ما في القلوب

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، ثم أما بعد:

آيتنا في هذه الحلقة هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦]، نحن لا نستطيع أن نطلع اطلاعاً مباشراً على ما في قلوب الناس، ولكن الله سبحانه وتعالى أرانا أن هنالك أقولاً وأعمالا تدل على ما في القلوب، فإذا رأينا هذه الأعمال والأقوال استدللنا بها على ما في قلب الإنسان، من هذه الآيات هذه الآية كأن الله سبحانه وتعالى يقول لنا إنه لا يمكن أن يرينا الإنسان شيئاً إرادة جازمة ثم لا يكون منه هو في الظاهر ما يدل على هذه الإرادة، لا يمكن أن يجلس إنسان كذا ويقول والله أنا أريد أن أفتح الباب والله أنا أريد أن أن أفتح الباب ولا يتحرك من مكانه شبراً، فنحن نستدل بعدم حركته على أن قوله يريد أن يفتح الباب كذب؛ لأن الإرادة إذا كانت إرادة جازمة لابد أن تترجم في صور بعض الأعمال وكما قال الله سبحانه وتعالى عن الإرادة فقال عن النفاق أو على الأقل بعض أنواع النفاق.

قال سبحانه وتعالى عن المنافقين ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [محمد: ٣٠]، فلان وفلان وفلان ولكن الله لم يفعل قالوا إن الله سبحانه وتعالى ستر الناس ولكنه قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، لحن القول هو فلتات اللسان أن الشخص إذا كان منافقاً فلا يستطيع أبداً أن يخفي نفاقه هذا لابد أن تفلت منه كلمات، وكذا تدل على نفاقه الذي في قلبه، وأيضاً من أنواع العلاقة بين ما في القلوب والأعمال والأقوال الظاهرة قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾، هؤلاء الكفار في زمن الرسول ﷺ قالوا: أيها الرسول تريدنا أن نقتنع فدع الله يكلمنا أو تأتينا آية يعني غير هذه الآيات التي أتيت بها: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ لماذا؟ ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]،

فتشابه القلوب أدى إلى تشابه في الأقوال وفي التعبيرات، فإذا رأينا إنسانا يقول مثل هـذه الأقوال التي هي أقوال الكفار، واستدللنا بها على أن ما في قلبه مثلما ما في قلوب أولئك الكفار.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، إلا تستغربون هذه الآية أي رسول يأتيني كل هؤلاء الأمم كلما جاءها رسول قالوا ساحر أو مجنون، ثم الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾، طبعاً لا يمكن أن يكونوا تواصوا لأنهم من أمم مختلفة وفي أزمان مختلفة، إذاً ما السبب: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣.] فطغيانهم أداهم إلى أن يتهموا الرسول بأنه ساحر أو مجنون. روى ابن كثير عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: (ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه).

ونستفيد من هذه الآية والآيات التي مثلها: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ وقوله: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، أنه إذا راينا إنساناً يسلك مسلك الضالين، أو يقول كلام الضالين لا يشترط أن يكون قد أخذ هذا القول أو هذا الكلام ممن سبقه هذا لا يشترط كثير ما يضيع بعض إخواننا أوقاته في أن يبحثوا عن مصدر هذا الكلام الذي قاله هذا الشخص، فيقول هذا ماسوني أو من بروتوكولات الصهيون هذا كذا لا يشترط الإنسان قد يكون أصيل في الشر لأن الذي يوحي بهذا هو الشيطان والشيطان واحد كما أوحى إلى أولئك بأن يقولوا هذا الكلام الذي فيه ضلال بسبب أنهم كانوا طاغين.

كذلك يمكن أن يوحي لكل من طغى أن يقول كلاماً مثل كلام أولئك الذين طغوا كما أن أحوال القلوب تؤثر في الأعمال الظاهرة، فكذلك العكس الأعمال الظاهرة تؤثر في القلوب، وهذا من الأسرار التي لا يعرفها إلا الله سبحانه وتعالى، يعني لماذا قال الله مثلاً سبحانه وتعالى صلوا هذه الصلوات في هذه الأوقات، ولماذا قال

صلوها بهذه الطريقة؛ لأن الله يعلم أن هنالك علاقة بين حركات الإنسان الظاهرة وأحواله الباطنة، ونحن نعرف بعض هذا؛ يعني لو أن إنسانا وقف في الصلاة ووضع يديه على خصره أو أنه بدلاً من أن يسجد استلقى على ظهره ورفع رجليه هو نفسه يشعر حتى من غير صلاة هو نفسه يشعر بأن حاله التي في قلبه مختلفة عن حاله وهو ساجد، وعن حاله وهو مستلقٍ على ظهره، ورافع رجليه. مرة سمعت رجلا فاضلا — عليه رحمة الله — كان من إخواننا الهنود يعيش في باريس اسمه محمد حميد الله ألقى محاضرة قال فيها إن بعض الراهبات طلبن منه أن يلقي عليهن محاضرة عن الإسلام، فقال ذهبت إليهن وألقيت عليهن محاضرة وكان في أثناء المحاضرة استأذنتهن بأن أصلي قلت لهن إن وقت الصلاة قد جاء، فذهبت لأصلي فقلن لي هل تأذن أن نصلي معك قلت لهن صلن. فقال يعني تابعوه في الحركة الشيء الغريب الذي قاله قال بعدما أنهينا من الصلاة جائه بعضهن أو إحداهن وقالت أنا مؤمنه وكنت أريد أن أتقرب إلى الله وأشعر أني قريبة من الله ما شعرت بهذا إلا اليوم عندما صليت معك، وذكرني هذا بحديث الرسول ﷺ قال: **(أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد).**

فكل هذه الحركات التي يظن بعض الناس أنها ليست مهمه، وأنت تضيع وقتك بشيء غير مهم، أو أن هذه قشور عندما يرى ناسا مهتمين بحركات الصلاة كيف تقف وأين تضع يديك وكيف تسجد، يظن أن هذا لا علاقة له بجوهر الموضوع جوهر الصلاة، والحقيقة بأن له علاقة لأن كما قلت إن هنالك علاقة بين هذه الصورة الظاهرة والأحوال الباطنة.

بل نحن نعلم الآن شيء ما كان يعترف الناس به قبل مدة هو أن الأحوال الباطنة تؤدي حتى إلى أمراض ظاهرة، فكيف بالأشياء التي لها علاقة بالدين والمسائل الروحية وغير ذلك.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

* * *

التربية الدينية أو الإرشاد الديني

ندوة عن التربية الدينية أوالإرشاد الديني في الرياض شارك فيها الدكتور جعفر شيخ إدريس والدكتور أحمد العسال رحمه الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، أما بعد:

فإن الإرشاد الديني بحسب التصور الإسلامي هو في الحقيقة إرشاد لكل نواحي الحياة، فالدين الإسلامي كما تعلمون تصوره للدين لا يقصر الدين على ناحية أو جزء من نواحي الحياة، فماذا نعني عندما نقول التربية الدينة أو الإرشاد الديني أظن أن للتربية غايتين؛ الغاية الأولى غاية داخلية وهي تنمية الفضائل في الإنسان، بحيث يصير إنساناً حقيقياً ولا يتحول إلى حيوان، وغاية ممكن أن نقول إنها خارجية وهي التي تُعد هذا الإنسان ليكون كما يقولون عضواً صالحاً في المجتمع مواطناً صالحاً وهكذا. وكلا الأمرين يمكن أن يحدث فيهما نوع من الغلو فإذا غلونا في الإعداد الخارجي حولنا الإنسان إلى مجرد وسيلة لغاية، وأصبحت الغاية هي المؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وتصبح الغاية من التعليم كله هي أن يُعد الناس لهذه المؤسسات، فأصبح الفرد وسيلة كسائر الوسائل الطبيعية مثل البترول، فكما أنك تخطط لزيادة في الإنتاج من هنا وزيادة الإنتاج من هناك تخطط أيضاً لزيادة الإنتاج البشري المناسب للإعلام للاقتصاد للسياسة لكذا، فإذا غلونا في هذه الناحية أصبح كما قلت أصبح الإنسان وسيلة ولم يعد غاية، وهذه هي التهمة التي تتهم بها الدول التي يسمونها الجماعية، وإذا غلونا أيضاً من ناحية أخرى ولم نهتم إلا بما يصلح قلب الإنسان ونفسه وروحه يمكن أن يؤدي هذا أيضاً إلى عزل الإنسان عن المجتمع، وإذا ساد هذا التوجيه أو هذا الاتجاه في مجتمع من المجتمعات سيضعف بعد قليل، ستضعف مؤسساته يضعف إنتاجه الاقتصادي تضعف قوته العسكرية، وكذا وفي النهاية تضعف الناحية الروحية أيضاً لأن ضعف هذه يغري الفاسدين بأن يكونوا هم المسيطرين عليها فإذا سيطروا عليها أثروا في تربية الأفراد وضعفت الناحية الروحية فإذاً لابد من توازن بين الأمرين نعد الإنسان ليكون إنساناً حقيقياً ونعده أيضاً ليكون

مواطناً نافعاً مؤثراً في المجتمع، أريد أن أركز بعض الشيء على الناحية الأولى كيف نعد الإنسان ليكون إنساناً صالحاً؟ هذا يعتمد على تصورنا للإنسان. يقولون إن لكل نظرية سياسية أو تربوية تصوراً للإنسان إن قاله الكتاب أو لم يقله، وهناك تصور يفترضه، فالتصورات منها ما يعتبر هذا الإنسان ولداً شريراً، ونحن نريد إذاً أن نزيح هذا الشر ونغرس فيه الفضائل فالفضائل كأنها شيء جديد يأتيه من الخارج أو نقول إن هذا الإنسان محايد لا هو شرير ولا هو خير، لكن عنده استعداد إلى أن يكون شريراً أو يكون خيراً، أو نقول إن الإنسان يولد خيراً وفي رأيي أن هذا هو التصور الإسلامي قال ﷺ: **(كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء)** فأنتم تلاحظون أن الرسول ﷺ لم يقل يؤسلمانه، قال يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه لأن الفطرة هي الإسلام، والإسلام خير ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، فالإنسان إذا بحسب التصور الإنساني يولد خيراً ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾، ثم بعد ذلك ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨]، لكنها تولد سوية هذا التصور للإنسان هو الذي يحدد لنا الوسائل والطرق التي نسلكها لتربية الشباب والأطفال وإرشادهم، فإذا كنا نعتبر الإنسان خيراً فإذاً كل ما نأتي به من خير فسنعتبر أن له أصلاً في نفسه نحن لا نأتيه بشيء جديد غريب عليه، فإذا كان هذا تصورنا فسنقول إننا إذا كلما عرضنا الإنسان لما يناسب هذه الفطرة إذا احتفظ بفطرته سليمة طبعاً كلما كان هنالك تجاوب بينه وبين هذا الذي رآه أو جربه أعني أننا لن نحتاج إلى أن نقنعه به، لن نحتاج إلى أن نغرسه في نفسه لأن أصله هنالك في النفس البشرية، أعود مرة أخرى كيف نصلح الإنسان؟ كيف نوجهه لكي يكون إنساناً صالحاً؟ الناس متفقون على أن أصل الصلاح هو في تصورات الإنسان؛ لأن كما كان يقول علماؤنا العلم إمام العلم، فالإنسان يتصرف في الحياة بحسب تصوراته، فإذا تغيرت تصورات الإنسان وتغيرت اعتقاداته تغيرت بالتالي تصرفاته وتغير سلوكه، فما هو التصور الذي يصلح الإنسان، تسمعون الناس أحياناً يقولون كيف يفعل فلان كذا وهو إنسان مثقف، هذا العمل لا يليق بإنسان مثقف ماهي الثقافة لنفرض أن إنسان قرأ التاريخ، أو تعمق في الجغرافيا أو

درس الفيزياء، أو درس الفلسفة أيضاً أو علم النفس، هل تظنون أن هذا وحده يدفعه لأن يكون صادقاً لأن يكون أميناً؟ ما أظن. فإذاً يعني مجرد حشو الذهن للمعلومات ليس هذا هو المهم وإنما المهم أن نبحث عن تلك الحقائق التي إذا استقرت في نفس الإنسان أثرت في سلوكه، فما كل حقيقة يعرفها الإنسان تؤثر في سلوكه فتجعله حميداً أو دنيئاً هذه من المشكلات التي واجهت الاشتراكيين كانوا يقولون إن صلاح الإنسان لا يعتمد على التصورات وإنما يعتمد على الظروف الخارجية الرأسمالية هي التي أفسدت الناس، فإذا أردنا أن نصلح الناس فما علينا إلا أن نغير هذا النظام الرأسمالي، ونأتي بنظام اشتراكي، فإذا جاء النظام الاشتراكي صلح الناس، وجاء النظام الاشتراكي واستمرخمسين عاماً والناس يسرقون والناس يكذبون والناس يدمنون، ويزداد إدمانهم وكذا، فقالوا بعد ذلك إذا الناحية الاقتصادية وحدها لا تكفي لابد من ثقافة اشتراكية تتناسب مع المؤسسات الاشتراكية لكن ماهي الثقافة الاشتراكية التي تجعل الإنسان صادقاً وأميناً وكذا، لا شيء فالحقائق التي إذا استقرت في نفس الإنسان غيرت سلوكه وجعلته سلوكاً خيراً هي الحقائق التي يركز عليها القرآن الكريم، الإنسان خلقه الله تعالى موحداً: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، فالتوحيد في أصل الإنسان، فإذا جاءه الدين من الخارج من الرسول ﷺ فيقول هذا كما قيل في تفسير الآية: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]، قال الزيت هنا هو الفطرة، فبعض الناس تكاد فطرتهم تعرف الوحي قبل أن ينزل يكاد زيتها يضيء ولولم تمسسه نار نور على نور، نور الوحي إلى نور الفطرة فإذا جاءه هذا الهدى من الخالق ناسب ما عنده، وهذا الذي يكون إنسانيته، الإنسان مفطور على الخير مفطور على التوحيد مفطور على حب الصدق والأمانة، كراهية الكذب كراهية الظلم، كل إنسان سواءً كان أمريكياً أو روسياً فطره الله هكذا فهذه

الأخلاق لا تأتي للإنسان من الخارج، وإنما بذورها وجذورها في النفس البشرية فطره الله على حب الجمال والنظافة لا تحتاج إلى أن تقنع الطفل أن العفونة شيء سيئ لا تحتاج إلى ذلك، لا تحتاج إذا أخذت إنساناً لحديقة فيها أزهار ومياه لا تحتاج إلى أن تقول له افهم أن هذا شيء جميل، فهذا شيء فطره الله عليه، كذلك إذا رأى المحسن إلى الناس عرف بفطرته أن هذا شيء حسن فيأتي الدين ليقوي هذه الفطرة فاذاً الدين إنما جاء ليجعل الإنسان إنسانا حقيقياً يتناسب واقعه مع فطرته فإذا لم يسلك سبيل الدين تحول إلى حيوان.. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، تحول إلى حيوان، فإذا الحقائق التي ركز عليها القرآن الكريم هي الحقائق المناسبة مع إصلاح الإنسان أولها التوحيد.

والتوحيد الأن هذه الحقائق الإسلامية تزاحمها جهالات وخرافات، فالتوحيد تزاحمه الآن عقائد خرافية منتشرة في العالم الإسلامي فلا بد من تحصين الشباب من ضد هذه الخرافات يبين له الحق ثم يحصن ضد هذه الأباطيل، وتزاحمها أيضاً الفسفات المادية والإلحادية التي تأتي أحياناً ساخرة في شكل الفكر الشيوعي لكنها تأتي مختفية في كثير من العلوم التي يدرسها الطالب، وقد لا يلتفت إليها حتى الأستاذ لكنها تسري في الطالب سريان السم من غير أن يشعر بذلك، فلابد أيضاً من تحصين الشباب ضد هذه الأفكار التي يسمونها بالأفكار الهدامة والتحصين يكون كما قلت بمعرفة العقيدة الصحيحة، وبمعرفة الردود العقلية الفكرية على هذه الأباطيل قال أحد العلماء المسلمين من لم يجادل أهل الباطل حتى يقمع باطلهم لم يكن أوفى الإسلام حقه، وأن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية إنه عندما بدأ غريباً كانت الدعوة إليه إلى أصوله ودعوة للحجج العقلية والحسية، فكذلك إذا صار غريباً مرة أخرى فينبغي أن يدعى إليه بنفس الطريقة حتى بين المسلمين لا سيما الشباب الذين يتعرضون للفكر والثقافة الغربية، ثم الخُلق كما قلت الخلق الإنسان إذا كانت فطرته سوية يكفي أن يراه في الإنسان يكفي أن يقال له لهذا يأتي في القرآن الكريم كثيراً بصيغة الأسئلة الاستنكارية يعني أن هذا شيء

معروف مثلاً.. ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، شيء معروف.. ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، هذا شيء لا يليق بالله تعالى، فكل هذه الأشياء ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، يعني أن هذه كان يكفي فيها العقل لكن الخلق أيضاً تزاحمه أشياء أخرى تزاحمه أخلاق فاسدة تأتي في صور مغرية تأتي في شكل فنون قصائد قصص مسرحيات مسلسلات وهكذا وتعرض على الإنسان نماذج من الخُلق الهابط والخلق السيئ فهذا يزاحم ذاك كما قال ﷺ: **(فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)**؛ لأن الإنسان إذا كان مولود على الفطرة ليس بمعنى ذلك أن هذه الفطرة ستقاوم كل شيء لا يمكن أن تضعف، ثم العبادة الإنسان إذا تصور تصوراً صحيحاً قاده هذا التصور إلى الخلق الحسن ثم احتاج إلى العبادة لأن العبادة هي بمثابة الغذاء لذلك التصور ولهذا الخُلق، لأن الإيمان كما لابد أن يكون حياً والإيمان لا يكون حياً بمجرد التصديق وبمجرد القراءة ولكن يكون حياً حين يُعبر عنه في العبادة لأن لب العبادة هو الشكر لله تعالى، فالعبادة نفسها هي في الحقيقة نوع من الخُلق الفاضل هي تعبير عن الشكر لله تعالى، وهذه العبادة أيضاً العبادة الصحيحة تزاحمها الآن في العالم الإسلامي بدع وخرافات لابد أيضاً أن يحصن الشباب ضدها، هذا بالنسبة كما قلت للتصورات، لابد للشاب من أن يوثق صلته بالقرآن الكريم؛ لأن القرآن يركز على الأشياء التي تصلح الإنسان يذكره دائماً بالموت كثير من الناس قد لا يتذكرون الموت أبداً بل لا يحبون أن يتذكروه؛ لأن تذكره يظنون أنه ينغص عليهم حياتهم لكن تذكر الموت، الموت حقيقة لكن الإنسان يحتاج إلى أن يتذكرها وكلما تذكرها كلما كان هذا أحسن له ويساعده على أن يكون إنساناً فاضلاً، ثم في المقدمة لابد من أن نعرض الشباب للأشياء التي تتناسب مع فطرتهم، مثلاً تكلم شخص عن القضايا الكبيرة والقضايا السامية وهكذا الإنسان المفطور على الخير يحب الأشياء

السامقة ويكره الأشياء الهابطة لكن إذا لم يجد إلى الهابطة صادفت قلباً خالياً فتمكنت، فأنت إذا أردت أن تنقذه من الأشياء الهابطة فلابد أن تعرض عليه الأشياء السامية إذا لم ترده أن يشتغل بقضايا تافهة فأعرض عليه هذه القضايا التي ثم لابد أيضاً أن نعرضه للفكر القوي في الحجج القوية لأن الإنسان كلما تعرض للفكر القوي والحجج القوية كلما ازدادت ونمت هذه المَلكة عنده أصلها في الإنسان، الأصول العقلية في الإنسان، لكنها تنمو بأن يعرض الإنسان نفسه للفكر القوي ويفكر فيه ويقرأه، لابد أيضاً من أن يتعرض الإنسان نفسه للفن الرفيع، ولابد أن يتعرض للترويح البريء إذا لم يجد فنا رفيعا ذهب إلى الفن الهابط، إذا لم يجد ترويحا بريئاً ذهب إلى الترويح السيئ لابد له أيضاً من الرياضة، وأن تكون هذه الرياضة في حدود ما ينفعه ولا تتحول هي نفسها إلى أيدلوجية وإلى فكر وإلى شيء مزاحم للدين وإنما يكون الغرض منها محدود الغرض منه صحة بدن الإنسان، وهي نوع أيضاً من الترويح، أهم من هذا كله أن يتعرض الإنسان للقدوة الصالحة، الإنسان قد يقرأ عن قيام الليل ولكنه إذا بات مع إنسان في بيته وراءه يصحو في الليل ويصلي هذا يؤثر أكثر فيه من القراءة وهذه القدوة الصالحة تكون عن طريقين تكون عن طريق الاتصال بالصالحين الموجودين في الحياة، وتكون بالاتصال بالصالحين الماضين عن طريق الكتب، ويقولون إن الإمام أحمد كان يشجع الناس على قراءة سير الصالحين لاسيما سيرة عمر بن عبدالعزيز من الذين جاءوا من بعد أصحاب رسول الله ﷺ فقراءة سيرة الرسول ﷺ وسير الصحابة وسير العلماء يعني كل أنواع المفكرين والصالحين من المسلمين من اشتهر بالعبادة تعرف عنه أنه شيئاً من أشتهر بالفكر من اشتهر بالعلوم ومعرفة وتحليلات الأشياء الدنيوية، وهكذا يعرف الإنسان سيرتهم هذا من أكثر الأشياء التي تؤثر في نفوس الشباب، وكل هذا من الدين، وكل هذا إرشاد ديني فارجو ألا نكون قد خرجنا من موضوعنا. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

التعريف بالإسلام وبيان حقيقته

محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في الجامع الكبير في الرياض، وعلق عليها سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فإن الموضوع الذي طلب مني أن أتحدث عنه هو كما ترون موضوع مهم؛ لأن الإنسان في الأمور التي تتعلق بحاله في وقت من الأوقات ينبغي له أن تكون في ذهنه صورة متكاملة لهذا الدين وإلا ما عرف بعض تفاصيله، وكل إنسان منا ما من إنسان منا يستطيع أن يعرف تفاصيل الدين كله، إلا إذا استثنينا الرسول الذي أُنزل عليه هذا الدين، فأقول إن الإسلام يأتي بمعان فهو بالمعنى العام جداً بمعنى الخضوع والاستسلام والطاعة والانقياد لمشيئة الله تعالى وقدرته وخلقه هو بهذا المعنى كما تفضل الأخ الذي قدم المحاضرة هو بهذا المعنى دين المخلوقات كلها، فكل مخلوق بهذه الدنيا مسلم لله سبحانه وتعالى قال تعالى: **﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾** [آل عمران: ٨٣]، وأفضل المخلوقات هي تلك التي تؤمن تخضع وتستسلم لله طوعاً بعد أن عرفت أنه لابد لها من الاستسلام لله طوعاً أوكرهاً، وإذا كانت المخلوقات كلها مسلمة لله بهذا المعنى فهي أيضاً قانتة له وساجدة له ومسبحة له، هذه الألفاظ الأربعة الإسلام والقنوت والسجود والتسبيح وصف الله سبحانه وتعالى بها المخلوقات كلها قال تعالى: **﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾** [الرعد: ١٥]، **هذا في السجود**، وقال بالتسبيح: **﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾** [الإسراء: ٤٤]، فسر بعض الناس التسبيح الوارد في مثل هذه الآيات والقنوت والسجود فسروه بمعنى أنها تسير وفق إرادة الله سبحانه وتعالى وبحسب سننه، وهم يريدون بهذا أن يقولوا إنه ما دامت الأشجار والأنهار

والدواب وكذا لا تعقل فإنها لا تستطيع أن تعبد الله سبحانه وتعالى، أو تستسلم له أو تسبحه، وهذا المعنى ليس بصحيح، هي طبعاً خاضعه لله سبحانه وتعالى كما قلنا الإسلام بالمعنى العام كل مخلوق خاضع لله سبحانه وتعالى شاءَ أم أبى، ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمنا أن هذه المخلوقات لها تسبيح لا نفقهه نحن وأما كونها تسير بحسب سنن الله فهذا أمر نعرفه بل إننا نعرف كثيراً من القوانين والسنن التي تسير عليها المخلوقات فليس المقصود إذاً مجرد سيرها بحسب سنن الله تعالى، وإنما المقصود أن لها نوعاً من العبادة والتسبيح، وفي القنوت قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٦-١١٧]، هذا هو الإسلام بأعم المعاني والإسلام بمعنى أخص من هذا بمعنى إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبودية، وبمعنى التحلي بمكارم الأخلاق، الإسلام بهذا المعنى هو دين الأنبياء جميعاً، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: **(أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد)**، فكل نبي له شرع يختلف عن شرع النبي الآخر، ولكن الدين أصل الدين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وعبادة الله سبحانه وتعالى والصدق والأمانة وسائر محاسن الأخلاق هذه جاء بها الأنبياء كلهم، فهي الدين، وأما الشرائع فتختلف بحسب اختلاف أحوال الناس؛ لأن الله سبحانه وتعالى يشرع لكل أُناس ما يلائمهم، بل إن الشريعة الواحدة كشريعة نبينا ﷺ إن الدين الذي جاء به نبينا ﷺ اختلفت بعض شرائعه ففي البداية كانت الشريعة أن يصلي الناس إلى بيت المقدس ثم نسخ هذا فجعل إلى البيت الحرام فشرائع الأنبياء متعددة ولكن الدين الذي جاؤوا به جميعاً دين واحد، والإسلام بمعنى أخص من هذا هو الدين الذي جاء به نبيا محمد ﷺ، فالدين الذي جاء به نبينا محمد ﷺ يشمل تلك المعاني كلها، ويزيد عليها أنه الدين الكامل في كل شيء في العقائد وفي العبادات وفي الشرائع وفي الأخلاق، هذا الدين هذا الإسلام الذي قلنا إنه دين الكون أو المخلوقات كلها ودين الأنبياء كلهم ودين نبينا محمد ﷺ هذا الدين هو دين الفطرة، هو الدين الذي وضع الله سبحانه وتعالى

أساسه وبذرته في قلب كل إنسان بغض النظر عن الزمان الذي يعيش فيه، والمكان الذي ولد فيه، وبغض النظر عن جنسه ولونه ولغته، فالرسول ﷺ يقول: **(كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه)** ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، فإذا سئلنا ما هي حقيقة الإنسان التي إذا حققها صار إنساناً وإذا لم يحققها كان شيئاً منسوخاً كالحيوان أو أقل من الحيوان ماهي؟ نقول إنها العبودية لله سبحانه وتعالى؛ لأن هذه هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهذا الجواب الذي يستطيعه كل طفل من أطفال المسلمين إذا قيل لها ما حقيقتك أو ماهي فطرتك ما هو أهم شيء ينبغي عليك أن تفعله لقال عبادة الله. هذا الجواب السهل على الإنسان المسلم بفضل رسالة نبينا محمد ﷺ سؤال أتعب الفلاسفة والمفكرين الذين لم يهتدوا بهدى الله سبحانه وتعالى، فما أكثر المقالات والكتب التي كُتبت في محاولة الإجابة عن هذا السؤال ما هي حقيقة الإنسان، فبعضهم قال إن الذي يميز الإنسان هو استعماله للآلات بعضهم قال كونه مخلوقاً ناطقاً بعضهم قال إن له عقلاً بعضهم كالوجوديين وبعض الشيوعيين قال لا حقيقة له هو يولد ومعه عقله وإرادته وكذا، ثم هو الذي يقرر حقيقته، فكل إنسان حقيقته في يده هو الذي يصنع نفسه بحسب ما يريد، لكننا نقول إن الإنسان له حقيقة أو له فطرة له أصل، والمطلوب منه أن يحقق هذه الفطرة وأن يكملها وأن يعترف بها وأن يسير وفق مقتضياتها إذا فعل هذا كان إنساناً، فالإنسان كلما عبد الله سبحانه وتعالى كلما ارتقى في سلم الإنسانية يعني العبودية لله هي رقي بالإنسان وكلما تمرد على الله سبحانه وتعالى ونسي الله سبحانه وتعالى كلما انحط قدره فصار أقل من الحيوان، الله سبحانه وتعالى مَنّ على الناس بنعم كثيرة ولكن أكبر نعمه على الناس هي نعمة الهداية، فالله سبحانه وتعالى تفضل فجعل بذرة هذه الهداية في القلوب هذه الفطرة التي تحدثنا عنها، ولكن الإنسان إذا ترك لفطرته وعقله وتفكيره لا يستطيع أن يصل إلى الدين الحق، فلذلك تفضل الله سبحانه وتعالى فأنعم عليه نعمة أخرى بإرسال الأنبياء لتكميل هذه الفطرة وتوضيح تفاصيل الدين الذي وضع الله سبحانه وتعالى أساسه في هذه الفطرة؛ لأن الإنسان كما قلت إذا ترك لنفسه حتى لو كان

إنساناً مخلصاً حتى لو كان سائراً مع فطرته لا يستطيع أن يعرف كل أسماء الله وصفاته بل ربما أخطأ في ذلك، وربما نسب إلى الله سبحانه وتعالى عن حسن قصد شيئاً لا يليق بالله سبحانه وتعالى، فهذا أول ما جاءت الأنبياء لتوضيحه، الأنبياء يدعون الناس إلى توحيد الله سبحانه وتعالى توحيد الله في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته، ثم إن الإنسان مهما كان مخلصاً كما قلنا، ومهما كان سائراً مع فطرته إذا ترك لنفسه لا يعرف حتى إذا أراد أن يعبد الله سبحانه وتعالى، لا يعرف ما هي الوسيلة التي يعبد بها الله سبحانه وتعالى قد يكون خاضعاً في قلبه ولكن الخضوع القلبي وحده لا يكفي، الإنسان يريد أن يعبر عن هذا الخضوع بشيء يعمله ما هو هذا الشيء؟ إذا ترك لنفسه لا يستطيع وعندنا أمثله كثيرة لأناس هداهم الله للإسلام فحكوا لنا حكايات في هذا الموضوع منها ما حكاه الأستاذ حميد الله أحد إخواننا الباكستانيين الذي يعيش الآن في فرنسا قال إن إحدى الراهبات حدثته علمها كيف تصلي أظنها أسلمت علمها كيف تصلي فعندما صلت وسجدت جاءت وقالت له إنها كانت تشعر قبل ذلك بالعبودية لله ولكنها لم تكن تدري كيف تعبر عن هذا الشعور، ولم تشعر طوال حياتها ورغم انقطاعها للعبادة أنها خضعت لله وذلت لله إلا بعد أن سجدت، وكذلك قال لي بعض إخواننا الأمريكان الذين هداهم الله سبحانه وتعالى للإسلام كانوا مسلمين اسما ينتمون إلى جماعة أليجا محمد، فكانوا يصلون ويعبدون عبادات اخترعوها من عند أنفسهم فعندما هداهم الله سبحانه وتعالى وعلمناهم الصلاة جاء أحد أئمتهم كان يأُمهم وكان مقدما فيهم ولكنه لم يكن يصلي ولا يعرف الصلاة، فعندما علمناه الصلاة وكيف يركع وكيف يسجد وكيف كذا جاء من صباح الغد وألقى محاضرة بكى فيها وأبكى الناس عن الصلاة فقط، وقال نفس الكلام التي قالته هذه الراهبة إنه ما شعر أبداً في خضوعه لله سبحانه وتعالى وعبادته له إلا بعد أن سجد، فانتم أيها الإخوة في نعمة كبيرة كلما سجدتم لله سبحانه وتعالى تذكروا أن هذه من أكبر نعم الله سبحانه وتعالى عليكم، وتقرؤون في الدين أن أقرب ما يكون الإنسان من ربه وهو ساجد، فلو تركنا لعقولنا لما فكرنا في هذا السجود ربما فكرنا بأشياء أخرى لا تعبر عن هذا الخضوع الذي فطرنا الله سبحانه وتعالى عليه وكذلك بالنسبة للمآكل والمشارب والتصرفات مهما كان الإنسان مخلصاً ومهما كان سائراً

مع فطرته إذا ترك لعقله وتفكيره لكي يقرر ماذا يأخذ وماذا يدع وكيف يتصرف بحيث يكون أكله وشرابه وتصرفاته مرضية لله سبحانه وتعالى ومتناسبةً مع فطرته التي فطره الله سبحانه وتعالى عليها لما استطاع ربما شرب الخمر، فأبعدته عن الله سبحانه وتعالى ربما أكل الخنزير ربما أسرف في الأكل ربما عامل الناس بطريقة لا تليق، فالله سبحانه وتعالى تفضل فهدانا إلى الإيمان بتفاصيله وإلى العبادة الحقه وإلى التصرفات والمآكل والمشارب التي تتناسب مع فطرتنا هذا كما قلت والذي جاء به الأنبياء جميعاً نخلص الآن أيضا في صورة موجزه هذا الدين الذي جاءنا به الرسول ﷺ فهذا الدين ككل الأديان بذرته في قلوبنا فإذا مثلناه بشجرة نقول إن قلوبنا هي الأرض، وإن الفطرة هي هذه البذرة التي وضعها الله سبحانه وتعالى في هذه الأرض، وإن الجذور التي تخرج من هذه البذرة هي الإيمان بالله سبحانه وتعالى الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، أركان الإيمان هذه هي الأساس فكما أن الشجرة لا تصلح بغير بذرة وبغير أرض وبغير جذور فكذلك لا دين بغير قلب وبغير بذرة من الفطرة وبغير جذور التي هي امتداد لهذه البذرة التي وضعها الله سبحانه وتعالى في القلب، ولكن هذه البذرة لكي تنمو محتاجة إلى ماء محتاجة إلى شيء يغذيها، والغذاء هو العبادات فديننا لا يقول لنا آمنوا بالله فقط كما يقول الناس عن الفلاسفة إن دينهم دين فكري فقط يقول إن الله موجود أو إن الله واحد لكن ليس هذا هو المقصود فقط، وإنما المقصود أن يكون هذا إيماناً أن يكون إيماناً حياً لأن الإيمان الحي هو الإيمان الذي ينفع الإيمان الذي ينتج عنه العمل الصالح كما أن البذرة ينتج عنها الساق والفروع والثمار فلكي يظل إيماننا هذا حياً فلابد من ذكر الله تعالى، وذكر الله سبحانه وتعالى يكون بالذكر باللسان كما نقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ويكون بالعبادة فالعبادة ذكر ويكون بالزكاة والزكاة ذكر لله تعالى ويكون بالحج فكل هذه وسائل أو طرق نعبر بها عن شكرنا لله سبحانه وتعالى فنذكره فيظل إيماننا به سبحانه وتعالى حي وخطورة إهمال العبادات أنها قد تؤدي إلى ذهاب الإيمان لأننا قلنا إن العبادات وذكر الله سبحانه وتعالى هو بمثابة الماء الذي يغذي شجرة الإيمان فإذا طال على الإنسان الأمد ولم يذكر الله سبحانه وتعالى فإن إيمانه نفسه قد يذهب لأن الإيمان لا يكفي مجرد الإقرار أن

يقول الإنسان بلسانه إن الله موجود أو إن الله واحد أو إن الأدلة على وجود الله ووحدانيته هي كذا وكذا وكذا لا هذا الإيمان يحتاج إلى حراسة لأن هنالك شياطين من الإنس والجن تجتال الإنسان عن دينه فلا بد من هذه العبادة لكننا نعيش في مجتمع يعني لو كنا أفراداً لو كان كل واحد منا يعيش فرداً ربما كفاه الإيمان والعبادة حتى الزكاة لا يكون لها مكان لكننا نعيش في المجتمع وإذا لا بد لنا من أن يكون تنظيمنا الاجتماعي متناسباً مع إيماننا ومع عبادتنا هذه أيضاً أهمية التنظيم الاجتماعي ما يسمى الآن بالتنظيم الاجتماعي، يعني ماذا نأخذ من أغنيائنا لنعطي فقراءنا كيف يكون نظامنا السياسي كيف يكون نظامنا الاجتماعي ما هي حقوق جيراننا علينا ماهي حقوق الدول الأخرى علينا كيف ننجب أطفالنا ماهي العلاقة بين الرجل والمرأة وهكذا فالناس عندما يكونون مجتمعاً يحتاجون إلى كل هذا فإذا لم يكن لهم دين اخترعوا شرائع لأنفسهم من عند أنفسهم وتخبطوا فيها مرة يحرمون وأخرى يحللون ما حرموا ثم يعودون فيحرمون كما يفعل الآن الإنجليز ألغوا عقوبة الإعدام عن القاتل ثم ظهر لهم أن هنالك مشاكل كثيرة تنتج عن هذا فهم الآن يفكرون في العودة إلى تقرير هذه العقوبة وهكذا فالله سبحانه وتعالى وضع لنا تشريعاً ننظم به حياتنا الاجتماعية ويمكن أن نقول إن لب هذه التشريع هو أن ينظم حياتنا بحيث تعيننا على ذكر الله وبحيث تقل الفتن والمعوقات عن ذكر الله سبحانه وتعالى، يعني إن المقصود من التنظيم الاجتماعي أن ييسر لنا عبادة الله سبحانه وتعالى، وأنتم كما تعرفون من تجربتكم في هذا البلد أن مجرد إقامة حدود الله سبحانه وتعالى تأتي للناس بالأمن فإذا أمن الناس ساعدهم هذا على عبادة الله سبحانه وتعالى؛ لأن الإنسان إذا كان مشغولا طول الوقت بحراسة نفسه والتفكير في اللصوص والمجرمين وكذا وكذا يكون مشغول البال فهذا هو ما يساعده على عبادة الله، جاءنا في تشريع الزكاة أن الإنسان إذا كان فقيراً أيضاً هذا الفقر قد يشغله عن عبادة الله سبحانه وتعالى، كذلك نظم لنا طريقة الزواج كيف نتزوج وكيف نربي أولادنا وكيف نطلق وكيف وكيف لأننا إذا لم ننظم حياتنا بطريقة تجلب لنا الأمن والسعادة فإن هذا أيضا قد يشغلنا عن ذكر الله سبحانه وتعالى، فإذاً المقصود من هذه التنظيمات كلها يعني بعض المقصود منها أن تساعدنا على عبادة الله، الآن عندنا عقيدة وعندنا عبادات

وعندنا تنظيم اجتماعي بقي لنا أمر آخر وهو أن حولنا أعداء إذا لم ندافع عن هذا الدين ولم ندافع عن هذا المجتمع الذي نظمناه وفق شريعة الله سبحانه وتعالى فإن هؤلاء الأعداء يهجمون علينا ويضيع كل ما كسبنا فلذلك شرع الله سبحانه وتعالى لنا الجهاد فإذا أنتم ترون أن شرائع الإسلام هذه كلها مرتبطة، مرتبط بعضها ببعض ومتناسقة لا يمكن أبدا أن يحل شيء منها محل شيء آخر، ولا يمكن أن نستغني عن شيء منها بشيء نخترعه من أنفسنا، فلابد من عقيدة التوحيد ولابد من الخلق ولا بد من العبادة ولابد من التشريعات الاجتماعية ولابد من الجهاد للدفاع عن هذا الدين، ثم إن المسلمين الملتزمين بهذا الدين أمة واحدة ينبغي أن يكونوا بالتعبير الحديث من الناحية السياسية أمة واحدة أيضا يعني أن يكون لهم حاكم واحد خليفة للمسلمين جميعاً، وأن يكونوا متحدين، يكون لهم جيش واحد، تكون لهم سياسة خارجية واحدة، يكون هنالك تكافل بينهم، فإذا كان عند هؤلاء علماء يتفضلون بهم أو ببعضهم على من ليس عندهم علماء إذا كان عند هؤلاء مال يتفضلون به على الدولة التي ليس لها مال، إذا كان عند هؤلاء مهرة مختصون في بعض الصناعات وكذا وأولئك ليس عندهم هكذا المسلون أمة واحدة فهم كالأسرة الواحدة يعين بعضهم بعضا ماذا نفعل ماذا تكون النتيجة ؟ إذا حققنا هذا الدين بهذه الطريقة النتائج باهظة وكثيرة جداً، منها أن كل فرد منا يحيا حياة طيبة، كل إنسان إذا آمن بالله سبحانه وتعالى كلما قوي إيمانه وحسنت عبادته وأخلص دينه لله سبحانه وتعالى، كلما كانت حياته طيبة بغض النظر عن الظروف الخارجية التي تحيط به، هذا بالنسبة للأفراد، وأما بالنسبة للأمة فإذا آمنت الأمة كلها وطبقت شرع الله سبحانه وتعالى فإن الله سبحانه وتعالى ينعم عليها بالخير المادي إلى جانب هذا الخير الروحي والقلبي ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ (المائدة: ٦٦)، فالخير المادي أيضاً هو نتيجة الالتزام بهذا الدين، وهذا لا يعني أن كل من أنعم الله سبحانه وتعالى عليهم فقد أنعم عليهم لأنه راضٍ عنهم يعني العكس ليس بصحيح، إذا آمنت الأمة جميعاً أو قل معظمها بقدر استمساكها بالدين إن شاء الله يفيض الله عليها من الخيرات، ولكن العكس ليس صحيحاً يعني ما كل

أمة أفاض الله سبحانه وتعالى عليها من الخيرات المادية فمعنى ذلك راضٍ عنها لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، فالنعم قد تكون في بعض الأحيان مجرد امتحان وقد تكون مقدمة للهلاك لأن الأمة التي تكفر بنعم الله سبحانه وتعالى قد يمتحنها الله سبحانه وتعالى أولاً بأن يمسك عنها بعض هذه النعم فإذا هي تذكرت ورجعت رجع إليها النعم وإذا هي تمادت ولم ترجع فإن الله سبحانه وتعالى قد يفتح عليها بنعم جديدة أكبر من النعم التي كانت من قبل، ولكن هذه النعم الأخيرة تكون مقدمةً لهلاكهم فإذاً العكس ليس صحيحاً، وأما الثمرة الكبرى فهي رضى الله سبحانه وتعالى وجزاؤه في الآخرة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، هذا هو الجزاء، وهذه هي الثمرة التي ما بعدها ثمرة.

أقول كلمات بسيطة في المقارنة بين هذا الدين وما نعرف الآن من أديان ومذاهب يمكن أن نقسم ما في العالم الآن ما يسمى بالأيدولوجيات يعني المذاهب والملل والنحل التي ينتمي إليها الناس لنقسمها أولاً إلى نوعين، نوع ينكر وجود الخالق ونوع يقر بالخالق، فالإسلام مع النوع الذي يقر بالخالق لأن إنكاره للخالق أمر يأباه العقل. يقول القرآن الكريم: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

يقول الذي ينكر وجود الخالق من أين جئت خلقت من غير شيء خلقك هكذا من فراغ لا يمكن، العقل يقول لا مستحيل أم هم الخالقون أم أنت خلقت نفسك، هذا مستحيل إذاً لا بد لك من خالق فإذاً نترك هؤلاء المنكرين لوجود الخالق كالشيوعيين والملحدين وبعض الأفراد من الغربيين، نأتي للذين يقرون بالخالق نجد هؤلاء أيضا قسمين قسم يخترع ديناً من عنده كالبوذيين وقسم يقول دينه هذا من عند الله فنحن مع الذين يقولون إن دينهم هذا من عند الله؛ لأنه لا فائدة من دين يخترعه الإنسان لأن المقصود أن يعبد الله بحسب ما يرضى الله سبحانه وتعالى فإذا جئنا لهؤلاء الذين يقول إن دينهم من عند الله وجدنا فضلنا بحمد الله وسبحانه علينا فأولاً نجد أن دعواهم

ليس عندهم عليها دليل نجد عندهم كتب يقولون إنها من عند الله، ولكن ليس عندهم دليل على أن كل ما في هذه الكتب هو مما جاء به عيسى رسول الله أو موسى رسول الله ونحن عندنا من الأدلة التاريخية ما يثبت أن ما عندنا من قرآن وسنة هو الذي جاء به محمد ﷺ، ثم إن لب الدين هو الإيمان بالله نجد أن أديانهم فيها من الشرك ما يعرفه الطفل من أطفال المسلمين فهي كتب متناقضة، تقول مرة إن الله على كل شيء قدير، وتقول مرة إنه لا يستطيع أن يفعل كذا وكذا تقول مرة إنه خالق كل شيء وتقول مرة إن فلان ابن الله كيف يكون خالقاً لكل شيء ويكون فلان ابنه لأنه إذا كان فلان ابناً له فهو لم يخلقه؛ يعني الإنسان لا يخلق الشيء لا يخلق ابنه، الإنسان المنصف يكفيه أن يقارن بين القرآن وبين هذه الكتب في أمرين اثنين فقط وهما الكلام عن الله والكلام عن رسل الله. إذا قرأت القرآن الكريم لا تملك إلا أن تشعر بأن هذا الذي يحدثك هو الله سبحانه وتعالى؛ لأنك لا تجد في كتاب غير القرآن من صفات الكمال والجلال لله سبحانه وتعالى ما تجده في القرآن الكريم كل الكتب الأخرى سواء كانت من اختراع الفلاسفة أو مما ينسبه النصارى واليهود إلى أنبيائهم وهم بريؤون منهم كل هذه الكتب لا تصف الله سبحانه وتعالى بصفات الكمال التي نجدها في القرآن الكريم، فيكفي فقط أن نقارن هذه الكتب بالقرآن الكريم في هذه الناحية لنقول إن القرآن كلام الله وإنها ليست كلام الله سبحانه وتعالى، والناحية الثانية أن نقارن بين ما تقول هذه الكتب عن أنبياء الله وبين ما يقوله القرآن عن أنبياء الله فنجد فيها غلواً في ناحية وتفريطاً في ناحية النصارى؛ غلوا فرفعوا نبي الله عيسى إلى مرتبة الألوهية، واليهود فرطوا فنسبوا إلى أنبياء في كتبهم الذي يعتبرونها أنها كتب مقدسة نسبوا إليهم من الجرائم ما لا تنسبه إلا إلى فئة ضالة شاذة من البشر؛ يعني حتى لا ينسب إلى المجرمين العاديين، ولكننا نجد في القرآن الكريم يقول لنا من ناحية إن هؤلاء الأنبياء جميعاً بشر جميعهم عبيد الله، ونجده من الناحية الأخرى يقول لنا إنهم مصطفون وأخيار، وأنهم معصومون وأنهم أحسن البشر وسادة البشر، وهذا هو الذي يليق بالله سبحانه وتعالى. كيف تقول إن الله يعلم كل شيء ثم تقول إنه عجز على أن يختار من هؤلاء البشر رجالا صالحين يحملهم رسالته؟ كيف

يليق بالله سبحانه وتعالى أن يختار أناساً يكذبون ويزنون ويغشون؟ كيف يختار هؤلاء ليكونوا رسله إلى الناس فإذا قارنا ديننا بهذه الأديان في هاتين المسألتين فقط لبرز لنا فضله على هذه الأديان.

موضوعنا الأخير هو أن هذا الدين كما وصفناه وبينا فضله على كل ما عند الناس الآن من مذاهب ونحل وأديان، هذا الدين -مع الأسف- مظلومون الآن من المنتسبين إليه فهم لم يوفوه حقه، ففي ناحية العبادة فرطوا فيه، هذا الدين كما قلنا إن أصله هو توحيد الله سبحانه وتعالى في ذاته وأسمائه وصفاته، لكن المسلمين اليوم وقعوا في أنواع من الشرك عوامهم وقعوا في الشرك المعروف الذي وقع فيه الناس من قبلهم أن يعتقدوا في الأولياء أو في الأموات أو في الأشجار الأنهار أو في السحرة أو في كذا وكذا أو في الأشياء التي جاء هذا الدين بالنهي عنها، وعن أن يشرك الإنسان هذه الأشياء بالله سبحانه وتعالى، وأما حكامهم فقد وقعوا أيضاً في نوع آخر من الشرك وهو أن كثيرين منهم ظنوا أن من حقهم أن يشرعوا للناس ونحن نعلم أن حق التشريع إنما هو لله سبحانه وتعالى فلا ينبغي للناس أن يقولوا لما تصف ألسنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام، ولكن الناس الآن أيضا في العالم الإسلامي وقعوا في هذا، فهم إما الحاكم بمفرده أو برلمانه أو مجلس شعبه يجتمع ويقرر أن هذا الأمر كذا، وأن هذا الأمر ليس كذا ولا يلتفت إلى ما جاء في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ فإذا أعطى الناس أنفسهم هذا الحق رأوا أن من حقهم أن يشرعوا فهذا نوع من الشرك وفي العبادات أيضاً ضل الناس عن الطريق القويم؛ فخلطوا عباداتهم بكثير من البدع، والإنسان ليس من شأنه أن يحزن ويبكي على هذه الأمور، ولكن نذكر أنفسنا بهذه لكي نعمل عملاً إيجابياً.

ينبغي على كل منا أن يحاول بقدر ما يستطيع وبقدر ما في وسعه أن يعمل لإعلاء كلمة الله، يعمل لإعلاء كلمة الله يبدأ في نفسه ويصحح عقيدته ويصلح عبادته ويصلح أخلاقه، ويتزود من معرفة هذا الدين بقدر ما يستطيع، ثم يجاهد لإعلاء كلمة الله بدعوة الناس إلى الله سبحانه وتعالى في المجال الذي يستطيعه، بعضنا يستطيع أن يدعو في مجال العقيدة، بعضنا له موهبة على أن يذكر الناس بالله سبحانه وتعالى

ويصحح عباداتهم، بعضنا عنده مقدرة على أن يتكلم في المسائل السياسية، وأن يدعو الناس إلى الحكم بما أنزل الله، وبعضنا يستطيع أن يحمل السلاح ويجاهد في سبيل الله.

المهم أن كل منا أن يعمل كل ما في وسعه، ربما يستطيع واحد منا أن يجمع بين كل هذه الأشياء، فهذا من فضل الله سبحانه وتعالى، ولكن ينبغي أن لا نتنازع، وإلا نفسد أعمال بعضنا، كل إنسان يدعو إلى خير أو يعمل خيراً فهو في مصلحتنا وفي مصلحة ديننا، وهو أخ لنا ينبغي أن نشجعه، وإن كنا لا نستطيع أن نعمل العمل الذي وهب نفسه له، ولكننا نستطيع أن نعمل عملاً آخر هو أيضا عمل خير، إذا فعلنا هذا بإذن الله سبحانه وتعالى فإنا نرى نحن الآن نرى في العالم كله وفي العالم الإسلامي كما قلنا في ندوة تشرفت بأن كنت بها مع شيخنا الشيخ عبدالعزيز بن باز عن الصحوة الإسلامية كما قلنا في تلك الندوة عن أن هنالك الآن مبشرات كثيرة في العالم تجعلنا نأمل في أن الناس سيرجعون إلى هذا الدين، وأن هذا الدين سيظهر بإذن الله سبحانه وتعالى، وسينتشر حتى في البلاد غير الإسلامية، وسيعود في البلاد الإسلامية، ولكن هذه ينبغي أن لا تكون مجرد أمانٍ، بل ينبغي على كل منا أن يعمل ما في وسعه لكي يتحقق هذا الأمر.. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

❊ ❊ ❊

الدعوى بأن لله ولدا

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، ثم أما بعد :

آيتنا في هذه الحلقة هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

والقضية مهمة جداً هي الدعوى بأن لله ولداً، كنا ونحن في البلاد الغربية نحتج على النصارى بحجج عقلية نقول لهم إذا كنتم تؤمنون بأن الله خالق كل شيء فيلزمكم أن تقولوا إنه لا يمكن أن يكون له ولد؛ لأنه إذا كان خالقاً لكل شيء فالوالد لا يخلق ولده، فالولد هذا من أين جاء إذا قلتم إنه ولده يعني أن الله يلد كما يلد البشر سبحانه وتعالى، فهذا الولد يجب أن يكون قد خلقه خالق آخر غير الله سبحانه وتعالى، فإذاً إما أن تقولوا إن الله خالق كل شيء فيلزمكم أن تقولوا لا ولد له، وإما أن تقولوا إن له ولداً فيلزمكم أن تقولوا إن هنالك خالقاً غير الله سبحانه وتعالى، هذا ملخص الحجة التي كنا نقولها، ثم إن بعضهم، تعلمون أن بعض النصارى مختصون بالبحث عن الشبهات، وكذا التي يردون بها على المسلمين، وبعضهم متخصصون باللغة العربية ويقرأون القرآن الكريم، فأثاروا على بعض المسلمين شبهة قالوا لهم إنكم تقولون إنه يستحيل على الله أن يتخذ ولداً، لكن هذه الآية تقول: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ فكأن الخلاف بيننا وبينكم أيها المسلمون ليس هو في مبدأ اتخاذ الله ولداً، وإنما هو من هو هذا الولد الآية تقول لاصطفى مما يخلق ما يشاء يعني معناها كما ورد في بعض التفاسير ليس يلزم أن يكون عيسى ولا أن يكون كما قالت العرب الملائكة بنات الله، فاحتجوا على المسلمين بهذا ثم رجعنا إلى التفاسير فلم نجد في كثير منها ما يشفي الغليل.

وأضرب لكم مثلاً في بعض التفاسير، التفاسير الكبيرة والعظيمة التي يرجع إليها الناس مثلاً صاحب الجلالين يفسر هذه الآية يقول: «لو أراد الله أن يتخذ ولداً كما قالوا لاتخذ الله ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء واتخذه ولداً غير من قالوا أظنهم

الملائكة أو عُزير أو المسيح تنزيهاً له سبحانه وتعالى عن اتخاذ الولد، فهذه تؤكد شبهة النصارى يعني كأن الجلالين يقول لو أراد أن يتخذ ولداً لكان ولد غير هذا الذي قاله النصارى».

حتى ابن كثير المفسر العظيم الإمام العظيم يقول: «ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعموا جهلة المشركين في الملائكة والمعاندون من اليهود والنصارى في العُزير وعيسى، فقال تعالى لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء أي كان الأمر على خلاف ما يزعمون ثم قال وهذا شرطه لا يلزم وقوعه ولا جوازه».

يعني الآية تقول لو أراد أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء، وابن كثير يقول هذا شرطه لا يلزم وقوعه ولا جوازه بل هو محال، ويجوز عقلاً يعني تعليق الشرط على المستحيل، أما الذي فسر الآية يشفي الغليل فعلاً هو المفسر العظيم ابن عطية فقال: «لو أراد أن يتخذ ولداً معناه اتخاذ التشريف والتبني».

أكرر هذا الكلام ليس لاتخاذ يعني ولداً في الحقيقة لو أراد أن يتخذ ولداً اتخاذ التشريف والتبني، وعلى هذا يستقيم قوله: ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾؛ لأنه إذا كان ولداً مولوداً فلا مجال للكلام اصطفى مما يخلق لأنه إذا كان مصطفى مما خلق الله فلا يكون ولداً حقيقياً هذا معنى كلام ابن عطية، وأما اتخاذ المعهود للتولد فمستحيل أن يتوهم في جهة الله سبحانه وتعالى، ولا يستقيم عليه معنى قوله لاصطفى لأنه لا يمكن أن تقول إنه ولده، وإنه اصطفاه، لا يستقيم الكلام لا يستقيم مع قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢]، لفظ يعم اتخاذ النسل واتخاذ الاصطفاء أكرر هذين اللفظين اتخاذ النسل هو الذي نفاه الله في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، يعني لا يمكن أن يكون له ولد حقيقي، وأما اتخاذ الاصطفاء فهو هكذا:

الأول: مستحيل كما قلنا.

والثاني: ليس مستحيلاً عقلاً أن الله يخلق ثم يصطفي مما خلق بعض مخلوقاته ويقول إن هذا ابن لي.

فكما قال ابن عطية:

«**الأول:** مستحيل عقلاً.

والثاني: معروف بخبر الشرع أن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يكون».

ومما يدل على أن المعنى هنا الاصطفاء والتبني قوله سبحانه وتعالى مما يخلق كما قلته أنا أي من موجوداته ومحدثاته ثم نزه الله سبحانه وتعالى نفسه تنزيهاً مطلقاً عن جميع ما لا يكون مدحاً يعني الله سبحانه وتعالى منزه عن أن يكون له ولد سواءً أن كان ولداً بالاصطفاء كما في هذه الآية، أو كان ولداً بالنسل، ومما يدل على صحة كلام ابن عطية أن عبارة: (اتخذ ولداً) جاءت فعلاً في القرآن الكريم في ولد الاصطفاء مثلاً قوله سبحانه: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩]، وظاهر هنا أنه ليس ولد النسل؛ لأنه كان موجوداً، وقوله سبحانه وتعالى على لسان الذي اشترى يوسف قوله لأمراته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١].

ومسألة أن لله ولداً هذه العقيدة هي من أكبر المشكلات حتى الآن عند النصارى، والإنسان يعرف الحكمة في أن الله سبحانه وتعالى جعل هذه هي المسألة الأولى هي التي يتكلم عنها، بالنسبة للنصارى عندهم انحرافات كثيرة لكن المسألة التي ركز عليها كتاب الله سبحانه وتعالى هي هذه المسألة، فكثير من النصارى يتركون دينهم بسبب هذه المسألة، يعني هم يرون بعقولهم أنه لا يمكن أن يكون الله خالقاً وأن يكون له ولد في الوقت نفسه، وكثير من الذين أسلموا قالوا لنا إن من أهم أسباب إسلامهم أنهم عندما وجدوا أن القرآن الكريم ينفي نفياً باتاً أن يكون لله سبحانه وتعالى ولد فهذه العقيدة السليمة الصافية التي تنزه الله سبحانه وتعالى عن اتخاذ الولد هي التي جذبتهم إلى هذا الدين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم..

* * *

السؤال عن أصل الخلقة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، ثم أما بعد:

آيتنا في هذه الحلقة هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الروم: ٣٠]، هذه الآية في سورة الروم القضية المتعلقة بهذه الآية هي السؤال عن أصل الخِلقة هل الإنسان في أصله شرير، أم أنه خُلق محايداً بين الخير والشر، أو أنه في أصله خيّر، وبكل من هذه الأقوال قال بعض الناس من المسلمين ومن غير المسلمين ففرقة من النصارى تقول إنه يولد شريراً لأنه يولد وارثاً لخطيئة آدم، فالشر جزء من خِلقته وبعض المسلمين أو حتى من بعض علماء المسلمين قالوا إن الإنسان شرير، واستدلوا على ذلك بآيات مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢١]، والذين قالوا إن الإنسان يولد محايداً استدلوا بآيات مثل قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧-٨]، فاعتبروا أن الإنسان يولد وقد أُلهم هذا الطريق وهذا الطريق فإن شاء اختار طريق الفجور وإن شاء اختار طريق التقوى، ولكن الحقيقة هي أن الإنسان يولد خيّراً وهذا هو التي تدل عليه هذه الآية الكريمة؛ لأن الآية تقول إن هذا الدين والدين خير ما في جدل ما في ذلك شك، وأن هذا الدين هو فطرة الله التي فطر الناس عليها من أحسن من رأيته علق على هذه الآية تعليقاً يتناسب مع هذا المعنى الذي قلناه هو الإمام ابن كثير فقال رحمه الله: «ومعناه أنه يعني الله سبحانه وتعالى ساوى بين خلقه جمعياً في الفطرة على الجبلة المستقيمه لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك يعني كل الناس حين يولدون بغض النظر عن كون آبائهم مسلمين أو نصارى أو يهود أو شيوعيين أو كذا هو حين يولد يولد على الفطرة المستقيمة، ولا تفاوت بين الناس في ذلك»، واستدل أيضاً بالحديث الذي في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(كل مولود يولد على الفطر فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)** انظر ما قال يجعلانه مسلماً إنما قال فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، فكأن التهويد والتنصير و التمجيس هو انحراف عن هذه الفطرة، وكما جاء في صحيح مسلم كما قال ابن كثير عن عياض بن حمار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(يقول الله تعالى إني خلقت عبادي حُنفاء فجاءتهم الشياطين**

فاجتالتهم عن دينهم)، هذا معناه أن الإنسان إذا ترك على فطرته ولم يتدخل فيها شيء من الخارج سواء كان من المجتمع أو من الأبويين أو من الشياطين أنه إذا ترك على فطرته فإنه يكون إنساناً موحداً لا يشرك بالله شيئاً، فكل انحراف يحصل له هو بسبب هذه العوامل الخارجية، وأنا في رأيي أن هذا هو الأمر الذي يتناسب مع حكمة الله سبحانه وتعالى وعدله لأن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يخلق الناس شريرين ثم يقول لهم كونوا خيرين، لا يمكن أن يخلقهم محايدين بين الخير والشر ثم يقول لهم كونوا خيرين؛ لأنه لكي يختار ويميز بين الخير والشر لابد أن يكون له معيار، وهذا المعيار لا بد أن يكون في فطرته، وهذا المعيار لا بد أن يكون هو الخير الذي فطره الله سبحانه وتعالى عليه، لكن هنالك نصوص فهم منها بعض الناس أو حتى بعض العلماء فهماً لا يتناسب مع هذا الذي قلناه منها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٢-٣]، فهم بعض الناس من الآية أن الناس منذ أن يخلقهم الله تعالى يخلقهم بعضهم كافر وبعضهم مؤمن، يعني كأن هذا في أصل خلقة الإنسان هؤلاء يولدون كفاراً وهؤلاء يولدون مسلمين، وهذا ليس هو التفسير الصحيح كما ذكر ابن كثير أيضاً وهو يعلق على آية أخرى في كتاب الله، قال: إن هذا في ثاني الحال تدبر العبارة هذه (ثاني الحال) يعني فمنكم كافر ومنكم مؤمن هذا في ثاني الحال، أول الحال أنهم على الفطرة بعد أن يولدوا على الفطرة ينقسمون وبعضهم يستمر على هذه الفطرة التي فطره الله عليها فيكون مؤمناً، وبعضهم ينحرف عنها فيكون كافراً، وأثناء قراءتي للآية في الأيام الأخيرة وأنا أعد لهذا البرنامج لاحظت أن الآية التي بعدها تؤكد هذا المعنى؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فقلت في نفسي إن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يخلق أجسادنا في أحسن صورة، ولكن لا يخلق أرواحنا في مثل هذه الصورة الحسنة، فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق أجسادنا في أحسن صورة فمن باب أولى أن يخلق قلوبنا وأرواحنا أيضا في أحسن صورة. قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، فهذا هنا فسر ابن كثير الآية بالكلمات التي قلتها لكم وهي أن هذا في ثاني الحال..

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

القرآن الكريم كلام الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً..

ثم أما بعد:

الآية التي نتكلم عنها في هذه الحلقة هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فكأن هذه الآية تعطي الناس دليلاً عقلياً على أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا من عند الله، يعني كأنها تقول لهم إذا أردتم أن تعرفوا بعقولكم أن هذا القرآن هو كلام الله وليس كلام أحد من البشر فتدبروه وستجدون أنه لا اختلاف فيه والاختلاف معروف أن يقول القائل كلاماً في مكان ثم ينقضه أو يقول كلاماً مختلفاً عنه في مكان آخر.

والسبب هذا النوع من الاختلاف والتناقض هو أن البشر ليسوا كاملين؛ الإنسان يقول كلاماً ثم ينسى ما قال فيقول كلاماً مختلفاً عن الذي قاله، أو يقول كلاماً يناقضه ويكون جاهلاً بأن ما قاله الآن يتناقض مع ما قاله بالأمس أو قبل شهر أو كذا وكل هذا لا يتناسب مع الله سبحانه وتعالى؛ لأن الله سبحانه وتعالى عالم بكل شيء، والله سبحانه وتعالى لا ينسى فلا يمكن أن يكون في كلامه نوع من التناقض.

وأنا فكرت في هذه الآية منذ سنين طويلة ووجدت أن مما يجعل الناس يتناقضون ثلاثة أشياء أولها المدة التي يقال فيها الكلام إذا كان الكلام في مدة قصيرة طلب مني أن اتحدث في خمس دقائق أو كذا يمكن أن أنتبه جداً ولا أتناقض فيما أقول إذا قيل لي أن أتحدث لمدة ساعة زاد احتمال الاختلاف والتناقض إذا زاد عن هذا فقيل لي كما في هذه الحلقات الآن تكلم اليوم لمدة نصف ساعة ثم تكلم بعد أسبوع لمدة نصف ساعة ثم تكلم كذا لمدة سنة كاملة، فإذا ما راجعت كلامي سأجد أنني حتى لو لم ينبهني شخص آخر أنا نفسي سأجد أنني قلت كلاماً ناقضت نفسي، والقرآن

الكريم نزل كما هو معلوم في مدة طويلة ثلاث وعشرون سنة ينزل تدريجياً كل مرة تنزل آية أو آيات أو آية أو آيات في مدة ثلاث وعشرين سنة، ومع هذا ليس فيه تناقض وهذا أمر يستحيل على البشر أن يتكلم الإنسان أو يكتب أو كذا لمدة تزيد عن العشرين سنة ثم لا يكون في كلامه تناقض.

المسألة الثانية التي يزيد معها احتمال الاختلاف والتناقض هي تعدد الموضوعات، فإذا ما حصر الإنسان نفسه في فرع من فروع العلم قل الاقتصاد مثلاً رجل مختص في الاقتصاد ولكنه مختص في جزئية من الاقتصاد فهو يحصر نفسه فيها ويتكلم فيها ولا يتعدى هذا إلى موضوع آخر، فاحتمال أن يقع في التناقض أقل مما لو أنه تكلم في مسائل الاقتصاد كلها، أو أنه أضاف إلى الحديث في الاقتصاد حديثاً في السياسة وحديثاً في الاجتماع وحديثاً في التاريخ وكذا كلما زادت الموضوعات زاد احتمال أن يقع في التناقض، والقرآن الكريم متعدد الموضوعات ليس على وجه الأرض كتاب فيه من الموضوعات ما في كتاب الله سبحانه وتعالى؛ فهو كتاب يدعو إلى العقيدة الصحيحة وكتاب عن الأخلاق وكتاب يتحدث عن العبادات كيف تعبد الله سبحانه وتعالى، ويحدث الناس في مسائل التشريع الخاصة والعامة مسائل الزواج والطلاق وكذا، ومسائل الحرب والسلم، ويتحدث عن السنن الاجتماعية ويتحدث عن التاريخ فليس على وجه الأرض كتاب فيه هذا الكم من الموضوعات مثل ما في كتاب الله سبحانه وتعالى، ومع هذا لا تجد فيه تناقضاً وهذا لا يمكن أن يكون كتاب مثل هذا إلا من عند الله سبحانه وتعالى.

و في القرآن الكريم ما يدل على أن القرآن يمتاز بشيء أكثر من هذا ليس فقط أنه لا تناقض فيه بل هو كتاب يشبه بعضه بعضا، كتاب كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣].

المقصود بالمتشابه هنا أنه كما روى ابن كثير عن ابن عباس يشبه بعضه بعضاً، ويرد بعضه على بعض؛ أي أن الكلام يمكن أن يكون غير متناقض والكلام لا

علاقة له ببعض؛ فيمكن أن أتكلم في موضوع وأتكلم في موضوع آخر لا علاقة له بالموضوع الأول وكذا ولا يكون في كلامي تناقض.

لكن القرآن فيه شيء أكثر من هذا؛ القرآن آياته يشبه بعضها بعضاً؛ بمعنى أنه كله رساله واحدة، فالآيات كلها هي تعبير عن هذه الرسالة الواحدة، فهذا شيء أكبر من كونه ليس فيه تناقض، ودراسات الناس للنظريات البشرية تدل دلالة قاطعة على أن هذا الأمر لا يمكن أن تتصف به نظرية بشرية ولا سيما النظريات التي تسمى بالنظريات العامة التي تحاول أن تضع للناس منهجاً يسيرون عليه في حياتهم كالنظرية الماركسية، فالنظرية الماركسية فيها كلام في الفلسفة، وفيها كلام في الاقتصاد، وفيها كلام في السياسة.

ولكن بعد الدراسة وجد أن كلامها في الاقتصاد -وهو القصد من الاشتراكية- هو أن تؤدي إلى تحرير الناس من العبودية لرأس المال النظام السياسي التي أدت إليه الماركسية كان نظاماً من أكثر النظم التي فيها عبودية.

فإذا حصل هنالك تناقض بمعنى عدم اتساق فيما تدعو إليه الرأسمالية ربما لم يكن هذا قد خطر على بال ماركس أو من بعده من النظار في هذه النظرية، وحتى النظرية الديمقراطية الشائعة الآن والتي تسمى بالنظرية الديمقراطية الليبرالية أيضاً فيها تناقض.

فالديمقراطية تقول إن الحكم للشعب، وتجعل الشعب في المكان التي يضع فيه المؤمن الله سبحانه وتعالى، فالشعب هو الذي يحكم هو الذي يشرع، فالسلطة التشريعية العليا عند الشعب هذه الديمقراطية لكن الليبرالية تقول إن هنالك أشياء هي من حق الناس، ولا يجوز حتى للأغلبية أن تتعدى عليها، فالليبرالية في هذا تتناقض مع الديمقراطية.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم..

* * *

المسلمون في الغرب

ندوة شارك فيها الدكتور جعفر شيخ إدريس في المؤتمر السنوي الخامس لجمعية القرآن والسنة في أمريكا الشمالية ١٤١٢ مع كل من عبد الله إدريس وعلي التميمي

بسم الله الرحمن الرحيم

كلام الإخوان لا يشجع الإنسان على أن يتكلم عن الدعوة فيبدو أننا بدل أن ندعو الناس إلى الإسلام نحن الآن نعطيهم بعض المسلمين، فبدلاً من أن يدخل الناس في الإسلام الذي يحدث في أمريكا هو أن يخرج آلاف من أبناء المسلمين من دين الإسلام ولكن المسلم مهما كانت المشكلات لا ييأس ولا ينوح ولا يحزن وإنما يعد كل هذا مجالاً له للعمل لمحاولة إعلاء كلمة الله في هذه البلاد، ولذلك كنت أريد من الأخ المقدم أن يجعل من الاستثناءات المهمة في زيارة بلاد الكفار والمُكث فيها، المجيء للدعوة، فقد قال كثير من العلماء إن هذا من أبواب الجهاد، بل قال أظن شيخ الإسلام ابن تيمية إن الإنسان يعني إذا وفقه الله تعالى هذا معنى كلامه للذهاب إلى بلاد الكفار للدعوة، فليفعل هذا حتى لو كان هذا على حساب بعض الخير الذي كان يفعله في بلاد المسلمين مثلاً في بلاد المسلمين يحضر صلوات الجماعة لا يرى المنكرات هذه، ولكن إذا جاء على الغرب ما وجود هذه الفرصة، وتعرض لرؤية المنكر لكن قال أرجو أن يكون الأجر الذي يناله بسبب المكث في مثل هذه البلاد والدعوة أرجو أن يكون أجره أكبر مما لو مكث في بلد، فحتى الذين جاءوا منا للعيش أو للدراسة ممكن أن يغيروا نيتهم الآن، وأن يجعلوا همهم الأكبر هو العمل لإعلاء كلمة الله فبذلك يتحولون إلى مجاهدين إن شاء الله.

مسألة واحدة فقط أريد أن أركز عليها في مسألة الدعوة وهي مسألة تشغلني من زمن طويل وكلمت فيها كثيراً من إخواننا، وهي أنني أعتقد أننا لم نقوم بواجبنا تماماً في عرض الإسلام عرض علمياً يعني يسجد له إن أمكن أن نقول جبابرة الفكر الغربي ما زالت دعوتنا بين العوام وأشباه العوام من الغربيين بل ما زالت الكتب التي نكتبها هي كتب للمبتدئين والكتب الكبيرة التي تكتب عن الإسلام وفيها تفصيل سواء كانت في تاريخ الإسلام أو في مسائل العقائد أو في كذا هي الكتب التي كتبها

المستشرقون الذي يريد أن يكتب عن الإسلام، ويذهب للمكتبات يجد أن كتب المستشرقين هي المراجع الأساسية وهي من حيث الفن الأكاديمي هي الكتب التي تعتبر كتباً علمية، وأما كتب المسلمين فلم ترق إلى هذه الدرجة، ولذلك لا نخدع أنفسنا؛ الغربيون عندهم الإسلام ليس كما يظن كثير من إخواننا أنهم يعرفون أنه الحق ولكن يأبونه لأنه حق وكذا، وأنهم يخافون من العالم الإسلامي، كثير منهم يخافون من العالم الإسلامي على أساس أنه حركة مثل حركة البربرية يعني همها تحطيم الحضارة و كذا ولا يخافونه على أساس أنه دعوة تقوم على علم يتحداهم بل كثيرون منهم كانوا من الناحية الفكرية يحترمون الماركسية أكثر مما يحترمون الإسلام، ولذلك الماركسية تناقش في مدارسهم وفي جامعاتهم وبين مثقفيهم وكذا، لكن الإسلام ما كان يناقش أنا أرى أن هذا تقصير نحاول أو من كان بإمكانه أن يسد هذا النقص فليحاول هذا لابد أن نكتب كتابات ونخاطب خطاباً موجهاً إلى قادة الفكر لأمر ما كان الرسل عندما يبعثهم الله سبحانه وتعالى لا يخاطبون عوام الناس فقط، بل يذهب إلى فرعون ويكلمه ويذهب إلى الملك النمرود ويكلمه، والذين يجادلون الرسل كانوا هم الملأ ولم يكونوا من عوام الناس، فهذا الخطاب لقادة الفكر الذين يحترمهم أتباعهم، ويظنون أنهم على حق إذا خاطبناهم وتحديناهم وجعلناهم يعتقدون في دخيلة أنفسهم أن هذا الدين هو الحق نكون قد أدينا واجبنا سواء قبلوا أم لم يقبلوا. أحفظ كلمة لشيخ الإسلام ابن تيمية أظنها في بداية كتابه، موافقة صحيح المعقول لصحيح المنقول؛ قال من لم يجادل أهل الباطل حتى يقمع باطلهم لم يكن أوفى الإسلام حقه حتى يقمع باطلهم وهكذا كان الأنبياء. ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود: ٣٢]، يعني تعبوا من كلامه وبعد هذا أيضاً جادلهم.. ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣]، هذا شيء أراه ناقصاً في دعوتنا في بلاد الغرب بل إلى حدٍّ ما حتى في العالم الإسلامي كثير من العلمانيين في بلادنا لا يحترمون كثيراً من الخطاب الذي نخاطبهم به وأنا أرى أن هناك أمارات في الحضارة الغربية من الناحية الفكرية أمارات تبشر بأنه يمكن أن يقبلوا هذا الدين وأن يقبلوا هذا الحق على هذا المستوى الكبير إذا عُرض عليهم عرضاً يجذبهم ويقنعهم، كان

الغرب من الناحية الفكرية إلى عهد قريب يظن أن التطور العلمي قد قضى على مسألة وجود الخالق، الفيزياء القديمة كانت تعطي بعض المفكرين تعللا بأن هذا الكون قديم ولا يحتاج إلى خالق، الفيزياء الحديثة أبطلت هذا وقالت لهم إن هذا الكون له خالق، وأنا اطلعت على أكثر من عشرة كتب في السنين الأخيرة كتبها فيزيائيون يتكلمون عن وجود الخالق، وكلامهم عن وجود الخالق أحسن من كلام كثير من القساوسة فلو وجدوا كلاما للمسلمين في هذا المجال وحججاً للمسلمين ربما اقتنعوا، وإذا اقتنع بدليلك لا تقلل من شأن مسألة وجود الخالق أنا أعرف أن كثيراً من إخواننا المنتسبين إلى السلفية يقولون هذا توحيد الربوبية وهذه مسألة يعني والناس كلهم موحدون، وهذا ليس بصحيح يعني أن الناس كلهم مُسَلمون بتوحيد الربوبية بعالمنا هذا الآن لا يسلمون كفرهم أسوأ من كفر العرب وتوحيد الربوبية هو أساس لتوحيد الألوهية، فالذي تقنعه ربما بوجود الخالق وفي بعض أسمائه وكذا يقتنع بما تقوله بعد ذلك من توحيد الألوهية فحبذا لو اهتممنا بهذه القضية، عندهم قضية أخرى أن كبارهم الآن اقتنعوا وعلماءهم سواء كانوا من المتدينين أو من غيرهم اقتنعوا أن هذه الكتب التي تسمى مقدسة ليست كلام الله الذي يقول إنها كلام الله هم عوامهم هم الذين أو بعض الذين يسمون أنفسهم بالأصوليين، الأصولية كلمة محتقرة عندهم لأن كتبهم إذا أُخذت يعني إذا فسر الكلام الذي فيها كما تدل عليه اللغة وكما يدل عليه ظاهره ظاهر الكلام فهو كلام باطل ولذلك يحتاجون إلى أن يؤولوه ويقولون ليس ذلك المقصود حتى يكون موافقاً للواقع وللعقل، الأصولية عندهم شيء مذموم. وأيضاً أقول حتى في الأيام الأخيرة قرأت عن كتابين أو ثلاثة كُتبوا في هذا وهذه الكتب ليست كلام الله بل وليست كلام المسيح، فصار السؤال عندهم الآن: هل يعقل إن هذا الخالق لا يرسل للناس رسالة أين هذه الرسالة إذا كان هذا الكلام ليس كلامه لكن لأنهم يعتقدون بأن ليس هناك رسالة حقاً إلا هذه بالكتب التي يسمونها كتباً مقدسة يحتارون هذه الحيرة ويتلفتون فنحن من واجبنا أن ندخل هذه المعامع الفكرية ونوضح لهم، مشكلتهم الثالثة الكبيرة أن العلاقة بين العقل والدين هم يحترمون العقل ولهم حق في ذلك، ويعتقدون أن كل ما عندهم من منجزات علمية كانت بسبب هذا العقل فلا يقبلون أن تأتي نظرية أو أيدلوجية أو كذا أو كذا وتقول لهم كما تقول النصرانية إذا

جئتم إلى مسائل العقائد عطلوا العقل، فلو أننا عرضنا لهم هذا الدين وقلنا لهم إن ديننا بالعكس من ذلك يقول في مسائل العقيدة وأرجو إلا يعتبر كلامي شاذا يعني هذا كلام صحيح أكثر ما في القرآن من حجج عقلية هو في باب العقيدة؛ لأنك بالعقيدة تخاطب إنساناً لم يؤمن بوجود الخالق أو لم يؤمن بأنه هو الذي يستحق العبادة أو لم يؤمن بأن محمد رسول الله أو لم يؤمن بأن القرآن كلام الله، فهذا لا تستطيع أن تخاطبه بمجرد أن القرآن كلام الله وإنما لابد أن تخاطبه بشيء مشترك بينك وبينه، والمشترك بينك وبينه هو العقل، ولذلك القرآن أكثر ما فيه من حجج عقلية هي في مجال العقيدة، فإذا سلم الإنسان بأن هذا كلام الله بعد ذلك ما يحق له أن يجادل أو يماري، لذلك كثير من العلماء كانوا يذكروننا بأن القرآن لا يخاطب فقط من يسلّم بأنه كلام الله وإنما يخاطب حتى من لا يعتقد أنه كلام الله لكي يقنعه بأنه كلام الله، فالأدلة على وجود الخالق وعلى ربوبيته وعلى ألوهيته أنه يستحق للعبادة وعلى أن محمد رسول الله وعلى أن هناك بعض وكذا وأنا أعرف فتاة عندما كنا طلاباً في بريطانيا أعرف فتاة أسلمت قالت لي إنها كانت تؤمن بالله وتركت النصرانية لكنها ما كانت تؤمن بالدار الآخرة فقرأت القرآن مترجماً وأعجبتها فيه الحجج القرآنية على البعث تذكرون الحجج أعجبتها هذه الحجج واقتنعت بها، فعندما اقتنعت بهذه الحجج آمنت ببقية القرآن وأسلمت وأحسبها الأن من النساء الصالحات وهي أستاذة كبيرة في نيجيريا، فما الواجب علينا نحن خصوصاً المنتسبين إلى منهج أهل السنة أو المنهج السني الواجب علينا أن نفعل ما فعل بعض إخواننا المنتسبين إلى هذا المنهج؛ يظنون أن مهمتهم فقط هي أن يقرؤوا تلك الكتب التي كتبها العلماء السابقون، وأن يشرحوها وأن يبينوا ما فيها للناس لكن هناك خطوة بعد هذا نقرأ كتاب الله، نقرأ سنة رسول الله، نقرأ هذه الكتب ثم نفعل في عصرنا ما فعل هؤلاء العلماء في عصورهم، نسلط كل هذا العلم على المشكلات سواءً كانت مشكلات في العقيدة أو في الاقتصاد أو في السياسة أو في كذا، نسلط هذا العلم على هذه المشكلات، ونخاطب الناس في عصرنا باللغة التي يفهمونها ونخاطبهم على قدر عقولهم، ونضرب لهم الأمثال التي تجذبهم، وبهذا نكون قد اتبعنا منهج أهل السنة والجماعة في الدعوة.

* * *

أهمية العقيدة وأثر الإعلام الغربي عليها

محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

عقيدة التوحيد هي جوهر الدين وأساسه، فالتأثير فيها سلبا أو إيجابا هو أخطر التأثيرات على دين المسلم. ولما كان الإعلام من أقوي المؤثرات إن لم يكن أقواها في عصرنا هذا على حياة الناس الفكرية والسلوكية، كان البحث في تأثير الإعلام الغربي على عقيدة المسلم المتعرض له، من أهم ما ينبغي أن ينشغل يه الباحثون. لذلك سرني أن يكون النظر فيه ضمن اهتمامات هذه المناسبة المباركة، وإن كنت أعلم أنني لن أستطيع أن أوفيه حقه. ولما كان البحث في هذا التأثير لا يتم إلا ببيان المكانة العظيمة التي تحتلها العقيدة في الهدي الإسلامي، وبالتالي في حياة المسلم الملتزم به، فقد كان من التوفيق أيضا أن يطلب من الناظر فيه البدء ببيان هذه المكانة العظيمة.

أهمية العقيدة:

أقول إذن مستعينا بالله ومبتدئاً حديثي هذا بسؤال: لماذا جعلت العقيدة أساس الدين وركنه الأول؟ ربما تبادر إلى أذهان بعض الناس ولا سيما أناس في عصرنا هذا الذي يرفع من قدر الظاهر المحسوس، أن الجدير بهذه المكانة هو الأعمال الصالحة الظاهرة كالإنفاق وحسن معاملة الناس والجهاد لرفع راية الدين؟ فلماذا جعلت لشيء باطني غير عملي؟ مع أننا إنما نقوم الناس بحركات جوارحهم لا بحركات قلوبهم وما يكمن في ضمائرهم؟

الجواب الموجز هو أن ما في الباطن مقدم على ما في الظاهر؛ لأنه هو أساسه ومصدره. فما من عمل ظاهري حسن كان أم سيئ إلا وله أساس باطني. هذه حقيقة يعلمها كل إنسان من نفسه، ولو كان يعلم ما في نفوس الآخرين كما يعلم نفسه لكان تقويمه لأعمالهم بأساسها الباطني هذا. تصور لو أن إنساناً أهدى إليك هدية قيمة، لكنك شاهدته في قلبه يقول لك: «ما أحقرك! والله إنك لا تستحقها ولا أقل منها، ولولا أني أطمع منك في أكثر منها لما أعطيتك إياها».

هذا علم غيبه الله عنا فلم يبق لنا إلا الحكم بالظاهر والاستدلال به أحيانا على ما في الباطن. أما الخالق سبحانه فإنه عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم خائنة الأعين وما

تخفي الصدور. ولهذا كان تقويمه سبحانه للناس بهذا الباطن الذي هو أساس الظاهر، إن أصل تكريم الباطن هو أن حكمة الله تعالى اقتضت أن يكون الإنسان من عنصرين من مخلوقاته، عنصر الطين وعنصر الروح، فجعل المكون من الطين هو صورته المرئية، وجعل العنصر الروحي حقيقته الخفية. لكنه سبحانه جعل بين ظاهر الإنسان وباطنه صلة ونسباً. فالروح إنما تسكن في الجسد، وإنما تبدو تصرفاتها وتأثيراتها عليه وبوساطته؛ وربما كان هذا هو السر في أن بعض أعمال الروح تنسب إلى أعضاء جسدية لصلتها الخاصة بها. إن القلب الجسدي ليس هو الذي يعقل كما يحدثنا شيخ الإسلام ابن تيمية، وعليه فإن السلامة والمرض المنسوبتين إليه في الكتاب والسنة ليستا أحوالا جسدية كما هو المشاهد، وإنما هي أحوال روحية نسبت إلى ما يلائمها من الأعضاء الجسدية.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل الإنسان إنسانا بجوهره الروحي الداخلي الخفي لا بشكله الجسدي الخارجي. فالروح هي محل الإدراك والإيمان والتصورات والإرادات والمشاعر. والإنسان إنما يتحرك ويتصرف بما يعتقد، حقا كان أو باطلا، وبما يتصور واقعا كان أم وهما. وإذا كان الأمر كذلك كان ما يظهر لنا من صلاح الإنسان أو فساده السلوكي راجعاً بالضرورة إلى صلاح معتقداته وتصوراته أو فسادها. وإذن فالجانب الذي نسميه عمليا في حياة الإنسان والذي قد نخطئ فنظنه أهم جانبيه، إنما هو أثر وناتج عن جانبه الداخلي الذي قد نجنح إلى التقليل من أهميته فنصفه بالنظري أو المثالي. كلا. إنه لهو الجانب الفعال الذي يحدد مصير الإنسان والذي ينبغي لذلك أن تكون العناية به أكبر.

وكما جعل الله تعالى غذاء الجسد وبقاءه في بعض المطاعم والمشارب، وجعل مرضه أو موته في غيرها، فقد جعل غذاء الروح وبقاءها في بعض العلوم وجعل مرضها وموتها في حرمانها منها، وجعل حياته الروحية هي حياته الحقيقية، وموتها هو موته الحقيقي. والحقائق التي يمكن للإنسان أن يعلمها كثيرة، والعلوم النافعة كثيرة، لكن أشرف العلوم وأجلها نفعا هو العلم بالله ربا لا رب سواه وإلها لا معبود بحق إلا إياه. هذا هو العلم الذي لا تحيا القلوب إلا به، ولا يكون الإنسان مخلوقا كريما إلا بمعرفته، والاعتراف به، نعم الاعتراف، لأن هذا العلم لا يؤتي ثماره إلا إذا اختار من علمه أن

يعترف بما علم ويؤمن به. فالروح لا تحيا بالمعرفة وحدها بل لا بد أن تنضم إليها الإرادة، إرادة الإيمان. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤]. فتأثير هذا العلم معتمد على قبوله أو رفضه لا على مجرد اكتسابه: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥]، ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

فإذا ما عرف الإنسان ربه وآمن به تفجرت ينابيع الخير في قلبه ثم فاضت على جوارحه بمقدار علمه وقوة إيمانه. لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى كما جعل الروح جوهر الإنسان، فقد جعل الإيمان به منبع كل خير فيه. ولذلك كانت الدعوة إليه والتذكير به مفتاح كل دعوة إلى فكر قويم وسلوك مستقيم، وكانت الدواء الذي لا غناء عنه لكل أنواع الانحرافات السلوكية. ولذلك كانت البداية به في جهود الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لإصلاح المجتمعات التي بعثوا إليها. يدعو أحدهم قومه إلى إفراد الله تعالى بالعبودية ثم يدعوهم بعد ذلك إلى تفاصيل الشريعة وإلى ترك ما هم عليه من أنواع الانحرافات السلوكية، خلقية كانت أم اقتصادية أم سياسية أم اجتماعية، فالإيمان هو الذي يهيئ النفوس لعبادة الله وينشط الجوارح لها

وإذا حلت الهداية قلبا   نشطت للعبادة الأعضاء

وهو الذي يهيئها لقبول تفاصيل الشريعة. قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: (لقد نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام. ولو نزل لا تشربوا الخمر، لقالوا لا ندع الخمر أبدا. ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدا. لقد نزل بمكة على محمد ﷺ، وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده). [البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن].

وهو السبب الأساس لحل المشكلات الاقتصادية والسياسية والخلقية. أقول إنه الأساس ولا أقول إنه يغني عن التفاصيل التشريعية المبنية عليه، ولا عن الأسباب الطبيعية والاجتماعية التي جعلها الله أسبابا مؤثرة. وهو السبب الأساس لبقاء النعم المادية وزيادتها. والكفر والإخلال به هو السبب الأساس لنقصانها وزوالها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥-٢٦].

ثم: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠].

ثم: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

ثم: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٤-٨٦].

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٠-١٦٦].

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٧٢-١٧٥].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [هود: ٩٦].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

وأهم من هذا كله أن عقيدة التوحيد هي سبب السعادة النفسية.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، بل هو سبب السعادة الأبدية؛ لأنها هي السبب الأساس لدخول الجنة وللنجاة من النار.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

تأثير الإعلام على العقيدة:

وسائل الإعلام ليست قاصرة ـ كما هو معروف ـ على الصحف والمجلات والراديو والتلفاز، بل تشمل الكتب العامة والسينما وربما المسرح، وتشمل الآن الشبكة العالمية (الإنترنت). لكنني أريد أن أضيف في هذا المقال إليها حتى الكتب المدرسية لعظم تأثيرها على الآلاف المؤلفة من أبناء المسلمين.

إذا استثنينا الإعلام الكنسي بكل وسائله ـ وهو إعلام لا يكاد يتعرض له المسلم ـ فربما استطعنا أن نقول إن الإعلام الغربي نادراً ما يتعرض للمسائل الدينية بطريقة مباشرة. فكيف يكون له إذن تأثير إيجابي أو سلبي على الدين؟ نعم إن له تأثيراً أيما

تأثير لأنه ليس من شرط التأثير أن يكون مباشراً، بل إن التأثير غير المباشر قد يكون أعظم من التأثير المباشر كما سنرى، وهو في غالبه تأثير سيئ، وإن كان لا يخلو من بعض التأثيرات الحسنة. ونعني بالتأثير غير المباشر هنا تلك المعتقدات العلمانية الإلحادية المادية الشائعة في الغرب والتي تفترض صحتها والتي تكمن لذلك وراء تفسيراتهم للحوادث الطبيعية والاجتماعية والنفسية، وإن كان لا يصرح بها إلا نادرا.

التأثير السلبي:

تأثيرات الإعلام الغربي السلبية على عقيدة المسلم كثيرة، نذكر منها فيما يلي بعض ما يحضرنا ونراه مهما:

أولا: من التأثيرات الشديدة الخفاء البالغة الضرر الاعتقاد السائد بين كثير من علماء الطبيعة والاجتماع، وبالتالي بين عامة المفكرين والصحفيين والمحللين في الغرب، أن التفسير العلمي للحوادث سواء كانت طبيعية أو اجتماعية هو ذلك التفسير القائم على افتراض أن هذا الكون مكتف بنفسه، وأن تفسير حوادثه ينبغي لذلك أن يكون من داخله، أعني أن الظواهر يجب أن تفسر بظواهر أخرى، وأن كل تفسير لشيء من حوادث الكون بإرجاعها إلي سبب خارج عنه هو تفسير خرافي غير علمي.

هذا هو المبدأ المفترض، لكنه لا يقرر بهذه الطريقة الصريحة التي ذكرتها، وإنما يفترض افتراضا، وقد يفترضه ويلتزم به حتى من لم يفكر فيه من العلماء الطبيعيين وسائر المفكرين، والصحافيين. من مظاهر افتراضهم له أنهم يقفون في تفسيرهم للحوادث عند أسبابها الدنيوية ظاهرة كانت أم خفية، ولا يتجاوزونها. وما ذلك للاعتقاد بأنها هي الأسباب الحقيقية الكافية. لكن المسلم مع اعتقاده بفاعلية الأسباب الطبيعية أو الاجتماعية أو النفسية، لا يقف عند حدودها، بل يذكر نفسه بأنها إنما صارت أسبابا بجعل الله لها أسبابا، وأن الفاعل الحقيقي إنما هو الخالق سبحانه.

قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله : أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئا؟ قال: **(هي من قدر الله)**. [سنن الترمذي، كتاب الطب، باب ما جاء في الرقى والأدوية].

قلت إن هذا المبدأ الإلحادي قليلا ما يصرح به، وأقول إن التزامه في الواقع قد لا يبدو فيه ما يخالف عقيدة المسلم، ما دام المسلم معترفاً بتأثير الأسباب المخلوقة

وفاعليتها. لكن الأمر في الحقيقة ليس كذلك. إن المتلقي إذا كان لا يسمع لله ذكرا أبدا في كل ما يخبر به من حوادث طبيعية واجتماعية يوشك أن يتأثر بذلك المبدأ فينسى هو الآخر ذكر الله تعالى، وينحو نحو أصحابه في تفسيره للحوادث، فلا تكون له فيها عبرة.

المبدأ الغربي الثاني: الذي أراه أيضا ذا أثر سيئ، والذي أراه قد بدأ ينتشر حتى بين المسلمين في العالم الإسلامي بسبب التأثر بالثقافة الغربية التي تنقل عن طريق وسائل الإعلام، هو مبدأ النسبية. أعني نسبية الحقائق، والقيم. لقد أصبح من المسلمات عند كثير من الناس في الغرب أنه لا توجد حقيقة مطلقة، ولا قيمة مطلقة، وإنما الحقائق والقيم نسبية، أي إنها منسوبة وتابعة لزمانها أو مكانها أو الحضارة والثقافة التي ظهرت فيها، وهكذا. فما قاله الناس في العصر الفلاني، أو اعتقدوه في المكان الفلاني، أو رأوه حسنا في الحضارة الفلانية، كل هذا صحيح أو معقول بالنسبة لهم وإن كنا نراه نحن في ظروفنا أو زماننا أو حضارتنا على غير ما رأوه. وما دام الأمر كذلك فليس من حق أحد أن يقول إن فهمه لنص من النصوص هو الفهم الصحيح أو إن فهم خصمه خطأ. وأننا ينبغي لذلك أن نكون سلفيين في فهمنا للنصوص، فللسلف زمانهم ولنا زماننا، ولهم ظروفهم ولنا ظروفنا. بل قد رأيت بعضهم غلا في هذا الأمر حتى قال إن الرسول ﷺ لا يمكن أن يفسر القرآن لعصرنا لأنه لا يعرفه.

ثالثا : الاعتقاد في المفهوم السلبي للحرية. وإذا كان الاعتقادان السابقان مما يفترض ولا يذكر، فإن هذا مما يكثر ترداده والتصريح به، والدعوة إليه، والتفاخر به، في كل أجهزة الإعلام. وقد أثر لذلك في الناس تأثيراً بالغاً حتى صار من المسلمات حتي عند كثير من المسلمين. إن الحرية بمعنى أن الله تعالى أعطى الإنسان المقدرة على الاختيار كما أعطاه المقدرة على العمل، أمر لا شك فيه، بل ربما كان هو مما يتميز به الإنسان. وقد شاء الله تعالى أن يجعل الإنسان شائياً، ومسؤولا عن مشيئته، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]. فالمنازعة ليست إذن في كون الإنسان ذا إرادة ومشيئة واختيار،

وإنما هي في الطريقة التي تستعمل بها هذه المشيئة أو الحرية التي منحها الله تعالى للإنسان. المفهوم السلبي للحرية يجعلها غاية في ذاتها، بمعنى أن كرامة الإنسان تزداد بازدياد استقلاله في اتخاذ قراره، أيا كان ذلك القرار. أي إن العبرة في الاختيار لا فيما يختار. وعليه فكلما مكن الإنسان من أن يفعل ما يشاء كان هذا أكرم له وأكثر تحقيقا لإنسانيته. هذا المفهوم السلبي للحرية مفهوم قديم وإن تزيا بزي حديث. إنه المفهوم المرتبط بالاستكبار والكفر. وهو المفهوم الذي لجأ إليه قوم شعيب في احتجاجهم على أمره لهم بعبادة الله وعدم الظلم في المعاملات المالية. ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟﴾ [هود: ٨٧]، وهو المفهوم الذي ذمه الله تعالى في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، أي لا يؤمر ولا ينهى. فالإسلام يعلمنا أن كرامة الإنسان لا تتحقق بمجرد الاختيار، لأن هلكة الإنسان قد تكون فيما يختار. ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]، وإنما تتحقق باختياره للحق وللخير، ولما يختار له ربه ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

رابعا: في الإعلام الغربي هجوم على المسلمين ولا سيما العرب، هجوم قال عنه الأستاذ إدوارد سعيد إنه من النوع الذي لم يعد مقبولاً في الغرب حين يوجه لليهود أو السود أو الآسيويين أو الأفارقة. يتهم العرب بعدم الأصالة وبالمحافظة وبعدم المقدرة على التحضر، وبالإرهاب، بل وبالتواكل وبالقذارة، ثم يقال إن سبب هذا كله هو الإسلام. هذا كلام يبدو لأمثالنا سخيفاً لا يستحق حتى أن يرد عليه، لكن ينبغي أن لا نقلل من تأثيره على شاب في مقتبل عمره، ولد في بلد غربي وترعرع فيه. عندما ظهر كتاب (الآيات الشيطانية) طلب مني إخواننا في مجلة Impact أن أكتب نقداً له. فعندما قرأته قلت لهم كلاماً فحواه أنه كتاب سخيف ثقيل ما أظن أحداً سيكمل قراءته، فأرى

لذلك أن لا تهتموا به، بل اتركوه ليموت. لا زلت أذكر ردهم. قالوا إن الكاتب معروف في أوساط الشباب ذوي الأصول الهندية الباكستانية، وأنهم قارئوه لا محالة.

خامسا: يكثر في الإعلام الغربي الحديث عن الدين بطريقة هازلة، ولإثارة الضحك، حتى فيما يتعلق بالخالق سبحانه وتعالى. ويكثر فيه وصف الخالق بكلمات لا احترام فيها، كما نرى ذلك مثلا في عنوان الكتاب الذي دخل ضمن أكثر الكتب بيعا في أمريكا. إن اسمه: سيرة الله. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. إن كثيراً من المسلمين المعاصرين لا يدرون أن الكلام عن الخالق بمثل هذه الطريقة يخرج صاحبه عن ملة الإسلام. ألم يقل الله تعالى عن بعض أمثال هؤلاء.

ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب. قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون. لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم.

سادسا: ومما يتصل بهذا أنهم لم يعودوا يأخذون الدين مأخذ الجد، لكنهم يصورون هذا بأنه تسامح، وسعة أفق، ويصمون كل من يبدو منه استمساكاً شديداً بالدين بالتطرف، أو ضيق الأفق والتعصب وعدم العقلانية، وهكذا. لذلك تعجب كثير من الغربيين من الضجة التي أثارها المسلمون بسبب ما قاله مؤلف الآيات الشيطانية عن الله تعالى. وقد تأثر الإعلام في البلاد العربية والإسلامية بهذا الانحراف فعاد هو الآخر يطبقه على كل من يبدو منه شدة استمساك بنصوص الكتاب والسنة، وعاد يمدح كل منتسب للعلم يبدو منه هذا النوع من التحلل.

سابعا: الإعلام الغربي ـ التلفاز والمجلات والقصص والأفلام والإنترنت ـ مليء بإثارة الشهوات الجنسية بكل نوع من صور الإثارة، بالكلمة والصورة، بالشعر والقصة، بأخبار المنحرفين وبنشر الفضائح. قد يقال لكن ما علاقة هذا بالعقيدة التي هي موضوع بحثنا؟ وأقول نعم. إن الإنسان قد يقع في المعاصي الجنسية، ويظل مع ذلك محتفظاً بإيمانه وصفاء عقيدته. لكن هنالك صلة بين الشهوات والشبهات كما نبهنا إلى ذلك علماء السلف. فالذي يكثر يشتد ضعفه أمام الشهوات يضعف قلبه، فيكون مهيأ للتأثر بالشبهات المتعلقة بالعقيدة، كتلك التي ذكرناها آنفا.

ثامنا: وهنالك شبهات مباشرة وجدت في الإنترنت مرتعاً خصباً لها، شبهات يثيرها خصوم الإسلام المختصون بمحاربته على صعيد الفكر، ويثيرها أهل الأهواء من

المنتسبين إلى الإسلام من مفكري الفرق الضالة. كلاهما أصبح يتستر وراء هذه الشبكة، ويعلن فيها ما قد يتردد من التصريح به في وسائل الإعلام الأخرى. وقد رأيت بعض الشباب يتابعون ما ينشر في أمثال هذه الصفحات، ثم يأتون ليسألوا عن كيفية الرد عليها؛ لأن علمهم بالدين قليل، والشبهات قوية مضلة.

تاسعا: وربما كان سبب هذا كله أن في الغرب عدم اطمئنان إلى الدينين الشائعين فيه، وعدم ثقة برجالهما، بل وشك في إمكانية الاستقامة. وهذا داء في الغرب قديم أكثر ما يظهر في الأدب، حتى لقد قال أحد نقادهم - أظنه الدوس هكسلي - إنه لا يوجد في أبطال روايات شكسبير رجل خير. وأنت تلاحظ هذا في القصص التي يقرؤها الناس بشغف. إن الشخصية المستقيمة أو المتدينة في القصة كثيراً ما تصور بأنها شخصية منافقة تفعل في الخفاء ما يخالف مسلكها الظاهري، حتى لقد أصبحت المجاهرة بالسوء نوعاً من الصدق مع النفس والصراحة. وبما أن الغربيين لا يعرفون دينا غير دينهم فإنهم لا يتحدثون عن اليهودية والنصرانية بخصوصهما، وإنما يتحدثون عن الدين بصفة عامة. ومن هنا يأتي خطر كلامهم على الطفل أو الشاب المسلم الذي يعيش بين ظهرانيهم، بل حتى الذي يتعرض في بلده الإسلامي لإعلامهم وثقافتهم.

الآثار الحسنة:

مع كل ما ذكرنا من مثالب الإعلام الغربي فيما يتعلق بالعقيدة، فإن له محاسن تتعلق بها ليس من الإنصاف تجاهلها. من ذلك:

أولا: أن البلاد الغربية أضحت في زماننا هي موطن الكشوف العلمية والتقدم في العلوم الطبيعية، وأضحى إعلامها هو المختص بإذاعتها على المستوى العالمي حتى لو حدث الاكتشاف في بلد غير غربي. فهنالك قنوات تلفازية كالقناة الأمريكية المسماة Discovery وقناة وكالة Nasa وهنالك مجلات أسبوعية كمجلة Scientific American ومجلة Discovedry الأمريكية، ومجلة New Scientist الإنجليزية، وهنالك البرامج العلمية التي لا تكاد تخلو منها إذاعة غربية. وقد تطورت هذه الكشوف تطوراً هائلاً، فأظهرت من عجائب صنع الله تعالى في العالم الخارجي، وفي المخلوقات الأرضية الدقيقة ما يكاد يجعل من المستحيل على الملحد أن يستمر في الادعاء بأن كل هذا إنما حدث

مصادفة وبغير قوة مدبرة. ولهذا فقد بدأ بعض هؤلاء الملحدين يتراجعون عن إلحادهم وصار بعضهم يشك فيه. أما المؤمنون بوجود الخالق فقد زادتهم هذه الكشوف إيمانا. وأما المسلمون منهم فإنها لا تكون بالنسبة لهم تأكيداً لوجود الخالق فحسب، بل زيادة يقين بدينهم وعودة إليه إن كان قد حدث عنه منهم بعد.

ثانيا: من الحقائق التي لا يزال العقلاء من المفكرين الغربيين يكررون التذكير بها ويحذرون من مغبتها، والتي يراها المعايش لهم والمتتبع لأخبارهم في إعلانهم، أنه قد صاحب بعدهم عن القيم الدينية تدهور في الحياة الخلقية؛ فالمخدرات والإباحية الجنسية، تزداد انتشارا حتى بين الصغار من طلاب المدارس، ويزداد معها اللجوء إلى العنف والقسوة. وقد اعتبر بعض المسلمين بهذا فرجعوا إلى دينهم بعد أن كانوا قد بعدوا عنه. سئل أحدهم: ما الذي أعادك إلى دينك؟ فأجاب: قلت في نفسي إذا كانت هذه هي نتيجة الطريق الذي أنا سالكه فإنها نهاية لا أريدها. بل إن كثيرا من الآباء والأمهات في أمريكا صاروا يفرحون بإسلام أبنائهم وبناتهم حين يرون التغيير الذي طرأ عليهم. لقد صار الغرب هي هذا المجال عبرة لكل عاقل معتبر. نسأل الله تعالى أن يهديهم للدين الحق ويقيهم من مصائر هذا الطريق الذي هم سالكوه.

ثالثا: بالرغم مما في الشبكة العالمية من العيوب التي ذكرناها، إلا أنها أتاحت للمسلمين فرصة لم تتح لهم من قبل في وسائل الإعلام الأخرى لتعريف الغربيين بالإسلام وللرد على الشبهات التي تثار حوله، ولتكون منبرا مفتوحا للحوار بين المسلمين أنفسهم وللرد على أسئلة السائلين منهم ومن غيرهم. ونحن وإن لم نكن قد استفدنا من هذه الوسيلة الجديدة الفائدة التي تبيحها لنا إلا أن الشباب المتابعين لما ينشر في صفحاتها الإسلامية - وما أكثرهم - قد انتفعوا بها، وشغلوا بها عن المداومة على مشاهدة التلفاز. ولم يقتصر نفعها على المسلمين، بل إن بعض المشاركين من غير المسلمين يطلع عليها ويبدي لأصاحبها ويكتب لهم فيها مستفسراً أو طالباً لمزيد من المعرفة. بل لقد كانت سبباً لهداية بعضهم إلى الإسلام.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

* * *

أسباب ضعف الأمة (أين الخلل؟)

محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا..

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا، اللهم صلِّ على عبدك ورسولك محمد ﷺ خاتم النبيين وإمام المرسلين، اللهم أرنا الحق حقا وأرزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطل وأرزقنا اجتنابه.

أيها الإخوة الكرام...

أفراد هذه الأمة التي تنتسب إلى الإسلام يقدر ببليون شخص، لكن هذه الأمة إلا أقلها وقع تحت نير الاستعمار الكفري الرأسمالي أو الشيوعي، وما يزال بعضها يرزح تحت هذا الاستعمار، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، وهذه الأمة كلها، ما استعمر منها وما لا يزال مستعمراً، أمة ضعيفة بالقياس إلى كثير من الأمم الكافرة، والله سبحانه وتعالى يعد من أوصاف المؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]، ويقول في وصف أتباع الرسل: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢-١٧٣].

فأين الخلل؟ ما الذي حدث لهذه الأمة؟ وما العمل؟ كيف نصلح هذه الأمة؟

نستطيع أن نقول منذ البداية أن هذا الخلل لابد أن يكون خللاً أساسياً لأن الله سبحانه وتعالى أرحم وأرأف بعباده من أن يعاقبهم كل هذا العقاب الدنيوي بسبب أمر جزئي أو فرعي تركوه من أمور هذا الدين. إنني كثيراً ما أخشى أن تكون جهود كثير من الدعاة كمثل جماعة من الركاب تعطلت سيارتهم فذهب بعضهم يجددون الطلاء، وبعضهم ينفخون في الإطارات الهواء، وبعضهم يجددون الفرش وبعضهم يغيرون الزيت والسيارة قابعة لا تتحرك، لأن مشكلتها في قلبها وفي ماكينتها التي تحركها وليست في هذه المظاهر مع أهميتها. إن هذه المظاهر مهمة، وستستفيد منها السيارة عند ما تتحرك أما قبل ذلك فلا فائدة منها.

فأين الخلل في هذه الأمة ؟

إذا رجعنا إلى الآيات الكريمات التي وعد الله سبحانه وتعالى فيها المؤمنين بتلك الوعود يتبين لنا إن شاء الله السبب.

أولاً: الوصف دائماً هو للمؤمنين: ﴿﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١]، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]، والإيمان ليس مسالة نسبية، ليس انتساباً، وإنما هو أمر يتحقق في القلب، والله سبحانه وتعالى هو الذي يعرف هذا، فمهما قال الفرد أو قالت الأمة أنها مؤمنة، إذا لم تكن مؤمنة حقاً فإن الله سبحانه يعلم هذا ولا يعطي ما يعطي المؤمنين حقا.

بل إن بعض الآيات توضح أن المقصود بالإيمان هو عبادة الله سبحانه وحده كالآية التي تقول: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾، فهم أمة مؤمنة وهم يعملون الصالحات، وهم مؤمنون بمعنى انهم لا يعبدون مع الله سبحانه وتعالى أحدا، إذا تخلف شرط من هذه الشروط، لا ينالون هذا الفضل الذي وعد الله سبحانه وتعالى به المؤمنين.

الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ﴾ [الفتح: ٢٢-٢٣]، هذه سنة لا تتخلف، أن الكفار إذا التقوا مع المؤمنين فإنهم ينهزمون وهذا لا يحدث الآن، معنى ذلك أن هنالك خللا في الإيمان لم تف بالشرط الذي يستوجب هذا الفصل الذي وعدنا الله سبحانه وتعالى به: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ١٨]، فإذا علم شيئاً في القلوب كانت بسببه هذه السكينة وكان هذا النصر. إذا الخلل الذي أصاب هذه الأمة هو خلل في أمر جوهري، هو الذي

يعطي هذه الأمة شخصيتها، ويميزها عن غيرها، إنه خلل في إيمانها والأمة الإسلامية أفراد تربط بينهم رابطة الأخوة الإيمانية فإذا ذهب الإيمان أو ضعف انتفى شرط من شروط وجود هذه الأمة، وإذا ضعف الإيمان أو اختل اختل أيضاً تبعا لذلك شرط الأخوة وإذا لم تكن أخوة لم تكن هنالك أمة، فإذا لم يكن إيمان في القلوب لم تكن أخوة، وإذا لم تكن أخوة لم تكن أمة مؤمنة حقا. أما إن يكون عندها إيمان، قد يكون، لكن لا تكون هي الأمة التي استكملت شروط الإيمان الواجب الذي تترتب عليه هذه الوعود التي وعد الله سبحانه وتعالى بها المؤمنين.

والإيمان ليس أساساً وسبباً لوجود المسلمين فحسب، بل هو الأساس لكل البناء التشريعي الإسلامي، واجبه ومندوبه ومباحه، وما حرم فيه وما أبيح، إنه الأساس العلمي والنفسي لهذا البناء، وأعني يكون أساسه العلمي، أن الإيمان هو بمثابة المقدمات التي تستنتج منها كل شرائع الإسلام الأخرى، فهي تنتج عنه نتاجاً طبيعياً، وأعني بكون أساسها النفسي أنه هو الذي يهيئ القلوب ويعدها لأن تقبل بقية شرائع الإسلام، فإذا اختل الإيمان يكون هنالك خلل في البناء الذي يقوم عليه، ويكون هنالك خلل في الاستعداد النفسي لقبول هذه التشريعات النفسية، وما أصدق من قال:

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت في العبادة الأعضاء

هذا معنى معروف في القرآن الكريم:

سأركز في بقية هذا الكلام على بعض مواضع الخلل التي أراها قد حدثت في أركان الإيمان، فأولها الإيمان بالله، والإيمان بالله لا يكتمل إلا بأربعة شروط:

الشرط الأول: وهو متوفر بحمد الله عندنا وعند غيرنا من غير المسلمين، وهو الإيمان بأن الكون له خالق وأنه هو الذي يرزق ويرحم... هذا ما فيه إشكال.

الشرط الثاني: أن يعبد هذا الإله ولا يعبد معه غيره، هنا حدث خلل سببه – والله أعلم – أن الناس اختلط عليهم مفهوم العبودية، فهنالك أشياء هي بحسب القرآن والسنة تعتبر عبادة، فتوجيهها لغير الله هو عبادة لهذا الذي وجهت إليه، فهي بهذا شرك يخرج الإنسان عن الملة، وبعضه شرك لا يخرجه عن الملة، لكن نحن نتحدث الآن عن الخلل الأساسي، الذي من شأنه أو من شأن بعضه أن يخرج عن هذه الملة. العرب

كانوا يعترفون أن ما يفعلونه عبادة، واعتذروا قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، المنتسبون إلى الإسلام الآن يفعلون بعض هذه الأشياء ولا يقولون إنها عبادة لأنهم – وأظن أن معظمهم – يعتقد أنها عبادة، ولكن اعتقادهم أنها ليست بعبادة لا يغير من الواقع شيئاً.

الشرط الثالث: بالنسبة للإيمان بالله سبحانه وتعالى هو أن تؤمن بأن هذا الخالق الذي يرزق ويخلق، والذي لا يعبد سواه هو خالق له صفات كمال لا يشاركه فيها أحد، كما أن ذاته ليست كالذوات الأخرى فله أيضاً صفات لا يتصف بها أحد من مخلوقاته، هنا أيضاً حدث خلل، وحدث خلل منذ وقت طويل في تاريخ الأمة الإسلامية، وأريد أيها الأخوة أن تنتبهوا إلى تفسيري لهذا الخلل، أنا في رأيي أن السبب أن المسلمين تأثروا بالفلسفة اليونانية، والفلسفة اليونانية فلسفة مادية بالنسبة للفلسفة المادية الموجودة حقاً هو المادي المشهور وإذا ما اللغة عندما تستعمل استعمإلا حقيقياً إنما تستعمل لوصف هذا الموجود الحقيقي الأشياء الأخرى، إذا وصفناها بأنها موجودة، فوجودها ليس وجوداً حقيقياً كوجود المادي المشهود، وإنما توصف بأنها موجودة مجازاً، كأن تقول مثلاً للإنسان إن الإنسان له عقل، عقله موجود لكن وجود عقله ليس وجوداً حقيقياً كوجود جسمه، هذه الفلسفة طبعاً هي أم الفلسفة الغربية، فتأثرنا نحن أيضاً بالفلسفة الغربية التي هي أيضاً استمرار للفلسفة اليونانية، فاستمر الخلل الذي وجد في الماضي واستمر معنا إلى يومنا هذا، بل زادت حدته، ماذا كانت نتيجة هذا ؟ كانت نتيجته أن الله سبحانه وتعالى بما أنه ليس موجوداً مادياً مشهوداً وبما أن اللغة إنما تصف في الحقيقة هذا المادي المشهود، فإذا اللغة عندما تصف الله سبحانه وتعالى لا تستعمل استعمالا حقيقياً، فلابد إذا من اللجوء إلى المجازات وإلى كذا، بعض الناس غلوا في هذا الأمر والفرقة التي سميت بالجهمية، والتي أتعبت علماء أهل السنة، ما من إمام من الأئمة إلا وردّ عليهم. الردع على الجهمية، الرد على الجهمية، الرد على الجهمية. ومع ذلك مع الأسف الذي بقى من أفكار الجهمية وانتشر هو أكثر من الذي بقي من – مع الأسف – جهود هؤلاء العلماء الذين ردوا عليهم،

الجهمية فكرة موجودة إلى الآن عند المسلمين وعند غير المسلمين، الذين غلوا فيهم أبوا أن يقولوا حتى – إن الله موجود – لأنه في رأيهم أن الله لا يوصف بهذا الوصف هو هذا، وما دام الله ليس كذلك فلا ينبغي أن يوصف بهذا الوصف، يعني دافعهم هو أن ينزهوا الله سبحانه وتعالى، فإذا ما دام لا يوصف بأنه موجود، لا يوصف بأنه رحمن ولا رحيم على الحقيقة، ودعك أن يوصف أنه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، أو أن له يداً أو له وجه، هذه من باب أولى أن ترفض لأنه لا يفهم منها – في رأيهم – إلا هذه اليد ولا يفهم من الاستواء إلا هذه الطريقة التي يجلس فيها الناس أو يجلس فيها الحيوانات بعض الناس لم يغل هذا الغلو، ولكن بقي أثر منهم، أبوا أن يصفوا الله سبحانه وتعالى ببعض هذه الصفات التي وردت في القرآن، أبوا أن يصفوه بها على حقيقتها، أما أن ينكر الإنسان أنها واردة في القرآن طبعاً لا ينكر هذا، لكن المهم ليس أن يتلوها الإنسان وإنما يؤمن بمعانيها والله سبحانه وتعالى إنما أرسل الرسل لكي يعرفونا بالله، فهذه الأوصاف هي تعريف بالله وأنت لا تعرف الشيء إلا إذا عرفت أوصافه، فإذا تحولت الأوصاف بالنسبة لك إلى كلمات فقط لا معنى لها فهذا خلل في الإيمان، ويذكر الإمام أحمد في كتابه له اسمه (الرد على الجهمية) قصة طريفة تبين لكم ما قلت من أن السبب هو التأثر بالفكر المادي، يقول : إنه قابل جماعة يبدو أنهم كانوا من الماديين يسمون "السمنية" فقالوا للجهم هذا، من تعبد؟ هذا الذي تعبده هل رأيته بعينك؟ قال : لا، سمعت صوته؟ قال : لا، لمسته بيدك؟ قال : لا، ذقته؟، لا، شممته؟، لا. قالوا: إذاً أنت لا تعبد شيئاً. فذهب واحتار وجاءهم بعد أربعين يوماً، وقال لهم: هل لكم روح؟ قالوا نعم، قال: رأيتموه؟ لا، شممتموه ؟ لا، لمستموه؟ لا، هكذا إلى كل الأسئلة التي سألوه إياها، قال لهم: إذاً ليست لكم أرواح. ما الخلل الذي وقع فيه؟ بدأ بعد ذلك يشبه الله سبحانه وتعالى بالروح وبالعقل، يعني تحول الله سبحانه وتعالى في تصوره من ذات موجودة في الخارج إلى فكرة، أو إلى ما يسمى في التعبيرات الحديثة، شيء مجرد " ارستدكت " وهذا هو الشيء الذي يشيع الآن بين الناس، تجد مثلاً أوصافاً لا تجد لها ذكراً في القرآن الكريم، لكن الناس أصبحوا يعتقدون أنها هي الأوصاف الحقيقية التي لا يكون الإنسان مؤمناً إلا إذا قال بها. فالله

يقال عنه في بعض تعبيرات الله الإنجليزية: أفري هوير، آند نو هوير" تناقض، هو في كل مكان وليس في مكان، أو حتى عدنا في اللغة العربية التعبيرات الكلامية، هو في كل مكان وبعدين أحياناً: لا يحده مكان، وليس في حيز، وليس له جهة، ولا كذا بل بعضهم قال: إنه لا يوصف إلا بوصف سلبي، فقال لهم علماء أهل السنة، أنتم شبهتموه بالمعدومات لأن الشيء إذا كان ليس موجوداً، فأنا أستطيع أن أقول ليس طويلاً، ليس قصيراً ليس أحمر، ليس أصفر ليس سمينا، ليس ضعيفاً وهكذا، فلابد لمعرفة الشيء من أن تصفه وصفاً إثباتياً، وصفاً إيجابياً فهذا هو السبب. الحل أيها الإخوة : هو أن نعتقد أن نتخلص من هذه الفكرة التي أصبحت كأنها قاعدة عقلية أن من شرط الوجود حقاً أن يكون مادياً، لا. الله سبحانه وتعالى موجود، وصف بأنه ذات وصف بأنه شيء، ووصف في بعض الأحاديث بأنه شخص، فهو ذات موجودة لها صورة وإن كنا لا نعرف هذه الصورة ولا ندركها، أكرر لكم هذا، له صورة، عندما قال الإمام مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول، ما قال : ليس له كيف، له كيف، لكن هذا الكيف لا نعرفه نحن، والله سبحانه وتعالى شيء ويمكن أن يرى، لا نراه الآن لأسباب تختص بنا، أما في الآخرة فإن شاء الله نراه " وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة " فالله شيء وموجود ولكنه ليس شيئاً مادياً، وكذلك بعض المخلوقات موجودة، ولكنها ليست مادية، فليس من شرط الموجود أن يكون مادياً.

الشرط الرابع: وهو يقودنا إلى الركن الثالث من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالكتب والرسل، فلا يكفي أن يقول الإنسان إنه يعبد الله وحده بل لابد أن يعبد الله سبحانه وتعالى بالطريقة التي شرعها رسوله صلى الله عليه وسلم، أو من أرسل إليه من الرسل السابقين إذا كان في عهدهم.

هنا أيضاً حدث بعض الخلل، بعضه حدث في زمن الصحابة، لم يحدث في الصحابة، وإنما حدث في زمانهم عند بعض الناس، أول خلل حدث في التاريخ الإسلامي هو خلل إنكار السنة، فإذا أنكرت السنة لن تعبد الله سبحانه وتعالى بالطريقة التي وصفها رسول الله ﷺ، ولذلك أيها الإخوة، التعبير الذي تسمعونه: أهل السنة والجماعة فبعض الناس يظنون أن أهل السنة والجماعة يعني فرقة من الناس، يقول لك:

الناس يتقسموا أهل سنة وشيعة، ويظن أن هذا مثل هذا، لا، أهل السنة لماذا سموا أهل السنة؟ سموا بأهل السنة لأن الذين انحرفوا عن الطريق الصحيح الذي هو طريق القرآن وطريق الرسول صلى الله عليه وسلم في عهدهم كان انحرافهم بسبب إنكارهم للسنة، فهؤلاء لكي يؤكدوا أنهم مستمرون على ما تركهم عليه الرسول ﷺ سموا أنفسهم أو سموا بأهل السنة. وليس معنى ذلك أنهم ليسوا أهل القرآن الكريم، وليس معنى ذلك أنهم فرقة معينة لها رئيس معين، ليس هذا، وإنما هي تأكيد لاستمرارهم على ما تركهم عليهم الرسول ﷺ، وسموا بأهل الجماعة لأن تلك الفرقة التي أنكرت السنة خرجت أيضاً على الحاكم الشرعي فكانت منكرة للسنة وداعية إلى الفرقة، فسموا أنفسهم بأهل الجماعة والجماعة؛ هنا المقصود بها: عدم الفرقة، ليس المقصود بها عدد كبير من الناس، لا. فإذاً هذا كان الخلل الأول.

الخلل الثاني: يختص أيضاً بالسنة هو وما زال أيضاً موجوداً عند بعض الناس كما أن بعض الناس ينكرون السنة، بعضهم يشكك في عصمة الرسول ﷺ وأنت إذا لم تعتقد بعصمة الرسول ﷺ فقد جعلت كلامه ككلام سائر البشر، بعضهم غلا، فلم ينف عصمة الرسول ﷺ ولكن أضاف العصمة إلى غير الرسول ﷺ، فإذا كان أولئك قد ساووا الرسول ببقية الناس، فهؤلاء قد ساووا بعض الناس بالرسول ﷺ، فأصبح أيضاً يعني : حادوا عن أن يعبد الله سبحانه وتعالى بما جاء به رسوله ﷺ.

الحل في رأيي، وهو حل ميسور جداً: أن نقول : إننا نؤمن بكل ما صح عن الرسول ﷺ من أحاديث سواء كانت متواترة أو أحاديث آحاد، نؤمن بأن ما قاله الرسول ﷺ وسجل لنا في هذه الكتب ولم ينسخه الرسول ﷺ بنفسه كتأبير النخل، ولم ينسخه الله سبحانه وتعالى فهو حق سواء كان في أمور العبادات أو العقائد أو في المعاملات، سواء كان عن الدنيا أو الآخرة. سواء كان في الفلك أو الطب أو ما شابه ذلك. الرسول ﷺ لا يقر على خطأ، الرسول يمكن أن يخطئ فهو بشر لكن الله سبحانه وتعالى أرحم بعباده من أن يسمعهم من رسوله ﷺ شيئاً ليس بصحيح ثم يتركهم عليه. أليس مما يعد من السنة إقرارالرسول "السنة التقريرية" أن يرى الرسول

ﷺ شخصاً فعل شيئاً فلا ينكر عليه فنفهم من هذا أن هذا الشيء صحيح ما دام أن الرسول ﷺ لم ينكر عليه، أفلا نظن أن الله سبحانه وتعالى أولى بهذا من رسوله، يرسل إلى الرسول ﷺ ملكاً يأتيه في كل يوم أو في كل عدة أيام فهو على صلة بربه، ويعرف الله سبحانه وتعالى أن هذا الرسول قد قال لنا شيئاً ليس بصحيح، ثم لا يقول له إن هذا ليس بصحيح. فاطمئنوا إلى أن كل ما صح عن الرسول ﷺ فهو حق بغض النظر عن الموضوع الذي تحدث فيه الرسول ﷺ؛ لأن الرسول ﷺ أكرم من أن يتحدث في شيء ليس له به علم، وإذا تحدث في شيء لا يعرفه، قال : لا أعرفه، كما ورد في حديث تأبير النخل، قال : إنما كنت أظن ظناً، فلا تؤاخذوني بالظن. أما أن يتحدث الرسول ﷺ في أمر من الأمور بطريقة جازمة، ثم نقول: أنه أخطأ والحديث لم ينسخ فهذا من الخلل، وكما قلت إنه خلل يمكن أن يتخلص منه بسهولة إن شاء الله.

الشيء الثاني : أن لا يقدم بالنسبة للرسول ﷺ، أن لا يقدم رأي إنسان على حديثه، وطبعاً لا يقدم على كتاب الله سبحانه وتعالى، هذه مسألة ما أسهل أن تقال، وما أصعب أن تنفذ، أقول لكم بتجربتي، الآن لو قلت لكم هذا الكلام تقولون نعم طبعاً شيء طبيعي، وثم امتحن بعض إخواننا : أتكلم كذا وكذا ثم أقول إن عمر بن الخطاب أخطأ في هذه المسألة فتمر، وأتكلم كذا وأقول مثلاً إن الإمام مالك أخطأ في هذا كذا وكذا، ثم بعد قليل أقول : إن الشيخ الفلاني، رئيس هذا الشخص الذي أتحدث إليه أو زعيمه أخطأ فيتغير الشخص، كيف؟ متى؟ ماذا قال؟ ويبدأ يبحث عن المبررات، طيب يا أخي في مسألة عمر ما بحثت عن مبررات، والإمام مالك ما بحثت له عن مبررات، ونقف في الميكرفونات: عمر وقامت امرأة وقالت له كذا، قلت لهم: يا إخواننا – وأنا أتكلم لكم عن إخواننا السودانيين هو فقط عمر المسكين تعترض عليه النساء وغير النساء، لماذا لا يعترض علينا نحن؟ مرة تكلمت كلاما، وبعد أن انتهيت جاءني أخ له علم بالحديث قال لي : يا أخي الكلام الذي قلت إنه حديث، هذا ليس بحديث، وإنما هو قول لأحد الصحابة، قلت يا أخي : جزاك اله خيراً، لكن هذا الكلام الذي قلته أنا، كلمتك أنت وحدك، أم كلمت الناس جميعاً، هل تظن أنه يقلل

من قيمتي أن تقف أمام الناس وتصحح لي، ألا تكون غيرتك على حديث الرسول ﷺ أهم من احترامي أنا، هذه مسألة ما أسهل أن تقال كما قلت لكم، وما أصعب أن تنفذ، فلابد من أن نربي أنفسنا على هذا الآن هذا أيضاً مما يتمم الإيمان، ومما يعطي الرسول ﷺ حقه. الإيمان باليوم الآخر وبالملائكة: حدث فيه خلل سببه نفس الخلل الذي تحدثنا عنه في مسائل أن الموجود هو المشهود، فأصبح أيضاً خللاً قديماً كثير من الناس خصوصاً الفلاسفة الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية يتكلمون عن نعيم الجنة، أيضاً كأنه أشياء ليست حقيقية، نعم هو ليس كما عندنا، ولكن لا يعني هذا أنه ليس حقيقياً، هو مختلف، الأنهار واللبن والعسل مختلف عن هذا، لكن ليس معنى هذا أنه ليس عسلاً وليس هناك أي علاقة بينه وبين هذا العسل، وإلا لما سماه الله سبحانه وتعالى عسلاً، حتى عندما نقول للتقريب، لأنه لابد أن يكون هنالك شبه بين هذا وذاك، ليس كله أمور مجازية ومسائل روحية. بالنسبة للملائكة أيضاً وكل الموجودات الأخرى غير المادية، بدأ بعض الناس يقولون هذه المقصود منها قوى الشر وكذا. القدر حدث خلل ما زال في كثير منا، وهو أن بعض الناس تطرفوا فأثبتوا قدرة الله سبحانه وتعالى وإرادته وظنوا أن هذا لا يمكن إلا بأن لا تكون للإنسان إرادة ولا قدرة، فنفوا إرادة الإنسان. وكثير من الناس أيضاً بالتجربة أكلمكم – كثير من الناس الذين يقولون لا نريد أن نتكلم في القدر وكذا هذا شيء حسن، لا يتكلم الإنسان في القدر إلا إذا كان مضطراً عندما أتكلم معهم، أجد أن الذين ينطوون عليه فعلاً هو هذا النوع من الاعتقاد، ويظن أن هذا هو القدر. جماعة غلوا في الطرف الآخر، رأوا أن الله سبحانه وتعالى أعدل من أن يعذب إنساناً وهو ليس مسئولاً، فأثبتوا للإنسان حرية وقدرة، ولكن على حساب نفي عموم مشيئة الله وقدرته، يعني أن الأشياء التي يُسأل عنها الإنسان ويحاسب عليها أو يجزي عليها هي أشياء لا يقدرها الله سبحانه وتعالى، معناه كأن الإنسان يخلق بعض أفعاله وإن لم يقولوا هذا.

أيضاً الحل في غاية اليسر، أن تقول إن الله سبحانه وتعالى شاء أن يجعل الإنسان – كما قال بعض أهل السنة – شاء أن يجعل الإنسان شائياً، هو شاء بمشيئته وقدرته أن

يجعل هذا المخلوق له مشيئة وله قدرة، نعتقد هذا الاعتقاد، سواء استطعت أن تحل المشكلة، العقلية أو لم تحلها، أنا في رأيي هذا لا تعلق به عقيدتك، وأرجو أن ينظر الواحد منا إلى القرآن الكريم، كما ينظر رجل الطبيعة الذي يدرس الطبيعة إلى الطبيعة، قد يجد أشياء ظواهر لا يستطيع لها تفسيراً فلا يغضب ويحزن ويقول: والله هذه الطبيعة متناقضة، وما كان ينبغي أن يكون هذا، لا، وإنما يعتقد أن الخطأ أو التقصير فيه هو فكذلك إذا وجدت أن الله سبحانه وتعالى يصف نفسه بأنه له قدرة وإرادة، فقل: له قدرة وإرادة، وإذا وجدت أنه يصف الإنسان بأن له قدرة وإرادة فقل: أن له قدرة وإرادة، وإذا قال : إن إرادة الإنسان وقدرته تابعة لإرادة الله سبحانه وتعالى وقدرته فلا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا بإرادة الله وقدرته ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فآمن بهذا، حتى لو لم تستطع أن تحل بعض المشاكل العقلية في هذا الآن هذا يكفيك أنك صدقت بما قال الله سبحانه وتعالى.

أريد أن أختم الكلام ببعض التنبيهات :

أولاً: ينبغي ـ وهذا لإخواننا الذين يهتمون بمسألة العقيدة – يا أيها الإخوة : فرقوا بين صحة العقيدة والتخصص في علم العقيدة، يمكن الشيخ عبد الستار يكون متخصص في علم العقيدة، يعرف عن تفاصيلها وكل ما ورد أو معظم ما ورد في الكتاب والسنة عنها وما قاله علماء الكلام وكذا، ومصطلحاتها وكذا، وشخص آخر لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولا يعبد الله، فهل نقول له أنت لست موحداً لأنك ما عرفت ما عرف الشيخ عبد الستار، فهناك فارق إذا بين أن أكون موحداً وبين أن أكون مختصاً في علم العقيدة، فإذا جئت وامتحنتني في بعض الأشياء قد لا أعرفها يا أخي، كما أن المجاهد لا يشترط فيه أن يقرأ كل أبواب الجهاد في البخاري ومسلم، ويحفظ الأحاديث، يمكن أن يعرفها إنسان ولا يكون مجاهداً، ولا يعرف منها ولا حديث واحداً يحفظه عن ظهر قلب ويذهب ويجاهد ويموت في سبيل الله، فهذا مجاهد، وهذا ليس بمجاهد وإن كان قد تخصص في علم الجهاد.

المسألة الثانية: ينبغي أن نفرق بين علم العقيدة وكتب العقيدة، علم العقيدة في كتاب الله وفي سنة الرسول ﷺ، ما فصل علم فيهما ما فصل هذا العلم، لكن

علماؤنا جزاهم الله خيراً رأوا في بعض الأوقات ورداً على بعض الشبهات ومناقشة لبعض الفلاسفة والمتكلمين، أن يستعملوا مصطلحات وأن يتكلموا في العقيدة بلغة خاصة، هذه اللغة ليست شرطاً في معرفة العقيدة، وأنا تعمدت عندما قلت لكم الإيمان له شروط ثلاثة كان في إمكاني أن أقول لكم: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، والله عن قصد رفضت أن أقول هذا، أفرض أن واحداً سألني قال: ما توحيد الربوبية، ما عرفت، لكن قال لي: هل تعتقد أن هناك خالقاً غير الله؟ أقول، لا. هذا توحيد الربوبية، فأنا عرفت توحيد الربوبية، لكن ما عرفت أنه يسمى بهذا الاسم والله سبحانه وتعالى لا يحاسبنا على الاسم وإنما يحاسبنا على ما استقر في قلبي، وكذلك أن أقول إن الله يوصف بكذا من غير تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل، كم منكم يعرف هذه الألفاظ؟ مرة في اجتماع قلت لإخواننا العلماء، خصوصاً إذا تكلمتم لعامة الناس في التلفزيون أو في الراديو لا تستعملوا هذه الألفاظ، التمثيل – الناس لا يعرفون إلا التمثيليات هذه، ما يعرفوا تمثيل إنه هذه الألفاظ أنا أشهد بأنها ألفاظ دقيقة وعلمية لكنها لا تفيد عند من لا يعرفها، بعض الناس لا يعرفون أشياء أقل من هذا، بعد أن قلت هذا الكلام الذي قلت لكم إنني تكلمت فيه، جاء في بعض الناس يؤيدون ما قلت، قال لي أحدهم: والله أنا سمعت أو سمع عن شخص قرأ أو سمع من الإذاعة الحديث: **(لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)** [أخرجه الترمذي]، قال: كان يظن أن الترمذي أخرج الضب، مع أن هذا قد يظن العالم أن هذا شيء عادي، وقال آخر: إنه سمع شخصاً يقول: إن شخصا سمع عالماً يقول أن رسول الله ﷺ قال: كذا، قال: صححه البخاري قال: أيش يكون البخاري، هو الرسول يتكلم ويصححه البخاري؟ فحتى هذه المصطلحات وهي مصطلحات تظنونها سهلة، لكن بالنسبة لكثير من الناس ليست معروفة، فلا نمزج بنين معرفة الحقائق ومعرفة المصطلحات «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله».

ثالثاً: معرفة هذه العقيدة لا تحتاج إلى وقت طويل، يمكن أن يأتي إنسان وأقول له هذا الكلام بطريقة مختصرة أكثر مما قلتها لكم الآن: يا أخي لا تعبد غير الله، لا

تدع غير الله، لا تذبح لغير الله، ... يقول: نعم خذ سلاحك اذهب لأفغانستان، مش لازم يتخصص في العقيدة حتى يذهب لأفغانستان، لا ، قم صل الظهر. انتهينا ، فلا تستغرق وقتا ، هذا ليس معناه أنها لا تدرس، نعم: بعضنا يدرس ويتخصص لكن لا نعتبر أنه ما لم يعرف كل الناس أو معظم الناس.

رابعاً: أنه ليس من شرط هذه الأشياء التي تحدثنا عنها كشرط من قيام الأمة المسلمة أن يعرفها، وأن يتحقق في كل المنتسبين إلى الإسلام، لا يشترط، ثم أن نذكر أن هذا الذي تحدثنا عنه هو الحد الأدنى الذي ينقذ الإنسان من الخلود في النار ولا يمنعه من دخول النار؛ لأن الإيمان لا يكتمل إلا بأشياء أخرى سماها القرآن الكريم (العمل الصالح) فبعض العمل الصالح هو جزء لا يتجزأ من الإيمان الواجب فالإيمان يمكن أن نقول ثلاثة أشياء : إيمان حد أدنى هو الفيصل بين الكافر الذي يخلد في النار والشخص الذي لا يخلد في النار لكنه لا ينقذه من النار، وإيمان هو الإيمان الواجب وهو أن يفعل الإنسان بقدر ما يستطيع كل ما أمر الله سبحانه وتعالى به، وينتهي عن كل ما نهى عنه، ويقف عند هذا الحد، هذا مقتصد، والأول ظالم. الثالث أن يزيد على هذا، فالأمة التي وعدها الله سبحانه وتعالى بتلك الوعود أقل شروطها أن يتوفر فيها الإيمان الواجب، ولابد من أن يتوفر – إن شاء الله – بعض الزيادات على هذا.

هناك قضية أختم بها الكلام هي لا علاقة لها بالموضوع لكن، وهي أننا بعد أن عرفنا العقيدة كيف ندعو إليها ؟ كيف نعيد بناء هذه الأمة؟ هذا ليس من موضوعي، ولكن أريد أن أذكر أشياء تتعلق بالعقيدة فيه:

هنالك فرق بين منهج العقيدة، ومنهج العمل، هذا من الأشياء التي أخطأنا فيها كثيراً، في العقيدة لا مساومة، إذا عرفت أن هذا الشيء قاله الله تؤمن به، ما فيه مساومة، تعتقد أنه صحيح، مهما كان من المندوبات، مثل ركعتين بعد المغرب، إذا عرفت أن الرسول قال هذا ثم أنكرتها كفرت، ما عملتها شيء آخر، فالعقيدة ما فيها بالنسبة للعمل، المنهج مختلف، فكثير من إخواننا خلطوا بين الأمرين ظن أنه حتى في العمل ينبغي أن يعمل كل شيء كما يعتقد كل شيء، لا العمل تابع للاستطاعة،

والعمل تابع لتقدير الظروف، والعمل فيه تقديم الأهم على المهم، والعمل فيه ارتكاب أخف الضررين، والعمل فيه أحياناً السكوت على بعض الباطل لكي لا ينتج عنه باطل أكثر، والعمل فيه ترتيب الخصوم والعداوات لا تفتح جبهات مختلفة مع كل الناس، هذه مسائل عقلية يعرفها حتى الكفار، فهي كذلك جزء من هذا الدين، فلا نخلط بني منهج الاعتقاد ومنهج العمل. وقد يكون أيضاً من أحسن الوسائل للدعوة إلى العقيدة أحياناً يكون بعض الأعمال الصالحة، طبعاً العمل الصالح لا يكون عملاً صالحاً إلا إذا بني على العقيدة، لكن أعني أنك يمكن أن تدخل الإنسان إلى العقيدة عن طريق دعوته إلى بعض الأعمال الصالحة، هب أن إنساناً يريد أن يجاهد في أفغانستان فجئته فقلت له يا أخي أنا رأيتك تفعل كذا وكذا وهذا من الشرك، إلا تظنون أيها الإخوة أن هذا إنسان ذاهب ليعطي نفسه لله إلا ينتبه أكثر من الشخص العادي؟ لأن هذا يقول: أنا غداً أكون في الدار الآخرة إن شاء الله، فإذا قلت له : هذا شرك يدخلك النار، ما ذهب ليقاتل إلا ليخرج من النار، يقول لك: إذاً اتركه، فيمكن في خمس دقائق أو في عشر دقائق أن تعطيه مبادئ العقيدة تخلص قلبه من أنواع الشرك فيذهب ويجاهد، فالعقيدة أيضاً الدعوة إليها لا تعني تعطيل الأعمال الأخرى.

أيضاً من وسائل العمل أن نتعاون في الأشياء التي نحن متفقون عليها ونتجادل بالتي هي أحسن في الأشياء التي تختلف فيها، ومن طبيعة العمل أيضاً أن نقسم الناس مراتب، حتى لو كانوا كفاراً، فهنالك من هو أقرب، وهنالك من هو أبعد، ولذلك القرآن الكريم أعطى أهل الكتاب مكانة خاصة، بعض الناس يقول لك الكفر ملة واحدة، فيفسر هذا بمعنى يتناقض مع ما جاء في كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

عوامل انحطاط الحضارة الإسلامية وسبيل النهوض بها

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، اللهم اجعل كل كلامنا طيباً واجعل كل كلامنا صالحاً، واجعله كله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً، أيها الإخوة : إن الانحطاط بعد الارتفاع عقوبة، إنه زوال نعمة، وقد بين القرآن الكريم السبب الأساسي لزوال النعمة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، – فالسبب الأساسي لانحطاط المسلمين بعد ارتفاعهم وتقدمهم لابد أن يكون كامناً في أنفسهم، وأنا أشكر الأخ الدكتور عبد الحميد أن نبهكم إلى مسألة الأسباب الأساسية والأسباب الثانوية، نحن نتحدث عن الاستعمار، عن الصهيونية العالمية، وعن كذا وعن كذا وعن كذا – لكن كل هذه ليست هي الأسباب الأساسية بحسب النص والتوجيه القرآني، والآية تقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، وإذن فالسبب الأساسي سبب إرادي، إنه ليس شيئاً مفروضاً على الأمة من خارجها، والسبب الإرادي لا يفسر بأسباب خارجية. إذا كفر الإنسان فلا يفسر هذا بأن هنالك ظروفاً خارجية أجبرته على الكفر، إنه حينئذ يكون مختاراً، ولهذا فنحن لا نسير مع أصحاب ما يسمى بفسيولوجيا الدين أو المعرفة إذا كان المقصود بها أن هناك ظروفاً معينة تفرض على الإنسان أن يكون متدنياً أو أن يكون كافراً – ما هو هذا الفعل الإرادي الذي يجلب زوال النعم، في القرآن الكريم، أمثلة على هذا: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا۟ – هذا هو فعل الإرادة – فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٥-١٦]. بل إن هذا هو التفسير القرآني لمثل هذه العقوبة الشديدة التي تثير الحضارة مرة واحدة، بل هو التفسير القرآن حتى لما نسميه النكسات المؤقتة التي وقعت لأصحاب رسول الله ﷺ، فالتفسير القرآني لكل ما أصاب المسلمين من هزائم مؤقتة في زمن الرسول كان لإرجاعه إلى شيء في أنفسهم، ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم

مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. وفسر هذا الذي هو من عند أنفسهم في الآية الأخرى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. فالذين أرادوا الدنيا حتى من الصحابة كانوا هم السبب في الهزيمة، فإذن هنالك سبب أساسي، هذ السبب الأساسي ينتج عنه أسباب تنتج عنه آثار تكون هي بدورها آثاراً لأسباب أخرى وهكذا وهكذا – لنضرب مثالاً، لنفرض أن عدد الذين يحبون الحياة الدنيا قد ازداد في مجتمع ما، أو أن الذين يحبونها ازداد حبهم لها، لابد أنه ما دامت هذه قد صارت ظاهرة في المجتمع، لابد أن يجد بعض هؤلاء طريقهم إلى القيادة، إما القيادة العلمية، أو القيادة السياسية. إذا وصلوا إلى القيادة السياسية وكانوا يحبون الدنيا فإن هذا سيؤثر في معاملتهم للناس، سينتج عنه ظلم، سينتج عنه استكبار، سينتج عنه كذا وكذا، هذه بدورها تقود إلى آثار أخرى ضارة – إذا وجدوا مكانهم إلى القيادة العلمية كان لابد أن يؤثر هذا في تفكيرهم، في فتاواهم، في مواقفهم، وكان لابد أن يؤدي هذا إلى شرور أخرى – مثلاً لقد عاقبنا الله سبحانه وتعالى بسبب هذا التغيير بأن سلط الأعداء علينا، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، فجعل لهم سبيلاً علينا لأن الشرط لم يكن أساسياً عندنا، أصل الإيمان موجود ولكنه ليس الإيمان الذي ينتج عنه هذا الوعي، فسلط الله سبحانه وتعالى الأعداء علينا – تسليط الأعداء كان لابد أن يؤدي إلى شرور أخرى – أثر في التعليم – التأثير في التعليم أدى إلى آثار أخرى وهكذا، قبل أن أنتقل إلى النقطة الأخرى أريد أن أقول، إذا كانت هذه هي العلة فإذن سبب النهضة أيضاً لابد أن يكون كما عبر عنه الأخ عبد الحميد في ندوته، لابد أن يكون بقرار، لابد أن يكون في الأمة طلائع تعلو على هذه الأوضاع الشريرة وتتغلب عليها وتعزم على أن تعود إلى الحق، ولا نقول أن تغير، لأن العودة لا تسمى تغييراً، سنتحدث بعد قليل عن هذا، ولكن إذا كان هذا هو سبب الانحطاط فلابد أن يكون السبب في الارتفاع هو أيضاً بقرار تتخذه الأمة أو تتخذه طلائع الأمة – أنا أريد أن يكون حديثي تكملة لأحاديث كثيرة دارت حول هذا الموضوع، فلذلك لا أحب أن أعالج الموضوع من كل جوانبه بل اكتفي ببعض النقاط – من المشاكل التي سألني عنها الشباب كثيراً، يقولون : إذا كان السبب في انحطاطنا هو أننا تركنا ديننا، فنحن على الأقل خير من هؤلاء الذين سلطهم الله علينا، نحن مسلمون وهم ليسوا

بمسلمين، نحن مسلمون وهم يهود، والله يقول: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، نحن لم ننصره كما يجب ولكن هؤلاء تمردوا عليه، فلماذا إذن ينصرهم علينا، والجواب هو، أشير إلى بعض النقاط:

أولاً: إن الله سبحانه وتعالى بحسب هذه القاعدة التي وضعها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١]. إن العقاب حين يغير ما بالناس هذا التغيير يكون بحسب تغييرهم، هم إذا أعرضوا كقوم سبأ وكفروا وجحدوا فإن الله سبحانه وتعالى يستأصلهم مرة واحدة، ليس بقتلهم جميعاً ولكن يستأصلهم كأمة كما قيل لقوم سبأ- فقد تشتتوا في البلاد وزالت حضارتهم، لكن هذا العقاب قد يكون أقل من هذا، يكون مؤقتاً وهذا الذي أرجو أن يكون قد حدث لنا – فالله سبحانه وتعالى يعاقبنا عقاباً مؤقتاً ينصرنا بعده، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية، إن هذا العقاب، وهذه ليست ألفاظه – إن العقاب هذا المؤقت يكون رحمة بالمؤمنين، لماذا لأننا إذا استمررنا في التفوق المادي ونحن مستمرون في البعد عن الله فإن هذا يغرينا بزيادة الكفر وبمزيد من الابتعاد عن الله سبحانه وتعالى، فإذا ما عاقبنا الله سبحانه وتعالى فعسى أن ننتبه ونصلح من أمرنا – أضرب لهذا مثلاً، في غزوة حنين فسر الله سبحانه وتعالى هزيمة المسلمين بأن قال لهم: ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ﴾ [التوبة: ٢٥]، لنفرض أن الله سبحانه وتعالى نصرهم رغم أنهم كانوا معجبين بكثرتهم – إن هذا سيؤكد لهم أن سبب النصر هو الكثرة، ولكن الله سبحانه وتعالى هزمهم هزيمة مؤقتة، وجعل النصر على أيدي قلة قليلة جداً، فنبههم إلى أن سبب النصر ليس هو الكثرة، وأظنكم وأظننا نعتقد أنه قد مرت بنا ظروف لو انتصرنا فيها لعبد بعض الناس من دون الله سبحانه وتعالى، ولكن الله تعالى رحمة بالمؤمنين يسبب لهم هذه الهزيمة المؤقتة حتى يكون النصر على أيدي الرجال الذين يستحقون أن ينصروا، وحتى يكون في النصر رحمة بالمؤمنين لا مزيداً من القهر والتعذيب والبعد عن الله سبحانه وتعالى – وإذن فكما إن هزيمتنا قد تكون رحمة بنا – هي رحمة بنا نعم إذا أحسنا الاستفادة منها، فإن غلبة الكفار وبال عليهم – هي وبال عليهم ووبال على البشرية، ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، – حسب بعض التفاسير، الظهور هنا معناه العلو والطغيان، فإذا كانت اليد العليا للمفسدين وكانوا

هم الظاهرين، فمعنى هذا أن هذا عقوبة للمقهورين وعقوبة للغالبين – ولعل في حديث الرسول ﷺ – عجب الله لقوم أو لأناس يدخلون الجنة في السلاسل، هؤلاء يحاربون المسلمين فينتصر عليهم المسلمون ويؤخذ منهم أسرى ثم يسلمون فكأنهم قيدوا إلى الإيمان قهراً، هؤلاء طبعاً سيقولون يوم القيامة الحمد لله، وأظن أنهم سيقولون قبل يوم القيامة حتى في هذه الدنيا الحمد لله الذي هزمنا وجعل هذا سبباً لنا في الدخول في الإسلام – إذن وهذا في اعتقادي وأرجو إلا يكون هذا مجرد حماس، في اعتقادي أننا برغم هزيمتنا لا زلنا نملك عوامل البقاء – كأمة – إن فينا من عوامل البقاء ما ليس في الحضارة الغربية. الحضارة الغربية فيها حيوية ولكنها مؤقتة، يمكن أن نشبهها بذبابة تعيش مدة قصيرة، فهي حية ولكنها بعد قليل تموت. ويمكن أن نشبه المسلمين بأنهم في حالة نوم أو إغماء ثم يعودون بعدها إلى الحياة إذا توفرت هذه الشروط – كيف ننهض – أولاً أنا ارجو حين نفكر في النهضة إلا يكون كتفكير كثير من غير المسلمين وهو أننا نريد أن نكون مثل الغربيين، نحن لا نريد هذا، نحن نريد أن ننهض، ولكن غايتنا من النهضة أن نكون من الذين أنعم الله عليهم فجعل تمكين الدين على أيديهم وجعلهم رحمة للبشرية، لا نريد فقط أن تكون لنا مصانع كما لهم مصانع ومدارس كما لهم مدارس وكذا كما لهم كذا – لأن هذه يمكن تستعمل ضدنا وضد البشرية، لكن إذا أردنا هذا فإن الطريقة الأساسية والوحيدة إليه هو القرار بأن نعود إلى الدين عودة صادقة – أصل الدين موجود فينا ولكن هذا الأصل لا يكفي لبناء الحضارة وللتغلب على الأمم الأخرى لابد من تقوية هذا الإيمان وتنقيته والالتزام بلوازمه في حياتنا الخلقية أولاً، ثم في حياتنا الخارجية، لابد أن تؤول القيادة الفكرية والسياسية إلى هذا النوع من الناس، إن الذي نحتاج إليه ليس شطارة سياسية، وإن كانت الشطارة السياسية أحياناً تفيد على قاعدة – إن الله لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر، ولكنه لا ينصره بسبب فجوره ولكن ينصر المسلمين به كما ينصرهم بالنعاس وبأي شيء آخر، أريد هنا أيضاً أن أشير إلى بعض النقاط، السبب الذي ينبغي أن نركز عليه هو إنشاء أو تكوين هذه الطليعة المؤقتة التي سيؤول إليها بإذن الله أمر القيادة السياسية والفكرية في العالم، كيف نفعل هذا؟ أشير إلى بعض النقاط، لابد من تعديل المؤسسات التربوية والإعلامية بحيث تساعد على هذا، وقد تكلم كثير من الإخوان في هذا، لابد من إنشاء مراكز لإعداد المفكر المسلم – شعرت من حديث الأخ يوسف العظم بالأمس رغم إعجابي به، ولكن قلت إن هذا

ترقيع إنه يفترض أن الفقيه سيكون كما هو الآن ويريد أن يصلح من حاله، ولكن الذي نحتاج إليه هو مؤسسات تخرج لنا الفقيه الذي يريده الأخ يوسف العظم، لابد أن نفعل هذا. إن الحركة الإسلامية قد وصلت إلى طور لا تكفي معه هذه المنظمات رغم استمرار حاجتنا إليها، بل نحن محتاجون إلى مؤسسات جديدة، وهذا لم تفعله لنا المؤسسات – النقطة الثالثة هي ينبغي أن نكون واقعيين في تفكيرنا، والواقعية أعني بها الصرامة الشديدة في الالتزام بالمبادئ وبالغايات النهائية، والمرونة في تقبل الحلول الجزئية. هذا كلام أنا أعرف أن بعض الشباب لا يحبونه، ولكن إذا لم نفعل هذا فسنظل دائماً نتكلم ولا نستطيع أن نفعل شيئاً، الذي يساوم على الأهداف مخطئ، والذي يقول إنه يريد أن يحقق أهدافه كلها في يوم واحد أو في سنة واحدة، أيضاً مخطئ، فلا بد إذن من قبول الحلول الجزئية ما دام كل حل بإذن الله سيؤدي إلى حل آخر وكل حل سيؤدي إلى حل آخر.

ينبغي إلا نظن أن الطريقة لإعادة الحضارة الإسلامية – هي أن نحطم الحضارة الغربية أو أن يكون لنا من القوة المادية ما لهم حتى نستطيع أن تغلب عليهم، إن الأسباب الفعلية كثيرة جدا فينبغي إلا نحصر أنفسنا في واحدة منها – مثلا من الممكن جداً أن يقبل كثير من هؤلاء الإسلام فيرثنا الله سبحانه وتعالى أرضهم وديارهم، يعني لا ينبغي أن نفكر في الإسلام تفكيراً قومياً فيظن أن المسلمين هم الذين يسكنون ما يسمى الآن بالعالم الإسلامي، يمكن أن ينشأ مسلمون في ديار الغرب نفسه يؤول إليهم أمر هذه الحضارة بإذن الله سبحانه وتعالى – أقول قولي وأستغفر الله العظم لي ولكم–..

الدكتور جعفر شيخ إدريس..

أريد أن أصرف جزءاً من وقتي في مناقشة الدكتور الفاروقي – لقد كان التصوف في رأي رد فعل ضد الاتجاه الذي حصر الدين في المظاهر الخارجية – الدراسة قدمت على التقوى، العمل الخارجي قدم على الأحوال النفسية – إرادة الإنسان نسيت معها ارادة الله – علوم الدين صارت كفنون الحدادة والتجارة لا روح فيها، لهذا أسمى الغزالي كتابه (إحياء علوم الدين). والانطباع الذي خرجت به من كلام الدكتور الفاروقي أنه يريد أن ينتقل من طرف إلى طرف آخر، وأنا أدعو وأعتقد أن التوحيد ليس مع التصوف، وليس مع الطرق الأخرى، إنما وسط بينهما – إنه يجمع بينهما ولا تناقض

بينهما، وكثير من الأشياء التي أخذها على المتصوفة فيها جزء من الحقيقة، المتصوفة أخطأوا فيما أنكروه وأصابوا في كثير ما أثبتوه – المعرفة نور يغدقه الله في القلب نعم – ولكن هذا لا يعني أنه ليس له أسباب خارجية – المعرفة تعتمد على حال العارف نعم – ولكن هذا لا يعني أنها لا تعتمد أيضا على حال الذي يراد معرفته، الخير أساساً في النفس نعم، ولكن هذا لا يعني أنه يبقى في النفس فقط ولا يترجم إلى الخارج، التهذيب النفسي هو الأساس، الأخلاق قائمة على البيئة، كل هذا صحيح، والأحاديث كما ذكر الأخ المناقش توضح هذا، ولكن الخطأ هو إن نقول إن هذا ليس ذاك الصحيح. إن الدين أساس في القلب ولكن العمل هو ترجمة ضرورية لهذا القائم في النفس وإلا لم يكن هناك فرق بين المنافق والمؤمن؛ لأن المنافق يمكن أن يأتي بأعمال خارجية تشابه أعمال المؤمن، وأيضاً إذا قلنا هذا فإن الرجل الذي يعزم على الخير عزماً قوياً ولكنه لا يستطيع أن يترجم عمله هذا إلى أشياء لن يعتبر خيراً، ونحن نعلم أن هذا خير – أنفق ما تبقى من الوقت على ما جاء من الأسئلة – الإيمان ليس شرطاً في بقاء الحضارة، هذا يا أخي ليس صحيحاً، الإيمان ليس شرطاً في وجود الحضارة المادية لأن هذه نعمة، الله سبحانه وتعالى لا يشترط أن يكون المنعم عليه بها مؤمناً، فهو يعطيها فضلاً منه، فالإيمان ليس شرطاً في وجودها ولكنه شرط في استمرارها؛ لأن الذي يعطي هذه النعمة ثم يستمر في كفره بالله وظلمه للناس وكذا وكذا لا بد أن تنهار حضارته وهذا هو أملنا في انهيار الحضارة الغربية من هذه الناحية – قوم يقادون إلى الجنة في سلاسل الحديث، كما أفهمه، كما عرفت من تفسيره يا أخي ليس فيه تبرير لذل المسلم، وانما الحديث معناه أن بعض الناس يكونون كفاراً – فيحاربون المسلمين فيأسرهم فيكون هذا سبباً في إيمانهم فهم عندما أذلوا كانوا كفاراً ولم يكونوا مسلمين. إن كنت قلت ينبغي ألا تكشف عيون الحضارة الغربية فأنا مخطئ بل ينبغي أن نفعل هذا، ولكن أظن أن الذي قلته هو أننا لا ينبغي أن نتصور أن الطريق المادي فيها. ليس من شرط قيام الحضارة الإسلامية أن ينهار هذا الصرح المادي للحضارة الغربية، بل يمكن أن يبقى هو وأن تزول الأسس الثقافية الفلسفية له، ويكون هذا ميراثاً للمؤمنين، فيتحول إلى حضارة إسلامية، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

***

فرفرة دجال

محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في الخرطوم يوم السبت ١٤٢٧/٣/١هـ الموافق ٢٠٠٦/٤/٢٥م

بسم الله إن الحمد لله نحمد ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ثم أما بعد:

يحسن أن ابدأ بشرح عنوان هذه الكلمة وأظن أن كثيراً من الناس استغربوا هذا العنوان، العنوان هو فرفرة دجال خطرت ببالي كلمة فرفرة وهي كلمة سودانية معروفة، فقلت يحسن أن أتأكد من عربيتها فذهبت إلى القاموس فوجدت أكثر مما أريد وجدت المعنى السوداني وكان لها معنى ثاني فرفرة أسرع من الحماقة، والمعنى الثالث قال فرفر في كلامه أكثر وخلط فقلت والله ما أظن صاحب القاموس كان يظن أن هذه المعاني كلها ستجتمع في شخص واحد، وأما الدجال فتعرفون أهم ما يمتاز به الدجال هو الكذب، وصاحبنا هذا مرد على الكذب عنده مقدرة عجيبة عرفته خمسين عاماً تقريباً عنده مقدرة عجيبة على أن يعيش حياتاً غير التي يؤمن بها طوال هذه المدة كان رئيساً لجماعة إسلامية وهو لا يؤمن بشيء منها لا يؤمن بأهدافها ولا برجالها ولا بكتبها وكان كما قال هو في إحدى محاضراته كنت قائد الدعوة إلى الدستور الإسلامي ولحسن الحظ لم يسألني أحد ما معنى الدستور الإسلامي، واعتقاده هذا هو الاعتقاد الصحيح اعتقاده الصحيح بمعنى أن هذا هو الذي يعتقده فعلاً لأنني أذكر جداً أنه قبل أن يصير رئيساً لهذه الجماعة المنكوبة قبل أن يصير رئيساً لها اشترك في ندوة بجامعة الخرطوم تكلم فيها وسخر من فكرة الدستور

الإسلامي سخر منها ثم بعد ذلك، أنا كنت دائماً أستغرب كيف يمكن لإنسان أن يعيش حياة ظاهرية تخالف مخالفةً كاملة ما يبطنه من أفكار ومن أشكال حتى هذا اللحية من أشد الناس كراهيةً لها ولكنه ملتزم بها لأسباب دنيوية ويترأس جماعة وهو يكرهها لأسباب دنيوية، ويتكلم عن الدين وهو لا يؤمن به، ما تخافوا من كلامي هذا ما في أحد يقول لكم لا تكفروا الناس، يا أخي ربك كفر ما نكفر كيف ؟! الكافر حكم شرعي الذي يقول ما في كفر هو نفسه كفر الكفر حكم شرعي الإنسان إذا كفر سواء اعترف بكفره أو لم يعترف لا بد أن يقال يحكم عليه بأنه كفر ماذا تفعل بعد أن تقول له أنك كفرت هذا أمر آخر لكن الآن الإسلامي الأمريكاني إسلام ما فيه كفر إسلام يراد من المسلمين أن يكونوا فيه كالنصارى واليهود المحدثين ما تستطيع أن تقول هذا كفر وهذا لم يكفر وأنا قصصت قصة سمعتها في أمريكا إحدى الكنائس الضالة -كل الكنائس ضالة- ولكن هذه أشد ضلالاً اختارت لها قساً يعلن أنه شاذ معلن وجاء معه صاحبه أيضاً صاحبه الذي هو متزوجه جاء معه يوم الانتخابات وانتخبوه بنسبة ستين في المئة، بعد الانتخاب قال للناس إن الذين اعترضوا على انتخابي كان معهم بعض الحق: لأن هذا الذي فعلناه مخالف لتقاليد الكنيسة، ومخالف لنصوص الكتاب المقدس ومخالف نسيت الكلمة الثالث لكن هذا لا يعني أنه ليس بصحيح إذا كان مخالفاً لتقاليد الكنيسة ومخالفاً لنصوص الكتاب المقدس، ومع ذلك هو صحيح، فقلت لإخواننا في أمريكا يريدون أن يقولوا لكم افعلوا شيئاً وقولوا والله إنه مخالف لنصوص الكتاب والسنة، مخالف لنصوص الكتاب ومخالف للسنة ومخالف للإجماع، لكن هذا لا يعني أنه غير صحيح، هذا هو الدين الأمريكي الدين الأمريكي دين هلامي وهذه نفس الفكرة فكرة حرية الدين من الخبائث أو من أنواع الضلال التي تحدث في عصرنا أن يؤخذ نص إسلامي ويعطى معنى غربيا ثم إذا التزمتم بهذا المعنى الغربي تكاد تكون أضعت الدين كله من هذا قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، لا إكراه في الدين عندنا معنى معروف لكن يقول لك لا إكراه في الدين معناها حرية الدين و حرية الدين بالمعنى الغربي حرية الدين معناها أنه أن الإنسان بإمكانه أن يخرج من الدين ويطلع

مثل ما يقول صاحبنا هذا الدجال الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا هذا الدين الذي هو يريده قلت لهم إذاً أمشي مع هذا المنطق إلى نهايته إذا أنت سمحت لي أن أخرج من الدين كله ما تسمح لي أن أخرج من جزء منه، يا أخي أنا مسلم لكن لا أريد أن أصلي تقول لي أنت لست مسلما ما يمكن هذه حرية دين، يا أخي أنا مسلم لكن ما أريد أدفع زكاة أمشي على كيفي ما هي النتيجة؟ النتيجة أن هذا الدين لا يمكن أن يكون نظام دولة لأن الدولة لا بد أن تقول للناس افعلوا هذا لا تفعلوا هذا إذا فعلتوا هذا جازيناكم، إذا لم تفعلوا هذا عاقبناكم وكذا وكذا لكن إذا صار الدين بهذا المعنى فلا يمكن أن يكون دولة وصاحبكم هذا أو هو صاحبنا والله ما أعرف هذا هو في الحقيقة رأيه ويخرجه لكم بالقطاعي، مثلاً قال لكم في الفتاوى الأخيرة هي بالمناسبة دي ما تظن هذه فتاوى هي تعبير عن كفر ليس من الفتاوى. قال الخمر لا تعتبر جريمة يعاقب عليها القانون إلا إذا ارتبطت بالعدوان بالله!! شخص يقول مثل هذا الكلام وعنده عقل؟ طيب إذا عملت عدوانا بدون خمر ما أعاقب ؟! يقول لك واحد والله إذا لبست قميصاً أخضر واعتديت ما أعاقبك طيب إذا لبست قميصا أحمر واعتديت ما أعاقب إذا اعتديت وما لبست قميص أخضر ما أعاقب، وأظن في المحاضرة الأخيرة أيضا قال كلمة أخرى في هذا المعنى، المهم يريد أن يقول لكم إن هذا الدين هو قال قبل ذلك في بعض المحاضرات قال إذا كان هنالك، أنا قلت هذا في محاضرة قبل عشر سنين، قال إذا هنالك مائة مسألة دستورية في الفقه الإسلامي كله ما فيه ثلاث منها وهذا زعيم الدستور الإسلامي، وقائد الحركة الإسلامية المباركة، أنا أقول لكم هذا إنسان غير مسلم لا تخافوا من كلامي هذا إنسان غير مسلم إلا أن يسلم بعد ذلك ما ندري، لماذا أقول عنه إنه إنسان غير مسلم واحد يقول لك ما تدخل في ضمائر الناس يا أخي ما أدخل في ضمائر الناس هل أنا عندي مقدرة أن أدخل في ضمائر الناس ما عندي لكن الله سبحانه وتعالى علمنا أن هنالك أشياء ظاهرة تدل على أشياء باطنة أليس كذلك؟ قال سبحانه وتعالى لرسوله: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، عن المنافقين: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، الإنسان المنافق ما يستطيع

أبداً أن يخفي كل ما في قلبه لسانه لابد أن يخونه أو بعض أفعاله أنا دائماً أستغرب في المنافقين في زمن الرسول ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [التوبة: ١٠٧]، زعيم حركة إسلامية أنا أقول في نفسي هؤلاء ناس مغفلون واحد عايش في زمن النبي وبعدين يأتي يعمل مسجداً كفراً وضراراً وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ويظن أن الله لا يخبر رسوله بهذا لكن المنافق على قلبه غشاوة وصاحبكم هذا هو من هذا النوع الكلام الذي يقوله الآن في الأحاديث العامة كان يخفي كثيراً منه، ولا يقوله إلا في إحدى حالتين، إما في جلسات خاصة يطمئن إلى الناس الذي يتحدث إليهم أو عندما ييأس، عندما ييأس يتكلم أحياناً يتكلم وهو في السجن لماذا يتكلم عندما ييأس لأن أصلاً غرضه من الدين مسألة دنيوية، وربنا سبحانه وتعالى مكر به تركه حتى ما مشى ومشى حتى ما قرب من الشيء الذي يريده ربنا ضربه ورماه، فلذلك هو عنده حقد شديد الآن من مسألة الدين هذه، فكان عندما ييأس يتكلم في السجن يقول كذا وكذا الآن هذا الكلام الذي قاله لكم هذا شيء جديد ما كان في الماضي يجمع كل هذه الخزعبلات ويقولها في محاضرة واحدة، وأنا خائف من هذا الأمر ليس خائفاً منه أنا أخشى أن يكون وراء هذه الأمر شيء، صاحبكم هذا لا يتكلم إلا لغرض دنيوي والكلام الذي قاله لكم هو الكلام الذي تريده أمريكا ويريده الغرب. الغربيون مستغربون في هذا الدين قالوا هذا الدين ما عنده دولة قوية تقف وراءه المسلمون كلهم أقوى دولة عندهم يمكن أن تهزمها أي دولة غربية، ولكن دينهم هذا مع هذا هو الذي ينتشر يعني كيف تكون دولة ضعيفة ودينها هو الدين القوي الذي ينتشر؟! وفي آخر وثيقة أخرجتها مجلة مشهوره اسمها "نيوز" وكتب الكلام رجل صحفي مشهور اسمه كافلاند، فكتب في المقال أنه قال هذه أول مرة يكتب فيها في وثيقة رسمية وإن كانت سرية توزع للمسؤولين قال هذه أول مرة يصرح فيها في وثيقة رسمية بأن الدين الإسلامي الدين ليس ابن لادن ولا غيره الدين خطر على أمريكا الدين الإسلامي

ولذلك لابد من أن يكون هنالك جهد كبير لتغيير هذا الدين وكتبوا تفاصيل بعد ذلك بأنه ما الوسائل التي يغير بها هذا الدين من ضمنها، طبعاً صاحبكم كلمكم كثيراً عن أوروبا عملت ماذا، هذا الكلام الذي يقولونه اعملوا مثل ما عملنا مثل ما نحن غيّرنا ديننا وجعلناه مناسباً مع العقل أنتم لابد أن تغيروا دينكم، فأنا كتبت مقالاً باللغة الإنجليزية قلت يا أخي إذا أنتم غيرتم دينكم والناس تركوه ونحن ما غيرنا ديننا والناس مقبلون عليه نغيره لماذا؟! نكون مغفلين، لقد كان هناك قس بريطاني سألوه قالوا له لماذا أسلمت؟ قال لسبب بسيط جداً المسيحية التي تدرس الآن في الكنيسة غير المسيحية التي كانت تدرس عندما كنت أنا شاباً أذهب إلى الكنيسة ثم وجدت أن الإسلام هذا أن الناس يصلون نفس الصلوات التي كانوا يصلونها في زمن نبيهم، ويحجون نفس الحج، ويصومون نفس الصوم ويزكون نفس الزكاة ويشهدون نفس الشهادة؛ أركان الإسلام الخمسة هذه، فقلت لنفسي إذا كان هذا الدين المسيحي تغير في زماني أنا هذا التغيير فكيف به منذ أن نزل عيسى، وإذا كان هذا الدين الإسلامي لم يتغير طوال هذه المدة فلابد أن يكون هو الدين الحق فصاحبكم هذا هو وواحد أخر مثله يريدون أن يقولوا للأمريكان نحن الناس الذين تبحثون عنهم نحن الذين سنغير لكم الدين الإسلامي، وأنا في رأيي أن المحاضرة هذه وإن كان ما سمعتها كلها سمعت جزءاً كبيراً منها، أنا في رأيي هي إعلان حتى لجماعته، لو كانوا يفهمون يقول لهم أنا متوجه لجهة ثانية وهو ترك الإسلاميين الآن بكل أنواعه وبكل أشكاله واتجه إلى جهة ثانية هذه الجهة الثانية أنا خائف منها ما أدري ماذا سيحدث لبلدكم هذه بصاحبنا هذا ومعه صاحبه الثاني وبعض الناس الآخرين، أنا قلت لكم من الصعب على الإنسان أن يكفر إنسان مسلماً لكن الله سبحانه وتعالى أعطانا أدلة نعرف بها (ولتعرفنهم في لحن القول) الدين هذا هو أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إذا قلت بلسانك كلاماً ينقض هذا الذي شهدت به فأنت منافق ويشهد عليك الناس أنك منافق ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، وربنا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]،

يعني في قولهم إنا نشهد أنك رسول الله كيف عرفنا أنهم كاذبون بأفعال أخرى يعملونها لو إنسان يقول لك الباب مفتوح، وبعد قليل يقول لإنسان آخر والله أنا في رأيي الباب مقفول هذا تناقض هل يكون كلامه الأول قائم هذا تناقض، وكذلك لو إنسان يقول أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمداً رسول الله وبعد قليل يقول لناس قريبين منه النبي ليس معصوماً، ويعتقد أن النبي يخطئ مثله مثل غيره من البشر يخطئ وهذا الكلام شاع عنه ويلبس به على كثير من الناس، أنا في المحاضرة الأولى التزمت بأني لا أقول عنه إلا كلاماً قد قاله أو نشره لكن في هذه المرة سأحكي لكم قصص لأنها عندما تكثر تدل على أنها حقيقة وهذه كروايات الحديث، كنا في باكستان في مؤتمر الإعجاز العلمي للقرآن والسنة، ولاحظنا أنه لا يقبل السنة أبدا فجاءني أخ فاضل لا أريد أن أذكر اسمه الآن لأني لم أستأذنه وهو على كل حال قريب بينكم موجود قال لي إن الدجال هذا قال له يا أخي ما يمكن كل حاجة تطلع من خشم النبي تكون صحيحة أصله كمبيوتر إلهي؟ قلت والله صاحبك هذا لا عارف ربه ولا عارف الكمبيوتر هو أهم الرسول أم الكمبيوتر هو يريد أن يمثل الرسول بأنه كمبيوتر قلت له يا فلان اسمه عبدالرحمن يا عبدالرحمن قال لي الرسول هذا بشر كيف كل حاجة تطلع من خشمه صحيحة، قلت له يا أخي هذا بشر رسول ربنا أرسله ولذلك عصمه لكي يبلغ الرسالة، لو ابنك على صلة دائماً بك و سمعته يقول كلاماً خطأً ألم تصححه، تصححه.. الرسول ﷺ لو أن إنساناً تكلم أمامه كلاماً خطأً لا يصححه؟ قال يصححه. طيب قلت له يا عبدالرحمن هذا رجل متصل بالله يبيت عند ربه يطعمه ويسقيه وربنا سبحانه وتعالى يراه فعل شيئا خطأ أو قال شيئا خطأ ما يصححه، هذا عدم ثقة بالله ليس عدم ثقة بالرسول ﷺ فقط، ولذلك كان تمشيا مع هذه القاعدة يقول كلاماً مشهوراً عنه أنا في مسائل الطب أقدم رأي الطبيب الكافر على حديث الرسول ﷺ يا إخوان هذا إنسان مسلم؟! يا إخوان هذا إنسان ليس بمسلم لا تخافوا أبداً الذي يقول هذا ليس مسلماً لا تخافوا، وإلا أبواب الردة في كتب الفقه ما لها معنى وليست لازمة أليس كذلك؟ إذا كان لا يمكن أن تقول على أي إنسان إنه كفر وما في ردة ما في لزوم لهذه الأبواب في كتب الردة، فالإنسان الذي ينكر ما هو

معلوم من الدين بالضرورة هذا كفر، هذا في الأشياء العادية يعني لو إنسان قال الماء حرام كفر؛ لأن هذا معروف بالدين بالضرورة أن الماء حلال طيب فكيف بإنسان يقول إن الرسول ﷺ غير معصوم، وأن كلامه يمكن أن يكون فيه خطأ وكذا.

أنا أحكي لكم كلاما فليكذبه، وإذا كذبه سيشهد عليه الذين سمعوه منه، أنا لن أقول أسماءهم، قال لشخصين كبيرين معروفين أنا أعلم من النبي، طبعاً السودانيين مساكين لو قال هذا الكلام لكانوا اتخذوا معه إجراء آخر، موضوعنا هذا الكلام فيه أهم من الحد؛ لأنه لو قيل لي أن أقدم هذا الكلام لمحكمة أقول ما تقدموه لأنه ستحصل فتنة يأتي العلمانيون المحامون وعلمانيون من الخارج وخواجات وحرية الفكر، نحن سنقتله بالكلام هذا الكلام الذي نبنيه على ديننا، فقال عندما خرجنا سكتنا في كلامنا واحد قال للثاني أنت سمعت ما قال الرجل ؟ قال والله أنا سمعته قال كذا، قال إذاً نرجع له ونسأله، فقال أنت قلت كذا وكذا؟! فقال لا أنا قلت: أنا أعلم من أبي! فقلت هل سمعتم سودانياً يقول أبي، أخ ثاني قال أنا أيضاً سمعته قالي لي أنا أعلم من النبي فلما رآني استنكرت الكلام قال لي في الأمور الدنيوية، فقلت له ومن الذي أدراه أنه أعلم بالأمور الدنيوية وأي أمور دنيوية؟ النبي ﷺ ربنا أطلعه على أخبار تاريخ الماضين، وربنا أطلعه على المستقبل، وربنا أطلعه على كثير من أسرار الناس في زمان النبي ﷺ ربنا مكنه من أن يخاطب الجماد ومن أن يتكلم مع النبات ومن أن يخاطب الحيوان، وأنت تقول أنا أعلم من النبي قال؟! أنا بعرف لغة فرنسية والنبي لا يعرف لغة فرنسية، طيب تعرف اللغة الفرنسية وماذا يعني ذلك حتى لو افترضنا أنك فرنسي، فأنا أريدكم أن تركزوا على هذه القضايا الكبيرة يعني واحدة منها في الحقيقة تكفي ما تنشغلوا بأنه قال إمامة المرأة كل أصل الكلام متناقض. قال واحد من إخواننا أن واحداً من جماعته نفسهم قال أنت كلامك متناقض أنت تقول ما تؤمن بأحاديث الآحاد وأحاديث إمامة المرأة هذا حديث آحاد لماذا أخذت هذه الحديث الآحاد هنا وتركت أحاديث الآحاد هنا وليس حديث آحاد فقط بل حديث فيه غرابة من علامات الضلال أن الإنسان يأخذ نصا واحداً ويهدم به بقية النصوص لازم تضع النصوص مع بعضها، وأنت إذا أخذت كلامه هذا ووضعته مع بعض ماذا يحدث؟ أنا فكرت فيه قلت واحدة تتزوج يهودي ألم يقل جائز الجواز من

يهودي وتكشف شعرها وتلبس حتى نصف الساق، وتأتي لتصلي بالناس.. هل هذا إنسان عنده عقل أو إنسان عنده احترام للدين، وبالمناسبة هذا الكلام قاله لكم أنتم ولكن الكلام الذي يقوله لإخوانه إذا خلى بهم عنده حديث بينه وبين الأمريكان قبل سنين عندما كان متمكناً كانوا ينتقدونه كانوا يقولون أنتم تتدخلون في زي المرأة وفي لبسها قال أبدا نحن ما نتدخل قالوا ما تدخلوا في لبس المرأة قال أبداً إلا إذا مشت عريانه تماما.. وفي أمريكا تمنع إذا مشت عريانة تماما. وقال قبل ذلك لجريدة بريطانية إن كل الحدود هذه ليست من الإسلام وإنما هي حدود أخذها المسلمون من اليهود، وثم الكلام الذي يدلس به على بعض الناس أنا فقط ركزت أولا على المواضيع المهمة يا أخوانا إن هذا الرجل ما دام مصراً على هذا الكلام فهو ليس بمسلم أنا قلت قبل كذا في محاضرة قلت ثلاثة أشياء هو فيها كافر، منها أنه قال إن آدم ليس أول البشر لماذا؟! طبعاً من الهوى لكن دائماً الإنسان إذا كان عنده هوى يحاول أن يوجد له أدلة من الشرع ودائماً الأدلة تكون ضده. قال خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها يعني من المرأة زوجها ليسكن إليها. طيب اقرأ آية القرآن الأخرى ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ زوجه ما هو راجله ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥]، ولما قال للملائكة: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، هل هي حواء؟ والعرب قالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا محرم على أزواجنا رجالنا هذا لعب بالدين، ربنا سبحانه وتعالى جعله دينا متناسقا ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

بل مره يقول الكلام في مكان وينقض الكلام في مكان آخر، فكلامه عن إباحة الردة أنا لا أقول لكن إباحة الردة كفر هو يقول: يقوله جماعة ثم لكي يأتوا بآيات من القرآن الكريم يدلسون بها على الناس ولكن تحرجهم الأحاديث النبوية فيبحثون لها عن أسباب وعلل ما لها علاقة بالتاريخ ولا بالحديث النبوي ﷺ قال: **(من بدل دينة فاقتلوه)** وصاحبكم هذا قال في إحدى المحاضرات في الماضي لا بأس على إنسان أن يبدل دينه. النبي ﷺ يقول: **(من بدل دينة فاقتلوه)** وهو يقول خلاف ذلك والدستور الذي وضعه لكن المادة الذي فيها القتل حصرها في القصاص لأنه لا يؤمن

بقتل المرتد ولا يؤمن برجم الزاني، فحرف حديث الرسول ﷺ وجعل في دستوركم أنتم ملزمون به أنه لا تقتلوا إنساناً إلا قصاصاً فدائماً الإنسان تحرجه الأحاديث النبوية. مرة كتب في إحدى الجرائد وأنا رددت عليه في جريدة خارج السودان قال من بدل دينه فاقتلوه أصلا مناسبة الحديث أنه كان هنالك بعض المسلمين وارتدوا وذهبوا ووقفوا مع الكفار، وصاروا يقاتلون المسلمين، فالمسلمون شعروا بحرج كيف يقاتلون أُناسا بالأمس كانوا معهم، فالنبي قال لهم: **(من بدل دينه فاقتلوه)** والقصة هذه والله اخترعها من رأسه والقصة فارغة لأنه إذا كان واحد كان معاك اليوم وغداً جاء ليحاربك تتردد في قتله بل تقتله قبل ما تقتل الثاني، والمناسبة التي قال بها، وفي واحد آخر غير صاحبنا هذا اسمه طه جابر قال كلاماً قريباً من هذا في قناة الجزيرة أن القتل لا يكون إلا مع الخروج إلا إذا خرج على الحكومة، وهذه الفكرة أنا سمعتها يوم كنا طلبة في جامعة الخرطوم وأول من سمعناه قال بها عالماً من علماء القاديانية وهو رجل غير عربي ويبدو أنه فهمها خطأ من عنوان في كتاب البخاري باب كتاب المرتدين والمقاتلين هو فهمهما المرتدين المقاتلين واستنتج منها هذه النتيجة، ما المناسبة التي قال بها ابن عباس هذه الحديث، قيل له إن علي بن أبي طالب جاءه جماعة من الزنادقة قالوا له أنت ربنا وركعوا له فكلمهم ووعظهم ما سمعوا الكلام، فقتلهم وأحرقهم. إذا جئت تقول خرجوا عليه واحد قال أنت ربنا هذا خرج عليه فيه استسلام أكثر من هذا، هذا واحد من المناسبات، المناسبة الثانية اليهودي الذي في اليمن اليهودي الذي قال يهودي راجع دينه رجل واحد ما معه جيش ولا خرج لماذا نقتل المرتد؟ قال حرية الضمير، أصلا الضمير هذا ليس هناك إنسان يدخل فيه. نحن لا نقتله لأن نقول له غير ضميرك الضمير هذا ما حد يعرفه، الآن أخوك الذي جالس بجنبك تحلف بالله أنه مؤمن ما تستطيع؛ الإيمان هذا في القلب، فنحن نشهد للناس بالظاهر فالردة هي قول أو فعل ظاهري يناقض الإيمان فنحن نعاقبه على هذا الفعل الظاهر، وهنالك حكم كثيره في هذا أحياناً الإنسان تخطر بباله شبهات، لابد أن كثيرا من الشباب جربوا هذا الواحد تأتيه شبهات وكذا إذا تكلمت بها وأعلنتها تكون كأنك ملتزم بها تقول فلان قال وفلان قال لكن إذا خفت وكتمتها وجعلتها بينك وبين نفسك وأسررت بها إلى بعض أصدقائك أنا أعرف هناك بعض الشباب في أمريكا لكن

أسروا إلي في بعض الأشياء هي كفر، وتكلمت معهم وربنا هداهم واهتدوا والحمد لله وصاروا من أصلح الناس فيحصل للإنسان كذا هذه واحدة.

الحكمة الثانية أن هذا يؤثر في أطفاله وزوجته وأقاربه وربما في أصدقائه ونحن عندنا الإيمان هذا هو أهم ما يملك الإنسان لا نحب للإنسان أن يموت كافرا ولذلك الدين يسد كل الذرائع التي تؤدي إلى الكفر، ليس هناك إنسان يستطيع أن يدخل الإيمان في قلب الإنسان، ولا يستطيع إنسان أن يدخل الكفر في قلب إنسان، حتى النبي لا يستطيع أن يدخل الإيمان في القلب؛ إنك لا تهدي من أحببت ولن يستطيع الشيطان أن يدخل الكفر في القلب (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) فنحن معاملتنا كلها معاملة مع الناس في الظاهر، أنا أريد أن أقول لكم كونوا مستمسكين بدينكم ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٤٣]، ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [البقرة: ٦٣]، الإنسان لا يكون ضعيفا كلما سمع شبهه أثرت فيه، كلما سمع رأياً أثر فيه. كن إنسانا مؤمناً اعرف أن هذا الكتاب الذي تقرأه هذا كلام الله سبحانه وتعالى الذي يعلم الغيب ويعلم ما في السموات وما في الأرض، هذا الكلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ما يكون في قلبك حرج أو شك أو كذا من القرآن الكريم ولا مما ما صح من حديث النبي ﷺ وإذا خطرت ببالك الشكوك أو أسئلة أو كذا لا تحولها إلى مشكلة نفسية اجعلها فقط في مجال الفكر وأنا أقول لكثير من الشباب عاملوا دينكم كما يعامل الساينتست الطبيعة، الآن لو واحد يدرس طبيعة أي نوع من أنواع الطبيعة ووجد مشكلة يقول والله هذه الطبيعة ما فيها فايدة كلها متناقضة مرة نقلى القانون كذا ومرة نجده كذا، ليس هناك إنسان يعمل كذا دائماً الإنسان الذي يدرس يتهم نفسه يقول أنا الذي لم أفهم ويبحث، وكذلك بالنسبة للدين كثير من الأشياء لا نفهمها والله ثم نبحث ونجتهد ونسأل العلماء ونقرأ في التفسير حتى تطمئن قلوبنا.

أقول قولي هذا وأستغفر الله.

* * *

موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى

محاضرة ألقاها الدكتور في المهرجان الوطني للتراث والثقافة الحادي عشر لعام ١٤١٦هـ.

بسم الرحمن الرحيم

الصلاة والسلام على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم أما بعد:

أيها الإخوة الكرام.

رأيت أن أحصر موضوع موقف الإسلام من الحضارات الأخرى في سؤال واحد هو: سلامٌ أم صدام؟ وأجبت عن هذا اجابة قصيرة ثم فسرتها في المحاضرة.

فالموقف الذي أراه هو أن يجنح المسلمون إلى السلام وأن يكونوا من الدعاة المخلصين له لا أعني هنا السلام مع إسرائيل وإنما أعني موقف الإسلام عامة من الحضارات والأديان الأخرى أن يكون موقفهم هو موقف السلم وأن يكون مع ذلك مستعدين استعدادا كاملاً للصدام لأن هذا في رأيي لا يتناقض مع ذلك.

المفكرون في الغرب مشغولون جداً بعلاقة الغرب بالحضارات الأخرى وكتبت مقالا قبل مدة في مجلة أمريكية مشهورة جداً على نطاق العالم اسمها "فورن أفيرس السياسة الخارجية"، كتب الأستاذ هانتغتون مقالا سماه "صدام الحضارات" وتوصل إلى نتيجة هي «أنه سيكون هناك صدام بين الغرب من ناحية والحضارتين الإسلامية والكنفشوسية من الناحية الأخرى»، يعني هاتان الحضارتان تتعاونان ضد الحضارة الغربية، **هذا رأي**.

ورأي آخر: كتبه كاتب غربي آخر أمريكي الجنسية اسمه "فوكاياما" وهو من أصل ياباني يقول فيه إن النظم السياسية والاقتصادية وصلت قمتها في النظامين السياسي والاقتصادي الغربيين؛ يعني الليبرالية في السياسة والرأسمالية في الاقتصاد إن هذا ذروة ما تتمناه البشرية، ولذلك فإن كل دول العالم سائرة نحو هذين النظامين وأسمى كتابه لذلك "نهاية التاريخ" طبعاً نهاية التاريخ في هذا المجال لا يعني أن حوادث التاريخ ستقف كما ظنه بعض الناس في هذا، هذا رأي ثانٍ.

الرأي الثالث: يقول إن الصراع في الحقيقة بدأ في داخل الحضارة الغربية نفسها فالحضارة الغربية لم تعد مكونة من ثقافة واحدة إنما هي مكونة من ثقافات، وأن هناك صراع، وأنها لم تعد بذلك هي الحضارة الغربية التي كانت قبل بضع سنين.

ورأي رابع: يقول إن التعايش السلمي بين الناس ممكن إذا ما آمنوا بالتعددية وبالديمقراطية. فلذلك أردنا أن نقول ما موقف الإسلام؟

وأنا هنا مُختلف عن الكتاب الغربيين؛ لأنني لا أتحدث وكأنني عالم اجتماع يدرس الواقع ويحلله ويتنبأ بالمستقبل، هذه ليست مهمتي في هذه المحاضرة. المطلوب مني في هذه المحاضرة أن أقول: ما الموقف الذي ينبغي لمن يريد أن يلتزم بالإسلام، أن يقفه في ظروفنا هذه وفي عصرنا هذا. فأنا إذن لا أتحدث عن واقع وإن كان الواقع في ذهني، وإنما أتحدث عن الموقف الذي أرى أنه الموقف الذي تهدي إليه آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ، فأكرر أن هذا الموقف هو أن نكون من الدعاة المخلصين للسلام، وأن نعد مع ذلك العدة لرد العدوان، ومن أسبابي لهذا :

أولاً: أن للإسلام خاصة يمكن أن نسميها بالتعبير الحديث خاصة العقلانية. أنا أعرف أن كثيراً من المتدينين لا يحبون كلمة العقلانية، بل كثير من الناس يرون أن هناك تناقضاً بين أن يكون الشيء دينياً وعقلانياً. لأن العقلانية مما يميزها هي اعتبار النتائج، فالأعمال والأقوال تقوم بالنتائج التي تنتج عنها، لذلك يقول الإنسان في موقف قولاً لا يقوله في موقف آخر، يقول ويعمل عملاً اليوم لا يعمله غداً بحسب النتائج المترتبة على هذا (هذه هي العقلانية). لكن كثيرا من الناس يظنون أن الأوامر الدينية أوامر مطلقة غير مقيدة بزمان ولا مكان ولا مصلحة ولا اعتبار لظروف ولا كذا ولا كذا، وهذا ليس بصحيح. الإسلام هو عقلاني بهذا المعنى الذي ذكرناه، ولكن العقلانية يمكن أن تقول إن هناك عقلانية شكلية وعقلانية حقيقية. وبعض الغربيين خلطوا بين الأمرين ظنوا أن العقلانيات كلها عقلانيات شكلية.

العقلانية الشكلية هي عقلانية يمكن أن يلتزم بها حتى الإنسان المفسد – يعني اللص يمكن أن يكون عقلانيا – يقدر هل سرقة الشيء الفلاني تستحق في هذا الظرف الذي هو فيه وفي المخاطر التي تحيط به أم لا؟ فتفكيره هذا تفكير عقلاني. يفكر في النتائج.

اللص أيضاً الذي يقول أسرق هذا الذي هو أقل ثمناً وأقل خطورة وأترك ذلك الذي ثمنه غال ولكن احتمال أن يقبض عليّ فيه أكبر عقلاني، ولولا أن الناس يفكرون

بهذه الطريقة لما كان للعقاب من فائدة، لماذا يقول السارق والسارقة تقطع أيديهما. لأن هذا اللص يفكر. أنا إن سرقت ستقطع يدي فيفكر فهو عقلاني بهذا المعنى أيضاً، الشخص الانتهازي يمكن أن يكون عقلانياً بل كثير من الانتهازيين من أكثر الناس عقلانية. نحن نراه يغير موقفه، ويغير انتماءه اليوم مع هذه الجماعة غدا مع تلك الجماعة، اليوم مع هذه الحكومة غداً مع تلك الحكومة؛ لأن له هدفاً يراه بحسب الواقع أن اليوم يحققه هذا الانتماء، غداً يحققه موقف آخر فهو عقلاني، لكن هذ العقلانيات يمكن أن نقول إنها عقلانيات شريرة. والذي يميز الإسلام أن عقلانيته يمكن أن نصفها بأنها عقلانية خيرة. لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى وضع لنا الأهداف التي نتغياها من أعمالنا وأيضا هدانا إلى الوسائل الأساسية التي نلتزم بها في بلوغنا لتلك الغايات فهي عقلانية لكنها عقلانية خيرة وليست عقلانية شريرة. المصالح التي يتغياها المسلمون حصرها كما تعلمون بعض العلماء في أنها حفظ الدين وحفظ العقل وحفظ المال والنسل والعرض وهكذا. فهذه هي الأشياء التي يتغياها المسلم ويجعلها معياراً للعمل هل يُعمل أولا يعمل؟ ما النتائج التي ستحدث عن العمل اعتباراً باعتبار هذه الأهداف. أما المصالح هذه فقد جعل الله وسائلها، بعضها ثابتة لا تتغير إلا في ظروف شاذة جداً مثلاً قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، ثم قال: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨] ثم الله سبحانه وتعالى لا يرضى للإنسان أن يقول كلمة الكفر ولكن قال: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]. ومنها ما فيه سعة اختيار، اختيار يراعى فيه حال الاختيار ومدى تحقيق الوسيلة للغاية المعنية في الظرف المعين، ومنها وسائل ترك الشرع تحديدها للناس مراعين تلك الأحوال.

ومن الدلائل على هذه العقلانية أن الله سبحانه وتعالى أمر المسلمين في مرة بأن يكفوا أيديهم ويقيموا الصلاة ولا يقاتلوا عدوهم في مرة ثانية أذن لهم بالمقاتلة، وفي مرة ثالثة أمرهم بالقتال، رضي من أقوام بالجزية ولم يرض من آخرين، عاهد الرسول ﷺ أقواماً ولم يعاهد آخرين، هم ﷺ ذات مرة أن يتنازل للكفار عن بعض أموال المسلمين، وهكذا. الذي ينظر في هذه المواقف إذا سردت هكذا سرداً يظنها متناقضة

متضاربة. لكنه إذا نظر في ظروفها وملابساتها علم أن وضع واحد منها موضع الآخر هو التناقض المنافي للعقلانية. نعم بعض العلماء قالوا إن آية القتال نسخت كل هذا، بل بالغ بعضهم فقال نسخت قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، لكن هذا القول ما أخذ به المسلمون بل رأينا بعد موت النبي ﷺ كانت الدعوة بالتي هي أحسن، وكان قتال في مرة وكانت معاهدات في مرة وكانت مسالمة في أخرى، ورضي المسلمون في مرة بالتنازل وهكذا. كل ما حدث في زمن النبي ﷺ حدث أيضاً بعد زمانه ﷺ، فإذا نظرنا إلى أحوالنا هذه بهذه النظرة العقلانية سنقول إن السلام من مصلحة المسلمين وسيتبين هذا إن شاء الله في بقية الأسباب.

الخاصة الثانية: التي تجعل المسلم يميل إلى السلام هي موقف نظرة الإسلام إلى الإنسان بينما ترى بعض النظريات أن الإنسان يولد شريراً ووارثاً للخطيئة، ويرى بعضها أن الإنسان محايد بين الخير والشر، ويرى بعضها أن الإنسان لا فطرة له. بل فطرته إنما تحددها الظروف الاجتماعية والاقتصادية وكذا وكذا، وبينما نرى بعض النظريات صارخة في تعصبها العنصري وبعضها يستخفي وهكذا. نجد ان الإسلام واضح جداً في أن الناس مفطورون على الخير ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-٨]، ويوضح الرسول ﷺ هذا في حديثه المشهور: **(كل مولود يولد على الفطرة)** وفي رواية: **(على هذه الملة)** فنحن نعتقد أن كل مولود هو معنا. كل مولود يولد مسلماً والانحرافات هذه طارئة عليه. فإذا عاش الناس في الإسلام واستطعنا أن نوصل هذه الدعوة إلى الناس فنحن نخاطبهم بهذه الفطرة التي فطرهم الله سبحانه عليها، ولذلك كان من سياسة الإسلام أنك تحاول بقدر الإمكان أن توصل هذا الحق إلى الناس ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]، بل إن هذه الفطرة لا تتغير أبداً ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، فهي لا تتغير. ينحرف الإنسان – يسير ضدها كذا، لكنها هي في حقيقتها لا تتغير. ويظل الإنسان الذي لا يكون اعتقاده وعمله متمشياً مع فطرته يظل في نزاع، ويعلم أنه على باطل إلا قلة من الناس تصل إلى درجة لا تعرف معروفاً أو تنكر منكراً. إن تأكيد الإسلام على ثبات الفطرة وخيريتها يجعلها هي السابقة على الانتماءات الدينية الطارئة

تلك والثقافية والحضارية، فليست الثقافات والحضارات هي التي تصنع فطرة الإنسان وتحدد سلوكه وطرائق تفكيره كما تقول بذلك بعض النظريات الغربية، وإنما فطرته هي المعيار الذي يمكنه من الحكم على تلك الثقافات والحضارات. فما وافقها كان موافقا للإنسان وسبباً لسعادته وما خالفها كان من أسباب شقائه. ولذلك فإن المسلم لا يضيق بوجود الناس على الأرض مهما كانوا مخالفين له، بل يظل يطمع في أوبتهم إلى الخير الذي يدعوهم اليه.

ثالثاً: ان أقيم ما يقدمه المسلم لغير المسلم هو دعوته إلى هذا الحق الموافق لتلك الفطرة. لذلك كانت الدعوة من أجل الأعمال التي يعملها المسلم، وكان جزاء الله عليها من أوفر جزائه سبحانه، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، وقال ﷺ: **(فو الله لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم)** لكن الهداية أمر قلبي لا يمكن أن يجبر الإنسان عليه، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام فإنه واضح دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه. بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة. ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً. لذلك لا يستعمل في الدعوة إليه إلا الأساليب التي فيها احترام للإنسان وافتراض أنه إنسان عاقل ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ والحكمة يدخل فيها كما قال العلماء إقامة الأدلة على الدعاوى الإسلامية ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾، يدخل فيها بيان كل ما يترتب على قبول الحق وكل ما يترتب على قبول الباطل، قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، والمجادلة بالتي هي أحسن يدخل فيها أن تستمع إلى حججه وإلى اعتراضاته وأن لا تحرجه في النقاش وهكذا إلا من ظلم وهذه في أحوال شاذة».

السبب الرابع: أن الإسلام يميز تمييزاً واضحاً بين الحكم على المعتقدات ومعاملة المعتقدين. ففي المعتقدات ليس هناك أنصاف حلول، ليس هناك مجاملة. كل ما كان

نقيضاً للإسلام فهو باطل، وكل ما جاء به الإسلام أو لزم عنه عقلا فهو حق وكل ما لزم عن باطل فهو باطل، سواء قال به مسلم أو قال به كافر فهذا هو الموقف من المعتقدات، وأهم المعتقدات التي يقسم الإسلام الناس على أساسها هي كما تعلمون المعتقدات المتعلقة بالخالق سبحانه وتعالى هل هو موجود أو غير موجود؟، هل يعبد وحده أم يشرك في عبادته غيره؟، هل هو سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى الصفات؟ أم يشاركه في ذلك أحد غيره؟ هل أرسل رسلاً وأنزل كتباً يجب أن تتبع؟ أم ترك الناس سدى؟ فما كان من الجانب الأول في هذه الاختيارات كلها فهو على الحق منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى الأرض إلى الآن. وما كان على الجانب الثاني فهو من أهل الباطل. أما بالنسبة للناس فيختلفون، مثلاً الذي يدخل النار هو الكافر الذي عرف الحق وأباه ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٧-٨]. فإذن كل من لا ينطبق عليه هذا الكلام، كل من لا يقول يوم القيامة، بلى قد جاءنا نذير. لا يدخل النار ابتداءً وهؤلاء هم أهل الفطرة. فمهما كانوا على ضلال وكما قال أحد العلماء أظنه ابن تيمية قال في الحديث (إن الله نظر إلى أهل الأرض عربهم وعجمهم فمقتهم إلا بقايا من أهل الكتاب. فقال مع مقته لهم قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وربما أضيف قسماً ثالثاً: وهو وجدنا عجبا من الناس في أمريكا بهذه الطريقة. هو إنسان بقي على فطرته حتى بعد أن كبر ورأى هذه الأديان التي دُرسها ما قبلها، وعاد إلى فطرته وآمن بأن الله واحد وأنه وحده الذي ينبغي أن يعبد لكن عبده بالطريقة التي دلته عليها الفطرة. لا يعرف إلا الدعاء إلا أن يعمل بعض أعمال الخير لا يعرف شيئاً عن الإسلام أبداً، لا تظنوا أن الناس يعرفون الكثير عن الإسلام، أناس في داخل واشنطن لا يعرفون الإسلام، شباب أسلموا قالوا لي كنا نعتقد أن الإسلام دين السوء فقط، فهؤلاء أنا في رأيي ناجون لأنهم ماتوا على الفطرة والحديث يقول: **(إني خلقت عبادي حنفاء)** الحديث القدسي وفي بعض الروايات. حنفاء يعني على هذا الملة، فإذا بقي على هذه الملة فهو إن شاء الله من الناجين حتى الكفار معاملتهم في الآخرة تختلف عن معاملتهم في الدنيا، فلذلك ينبغي أن نفرق هذه

التفرقة. بالنسبة للكفار في الدنيا. للإسلام شيء يمتاز به على كل الأديان والأيديولوجيات الأخرى وهو أنه يعترف بما يسمونه الآخر. ويعترف بوجود الآخر الله سبحانه وتعالى قال لرسوله ﷺ. ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. ما قال له لذلك مهمتك أن تقتلهم جميعاً. الناس ولو حرصت لن يكونوا مؤمنين، ولذلك فصل الإسلام تفصيلاً لم يفصله دين ولا مذهب آخر في كيفية معاملة هؤلاء المخالفين للمسلمين إذا أردتم أن تعرفوا قيمة هذا الاعتراف بوجود الآخر. قارنوا الإسلام بالمذهب الشيوعي مثلاً، الشيوعية من اعتقاداتها أن الناس في النهاية سائرون حتماً إلى الشيوعية ولذلك كل من يقف ضدها فهو يقف ضد حركة التاريخ، وإذا فكر الإنسان بهذه الطريقة فسيقول إذن أنا عندما أقضي على هؤلاء أساعد حركة التاريخ لأن هؤلاء ضدها، حتى أنا قلت رأي فوكاياما هذا الذي يقول إن الناس سائرون حتما إلى النظامين الليبرالي والرأسمالي فيه رائحة هذه الفكرة الشيوعية. الأديان هذه النصرانية واليهودية المحرفة الآن ليس فيها شيء عن الإسلام مع أنها في أصلها فيها شيء. فالدين الوحيد الذي يتكلم عن الآخر ويعلمنا وكيف وماذا نفعل إزاءه هو الإسلام.

خامساً: السلام من البديهيات، أنه يساعد الناس على أن يحققوا مصالحهم المشتركة وأرضنا هذه كما صار التعبير مشهوداً صارت كالقرية الواحدة وهناك مشكلات يجب أن يتعان الناس على حلها، مشكلات تواجه كل الناس مشكلات التلوث مشكلات المخدرات مشكلات البرامج التليفزيونية هذه التي تذاع على العالم كله وهكذا.

فصارت هنالك مشكلات يجب أن يتعاون الناس على حلها جميعاً مسلمون كانوا وغير مسلمين. وزيادة على ذلك السلام يهيئ للناس أو ييسر عليهم أن يتعاون كل منهم مع من يريد من البشر لكن المشكلة في عصرنا والتي أراها تمنع من هذا الوضع المثالي هو موقف الحضارات الغربية. كثراً من الغربيين خائفون جداً من فقدان سيطرتهم هذه التي ظلت سنين، ولذلك صار همهم أن يمنعوا الآخرين من أن يتطوروا كما تطوروا هم لأنهم صاروا يعتقدون أن الناس إذا تطوروا وصارت لهم قوة فهذا خطر

على الحضارة الغربية. فهذه في رأيي المشكلة. ولذلك أنا تعجبت من كلام الأستاذ هانتغتون وأظنه موجود عندنا هنا. عندما قال إن الصراع سيكون بين الإسلام والكنفوشية من جهة والحضارة الغربية من جهة أخرى مع أنه هو نفسه يقول إن أهم مكون للمدنية أو الحضارة هو الدين فقلت في نفسي هل معنى ذلك أن الدين الإسلامي أقرب إلى الكنفوشية منه إلى اليهودية والنصرانية؟ لا يقول أحد بذلك أبدا يعرف الإسلام ويعرف هذين الدينين ويعرف الديانة الكنفوشية.

الإسلام أقرب إلى اليهودية والنصرانية إلى الكنفوشية اذن السبب سبب التعاون إذا حدث لن يكون هو الدين، وإنما معاملة الغرب لأصحاب الحضارات الأخرى لأنك إذا وقفت مني هذا الموقف فأنا سأضطر لأن أتعاون مع من هو في موقفي نتعاون نحن جميعاً عليه.

سادساً: إنه لا يمكن لإنسان عاقل يعرف ما لا يزال العالم ينتجه ويخزنه من أسلحة الدمار، ويعرف الأضرار البالغة الناتجة عن استعمالها، إلا أن يكون مع الداعين إلى تجنب الحروب، محلية كانت أو عالمية. لكن تجنب الحروب يقتضي تجنب أسبابها من كل أنواع الظلم والعدوان. هذا أمر لا تجدي فيه القرارات السياسية وحدها، بل ينبغي أن تتضافر الجهود لجعله جزءاً من ثقافة الناس وقناعاتهم التي يلتزم بها قادتهم ورؤساؤهم.

سابعاً: والمسلمون مؤهلون لأن يؤدوا للبشرية خدمة كبيرة في هذا المجال لأن دينهم يأمرهم بالصدق والوفاء والعدل حتى مع الأعداء، كما يأمرهم بالوقوف إلى جانب الحق وكف المعتدي ولو كان أخاً مسلماً. إن المسلمين إنما اجتمعوا على الحق فموالاة بعضهم لبعض لا تكون إلا لنصرة الحق، أي إنهم مأمورون بأن لا يتعاونوا على بالطل حتى لو كان ضد عدو لهم يمقتونه أشد المقت: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]. بل إن الموالاة تقتضي ليس فقط عدم التعاون والتناصر على الإثم والعدوان، وإنما تقتضي أن يمنع بعضهم بعضا من ارتكاب الظلم والعدوان، وإن أدى ذلك إلى حمل السلاح على المعتدي المسلم:

قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]. وقال ﷺ: **(انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)** قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: **(تأخذ فوق يديه)**.

ثامناً: وهذه فكرة أرجو أن تكون صحيحة، أنا في رأي أن العلم الطبيعي يعطي المسلمين الآن فرصة لقبول دينهم أكثر مما يعطي أي دين آخر. العلم الطبيعي هذا يتمثل في منهج عقلاني وفي حقائق اكتشفها العلم وفي تقنية بنيت على هذا العلم. الناس في الغرب إلى الحرب العالمية الثانية كانوا مولعين جداً بالعلم هذا الطبيعي وكانوا يظنون أنه سيحل محل الدين لكن عندما حصلت الحرب خيبت أملهم. وبدأ الناس يرجعون يفكرون في الأديان مرة أخرى. وفي أيامنا هذه صارت الدعوة صار الرجوع إلى ما يسمى بالأصولية ظاهرة عالمية. فالأصولية كما يكتب عنها المفكرون الغربيون ويبحثونها ليست ظاهرة اسلامية فقط وإنما ظاهرة عالمية. كل الناس بدأوا يرجعون إلى دينهم وذلك لأنه خاب أملهم في أن يحل هذا العلم الطبيعي محل دينهم. لكن هنالك أشياء في هذا العالم الطبيعي لا يمكن أن يتنازل عنها الإنسان المثقف وهي العقلانية هذه، والحقائق التي اكتشفها العلم فلا يمكن أن يؤمن الإنسان بدين يرى فيه مناقضة واضحة لما علم بالضرورة أنه حق. أو يرى فيه تناقضاً وهو صارت العقلانية يعني عقلها هي أصلها في فطرة الإنسان لكن علق هذا العلم في ذهنه. فلا يمكن أن يؤمن ويرتاح إلى دين يقول له كلاماً متناقضاً، ولذلك أنا في رأي إذا كان هنالك سلام واستطعنا أن نوصل كلمة الإسلام إلى المثقفين ونعني كبار المثقفين حتى من الشباب وكذا في الجامعات ولأن كل الناس متأثرون بهذا التفكير العلمي إذا استطعنا أن نوصل الإسلام اليهم. فأرجو أن يكون هذا من أسباب قبولهم للإسلام، وأقول هذا ليس ظناً، وإنما أقوله عن تجربة مع بعض الشباب. فلذلك يقولون الآن إن أسرع الأديان انتشاراً في أمريكا هو الإسلام، وقريباً إن شاء الله ستكون الحضارة

الغربية التي توصف بأنها الحضارة النصرانية اليهودية بل ستضاف إليها كلمة الإسلامية، لذلك أنا أرى أن السلام سيساعد على هذا، لكن مع ذلك واختصر الكلام عن ضرورة إعداد القوة. الإسلام دين واقعي، يعني فرق أن تقول أريد السلام وبين أن تجعل الآخرين مؤيدين للسلام، ونحن نتعلم من كتاب ربنا ومن واقعنا حقائق.

١- قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فالناس كل إنسان مهما كان على باطل يرى أنه ما هو عليه هو الحسن (زين لهم).

٢- وإنه كما كان غيرهم أقرب اليهم كان أحب إليهم: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء:٧٣].

٣- وأن بعضهم لا يرضون رضى كاملاً إلا عمّن كان على شاكلتهم ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، أريد أن أقول أيها الإخوة كلمة حاضرة، عندما يقول القرآن اليهود والنصارى هذا لا يعني كل يهودي على وجه الأرض وكل نصراني على وجه الأرض، وإنما اليهود والنصارى المعنيون الذين اعتقدوا اعتقادات معينة يعني عندما يقول القرآن مثلا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، ما كل يهودي على وجه الأرض يقول عزير ابن الله ولكن كان هنالك طائفة من اليهود تقول هذا. وعندنا الآن في الغرب أناس كثيرون ينتمون إلى النصرانية ولكن لا تنطبق عليهم بعض هذ الصفات لأنه ليسوا النصارى الذين وصفهم القرآن الكريم.

٤- إن حرص بعض هؤلاء على أن يكون غيرهم معهم يدفعهم للضغط على المخالف – ولا سيما مخالفا يساكنهم – يضغطون عليه بأنواع من الضغوط تصل أحياناً حد الضرب أو السجن أو النفي أو حتى القتل: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الانفال: ٣٠]. ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف:٨٨].

٥- إن من أهل الأديان والحضارات من يعد دينه أو حضارته من خصائص قوميته ولا يرى الآخرين جديرين بأن يشاركوه فيها بل لا يرى أن يعاملوا معاملة الناس، بل يرى أنه غير ملزم بأن يلتزم حدود المبادئ الأخلاقية في معاملتهم: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

٦- كثير من أهل الحضارات يريدون لحضارتهم أن تكون هي الغالبة وهي المسيطرة وأحسن مثال على هذا الحضارة الغربية الراهنة وقال الأستاذ هانتغتون في مقاله الذي أشرت إليه تكلم بصراحة مذهلة، قال القرارات التي تتخذها الأمم المتحدة - اسمعوا هذا الكلام - أو مجلس الأمن أو صندوق النقد الدولي والتي تعبر عن مصالح الغرب. تبرز في العالم أنها المعبرة عن مصالح المجتمع الدولي، بل إن عبارة المجتمع الدولي سارت هي نفسها الاسم الملطف الذي منح الشرعية لكل الأعمال المعبرة عن مصالح الولايات المتحدة وسائر القوى الغربية. فعن طريق مؤسسة النقد وسائر المؤسسات الاقتصادية الدولية يسعى الغرب لخدمة مصالة ويفرض على الأمم الأخرى السياسات الاقتصادية التي يراها مناسبة. ويقول في نفس المقال: ان الهدف من الحد من انتشار الأسلحة كان لتحقيق توزان عسكري مستقر بين الولايات المتحدة وحلفائها والاتحاد السوفيتي وحلفائه. أما في عالم ما بعد الحرب الباردة فقد صار الهدف الأول من الحد من الأسلحة هو منع الدول غير الغربية من تطوير قدرات عسكرية قادرة على تهديد المصالح الغربية. يحاول الغرب أن يحقق هذا عن طريق الاتفاقات الدولية. والضغوط الاقتصادية والحد من نقل تقنية السلاح والعتاد. هذا ليس كلام والضغط الاقتصادية والحد من نقل تقنية السلاح والعتاد. هذا ليس كلام عدو. هذا كلام من أهل البلد وهو عندنا هو الآن.

٧- فإذا لابد للمسلمين أن تكون لهم قوة رادعة على الأقل.

٨- لقد كان من دعاء إبراهيم عليه السلام وقومه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الممتحنة: ٥]. وكان من دعاء موسى عليه السلام وقومه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ

ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس:٨٥]. قال ابن كثير: «أي لا تظفرهم بنا وتسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنه على الحق ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك. من أكثر ما يصد الناس عن الحق أن يروا أهل الحق ضعفاء وخصوصاً إذا كانوا ضعفاء لدرجة أن يسيطر عليهم أهل الباطل. ومن هنا كان إعداد القوة الرادعة أمراً مكملا للدعوة إلى الحق، لأنه بغير القوة يكون الحال صاداً عما يدعو إليه المقال. إن واقع عالمنا يؤكد لنا أهمية هذا الذي يهدينا إليه كتاب ربنا. إن دول العالم تتسابق الآن كلها على اقتناء السلاح. منها ما يفعل ذلك بغرض الدفاع عن نفسه في حالة الاعتداء عليه، ومنهم من يفعل ذلك لمجرد الردع، وهكذا يقول أحد الكتاب الأمريكان في كتاب له اسمه النهوض إلى العالمية. كيف تغيرت سياسة الولايات المتحدة من سياسة محلية إلى سياسة عالمية؟. يقول إنه بعد نصف قرن من الحرب العالمية الثانية أصبح للولايات المتحدة جيش ضخم من القوات العاملة البرية والبحرية والجوية، وأن ميزانية وزارة الدفاع زادت عن ٣٠٠ بليون دولار، وأنه أصبح للولايات المتحدة تحالفات عسكرية مع أكثر من خمسين أمة. وأن لها أكثر من ميلون جندي من المشاة والطيارين والبحرية في أكثر من مائة قطر هؤلاء مليون ليس في الولايات المتحدة هؤلاء في خارج الولايات المتحدة، وأن لها مقدرة هجومية كفيلة بأن تدمر العالم عدة مرات، وأنها استعملت قوتها العسكرية للتدخل في الهند الصينية ولبنان وجمهورية الدومينيكان، وجرانادا، وأمريكا الوسطى والخليج، وأنها أعانت على غزو لكوبا، وأنها وزعت كميات كبيرة من الأسلحة على دول صديقة في العالم وأنها خاضت حروباً باهظة في كوبا وفيتنام. ولكن على الرغم من كل الأموال التي صرفت على الأسلحة، ومهما كان بعد المدى الذي بسطت عليه أمريكا قوتها، فإن الأمن القومي لأمريكا في خطر دائم».

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

س: يقول نحن نعلم أن الإعلام في الدول العربية والإسلامية قد استطاع إبراز الدور الإسلامي الواضح من الإرهاب والإرهابيين، ولكن لا زالت بعض وسائل الإعلام الغربية تتشبث بالنظرة الخاطئة. أن كل إرهابي يتبع جماعة إسلامية. فماذا تقولون في هذا الصدد؟ وماذا تقترحون لتحسين صورة الإسلام في الغرب؟

ج: لابد أن تكون الكتابة في الإعلام الغربي إن أمكن ذلك، أما ما يكتب من الكلام في الصحف والإذاعة في الإذاعات والتليفزيونات العربية فلا يصلهم. وكثير من المنصفين في الدول الغربية يقولون إن الإعلام الغربي يظلم المسلمين ليس في هذا بحسب بل في أشياء كثيرة مثلاً: كان بعض الناس يسخر من وصف قنبلة باكستان التي مازالت فكرة ربما سماها القنبلة الإسلامية فقيل لهم لماذا لم تسمون قنابلكم بالقنبلة اليهودية والقنبلة النصرانية. فالإعلام فعلاً ليس في صالح المسلمين.

س: ذكرتم كلمة الأصولية وهي مصطلح يعني معاني مختلفة للكثير من الأفراد فأرجو إيضاح معناها عندكم.. وشكراً.

ج: أصلاً الأصولية هي تعبير نصراني حديث بعض النصارى كتبوا كتباً سموها الرجوع إلى الأصول، فلذلك سموا بالأصوليين وهؤلاء مازال لهم تأثير كبير في أمريكا بل بعضهم صار الآن في الانتخابات الأخيرة صار له وجود وتأثير حتى في السياسة فأصبح هو الرجوع إلى الأصول هذا هو معناه. عند الغربيين هي كلمة ذنب لأن عندهم الرجوع إلى الأصول معناها أن يأخذ كلمات الكتاب، يسمونه الكتاب المقدس يأخذها على ظاهرها وهم يعتقدون أن هذه الكلمات إذا أخذت على ظاهرها ففيها أخطاء واضحة لا يمكن أن يقبلها إنسان، واضحة يعني مخالفة للعقل أو مخالفة للواقع أو مخالفة لما اكتشفه العلم، فيرون بذلك أن هذا شؤم ذميم مع أنه أنا قلت لهم في إحدى المحاضرات إن الأصولية إذا عرفتم الأصولية بهذا التعريف فكل المسلمين أصوليون. كل المسلمين يعتقدون أن القرآن الكريم كلام الله من أوله إلى آخره. لكن النصارى يعتقدون -ومعهم حق- أن الإنجيل الذي عندهم من أوله إلى آخره ليس كلام الله؛ لأنهم يقولون نحن نعرف أن فيه كلاماً ليس بصحيح إن العالم سينتهي سنة كذا وما انتهى، أشياء واضحة أنها ليست بصحيحة فيقولون لا يمكن أن يكون كلام الله، فقلت لهم بتعريفكم هذا كل المسلمين أصوليون، صارت تطلق على بعض الإسلاميين، صارت أيضا لها معانٍ زائدة على هذا لكن هذا معناها الأصلي. هذا المعنى الذي قصدته بمعنى عندما قلت إنها صارت ظاهرة عالمية درستها جامعة شيكاغو، وأصدروا ثلاثة مجلدات كبار عن الأصولية في العالم في كل الديانات. لكن التي اشتهرت الأصولية الإسلامية.

س: لماذا الصراع القائم في جميع الحضارات هو صراع الأديان؟ وما هي قصة رد السفير الألماني في المغرب على كتاب نهاية التاريخ؟

لدي طلب من الأخ الدكتور/ مرزوق بن صنيتان فليتفضل:

شكراً لفضيلة المحاضر على الكلمة عن الإسلام والغرب وأظن موضوع المحاضرة كان موقف الإسلام من الغرب موقف الإسلام الشرعي من الغرب. وأنا أشكره على ما قدم وإن كنت أظن أن ما كنت أتوقع في ذهني لن يأتي لأني لم أحدد الموقف وفي ظني أن موقف الإسلام من الغرب معروف للجميع لكن موقف الإسلام نفسه من الغرب هو الذي وجدته أن يتفضل المحاضر ويزيده وضوحاً. فنحن كما تفضل أو كما يقول الناس قرية صغيرة أو العالم تحول إلى قرية صغيرة ونحن من سكان هذه القرية. وأنا إذا سمح لي المحاضر وسمح لي الأخ مدير الجلسة أن أزيد توضيحاً آخر أو تقنينا للقرية وأقول إن العالم أصبح بيت عائلة واحدة ولكن هذه العائلة أنجبت الأولاد بنين وبنات فتربوا مختلفين في أماكن مختلفة فيهم من كان فلاحاً وفيهم مزارعاً وفيهم من كان مصارعاً وفيهم من كان مثقفاً متعلماً ثم جمعوا في هذا البيت مع اختلاف تخصصاتهم وقدراتهم وثقافتهم وطلب منهم أن يعيشوا في هذا المسكن الصغير. العالم الإسلامي فرد في هذه العائلة ومتميز عنها وإذا تحدثنا عن الإسلام وعن المسلمين وعن الغرب تحدثنا عن منطلق نعرفه وهو ما نعرف نحن عن الإسلام وموقفنا من الإسلام وقدرتنا على فهمه. لكن ما فهمنا موقف الغرب منا نحن كمسلمين وبالتالي عجز المسلمين الواضح اليوم عن التعامل مع الغرب وهو في هذا المنزل الضيق. الإسلامي الآن يتعامل مستقلاً بوعيه وثقافته عن بيت يعيش فيه، فما رأي المحاضر الكريم في هذا الموقف؟ شكراً.

أولاً عن الملاحظة الأولى: نعم كان مطلوباً مني أنه رؤية شرعية، ولكن أنا قلت إذا جعلتها كلاماً مجرداً، مجرد نصوص. أن الإسلام يقول عن اليهودية كذا وعن النصرانية كذا ويقول عن كذا، رأيت أن هذا قد لا يكون مناسباً مع الموضوع العام للمهرجان الثقافي وهو موقف الإسلام من الغرب فأردت أن يكون الحديث أولاً محدداً بدلا من أن يكون موقف الإسلام في كل شيء. لأنه إذا تحدثنا عن كل شيء سنتحدث عن الزواج من أهل الكتاب وعدم الزواج من كذا وأخذ الجزية من هؤلاء

وعدم أخذها من هؤلاء وكذا وكذا وأردت أن أحصرها في الموضوع الذي يناقشه الناس الآن وهو موضوع السلام أم الصدام؟ هذا الذي هو جعلني أفكر فيه.

لست أظن يا أخي أني كنت فهمت كلامك فهماً صحيحاً. المشكلة ليست من المسلمين فحسب. كل الناس الآن فهمهم لبعض فيه أخطاء، من المؤكد أن تصوراتنا واكتشفت هذا بعد أن عشت في أمريكا مدة من الزمان وصرت متفائلا جداً من أن يعني الآن أنا كثير التفاؤل بأنه إذا عشنا في سلام إن شاء الله سينتشر هذا الدين في أمريكا وفي سائر البلاد الغربية. والذي أخشاه ليس أن تقوم حروب أو كذا، وإنما أن تحدث فتن باسم المسلمين من بعض المسلمين، أو ممن يُدخل في صفوف المسلمين ويقوم بأعمال أو كذا تنفر الناس من الدين. لكن إذا ساد هذا النظام الديمقراطي الذي يعطي الناس الحرية في الدعوة والتزامنا نحن بالدعوة السليمة وبيان الحُجج إن شاء الله ينتشر الدين.

إذا كنا نحن مخطئين هم أيضاً مخطئون، كثير منهم تصوراتهم للمسلمين تصورات في غاية الجهالة أو بعضها في غاية السذاجة وبعضها في غاية العداوة، فإذا كنا نحن مخطئين فهم أيضاً كثير منهم مخطئون، نحن نقرأ عنهم ونهتم بهم وكثيرون منهم لا يريدون أن يقرأوا شيئاً عن الإسلام.

بعض الشباب الذين أسلموا قالوا ما كنا نعتقد أن هناك كتاباً غير الكتاب المقدس هذا يقال أنه منزل من عند الله يعني ليس صحيحاً أو صواباً ما في كتاب حتى يقال بزعم أهله أنه منزل من عند الله، فهناك جهل عجيب بالإسلام.

س: فهمت من خلال الحديث أن الإسلام ذو ميزة تكتيكية، وأرجو أن أكون مخطئاً. فكما هو معلوم أن العبادات في الإسلام توقيفية، وقد قال الرسول ﷺ سأقرأ ما كتبه وإن كنت أعتقد أنه غير صحيح -: **(كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد)**، أو كما قال كي يستدرك لنفسه. وما جاء في بعض أعمال الصحابة يدخل في باب الاجتهاد الواثب حتى يواكب الإنسان تغيرات الزمان، ويلبي احتياجاته على مر العصور. أما تعاون النقل مع العقل فهذا صحيح، والعقل الصحيح لا يتعارض مع النص الصحيح. أرجو توضيح ذلك؟

ج: ما عرفتم المشكلة، لأنه حتى العبادات يا أخي، أنا قلت إن هناك وسائل ثابتة لا تتغير، لكن حتى هذه يراعى فيها يا أخي النتائج حتى الاعتقاد. تقرأ في القرآن الكريم حتى عن المعتقدات لا يعطيك الأدلة فقط. وإنما يعطيك ما سيترتب على إيمانك بهذه الحقائق، هذه هي العقلانية. يعني إذا آمنت ما النزعة التي سينتج عن هذا الإيمان في هذه الحياة الدنيا، ثم في الآخرة. إذا كفرت ما الذي ينتج عن هذا، حتى الصلاة يتحدث عن نتائجها، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، يعني ما فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر. وتراعي حتى في هذه العبادات تراعي الظروف. فالصلاة في السفر غيرها في الحضر، الصلاة في الحرب. ما قال أنا أمرتكم بالصلاة فصفوا وأنتم في مواجهة العدو. وقفوا ولا يهمنكم أنا معكم توكلوا وصلوا. فقد فصل تفصيلا. كيف تصلون وأنتم في موقف الحرب بل قال العلماء إنه إذا لم يمكن هذا فكل إنسان يصلي لنفسه فهذه هي التي أريد أن أركز عليها. هذه هي التي أسميها العقلانية، التي تدل عليها النصوص ويدل عليها عمل النبي ﷺ وهي التي يفتي بها عظماء علمائنا وكبار علمائنا ويضيق بها بعض المبتدئين من الشباب المتدينين. يميل الإنسان المتدين الذي لم يتعمق في دينه إلى أن يأخذ النصوص منعزلة تماماً من نتائجها. وتناقش بعضهم فتقول له. يعني مثلا يا أخي لا تعمل العمل الفلاني هذا. لأن نتائجه كذا وكذا. ما حصل منه إلا ضرر يقول لك لا أنا لا يهمني. ربنا قال قاتلوهم وأنا أقاتلهم. ربنا ما قال بغض النظر عن الظروف وبغض النظر عن ما ينتج عن القتال، فكل عمل لابد من النظر إلى نتائجه.

أنا لا أريد أن أذهب -والعياذ بالله- مذهب الذين لا يريدون الدين إطلاقاً والذين يريدون أن يتركوا كل وسائل الدين ويقولون مثلا إن الإسلام جاء بالعدالة وجاء بالمساواة وجاء بكذا وكل ما يحقق هذا فهو من الدين. ولذلك لا نلتزم بزكاة ولا بتحريم ربا لا لا أقول هذا. هذا تطرف والآخر أيضا تطرف، هذا غلو في الدين، وهذا بُعد عن الدين، والأمر الوسط هو الذي تدل عليه النصوص ويدل عليه كلام كبار علمائنا.

الأخ عبد الله بن عودة العطوي. لا أدري هل سؤال هو أم تعقيب؟

يقول ذكرت فيه أن الإسلام يذكر الآخر نقداً على اليهود لا والنصرانية في عدم ذكرها للإسلام هو أمر طبيعي كما كتبها في علاقة السابق باللاحق، وكذا عرفنا أن اليهودية بشرت بالإسلام.

الأخ عبد الله هل هذا سؤال أم تعقيب لأنك أشرت على كلمة تعقيب ؟.

نعم أنا قلت اليهودية والنصرانية الموجودة الآن لا تتحدث عن الإسلام. لكن اليهودية في أصلها. بل كل دين نازل من السماء في أصلها. بل كل دين نازل من السماء في أصله تحدث عن الأديان الأخرى، كل رسول أمر بما أمرنا به النبي ﷺ، نحن من أركان إيماننا أن نؤمن بالرسل جميعاً فهم أيضاً كل رسول أمر من معه من المسلمين، كلهم مسلمون. كل أتباع المسلمين أن يؤمنوا بكل الرسل الذين سبقوه والذين سيأتون بعده ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، هذا نص واضح بالنسبة للرسول ﷺ. لكن الرسل كما قلت أمروا أقوامهم بأن يؤمنوا بكل رسول الذي يؤمن بكل الرسل ما عدا واحداً لا يعتبر مؤمنا بالرسل. فهذا حذف أو صرف أو كذا. المهم أن هاتين الديانتين موجودتان الآن ليس فيهما شيء عن الاسلام. بل الكنيسة الكاثوليكية غيرت لأن عندها الحق حسب دينها أن تصدر أشياء دينية تكلمت عن اليهودية وغيرت بعض المواقف منها ولا أذكر إلا إذا كان بعض الاخوان يعرفون هذا؟

س: وظهرت في ألمانيا في الفترة الأخيرة كتب بأقلام علماء اللاهوت تشكلت بقوة في القول بأن المسيح هو ابن الله. هل هذا هو جزء من اللاعقلانية في الغرب؟ وأن على المسلمين أن يستندوا على هذه الأدلة لاقناع الغربيين بالأدلة الإسلامية العقلانية؟ لا، جزء من العقلانية ليس من اللاعقلانية. لماذا؟

ج: نعم قلت لكم أيها الإخوة أن كثيرا مما عرفناهم لا يعتقدون الآن أن المسيح ابن الله، كثير منهم. بل كان هذا من أسباب إسلام بعضهم. قال لي شاب هداه الله إلى الإسلام أنه منذ أن كان عمره ثلاثة عشر عاماً شك في أن كيف يكون بشر ابن الله؟ وكان من عائلة كاثوليكية متدينة وكان في مدرسة كاثوليكية، وبالإضافة إلى ذلك تلقى عليه دروس خارج المدرسة في الديانة. ويقول فقلت لوالدي أنا لست مقتنعاً وحتى سببت له مشكلة لأنه إذا أراد ان ينتقل من صف كذا إلى صف لا أذكرهم الآن

فلابد أن يجدد إيمانه. فقال لأبيه، أنا لا استطيع أن أكذب. أنا لا أعتقد الآن أن المسيح ابن الله. وهذا هو الشاب الذي يعني تعب، يقول قرأت ما يسمونه بالعهد القديم والعهد الجديد. وقرأ تفاسيره قرأ أكثر من ألف صفحة فيها. وما اقتنع وبقى على فطرته، قال الله واحد قال له يدعوك، يقول وجدت نسخة من ترجمة لآيات من القرآن الكريم. ويقول كانت في غاية الرداءة في اللغة وفي كذا. ورميتها ثم ذهب ليدرس سياسة. شيء له علاقة بالشرق الأوسط فالأستاذ قال له من ضمن المراجع أعطاه القرآن الكريم ترجمه، فعندما قرأه أسلم. فكثير منهم لا يعتقدون أن المسيح ابن الله لكن هذا هو الموقف الرسمي.

بقي من الوقت المخصص خمس دقائق، ولدي طلبات كثيرة للتعقيب لعلي أبداها بالأخ معتصم السدمي، فليتفضل.

معتصم السدمي، تعقيب بسيط على شيخنا الدكتور جعفر شيخ إدريس الواقع أنه نحن كأمة إسلامية أمامنا سلاح خطير لم نستخدمه للأسف الشديد وهو كتاب الله القرآن الكريم، هذا القرآن الذي تحدى به الله سبحانه وتعالى البشر والجن إلى يوم القيامة، هذا القرآن الكريم الذي يوجد فيه لمن أراد أن يتعلم الصناعة فهناك أسس للصناعة، وهناك أسس للزراعة، وهناك أسس للاقتصاد، هناك أسس للتسليح وصناعة الأسلحة، هناك أسس لعلم الفضاء باختصار شديد لكي لا نطيل أعتقد أن الأمة الإسلامية لم تستفد من القرآن الكريم الاستفادة الواجبة، وتقديم القرآن للآخرين من البشر. لأن القرآن الكريم في اعتقادي موجه للبشرية جمعاء. وهو أيضاً ينصف التفكير وعلى أعمال العقل، وأذكر كتاب الأستاذ العقاد التفكير فريضة إسلامية، مأخوذ من عدد من الآيات كثير جداً. دعوة للعقل والدعوة للتفكير بالنسبة لما يوجد في القرآن، فتقديم القرآن للبشرية باعتباره كتاباً من الله الخالق عز وجل للإنسان سيفيد كثيراً وهو كفيل بردم حتى الهوة الإيمانية؛ لأنه عن طريق القرآن نصل للإيمان بالخالق وبالإسلام وبالمبادئ.

النقطة الثانية: علاقتنا بالغرب تنطلق من عدم فهمنا للأسف الشديد للغرب. الغرب ليس مسيحياً وإن كان الغرب الآن ملحداً، الغرب فيه نظريات. ففهمنا للغرب يعني مغلوط، ولهذا يجب أن نفهمه أكثر لكي نتحاور معه أكثر. وشكراً.

-نعم الغرب كله ليس الغرب كله نصرانياً. ولكن الديانة الغالبة والتي يتأثرون بها حتى الذي يترك دينه يبقى متأثراً بهذه الديانة.

هل أقوى البلاد الغربية هي أمريكا؟ وهي أكثر تديناً، يقولون إن عدد المؤمنين بوجود الخالق في أمريكا هو ٩٥٪ نعم. وعدد الذين يذهبون إلى الكنائس فيها أكثر من الدول الأخرى.

بالنسبة للقرآن الكريم. نعم القرآن هو كتاب هداية، ووجدنا أيضاً بالتجربة أن أحسن ما تعطيه لإنسان تريد أن تدعوه إلى الإسلام هو ترجمة القرآن الكريم.

وجدنا أن كثيراً من الناس. هداهم الله سبحانه وتعالى عن طريق هذه الترجمات. ولذلك عزمنا في المعهد إن شاء الله على أن نعطي هذه الترجمات عناية أكبر، يمكن أن تغنينا عن كثير من الكتب التي تترجم وتكتب، أما أن القرآن فيه ما ذكرت أيضاً.

إن كنت تريد بالمعنى العام أنه يدعو الناس إلى هذه الصناعات نعم. أما إن أردت أنه يفصل فها، فليس بصحيح. لأن الله سبحانه وتعالى يترك للناس ما يستطيعون أن يفعلوا إليه بعقولهم، لا يبينها لهم لأنهم يستطيعون أن يفعلوا ذلك، قال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. ما قال كيف تصنعون الأسلحة وكيف تفعلون كذا. لأن نحن نستطيع أن نفعل هذا وهؤلاء، إذا قلت هذا. فسيقول لك الغربيون نحن صنعنا كل هذه الأسلحة وما قرأنا قرآناً شيئاً.

فنحن لسنا محتاجين، البشر ليسوا محتاجين إلى القرآن الكريم لكي يدرسوا الطبيعة ولكي تكون لهم تقنية لا في الماضي ولا في الحاضر. ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: ٧-١٠]. ما فعلوا هذا عن طريق كتاب سماوي، وإنما باجتهاد البشر.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

تجديد الفكر الإسلامي

ندوة عن تجديد الفكر الإسلامي أقامتها جامعة الملك سعود بالرياض، وشارك فيها كل من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز والدكتور جعفر شيخ إدريس.

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم..

تجديد الفكر الإسلامي، الإسلام هو ديننا، والدين يراد به معنيان يراد به ما أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ من كتاب وسنة والدين بهذا المعنى لا يبلى ولا يحتاج إلى تجديد فهو تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه، ويراد بالدين أيضاً ما يدين به الناس ويعتقدونه ما يدين المنتسبون إلى الإسلام ويعتقدونه وهذا الذي يعتقده الناس قد يبلى وقد تحدث فيه انحرافات وهو الذي يحتاج إلى تجديد وتجديده يكون بجعله موافقاً للدين الذي أنزله الله سبحانه وتعالى وأنواع البلى والتغير التي تصيب الدين بالمعنى الثاني بمعنى ما يدين به الناس كثيرة منها وقد تفضل شيخنا بذكر بعضها وأذكر أيضاً بعضاً منها نقصان العلم بالدين الصحيح إذا نقص العلم بالدين الصحيح كان لهذا آثار سيئة وكان الدين الذي يدين به الناس كأنه قد بلي منها نقصان التطبيق للدين في واقع الحياة يطبق الناس جانباً وينكرون جوانب أخرى ومنها سوء الفهم للدين الصحيح ومنها خلطه ببدع وخرافات وآراء ومعتقدات وأهواء وكل هذا يكون باطلاً ولا يكون جزاءاً من الدين الذي أنزله الله ولكنه يصبح جزاءاً من الدين الذي يدين به بعض المنسبين إلى الإسلام، منها أن يتحول الدين إلى أشكال وهياكل وطقوس لا روح فيها ولا أثر لها على حياة من يزاولها ويتعاطاها لأن الدين الحق هو الذي يؤثر في سلوك الإنسان وفي واقعه فإذا تحول الدين إلى هياكل وأشكال لا روح لها ولا أثر لها فقد بلى هذا الدين فهو يحتاج إلى تجديد ومنها غلبة التقليد وتقديم أراء الرجال والمذاهب على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وقد أفاض شيخنا بشرح هذا المعنى أحب أن أضيف إليه نقطة واحدة فقط وهي أن هذا يحدث فتنة يحدث حقيقة فتن كثيرة لكن منها أن التطرف في تقليد الرجال وتقديم آراءهم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هذا كثيراً ما يدعوا إلى تطرف أخر وهو الانفلات والتحلل من الدين حتى من المعنى الصحيح لماذا؟ لأن الشخص يرى أن الدين الشخص، الشخص مثلاً طالب في

الجامعة إنسان متدين منتسب إلى الدين ولكنه لا علم له في الدين الحق فهو يرى أن الدين الذي يدين به الناس على أنه الإسلام هو كذا وكذا وكذا ثم يفكر في هذا الكلام الذي قيل فيراه مخالفاً ومناقضاً لبعض ما عرف من الحقائق سواء كانت حقائق علمية من العلم الطبيعي أو من العلوم الاجتماعية حقائق لا يشك فيها فيرى أن هذا الكلام الذي قيل إنه يخالف هذه الحقائق فيحدث له هذا فتنة وهذه الفتنة كما قلت سببها هذا التقليد لذلك، فإن من أهم عوامل التجديد أن يلتزم الناس بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهذا كلام من السهل أن يقوله الإنسان ولكن من الصعب على كثير من الناس أن يلتزموا به لأن الإنسان من طبعه أن يحاول أن يدافع عن الشيء الذي اعتاده و الشيء الذي كان يعتقده ولا سيما إذا كان أعتقده واعتاده لمدة طويلة يصعب عليه أن يغيره سواءً كان ديناً أو غير ذلك.

الفكر الإسلامي أحد معانيه على كل حال وأظن المعنى الذي يراد تجديد الفكر الإسلامي هو فهمنا نحن البشر لدين الله عز وجل لدين الله المنزل هو مجموع تصوراتنا وآرائنا واجتهاداتنا المبنية على ذلك الفهم فهو إذاً الفكر الإسلامي يدخل بالدين بالمعنى الثاني الذي ذكرته بمعنى ما يدين به الناس وتجديد الفكر الإسلامي هو إذا جعله موافقاً للدين المنزل من عند الله وخادماً له، ولكن الفكر الإسلامي بهذا المعنى ليس مطابقاً للدين هو جزء من الدين الذي يدين به الناس وليس مطابقاً له، ولذلك فإن تجديده وحده لا يكون تجديداً للدين فنحن لا نحتاج فقط إلى تجديد الفكر وإنما نريد أن نجدد الدين وتجديد الدين أشمل من تجديد الفكر، وأظن أن الأستاذ محمد قطب ربما يحيط في هذا المعنى.

تجديد الفكر الإسلامي يكون بأشياء كثيرة منها المحاولة المستمرة المخلصة الجادة لجعلها التزاماً مخلصاً حقيقياً لا التزاماً بالألفاظ؛ لأن هذا الدين لم يأتِ ليلتزم الناس بألفاظه ويفرغونها كما يقول المعاصرون من محتواها ومن معانيها و سأذكر إن شاء الله أن هذا هو رأي أو هو اتجاه الذين يفهمون التجديد فهماً خاطئاً.

المسألة الثانية التي نحتاج إليها في تجديد الفكر الإسلامي أن نصوغه بلغة يفهمها أبناء العصر ويتأثرون بها وهذا ليس عيباً لأننا لا نريد أن نصوغ القرآن الكريم مرة أخرى لا نريد أن نصوغ السنة المحمدية مرة أخرى، وإنما نريد أن نشرح هذه المعاني

للناس فينبني أن تصاغ هذه المعاني لكل أناس بحسب لغتهم وبحسب مستواهم وبحسب فهمم لأن المقصود التبليغ وليس المقصود هو تلاوة حروف القرآن الكريم أو السنة المطهرة أو تلاوة وأن نحفظ عن ظهر القلب بعض ما قاله أسلافنا وإنما المهم أن يفهم الناس هذه المعاني، فالكلمات القرآنية وكلمات الرسول ﷺ ستظل باقية ولكن الذي يتجدد هو شرحنا وتوضيحنا ونشرنا لما تضمنته من معان، في هذا أيضاً قد تحدث أنواع من الشطط بعض الناس قد يصرون على إلا يتكلموا ولا يحاضروا ولا يتكلموا إلا بلغة رصينة من التي عرفوها وتمرسوا عليها من بطون الكتب، وبعضهم قد يتطرف تطرفاً آخر فإذا تحدث عن الإسلام لا تدري هل هو يتحدث عن الإسلام أم يتحدث عن البعثية أم يتحدث عن الشيوعية فكلا طرفي قصدي الأمور ذميم، لا مانع أن يتحدث الإنسان بلغة عربية رفيعة ما دام يكتب للعلماء لكن العيب في أن لا يتنازل عن هذا المستوى حتى وهو يخاطب من لا يفهم هذا المعنى الرفيع، وقد ذكر لي أحد العلماء الأفاضل قبل أيام أنه كانت من عادة العلماء ولا سيما الدعاة منهم وذكر لي أمثلة منهم الشيخ محمد بن عبدالوهاب والإمام مالك والإمام الشافعي أنهم كانوا كثيراً ما يتنازلون عن المستوى الرفيع للغة العربية لكي يتحدثوا إلى الناس بلغة يفهمونها، بل كانوا أحياناً يستعملون بعض الكلمات الدارجة.

المسألة الثالثة وهي مسألة مهمة هي أن يتعرض هذا الفكر لمشاكل العصر وأن يحاول أن يوجد الحلول الإسلامية لهذه المشاكل ومشاكل العصر كثير منها مشاكل اعتقادية مشاكل تعبدية مشاكل علمية مشاكل اقتصادية أو سياسية إذا لم يحدث هذا حدثت أيضاً أنواع من الفتن منها أن يغلب على ظن الذي ليس له حظ كبير من العلم أن هذا الدين شيء قديم؛ لأنه لا يرى أنه قديم بمعنى أنه لا يصلح لهذا العصر أنه قديم وأنه يناسب عصوراً مضت ولا يناسب هذا العصر؛ لأنه لا يستطيع هو بمجهوده أن يرى الصلة الوثيقة بين ما يقرأ في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة وبين ما يواجه بالمشاكل هو يحتاج إنسان آخر ليقوم له بهذه المهمة فإذا لم يجد من يقوم بهذه المهمة ظن أن هذا الكلام الذي يقرأه أو على الأقل حدثت في نفسه شبهة أنه هذا الكلام إنما قيل لعصور سابقة، وسيؤكد له هذه الشبه الملحدون والمنحرفون؛ لأن هذا ديدنهم أن هذا الدين وكل دين إنما جاء لمناسبات وظروف معينة فهو ينتهي بانتهائها، نحن

الآن محتاجون إلى تجديد وحاجة شديدة إلى التجديد في هذه الناحية بُذلت محاولات للكتابات في الاقتصاد الإسلامي في الحكم الإسلامي، ولكن هناك مسألة مازلنا محتاجين إلى أن نكتب فيها، وأن نبين الحكم الإسلامي أو الهدي الإسلامي فيها، وهذه المسألة هي العلوم أقول مع الأسف إن مفهوم العلم المفهوم السائد في عصرنا هذا للعلم أصبح مفهوماً مادياً إلحادياً وأقول هذا لا عن العلوم الطبيعة فقط وإنما حتى عن ما يسمى بالعلوم الإنسانية أو الاجتماعية لماذا أقول هذا ؟ لأنه من المعروف حتى عند العلماء الغربيين أن هناك ما يسمى بالفروض التي يقوم عليها العلم الفروض الفلسفية ما يفترضه العالم ولا يذكره صراحة ما هو الافتراض التي تقوم عليه العلوم الآن؟ الافتراض هو أن هذا الكون مكتف بنفسه بحيث إننا إذا أردنا أن نفسر أي ظاهرة من ظواهره سواء كانت في مجال الطبيعة أو في مجال العلوم الاجتماعية ينبغي أن نبحث عن سبب هذه الظاهرة في العالم نفسه، فإذا ما ذكرنا شيئاً خارج هذا العالم إذا ما ذكرنا عن العالم المحسوس يعني إذا ذكرنا شيئاً عن الملائكة أو حتى عن الله سبحانه وتعالى قيل لنا إنكم لا تتحدثون لغةً علمية وإنما تتحدثون بلغة الدين والدين والعلم شيئان مختلفان لماذا؟ طبعاً إذا بنيت العلم منذ الوهلة الأولى على افتراض أو على التسليم بالفلسفة المادية الإلحادية من الطبيعي أن يكون مخالفاً للدين؛ لأنك أنت الذي جعلته مخالفاً للدين، خطر هذا في العلوم الطبيعة قليل لا يكاد يذكر لأنه لا يضر الإنسان كثيراً إلا من ناحية الاعتقاد وكثيرون من المتدينين الذين يمارسون هذه العلوم تظل عقائدهم صحيحة بمعنى أنه يعتقد أن الله سبحانه وتعالى هو خالق هذه الأسباب وخالق هذه الآثار هذا الذي يعتقده في قلبه ولكنه لا يذكره باعتباره عالماً، أما في مجال العلوم التي تسمى بالعلوم الإنسانية فالخطر عظيم وكبير جداً، والعلوم الإنسانية أذكر منها علم النفس علم أو فلسفة التربية أوعلم التاريخ علم الاقتصاد أصحاب هذه العلوم في الغرب الآن يحاولون أن يحذو بها حذو العلوم الطبيعية والعلوم الطبيعية كما قلت لكم هي أن تحاول أن تفسر الظاهرة الكونية بأسباب من داخل العالم بل وتفترض أنه لا يوجد في العالم في النهاية إلا مادة متحركة في فراغ، وهذا ما يفترضه كثير من علماء النفس وعلماء الاجتماع من الغربيين، ثم يأتي هذا كله لنا باعتباره علما ويزيد من مصيبتي أن كثيرا من أساتذتنا الذين يدرسون هذه العلوم يدرسونها بطريقة تقليدية أكثر

من واقعها نفسه قد نستمع إلى عالم نفس غربي يتحدث عن بعض النظريات في علم النفس فينتقدها أو يذكرها بشيء من التحفظ ولكن كثيرا من أساتذتنا إذا ما درسوها قالوا للطلاب العلم يقول كذا العلم أثبت كذا، طبعاً إذا قيل إن العلم أثبت كذا فنقيض العلم هو الجهل فالذي يقول غير هذا إنما يتحدث عن جهل فهذا مجال من المجالات التي لابد أن نجدد فيها، ويمكن أن يذكر الإنسان هنا الفضل لأهله أن الجامعات في المملكة العربية السعودية من أكثر الجامعات اهتماماً في هذه المسألة؛ لأنها تحاول أن تأسس علومها على أساس إسلامي، ولكن أقول إنها ما زالت تحبو إن لم أقل إنها في طور ما قبل ذلك، ما زالت تحبو، أما الجامعات الأخرى فهي صور مشوهة للجامعات الغربية كلما يقول هناك يُقال هنا بحماس أكثر وبتشنج أكثر.

المسألة الرابعة في تجديد الفكر الإسلامي هي أن يكون فكراً ملتزماً بالحق والعدل وأن لا يكون مسخراً لأهواء الحكام ولا أهواء العوام لأننا إذا سخرنا الدين لأهواء العوام أو أهواء الحكام حدثت أيضاً فتن لأن أهواء الحكام وأهواء العوام متقلبة فكلما أراد حاكماً من الحكام شيئاً أو كلما سادت بين الجماهير رغبة في شيء معين غيرنا الدين وفسرناه بحيث يتناسب مع ما يطلبون ولكن هذا مع الأسف هو الذي كثير ما حدث في العالم العربي تسود في بلدة من البلاد يسود نظام الرأسمالي فتخرج اجتهادات بأن الربا الذي يتعاطاه الناس في البنوك (ما يسمونه بسعر الفائدة) ليس هو الربا الذي حرم الله سبحانه وتعالى لماذا؛ لأن هذا ما يريده العوام ويريده بعض الحكام ثم يتغير الوضع ويأتي نظام اشتراكي فيكتب أحدهم خديجة أم الاشتراكية بعد أن كانت أم المسلمين أصبحت أم الاشتراكية، وأيضاً تجر النصوص وتفسر بحيث تتناسب مع ما يريده الحاكم، هذا تحدث عنه فتن أيضاً الشخص الذي لم يتبحر في العلم لأن محصوله من العلم بالدين قليلا فإنه لا يستطيع أن يفصل بين ما يقوله هؤلاء الذين يجعلون دينهم وفكرهم تابعا لآراء الحكام لا يستطيع أن يفرق بين الدين الحق وبين ما يقوله هؤلاء؛ فيربط بين الدين وبين أخطاء الحكام فإذا كره حاكماً أو انتقده في شيء انتقد معه الدين وإذا رفضه رفض معه الدين، وهذا يقود أيضاً إلى عدم الثقة بالعلماء وكثير من الذين يقومون بهذا التحريف قد يكونون من العلماء بمعنى أن الشخص يعرف القرآن الكريم ربما يحفظه يعرف التفسير يعرف

كثيراً من السنة فهو عالم فإذا كان بعض العلماء كذلك فقدت الثقة في العلماء، وإذا فقدت الثقة في العلماء ضل الناس و ساء فهمهم للدين وربما انحرفوا عنه،

نسيت أن أقول في مجال الكلام الذي قلته عن ضرورة أن يتعرض الفكر الإسلامي في مجال العصر إذا لم نفعل هذا حدثت بعض الفتن منها أن الناس سيلجؤون للحلول الجاهزة، الإنسان تواجهه مشاكل مثلاً اقتصادية لا ينتظر سنين طويلة حتى يأتي له العلماء المسلمون بحل لهذا المشاكل فيأخذ من الحلول الموجودة أمامه وهي حلول تقوم على فلسفة وفكر غير إسلامي هذا يحدث في المسائل الاقتصادية يحدث في المسائل القانونية وكلما تباطأ العلماء وتأخروا عن إيجاد الحلول الإسلامية كلما انحصرت من البلاد حتى إذا كانت بلاد تنتسب إلى الإسلام، وتريد أن تحكم في الإسلام حتى إذا كانت مخلصة في هذا لكنها إذا لم تجد الحلول لجأت إلى الحلول الجاهزة وفي كل مرة إذاً تنحسر الرقعة التي تُحكم في الإسلام والتي يؤثر فيها الإسلام.

أنتقل إلى الفهم الخاطئ للتجديد الفهم الخاطئ للتجديد هو محاولة تجديد الدين بمعناه الأول، وهذا الاتجاه اتجاه يشبه إن لم يكن قد أخذ عن النصارى واليهود، قامت حركات نصرانية في نهاية القرن التاسع عشر تدعو إلى تجديد الدين بمعنى تفسيره بحسب ما يناسب العصر وما هو العصر؟ العصر هو مجموعة الأفكار السائدة في العصر أفكار فلسفية أفكار علمية أفكار في التاريخ أفكار في علم النفس أفكار في كذا وكذا، بعض الناس الذين ينتسبون إلى الإسلام يريدون التجديد بهذا المعنى يريدون أن يفسروا الإسلام تفسيرا يتناسب مع العصر ولكن العصر الذي يعنونه هو أهواء العصر، ينبغي أن نفرق بين ما يستلزمه العصر وبين ما يسود في العصر، أما ما يستلزمه العصر هو الأمور التي تحدث بسبب التطور الطبيعي مثلاً أن طريقة الانتاج الآن مختلفة ما كانت عليه هذا شيء أستلزمه العصر فلابد أن نجد له حلاً أما الأفكار التي تسود في العصر فهذا بمحض الاتفاق بمحض المصادفة ونحن ليس المطلوب منا لكي نكون معاصرين أن نقلد ونعتنق هذه الأفكار، وأن نجعل ديننا تابعاً لها لكن الذين كما قلت يفهمون التجديد هذا الفهم الخاطئ هذا الذي يريدونه وهذا يقودهم إلى مشاكل كثيرة تتفاوت في خطرها منها أن الفكر السائد في العصر هو الفكر المادي الإلحادي، فبعض هؤلاء المجددين يضيقون بكل شيء في الإسلام لا

يتناسب مع هذا الفكر، فإذا وجد حديث عن الملائكة حاول بأن يفسرها أنها القوى الخيرة في الإنسان الشياطين هي القوى الشريرة في الإنسان بل قد يصل به الأمر إلى الذات الإلهية؛ لأنها لا تتناسب مع المفهوم المادي السائد الآن فيغير من مفهومه لله سبحانه وتعالى، ويحاول أن يفهم ما يقال عن الذات الإلهية فهم أشبه بما كان يقوله الجهمية في الماضي؛ وهو الفهم التعطيلي هو أن يكون الله سبحانه وتعالى مجرد فكرة أو شيء أشبه بالعقل فقط وليس ذاتاً لها صفات، من هذه المشاكل أيضاً أن نقلدهم في طريقة الحكم، ولذلك بعضهم يقول إن الإسلام ليس فيه نظام حكم وكذا وكذا لأنه يريد أن يعطي لنفسه الحرية في أن يحكم بالطريقة التي يحكم بها الغربيون ثم في المسائل الاجتماعية والأسرية وكذا تسود في الغرب تقاليد وتسود فيه آراء في هذه المجالات، فيحاول أن يقصر الإسلام على أن يكون موافقاً لها، ومن الأمثلة المشهورة عندكم لهذا الضيق بمسألة الرجم يريد أن يغير هذا بعقوبة لا تتناسب مع العصر لا تتناسب مع العصر بمعنى أهواء العصر لا تريدها، تعدد الزوجات أهواء العصر لا تريد هذا، وهكذا والشخص الذي يريد التجديد بهذا المعنى لا يمكنه التجديد بهذا المعنى إلا بتحريف الدين، ولكنه لا يستطيع أن يقول هذا الكلام صراحة؛ فلذلك يلجأ إلى المنهج الذي لجأ إليه كل المحرفين على مدى التاريخ الإسلامي، وأجيزه وأختم به، أولاً عدم الالتزام باللغة العربية القرآن نزل بلغة عربية بلسان عربي مبين، فإذا لم تلتزم باللغة فقل فيه بما شئت. المسألة الثانية عدم الالتزام أو اعتبار تفسير الصحابة فيقول إن الصحابة عاشوا في ظروف معينة، وفسروا القرآن بحسب الظروف التي كانوا يعيشون فيها، فنحن أيضاً نفسره بحسب الظروف التي نعيش فيها. عدم الالتزام بالتناسق القرآني أن يفسر بعضه بحيث يتناقض مع آيات أخرى. عدم الالتزام بالسنة النبوية؛ لأن الذي يلتزم بالسنة لابد أن يفسر القرآن الكريم تفسيرات صحيحة، فالشخص الذي يريد التجديد بالمعنى المنحرف لهذه الكلمة لا يمكنه هذا إلا بأن يسلك منهجاً غير علمي؛ لأن الحق لا بد أن يقود إلى الحق أما إذا أراد الإنسان الباطل فلابد أن يسلك إليه منهجاً باطلاً.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

***

هل الإنسان يولد ومعه علم ؟

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، ثم أما بعد:

آيتنا في هذه الحلقة هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]

القضية المتعلقة بهذه الآية هي مسألة اختلف فيها فلاسفة الغرب، وربما أيضاً بين المسلمين وهي مسألة العلم هل الإنسان يولد ومعه علم أم أن علمه في طبعه وفي فطرته أم أنه يولد جاهلاً تاماً ثم يكتسب هذا العلم.

هما نظريتان مشهورتان في الغرب، ولكن وبعد أن فكرت في الموضوع وجدت أن الإسلام لا يقول بهذا ولا بهذا فنحن قرأنا في أول حلقة في هذه الحلقات أن الله سبحانه وتعالى قال عن الدين أنه فطرة الله، فالدين أصله في الفطرة، ولكنه يقول في هذه الآية والله أخرجكم في بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً فكأن الفطرة حين يولد الإنسان لا يولد عالما إذاً كيف الجمع بين الأمرين؟ يولد وهذا الدين في فطرته لكنه لم يتحول إلى علم وإنما هو كالبذرة التي تنمو مع نمو عقل الإنسان وتكتمل بما يأتيه به رسل الله سبحانه وتعالى، فالإنسان يكتسب العلم المكتسب هذا بواحد من هذه الوسائل الثلاث السمع والبصر والفؤاد أو قل الحس والعقل؛ لأن السمع والبصر ذكرهما الله سبحانه وتعالى لأنهما أهم حاستين وإلا فقد ذكر الله سبحانه وتعالى الحواس الأخرى أيضا في آيات أخرى:

مثلاً قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]، فلمسوه ذكر اللمس وأنبهم على أنهم لا يعترفون باللمس، وهذا ليس من العقل الإنسان إذا لمس شيئاً بيده فينبغي أن يعترف بأن هذا شيء موجود، فربنا سبحانه وتعالى ذمهم أنهم لو نزل عليهم كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم يقولون لا هذا سحر.

وذكر الله سبحانه وتعالى الشم في قصة يوسف ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤].

وذكر الذوق ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢].

فالحواس الخمسة مذكورة في القرآن الكريم، لكن أهم حاستين هما السمع والبصر؛ ولذلك كان التركيز عليهما في هذه الآية وأمثالها من الآيات.

ولذلك نحن المسلمين لا ننكر الحقائق التي يدل عليها العلم الطبيعي، الحقائق لا أقول النظريات لبعض العلماء وكذا وكذا إذا كان الشيء ثبت بالحس أو ثبت بالعقل، فيكون من واجب المسلم أن يعترف بها، ولذلك أنا كتبت مقالاً بعنوان حقائق العلم حقائق شرعية لا يجوز للإنسان أن يماري فيها إذا ثبت أن الأرض في شكل كرة فلا تقل إن هذا يخالف الآية الفلانية لأن الله لا يمكن أن يخلق الكون بشكل معين ويصفه في كتابه بما يخالف الصفة التي خلقه عليها.

ولذلك إذا حدث هنالك كما يقول العلماء إنه لا يمكن أن يكون هنالك خلاف أو تناقض بين كتاب الله وبين خلق الله لا يمكن، ولكن قد يحدث التناقض بسبب الخطأ في الفهم؛ إما في فهم الكون أو في فهم النصوص يكون النص مثلاً ظن ظنياً ويفسره بعض الناس ويفهمونه فهماً خطاءً ثم يجدون حقيقةً كونية يقينية لا شك فيها، فالصحيح هو أنه إذا ثبتت الحقيقة الكونية التي لا شك فيها أن النص يفسر بهذه الحقيقة الكونية.

ولذلك لا يجوز بعد أن اكتشف مثلاً أن الأرض بشكل كرة لا يجوز أن تذكر بعض الأقوال التي في بعض التفاسير المخالفة لهذه الحقيقة، وهذا يدل أيضاً ما دامت الحقائق الكونية المعروفة بالحس وبالعقل حقائق يسلم بها المسلم فإنه لا يحتاج أن يستدل عليها بأدلة سمعية يعني لا أحتاج إذا كان عرفت في الطب أو في الهندسة أو في الجغرافيا وكذا عرفت أن هذه حقيقة لا شك فيها كونية لا أحتاج أن ابحث عن

دليل لها في كتاب الله وسنة رسول ﷺ لأن هذه حقيقة وما جاء في كتاب الله حقيقة.

لكن كما يقولون إذ تظافرت الأدلة يعني قوي الإيمان إذا وجدت الشيء في الكون ثم وجدته في كتاب الله هذا هذا ما يزيد إيماني بما في كتاب الله سبحانه وتعالى وكما تكلمت الآية التي ذكرناها في البداية الطريقة التي يكتسب الناس بها العلم وهي السمع والعقل فتكلمت آيات اخرى عن مصادر هذا العلم لأن الإنسان لا يستطيع أن يكون عالماً إلا إذا كانت عنده قوى يعلم بها قلنا هي الحس والعقل وإلا إذا كان هنالك مصدر يأخذ منه هذا العلم فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

فكأنه يقول لهم إن هذه مصادر العلم فإذا لم يكن لم يكن على الدعوى دليل من الكون الذي هو السماوات والأرض وليس عليه دليل من كتاب منزل من السماء فإنه كلام باطل وخرافة ومجرد دعوى وتكرر نفس المعنى في آية أخرى قول تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

فنحن الفرق بيننا وبين الذين لا يؤمنون بالوحي أن مصادر المعرفة عندنا اثنان الكون والوحي وهؤلاء يقصرون مصادر المعرفة على الكون ولا يستفيدون مما أنزل الله سبحانه وتعالى في كتبه وما قاله رسول الله سبحانه وتعالى.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم..

***

وجود الخالق سبحانه وتعالى

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، ثم أما بعد:

آيتنا في هذه الحلقة هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦]، والقضية هي قضية وجود الخالق سبحانه وتعالى فكأن هذه الآية فيها دليل من أقوى الأدلة العقلية لعلها أقوى دليل عقلي على وجود الخالق فكأن الآية تقول للذين لا يؤمنون بوجود الخالق إذا لم يكن هنالك خالق هو الذي خلقكم فكيف جئتم أم خلقوا من غير شيء يعني خلقوا من غير شيء خلقهم كما يقولون في التفسير يعني جئتم من العدم ما فيه شيء خلقكم ما فيه إنسان عاقل يقول مثل هذا لأنه من العدم لا يأتي شيء من العدم لا يكون إلا عدم لا يمكن أن يكون لا شيء لا شيء ثم فجأه يأتي شيء من هذا العدم وكذلك ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ يعني إذا لم تكونوا قد جئتم من العدم هل أنتم الذين خلقتم أنفسكم؟! أيضاً الإنسان العاقل يقول هذا مستحيل بل هذا تناقض لأنني لكي أخلق نفسي لابد أن أكون أولاً موجوداً وإذا كنت موجوداً فأنا لا احتاج لأن أُخلق فالقول بأن الشيء يخلق نفسه كلام متناقض، جاء في التفسير قال ابن كثير روى البخاري عن جُبير بن مطعم قال سمعت الرسول ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، وكان جُبير في ذلك الوقت لم يكن مؤمن قال فلما بلغ هذه الآية كاد قلبي أن يطير تدرون لماذا؟ أظن أن الآية وضعت الأمر أمامه بطريقة واضحة يا جُبير إذا لم تؤمن بوجود الخالق فإما أن تكون جئت من العدم جُبير يقول لنفسه هذا مستحيل أم أنت خلقت نفسك جُبير يقول لنفسه هذا مستحيل فلذلك كاد قلبه أن يطير.

أنا درست الفلسفة الغربية أو بعض الفلسفة الغربية وكان عندي اهتمام بما يسمى فلسفة العلوم وناقشوا مسألة وجود الخالق هذه وتتبعت أقوال الملحدين فيها ووجدت أن أقوالهم كلها لا تخرج عن هذين الأمرين إما أن يقول الواحد منهم أن الأشياء جاءت من العدم تصدقون أنهم يقولون هذا وإما أن يقول إن الكون خلق نفسه وصدقوني أنهم منهم يقولون هذا ولا تغركم الأسماء الرنانة فهنالك علماء كبار في الفلسفة أو في الفيزياء أو في كذا يقولون بأن الكون جاء من العدم أو يقولون بأنه خلق نفسه طبعاً قبل هذا الكلام انحصرت آراءهم في هذين الأمرين بعد أن جاءت النظرية التي تسمى بنظرية بق بانق أو الانفجار الكبير؛ لأنه كان قبل ذلك كان الملحدون يقولون إن الكون هذا لا يحتاج أن يخلق إنه أصلا لا بداية له فهو لا يحتاج إلى أن يُخلق لما جاءت هذه النظرية التي تقول بلى أن

الكون له بداية فصار السؤال عن أنه كيف جاء هذا الكون صار السؤال ملحاً جداً ولذلك كتب كثيراً من الفيزيائيين والفلاسفة وكذا كتابات في هذا الأمر، وأرادوا أن يدافع الملحدون منهم عن موقفهم فلم يخرجوا كما قلت عن هذين الأمرين إلا أن يقول الواحد منهم إن الكون جاء من العدم، أو أن يقول إنه خلق نفسه وكنا نقول لهم إنه حتى لو لم تكن هناك نظرية هذه النظرية التي تتحدث عن بداية الكون، وأن الكون له بداية حتى لو لم تكن هذه النظرية فنحن نشاهد أن الأشياء تحدث وتزول الناس يأتون ويزولون يأتي إنسان ثم يموت، النجوم تحيا ثم تموت الشجر يولد ثم يموت وهكذا، فالسؤال قائم ولذلك الآية وجهت السؤال إلى البشر قالت أم خلقوا من غير شيء أنت تفكر في نفسك وتسأل نفسك هل أنت خُلقت من غير شيء أم أنت الذي خلقت نفسك فلا يحتاج أصلا إلى أن يفكر فيما يسمى في نظرية الانفجار العظيم وهذه الآية الكريمة من أقوى الأدلة على أن القرآن الكريم لا يخاطب كل الناس على أنهم يؤمنون بأنه كتاب من عند الله بل يخاطب الناس أحياناً على أنهم لهم عقول فقط ويدعوهم بهذه الطريقة إلى أن يؤمنوا بالحق الذي جاء به القرآن الكريم فقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦]، يعني إذا أنتم ما خلقتم أنفسكم ولا جئتم من العدم هل أنتم الذين خلقتم السموات والأرض بل لا يوقنون لا يوقنون أي لا يردون أن يؤمنوا ولا يردون أن يقتنعوا، فالعلماء منهم بالمناسبة من اعترف بهذا حتى من علماء الفيزيائيين اعترف بهذا، وقال إن الانفجار العظيم هذا فعلاً مشكلة لأنه لا يمكن أن يأتي هذا الكون من العدم ولا يمكن أن يكون هو الذي خلق نفسه، ثم نسيت أن أقول إن مسالة جبير بن مُطعم تدلنا على شيء مهم وهو أن الحقائق إذا اتضحت تؤثر في الناس فأنت إذا أردت أن تقول كلاماً مقنعاً فقله بطريقة واضحة يراها الإنسان كأنه يراها رأي العين لأن البشر ربنا خلقهم سبحانه وتعالى على أنهم إذا رأوا الحقائق يعترفون بها حتى لو لم يقولوا هذا بألسنتهم إذا اتضحت الحقيقة يعترف بها في نفسه حتى ولو لم يعبر عن هذا الاعتراف بلسانه فمن المهم جداً لإخواننا الدعاة وأقول هذا لنفسي أيضاً أنا لست مثالا لما أقول إنه من أهم ما ينبغي أن نراعيه أن يكون الكلام واضحاً، وأن تكون الحجج واضحة، وهذا من أحسن الوسائل لإقناع الناس.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم..

* * * * *

ثالثاً: البحوث والدراسات والكتب

الإسلام: دين سلام.. وليس استسلام

وهذه الدراسة هي بحث شارك به الدكتور جعفر شيخ إدريس في مشروع كتاب السعوديون والإرهاب (رؤى عالمية) وأشرف على إخراجه الدكتور محمد البشر وأصدرته غيناء للنشر عام ١٤٢٦الموافق ٢٠٠٥م.

أود ابتداءً أن أوضح نقطتين هامتين كمقدمة قبل الولوج في الموضوع.

النقطة الأولى: أنني هنا لا أتحدث عن سياسة دولة أو مجموعة إسلامية معينة فيما يتعلق بالحرب، والسلام، إنما عن التوجهات الإسلامية حول هذه الأمور كما هو موضح في المصادر الإسلامية الأساسية. وآمل أن يخرج القارئ بمعيار واضح يستطيع من خلاله قياس مدى إسلامية التصرفات المتعلقة بهذه الأمور والتي يقوم بها أناس ينتمون إلى الدين الاسلامي والذين هم مأمورون أخلاقيا بالالتزام بتوجيهاته. هذا التفريق بين نصوص الدين والتصرفات التي يقوم بها بعض الذين يزعمون أنهم ينتمون لهذا الدين هو أمر في غاية الأهمية. فإذ لا يمكننا نفي أن هناك علاقة بين الناس ومعتقداتهم، إلا أنه يجب الإقرار أن ممارسات الناس لا تمثل دائماً انعكاساً للمبادئ التي يقولون إنهم يؤمنون بها. وهذا يعود إما إلى الجهل أو ضعف الوازع الأخلاقي أو الخداع المحض والنفاق. والمثال على هذا هو حقيقة أن الكثير من أهل الأديان: فإذا ما حوكم الإسلام بالأفعال التي يرتكبها أولئك المنتمون إليه، فليطبق الشيء نفسه على المسيحية والليبرالية والديمقراطية وغيرها من المعتقدات الدينية والعلمانية.

النقطة الثانية: أن ما ورد هنا يستند بصورة رئيسة إلى آيات القرآن الكريم وهي المصدر الرئيس للمعرفة الإسلامية. وهنا لابد من كلمة حول النهج الصحيح الذي اتبع هنا. فالقرآن الكريم ليس كتاباً مبوباً حسب الموضوعات بالطريقة المألوفة لدينا. فأسماء السور مثل نوح، وإبراهيم، ومريم، ومحمد.. إلخ لا تقتصر فقط على موضوعات تتعلق باسمها ولكن الاسم يدل على إشارة وردت داخل السورة. فموضوع كالحرب والسلام – على سبيل المثال – يمكن أن نجد إشارات له في العديد من السور، وهذا يرجع إلى أن آيات القرآن قد نزلت على النبي ﷺ على مدى ثلاثة وعشرين عاماً.

ولتكوين صورة شاملة ونزيهة عمّا ذكره القرآن حول موضوع معين، فإن على المرء أولاً أن يحصي الآيات المختلفة في السور المختلفة التي أشارت إلى الموضوع، وعليه ثانياً أن يفهم كل آية من هذه الآيات في سياقها النصي والتاريخي، وثالثاً عليه أن ينظر إليها في إطار السياق العام للمبادئ والأهداف الرئيسة للدين الإسلامي. ثم أخيراً ينظر إلى تفسير هذه الآيات من خلال أقوال وأفعال النبي ﷺ.

وبعد هذا الوصف لطبيعة الآيات القرآنية، فإنه من السهل على أي شخص أن يستدل بآية أو بعدد من الآيات لكي يورد دليلاً محرفاً لما نصّ عليه الإسلام حول أمر معين. فعلى سبيل المثال يمكن أن يقول قائل إن الإسلام يأمر المسلمين بقتل أي شخص غير مسلم أينما وجده، ويستدل بالآية: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]. كذلك يمكن لآخر أن يقول إنه لا وجود للحرب في الإسلام ويستدل بالآية: ﴿كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧].

إن المنهج السليم الذي أشرنا إليه آنفاً هو الذي اتبعه علماء المسلمين الأوائل وهو ذاته الذي سوف نحاول أن نطبقه هنا في سياق الأسئلة المعاصرة المطروحة حول موقف الإسلام من قضية الحرب والسلام. وحيث إن آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ المختلفة هي جزء من الصورة الكبرى من رسالة الإسلام. فإننا سوف نبدأ بعرض تلك الصورة - مع إشارات خاصة للموضوع الذي نحن بصدده - ومن ثم سوف نحاول أن ننظر إلى هذه الآيات والأحاديث في السياقات التي وردت فيها.

المجادلة بالوسائل السليمة:

تتميز طبيعة الدين الإسلامي بخصائص كثيرة تحتاج أن ندعو لها بالوسائل السليمة، ومن هذه الخصائص:

١- الإكراه مستحيل:

الأمر الأول والأكثر أهمية أن الدين الإسلامي قد قرر أنه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وقد ذهب بعض المفسرين الأوائل للقرآن الكريم إلى هذه الآية تقرر حقيقة أن الأمر بعدم الإكراه مبني على هذه الحقيقة. والمعنى أنه من المستحيل إكراه شخص

وإجباره على أن يكون مسلماً حقيقياً ولذا فيما الجدوى من محاولة المستحيل. وهذه الحقيقة هي واحدة من تلك التي تستوجبها طبيعة رسالة الإسلام نفسها. فما هي هذه الرسالة؟ الكلمة العربية "إسلام" لا تعني فقط الدين الإسلامي، إنها تعبير في جوهرة يعني الاستسلام لله في العبادة وليس لأحد غيره. وبحسب القرآن فإن هذه هي الرسالة التي جاء بها جميع أنبياء الله من نوح وإبراهيم إلى وموسى وعيسى. وبصفة خاصة فهي الرسالة التي أمر محمد ﷺ، وهو آخر الأنبياء، بإبلاغها لكافة البشرية.

ولهذا نقول إن رسالة هذا النبي هي رسالة عالمية لكل الناس منذ اليوم الذي بعث فيه إلى قيام الساعة. وعلى أساس هذا الاستسلام لله بنيت كل التشريعات التي جاء بها جميع الأنبياء. والتفاوت في نوعية وحدود التشريعات يعتمد على الأحوال الخاصة بالقوم الذين أرسل إليهم كل نبي. ولأن محمداً ﷺ هو آخر الأنبياء وأرسل للبشرية جمعاء، فإن رسالته شاملة وعالمية - فهي لا تقتصر على زمن معين أو ثقافة معينة -.

الإسلام أمر متعلق بالقلب وهو فعل إرادي يختاره الشخص بالإقرار والالتزام به طواعية. ولا يمكن أحداً إجبار أحد ليكون مسلما. ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

٢- الله وحده المسيطر على القلوب:

هذا اعتقاد أساس في الإسلام، فالأنبياء لا يمكنهم إجبار الناس أن يكونوا مؤمنين. ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

فالله يهدي أولئك الذين يستحقون الهداية ويعلم أنهم يقبلون الهدى. فهو لا يهدي الذين يعلم نيتهم رفض الهدى والإيمان. وهذا يعني أن الله لا يرغم شخصاً ما على قبول الإيمان.

والشيطان ليس في وسعه إرغام الناس على رفض الإيمان والهدى. ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ

إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

٣- دور الأنبياء:

إذن ما هو دور الأنبياء؟ والذين يحملون رسالتهم من بعدهم؟ إبلاغ هذه الرسالة بكل وضوح وإعطاء المدعوين البرهان والحجة على صدق هذه الرسالة وكذلك حثهم على قبولها ومجادلة أولئك الذين يختارون طريق الجدال. ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]. إذن لا النبي ولا أي مسلم مسؤول عن إعراض الناس عن الحق فيما دعوا إليه.

٤- التسامح مع المعرضين:

هل هناك مجال لدين مثل هذا لشن الحرب ضد أناس كوسيلة لحملهم على اعتناقه؟ ربما يقول قائل لا: ولكن هناك سبباً قوياً لقتلهم. شخص كالرئيس الأمريكي السابق كلينتون قال: لأنهم رفضوا قبول الحقيقة[1]. هذا الاعتقاد مردود لسببين:

أولاً: أن نهج الإسلام في التعامل مع المعتقدات يختلف عن نهجه في التعامل مع أصحاب هذه المعتقدات. فكل معتقد يتعارض مع أوامر الله هو في الحقيقة باطل.

---

(١) في خطاب ألقاه بجامعة جورج تاون في ٧ نوفمبر ٢٠٠١م أشار الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون إلى بعض المسلمين بقوله: «إنهم يعتقدون أنهم يملكون الحقيقة فإنك إما أن تشاركهم هذه الحقيقة أولاً. فإذا لم تكن مسلماً فإنك كافر، وإن كنت مسلماً ولم توافقهم فأنت مبتدع، وإنك في الحالين هدف مشروع حتى ولو كنت طفلة في السادسة من عمرها ذهبت مع أمها للعمل في مركز التجارة العالمي في ١١ سبتمبر. إنهم يعتقدون أن المجتمع هم أولئك الناس الذين يتشابهون، يتصرفون بنمط واحد ويلبسون زياً واحداً». لا أعرف أي مسلم أصولياً كان أو غيره يفكر بهذه الطريقة.

ولكن أتباع هذه المعتقدات لا يقتلون ولكن يدعون بالحسنى.

ثانياً: ولأن الإسلام قد أخبرنا أن كونك مسلماً فهذا أمر اختياري ولأن الشخص يمكن أن يلجأ لهذا الاختيار في أي وقت من حياته حتى قبيل ساعات من وفاته، فإننا يجب أن لا نيأس من قبول شخص ما لهذا الاختيار. ولذا يجب علينا عدم قتله إذا ما أختار الآن أن يكون غير مسلم. فمجرد رفض الإسلام لم يكن أبدا سبباً لتعذيب أو قتل أي شخص. وأكبر شاهد على هذا حقيقة أن آلاف اليهود والنصارى قد عاشوا بين المسلمين في أماكن مختلفة من أرجاء العالم الإسلامي، ولم يكن تسامح المسلمين معهم بسبب الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ولكن لأن دينهم قد أوصاهم بذلك. فكيف لدين يسمح للمسلمين أن يأكلوا من طعام الذين أتوا الكتاب وينكحوا نساءهم، أن يأمرهم في الوقت نفسه بقتلهم أينما وجدوهم؟

ونظراً لأن هذه الحقيقة راسخة في أذهان المسلمين فإنك لن تجد بين أولئك المتورطين في قتل غير المسلمين من يزعم أن سبب قلته لهم يرجع إلى أنهم غير مسلمين. إنهم دائماً يذكرون أسباباً أخرى لتبرير أفعالهم هذه. وهذا يؤكد حقيقة أنهم لا يستهدفون قتل غير المسلمين هكذا خبط عشواء.

٥- دين الأخلاق:

وصف القرآن الكريم الدين الإسلامي بأنه دين الفطرة **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** [الروم: ٣٠]. هذا الأمر الفطري عند البشرية يتكون بصورة أساسية من إقرارهم بحقيقة أن الله وحده هو الذي يجب أن يُعبد. وهذا الأمر – أيضاً – مرتبط بكل ما هو حسن عند البشرية كالعقلانية والقيم الأخلاقية والحس الجمالي وهكذا. فكلما كان الشخص أكثر إخلاصاً في عبادته لله، كان أكثر إنسانية ووجد أنه من السهل عليه التصرف بكل عقلانية وأخلاقية. فالقيم الأخلاقية أساس في دين الإسلام، والإسلام يأمر بقيم أخلاقية راقية مثل العدل وقول الحق والوفاء بالعهد ومساعدة المحتاجين والتراحم، وسهَّل كذلك الطريق للناس لكي يطبقوا هذه المبادئ

بتقوية الوازع القلبي الذي يزيده من التمسك بالسلوك الأخلاقي، فلا عجب – إذن – أن يكون من أُرسل لتبليغ هذا الدين قد وصفه الله عز وجل بأنه رحمة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وإن الانحراف عن المبادئ الأخلاقية هذه – لا سيما العدل – هو الذي يجعل الناس يلجؤون للنزاعات والحروب غير العادلة. ولهذا فإن الإسلام يحض على الالتزام المطلق بهذه المبادئ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقد علق أحد مفسري القرآن المشهورين على هذه الآية بقوله: «هذا يعني أن العدل واجب على كل أحد مع كل أحد في كل حال»[(١)].

أسباب اللجوء للحرب:

هل في دين الإسلام مكان للحرب؟ نعم.. ولكن لأسباب ليس من بينها جعل الناس يعتنقون الإسلام. إننا نعيش في عالم غير كامل. فهناك من تجنب محاربتهم ليعيش غيرهم في سلام. هؤلاء الذين ينبغي محاربتهم هم من يلجؤون إلى أفعال تتسم بالظلم والجور، وذلك مسوغ للحرب في الإسلام. وأعمال الظلم والإجحاف التي تبرر شن الحرب على مرتكبي هذه الأعمال تأخذ عدة أشكال مثل:

١) قيام من هم في السلطة باضطهاد أولئك الذين يختارون الإسلام كدين.

٢) طرد هذه الفئة من ديارها.

٣) شن الحرب على فئة (من المسلمين أو غير المسلمين) بهدف احتلال ديارهم أو نهب ثرواتهم أو استعبادهم.

ولا أحد يشكك في عدالة شن الحرب ضد مرتكبي مثل هذه الجرائم، ولكن وحتى في مثل هذه الحالات فإن الأمر الإسلامي باللجوء للحرب لم يكن بأي حال من الأحوال مطلقاً. فهذه الحرب تكون شرعية إذا ما التزمت بأهداف الإسلام – أي نشر

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير للآية [٨] من سورة المائدة.

الخير والحد من الشر في هذا العالم. وإذا ما كانت عواقب شن حرب ما حسنة أم سيئة فهذا أمر يتوقف على الظروف والملابسات في ذلك الوقت. وبسبب هذا المنطق الأخلاقي أمر المسلمون في عهد النبي ﷺ بالتعامل مع أعدائهم بطرق مختلفة وفقاً للظروف المختلفة.

ففي البداية أمروا بأن يقتصروا على الجهاد اللفظي ضد أعدائهم ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وهذا يوضح أنه رغم أن الجهاد يكون بالقوة العسكرية ولكن معناه الأساس هو جهاد الكلمة والحجة والجدال. وهذا ينسجم مع الحقيقة التي ذكرناها آنفاً وهي أنه بالاختيار فقط دون غيره يكون الشخص مسلماً.

أمروا أيضاً أن يكفوا أيديهم حتى عند الدفاع عن النفس ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].
والسبب الرئيس وراء هذا أن عددهم كان قليلاً وكانوا يعيشون تحت سلطان أولئك الذين يضطهدونهم. فأي محاولة للمقاومة المسلحة سوف تنتهي بهم إلى الإبادة التامة.

ولتجنب الاضطهاد سمح لهم بالهجرة إلى أماكن آمنة. فهاجر بعضهم – بإشارة من النبي ﷺ – إلى الحبشة حيث هناك – حسب كلمات النبي ﷺ: **(ملك لا يظلم عنده أحد)** وبعدها هاجروا جميعاً – وفيهم النبي ﷺ – إلى المدينة.

وبعد أن استقروا وأصبحت لهم أرضهم سمح لهم بالقتال وأسباب هذا السماح سبق توضيحها من قبل. ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠].

وبعدها لم يسمح لهم فقط بل أمروا أن يقاتلوا الذين يقاتلونهم ولكن عليهم إلا يعتدوا. ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩١]، ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡ﴾ [التوبة: ١٣]، ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ﴾ [التوبة: ٣٦].

وأخيراً أمروا أن يقاتلوا جميع الذين يرتكبون أفعالاً تنطوي على فتنة. ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وقد فسر أحد أصحاب النبي ﷺ هذه الآية بقوله: إن هذا الأمر كان عندما كان المسلمون قليلي العدد معرضين للفتنة، ولكن عندما أصبح عددهم كبيراً فلا وجود لمثل هذه الفتنة[1].

فالحرب العادلة ينبغي شنها حتى ضد المسلمين البغاة. ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

ولكي تكون الحروب ضد المعتدين عادلة تماماً وفعالة فهناك شروط ينبغي تحقيقها:

(أ) أن يكون المسلمون الذين يشنون هذه الحروب يتمتعون بالقوة المادية، إذ إن القوة المعنوية وحدها لا تكفي. وفي إشارة إلى أولئك النفر الذين يرتكبون أعمال الجور

---

(١) تفسير ابن كثير للآية [٣٩] من سورة الأنفال.

والبغي، أشار القرآن للمسلمين بأن يأخذوا العدة لمواجهتهم ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

(ب) يجب بذل جهود كبيرة ومخلصة لحل المشكلة بالطرق السلمية وذلك بالتفاوض مع المعتدي سواء أكانت حكومة أو جماعة ومحاولة جعلهم يدركون عدم أخلاقية أفعالهم وأن العواقب سوف تكون وخيمة عليهم إذا ما نشبت الحرب.

(ج) استهداف المقاتلين فقط.

(د) عدم الحاق الضرر بالأراضي والمزارع والحيوانات أو أي شيء مفيد لحياة البشر.

(هـ) عدم اللجوء للحرب من أجل مكاسب دنيوية أو لنوازع تحركها اعتبارات عنصرية.

(و) يجب إيقاف الحرب بمجرد أن يجنح العدو للسلم.

(ز) بحسب الأحوال، فإنه ينبغي أن تكون اتفاقيات السلام – حتى من البغاة – هي الخيار الأفضل.

معاهدات السلام:

مواصلة لنهجه في إبلاغ رسالته عقد النبي -صلى الله عليه وسلم- معاهدات مع بعض المجموعات التي لم تستجب وتقبل دعوته. وكان أول ما قام به بصفته رئيس الدولة المدنية – توقيع معاهدة مع اليهود المستوطنين في المدنية آنذاك، وأعقب ذلك بتوقيع عدد من المعاهدات مع قبائل ومجموعات عربية مختلفة.

ولكن أهم هذه المعاهدات السليمة هي التي عرفت بصلح الحديبية بين النبي صلى الله عليه وسلم وأعدائه الألداء من قومه في مكة الذين ناصبوا المسلمين العداء وعذبوهم ودخلوا في حروب شعواء ضدهم. ولعل تناول هذا الصلح هنا يثبت بصورة واضحة ما ذهبنا إليه من أن أفضل السبل لنشر الإسلام هي سبل السلم.

فبينما كان النبي ﷺ في طريق عودته إلى المدينة بعد توقيع هذا الصلح نزل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١].

وعندما سأل أحدهم: أو فتح هذا يا رسول الله؟ كان رد النبي ﷺ: **(نعم والذي نفسي بيده إنه لفتح).**

لماذا سأل هذا الرجل؟ وأي نوع من الفتح هذا؟

سأل الرجل لأنه نصوص الصلح تبدو غير عادلة بالنسبة للمسلمين. لقد جاء المسلمون لأداء العمرة وهي حسب التقاليد العربية التي ظلت سائدة منذ عصور سحيقة – حق لكل الناس. ولكن قريشاً رأت في أداء المسلمين لهذه العمرة نوعاً من النصر لهم رغم تأكيدات النبي ﷺ مراراً أن نيتهم دينية خالصة وليس لديهم أي نية للقتال. لكن قريشاً أصرت على إلا يؤدي المسلمون العمرة في ذلك العام وأن عليهم أن يعودوا في العام الذي يليه بشروط معينة. وافق النبي ﷺ ووقع معاهدة عدم اعتداء لمدة عشر سنوات. ولكن المعاهدة تحوي نصاً يقول إنه إذا فر مسلم من مكة إلى المدينة تجب إعادته إلى مكة، أما إذا ذهب مسلم من المدينة إلى قريش فلا يعاد إلى المدينة.

أي نوع من النصر هذا؟

هذه هي الإجابة: فقد عندما تكون هناك حرب يكون هناك كفر وإعراض، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازلة، فلم يكلم أحد بالإسلام بعقل إلا دخل فيه. ولقد كان عدد الذين دخلوا في الإسلام خلال العاملين الأولين من هذه المعاهدة مساوياً أو أكثر من عدد الين اعتنقوا الإسلام من قبل. وهذه حقيقة[1]. وهذه حقيقة ثبت فيما بعد، فعندما جاء النبي ﷺ إلى الحديبية كان معه ألف وأربعمائة من المسلمين، لكنه عندما ذهب لفتح مكة بعد عامين من ذلك التاريخ كان معه عشرة آلاف مسلم[2].

لقد وجد الكثير ممن يرغب في الإسلام ولكنه كان خائفاً من قبوله أو الذهاب إلى المدينة بسبب حالة الحرب[3]. لقد تمثل النصر بصورة رئيسة في دخول الناس في دين الإسلام. إنه لأمر طبيعي يتسق مع تعاليم الإسلام أن يسمى فتحاً أو نصراً، إذ إن الهدف

---

(١) ابن حجر – فتح الباري – كتاب الشروط في الجهاد.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

الرئيس للمسلمين هو دعوة الناس إلى دين الله وليس قتلهم أو تعذيبهم. إننا نلجأ للحرب ليس كوسيلة لجعل الناس يعتنقون الإسلام ولكن عندما تكون هي الطريق الوحيد لإيقاف عدوانهم وجورهم.

ومن المهم أن نذكر أن النبي ﷺ هو من اتخذ المبادرة المتعلقة بهذه المعاهدة أو الصلح. فقد خاطب النبي ﷺ قريش الذي جاء لمقابلته قبل دخول المسلمين إلى مكة محاولاً إقناعه أن السلام من مصلحتهم كان النبي يردد (يا قريش) وطلب من رسول قريش إبلاغها: (**أن الحرب قد أكلتهم، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، إن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة**).

التعايش السلمي:

إننا في زمن يختلف عن الأزمان السابقة. فاليوم نرى الناس من مختلف المعتقدات والجنسيات والألوان والأعراف يجدون أنفسهم ملزمين بالعيش جنباً إلى جنب في قرية كونية حيث ترتبط صالحهم بعضهم مع البعض. لكنه في الوقت نفسه عالم به كميات هائلة مما يعرف بالأسلحة التقليدية التي يمكن أن تحدث خراباً هائلاً للبشر ومقومات الحياة على هذه الأرض. وهو عالم مليء بمخزون من أسلحة الدمار الشامل يكفي ما هو موجود منها في الولايات المتحدة وحدها للقضاء على الإنسانية كلها. ويبدو أنه لا مناص للبشر – لتفادي هذه النتيجة المروعة – غير القبول بالعيش بسلام بعضهم مع البعض مهما كانت الخلافات بينهم. ولا يكفي مجرد رغبة سكان العالم في التعايش السلمي بل عليهم أن يعززوا من الحاجة إلى مؤسسات دولية تقوم بصون هذا السلام. لكن عليهم أكثر من ذلك الالتزام بالمبادئ الاخلاقية التي بدونها لن تعمل هذه المؤسسات بصورة جيدة.

١) ينبغي أن تقوم المنظمات الدولية على العدل. وعلى الدول العظمى أن تعي أن هذا العدل في النهاية هو في مصلحة شعوبها وهي مصلحة يجب الإقرار بها حتى تكون أكثر أهمية بالنسبة لهم من مصالحهم المادية. يمكن لأية دولة عظمى أن تستخدم قوتها الاقتصادية والعسكرية لقهر وإخضاع الدول الضعيفة وأن تبرر ذلك الادعاء أن ذلك حماية لمصالحها القومية. وحقيقة الأمر أنه لا يوجد أدنى فرق أخلاقي بين هذا

المنطق وذاك الذي يقول به شخص قام بسلب ممتلكات شخص آخر بذريعة تحسين وضعه المعيشي.

٢) سوف تفقد المؤسسات الدولية – مثل الأمم المتحدة – وظيفتها كوسيلة لصون السلم العالمي إذا ما أصبحت أداة في أيدي الدول العظمى. لكن وللأسف هذا هو الوضع الآن. وليس هذا هو الوضع الذي ارتضته الدول الضعيفة ولكنه الوضع الذي اراده ممثلو الدول العظمى. بل أكثر من ذلك فهم يتباهون به. إن هيمنة وجهات نظر الدول العظمى فيما يخص هيئة الأمم المتحدة قد عبر عنه في العام ١٩٩٢م فرنسيس فوكوياما – الذي عمل في وزارة الخارجية الأمريكية في فترة إدارة كل من الرئيسين السابقين رونالد ريجان وجورج بوش الأب – عندما ذكر أن الأمم المتحدة هي أداة لخدمة السياسة الأحادية للولايات المتحدة وحقاً ربما يكون تكون الآلية الرئيسة التي يمكن بها تطبيق السياسة الأحادية هذه في المستقبل[١].

الغرب يحاول وسوف يستمر في محاولة الحفاظ على أوضاعه والدفاع عن مصالحة بحجة أنها تمثل مصالح (المجتمع الدولي). لقد أصبحت عبارة (المجتمع الدولي) التي حلت محل عبارة (العالم الحر) في نفسها الاسم الملطف الذي يمنح الشرعية لكل الأعمال المعبرة عن مصالح الولايات المتحدة الأمريكية وسائر القوى الغربية الأخرى[٢].

٣) إن الالتزام بالمبادئ الأخلاقية – وعلى وجه الخصوص العدالة – هو الضمان الوحيد ضد انتشار أسلحة الدمار الشامل. إن الدول الضعيفة لن ترى أنها بحاجة إلى امتلاك هذه الأسلحة إذا ما شعرت أن عدم امتلاكها لن يعرض بقاءها وسيادتها للخطر، وسترى أن من الحكمة إنفاق ما يُنفق على هذه الأسلحة على أشياء أكثر أهمية منها.

---

(١) نعوم تشوميسكي – الهيمنة أو البقاء محاولة أمريكا الهيمنة على العالم – هنري هولت وشركاه – نيويورك – ٢٠٠٣ م – ص٣٩.

(٢) صمئويل هينتنجتون –صدام الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي – تشوستون، نيويورك ١٩٩٦ ص١٨٤.

ولكن إذا ما شعرت هذه الدول بتعرضها للإذلال بسبب عدم امتلاكها هذه الأسلحة فسوف تعمل جاهدة لامتلاكها مهما كان ثمنها وبغض النظر عن المعاهدات التي وقعتها في هذا الشأن.

٤) المدفوعون بنزعة الهيمنة عليهم أن يتذكروا أن هناك الكثيرين المدفوعين بغريزة حماية وصون كرامتهم وهي دافع أقوى مما لديه.

فالكثيرون يمكن أن يضحوا بحياتهم من أجل كرامة شعوبهم.

٥) ليست القيم الأخلاقية وحدها التي يمكن أن تكبح أولئك الذين يمتلكون قوة عسكرية هائلة عن عدم استخدامها بصورة جائرة. وبفضل التطور الذي حدث في الأسلحة وصناعتها يمكن أن نرى قريباً أفراداً أو مجموعات صغيرة تمتلك أسلحة صغيرة الحجم ولكنها ذات دمار شامل وليس من الصعوبة الوصول إليها.

٦) لا ينبغي استخدام الأمم المتحدة والمؤسسات الدولية الأخرى كمنار تستغلها الدول العظمى لفرض قيمها – وبخاصة القيم العلمانية – أو غيرها. إن أعضاء منظمة الأمم المتحدة لا ينتمون لمختلف البلدان فحسب، بل لمختلف الثقافات والقيم والمعتقدات، ولكي يجتمع هؤلاء الناس تحت مظلة واحدة ويتعاونوا على مواجهة المشكلات فإنه من الضروري جداً لهم أن يعترفوا بهذه الاختلافات الجوهرية وأن يلجؤوا للوسائل السليمة لحل هذه الخلافات. إن التغيير الثقافي سواء كان للأفضل أو الأسوأ يأتي تدريجياً واختيارياً. وإن استخدم منظمة مثل هيئة الأمم المتحدة لإحداث التغيير الثقافي للشعوب سوف يولد نوعاً من عدم الاحترام لهذه المنظمة، وبالتالي يشجع الدول على عدم الالتفاف إلى قراراتها. وإنه لمن المؤسف أن هناك الكثيرين في الغرب الذين يعتقدون أن أسلوب حياتهم هو الأسلوب الأمثل لكل من ينشد حياة عصرية. إنهم ببساطة يريدون من الآخرين أن يختاروا النظام السياسي الذي اختاروه هم، وأن يفسروا الدين بالطريقة التي يفسرون بها الدين، وأن تكون العلاقات بين الجنسين هي العلاقة السائدة في مجتمعاتهم وأن يمتنعوا عن التصرف بأية طريقة تعتبرها دولة – مثل الولايات المتحدة – لا تخدم مصالحها القومية.

* * *

الإسلام والإرهاب

(ورقة قدمت لمؤتمر رابطة العالم الاسلامي في مكة المكرمة).

لم يكتف بعض الكتاب والمفكرين الغربيين بما تبذله حكوماتهم من جهد للبحث عن من قاموا بعملية ١١سبتمبر وعقابهم، ولم يروي غليلهم ما حدث من هجوم شرس على أفغانستان، بل بدأوا يبحثون عما يسمونه بالأسباب الفكرية الجذرية لذلك الحدث الذي أطلقت عليه صفة الإرهاب، فادعى بعضهم أنها تكمن في التعاليم الإسلامية، ولا سيما ما يسمى بالوهابية.

يدل على بطلان هذا الزعم أمران:

أولهما: كما ذكر بعض المنصفين من الكتاب الغربيين أن كراهية الغرب، والاعتداء عليه ليس قاصرا على بعض الجماعات الإسلامية، بل هو أمر يشاركهم فيه أصحاب حضارات أخري يقول أحدهم في مقال له بجريدة نيويورك تايمز: «إن نوع الاعتداء الجريء العنيف الذي نربطه الآن بالإسلاميين كان - بدلاً عن ذلك - مرتبطا منذ قرون بأماكن مثل اليابان وكوريا والصين" ثم يقول "والمسلمون ليسوا محتكرين للتكتيكات الانتحارية».

ويذكرهم بعضهم بأن جماعات أمريكية نصرانية أصيلة قامت بأول عمل إرهابي كبير على الولايات المتحدة.

وثانيهما: أنه حين يُعرَّف الإرهاب تعريفاً صحيحاً يربطه بالظلم والعدوان والإجرام، فإن الإسلام أبعد شيء عنه كما سنبين.

لكن المشكلة أن كلمة الإرهاب في استعمالها الحديث كلمة غامضة لا يتفق الناس على معنى محدد لها. فلنبدأ إذن باستعراض بعض تعريفات الإرهاب ومناقشتها، وبيان فضل المفهوم الإسلامي عليها.

تعريف الإرهاب:

تقول جماعة أمريكية معنية بدراسة الإرهاب: إن الإرهاب بطبيعته أمر يصعب تعريفه. حتى حكومة الولايات المتحدة لم تستطع أن تتفق على تعريف واحد. فالمثل السائر يقول إن الإرهابي عند شخص هو مناضل من أجل الحرية عند شخص آخر.

تعرف موسوعة Encarta الإلكترونية الأمريكية الإرهاب بأنه: استعمال العنف، أو التهديد باستعمال العنف، من أجل إحداث جو من الذعر بين أناس معينين. يستهدف العنف الإرهابي مجموعات إثنية أو دينية، أو حكومات، أو أحزاب سياسية، أو شركات، أو مؤسسات إعلامية.

أما الكونغرس الأمريكي فيعرف الإرهاب بأنه: "عنف واقع عن قصد وترو وبدوافع سياسية تستهدف به منظمات وطنية، أو عملاء سريون جماعة غير محاربة يقصد منه في الغالب التأثير على مستمعين أو مشاهدين

وأما وكالة التحقيقات الفدرالية F.B.I. فتقول عن الإرهاب إنه: استعمالٌ - أو التهديد باستعمال - غير مشروع للعنف ضد أشخاص أو ممتلكات لتخويف أو إجبار حكومة أو المدنيين كلهم او بعضهم لتحقيق أهداف سياسية أو اجتماعية.

في هذه التعريفات كلها خلل أساس هو نسيانها أو تناسيها للمعنى اللغوي الأصلي للكلمة وهو معنى تتفق عليه الكلمتان الإنجليزية والعربية.

يقول لنا أحد قواميس اللغة الإنجليزية إن كلمة terror تعني "استعمال العنف لتحقيق أغراض سياسية ثم يعطينا على هذا الاستعمال مثلا بجملة تقول " إن حركة المقاومة بدأت حملة من العنف terror ضد قوات الاحتلال." فالإرهاب إذن قد يكون أمراً مشروعاً ومحموداً. وبهذا المعنى المحمود المشروع استعملت الكلمة في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فكلمة الإرهاب هي إذن ككلمات القتال والحرب قد تدل على معنى محمود كما قد تدل على معنى مذموم بحسب نوع الإرهاب أو القتل أو الحرب. وعليه فلكي تؤدي المعنى المذموم الذي يراد لها أن تؤديه في الاستعمال الذي بدأ يشيع الآن، فلا بد من تقييدها بوصفٍ مثل العدواني أو الظالم. هذا أمر لازم ولا سيما للمسلمين. إنه لا يجوز أبداً أن نحصر كلمة الإرهاب في المعنى المذموم ما دام كتاب ربنا قد دل على أنها يمكن أن تستعمل بمعنى محمود.

لذلك أعود فأقترح أن نقيد المعنى المذموم للإرهاب بأنه الإرهاب العدواني. وآنذاك سيكون معناه الأساس واضحاً. أما الزيادات التي تجعل التعريف اصطلاحياً فيبدو أنه

ليس من الصعب الاتفاق عليها، ولا سيما إذا قلنا كما يقول بعض دارسي الإرهاب في الولايات المتحدة إن التعريفات الاصطلاحية تختلف باختلاف الغاية منها. فتعريف الكونغرس يقصد منه إحصاء العمليات الإرهابية في العالم، وتعريف وكالة الاستخبارات يقصد منه تتبع المعتدين على الولايات المتحدة. نعم سيبقى هنالك اختلاف فيما يعد مشروعاً وما لا يعد. لكن هذا أمر يرجع إلى ثقافات الناس وأديانهم وفلسفاتهم، وهي أمور يمكن أن يدور فيها حوار عقلاني راشد. فمهمتنا إذن باعتبارنا مسلمين أن نبين للعالم ما الذي نعده إرهابا عدوانيا، وكيف نقي الناس شر هذا العدوان.

من العناصر التي لا بد من إضافتها إلى المعنى اللغوي كي يصير اصطلاحاً:

تحديد نوع القائمين بالإرهاب ومع أن الناس يتكلمون أحياناً عن إرهاب الدولة إلا هنالك شبه إجماع على أن المقصود بالإرهاب في المعنى الاصطلاحي هو ما تقوم به منظمات وجماعات لا حكومات.

تحديد من يقصدون بالعنف. وفي هذا اختلاف فبينما يرى البعض أن يحصر معنى الإرهاب في العنف الذي يقصد به إصابة أهداف أو جماعات غير عسكرية يرى بعضهم أن يكون شاملا لهذا كله.

تحديد الغرض منه وهو كونه وسيلة لتحقيق أهداف سياسية أو اجتماعية.

نستطيع الآن وفي ضوء هذا الشرح لمفهوم الإرهاب أن نتبين موقف الإسلام منه

العلاج الإسلامي لمشكلة الإرهاب:

فنقول إذن وبالله التوفيق إن الإسلام هو أبعد شيء عن إرهاب الناس وترويعهم وقتلهم. إنه حين يفعل ذلك ببعضهم إنما يفعله ردا على عدوانهم أو إيقافا له أو عقابا على جرم ارتكبوه. وأن هذا الدين لا يكتفي بإدانة الإرهاب العدواني بل يتعدى ذلك إلى وضع وسائل لعلاجه. فهو يعالجه علاجاً نفسيا علميا، وعلاجا تنظيميا، وعلاجا عقابيا، وعلاجا إصلاحيا.

العلاج النفسي العلمي:

العلاج النفسي هو العلاج الأساس وذلك لأن أعمال الناس خيرها وشرها إنما مبعثه تصوراتهم ومعتقداتهم وقيمهم وعلومهم. فالإسلام يعالج كل أنواع الظلم البشري بهداية الناس إلى الإيمان بالله تعالى الذي هو أساس كل خير فيها، والذي هو أهم

مكون للفطرة التي فطر الله الناس عليها. فإذا ما ذاقت النفس حلاوة الإيمان سهل عليها العمل بالطاعات واجتناب المنهيات.

ثم تأتي العبادات التي هي أقوى داعم للإيمان، وأهمها الصلاة " إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر"

فإذا ما تهيأ القلب هكذا لاستقبال أوامر الله ونواهيه، جاءته الأوامر التي تفصل له أعمال الخير كي يأتيها وتفصل له أعمل الشر كي يجتنبها. الهدى الإلهي المتمثل في هذه الأوامر والنواهي شامل لكل شأن من شؤون الحياة الإنسانية بما في ذلك شأن الإرهاب والقتال فنحن مأمورون بأن يكون جهادنا - الشامل للإرهاب والقتال - خالصا لإعلاء كلمة الله تعالى، وأن يكون لذلك في حدود القيم الرفيعة التي يحبها الله تعالى، وإلا يتجاوزها إلى الوقوع فيما لا يرضي الله عز وجل من الظلم والبغي والكذب والغش والغدر، واتباع أهواء الغضب والانتقام للنفس، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

مما قاله الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أي ولا يحملنكم بغض من كانوا صدوكم عن المسجد الحرام وذلك عام الحديبية على أن تعتدوا حكم الله فيهم فتقتصوا منهم ظلما وعدوانا، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في حق كل أحد... فإن العدل واجب على كل أحد في كل أحد في كل حال. قال بعض السلف ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه. والعدل به قامت السماوات والأرض».

هذ الموقف الإسلامي الداعي إلى العدل وإلى عدم العدوان ليس موقفا تكتيكيا مؤقتا وإنما هو موقف نابع من أصل هذا الدين وطبيعته، وذلك:

أولا: لأن هذا الدين - كغيره من أديان الحق التي بعث بها رسل الله تعالى - إنما هو دعوة إلى تعريف الناس بربهم وهدايتهم إلى عبادته، وأن يعيشوا بهذه العبادة سعداء في هذه الحياة الدنيا، وفي الدار الآخرة.

ثانياً: لكن الاهتداء الحقيقي أمر قلبي لا يجدي معه ترويع أو تهديد بإلحاق أذى أو بقتل، وإنما الذي يجدي معه - لمن كان مستعدا للهداية - أن يعرف الحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم معرفة يستقينها قلبه.

ثالثاً: ولذلك كانت المهمة الأولى لرسل الله جميعا - بما فيهم رسولنا الكريم - ومهمة أتباعهم الراشدين من بعدهم هي تبليغ هذا الحق تبليغا بينا، والمجادلة عنه بالحجج والبراهين التي تزهق كل شبهة تثار حوله. وعليه كان الجهاد الأول والدائم هو الجهاد بالقرآن. قال تعالى: وجاهدهم به جهادا كبيرا

رابعاً: ولهذا كان للمتسبب في هداية إنسان إلى هذا الحق أجر عظيم دونه أجر قتله حتى حين يكون القتل مشروعا. روى البخاري ﷺ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ: **(لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ)** فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَى فَغَدَوْا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ فَقَالَ: **(أَيْنَ عَلِيٌّ؟)** فَقِيلَ: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ فَقَالَ: أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا فَقَالَ: **(انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى الإسلام وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ)**.

قال ابن حجر في الفتح معلقاً على هذا الحديث: « يؤخذ منه أن تألف الكافر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله».

خامسا: وبما أن حال السلم حال أدعى إلى الاستماع والنظر والتفكر في الإسلام حين يعرض على من لم يسلم فإنها مفضلة في الإسلام على حال الحرب. قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١].

وسمى الله تعالى صلح الحديبية فتحا. فأي فتح كان؟ يجيبنا الزهري بقوله

فما فُتِحَ في الإسلام فتح قبله كان أعظم من فتح الحديبية، إنما كان القتال حيث التقى الناس. ولما كانت الهدنة، ووضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس كلّم بعضهم بعضاً، والتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يُكلّم أحد بالإسلام يعقل شيئاً في تلك المدة إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر

قال ابن حجر مؤيداً الزهري: « فإن الناس لأجل الأمن الذي وقع بينهم اختلط بعضهم ببعض من غير نكير، وأسمع المسلمون المشركين القرآن، وناظروهم على الإسلام، جهرة آمنين، وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خفية».

وقال ابن هشام أيضاً مؤيداً للزهري: «ويدل عليه أنه صلى الله عليه وسلم خرج في الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج بعد سنتين إلى فتح مكة في عشرة آلاف».

نستخلص من كلام هؤلاء العلماء الثلاثة أن الفتح تمثل أساساً في كثرة عدد من دخلوا في الإسلام بسبب الصلح.

قد يسأل سائل: إذا كان السلم والصلح والموادعة هي خيار الإسلام فلماذا إذن يدعو إلى إعداد القوة الحربية ولماذا إذن يدعو للجهاد القتالي ويجعل للمجاهدين تلك الدرجات العالية التي نعرفها؟ الجواب يسير: إن الله تعالى الذي خلق الخلق يعلم أن بعضهم لا يكتفي بالكفر بالحق، بل إنه ليكرهه ويكره المستمسكين به ويبذل أقصى ما في وسعه لعدم انتشاره. لا بد للحق إذن من قوة مادية تحميه وتحمي المستمسكين به من مثل هذا العدوان. فالجهاد إنما شرع لمحاربة المعتدين، بل وحتى لمحاربة البغاة من مسلمين.

لكن الإسلام يضع حتى لمثل هذا القتال المشروع من الضوابط الخلقية ما لا يضعه الفكر الغربي لما يسميه بالحرب العادلة. من ذلك:

❖ الأمر بالعدل حتى مع الأعداء وعدم العدوان عليهم، وأنهم لا يقاتلون أو يقتلون بسبب كفرهم بل بسبب عدوان المعتدي منهم على الدين الحقِ، أو على المستمسكين به.

❖ تشجيع المقاتلين على قبول السلم والمسارعة إلى قبوله إذا ما عرضوه.

❖ عدم الغدر

العلاج التنظيمي:

إن المسلمين مأمورون بأن يجاهدوا عدو الله وعدوهم، وأن يدفعوا عن دينهم وأنفسهم. لكن الجهاد عمل جماعي لا يستقل به فرد أو بعض أفراد، ولا يؤتي ثماره إذا صار عملا فرديا ولا سيما جهاد عدو قوي يملك من العدد والعدة الشيء الكثير. لذلك كانت أمور الحرب في الإسلام مهمة الدولة المسلمة فهي التي تقرر زمانه ومكانه وهي

التي تزن مضار القتال ومصالحه في كل حال من الحالات، في ضوء إمكاناتها وإمكانات عدوها. تفعل ذلك كله بعد استشارة الناس لأن أمر القتال يهمهم جميعا ويؤثر فيهم جميعا. هكذا كان يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون من بعده، ثم كثير ممن أتى بعدهم من ولاة أمور المسلمين. ولا يشترط في التعاون مع ولي الأمر الذي يؤدي هذه المهمة نيابة عن الأمة أن يكون حاكماً عادلاً صالحاً، بل إنه ليقاتل معه وإن كان فاجراً.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (لا بد للناس من إمارة برة كانت أو فاجرة). قالوا: هذه البرة قذ عرفناها. فما بال الفاجرة؟ فذكر من فوائد الفاجرة أنه يُجاهد بها العدو، لكن بعض إخواننا صاروا يفتون في السنين الأخيرة بأنه يجوز حتى للأفراد أن يتولوا قتال الأعداء مستقلين عن الحكام. وهم يستدلون على جواز ذلك بقصة أبي بصير. وهذا من عجائب الاستدلال الذي يوشك أن يكون من اتباع المتشابه. إذ كيف تؤخذ حادثة واحدة دليلاً على مخالفة أمر تضافرت على تقريره النصوص القولية والتطبيقات العملية؟ وكيف حين يجعل هذا قاعدة مطلقة لا استثناء مقيداً بشروط؟ على أن المتأمل في قصة أبي بصير رضي الله عنه يرى - بإذن الله تعالى - أنه لا دليل فيها على ما سيقت لتسويغه. فأبو بصير لم يكن - من الناحية الرسمية كما يقال اليوم - تابعا للمجتمع الإسلامي ولا خاضعا لسلطته، وإنما كان تحت سلطة كافرة منعته من حق من حقوقه وهو الانتقال إلى بلاد المسلمين التي هداه الله للدخول في دينهم. فلما منعوه من ذلك تمرد عليهم وأتعبهم حتى أجابوه إلى طلبه. فلما التحق بالمجتمع المسلم وصار تحت قيادة الرسول ﷺ كف عن فعله. فالاستدلال الصحيح بقصة أبي بصير يكون على أفراد في مثل حاله تابعين لدول كافرة تمنعهم ظلماً وعدواناً من الهجرة إلى بلاد المسلمين، ويرون أنفسهم قادرين على إلحاق الأذى بدولتهم المعتدية إلحاقا يجبرها على الاستجابة لهم ولا يلحق بالمجتمع المسلم ضرراً. يقول بعضهم لكن الرسول ﷺ هو الذي أشار لأبي بصير أن يفعل ما فعل وإن كانت إشارته بطريقة غير مباشرة. ونقول إنه ليس في هذا أيضا دليلاً على جواز أن يتولى الأفراد أمر القتال مستقلين عن الجماعة المسلمة متمثلة في ولاة أمورها. لأنه إذا كان أبو بصير قد

فعل ما فعل بإشارة من النبي ﷺ لم يعد فعله أمراً فردياً، لأن الذي يؤدي عملاً من أعمال الجهاد بأمر ولي الأمر يكون عمله ضمن خطة عامةٍ فلا يكون إذن عملا فردياً. يقول بعضهم ماذا إذا لم يكن الحكم في بلدنا إسلامياً. نقول انتقل إلى بلد يكون الحكم فيه إسلامياً، وإن لم تستطع فعد نفسك تابعا له حيثما كنت. يقول بعضهم ماذا إذا لم يكن على وجه الأرض كلها حاكم مسلم؟ نقول هذه إن صحت تكون مشكلة أكبر من قتال الكفار، فالعمل على علاجها يكون مقدما على القتال، اللهم إلا إذا كان القتال دفعا لعدو غزا المسلمين في عقر دارهم.

العلاج الحسي:

وأعني به إجبار الإرهابي المعتدي على إيقاف اعتدائه ومعاقبته على الاعتداء. لعل أقرب مثال إلى الإرهاب العدواني بمعناه الاصطلاحي الحديث هو عدوان أهل البغي. فهؤلاء أيضا جماعة تخرج على الحاكم المسلم الشرعي وتقاتله بغرض إزالته، أو تقاتل جماعة أخرى من المسلمين. فالله تعالى يأمرنا بأن لا نقف مكتوفي الأيدي في مثل هذه الحال بل نقاتل الفئة الباغية حتى تكف عن بغيها امتثالا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم "انصر أخاك ظالما أو مظلوما" وبالطريقة التي فصلها لنا الله تعالى في قوله "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما..."

العلاج الإصلاحي:

وأعني به فتح باب الأمل أمام مرتكب العدوان، وعدم تيئيسه من الكف الطوعي عن عدوانه وهذا يكون بأمرين: أولهما أن يكون العقاب عادلا لا يتجاوز الحد، وإلا كان هو نفسه ظلما وعدوانا، وثانيهما إلا يكون العقاب نهاية المطاف، بل يعقبه استعداد للتفاوض مع المعتدي ومصالحته وقبوله.

إن إغلاق باب التوبة والأوبة على المعتدي من شأنه أن يغريه بالاستمرار في عدوانه إما دفاعا عن نفسه وإما يأسا من وجود مخرج. ولهذا فتح الله تعالى هذا الباب حتى للمفسدين في الأرض المحاربين لله ورسوله، فقال سبحانه "إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم..

* * *

البخاري غير معصوم.. لكن كل ما في كتابه صحيح

دراسة نشرت في مجلة الدعوة السعودية بتاريخ ٤/١/ ١٤١١هـ.

هل يلزم من كون البخاري غير معصوم أن توجد في كتابه الذي بين أيدينا الآن أحاديث غير صحيحة مخالفة لكتاب الله أو لصريح العقل أو للحقائق الحسية؟ هكذا يظن بعض الناس في أيامنا هذه، ولكنه ظن تكذبه قواطع الأدلة كما سأبين بعدُ بإذن الله تعالى. لو كان ما في البخاري مجموعة آراء لرجل من بخارى اسمه محمد إسماعيل إبراهيم لقلنا يستحيل أن تكون آراؤه أو آراء أي بشر مثله كلها صحيحة لأن الله تعالى يقول عن القرآن العظيم.. ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، لكن الكتاب الذي نحن بصدده ليس تسجيلاً لآراء بشر، إنما هو جامع لما يقرب من ثلاثة آلاف حديث من الأحاديث النبوية الصحيحة. فهل من المستحيل عقلاً أو شرعاً على إنسان غير معصوم أن يجمع هذا العدد من الأحاديث النبوية في كتابٍ واحد من غير أن يخطئ فيجعل فيها أحاديث ضعيفة أو موضوعة؟ ولو كان البخاري هو وحده الذي عزا هذه الأحاديث إلى النبي ﷺ فلربما قلنا إنه قد يُستبعد على بشر عادي أن يروي هذا القدر الكبير من الأحاديث من غير أن يخطئ في شيءٍ مما روى. لكن البخاري لم يكن أول من عزا هذه الأحاديث إلى النبي ﷺ، فقد كانت هذه الأحاديث معروفة للعلماء، متداولة بينهم، حتى قبل أن يُولد الإمام البخاري رضي الله عنه. كل ما فعله البخاري أنه جمع قدراً من تلك الأحاديث المشهود لها بالصحة، وبَوبَها تبويباً رائعاً يدل على عمق فقهه وحِدة ذكائه. وهو لم يجمع كل ما ثبت له صحته من الأحاديث ولا أراد ذلك، كل ما حرص عليه إلا يُدخل في كتابه حديثاً غير صحيح، ومن هنا كان الاسم الكامل للكتاب: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه. ولو كان البخاري هو وحده الذي حكم لهذه الأحاديث بالصحة، لأمكن أن يُقال ربما كانت المعايير التي وضعها للحكم على الأحاديث بالصحة أو عدمها غير صائبة كلها أو بعضها. إن بعض من لا فقه لهم يتصورون أن الإمام البخاري جلس على أريكته، ونظر إلى سقف بيته ثم قال –

بمجرد التشهي – إن الحديث الصحيح ينبغي أن يكون كذا وكذا. ثم جاء العلماء من بعده فسلموا له في سذاجة بالغة بهذا الذي قرره، وقلدوه في الحكم على أحاديثه بالصحة.

قد يقول بعض القراء: إذن ما الذي حدث؟ من الذي وضع شروط الصحة والضعف للأحاديث؟ وعلى أي أساس؟ وسواء كان هو البخاري أو غيره فإنما هم بشر يُخطئون ويصيبون، فلماذا نلتزم بما قرروا؟ هذا سؤال مهم، أرجو أن يكون في بيانه ما يُزيل عن القلوب شبه الموسوسين والمرتابين ويرد إليها برد اليقين بصحة ما صحح العلماء – ولاسيما البخاري – من أحاديث الرسول ﷺ. إن ما يُعد حقيقة وما لا يُعد – في أي علم من العلوم الدينية والدنيوية – ليس أمراً متروكاً لأهواء الأفراد وتلذذاتهم مهما كان علمهم و كانت شهرتهم، وإنما هو أمر تقتضيه وتفرضه طبيعة العلم المبحوث فيه. فإذا كان مجال حقائقه مما يمكن أن يُشاهد بالحس المباشر، أو كان مما يمكن أن يُستدعى بالتجربة، جعلنا المشاهدة والتجربة دليلاً أساسياً على صحة دعوى وجود حقيقة من هذا النوع، ولم نقبل – حتى في حياتنا اليومية، ودعك من مجالاتنا العلمية المتقدمة – دعاوى تقوم على مجرد الرأي، أو الرؤى. وإذا كان مما يمكن أن يُشاهد، ولا يُمكن أن تجرى عليه التجارب، كالحقائق الفلكية، اشترطنا المشاهدة وحدها. وإذا كان مما لا يمكن أن يشاهد ولا يمكن أن تجرى عليه التجارب، بحثنا عن منهج آخر مناسب له يوصلنا إلى حقائقه. فإذا كان مجاله حقائق الأحكام الشرعية التي جاء بها الرسول ﷺ، لم نقبل دعوى تتصل بها ما لم تكن مستندة بطريق مباشر أو غير مباشر إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. إن علماء الشرع – كعلماء الطبيعة – لا يقبلون الدعاوى القائمة على مجرد الرأي أو الرؤى المنامية ما لم يستند عليها دليل. والدليل بالنسبة لعلماء الطبيعة هو المشاهدة، وبالنسبة لعلماء الشريعة هو نصوص الكتاب والسنة. لكن علماء الطبيعة وعلماء الشريعة يقبلون الأدلة العقلية المستندة إلى أدلتهم الأساسية، وكذلك الأمر بالنسبة للحقائق المتعلقة بالحديث النبوي، إن طبيعتها هي التي تحدد منهج الوصول إليها، ومن ثم الدليل على صحة الدعاوى المتعلقة بها أو زيفها.

فكيف تعرف أجيال المسلمين التي جاءت بعد الرسول ﷺ، ولم تتشرف برؤيته ولا بالاستماع إليه، ولا عاشت أيامه، كيف تعرف ما اتصف به ﷺ من خَلقٍ وخُلق، وما سنّ وشرع؟

لا طريق أبداً إلا طريق الرواية. يشاهد المعاصر للرسول ﷺ حاله ويسمع مقاله، فينقل ذلك إلى من جاء بعده، وينقله هذا بدوره إلى الجيل الذي يليه، وهكذا. إن الرواية هي المنهج العلمي الوحيد المعتمد لمعرفة سنة الرسول ﷺ. حتى لو كان التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل الصوتي أو الفديوي موجوداً في زمن الرسول ﷺ، وحتى لو أذن الرسول بأن تلتقط صورته ويسجل صوته، لما أغنى ذلك عن الرواية! كيف نتأكد من أن الصورة التي نشاهدها هي صورته، وأن الصوت صوته، إلا بشهادة من عاصره وعرفه؟ إن كبار المؤرخين الذين بلوا هذه الأمور يعرفون أن التصوير والنحت المنقوش لا تمثل دائماً الحقيقة الواقعة، بل قد تكون تعبيراً عن رأي أو اعتقاد، أو تسجيلاً لأماني وآمال لم تتحقق. ها هم العرب الجاهليون يصورون إبراهيم وإسماعيل وفي أيديهما الأزلام، حتى قال الرسول ﷺ: **(قاتلهم الله! أما والله قد علموا أنهما لم يستقسما بهما قط)**[1].

هذا المنهج الذي يقتضيه العقل هو الذي جاء به الشرع. فأنت إذا تأملت أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر وجدته قد حث أصحابه على الرواية بل وضع كل الشروط التي تجعل منها منهجاً علمياً موصلاً إلى الحقيقة، فقد كان ﷺ كثيراً ما يدعو أصحابه الحاضرين إلى الحرص على تبليغ ما سمعوا إلى إخوانهم الغائبين تبليغاً أميناً لا زيادة فيه ولا نقصان. من ذلك قوله لهم في حجة الوداع: **(إلا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه)**[2]، فالرواية كانت مهمة، وكانت وسيلة ضرورية من وسائل نشر العلم، حتى في الوقت الذي كان فيه الرسول ﷺ بين ظهراني أصحابه؛ فما من أحد من هؤلاء الأصحاب كان دائماً معه ﷺ يشاهد كل أحواله، ويسمع كل أقواله. لذلك كان الغائب

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الحج باب من كبر في نواحي الكعبة. .

(٢) صحيح البخاري: كتاب المغازي باب حجة الوداع.

منهم يعتمد على ما يحدثه به الشاهد حتى في ذلك الوقت المبكر. فهذا عمر بن الخطاب وهو من ألصق الناس صلة بالرسول ﷺ يقول: (كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد من عوالي المدينة. وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك)[1].

الرواية إذن طريقة علمية للوصول إلى الحقيقة، وهي الطريقة الوحيدة الموصلة إلى أكثر الحقائق التي لا نستطيع الاطلاع عليها اطلاعا مباشراً، بل إن الرواية هي أهم طرق نشر العلم بين الناس، حتى ما كان منه متعلقاً بالحقائق الحسية. إن عدداً قليلاً جداً من العلماء المختصين هم الذين يعرفون حقائق العلوم الطبيعية هذه معرفة تجريبية مباشرة. أما سائر الناس من عامة عباد الله – علماء كانوا أو غير علماء – فإن وسيلتهم الوحيدة إلى معرفتها إنما هي ما يرويه لهم الذين شاهدوها أول مرة أو ثانيها أو ثالثها، بأن أعادوا تجربة العالِم الأول ليتأكدوا من صحة نتائجها. فلو لم تكن الرواية وسيلة معتمدة للمعرفة – أياً كانت – لما كانت هنالك كتب، ولما كانت مدارس ولا جامعات، ولا غيرها من وسائل الإعلام، ولا نحصر العلم في تلك القلة من الناس التي أمكنها أن تطلع على الحقائق اطلاعا مباشراً. الرواية إذن طريقة معتمدة للوصول إلى الحقيقة. لكن الناس يكذبون والناس ينسون، فكيف نتأكد من أن ما قالوه صحيح ونحن لا نستطيع أن نسمع أو نرى ما ادعوا أنهم سمعوا أو رأوا؟ الطريقة الوحيدة للتأكد من صحة الرواية التي تفرضها علينا هذه الحقيقة، هي إلا نأخذ إلا عمن عرفنا أنه لا يكذب وأنه جيد الحفظ، وهذان هما الشرطان اللذان عبر عنهما علماء الحديث بالعدالة والضبط، وهما أشمل من مجرد الصدق وجودة الحفظ. «فالعدالة تشمل جميع الصفات التي تشترك في تكوين الثقة بصدق الراوي، من حسن العقيدة، والقيام بأوامر الشرع واجتناب ما نهى عنه، وترك كل ما يخل بالمروءة، والاتصاف بالورع والتقوى، ومحاسن الأخلاق. والضبط يعني كمال الملكات العقلية، والنباهة

---

(١) صحيح البخاري :كتاب العلم باب التناوب في العلم.

وعدم الغفلة، واليقظة، وحسن الفهم والحفظ والمعرفة بأحوال الناس»[1]، لكن مقصود الشرطين هو كما ترى التأكد من أن الراوي حكى لنا ما سمعه أو شاهده كما هو فلم يغير فيه عن قصد فيكون كاذباً، ولا عن سوء فهم أو نسيان فيكون غير حافظ. العدالة والضبط هما إذن الشرطان الأساسان اللذان يجب توفرهما فيمن يعتد براويته. فإذا كان كل رواة حديث ما عدولاً ضابطين، وكان كل منهم قد سمع ممن حدث عنه، ولم يكن في الحديث المروي شذوذ ولا علة، كان الحديث صحيحاً لا محالة.

لذلك عرّفوا الحديث الصحيح بمثل قولهم: «ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه، وسلم من الشذوذ والعلة». إن عدم العصمة لا يقتضي حتمية وجود الخطأ في كل ما يروي غير المعصوم، وإنما يقتضي احتمال وجود الخطأ. وإذا كان الأمر كذلك فإن على من يدعي وجود الخطأ، إلا تكون حجته مرتكزة على مجرد عدم عصمة الكاتب أو الراوي، لأن صيغة حجته ستكون عندئذ كما يلي: الكاتب غير معصوم، إذن احتمال الخطأ فيه وارد، إذن هو مخطئ. وهي كما ترى حجة فاسدة، وذلك أن احتمال الخطأ هو بالضرورة العقلية احتمال للصواب. وإذن فعلى من يدعي وجود الخطأ أن يأتي بحجة مستقلة تثبت وجوده، ولا يعتمد على مجرد احتمال وجوده. قد يقول لنا هذا الخصم معترضاً: سلمت لكم بأن احتمال وجود الخطأ لا يعني وجوده فعلاً، فسلموا لي أنتم أيضاً بأن احتمال أن يكون كل ما في البخاري صحيحاً لا يعني تحقق هذه الصحة فعلاً. لكنكم إذا فعلتم ذلك لم يمكنكم الجزم بأن كل ما في البخاري صحيح. نقول لو أننا ادعينا بأن كل ما في البخاري صحيح لمجرد احتمال صحته، للزمنا ما تقول. لكن العلماء الذين جزموا بأن كل ما في البخاري صحيح فعلوا ذلك استناداً إلى حجج مستقلة عن احتمال الصواب. لكن البخاري أمعن في الاحتياط للصحة، فقرر حتى بالنسبة لمن روى عنهم من الثقات -إذا لم يصرح أحدهم بالسماع ممن روى عنه - إلا يكتفي كما اكتفي معظم علماء الحديث

---

(١) الدكتور محمد الصباغ مصطلحه بلاغته علومه منشورات المكتب الاسلامي ١٣٩٢-١٩٧٢ ص١٦٢.

بإمكان لقياه له، بل اشترط وقوع اللقاء فعلاً. كان من رأي بعض العلماء أن هذه مبالغة لا داعي لها، لكن كثيرين منهم رأوا أنها لا تضر بلا تزيدنا إلا ثقة بصحة الحديث.

وهذا أوان بيان بعض هذه الحجج لمن كان يقدر الحجج قدرها، ويبني مواقفه على قوتها.

قال لنا البخاري إنه لم يدخل في كتابه هذا من الأحاديث إلا ما كان صحيحاً، بشروط الصحة الموضوعية المتفق عليها، والتي ذكرناها سابقاً. ثم إن البخاري دفع بكتابه هذا الذي قضى في تأليفه وتنقيحه ست عشر سنة، إلى علماء جهابذة، منهم الإمام أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني، فاستحسنوه وشهدوا له بالصحة، إلا أربعة أحاديث. قال العقيلي: والقول فيها قول البخاري، فهي صحيحة[1]، وسمع هذا الكتاب من فم البخاري تسعون ألفاً من طلاب علم الحديث النبوي[2]، والذين أثنوا على الكتاب وشهدوا له بإصابة الصواب، ومدحوا مصنفه وعظموه، لم يكونوا كما قد رأيت من عامة الناس، بلا ولا من عامة العلماء، وإنما كان "معظم من أثنى عليه ونشر مناقبه شيوخه الأعلام المبرزون، والحذاق المتقنون»[3].إن احتمال أن يخطئ البخاري أمر وارد ما في ذلك شك. أما أن يكون في كتابه خطأ لم يكتشفه أحد من تلك الآلاف المؤلفة من العلماء الجهابذة الأتقياء على مر العصور، ثم يعثر عليه شخص في زماننا هذا، فأمر لا يقول به عاقلٌ أمينٌ يعي ما يقول. إن مثل احتمال اكتشاف خطأ جديد في كتاب الجامع الصحيح، كمثل احتمال وجود خطأ في مسألة حسابية، روجعت عدة مرات ووجدت صحيحة. هب أن أستإذا كلف طالباً معروفاً بنجابته في الرياضيات أن يحل مسألة رياضية معقدة، فحلها الطالب، وراجع

---

(١) الإمام الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني هدي الساري مقدمة فتح الباري بشرح صحيح البخاري المكتبة السلفية ص٧ .

(٢) الإمام النووي ما تمس إليه حجة القارئ لصحيح الإمام البخاري تحقيق علي حسن عبد الحميد دار الكتب العلمية بيروت ص ٢١. .

(٣) المرجع السابق ص٣.

حله عدة مرات فلم يجد فيه خطأ، ثم جاء شخص من أمثال هؤلاء الموسوسين فقال للأستاذ كيف تأمن أن يكون هذا الحل صحيحاً؟ إنك وطالبك بشر غير معصومين فكيف تأمنون أن يكون حلكم لهذه المسألة هو الحل الصحيح؟ فشرح له الأستاذ كيف أنه وطالبه راجعا حلهما عدة مرات، ولذلك وثقا من صحته. لكن الرجل ظل مصراً على احتمال وجود الخطأ، فتناول الأستاذ آلة حاسبة، وحل بها المسألة أمامه، فجاءت النتيجة موافقة لحل الطالب. لكن الرجل أصر على احتمال وجود الخطأ حتى على الآلة الحاسبة بحجة أنها من صنع بشر غير معصوم! إن الذي يصر على احتمال وجود الخطأ في كل عمل بشري مهما رُوجع، يلزمه إن كان مسلماً أن لا تكون له ثقة بهذه المصاحف التي بين أيدينا، فهي بالطبع لم تنزل علينا مكتوبة هكذا من السماء، وإنما نسخها بشر من أمثالنا، فما الذي جعلنا نثق بها، ونجزم بأنه لا خطأ فيها؟ وثقنا بها لأننا نعلم أنه لا ينسخ المصحف إلا رجل حافظ للقرآن الكريم، بصير بقواعد الرسم العثماني، وأن المصحف لا يُنشر إلا بعد أن يراجعه مراجعة دقيقة عدد وافر من القراء المتقنين المختصين بمعرفة الرسم القرآني، ويزد ثقتنا أن العالم مليء بحمد الله تعالى بأمثال أولئك الحفاظ المتقنين الغيورين على كتاب الله تعالى. فعدم اعتراضهم عليها دليل على أنهم لم يجدوا فيها خطأ.

على أن خلو كتاب ما من الخطأ ليس قاصراً على كتاب البخاري، أو المصاحف القرآنية، بل لا يتطلب حتى أن يكون المرء مسلماً، ودعك أن يكون معصوماً!، هب أن كاتباً غير مسلم مختصاً بعلم الفيزياء قرر أن يؤلف كتاباً يجمع فيه ما يُعد حقائق أصولية في هذا العلم، ولم يشترط على نفسه استيفاء كل هذه الدقائق، لكنه اشترط إلا يدخل في كتابه هذا إلا ما يعده أرباب هذا العلم حقائق مقطوعاً بصحتها، وإلا يدخل فيه من هذه الحقائق الفيزيائية التجريبية القطعية الأصولية، إلا ما اطلع هو نفسه على أوراقه الأصلية التي كتبها العلماء الذين أثبتوا هذه الحقائق. وهب أنه بعد أن ألف كتابه هذا، دفع به إلى عدد من علماء الفيزياء المختصين في فروعها المتعددة، وأن هؤلاء المختصين وافقوه على أن كل ما أدخله في كتابه هو فعلاً مما يعدونه حقائق فيزيائية أصولية مقطوعاً بصحتها، إلا أن عدداً قليلاً منها قرر أن يخرجه من

كتابه. وهب أنه بعد أن نشره كتابه هذا أثنى عليه عدد كبير من العلماء المختصين بفروع الفيزياء المختلفة، وأجمعوا على أنهم لم يجدوا فيه ما لا يعدونه حقيقة تجريبية قاطعة. فهل يسوغ بعد هذا لإنسان أن يقول إن الكتاب ربما كانت فيه أباطيل ظنها هذا المصنف من علم الفيزياء لأنه رجل غير معصوم؟، وإذا كان هذا أمراً ممكناً في كتاب إنسان غير مسلم، وفي علم دنيوي، فما الذي يمنع تحققه في كتاب إنسان جمع الله تعالى له شرطي العدالة والضبط في أعلى صورتيهما؟ فمن المعروف عن الإمام البخاري أنه كان آية من آيات الله تعالى في جودة الحفظ، فقد قالوا عنه إنه كان يحفظ وهو صبي سبعين ألف حديث سرداً، وقال هو عن نفسه: «كتبت عن ألف وثمانين رجلاً ليس فيهم إلا صاحب حديث» وأنه كان مثإلا للمسلم التقي الزاهد الورع، يكفيك في هذا قوله"خرجت كتاب الصحيح من ستمائة ألف حديث، وما وضعت فيه حديثاً إلا اغتسلت وصليت ركعتين»[1]، ولكن هب أن أولئك العلماء الجبال في علم الحديث كانوا قد أجمعوا على أن البخاري أخطأ في عدة أحاديث، فظنها صحيحة وهي في الواقع ضعيفة، وهب أن عدد هذه الأحاديث كان ثلاثين حديثاً، ثلاثون من زهاء ثلاثة آلاف، أي واحد بالمائة. فهل كان من الإنصاف في شيء أن نشيع القول بأنه ما كل ما في البخاري صحيح بسبب خطئه في واحد بالمائة مما جمع؟

إن الإنصاف حتى على افتراض وجود تلك النسبة من الأحاديث الضعيفة كان يقتضي أن نثني على الكتاب ونقول إن كل ما فيه صحيح إلا أحاديث ذوات عدد هي كذا وكذا. إن الفرق بين هذا القول المنصف وذلك القول الجائر، أن هذا الأخير يشكك في الكتاب كله ويزيل الثقة به، إذ أن سامعه من عامة المتدينين سيظن بكل حديث يُقال له إنه رواه البخاري أنه قد يكون غير صحيح، فمن باب أولى ما يرويه غيره، فتبطل بذلك الثقة بكل الأحاديث النبوية الشريفة، وهذه فتنة عظيمة، نسأل الله تعالى أن يُجنبنا إياها وسائر المسلمين.

* * *

---

(١) انظر في كل هذا كتاب الشعب صحيح البخاري مقدمة الناشر..

البرامج الدينية الموجهة
لمن لا يتحدثون العربية من تلفازات دول الخليج

بحث قدمه الدكتور جعفر شيخ إدريس للندوة التي عقدت في كلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عن البرامج الدينية الموجهة لمن لايتحدثون العربية ٢٩رجب -٣شعبان ١٤٠٧الموافق ٢٩مارس-٣١مارس ١٩٨٧م.

الحقائق التي جاءت بها أنبياء الله تعالى، ولا سيما صورتها الكاملة التي أرسل بها محمد ﷺ إلى الناس كافة، هي أهم الحقائق التي يحتاج البشر إليها معرفتها، ثم الايمان بها. وذلك أن الإنسان بوصفة كائنا عاقلاً ذا إرادة إنما يتصرف في حياته بحسب تصوراته، فكلما كانت تصوراته أقرب إلى الواقع، كانت تصرفاته أصح وأنفع، لكن بعض الحقائق أهم من بعض والتصرفات التي تبنى عليها أخطر من سائر التصرفات الأخرى. بيد أن الإنسان لا يستطيع بقواه الذاتية وحدها أن يدرك كل هذه الحقائق الخطيرة، ولهذا تفضل الله سبحانه وتعالى فعرفه بها عن طريق رسله، فكانت نعمة الهداية إلى هذه الحقائق أجل نعمة على عباده؛ لأن حاجتهم إليها تفوق حاجتهم إلى كل ما عداها. «وليست حاجة أهل الأرض إلى الرسل كحاجتهم إلى الشمس والقمر، والرياح والمطر، ولا كحاجة الإنسان إلى حياته، ولا كحاجة، العين إلى ضوئها، والجسم إلى الطعام والشراب، بل أعظم من ذلك وأشد حاجة من كل ما يقدر ويخطر بالبال»[1]. «والدنيا كلها ملعونة، ملعون ما فيها، إذا ما أشرقت عليه شمس الرسالة، وأسس بنيانه عليها، ولا بقاء لأهل الأرض إلا مادامت آثار الرسل موجودة فيهم، فإذا درست آثار الرسل من الأرض وانمحت الكلية، خرب الله العالم العلويّ والسفليّ، وأقام القيامة»[2].

ولأن حاجة الناس إلى الرسالة بهذه الخطورة، فقد تكرم الله تعالى فأرسل إلى كل قوم رسولاً ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]. وكان من حكمته تعالى أن

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم، الرياض، ١٣٨٢، ج١٩، ص١٠١.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

اختار أكثر الناس أمانة، وأحسنهم فهما، وأقواهم على اتباع الحق، وأشدهم رحمة بالخلق فجعلهم وسائط بينه وبين خلقه في تبليغ هذه الحقائق وبيانها للناس قولا ومثلا عمليا. كما كان من حكمته - حين صار العالم كله بمثابة الأمة الواحدة في الأزمان الماضية - أن أرسل إليه رسولاً واحداً بأكمل رسالة، وجعل حاملها النبي الخاتم لأنبياء الله، ذلك هو محمد بن عبدالله ﷺ. لكن هذ الرسول المرسل إلى الناس كافة بشر قضى في هذه الحياة عمراً محدوداً، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلغ الرسالة وأدّى الأمانة. أما الرسالة التي جاء بها فإنها لا تموت بموتة؛ كيف، والناس محتاجون إليها تلك الحاجة التي ذكرناها؟ لقد تكفل الله تعالى بحفظ هذه الرسالة وكلف كل من آمن بها ان يبلغ ما علم منها الي غيره من لم يعلم، ولهذا قال ﷺ: **(بلغوا عني ولو اية، فرب مبلغ اوعى من سامع)**[1]. وجعل هذا التبليغ أشرف مهمة يقوم بها الإنسان، ولا غرو، فهو المهمة التي كلف الله بها أكرم خلقه والمصطفين من عباده، فالقائم بها قائم على مهمتهم وتأمل شيئا من فضلهم.قال تعالي: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، وري البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: **(ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فو الله لأن يهدي الله بك رجلا واحد خير لك من حمر النعم)**[2].

إذا كانت حاجة الناس جميعاً إلى الرسالة المحمدية بهذه الخطورة وكان إعلام الناس بحقها بهذه المكانة العظيمة، فحري بكل من آمن بها أن يبذل ما يستطيع من جهد من إيصالها إلى الناس بكل ما يسر الله له من وسائل التبليغ والإعلام، وحري بنا أن نتعاون في أداء هذه المهمة، انقإذا للبشرية، وإصلاحا لأنفسنا، وطلبنا لمرضاة ربنا. وإذا كانت وسائل الإعلام الحديثة كثيراً ما تستعمل لنشر الأباطيل وإثارة الشهوات، وغرس الشبهات، وإضاعة الأوقات، فحري بنا نحن المسلمين أن نجعلها وسائل لأعلام الناس بالحق، ودعوتهم إلى الخير، وتعليمهم ما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم، والترويح

---

(١) صحيح أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، كتاب الأنبياء، الباب الخمسون.

(٢) صحيح البخاري، كتاب مناقب الصحابة، الباب التاسع.

عنهم بما يزيل السآمة والملل ويجدد النشاط لمواصلة العلم والعمل. وان أولى ما ينبغي أن تتصرف اليه هممنا وتبذل فيه جهودنا هو حسن استعمال – لا أقول مجرد استعمال – هذه الوسائل في إيصال الحق الذي جاءت به الرسالة المحمدية إلى الناس ولا سيما الذين لم يتيسر لهم معرفتها من قبل إن كثيراً من عقلاء الغربيين وغير الغربيين قد اقتنعوا بأن العلوم الدنيوية وحدها – مهما تبحر الناس فيها – لا تكفي لإعانة الإنسان على الحياة السعيدة القائمة على رضى النفس وطمأنينة، القلب، وهم يبحثون في كل مكان عن نوع آخر من العلم يوصلهم إلى ما يريدون وقد شاء الله تعالى أن يفد إلى بلادنا الإسلامية هذه عدد كبير من الذين لا يتحدثون العربية من إخواننا المسلمين ومن غير المسلمين من الغربيين والأفارقة والآسيويين فلنستغل فرصة وجودهم بين ظهرانينا، فنقدم لهم عن طريق وسائل إعلامنا برامج إسلامية تلبي حاجاتهم العلمية والشعورية المختلفة.

ولكي نفعل هذا يجب أن تسير على منهج صحيح، وسترى أن هذا المنهج يقتضينا أن نكون على علم بمن نخاطب، حتى يأتي خطابنا له مناسبا لحاله، وأن نحدد في ضوء هذه المعرفة وذلك المنهج نوع المادة التي تناسب من نخاطب ثم نحدد على ضوء هذا طريقة الخطاب.

منهج الدعوة والمجادلة:

القاعدة العامة في منهج الدعوة أيا كانت وسيلتها، وأيا كان المخاطبون بها هي قول الله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]. فالحكمة تشمل:

(أ) تعريف المخاطب بالحق بأدلته.

(ب) مراعاة حال المخاطب.

(جـ) وتقديم الأهم فالمهم.

وأما الموعظة فهي بيان العواقب الحسنة الدنيوية والأخروية المترتبة على قبول الحق، وبيان العواقب الوخيمة المترتبة على انكاره. أو أقل إنها تقدم الحق بطريقة جذابة تعطف النفوس إليه، وتحببها فيه. وهذا كله يكون بالحكمة بالمعنيين الثاني

والثالث، بعد الدعوة تأتي المجادلة وهي الرد على الشبهات والاعترافات التي يثيرها أو يتعرض لها المخاطب، والتي قد تكون حاجزا بينه وبين قبول الحق. أن المجادلة بالتي هي أحسن قد تكون سبباً في اقناع المجادل وإغرائه بقبول الحق، وأما إذا كان المجادل عنيدا متعنتا، فإن افحامه يفيد المتأثيرين به إذ يكسر الحاجز الذي أقامه بينهم وبين الحق. والمجادلة بالتي هي أحسن. أي بالرفق والابتعاد عن الغلظة والمخاشنة مما تقتضيه الحكمة، لأنه – إلا في حال الظالمين – مما يساعد الإنسان على الانصياع للحق حين تستبين له معالمه.

هذا المنج اذن يقتضينا كما ذكرنا آنفاً أن نعرف من نخاطب، وحال هؤلاء المخاطبين كي نعرف ماذا نقول لهم وكيف نقول ما نقول.

أنواع المشاهدين واحوالهم:

الجمهور الذي تخاطبه البرامج الدينية التي نتحدث عنها باللغات غير العربية يتكون من :

١) متحدثين باللغات الغربية الانجليزية أو الفرنسية أو غيرها. وهؤلاء فئات:

(أ) فمنهم الغربيون، وهم أيضاً فئات:

❖ المسلمون، وهم قلة.

❖ غير المسلمين الذين بدأت تساورهم الشكوك في جدوى الحضارة الغربية، وهؤلاء أيضاً قليلون.

❖ وأما الكثرة الكاثرة فهم الغربيون الماديون الذين يشعرون شعوراً يصل درجة الغرور بتفوق حضارتهم، وبكل ما يمت بسبب إلى هذه الحضارة من أديان وفلسفات وعادات وتقاليد، وربما بتفوقهم العقلي العرقي على سائر الشعوب، وإن كان معظمهم لا يصرح بذلك.

(ب) ومنهم غير الغربيين من أبناء العالم الثالث وهم فئات، فمنهم:

❖ المثقفون المسلمون المعتزون بدينهم رغم صلتهم القوية ومعرفتهم الجيدة بالحضارة الغربية وهم قلة.

❖ المثقفون الذين تأثروا بالحضارة الغربية تأثراً بلغ من القوة أن جعلهم من حيث الثقافة من أبناء هذه الحضارة الماديين الذين أشرنا اليهم سابقاً – وأن انتسبوا اسماً إلى

شيء من أديناهم أو ثقافاتهم الوطنية – مع فارق واحد هو أن الغرور والصلف عند أولئك يتحول عند هؤلاء إلى شعور بالضعة والهزيمة يحول دونهم ودون التفكير المستقل.

❖ متوسطو الثقافة من العمال المهرة وغيرهم الذين يستطيعون التفاهم بهذه اللغات وإن كانوا لا يجيدونها، فتأثرهم بحضارتها ليس بعمق تأثر الفئة السابقة.

٢) متحدثين بلغات إسلامية غير عربية كالأردية والتركية والفارسية، والسواحلية والهوساوية لا فرق بينهم وبين عامة المسلمين الناطقين بالعربية إلا فارق اللغة، وبعض العادات والتقاليد المحلية التي اصبح الكثير منها عند كثير من المسلمين جزءا من الدين هذا عن عامتهم، أما المثقفون منهم ثقافة غربية فهم داخلون في فئات المتأثرين بالحضارة الغربية الذين ذكرناهم آنفاً.

٣) متحدثين بلغات أفريقية أو آسيوية غير إسلامية، بعضهم مسلمون وكثير منهم من غير المسلمين، وأكثر مثقفيهم من ذوي الثقافة الغربية.

كيف نقدم الإسلام لهذه الفئات المختلفة؟

يمكن أن نعيد تصنيف هذه الفئات حسب بيناتها الثقافية إلى ما يلي:

(أ) عامة المسلمين: وامر هؤلاء سهل، لأنه لا فرق كبير من حيث الثقافة بينهم وبين المشاهدين المتحدثين بالعربية، واذن فكل ما نحتاج اليه هو ان نقدم لهم بلغتهم ما تقدمه للمشاهد العربي المسلم، مع مراعاة بعض العادات والتقاليد التي يمتازون بها، والتركيز على بعض جوانب الإسلام التي تشتد حاجتهم إلى معرفتها، وسنذكر شيئاً من ذلك في حديثنا عن المادة المقدمة.

(ب) عامة المشاهدين من غير المتأثرين تأثرا كبيرا بالحضارة الغربية: أما هؤلاء فنحن محتاجون إلى دراسة لبيئاتهم الثقافية التي أتوا منها، ولمعرفة العقائد والتقاليد والأعراف السائدة بينهم، ومحتاجون لأن نعرف بصفة خاصة مدى صلتهم بالإسلام والمسلمين وما التصور السائد عندهم للإسلام، وما الحواجز الاساسية التي تحول دونهم ودون اعتناقه. ويؤسفني انني لست أهلا لأن أفعل شيئاً من ذلك خصوما في هذا البحث المقتضب.

(جـ) الغربيون و المتأثرون بالثقافة الغربية من أبناء العالم الثالث: أما هؤلاء فإننا وإن كنا أعلم بطبيعة بيئتهم الثقافية، إلا أننا محتاجون إلى جهد فكري أكبر في تقديم

الإسلام لهم بطريقة تجعلهم يقدرونه قدره، وتشعر غير المؤمن منهم بتفوقه على ما عنده من تصورات، آمن به بعد ذلك أم لم يؤمن.

سنتحدث عن البيئة الثقافية الغربية الخالصة التي تكون عقول بعض الغربيين ومن نحا نحوهم من المستغربين والتي تؤثر في آخرين ممن نشؤوا فيها أو تعرضوا لها حتى لو كان من المسلمين الصادقين – تأثيراً يعظم أو يضعف حسب حال المتأثر ودرجة صلته بها. فنقول إن مما يميز صاحب الفكر الغربي الخالص:

❖ اعتقاده أن ما امتازت به الحضارة الغربية من سبق لغيرهم في ميادين العلوم الطبيعية، وما بني على هذه العلوم من تقنية وتقدم مادي هائل، وما أدى إليه هذا التفوق المادي من سيطرة على العالم غير الغربي، مرده أولاً إلى ما امتازوا به من جوده التفكير التي لا يباريهم فيها أهل حضارة أخرى، وأنهم عريقون في هذا التفوق الفكري لأن حضارتهم امتداد للحضارة اليونانية وما امتازت به من فكر فلسفي وعلمي عميق، حتى إن بعضهم يصل به الغرور بهذا التفوق الفكري درجة تجعله يعتقد أن قوانين الفكر كالقول بأن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان، ليس شيئاً مشتركاً بين عامة البشر وإنما هو من خصائص الفكر الأوروبي[1]. ومرده ثانيا إلى ما امتازوا به من نظرة علمانية إلى الحياة.

❖ أن تفوقهم على غيرهم ليس قاصرًا على التفوق المادي والفكري، بل هم متفوقون أيضا في نظمهم السياسية والاقتصادية رأسمالية كانت أم اشتراكية، وأن سبب هذا التفوق راجع أيضا إلى تلك النظرة العلمانية الجديدة إلى الحياة.

❖ أن أديانهم إذا كانت باطلة، وهم بهذه الدرجة من التفوق الفكري، فالأحرى بغيرها من أديان الشعوب المختلفة أن تكون أشد بطلانا.

❖ أن العلوم التجريبية بمناهجها العلمية، وتفسيراتها العقلانية للظواهر الكونية والإنسانية بأسباب من داخل هذا الكون، حلت محل التفسيرات الدينية الماورائية فأبطلت الدين أو أضعفت من موقفه، فأغنتنا بذلك عنه أو قللت من حاجتنا إليه.

---

(١) انظر مقالي: (منهج مونتجومري واط في دراسة نبوة محمد ﷺ) في كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، مكتب التربية العربي لدولة الخليج، ١٤٠٥-١٩٨٥م، ص ٢٤١-٢٤٢.

❖ أن كل أمة تريد أن تتقدم تقدمهم لا مناص من أن تأخذ بنظرتهم هذه بل إن كل أمة تأخذ عنهم العلم الطبيعي، وتستفيد من تقنيتهم لا محيد لها – إن عاجلا أو آجلا – من الأخذ بهذه النظرة العلمانية إلى الحياة، أي أن هذه النظرة أصبحت الآن أمرا حتميا لازما للتقدم العلمي والتقني. وعليه فإن ما نشاهده من مظاهر التدين في البلاد غير الغربية التي بدأت تأخذ بأسباب التطور المادي التي أخذ بها الغرب، إن هو إلا مرحلة زائلة، طالت أم قصرت، وستعقبها كما أعقبتها في البلاد الغربية مراحل العلمانية السائدة اليوم. كنت قبل عدة سنوات أتحدث مع عدد من الشباب الأمريكان كانوا يعملون بمستشفي الملك فيصل التخصصي بالرياض، فقال لي أحدهم – وكان من البيض – أنه معجب جداً بما يرى في السعودية من جمع بين التقدم المادي والاستمساك بالقيم الدينية، ولا سيما إيقاف العمل عدة مرات في اليوم من أجل الصلاة، وأنه سيظل يرقب ما يجري في هذه البلاد، فان استمر الحال على ما يرى لثلاث سنوات أخرى فسيعتنق الاسلام. وأقنعته على أن ما ذكر عن السعودية هو فعلا أمر تمتاز به عن سائر بلاد العالم، وأعجبني هذا الإنصاف منه، وطمعت في إسلامه، فقلت له: أن ما ذكرت عن السعودية صحيح، ونرجو أن يستمر، ولكن لماذا تعلق اعتناقك للإسلام عليه، إن الطريقة الصحيحة أن تنظر في الإسلام نفسه، فإن رأيته حقاً آمنت به من غير اعتبار لما يحدث في البلاد الإسلامية. قلت هذا أو شيئا قريباً منه، لكنني كنت مدركاً أن الشاب قال ما قال لأنه كان يرى أنه من المستحيل على أمة معاصرة أن تتقدم تقدماً مثل الذي رآه في السعودية، وتظل مع ذلك مستمسكة بقيمها الدينية. فهو إذن لا يكاد يصدق ما يرى، ولذلك يريد أن يعطي نفسه فرصة أكبر ليحقق من أن ما رآه ليس بالظاهرة العابرة التي ما تلبث الأمور بعدها أن تعود إلى مجراها (الطبيعي).

إن مما يزين هذه النظرية الحتمية في أعين أصحابها ويزيدهم افتتانا بها ما يبدو من تأييد الواقع لها: إذ إن المشاهد – على وجه العموم – أن التيار العلماني يزداد بازدياد الأخذ بأسباب التقدم المادي في كل الدول غير الغربية الإسلامية منها وغير الإسلامية.

إن ما نحن فيه الآن ليس مجال نقد لمسلمات العقلية الغربية، وإنما هو مجال وصف لها حتى نعرف كيف نتعامل معها تعاملاً مجدياً. لكن أجدني مدفوعاً لأن لا أترك هذه

المسألة تمر من غير إشارة – ولو عابرة – إلى زيفها، لكثرة ما أرى من المتأثرين بها حتى بين المتدينين من المسلمين، الذين يدفعهم تصديقهم لها من أن يتوجسوا خيفة كلما رأوا بلادهم تخطو خطوة جديدة نحو التقدم المادي. فأقول إن مما ينبغي أن نفطن اليه أن ما حدث في البلاد آنفة الذكر لم يحدث على النسق الذي تفترضه النظرية حتى يكون فيه تأييد لها. أعني أنه لم يحدث في أي منها أن بدأ الناس بأخذ العلوم التقنية، ثم نتج عن هذا الأخذ ظهور التيار العلماني. بل الذي حدث ولا يزال يحدث في هذه البلاد أن الناس يأخذون العلوم والتقنية ويأخذون معها – في الوقت ذاته – كل ما عند الغربيين من فلسفات وآداب وفنون وقيم، بل وعادات وتقاليد في مسائل الأكل والشراب واللباس، ظناً منهم أن الحضارة كل لا يتجزأ، وأن ذاك الآخذ للعلوم والتقنية لا يؤتي ثماره إلا بما لابسه في الغرب من هذه (الثقافة).

هذا عن بعض ملامح العقلية الغربية بصفة عامة، لكن هذه العقلية لها موقف خاص من الإسلام تجب مراعاته في مخاطبتها ودعوتها اليه. لقد وقر في أذهان كثير من الغربيين أن الإسلام دين معاد للغرب، وان انتشاره خطر على البشرية. ولكل هذا أسباب لابد ن معالجتها في برامجنا الدينية إذا أردنا لها أن تحقق ثمارها. من هذه الأسباب:

❖ الصورة المشوهة التي تقدمها لهم كتب التاريخ عن المسلمين إبان الحروب الصليبية، وهي كتب ينشأ عليها أحدهم منذ نعومة أظفاره فتستقر صورها المشوهة هذه في فؤاده. وهذا أمر اعرف به كثيرون ممن هداهم الله للحق.

❖ الصورة المشوهة للإسلام التي تصورها به كتب المستشرقين والمبشرين، وهي مراجعهم الأساسية عن هذا الدين.

❖ استعمارهم الطويل لكثير من بلدان العالم الإسلامي جعلهم يشعرون بالتعالي على المسلمين، والاستنكاف عن أن يدينوا بدينهم.

❖ الفزع الذي تغرسه في قلوبهم وسائل اعلامهم الحديثة، وهي لا تمل من تذكيرهم بطرقها المثيرة، أن هذا العدو التاريخي اللدود أخذ يقوي وينهض من جديد، وأنه

اكتسب الآن أهمية سياسية وجغرافية أكثر من ذي قبل، وأنه – وهذا مصدر خطره الحقيقي الجديد – يمسك الآن بالشريان الذي يمد الصناعة الغربية – وبالتالي الحياة الغربية الرغيدة بالدم الذي لا حياة لها بدونه. إن هذا واقع لا يكاد يتصوره الغربي ذوي العقلية التي وصفناها آنفا. لقد كان يعتقد أنه بتفوقه الفكري والعلمي يستطيع أن يفعل ما يريد، وأن سيرة الحثيث نحو النمو الاقتصادي والمستوى الحياتي الرفيع لن يقف في طريقه عائق. فكيف يقال له الآن فجاة أن هناك عائقاً كبيراً وأنه يتمثل في العالم الإسلامي؟ لقد صدمت هذه الحقيقة عدداً كبيراً منهم حتى جعلتهم يهذون بضرورة إعادة السيطرة الاستعمارية على هذه المنطقة!

إن أهمية دراسة ما أسميته بالبيئات الثقافية لهذه الفئات التي نريد مخاطبتها، تأتي من كون حقائق الإسلام لا تقدم للناس في فراغ، وإنما تقدم لهم ليحلوها محل عقائد وتصورات سبقت إلى عقولهم، فلابد إذن من اقناعهم بفساد ما عندهم من تصورات، وببيان تفوق التصورات الإسلامية عليها في الحجج العقلية والعلمية التي تسندها، وفي العواقب المفيدة الناتجة عن الإيمان بها. هكذا فعل الرسول ﷺ مع العرب، وهكذا فعل الدعاة المسلمون من بعده في كل بلد ذهبوا اليه، بل هكذا فعلوا حتى مع المسلمين الذين تأثروا ببعض الثقافات غير الإسلامية كالفلسفة اليونانية، كما تشهد بذلك كتب العقائد وأصول الدين. نعم إن الغرض الأساسي من الدعوة هو إحلال الحق في القلوب، ولكن بما أن تحلية القلوب بالحق لا تتم إلا بتخليتها مما يضاد، كان الاهتمام بإزالة الأباطيل التي استقرت في عقول المخاطبين أمرا لا بد منه في دعوتهم إلى قبول الحق الذي لم تعهده العقول، بل الذي تجد نفوراً منه بسبب ما استقر فيها من التصورات المنافية له. لابد إذن من تقديم الرسالة المحمدية لهؤلاء الأقوام بألسنتهم، ووضعها لهم في بيئتهم الثقافية وضعا لا يحرفها بل يساعدهم على فهمها، ويعيننا على مخاطبتهم بما يعرفون. ألم يقل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: (خاطبوا الناس بما يعرفون. أتحبون أن يكذب الله ورسوله)[1]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (ما أنت محدث قوما حديثاً

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، الباب التاسع والأربعون. رواه معلقا.

لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة)[١].

لكننا وإن كنا نعطي البيئة الثقافية هذا الاهتمام في مخاطبة الإنسان بحقائق الإسلام، إلا أننا لا نذهب مذهب الغلاة القائلين بأن الإنسان إنما هو ابن بيئته، وأن عقله إنما هو الذي تكيفه وتصنعه هذه الثقافة أيا كان نوعها. لا نذهب هذا المذهب لأننا نعتقد أن الإنسان – أيا كان – له فطرة خيرة سابقة لثقافته، وعليه فإذا كانت هذه الثقافة مخالفة لتلك الفطرة، فإنما تكون بمثابة القشرة التي تغطي جوهره الإنساني المتمثل في تلك الفطرة. لكن هذا الجوهر وإن أمكن تغطيته بقشرة ثقافية سميكة أو رقيقة، لا يمكن إزالته عن الإنسان بالكلية. ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، والإسلام كما تدل الآية هو امتداد لهذا الجوهر، فهو يخاطب الإنسان بما هو إنسان، لا بما هو عربي أو عجمي، زراعي أو صناعي، متحضر أو بدوي.

المادة المقدمة:

نراعي في المادة المقدمة التصنيف الثقافي للمشاهدين، وقد سبق أن قسمناهم إلى ثلاثة أصناف:

١) عامة الناس:

❖ نقدم لهؤلاء بلغاتهم كل أنواع البرامج التي نقدمها للمشاهد العربي مهما كان ذلك ممكنا. فتكون لهم برامج في شرح العقيدة، وفي تفسير القرآن وتجويد تلاوته، وفي الفقه، وفي سيرة الرسول ﷺ وتاريخ المسلمين، إلى غير ذلك من برامج معهودة،

---

(١) صحيح مسلم للإمام ابي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الجزء الأول، المقدمة الباب الثالث. لكن قال الأستاذ عبد القدر الأرناووط (وإسناده منقطع، فان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود روايته عن عم أبيه عبد الله بن مسعود مرسلة) (جامع الأصول في أحاديث الرسول، تأليف الأمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن الاثير الجزري، تحقيق الأرناؤوط، مطبعة الملاح، لبنان، ج٨، ص١٧.

مع تنبيههم بطريقة رفيقة إلى ما يخالف الحق في كل هذه المسائل مما اعتادوه في بلادهم المختلفة.

❖ نشرح لهم في أثناء البرامج المختلفة المصطلحات الإسلامية العربية المتعلقة بكل علم من العلوم التي نتحدث عنها. ونعلمهم النطق العربي الصحيح لها حتى تزداد حصيلتهم العربية، وحتى تقترب لغاتهم من اللغة العربية.

❖ هناك مسألتان بالغتا الحساسية، تحتاجان إلى عناية خاصة لعظم اهميتها وشدة خطرهما، أما الأولى فهي مسألة العقيدة أن كل من منّ الله عليه بمعرفة العقيدة الصحيحة التي دعا إليها كتاب الله وبينتها سنة رسوله ﷺ، وكان عليها أصحاب رسول الله وسائر أئمة المسلمين الذين يعرفهم ويحترمهم وينتسب إليهم في الفروع الفقهية جماهير المسلمين، وأقول إن كل من منّ الله عليه بهذه النعمة العظيمة، يدرك البون الشاسع المؤسف بين تلك العقيدة الصحيحة وما يعتقده جماهير المسلمين المثقفين منهم وغير المثقفين. لكن إقناع الناس بالعقيدة الصحيحة صار أمراً صعباً، أولاً: لأنها عادت هي المعتقد الغريب الذي لا تقول به إلا فئة قليلة من الناس بالنسبة للكثرة الكاثرة من جماهير المسلمين. وعامة الناس مطبوعون على متابعة الشائع المألوف، خصوصاً وأن كثيراً من علماء السوء عبر عصور الإسلام المتأخرة أشاعوا بينهم أن هذه العقيدة إنما هي عقيدة فئة منحرفة شاذة خارجة على اجماع علماء المسلمين بسبب هذه الدعاية الظالمة أن هذه العقيدة انما هي شيء اخترعه ابن تيمية وتأثر به في اعتقادها تلاميذه ومن جاء بعدهم من أمثال الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولهذا فانهم كثيراً ما يطلقون عليها اسم الوهابية. هذه قضية معضلة، لابد من بذل أكبر الجهود لمعالجتها، وأرى أن مما يساعد على التغلب عليها.

❖ أن نجتهد في تقديمها بعبارات أئمة المذاهب المتبوعة، وسائر علماء هذه المذاهب الذين يجلهم عامة المسلمين، أن هذا مما يساعد على إزالة الرأي المنطبع في أذهان الناس بأنها مذهب شاذ لأفراد من العلماء. كنت مرة أناقش أحد إخواننا النيجيريين في هذه القضية في الحرم المكي، فقلت له: ما رأيك لو كتبت لك رسالة في هذه العقيدة السلفية كلها من أقوال علماء المالكية، فضحك بملء فيه، ضحك من يعتقد أن هذا

من المستحيلات، ثم قال بلهجة أحسبه كان صادقاً فيها : إذ والله أومن بها. ومنذ ذلك الوقت وأنا أمني النفس بأن أنفذ هذا المشروع، أو ينفذه غيري ممن هو أقدر مني على ذلك.

❖ أن نشرح مسائل هذه العقيدة بلغة سهلة خالية قدر المستطاع من المصطلحات التي لا يعرفها إلا المختصون.

❖ أن نحولها إلى مجرد مسائل "كلامية" جافة، بل نحرص على تقديمها بلغة فيها كثير من الرقة التي تتحرك القلوب، ونمزج الكلام فيها بالقصص الذي يبين للمخاطب آثار الإيمان بها بطريقة حية مؤثرة، القصص الذي ورد في الكتاب والسنة، وفي سير الصالحين من علماء الأمة.

أما المسألة الثانية فإنها كانت أقل شأنا من الأولى إلا أنها مهمة أيضاً، إنها مسألة التعصب المذموم للمذاهب الفقهية تعصباً يحجب المرء عن أنوار السنة المحمدية، ويكاد يقوده إلى الاستخفاف بها، ويجعل كلّ مذهب منها بمثابة الدين المستقل الذي لا يقبل معتنقه النظر في الأديان الأخرى أو الأخذ منها. وأرى أنه لا بد أن تشارك البرامج الدينية بتلفازات الخليج في التقليل من حدة هذا التعصب بالطريقة التي تناسبها. وأظن أن مما يساعد على ذلك.

❖ تقديم برامج عن سير أئمة المذاهب تبين شدة تمسكهم بالسنة، وحرصهم على نشرها، ودعوتهم إلى عدم التعصب لآرائهم إذا خالفتها.

❖ وتبين كيف أن اللاحق منهم كان يجلّ من سبقه ويحترمه حتى وهو يخالفه، وكيف أن بعضهم تعلم من بعض.

❖ وتبين أسباب الخلاف بينهم، وكيف أن بعضها مما يمكن البتّ فيه بمناهجهم هم أنفسهم.

٢) عامة المشاهدين غير المسلمين:

من أصحاب الثقافات والديانات غير الغربية.

يحسن أن تركز البرامج الموجهة لهؤلاء على المبادئ والتصورات الأساسية لمسائل العقيدة والعبادات والأخلاق من غير دخول في تفاصيلها، على أن يراعى فيه تقديمها

البيئة الدينية والفكرية التي نشؤوا فيها. كما يحسن أن نطلعهم بشيء من التفصيل على سيرة النبي ﷺ، وسير المسلمين الذين لهم صلة تاريخيه بالقارات أو البلدان التي أتوا منها، والذين يعتبرونهم جزءاً من تاريخهم الوطني. هذا بالإضافة إلى كثير من برامج الصنف الثالث التي سأذكرها بعد، ولا سيما الشائق منها.

٣) أصحاب الثقافة الغربية والمتأثرون بهم:

سأتحدث الآن بشيء من التفصيل عن بعض الموضوعات المهمة التي يحسن تقديمها لهذه الفئة، وهي موضوعات صالحة في عمومها لكلّ المثقفين من الفئات الأخرى، وبكل اللغات بما في ذلك اللغة العربية.

❖ وجود الخالق: كثيراً ما يكرر بعض علمائنا المعاصرين ما يجدونه في كتب العلماء السابقين من القول بأن الناس مقرون بتوحيد الربوبية، ولهذا ينبغي أن نذهب مباشرة إلى الكلام عن توحيد الألوهية، لأنه هو التوحيد الذي أرسلت الأنبياء لدعوة الناس اليه. ما من شك في أن توحيد الألوهية هو التوحيد المهم، لكنه لا يتم إلا بتوحيد الربوبية، لكن ما صدق على العصور الماضية بصفة عامة لا يصدق على عصرنا هذا الذي انتشر فيه الإلحاد-بمعنى إنكار وجود الخالق – انتشارا لا نظير له فيما يعرف الناس من تاريخ البشرية، حتى أن كثيرا من الغربيين ليسمونه عصر الالحاد. لذلك أرى أن نولي هذا الموضوع عناية أكبر، وأن نستفيد في تقديمه مما كتبه علماؤنا السابقون، ومن بعض الجهود المعاصرة من المسلمين وغير المسلمين، خصوصا في مجال الرد على الشبهات التي يثيرها الملحدون والمعاصرون استنادا إلى بعض الفلسفات الشائعة في الغرب، واستغلالا لبعض الحقائق أو النظريات العلمية المعاصرة.

❖ توحيد الألوهية: هذا هو لب الدين الإسلامي، لكنه مع الأسف من الأمور التي يجهلها عامة الغربيين المتدينين منهم والمنكرين للدين. فالتركيز عليه، مع بيان كونه أمراً لازما للإقرار بوحدانية الخالق، ومع بيان آثاره الواقعية من نفسية وخلقية وعملية في حياة الفرد والجماعة، وكيف أن شرائع الإسلام كلها منبعثه منه وقائمة عليه، كلّ ذلك أمور مهمة جداً.

❖ توحيد الأسماء والصفات: لقد أصبح التصور الصحيح لهذا الجانب من التوحيد شيئاً نادراً حتى بين عامة المثقفين المسلمين، ودعك من غيرهم، لكننا كثيرا ما نتحدث فيه بعبارات اصطلاحية لا يعرفها إلا عدد قليل من المختصين، كقولنا مثلا (من غير تشبيه ولا تأويل ولا تمثيل)، - هذه عبارات صحيحة ودقيقة، لكن قل لي بربك كم من عامة المشاهدين للتلفاز أو المستمعين للإذاعات يدرك معانيها؟ أن المهم هو تعريف الناس بالحقائق لا الالتزام بقوالب معينة من التعبيرات. فلنشرح للناس إذن هذه المعاني المهمة بلغة يعرفونها. ولعل مما يساعد على عطف قلوب بعض المثقفين إلى عقيدة السلف في هذا المجال أن يبين لهم أن الذي انتهت إليه آراء جمهرة الفلاسفة المحدثين في المسائل التي كانت مثار خلاف بين أئمة أهل السنة وخصومهم من الفلاسفة وبعض الفرق المتأثرة بهم، كمسألة العلاقة بين الذات والصفات، وهل هما شيء واحد أو أن الفصل بينهما ممكن! أقول إنّ آراء الفلاسفة المحدثين في هذه المسائل هو الآن أقرب إلى ما كان يقول به أهل السنة منه إلى ما كان يقول به خصومهم. هذا مع أنّ الفلاسفة الغربيين المحدثين لا يناقشون هذه القضايا على أنها قضايا دينية، بل يناقشونها مناقشة فكرية عامة لكنها كثيرا ما تكون متصلة بقضايا العلوم.

❖ العبارات والمفاهيم: حيث نتحدث عن الإسلام بلغة غير العربية، نجدنا مضطرين لأن نستعمل ما نحسبه أقرب الكلمات إلى الكلمة العربية التي تعبر عن المفهوم الإسلامي، لكن هذا وحده لا يكفئ بل قد يكون مضللا ومشوها للمعنى، وذلك لأن الكلمات العربية نفسها لم تستعمل كلها في القرآن الكريم بمعانيها اللغوية البحتة، وإنما اكتسب بعضها معاني جديدة بسبب الاستعمال الاصطلاحي الجديد، فكيف بالكلمات غير العربية خصوصا إذا كانت آتية من بيئة دينية تختلف عن الإسلام في مفهوماتها الأساسية؟ أن الألفاظ الإنجليزية مثلا التي عادة ما نستعملها في مقابل ألفاظ عربية مثل لفظ الجلالة وألفاظ (النبي) و (الرسول) و (الوحي) و(الدين) و (كلام الله) و(القدر) وأمثالها مما يعبر عن مفهومات أساسية في ديننا، لها دلالات مختلفة عن الدلالات الإسلامية التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من معنى كل كلمة من تلك الكلمات العربية. ظن بعض إخواننا من العرب ومن أهل هذه اللغات أن حلّ هذا الإشكال يكون

في استعمال الكلمات العربية نفسها حتى حين نتحدث بلغة غير عربية. ولكن هذا لا يفيد إلا المسلم من أهل هذه اللغة الذي سبق له أن عرف المعاني الصحيحة لهذه الألفاظ العربية، أما غير المسلم الذي لم يسبق له معرفتها فإنها لا تدل عنده على معنى صحيحا كان أو خطأ، ولذلك فإن مخاطبته بها تكون عبثا لأن مقصود الخطاب إنما هو الإفهام، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، إذاً لا بد من شرح هذه المفهومات الإسلامية الأساسية سواء استخدمنا الكلمات العربية أو ما نحسبه مقابلا لها في لغة من نخاطب. ولكل من الاستخدامين مزية. خصوصا إذا هداه الله إلى الإسلام. وأما استعمال الكلمات المعهودة عند المخاطب فإنه ييسر عليه تذكر المعنى لأنه لا يكون مشغولا بأمرين معا أمر اللفظ الجديد والمعنى الجديد. كما أنه يساعد على جعل لغة المخاطب نفسها لغة إسلامية خصوصا إذا كثر عدد المنتسبين إلى الإسلام من أهلها.

❖ السيرة النبوية: تقدم السيرة النبوية العطرة بصورة شائقة من أكثر ما يساعد الإنسان على الهداية، ويحسن أن تتعرض السيرة على الغربيين بخاصة عرضنا يتضمن تصحيحاً لتصوراتهم الغالطة لها. ولكن حذار من أن يتحول الحديث عن السيرة النبوية إلى جدل مع المستشرقين والمبشرين، يفصل شبهاتهم ويحاول الرد على كل منه. إن هذا الأسلوب الذي رأيت بعض إخواننا يتبعه في بعض وسائل الإعلام، يفقد السيرة جاذبيتها، وقد يدخل في أذهان كثير من المشاهدين حتى المسلمين منهم – شبهات لم تخطر على بالهم من قبل. لنتذكر أن الاستشراق مع تأثيره الذي لا ينكر على كثير من المثقفين الغربيين، بل وعلى كثير من أبناء المسلمين، إلا أنه – رغم كل ذلك يظل فناً تخصصيًّا لا تصل آثاره التفصيلية إلى جماهير المثقفين حتى من الغربيين. فالتعرض لكتابات المستشرقين بصورة مفصلة في وسائل الإعلام العامة كالتلفاز مما يساعد على نشرها ويوسع دائرة الافتتان بها.

❖ الصلات التاريخية: عرض الصلات التاريخية بين المسلمين والغربيين عرضنا يصحح الصور المشوهة التي اعتادها الكثيرون منهم، وينصف المسلمين ويبين كثيرا من أفضالهم الدينية والخلقية والاجتماعية والإنسانية والعلمية على الغربيين عرضنا

يقلل من غرورهم ويشعرهم بمنة غيرهم عليهم، ويجبرهم على الاعتراف بما امتازت به بعض الحضارات على حضارتهم. لكن هذا كله ينبغي أن يكون بأسلوب موضوعي منصف لا تبجح فيه ولا غرور، ولا إخفاء للحقائق حتى حين تكون للغربيين وعلى المسلمين، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا﴾ [المائدة: ٢]، إن الإسلام وحي الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والأمة المسلمة لا تجتمع على خطأ، لكن الأفراد المسلمين يخطئون، والجماعات المسلمة تخطئ، خطؤها لا يحسب على الإسلام خصوصا إذا بادرنا إلى إنكاره.

❖ المفكرون المسلمون: لقد درجنا في محاولتنا لاستجلاب احترام الغربيين لتراثنا الفكري أن نركز على منتجات هذا الفكر في مجال العلوم الطبيعية والفلسفة. فكأننا نريد أن نقول لهم: إذا كنتم تفتخرون بتقدمكم العلمي فاعلموا أننا نحن الذين أعطيناكم المنهج العلمي الذي تقوم عليه هذه العلوم. وإذا كنتم الآن قد سبقتمونا في مجال العلوم الطبيعية التجريبية، فتذكروا أننا كنا سابقين لكن فيها وأنكم إنما بنيتم على ما خلفناه لكم. وإذا كنتم تعدون حضارتكم امتداداً للفكر اليوناني، فتذكروا أننا نحن الذين نقلنا لكم هذا الفكر، بعد أن أضفنا إليه شروحا وتعليقات ومسائل كانت من ابتكارنا. وربما يكون هذا الأسلوب قد حقق شيئا من مقصده. إلا أنني أرى عدم الاستمرار فيه، أعني عدم التركيز على تينك المسألتين.

وذلك أولا لأن في هذا التركيز ظلما لتاريخنا الفكري، إننا وإن نكن قد شاركنا مشاركتنا محترمة في مجالات العلوم والفلسفة، إلا أن الشيء الذي ميز فكرنا هو كونه كان فكرا مهتديا بهدي الوحي، ومركزاً على العلوم والأحوال والأخلاق والمؤسسات التي تساعد الإنسان على أن يحيا في هذه الدنيا حياة نفسية واجتماعية سعيدة ليستقل بعد موته حياة أسعد وأدوم. والرجال الذين كانوا قادة لهذا الفكر المهتدي، وأئمة لجماهير المسلمين في العلم والسلوك ليسوا هم الفلاسفة من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا، وإنما هم فقهاء الأمة من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي كثيرا مما تعرض له علماء الكلام، وعلماء أصول الفقه، وعلماء الحديث،

بل علماء اللغة والمؤرخون، فحصر مشاركتنا الفلسفية في كتابات من سموا بفلاسفة الإسلام ممن تأثر بالفلسفة اليونانية، حصر مجحف.

وثانياً لأن السرعة الهائلة التي تسير لها حركة التقدم في مجال العلوم التجريبية وما يتبع هذه السرعة من تراكم مدهش في كمية الحقائق التي تكتشف يوما بعد يوم، تجعل ما اكتشفه الأقدمون من المسلمين وغيرهم بالنسبة إليه كأنه قطرة في بحر، لكن الغريب أنه كان من نتائج هذا الإنجاز الكبير للعلوم التجريبية أن طأطأ من سورة الافتتان بها، لأنه أوضح أنها مهما عظمت فإن مجالها محدود، وأن هناك قضايا تهم الناس لا تستطيع أن تقول فيها شيئا، أي أنها لا تغني عن الدين كما كان يرجو المفتتنون بها. ثم إن العلوم الإنسانية حين اصطنعت مناهجها لم تأت بثمار مفيدة تساعد في حل تلك القضايا الإنسانية التي لا تدخل في مجال العلوم الطبيعية.

قلت كل هذا لأقول إن كثيراً من الغربيين أصبحوا الآن مفتوحي الأذهان لسماع شيء جديد في هذه المجالات الإنسانية التي هي في الحقيقة مجالات الدين الحق. ومن هنا تأتي دعوتي للتركيز على هذه المجالات، وعلى مفكرينا الذين أدلوا فيها بدلاء عادت بالخير الكثير.

❖ النقد الإسلامي للفكر الغربي: إن من وسائل الدعوة الناجعة جداً أن تقدم الإسلام للناس عن طريق بعض القضايا التي تهمهم، وتستولى على قدر كبير من تفكيرهم. وأنه لما يهم الغربيين وغيرهم في هذه الأيام الحديث عن القضايا والنظريات والأيدولوجيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية خصوصا تلك التي عرضت عليهم من قبل وعرفوها. فلتكمن لنا إذا برامج عن النقد الإسلامي لنظريات غربية في الاقتصاد مثل الرأسمالية والاشتراكية، وفي بعض الاتجاهات الإعلامية، وبعض مبادئ العلاقات الدولية الخ.

❖ القضايا الراهنة الساخنة: ومما يتصل بما ذكرت في الفقرة السابقة التعرض للموضوعات اليومية التي تتناقل وسائل الإعلام أخبارها، خصوصا إذا صارت قضية عالمية كقضية مرض (الإيدز) مثلا.

❖ القضايا العلمية البحتة: لكثير من علمائنا المعاصرين تأملات ووجهات نظر إسلامية في العلوم التي تخصصوا فيها سواء كانت من العلوم الطبيعية أو العلوم الإنسانية. فلنعطهم الفرصة لعرضها على أنها وجهات نظر لأناس مسلمين، لا على أنها كلمة الإسلام في الموضوع.

طريقة التقديم:

صاحب هذا المقال ليس من الرجال المختصين بفن الإعلام وعلمه، فحديثه عن طريقة التقديم هو حديث المشاهد المهتم لا حديث المنتج المختص.

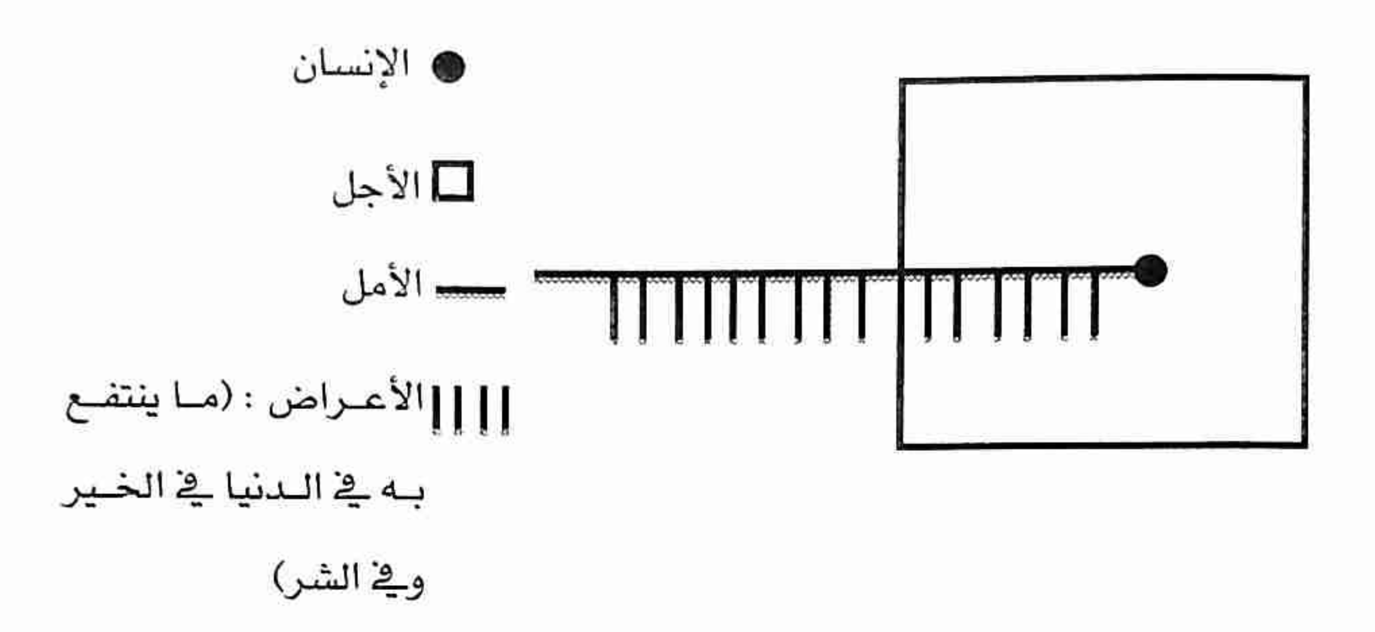
المواد التي تحدثت عنها يمكن أن تقدم بطرق مختلفة بحسب مجالات التقديم وبحسب الوسائل الإعلامية المستخدمة فيه. ما دامت ندوتنا الآن عن البرامج التلفازية، فلست أتوقع بالطبع أن تقدم تلك الموضوعات في شكل محاضرات جامعية أو أحاديث منبرية، وإنما أرجو تعرض بطريقة تتناسب مع الوسيلة المستخدمة، بل ومع ما اعتاده المشاهدون من طريقة – في حدود الآداب الإسلامية – لاستعمال هذه الوسيلة. وذلك أنني أخال أنه كلما كان الاستعمال بطريقة يأنسها المشاهد، كان ذلك أرعى لسمعة وأجذب لانتباهه. ولهذا السبب نفسه أرجو أن يكون إخراج هذه البرامج في غاية الإتقان الفني المستطاع، وإلا فإن تخلفها الفني قد يشعر بتخلف المادة المقدمة فيها، فتكون لبعض الناس بهذا سبب فتنة لا عامل هداية كما هو المرجو لها.

من طرق التقدم التي أراها مفيدة :

❖ الأحاديث القصيرة : إذا أحسن استخدامها، ومن حسن استخدامها أن لا يعرض المتحدث وكأنه صورة جامدة كما يحدث كثيراً، يلقي حديث فتعرضه من زوايا ومسافات مختلفة. بل لماذا لا ندرب المتحدثين أنفسهم على تقديم كلماتهم بطريقة تناسب التلفاز؟ ومن ذلك أن ننصحهم باستعمال الوسائل التعليمية المحسوسة ونساعدهم على ذلك حتى لو كان الحديث في مسألة خطيرة وغير حسية كمسائل العقيدة. لقد كان الرسول ﷺ يستعين أحيانا بما نسميه الآن بالرسوم البيانة ليشرح للناس حقيقة لا يحسونها. ومن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خط النبي ﷺ خطاً مربعاً، وخط خطاً في الوسط خارجاً منه، وخط خططا صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال : **(هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به – أو قد أحاط به –، وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض، فإن أخطأ هذا نهشة هذا)**[1].

(١) فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، للإمام الحافظ بن علي ابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية، ج١١، ص ٢٢٥-٢٢٦.

يرجح الإمام ابن حجر أن تكون صفة هذا الرسم[1]:



❖ المقابلات والندوات: كثير مما ذكرته عن الأحاديث القصيرة يصدق هنا أيضا. لكن أرجو أن نفكر كذلك في جدوى استضافة بعض المنصفين من الغربيين أو بعض من لهم نظرات ناقدة لحضارتهم حتى لو لم يكونوا مسلمين.

❖ الأفلام الإسلامية العامة:

١- عرض بعض الأفلام الإسلامية العربية الجيدة مترجمة على الشاشة أو مدبلجة إن أمكن.

٢-عرض أفلام وثائقية، منها مثلا فلم عن المساجد والمراكز الجديد منها والقديم في شتى البلاد، مع إشارات -لا شرح مفصل- لكيفية الصلاة، ومعاني كلمات الأذن وغير ذلك يصحب الصورة التي يراها.

❖ الأفلام الإسلامية التعليمية: إنتاج أفلام تعليمية يمكن أن يتكرر عرضها كل عام. ومن الأفلام التي أقترحها في هذا المجال.

١- فيلم يشرح الإسلام للمبتدئين سواء كانوا مسلمين جددًا يريدون أن يتعلموا أمور دينهم، أو كانوا غير مسلمين يريدون أن يكونوا صورة صحيحة عن الإسلام. للأخ الدكتور جمال بدوي محاولة جيدة مشكورة في هذا المجال لعلها الأولى من نوعها، وقد رأيت أجزاء من هذا البرنامج التعليمي عندما كنت في زيادة لكندا حيث أنتج، وأجزاء

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، للإمام الحافظ بن علي ابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية، ج١١، ص٢٢٧-٢٢٨.

منه عرضها التلفاز السعودي. لكنني لاحظت أن البرنامج كله يقوم على سؤال قصير من أحد الإخوة الأمريكان وإجابة مفصلة من الدكتور جمال، فالبرنامج لهذا فيه شيء غير قليل من الرتابة. وأظن أن مما يقلل منها أن تتعدد الوجوه السائلة والمجيبة، وأن تصحب الشرح بعض المناظر أو بعض الوسائل البصرية المعينة على الفهم، وأن تتخلله فقرات ترويحية. ولا أظن أن الإخوة الذين انتجوا هذا البرنامج يجهلون قيمة ما ذكرت، وأحسب أن الذي حال بينهم وبينه هو ضيق ذات اليد. لذلك أقترح على تلفزيونات الخليج أن تتعاون مع منتجي هذا البرنامج لإعادة إخراجه بصورة أفضل، شكلاً وموضوعاً في ضوء المبادئ التي ذكرتها آنفا وأمثالها مما يذكره الإخوة الآخرون.

٢- فيلم عن الحج يكون في شكل قصة عائلة مسلمة تنوي الحج من إحدى البلاد الإسلامية البعيدة. يبين فيه طريقة فيها كثير من الحركة والتشويق كل ما يتعلق بهذه الشعيرة من أمور دينية ودنيوية. فتبدأ القصة مثلا والعائلة في بلدها بأن يذهب الرجل إلى مسجد مدينته فيستمع إلى عالم يتحدث عن وجوب الحج وكونه ركناً من أركان الإسلام الخمسة، فينقل ما سمع لزوجته فيعزما على الحج في ذلك العام، ثم يبدآن في السعي لمعرفة تفاصيل أكثر عن الحج، فنشهدهما يتفقان على تجديد توبتهما وتصحيح عقيدتهما، ونراهما يسددان ما عليهما من ديون وهكذا. ثم نراهما وقد شرعا مع طفليهما في السفر، ثم نراهما وقد وصلا الميقات فأحرما. وهنا نتبين أنواع الإحرام المختلفة بسماعنا لما يقول مختلف الحجاج الذين التقت بهم العائلة عند الميقات وهكذا إلى أن يفرغا من حجهما ويعودا إلى بلدهما.

إذا أنتج فيلم كهذا إنتاجاً جيداً وكان شاملاً لكل ما يحتاج الحاج لعرفته، فسيغني عن كثير من البرامج التي تعد كل عام لموسم الحج والتي يتكرر فيها الكلام والشرح. بل إنه إذا أحسنت ترجمته إلى اللغات المختلفة يمكن أن يباع أو يهدى لكثير من الدول الإسلامية لكي تعرضه تلفازاتها كل عام على مشاهديها الراغبين في الحج قبل مغادرتهم لبلادهم. وأتوقع أن يكون لمثل هذا الفيلم أثر كبير على الحجاج، وأن يساعد في التقليل من المشكلات التي تحدث في موسم الحج بسبب الجهل بالمناسك أو الجهل بالإجراءات أو النظم المتعلقة بالحج.

٣- وعلى نفس المنوال يمكن أن تنتج أفلام عن جوانب أخرى من جوانب الإسلام، كمسائل العقيدة والصلاة والزكاة والصوم. والسيرة النبوية.

نسأل الله الهداية والتوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

الردة وحقوق الإنسان

بحث قدمه الشيخ لمشروع مفاهيم في الحريات الدينية رؤية شرعية التي نظمته هيئة حقوق الإنسان بالمملكة العربية السعودية في ٨/ ٣/ ١٤٣١ه الموافق ٢٢/ ٢/ ٢٠١٠م.

أنزل الله سبحانه وتعالى كتابه بالحق ليكون هو المعيار الذي تقاس به الأمور، فما وافقه كان حقاً وما خالفه كان باطلاً ومخالفاً للعقل أو الحس. لكننا نعيش في أيام طغت فيها الحضارة الغربية وصارت هي المعيار الذي تقوم به أمور السياسة والاقتصاد والاجتماع، بل وأمور الدين، فما وافق ما شاع فيها من فكر وأوضاع بل وعادات وتقاليد كان مقبولاً وما خالفه كان مرفوضاً أو كان موضع شك وقلق. ولما كان الحكم بقتل المرتد هو من الأحكام التي ينكرها هذا الفكر أشد الإنكار فقد قلدهم في هذا الإنكار بعض المنتسبين إلى الإسلام فبدؤوا يبذلون كل جهد في تبرئة الإسلام من هذا الذي يرونه منكرا. ولما كانت قضية إنكار قتل المرتد مبنية على ما اعتبره الفكر الغربي حقاً إنسانياً فقد رأيت أن أبدأ هذا المقال عن قتل المرتد بمقدمة عن هذه الحقوق.

حقوق الإنسان:

حرية العقيدة بمعنى أن كل إنسان له الحق في أن يعتقد ما شاء من عقائد تعد عند القائلين بها حقا إنسانياً كفله الإعلان الدولي لحقوق الإنسان الذي أجازته الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٩٤٨/١٢/٥. لكن هذا الإعلان نفسه رغم صدوره عن الأمم المتحدة، ورغم الدعاية الكبيرة التي أحاطته بها الدعاية الغربية، ورغم أخذ كثير من الدول به وتضمينها له في دساتيرها هو إعلان تحيط به مشكلات كبيرة تكلم عنها المفكرون في الشرق والغرب نلخص أهم هذه المشكلات في ما يلي :

أولاً: أنه لا يقوم على أساس متين كما أشار إلى ذلك كثير من المفكرين الغربيين وغير الغربيين. شاركت قبل بضع سنين في ندوة أقيمت في روما عن حقوق الإنسان في الأديان الثلاثة وكنت أنا والأخ الدكتور جمال بدوي من الممثلين لوجهة النظر الإسلامية. تحدث الدكتور جمال قبلي فأحسن، لكن المتحدثين الآخرين – بمن فيهم كاتبة متخصصة في حقوق الإنسان لم يتكلموا في الموضوعات التي حددت لهم وإنما

كان كلامهم في جملته نقدا لمواقف المسلمين. فلما جاء دوري ألقيت بكلمتي التي كنت قد أعددتها جانبا وقلت لهم كلاما فحواه أنه لم يطلب منكم أن تتحدثوا عن موقف الإسلام، فهذه مهمتنا نحن، وإنما طلب منكم أن تبينوا موقف أديانكم. ثم دار بيننا جدل قال لي فيه أحدهم إنهم – وهم قساوسة من الكنيسة الكاثولوكية- كانوا هم وراء ذلك الإعلان وأنهم انطلقوا من منطلق ديني لكن لما كان أعضاء الأمم المتحدة ينتمون إلى أديان شتى ولما كان بعضهم ملحدا فقد رأينا أن لا نقيده بمصدر ديني معين. قلت لهم وإذن فما مستنده ؟ قالت الكاتبة المختصة بموضوع حقوق الإنسان إن مستنده هو إجماع الأعضاء في الأمم المتحدة عليه. قلت لها لكنك قلت قبل قليل إن السعودية كانت من بين الدول التي تحفظت على بعض بنوده فكيف يكون مجمعا عليه ؟ ثم قلت لهم إنه حتى إجماع الأعضاء في ذلك الوقت عليه لا يجعله فوق النقد ولا فوق التعديل. إنه لابد من دليل على صحته غير كون أولئك الأعضاء أجازوه. ولكي يكون صحيحا فلابد أن يستند على أصل مجمع عليه بين الناس. وقد تبين أن فكرة حقوق الإنسان كما وردت في الإعلان لا تستند إلى دين يدين به كل الأعضاء.

ثانياً: يقول بعض المعترضين عليه إن الدول التي وافقت عليه في عام ٤٨ هي ثلث الدول الموجودة في العالم الآن. فبأي حق يلزم به من لم يحضره ولم يصوت عليه.

ثالثاً: حاول بعضهم أن يجعل مستند الحقوق الإنسانية فلسفة الطبيعة البشرية، أي أن هذه الحقوق أمر تقتضيه طبيعة البشر. لكن هذه الفلسفة نفسها قد كثرت الاعتراضات عليها في الغرب فلم تعد تصلح قاعدة مشتركة يبنى عليها أمر مهم كحقوق الإنسان.

رابعاً: سخر بعضهم من بعض بنود الميثاق قائلاً إنها حتى لو كانت شيئاً حسنا فلا يمكن أن تعد حقاً إنسانياً. من الأمثلة التي ذكروها على ذلك ما جاء في الفقرة الرابعة من البند الثالث والعشرين من بنود الميثاق أن (لكل شخص الحق في أن ينشئ وينضم إلى نقابات حماية لمصالحه)، وما جاء في البند الرابع منه من أن لكل أحد الحق في الراحة، وفي أوقات الفراغ، ولا سيما في تحديد معقول لساعات العمل، وفي عطلات دورية بأجر.

خامساً: لكن هذا لا يعني أن كل بنود الميثاق باطلة، وإنما يعني فقط أن الميثاق في جملته ليس أمراً مجمعا عليه. ولا حل لهذا الإشكال إلا أن يكتفي فيه بالبنود التي هي موضع إجماع، لأن مجرد التصويت في مثل هذه القضايا الأساسية لا يحل إشكالا.

التصور الإسلامي للحقوق:

ليس غريبا أن يحصر الفكر العلماني السائد الحقوق في حقوق بشرية أو حقوق حيوانية وينسى حق الله تعالى، لكن الغريب أن يجاريهم في مثل هذا الفكر الإلحادي أناس يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

الحقوق في الإسلام ثلاثة: حق الله تعالى وهو أهمها، وحق للعباد على الله تعالى، وحقوق فرضها الله تعالى للناس على الناس. وقد بين الحديث الصحيح الذي رواه معاذ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن حق الله على العباد أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً، وأن حقهم على الله تعالى إن فعلوا ذلك أن لا يعذبهم. حق عباد الله الذين لا يشركون به تعالى شيئاً هو أيضاً حق كل فرد منهم على كل عباد الله تعالى. هذا الحق هو الحق الوحيد المطلق غير المقيد بشرط من الشروط غير البراءة من الشرك. قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ [العلق: ٩-١٢].

أي أنه لا يحق لإنسان أن يمنع إنسانا من عبادة الله وحده، فالإسلام لا يتحدث عن الحقوق الدينية بطريقة غامضة ولا يساوي بين حق من يعبد الله تعالى لا يشرك به وحق من يشرك بالله.

الحرية الدينية:

الحرية الدينية التي تكفلها الدساتير الديمقراطية الغربية ليست ولا يمكن أن تكون حرية دينية مطلقة تسوغ لكل معتنق لدين من الأديان أن يمارسه بحسب ما تقتضيه مبادئه، وإنما هي كما نبه إلى ذلك كثير من المفكرين الغربيين المسيحين حرية في إطار المبادئ العلمانية، أي حرية في إطار القوانين التي تسنها أغلبية الأعضاء في الهيئات التشريعية. ولذلك فإن القوانين قد تأتي – بل لابد أن تأتي – بما يخالف بعض التعاليم الدينية لبعض الناس. هذا أمر لا مفر منه ولا سيما في دول تتعدد فيها الأديان. من الأمثلة التي يذكرونها على هذه القيود منع المسيحيين من طائفة المورمون

من الزواج بأكثر من امرأة مع أنه شيء يبيحه دينهم. بل الأهم من ذلك بالنسبة للمسلمين أنه لا يمكن لهم أن يطبقوا شيئاً من القوانين المتعلقة بشؤون الدولة كمنع الربا ومنع شرب الخمر، بل إن الزواج بأكثر من امرأة واحدة يعد في بعض القوانين الغربية جريمة يعاقب عليها القانون، بينما لا يعد الزنا أو حتى إتيان الرجال جريمة إذا كان برضى الطرفين. أنا لا أذكر هذا لأقول إنه لا ينبغي لأهل كل دين في دولة متعددة الأديان والفلسفات والمبادئ أن يفعلوا ما يقتضيه دينهم لأن هذا شيء مستحيل كما قلت، وإنما أريد أن أقول إنه بما أن هذا أمر متعذر في الواقع فإن القول بحرية دينية مطلقة كلام باطل. الحرية الدينية المقصودة عند العلمانيين إنما هي إذن الحرية التي تسمح بها مبادئ الدولة العلمانية التي تجعل الحرية الدينية حرية اعتقاد فردي وممارسات تعبدية لا تتدخل في المجال العام Public Space. لكن حتى هذه الممارسات التعبدية نفسها لابد أن تكون خاضعة لقوانين الدولة العلمانية لأنها هي المسؤولة عن تنظيم الحياة العامة. فلابد من أخذ إذنها مثلا حتى في أماكن بناء دور العبادة. الحرية الدينية التي يتحدث عنها الغرب العلماني هي إذن بالضرورة حرية مقيدة، ولكن الناس صاروا ينسون هذه الحقيقة لأنهم صاروا يفترضون أن الأمر الطبيعي في الدولة أن تكون علمانية، فكل قيود توضع على الحرية الدينية غير قيود العلمانية هي القيود التي يعترض عليها. لكننا نقول إنه إذا كان المستحيل على الدولة العلمانية الديمقراطية أن تعطي مخالفيها من أهل الأديان والفلسفات حريات مطلقة، فكذلك الحال بالنسبة لدولة يكون مبناها على الدين. وهذا هو الشأن في الدولة الإسلامية. إنها هي المسؤولة عن تنظيم الحياة العامة. لكن الدين الذي تدين به يأمرها أن تعطي أصحاب الأديان غير الإسلامية حقوقاً هي في بعض جوانبها أكثر من الحقوق التي تعطيها لهم الدولة العلمانية (الرجاء من إخواننا المختصين أن يفصلوا هذا الأمر). والإسلام في هذا يختلف عن الدول الدينية التي كانت سائدة في أوروبا. لم تكن تلك الدول تكتفي بتنظيم الحياة العامة وتترك لأهل الأديان المخالفة لها حرية التدين في ذلك النطاق، بل كانت تحاول فرض عقيدتها على كل من هو تحت سيطرتها فإما أن يصير كاثولوكيا مثلا وإما أن يقتل، وهذا هو الذي فعلوه بالنسبة لليهود في أسبانيا.

لقد خيروهم بين أن يتحولوا إلى النصرانية أو يهاجروا أو يقتلوا. وقد كانت هذه السياسة هي السبب في اشتعال ما سمي بالحروب الدينية التي استمرت لقرون في أوروبا، وكانت هي السبب كما يقول بعضهم في التحول إلى الدولة العلمانية التي تعطي أهل كل دين تلك الحقوق التي تحدثنا عنها.

وإذا جاز للدولة العلمانية التي يقال إنها دولة ليبرالية أن تقيد حرية التدين، فلماذا لا يجوز ذلك لدولة يقوم مبناها كله على أساس دين منزل من عند الله تعالى ؟

عقوبة المرتد:

هذا يقودنا إلى الحديث عن عقوبة المرتد، فنقول : إن الذين يعترضون على هذه العقوبة منهم من هو كافر بالإسلام، ومنهم من هو منتسب إليه. أما الكافرون به فإنما يعتمدون في اعتراضهم على كون هذه العقوبة مخالفة لمبدأ العقيدة الذي هو حق لكل إنسان. وقد قدمنا الحديث في هذا لكننا نزيد الأمر هنا وضوحا فنقول : إن الخلاف في أمر ما بين المنتسبين إلى أديان ومذاهب حياة مختلفة لا يحسم إلا بالرجوع إلى معايير متفق عليه بينهم. ولا معايير متفق عليها بين العقلاء من البشر إلا المعايير العقلية والحسية. ولا شيء في الحس ولا في العقل يقول إنه لا يجوز عقاب التارك لدين حق إلى دين باطل. نعم إن الخلاف يمكن أن ينتقل بعد ذلك إلى السؤال عما إذا كان الدين المتروك هو دين حق. لكن هذا سؤال آخر إنما يجاب عنه بالمعايير نفسها التي ذكرناها، معايير العقل والحس.

يبني بعض الغربيين اعتراضه على قتل المرتد على اعتبار أن حق الحياة حق مطلق، فلا يجوز لذلك أن تزهق روح مهما ارتكبت من آثام. ولذلك فإن كثيرا من الدول الأوربية ألغت عقوبة الإعدام. لكنه هذه الدول نفسها هي التي ترسل جنودها ليتعاونوا مع الأمريكان في قتل الأبرياء في أفغانستان وفي العراق. كيف تقول إن حق الحياة حق مطلق لا يجوز التغول عليه ثم تقتل الأفغان بحجة أنهم هم الذين كانوا وراء أحداث سبتمبر، وتقتل العراقيين بحجة أن دولتهم تملك أسلحة دمار شامل يهدد المصالح الغربية؟ وكيف إذا كان كثير من هؤلاء الذين يقتلون هم باعتراف الجهات الغربية من الأبرياء ؟ إن التعلل بكونهم قتلوا خطأ لا يجدي لأن الذين يشنون مثل تلك الحروب

يعلمون يقينا أنه ستكون من نتائجها قتل بعض الأبرياء. أما المنتسبون إلى الإسلام فإن اعتراضهم مبني على ثلاث حجج: الأولى عدم ثبوت هذه المسألة من الناحية الشرعية. وهذا أمر يحال الحسم فيه إلى الإخوة المختصين.

أما حجتهم الثانية فهي أن المرتد لا يعاقب إلا إذا كانت ردته مرتبطة بخروجه على الدولة. وهذه حجة واهية :

أولاً: لأن حديث: **(من بدل دينه فاقتلوه)** ذكره ابن عباس رضي الله عنهما بمناسبة تدل غاية الدلالة على نقيض من يقولون. ذكره رضي الله عنه بمناسبة قتل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وتحريقه لجماعة ممن غلوا فيه وسجدوا له وقالوا له أنت ربنا. فهل يقال عن أمثال هؤلاء إنهم خرجوا على الحاكم؟ وهل رأيت من خضوع لحاكم هو أشد من مثل هذا الخضوع ؟

وثانياً: لأن الخارج على الإمام العادل يقاتل مرتداً كان أو غير مرتد.

قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

لكن قتاله لا يلزم عنه قتله كما هو واضح من الآية، ولأن الإمام قد يعفو عنه بعد المقدرة عليه إذا رأى في ذلك مصلحة للمسلمين.

ثالثاً: لكن هذا معناه أن المرتد الخارج عن السلطة قد لا يقتل، مع أن الأحاديث التي يقر بها القائلون بارتباط الردة بالخروج تأمر بقتل المرتد.

أما حجتهم الثالثة فهي أن عقوبة المرتد تتعارض مع مبدأ إسلامي مهم هو مبدأ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. مما لا شك فيه أن هذا مبدأ إسلامي ثابت ومهم. إن الآية تنهى عن محاولة قسر الناس على الدخول في دين الإسلام لكن النهي فيها مبني على أنه لا أحد من البشر يستطيع إدخال الاعتقاد في قلوب الناس. هذا أمر لا يقدر عليه إلا الله تعالى. وفي كتاب الله تعالى أدلة كثيرة على هذه الحقيقة بالإضافة إلى آية عدم

الإكراه المذكوره آنفا. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢].

قال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «أي فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب. ولهذا قال: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾. قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: (لست عليهم بجبار). وقال ابن زيد: لست بالذي تكرههم على الإيمان».

وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وعليه فلا يمكن أن يكون القصد من عقاب المرتد هو إجباره على اعتقاد ما لا يعتقد، لأن هذا أمر مستحيل. ما القصد إذن؟ لابد أن يكون القصد هو منعه من التصريح بهذا الاعتقاد والدعوة إلى ما يخالفه لما يترتب على ذلك من مضار، إذ إن هناك فرقاً بين من يصرح بالكفر قبل أن يعلن دخوله في دين الإسلام وبين من يصرح به بعد دخوله. إن الذي يعلن دخوله في دين الإسلام لا يدخله فرداً وإنما يعلن انضمامه إلى جماعة المسلمين، وهي جماعة مترابطة متآلفة، وليست مجرد كوم من الأفراد. فالذي ينضم إليها ثم يعلن خروجه منها يعلن نوعا من الحرب عليها. وذلك لأنه:

أولاً: يقول بلسان حاله أو مقاله إنه جرب هذا الدين فوجده دينا باطلاً، أو وجد فيه عيوبا كثيرة، فهو يحذر غيره من أن يكرر تجربته. وإلى هذا الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: «هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصه وعيب في دين المسلمين».

أقول هذه المكيدة مازالت مستمرة لكنها تأخذ صورا مختلفة منها في أيامنا هذه أن بعض الدول المعادية للإسلام ترسل جواسيسها ليعلنوا إسلامهم وينضموا إلى جماعة المسلمين في البلد الذي هم فيه ثم يعلنون خروجهم منه. وقد رأينا بعضهم يفعل هذا ثم يكتب كتابا كاملا عن المسلمين يملؤه بالأكاذيب والتهم التي يرى أنها ستنفر قومه منه.

ثانياً: إن الذي ينضم إلى جماعة المسلمين يصبح جزءا من نسيج ذلك المجتمع فإعلان خروجه منه قد يؤثر تأثيراً كبيراً وسيئاً على من كان قريبا منه من أزواج وأولاد وأصدقاء وجيران ومعارف لا سيما إذا لم يكن لهم من العلم وقوة الاستمساك بالدين ما يحميهم من هذا التأثير. إن الذين يدافعون عن حق الشخص في الردة لا يريدون الاعتراف بأن في الناس ضعفاء يحتاجون إلى حماية بل يفترضون فرضاً باطلاً هو أن كل الناس سواسية في مقدراتهم العلمية وقواهم الإيمانية.

ثالثاً: إن التهديد بقتل المرتد فيه مصلحة وحماية لكثير من الناس من في الردة. وذلك أن الإنسان قد تعرض له شكوك إذا صرح بها كانت تصريحاً بالكفر. فإذا عرفت عنه فربما أصر عليها واستمر فيها. وأما إذا خشي من أن يعرضه التصريح بها للقتل فقد يكتمها ثم يكتشف أنها إنما كانت وساوس شيطانية أنجاه الله تعالى منها. ونحن نعرف أناساً بأعيانهم حدث لهم مثل هذا. والإنسان قد يراجع نفسه حتى بعد أن يعلن ردته، وربما كانت هذه الحكمة في إعطائه ثلاث فرص قبل قتله.

الحقيقة التي ذكرناها عن كون المسلمين جماعة وليسوا مجرد كوم من الأفراد، وبنينا عليها بعض مسوغات قتل المرتد، مسألة مخالفة تماما للفكر الليبرالي الشائع الآن في الغرب، أعني الفكر الذي يقوم على اعتبار أن الناس في الأصل أفراد، وأن وجودهم في المجتمع أمر طارئ، وأنه لذلك ينبغي أن يعطي كل منهم أكبر قدر من الحرية بما في ذلك الحرية الدينية بالمعنى الذي ذكروه.

وما ذكرناه مخالف أيضاً للفكر العلماني الليبرالي السائد الآن في الغرب في كثير من البلاد التي تأثرت به هو فكر لا يرى للدين مكانا في تصريف حياة الناس العامة، وإنما يراه أمرا خاصا بالأفراد لا يجوز للمتجمع أن يتدخل فيه. وكما يرى هذا في الدين يراه في أمور أخرى منها العلاقات الجنسية فهو يبيح للناس أن يختاروا ما شاؤوا من

علاقات جنسية سواء كانت بين رجل وامرأة أو بين رجلين أو بين امرأتين. وإخواننا الذين يرون عدم قتل المرتد استنادا إلى الآية الكريمة ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، يلزمهم أن يطردوا هذه الحرية الدينية على كل تفاصيل الدين كما فعل الغربيون، لأنه من التناقض البين أن تعطي الإنسان حرية الخروج عن الدين كله ثم لا تعطيه حرية الخروج عن بعضه، وهذا معناه أن ينكروا كل الحدود وكل أنواع التعزير بحجة تناقضها مع الحرية الدينية. ويلزمهم لهذا القول بأنه يجوز للإنسان أن يقول إنه مسلم لكن ينكر شيئاً من القرآن أو ما علم بالضرورة أنه من دين الإسلام، فلا ينكر عليه ممارسة الزنى أو الشذوذ، ولا لشرب الخمر وهكذا.

لكن نتيجة هذا كله هي أن لا يكون الإسلام نظاما لدولة لأنه لابد للدولة من قانون تنتظم به حياة الناس ولابد لهذا القانون من أن يتضمن أنواعا من العقوبات، فإذا كان القانون مبنيا على الدين وكانت عقوباته كلها مبنية على الدين، وكان من حق الإنسان – بحسب مبدأ الحرية الدينية – أن يرتكب المخالفات والجرائم التي تعاقب عليها تلك القوانين، كان من المستحيل أن يكون الدين أساساً لدستور الدولة وقوانينها.

ماذا لو قال قائل إنكم تتناقضون حين تعطون الإنسان حرية الدخول في الدين لكنكم لا تعطونه حرية الخروج منه. نقول إن هناك فرقاً بين حرية الدخول وحرية الخروج. إن منظمين لمحاضرة تلقى في إحدى القاعات قد يقولون إن المحاضرة مفتوحة لا قيد على من يريد حضورها، لكن لا يسمح لمن دخل القاعة أن يخرج منها إلا بعد انتهاء المحاضرة لأن هذا يشوش على المحاضر وعلى المستمعين.

إن الأصل هو دعوة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة ومجادلتهم بالتي هي أحسن، ثم ترك الأمر إليهم فمن شاء آمن ومن شاء كفر. وقد كانت هذه الطريقة وما تزال هي التي دخل الناس بسببها في دين الله أفواجا. أما المرتد فحالته حالة شاذة عن هذه القاعدة التي ذكرناها للأسباب التي بيناها ولكنه مع ذلك يعامل في البداية مثل معاملة المدعو إلى الإسلام فيحاور ويجادل ويعطى فرصة لمراجعة نفسه، ولا يعاقب إلا بعد أن يصر على الردة.

* * *

في منهج العمل الإسلامي

القاعدة الأولى: التركيز على العقيدة لا يعني إهمال الجوانب الأخرى:

القاعدة الثانية، التي صحت جوهراً وعلماً. وأخطأ الناس في فهمها وتطبيقها هي: قاعدة التركيز على العقيدة.

أن صحة العقيدة شرط من صحة الإسلام، وصحة العمل الإسلامي. فلا يتقبل الله عملاً إلا إذا كان منبثقاً من عقيدة سليمة خالصة.

هذه قاعدة صحيحة.

لكن أناساً من المسلمين غلوا في دينهم وفي تفسير هذه القاعدة، ومازالوا يتحرون الغلو حتى دعوا إلى هجر كل شيء ابتغاء التركيز على العقيدة وحدها.

هذا هو موقف قليل العلم والفقه، وهو كذلك موقف سلبي بمقياس العمل والجهاد.

ومقولتهم في هذا هي: أن منهج الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، هو الابتداء بدعوة الناس إلى تصحيح العقيدة حتى إذا ما صحت وتركزت في القلوب جاءت تفاصيل التشريع بنياناً معتمداً على أساسها المتين.

هذا كله صحيح، إنما جاء الخطأ من عدة أوجه. فالغلو هنا هو نتيجة الغلو في تفسير القاعدة الأولى. وذلك قول البعض: يجب أن نبدأ بالعقيدة كما بدأ الرسول ﷺ فلا ندعو الناس إلا إليها. لا ندعوهم إلى تفاصيل النظم الاقتصادية أو السياسية أو القانونية، لأن قبول هذه النظم تابع للتصديق بأنها من عند الله، والذي يؤمن بأنها من عند الله لن يتلجلج في قبولها، ولن يحتاج إلى أن نبين له محاسنها أو فرضها على غيرها من النظم.

وهذا التصور يهدم أو ينقض العرى الباقية من عرى الإسلام.

١) فهذا الكلام إذا أخذ بحرفيته، فإنه يؤدي إلى نتائج شنيعة فهو يعني:

إلا نتعرض لتفاصيل الصلاة والصوم والزكاة والحج والأحوال الشخصية ولا ندعو الناس إلى ترك الخمر والميسر والربا والزنا والظلم الاقتصادي والسياسي. ولا نلزم الدعاة أنفسهم بشيء من هذا ولا نقرأ القرآن المدني ولا نتدبره ولا أحاديث الرسول بالمدينة ولا نعرف شيئاً عن سيرته بها. وإذا كان هذا شنيعاً وكان لابد من الحديث عن هذ التفاصيل فما الذي يمنع من الحديث عن تفاصيل الاقتصاد والسياسة؟ ما الفرق بين هذا وذاك؟

٢) الدعوة إلى توحيد الله تعالى لم تكن – حتى في البداية – منفصلة عن الإيمان بالدار الآخرة والإيمان بصدق الرسول والإيمان بأن القرآن وحي من عند الله. بل لم تكن منفصلة عن الدعوة لمكارم الأخلاق وحسن معاملة الناس، وكل هذه أمور يحتاج الذي لا يؤمن بها إلى أدلة و براهين وآيات تبين له أنها حق، فإذا أردنا أن ننهج النهج النبوي بمكة فلابد من أن نحدث الناس في كل هذه القضايا، لكي نبين لهم أن القرآن كلام الله تعالى. لابد أن نريهم إعجازه. وإذا كان العرب الذين نزل عليهم القرآن الكريم قادرين على تبين إعجازه البياني فان أكثر النا س اليوم عاجزون عن رؤية هذا الإعجاز، ولكن حكمة الله تعالى قضت بإلا يكون إعجاز الرسالة الخاتمة مقصوراً على الاعجاز البياني الذي كان مناسباً للأمة التي خوطبت بها أول مرة.

لقد جعل الله إعجاز القرآن أمراً مستمراً تراه كل الأجيال على مدى الزمان وامتداد الأيام. ومن هذا الإعجاز: الهدى الذي جاء به القرآن الكريم وهذا الهدى يشكل: الهدى الاقتصادي والسياسي والأخلاقي النفسي والاجتماعي.. الخ. لقد كان الأنبياء – فيما مضى – يدعون أممهم إلى التوحيد، ويربطون هذه الدعوة بالمسائل التي تهم أممهم. فدعوة شعيب عليه السلام – ارتبطت بمشكلة اقتصادية ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤]. ودعوة موسى عليه السلام ارتبطت بمشكلة سياسية: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء-١٦-١٧]. ولكن دعوة محمد ﷺ جعلت قرآنا محفوظاً وسنة مبينة.

دعوة فيها أصول الحلول لكل مشاكل الإنسان والداعية البصير يتخير من هذا الهدى الشامل الذي يجده بين يديه الأمور التي يراها تشغل قومه وزمانه فيربطها بدعوة التوحيد وغرضه من هذا ليس هو – كما يخشى البعض – دعوتهم إلى الالتزام بهذه القضايا مستقلة عن العقيدة، بل غرضه أن يجعلها ذريعة يعطف بها قلوب مخاطبيه إلى الإيمان بالله، وبرهانا على أن القرآن كلام الله.

٣) القول بأن الإنسان حين يؤمن بالله تعالى ويكون مسلماً لا يحتاج لأن نبين له محاسن مما يأمره الله به أو مساوئ مما ينهاه عنه: قول يبدو في ظاهره صحيحاً ولكنه غير صحيح.

أولاً: هناك فرق بين الإيمان المجمل والإيمان المفصل. فرق كبير بين من يؤمن على وجه الإجمال: بأن كل ما أمر الله به خير، وكل ما نهى عنه فهو شر، وبين من يعرف - بالأدلة العقلية، أو التجربة الحسية - الخير الكامن في أمور معينة، أمر الله بها، وأمور معينة نهى الله عنها، إن الإيمان الصحيح هو الإيمان الذي يقوم على العلم. وإذن فكلما علم الإنسان وآمن علم كلما ازداد إيمانه - كما هو معروف - يزيد وينقص.

ثانياً: أن المعرفة نفسها درجات فالمعرفة بمجرد الخير، غير المعرفة بالدليل والتجربة، حتى لو كان المخبر هو الله تعالى. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠]. وقال رسول الله ﷺ معلقاً على هذه القصة: (**يرحم الله موسى: ليس المعاين كالمخبر أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح**).

وأبو الأنبياء إبراهيم - عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه - قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠]. ويقول الرسول ﷺ معلقاً على موقف إبراهيم هذا: (**نحن أحق بالشك من إبراهيم**) [رواه البخاري عن أبي هريرة]. يقول ابن كثير: «إن الشك المذكور هنا ليس الشك المعهود وان إبراهيم عليه السلام أراد وكما ذكر البعض - أن ينتقل من درجة علم اليقين إلى درجة عين اليقين».

ثالثاً: لو كان الأمر كما يصوره هذا الغلو في تفسير الإيمان لجاءت آيات الأمر والنهي في القرآن الكريم كالأوامر العسكرية غليظة جافة لا تبين حكمة أو سبباً، ولا تعلل أمراً أو نهياً، ولا تسلك الأسلوب الذي تلين له القلوب. ولكن الواقع أنها تفعل كل هذا. انظروا مثلاً في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣-١٨٤].

ولنحاول فقه هذه الآيات:

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إشعار بأن ما أمرتم به ليس شيئاً جديداً. وإنما هو أمر قد جربه الناس من قبلكم واحتملوه. ولكن لأن هذه المشقة وسيلة لابد منها لنيل التقوى التي هي هدف كل مؤمن بالله تعالى. ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾. فأنتم لستم مطالبين بصيام الدهر كله ولا نصفه وإنما هو شهر واحد. إنها أيام معدودة وتنقضي، ومع هذا ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، ومن كان يتحمله ولكن بمشقة كبيرة فليفطر وليفد، والشهر المطلوب منكم صيامه ليس شهراً كسائر الشهور، إنه ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وفي بقية السياق مزيد من بيان الحكم والتعليل، ولكن لعل فيما ذكرنا كفاية لبيان ما نريد.

رابعاً: إننا إنما نعرف الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته. والذي يدلنا على أسمائه وصفاته هو مخلوقاته وآياته وآلاؤه. إذن فكلما عرفنا الصلة بين شيء بما أمر به أو نهى عنه وبين حكمته تعالى أو رحمته أو عدله أو فضله كلما ازدادت معرفتنا بالله تعالى وازداد إيماننا به وحبنا له، ولهذا فإن القرآن الكريم لا يقتصر على بيان الثواب والعقاب الأخرويين، بل يبين لنا آثار الإيمان ومنافعه في هذه الحياة الدنيا أيضاً، ويحذرنا من الكفر، ويبين لنا أضراره في هذه الحياة الدنيا. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]. ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

خامساً: ولو كان هذا الكلام صحيحاً. لما كان هناك مجال لسهم المؤلفة قلوبهم. فإذا جاز أن تؤلف قلوب الناس بالمال حتى تنعطف إلى الايمان فلماذا لا تؤلف بالحديث عن المال أي عن هدى الإسلام في شئون الاقتصاد وهديه في السياسة.

سادساً: هذا النوع من التفكير أورث بعض الدعاة نوعاً من الجفاء والغلظة في مخاطبة الآخرين مع أن الله سبحانه وتعالى يقول لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. إن هذه الآية توضح أنه لا يجدي مع الفظاظة منطق ولا بيان حق، ولا أي نوع من الإغراء، إنها وحدها كافية لفض الناس الخيرين عن الداعية مهما كانت رسالته، ومهما كانت حجته.

يقول الشيخ أبو عبدالله محمد بن إبراهيم الوزير في كتابه: "إيثار الحق على الخلق" معلقاً على آية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]: «هذا كله في الحب الذي هو في القلب والمخالطة لأجل الدين». وذلك للمؤمنين المخلصين بالإجماع. وللمسلمين الموحدين إذا كان لأجل إسلامهم من أهل السنة – كما يأتي – وأما المخالطة والمنافعة وبذل المعروف وكظم الغيظ وحسن الخلق وإكرام الضيف ونحو ذلك فيستحب بذله لجميع الخلق إلا ما كان يقتضي مفسدة كالذلة فلا يبذل للعدو في حال الحرب كما أشارت إليه الآية: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [الممتحنة: ٨]. ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]. ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦]، فأمر بالبراءة من عملهم القبيح لا منهم. وهو يرى أن المسلم ليس منهيا عن أن يحب العاصي لخصلة خير فيه ولو كان كافراً. وعصيان المسلم لا ينفي حبه لله ورسوله **(ولا تعينوا الشيطان على أخيكم أما إنه يحب الله ورسوله؟)** [رواه البخاري]. والرسول ﷺ كان شديد الحرص على هداية قومه، كثير الحزن على إعراضهم – بكسر الهمزة – ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]. ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]. كنت أمشي مع أحد الإخوة المسلمين السود في أمريكا. فطفق يعبر عن حرصه الشديد على هداية قومه ورغبته في إنقاذهم مما هم فيه. فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان، إنها دمعة الرحمة وحب الخير للناس.

القاعدة الثانية: أخذ الإسلام كاملا ١٠٠٪ أو لا شيء:

ومنهم من ينادي أو يخير المسلمين بين أمرين.

إما أن يأخذوا الإسلام كله، وإما أن يدعوه كله، وهذا غلو حمل أصحابه على الضيق بكل بادرة للخير، وإساءة الظن بكل جزئية من جزئيات الحق والإصلاح. إنهم يريدون إلغاء كل عمل إسلامي ليؤسسوا عملاً إسلامياً كاملاً. إن النهج السليم أن نرحب بكل خطوة خير - ولو كانت من كافر - وأن نطالب كل فاعل خير بالمزيد حتى تدخل في شرائع الإسلام جميعاً، فلقد دعا رسول الله ﷺ إلى التوغل في الدين برفق:

والرفق هنا يعني:

١) تناول الدين برفق.

٢) التدرج في السعي نحو الكمال الممكن.

وأنه لمن المشادة الفكرية للدين أن يرفع شعار:

إما الإسلام كله.. وإما تركه كله. وإنه لمن المشادة العملية للدين: أن يحاول أقوام تطبيق هذا الشعار وجعله سلوكاً عملياً. وأنهم لمغلوبون إن هم فعلوا ذلك **(ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه)**. الطريقة الصحيحة هي: أن نعتبر أنفسنا بنائين نشيد صرح الإسلام لبنة لبنة، وأن نعد كل عمل إسلامي: إضافة لبنة لهذا البناء. لئن أريد بشعار أو فكرة **(خذوا الإسلام كله أو دعوه كله)** الإيمان الكامل بكل ما جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة فهذا حق. لأننا مكلفون بالإيمان بالكتاب كله. ولعل الخلط بين هذه القضية وبين تطبيق الإسلام - وفق الاستطاعة - وهو الغلو والفهم الخاطئ.

القاعدة الثالثة: الحذر من كيد الأعداء:

هذه قاعدة سليمة اكتنفها الغلو في الفهم والتطبيق.

فالحذر - كيقظة نفسية وعقلية وسياسية - مطلوب في الحرب والسلم. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ [النساء: ٧١]. ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾

[المائدة: ٤٩].

لكن الاسترسال الوهمي مع الحذر: غلو يحقق أهداف الأعداء من حيث أراد أصحابه أن يحبطوا كيد الأعداء، فالغلو في الحذر يحوله إلى مخاوف تقوض العزيمة. وتربك كل عمل. وتشيع التطير والجزع في صفوف الإسلاميين، وهذه غاية يسعى إليها المناوئون للإسلام.

ومن أمثلة هذا الغلو في فهم وتطبيق هذ القاعدة.

- ❖ كيد الأعداء هو سبب تخلفنا وسبب كل شر أصابنا في ديننا ودنيانا.
- ❖ الشعب طيب خير.
- ❖ الحكومات وحدها هي التي تعيق تقدم الإسلام والمسلمين.
- ❖ والحكومات فريسة للاستعمار والشيوعية.
- ❖ والشيوعية والاستعمار فرائس للصهيونية العالمية.

هذه الوسوسة المعقدة – الناتجة عن غلو في فهم الحذر – أصبحت كالعقيدة المفروغ من صحتها وجدواها. ونستطيع القول : بأن هذا التصور يتناقض مع منهج القرآن في تحليل أسباب الضعف والهزيمة والمصائب. فالقرآن الكريم يرد الكوارث والمصائب التي تحيق بالإنسان إلى أسباب داخلية. نابعة من نفسه ومن انحرافه ومن اخلاله بشروط الاستقامة ومن تجاهله لسنن الله تعالى في المجتمع البشري: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡ﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

نعم هناك أسباب خارجية. وهي أسباب حقيقية ولكنها ثانوية. وهذه الأسباب لن تضرنا شيئا إذا صحت الاستقامة على دين الله، وصح فقهنا للدين، وصح تطبيقنا له،

وصح عزمنا على التفتيش عن أسباب ضعفنا داخل أنفسنا أولاً. ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]. ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]. ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨]. ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

فإذا فقهنا هذا فقد ترتب على هذا الفقه:

١) أن نصارح الشعوب بأنها هي سبب الهزائم والتخلف.

٢) وأن نكثف العمل في إصلاح الشعوب ذاتها.

٣) أن نسعى لإصلاح الحكم باعتباره صورة من المجتمع أو جزء من واقع الشعوب.

٤) لا نكتفي بمجرد إلقاء الاتهام، بل نبذل جهداً حقيقياً في التحقيق والتثبت. وجهداً إيجابياً في تغيير الواقع.

٥) أن نستفيد من تضارب مصالح الخصوم متخلين عن النظر إليهم باعتبارهم شيئاً واحداً ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤].

٦) أن نحرر القلب الإسلامي من ضغوط الوساوس والتطير والاستسلام لفكرة القوى الخفية التي تدير العالم.

فهي ضغوط أصابت الكثيرين بالشلل أو التردد والارتباك.

* * *

قواعد أصولية..
واقتراحات عملية للتعاون بين العاملين للإسلام

ورقة مقدمة من الدكتور جعفر شيخ إدريس لمؤتمر العمل الإسلامي بين الاتفاق والافتراق في قاعة الصداقة في الخرطوم _السودان في الفترة ٢٣- ٢٦جمادى الأولى ١٤٢٥الموافق ١٠-١٣يوليو٢٠٠٤م ونشرتها جامعة الخرطوم .

اجتماع المسلمين وتعاونهم فيما بينهم، بل وتعاونهم مع غيرهم على كل ما من شأنه أن يُعلي كلمة الله ويعز دينه، مقصدٌ عظيم من مقاصد الشريعة الذي تقتضيه وتدعو إليه أصولها، والعمل على تحقيق هذا المقصد بالأخذ بالوسائل العلمية والعملية التي بينتها الشريعة أو التي قد تقتضيها نوازل مكانية أو زمانية هو مما لا يتحقق ذلك المقصد إلا به. وفيما يلي من هذه الورقة شيء من تفصيل لهذه الجملة الموجزة.

أسباب الاتفاق والتعاون :

هنالك أسباب ثلاثة بقدر توفرها في الناس وقوتها يكون الاتفاق والتعاون بينهم، وبقدر ضعفها يكون الاختلاف والتنافر والتدابر.

السبب الأول: هو ائتلاف القلوب، لأن ائتلافها يجعل من الأفراد إخوة يحب بعضهم بعضاً، ويثق به ويتجاوز عن سيئاته، فكلما كانت هذه الرابطة القلبية أقوى كان الاتفاق والتعاون أكثر، وكلما كانت أضعف حلَّت مشاعر العداوة بين الأفراد، وفقدوا الثقة في بعضهم فصعب عليهم أن يتعاونوا.

ولما كان منهج الإسلام في الإصلاح يبدأ دائماً بإصلاح القلوب، كانت الألفة بينها هي أول ثمرة من ثمار الإيمان المباركة، قال تعالى ممتناً على رسوله وعلى المؤمنين: **﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** [الأنفال: ٦٣]. وقال سبحانه: **﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾** [آل عمران: ١٠٣]. هذه الأخوة الإيمانية هي الأساس القوي المتين الذي تقوم عليه الرابطة بين المسلمين، لكن المسلمين بشر لا يكونون دائماً على حال من الإيمان الذي

ترتكز عليه هذه الأخوة، بل قد يضعف إيمانهم، وقد يعملون لذلك أعمالا تتناقض مع الأخوة، لكن هذه الأعمال مهما كانت مستنكرة فإنها لا تقوى على إزالة أساس الإيمان ما دامت في دائرة المعاصي التي لا تُخرج صاحبها من الملة، فلا تقوى لذلك على إزالة رابطة الأخوة ومحوها من الصدور، تعليقاً على قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨].

قال في تفسير الجلالين: «وفي ذكر أخيه تعطُّفٌ داعٍ إلى العفو، وإيذانٌ بأن القتل لا يقطع أخوة الإيمان، وكما أن المؤمنين قد يتصرفون تصرفات تتنافى مع ما تقتضيه أخوة الإيمان من تعاون، فإن أصحاب القلوب المتنافرة قد يتعاونون على فعل الشر، فاجتماعهم ليس اجتماع قلوب، وإنما هو اجتماع أجساد». ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

السبب الثاني: هو العلم بتفاصيل الأعمال الصالحة، التي هي تعبير عن تلك الأخوة ودعم لها، فكلما كان علم الأفراد واسعاً، وكان الالتزام بمقتضياته شديداً؛ كانت رابطة الأخوة بينهم أقوى، ودائرة التعاون أوسع، وذلك أن الله العليم بقلوب عباده يأمرهم بكل ما يقوي رابطة الأخوة بينهم، وينهاهم عن كل ما يضعف تلك الرابطة فيحل الاختلاف والعداوة والبغضاء محلها، وفي كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم نصوص كثيرة تعلل فيها الأوامر بأن المأمور به مما يقوي رابطة الأخوة، وأن المنهي عنه مما يتنافى معها: من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]. وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ

ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٠-١٣]. وكلما قلَّ العلم، وكثر بسببه الإنكار لبعض حقائق الدين؛ كان الاختلاف، بل كانت العداوة والبغضاء بين المختلفين. ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤]. انظر كيف جعلت الآية العداوة والبغضاء نتيجة لنسيانهم - يعني تركهم أو إنكارهم - لما شرعه الله وذكَّرهم به. لا يقولن أحد إن هذه الآية وأمثالها إنما نزلت في الكفار فلا تطبقوها علينا نحن المسلمين، لا يقولن هذا؛ لأن المسلم قد يتصف ببعض خصال الكفار وإن لم يكن كافراً، وبقدر اتصافه بها تحدث له النتائج التي رتبها الله عليها؛ وذلك لأن كل المعاصي لا تكون أبداً من آثار الإيمان، وإنما هي من نتائج البعد عنه: **(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)**. كذلك كلما كثر ارتكاب الأفراد لما نهاهم الله عنه من الآثام كثر بينهم الخلاف والتباغض.

السبب الثالث: هو التنظيم الاجتماعي الذي تقتضيه تلك الأخوة الإيمانية. والمقصود بالتنظيم الاجتماعي ما يتعلق بالمسلمين باعتبارهم جماعة، فمما جاءت به الشريعة في هذا:

أولاً: أن المسلمين جماعة وليسوا مجرد أفراد، ولكي يكونوا جماعة فلا بد لهم من قيادة ينتظم بها شملهم وتتوحد بها كلمتهم، وهي القيادة المتمثلة في العلماء والأمراء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾

[النساء: ٥٩]. وقال ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: **(من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية)**. ولتأكيد أهمية الجماعة وكونها لا تتأتى إلا بوجود إمامة جاءت الأحاديث الكثيرة التي تأمر بالنصح لهم، والسمع والطاعة ما لم يأمروا بمعصية، بل حثت على الصبر على جورهم، وعدم الخروج عليهم بالسيف ما داموا مقيمين للصلاة.

مبادئ تساعد على التعاون:

١) أن الاجتماع أصل من أصول الدين؛ فلا يهدم بحجة الاستمساك بأمر هو من جزئياته، وقد كان ابن مسعود مراعياً لهذا المبدأ لما صلى وراء أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه لمّا أتم الصلاة في منى مع أن السنة هي قصرها، وعلل متابعته له بقول: (الخلاف شر). سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن رجل أفتى بأنه «لا تجوز الصلاة خلف أئمة المالكية، ومن صلى خلف إمام مالكي المذهب لم تصح صلاته، ويلزمه إعادة ما صلى خلف الإمام المالكي».

فأجاب: «الحمد لله وحده، إطلاق هذا الكلام من أنكر المنكرات وأشنع المقالات؛ يستحق مطلقه التعزير البليغ... ويدخل صاحبه في أهل البدع المضلة، فإن مذهب الإمام الأعظم مالك بن أنس إمام دار الهجرة ودار السنة، المدينة النبوية التي سُنَّت فيها السنن وشرعت فيها الشريعة، وخرج منها العلم والإيمان، هو من أعظم المذاهب قدراً وأجلها مرتبة...... وكان لمالك بن أنس رضي الله عنه من جلالة القدر عند جميع الأمة: أمرائها، وعلمائها، ومشايخها، وملوكها، وعامتها، من القدر ما لم يكن لغيره من نظرائه، ولم يكن في وقته أجلُّ عند الأمة منه.... وكيف يستجيز مسلم أن يطلق مثل هذه العبارة الخبيثة، وقد اتفق سلف الأمة من الصحابة والتابعين على صلاة بعضهم خلف بعض مع تنازعهم في بعض فروع الفقه، وفي بعض واجبات الصلاة ومبطلاتها».

٢) ارتكاب أخف الضررين، هذا مبدأ عقلي يلتزم به معظم الناس في حياتهم الخاصة، فما من عاقل يخير مثلاً بين أن يقتله اللصوص أو يأخذوا ماله إلا فضل الضرر الثاني على الأول، لكن بعض الناس ينساه في مجال الحياة العامة، وذلك أنهم

يظنون خطأ أنه لا مجال في الدين لقبول أنصاف الحلول، فإما الحق كله أو تركه كله، فيخلطون بين منطق العقيدة الذي لا يقبل مساومة ومنطق العمل الذي لا بد فيه من النقص والتقصير. منذ أعوام مضت شاعت بين بعض الشباب عبارة تنسب للأستاذ "سيد قطب" ـ عليه رحمة الله ـ يقول فيها: «خذوا الإسلام جملة أو دعوه»، فصاروا يرون أن لا فرق بين دولة تطبق شيئاً من الإسلام ودولة تتركه كله، بل صار بعضهم يعتقد أن الثانية خير من الأولى؛ لأن موقفها صريح لا نفاق فيه، هذا مع أن العبارة لو أُخذت بحرفيتها صار كل مسلم، ما عدا الرسول ﷺ، مقصراً؛ لأنه ما من أحد بعده صلى ﷺ يمكن أن يأخذ الإسلام كله فيفعل كل الواجبات والمندوبات ويترك كل المحرمات والمكروهات، أما في مجال الاعتقاد فنعم لا يكون الإنسان مسلماً إذا هو أنكر شيئاً من الدين يَعلم أنه منه مهما كان ذلك الشيء كبيراً أو صغيراً، ولكن حتى في مجال الاعتقاد فإن الذي يكفر ببعض الدين أقل شراً من الذي يكفر به كله، والذي يكفر به كله أقل شراً من الذي يكفر به ويصد عنه، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

ومن هنا جعل الدين لأهل الكتاب مكانة أخص من التي جعلها لسائر الكفار، ثم إن هذه العبارة ليست دقيقة لأنها تأمر من لا يأخذ بالإسلام كله أن يترك حتى الجزء الذي أخذ به، مع أن النصح لأمثال هؤلاء أن يأخذوا بما تركوه لا أن يتركوا ما أخذوا به. ولذلك قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]: «وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف معروف، وهو واجب على العالم، لكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع أمرهم به، ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر، على أصح قولي العلماء من السلف والخلف. والعقاب الذي توعد الله به الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض في الآية التالية، إنما هو عقاب لهم على ما كفروا به لا على ما آمنوا به:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]».

٣) التعاون مع كل من يريد تحقيق أمر هو خير بمقياس الدين، بغض النظر عن كونه مسلماً أو غير مسلم، براً أو فاجراً، منافقاً أم صادقاً، حاكماً أو محكوماً. وقد عبر عن هذا المبدأ الإمام ابن القيم بما لا مزيد عليه، قال رحمه الله في بيانه للفوائد الفقهية المستفادة من صلح الحديبية، في كتابه العظيم زاد المعاد: "ومنها أن المشركين وأهل البدع والفجور والبغاة والظلمة إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمة من حرم الله تعالى أجيبوا إليه وأعطوه وإن منعوا غيره، فيعانون على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى لا على كفرهم وبغيهم ويمنعون مم سوى ذلك، فكل من التمس على محبوب لله تعالى مرض له أجيب إلى ذلك كائناً من كان، ما لم يترتب على ذلك المحبوب مبغوض لله أعظم منه، وهذا من أدق المواضع وأصعبها، وأشقها على النفوس، ولذلك ضاق عنه من الصحابة من ضاق.

٤) أن يبني الموقف من الحكومات المسلمة على النصح، الذي يقصد إلى الإصلاح، ويعين عليه، وينهى عن الفساد ولا يشارك فيه، لا المعارضة الجاهلية التي لا غاية لها إلا إسقاط الحكومة بالتركيز على عيوبها والمشاركة في كل ما من شأنه أن يؤدي إلي ذلك السقوط.

٥) أن لا تكون الأهواء والمصالح الشخصية أو الحزبية أو التعصب للرأي هي القاعدة التي تبنى عليها الموافقة والمخالفة، بل إن المسلم يسمع ويطيع وإن أصابه ظلم في شخصه؛ لأنه يعلم أن طاعته ليست عبودية لفلان أو فلان من الحكام والرؤساء، وإنما هي طاعة لله تتحقق بها وحدة المسلمين وجماعتهم.

٦) الوعي بالمخططات والسياسات التي يدبرها الأعداء في الداخل والخارج، وما أكثرها في زماننا هذا! إن من يرى عظم الشر الذي سيصيب المسلمين جراء هذه المخططات يهون عليه كل خلاف بينه وبين إخوانه المسلمين، ويدرك ضرورة تعاونه معهم لدرء تلك الشرور.

***

بعض المسائل العلمية التصورية المتعلقة بقضية الكراهية وصدام الحضارات

وهي ورقة عمل قدمها الدكتور جعفر شيخ إدريس لندوة العالم وثقافية الكراهية حول التعصب والهيمنة وصراع الثقافات، والذي شارك فيها مع الدكتور جعفر كل من الدكتور علي النملة والدكتور محمد الجوز ضمن ندوات المهرجان الثاني والعشرين للمهرجان الوطني للتراث والثقافة بالحرس الوطني بالمملكة العربية السعودية عام ١٤٢٩الموافق ٢٠٠٨م.

بسم الله الرحمن الرحيم، إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا، ثم أما بعد:

سأقصر حديثي على بعض المسائل العلمية التصورية المتعلقة بقضية الكراهية وصدام الحضارات، فأقول:

أولاً: الكراهية ليست شيئا مذموما في نفسه كما يشيع الآن في بعض الأحاديث والكتابات الغربية، فكأن المطلوب من كل إنسان أن يكون محبًا لا يكره شيئًا، وهذه حماقة؛ لأن الكراهية من مقتضيات الحب؛ أعني إذا كنت تحب فلابد لك أن تكره؛ إنك لا تستطيع أن تحب الشيء وضده أو نقيضه.

ولذلك فإن الذين يذمون الكراهية ذمًا مطلقًا يقعون فيما يذمون، فبعض زعمائهم يقول عما يسمى بالقيم الغربية إنها قيم حب وتسامح؛ لأنها لا تدعو إلى كراهية الشاذين مثلاً، ولا ضد الصهيونيين، ويقول لذلك على من كان يريد أن يعيش بيننا أن يقبل قيمنا وإلا فليترك بلادنا، ولكن هذا معناه أننا لا نحب أو أننا نكره من يكره الشاذين أو يتعصب ضد الصهونيين.

فمشكلتهم مع الناس إذن ليست في كون الناس يكرهون وهم لا يكرهون، وإنما هي في كونهم يريدون لكل الناس أن يحبوا ما يحبون ويكرهوا ما يكرهون، ولو كان مايحبون غزوًا لبلادهم وقتلاً لمواطنيهم وإهانة وتعذيبا لهم، وتخريباً لاقتصادهم ونهبًا لخيراتهم. فهم الآن يتساءلون في مئات المقالات وكثير من الكتب: لماذا يكرهوننا؟ كأن كل مايقومون به من اعتداء ليس مسوغًا لمشاعر الكراهية ضدهم.

وكثير منهم يعزو هذه الكراهية إلى كل شيء إلا سببها الحقيقي، فهذا زعيم كبير يشير إلى من أمامه من أعضاء مجلسه التشريعي قائلاً إنهم يكرهون هذا، أي

إن كراهيتهم وسبب اعتدائهم علينا هو بغضهم للحرية التي تستمتع بها شعوبنا، وللديمقراطية التي ننتخب بها حكامنا.

لكن كثيرًا من عقلائهم يتساءلون متشككين: وهل يقتل الإنسان نفسه كراهية أن ينتخب شعب حكامه.

ثانياً: يتبين من هذا أن المشكلة ليست في مطلق الحب والكراهية وإنما هي فيما يحب وما يكره. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

هذا هو المذموم، أما كراهية ما يستحق أن يكره فليست بالشيء المذموم بل هي كحب ما يستحق أن يحب. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات ٧-٨].

ثالثاً: قد تكون لسبب طبيعي مقبول، لكنها ينبغي إلا تؤدي إلي عدم العدل مع من يكره. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ "[المائدة: ٢]. فالعادل لا يقتل كل من يكره. لكنهم يقتلون من يقولون إنهم يحبون، وأنت تفضل من يقول لك إنني أكرهك لكنني لن أقتلك بسبب كراهيتي لك، على ما يقول لك إنني أحبك لكنني سأقتلك «كانوا يقولون من الحب ما قتل، وكانوا يعنون أنه يقتل المحب، لكن حب هؤلاء يقتل المحبوب».

رابعاً: هذا يقودنا إلى المسألة الرابعة وهي التفرقة في المعاملة بين المعتقَد والمعتقِد. فكل ما خالف الحق الذي جاء به الوحي أو قامت عليه أدلة عقلية أو حسية فهو باطل. فالحقيقة ليست نسبية، بل الحق واحد. وكل ما خالفة فهو باطل.

- أما من يعتقد الباطل فإننا مأمورون أن ندعوه إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن نجادله بالتي هي أحسن، وإلا نكرهه على التسليم بما نقول، وأن نبرّه ونقسط إليه ما دام لا يحاربنا.

خامسًا: هذا يقودنا إلى قضية الصدام بين الحضارات، إذا كان المقصود بالصدام، الصدام الثقافي، أعني صدام المعتقدات والقيم فهذا أمر لا مفر منه إذا كانت هذه المعتقدات متناقضة.

- وأما إذا كان المقصود أن تناقضها والخلاف بين أهلها يؤدي حتمًا إلى صدام مسلح بينهم أو يحول دون تعاونهم فهذا ليس بصحيح.

تعليق الدكتور جعفر:

أنا قلت في كلمتي وأكرر الآن لابد من كراهية، لكن نقول للناس ماذا يحبون وماذا يكرهون؟ ربنا سبحانه ذكر من أسباب الكراهية ﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة: ١٤]، إذا كان الناس اختلفوا كما نختلف الآن سنة وشيعة. نسوا حظا مما ذكروا به، هذا يعتقد أن هذا هو الدين وهذا يعتقد أن هذا هو الدين النتيجة الطبيعية لهذا هي البغضاء والكراهية ولكن ليست المشكلة في وجود الكراهية ولكن في أن نبحث عن السبل التي تجعلنا نعيش رغم هذا الاختلاف الذي يدعوا إلى الكراهية يعني لا يمكن أن تزيل الكراهية من قلوب البشر في العالم كله ولكن يمكن أن تقنعهم بأنه بالرغم من هذه الكراهية، وبالرغم من هذا الاختلاف يمكن أن يعيشوا، وخصوصا في هذا العصر أنا قلت في كلمة في الولايات المتحدة لا يوجد إنسان عاقل في العالم يقول ينبغي أن نلجأ إلى الحرب، الحرب لن تحل الاشكال، صار ما يسمى بالتعايش السلمي، مسألة حتمية أمريكا تقول أن عندها من الأسئلة ما يدمر الكرة الأرضية ٧مرات، وإذا كان عندنا ما يدمرها ١٤ مرة، فلا ينبغي أن نلجأ إلى الحرب، وإذا كانوا هم عقلاء فلا ينبغي أن يلجأوا، فالتعايش السلمي بالنسبة لواقعنا في هذا العالم صار ضرورة ومسألة حتمية وهذا الذي ينبغي أن ندعو إليه في رأيي، وأنا أخشى من الكلام الكثير ضد الكراهية أن يرتبط هذا كما هو مرتبط عند بعض المفكرين الغربيين، يريدون أن يقولوا ليس هناك ما فيه حقيقة، ولا سيما في الدين أنت غاضب لماذا ؟ وتكره لماذا؟ هذه يا أخي وجهة نظر، الحقيقة نسبية كما قال كلينتون، وحتى انتقده بعض النصارى فبعضهم يرى خطأ أنه لا يكون أن يكون هناك تسامح إلا إذا اعتقدنا أن الحقيقة نسبية، فأنت ترى هذا، وأنا أرى هذه، ولا توجد مشكلة، ونعيش في وطن واحد، ولكن هذا غير صحيح.

* * *

الانعكاسات الثقافية على المشرق العربي
بعد أحداث سبتمبر وما تلاها

وهي ورقة مقدمة لندوة مستقبل المشرق العربي بعد أحداث ١١ سبتمبر وما تلاها بعنوان الانعكاسات الثقافية على المشرق العربي بعد أحداث ١١ سبتمبر وما تلاها وشارك مع الدكتور جعفر الدكتور سامي الدلال، والتي عقدت في الدوحة (قطر) من ٢٠-٢٢ يناير ٢٠٠٣م..

بسم الله والصلاة والسلام على رسول إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتد ومن يضل فلن تجد له وليا مرشداً، ثم أما بعد.

إن علاقة الثقافة بالجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية وثيقة، وإذا كانت أهداف الغرب وأمريكا خاصة قد تتمثل في البترول العراقي أو حماية إسرائيل أو محاربة الإرهاب من أجل تمديد هيمنة الحضارة الغربية على البلاد الإسلامية فإن العقبة الكؤود التي تقف في وجه تحقيق كل هذه الأطماع هي ما يمكن تسميته بالثقافة، ذلك لأن جوهر كل ثقافة كامن في دينها – كما قال بذلك هنتجتون وأنا أوافقه على ذلك – ورغم أن درجة التمسك بالدين يظل أمراً متبايناً وملاحظاً من منطقة إسلامية إلى أخرى، وبين مكونات المجتمع القطري ذاته، إلا أن الدين يظل العنصر الأساسي لجوهر ثقافة الأمة الإسلامية بلا منازع، والمستمر في تشكيل الحاجز الذي يحول دون تحقيق أهداف الغرب.

إن أي أمة إذا ما تعرضت إلى عملية استفراغ مستمر لثقافتها سوف تنتهي تدريجياً بفقدان هويتها الثقافية وشخصيتها الحضارية، فالأمة إنما هي بمعتقداتها وقيمها وتصوراتها، وما يبنى على هذه التصورات من علاقات اجتماعية وسياسية واقتصادية، وبهذا تعمل الثقافة على تحديد هوية الأمة.

إن الأهداف الأمريكية المعلنة بعد أحداث ١١ سبتمبر، وقد تبدت مؤخراً بشكل جلي في وعي كثير من الشعوب الإسلامية وغيرها من الأمم، بل حتى في أوروبا ذاتها، هي في حقيقتها أهداف قديمة، فلقد تخصصت الحضارة الغربية في قتل الحضارات الأخرى وأبدت تاريخياً مزاجاً معادياً في عدم القدرة على التعايش معها.

وللحضارة الغربية ثارات كثيرة مع العالم الإسلامي تكاد تكون دورية، ففي تاريخها المعاصر أعلنت له هدنة نسبية مؤقتة فترة الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتي، دون أن تستطيع مجاوزة الانزعاج الذي خلفته عدم قدرة الإيديولوجية الشيوعية على احتواء الشعوب الإسلامية رغم استطاعتها اعتلاء عرش الحكم في بعض البلاد العربية لفترة من الزمن ليست بالوجيزة.

وقد جاء هذا الصمود والصد نتيجة لتمسك هذه الأمة في غالبيتها بدينها، وما فيه من معتقدات وتصورات وخلق، وقد ينبع خوف الغرب من المسلمين من ثقته ودرايته بالعمق الديني لهذه الأمة المتأصل في الوحي الرباني، والذي مكنها من ردع الإيديولوجية الماركسية، وقادر مستقبلاً في تهديد المنابع الفكرية الغربية ذاتها، ناهيك عن الحافظ على مقومات الشخصية الحضارية الإسلامية المستقلة، ولذلك بعد أن انتهت الشيوعية بدأ الكلام عن الإسلام وعن الخطر الذي يواجه الحضارة الغربية.

والسؤال المطروح الآن هو ما الذي يريده الغرب ممثلاً في أمريكا؟

الذي يريده منا هو أن يؤول الإسلام إلى ما آلت إليه اليهودية والنصرانية، هذا يعني أن يكون ديناً مشذباً يقص، بحيث يصبح ملائماً مع القالب العلماني، ويكون بذلك ديناً لا علاقة له بالسياسة، لا علاقة له بالمؤسسات والعلاقات الاجتماعية، ديناً مسكيناً فردياً، لا يتدخل كما أنه لا يؤثر في حياة الشعوب الإسلامية؛ وهذا ما يسميه كثير من الساسة الغربيين الآن بالإسلام المعتدل. وفعلاً فإذا أصبح الإسلام بهذا الفهم فهو مقبول؛ بل حتى الرسول صلى الله عليه وسلم لو عرض مثل هذا الإسلام لما بُعث على العرب، لما اعترضوا عليه.

لكن مشكلة الغرب وأمريكا هي: كيف تتحقق أهدافها؟

تقول أمريكا إن من أسباب غضب الناس عليها في العالم العربي هي الحكومات الاستبدادية، ولذلك ترى أن من واجبها أن تمكن الديمقراطية في العالم العربي!!، الشيء الذي يضعها بهذا الادعاء في ورطة: كونها إذا أرادت أن تحقق هذا الهدف، فلا بد أن تتدخل في برامج التعليم وتكيفها كما تشاء، ولا بد أن تتدخل في نشاط الجماعات الإسلامية وفي صياغة البرامج الإعلامية.... الخ، لكن هذه الإجراءات تتعارض بطبيعتها مع جوهر الديمقراطية، وتضع الولايات المتحدة الأمريكية أمام

معادلة صعبة، فإذا أرادت الديمقراطية للعالم الإسلامي صعب عليها محاربة الإسلام، وإن أرادت الديكتاتورية حصل منها ما تشكو منه الآن، فهي مشكلة قد امتدت إلى داخل الغرب نفسه لأن الغرب لكي يحارب الإسلام حتى في داخله، لا بد أن يتخلى عن كثير من أهم ما يفتخر به، وهو الحريات، فأمريكا بعد هجمة واشنطن أصبحت تحارب المسلمين في الخفاء، وهي محاربة غير قانونية، لكن هذا لن يستمر طويلاً لان الناس خصوصاً إذا كانوا من الأمريكيين أو من أبنا المسلمين الذين ولدوا بأمريكا وشعروا بحقوقهم مثل باقي الأمريكيين، فلن يرضوا بهذه الانتهاكات التي تطال حقوقهم المشروعة، وإذا كثر التدخل أو سُنت قوانين تبيح هذا التدخل في المساجد الجامعات والجماعات، جاء هذا التصرف على حساب الحرية.

ولقد كَتبتُ كتابات كثيرة في الغرب بعد ١١ سبتمبر، تطرقت فيها للعلاقة بين الأمن والحرية؛ وأظهرت أنه دائماً ما تلجأ الحكومات إلى مسألة الأمن لأن تنازل الناس في وعي السلطة السياسية مرتبط بتخويفهم. ولذلك من الله تعالى على الناس قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣-٤]، وهذان أمران مبتغى كل مجتمع، بل أحياناً يمكن التخلي والتنازل عن الطعام من أجل توفير الأمن. لذا فاستمرار الغرب وخاصة أمريكا في انتهاك حريات المسلمين، ومن الذي يتعاطفون معهم، سوف يضعف روحه المعنوية، ولاسيما في أمريكا، لأن الشعوب الغربية لا تعتز فقط بقوتها العسكرية فحسب، ولكن بما تدعي امتلاكه من أخلاق القوة تمنحها قيادة البشرية وتصدير النموذج الليبرالي والديمقراطية لكل العالم بما في ذلك العالم الإسلامي. لذلك تجد أن الساسة في الغرب لا يخاطبون الشعب فقط بأنا دولة قوية، بل يصرحون بأن هدفهم إنساني محض تمثل في رفع علم الحرية وتحرير العراق من الديكتاتورية التي عثت في الأرض فساداً، فإذا كانت محاربة الإسلام ستحدث خللاً في هذه الادعاء، وتجعل روح الناس المعنوية تتردى، وتنتقص من اعتزازهم بحضارتهم. فإذا حدث هذا فإن القوة السياسية ستخسر الكثير من المكاسب ومن ثم حربها ضد الإسلام ويظهر للشعوب زيف الشعارات المعلنة من طرف الحكومات. كثير من الناس في الغرب خانوا بلادهم لمجرد أنهم اقتنعوا بأن الرأسمالية ليست في صالح الإنسانية وأن إنقاذ الناس من شرورها يكمن في الاشتراكية ولذلك قاموا بمحاربتها من الداخل وكانوا جواسيساً للاتحاد السوفيتي.

ثم أن محاولات الغرب في القضاء على مقومات الحضارة الإسلامية والوجود الإسلامي تظل في نهاية الأمر عملية يائسة، لأن هذا الدين الذي يشكل المرجعية العقدية والفكرية الوحيدة لهذه الأمة هو كلام الله تعالى، إنه الدين الحق، وإن الله سبحانه وتعالى وعد بحفظ دينه حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ولم يقل سبحانه وتعالى في معرض الآية [نزلنا الكتاب]، وإنما خص كلامه بلفظ الذكر، لأن الذكر معناه أن هذه المحفوظ ليس مجرد كلام في ورق – وهذا ما يؤده حديث رسول الله ﷺ بقوله: **(لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون)**.

ونحن قد رأينا مصداق ذلك في أحلك الظروف في الاتحاد السوفيتي المنحل، حيث حافظ كثير من الناس على دينهم، فعلموا أبنائهم الدين في الكهوف تحت البيوت في الأقبية، بحيث يأتي الأب بابنه إلى الشيخ ويتركه معه، دون أن يخرج من البيت حتى لا تعرفه الدولة. كذلك هو حال بعض إخواننا في الصين، وجدتهم يتكلمون اللغة العربية التي توارثوها أباً عن جد، ويقرأون في تفسير الجلالين، ولقد حافظوا على دينهم في أحلك الظروف في فترة ما يسمى بالثورة الثقافية.

فهذا الدين محفوظ ومحاولة استئصاله محاولة يائسة وهنالك أدلة عديدة من خارج المنطق الديني التي تدل على أن الإسلام سيكون بإذن الله تعالى دين البشرية، فمثلاً لم تكن دعوة المسلمين للغربيين سبباً في إضعاف تمسكهم بدينهم، وإنما دراستهم في الدين، حتى قال لي أحد الشباب الأمريكيين ممن هداهم الله تعالى: «أخبرنا أستاذ الديانات المقارنة أنه لا وجود لدين ثابت تاريخياً خارج الإسلام». ومن يقرأ عن سيدنا عيسى عليه السلام كما يبشر به النصارى يشك في وجوده، ولولا أن الإنسان مؤمن به عن طريق الإسلام لشك في وجوده، ناهيك عن الشك في الأناجيل وفي ترجماتها والتناقض الذي فيها النابع من دراسات الغربيين أنفسهم.

الإسلام له مزايا بالنسبة لعصرنا بعد أن صار تفكير الناس عقلانياً وعلمياً، حيث لا يسلم بالتناقضات أو الأحاديث المخالفة للحقائق العلمية؛ فالدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي لا تناقض في داخله، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً

كثيراً ، وهو الدين الذي لا تناقض بينه وبين الحقائق الواقعية فهو الدين الذي يمكن أن يقبل في هذا العصر.

انتقل الآن إلى الحديث عن مفهوم الثقافة – شيء كنت أود أن يكون هو بداية الحديث، لكن رغبت في الكلام في بعض المسائل العملية – فإذا كان متعارفاً أن الثقافة هي مجموع ما عند أمة من الأمم من العقائد والقيم وما يبنى على هذه العقائد من علاقات اجتماعية وسياسية واقتصادية... فأنا في رأيي يمكن أن نقسم الثقافة إلى ثلاثة أنواع:

١) ثقافة أسميها بالثقافة الإنسانية: وهذه لا يقول بها الغربيون، ولا يؤمنون بوجودها. وأعني بالثقافة الإنسانية تلك التي هي ضرورية لكل إنسان، بما هو إنسان، وبغض النظر عن لونه وجنسه ومكانه وزمانه، هي الثقافة التي تقتضيها فطرة الإنسان وجوهره.

٢) الثقافة العصرية: أي الأفكار التي تنتشر في عصر من العصور، وهذه نوعان: نوع هو مجرد أهواء الناس ينتشر في العالم، لكن لا أهمية له، ولو لم يأخذ به الناس ما ضرهم بشيء، مثلاً مطاعم (ماكدونالد McDonald) [تعبر عن حالة عالمية الآن، وكذلك إذا ذهبت إلى أي بلد من البلاد فالمنتج الثقافي الأمريكي يقولون هو المنتج الثاني، فهل هذه عصرية لأن الناس محتاجون إليها !!! الثقافة العصرية التي يحتاج إليها الناس هي الثقافة التي إذا لم تأخذ بها أمة من الأمم في العصر الذي تعيش فيه كان أمة متخلفة وضعيفة، وهذه الثقافة في عصرنا هي الثقافة العلمية، وهذا من أسباب تخلفنا، لا يمكن لأي أمة من الأمم أن تنهض وأن تكون أمة قوية إلا إذا استوطن العلم الطبيعي في بلدها – وهذا بالمناسبة ما نجح فيه العراق -. ولكي يستوطن العلم يجب أن يكون باللغة العربية وأنه يرتبط بتاريخ الأمة، وأن يعالج من ثم مشكلات الأمة، ليعقب هذه المرحلة ظهور علماء كبار يكتشفون، ثم يبنى على هذا العلم تقنية، ولا بد أن يستفيد الناس مما في العالم ولكن لا بد أن يستوطن العلم في البلاد.

٣) الثقافة المحلية: كيف يلبس الناس الملابس وماذا يأكلون.. لكن أحياناً يكون تغيير هذه الثقافة المحلية دليلاً على الضعف؛ لا بأس إذا كان الإنسان يتأثر بالثقافات الأخرى في ملبسهم، لكن إذا بدأ يقول إن الملابس اللائقة بالعصر هي البذلة

والكرافتة، وأنه إذا لم يلبس هذا لا يكون إنساناً محترماً، هنا يأتي الضعف. لكن حتى من الناحية الإسلامية فلا ضير أن يلبس الإنسان هذا أو هذا.

الثقافة الإنسانية هي الإسلام، ولذلك العالم محتاج إلى المسلمين، الثقافة الإنسانية هي الثقافة التي تمثل جوهر الإنسان، وجوهر الإنسان هو أن يكون عبداً لله سبحانه وتعالى، ثم أنه يدور حول هذا الدور كل ما في الإنسان من خير وشر، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧-٨]، والرسول الكريم ﷺ قال: **(كل مولود يولد على الفطرة)**. والدين قال الله تعالى عنه: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، فأصل الدين في فطرة الإنسان، وقد جاء ليؤكد الفطرة ويعطينا التفاصيل التي هي لازمة لتلك الفطرة، ثم يدور حول هذه الفطرة كل ما في الإنسان، من خير. مثلاً الخلق الكريم والذوق الجميل، فالمبادئ الفكرية غير متناقضة، فبإمكان الناس فقدان الجوهر ولكنهم يحتفظون بكثير من هذا الذي يدور حول الجوهر، وهذا الذي يجعلهم يقبلون الإسلام ويعودون إلى الجوهر، لأن الإنسان لو لم يكن فيه خير - وهذا الكلام أكرره لكثير من الناس، أي لا تظنون أن الذي ليس مسلماً فليس فيه خير أبداً - لأنه لو لم يكن فيه خيرا لما رأى هذا الخير، وإذا لم يكن عندهم شيء من النور لا يمكن أن يرى الإسلام حق.

فهذه هي حضارتنا، وبدون تفصيل فالحضارة الغربية منذ القرن الثامن عشر الحضارة الغربية قررت أن تولي ظهرها للدين، وقرأت قريباً في أحد الكتب أن المقصود بعصور الظلام هي الفترات التي سيطر فيها الدين، وغطى على الفكر اليوناني، فهم قرروا في ذلك الوقت بعد العديد من المشكلات الفكرية والفلسفية أن يعودوا إلى ذلك العصر حيث لا دين فيه، أي عصر الشرك وهذا حدث في كل مرافق الفكر حيث أو جد له أساس الحادي.

وأضرب لكم مثلاً بالعلوم الطبيعية كلها قائمة على افتراض أن الكون لا خالق له، وأنك إذا أردت أن تدرس أي ظاهرة من الظواهر يجب أن تفسرها بظاهرة من داخل هذا الكون، وإذا خرجت عن هذا الإطار فكلامك غير علمي، والله قلت هذا الكلام في سنة سبعين وبعض الناس استغربوا منه وأجد الآن الكثير من الأمريكيين

المتدينين وكأنهم أخذوه مني، وأنا متأكد أن أي أحد منهم لم يقرأ لي شيئاً أو سمع بمقولاتي المادة أزلية هذه هي الفكرة التي قام عليها الإلحاد.

فإذا كانت أزلية فهي لا تحتاج إلى خالق، ولذلك أحرجوا عندما جاءت نظرية الانفجار العظيم Bing bang لأنه إذا صحت نظرية الانفجار العظيم فالكون بما فيه من زمان ومكان له بداية، وإذا له بداية سيكون السؤال من أين جاء. وصدقوني أنهم لجئوا - أي الملحدين - إلى الخيارين اللذين ذكرهما القرآن الكريم، وبين أنهما مستحيلان، « أم خلقوا من غير شيء، أم هم الخالقون » الله سبحانه وتعالى يقول: إذا لم يكن هناك خالق فكيف تفسرون حتى وجودكم، تقولون إن كل شيء خلق من العدم، هذا غير مقبول تماماً !!!!، وصدقوني أن هناك الآن من علماء الطبيعة من يقبل بهذا. خلق النفس أكثر استحالة، لأنه كي يخلق لا بد أن يكون هناك موجوداً، وإذا كان هناك موجود فلا يحتاج إلى أن يخلق.

في علم الأحياء قالوا إن داروين كان يبحث عن نظرية لا علاقة لها بالدين يفسر بها؛ في السياسة قالوا بالديمقراطية، ولا تغرنكم كلمة الديمقراطية وما فيها من بعض الأشياء الحسنة النظرية، إذا كانت فيها بعض الجوانب الحسنة ليس هذا أن معناها صحيح، الديمقراطية هي حكم الشعب، وهي في الحقيقة حكم البشر؛ لأن الشعب لا يحكم في النهاية، وهذا يعني أنها في مقابل حكم الله، إن الحكم إلا لله هذا هو حكم الدين، وأن الحكم إلا للبشر هذا هي الديمقراطية. فالاقتصاد الرأسمالي والرأسمالية باعتبارها فكراً وفلسفة قديمة جداً هي قائمة على التعبير الذي يقول دعه يعمل، وهذا هو الذي طالب به قوم شعيب ﴿قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ [هود: ٨٧]. هذه الفلسفة التي تقوم عليها الرأسمالية نفعل ما نشاء، نأخذ ربا، نطفف ونحتكر، لا ندفع زكاة... إلخ. فالفرق بيننا وبين الحضارة الغربية والاختلاف بيننا اختلاف أساسي وجذري، لكن ومع هذا نقول إنه من مصلحتنا نحن السلام، لأننا بطريق الحوار وبطريق الإقناع نكون إن شاء الله تعالى نحن المنتصرين أقول قولي هذا. وأستغفر الله لي ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

***

مفهوم الثقافة الإسلامية

هذا البحث من منشورات رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا في ٢٧محرم ١٤٠٩هـ.

ما الثقافة في مفهومها الشائع الآن؟ وما الثقافة الإسلامية في مفهومها العام؟ وما الثقافة الإسلامية بوصفها مادة دراسية؟ هذه هي الأسئلة التي نحاول الإجابة عنها في هذا المقال.

استعملت كلمة (الثقافة) في لغتنا العربية المحاصرة ترجمة لكلمة الإنجليزية، أو أخواتها في اللغات الغربية، فاكتسبت كما اكتسب كثير غيرها من كلماتنا العربية المعاني المعاصرة لتكلم الكلمات، لذلك رأيت أن أبدأ في هذه الورقة ببيان المفهوم الغربي للثقافة، فأستعرض أهم المعاني الشائعة للكمات الإنجليزية التي أخذت معانيها طريقها إلى لغتنا العربية، ومدى قرب هذه المعاني من المعاني العربية الأصلية، أو بعدها عنها، ثم أهم التعريفات الغربية للثقافة، ثم أناقش ما يمكن أن تعنيه الثقافة الإسلامية إذا عرّفناها بتلك التعريفات الغربية، ثم أنتقل إلى بيان المفهوم الإسلامي للثقافة، فأذكر المعاني العربية الأصلية لكلمة "ثقافة" وكلمتي "حضارة: و"مدنية" اللتين تتداخلان معها في استعمالاتنا العربية المعاصرة، وأبني على هذا تعريفاً لغوياً للثقافة ثم أحاول أن أكتشف الشكل الذي يأخذه هذا التعريف حين يعطي محتوى إسلامياً، ثم أختم البحث بمناقشة للمفهوم الخاص للثقافة الإسلامية بما هي مادة دراسية نرجو لها أن تعمم كل الجامعات في بلادنا الإسلامية.

المفهوم الغربي للثقافة:

المعاني اللغوية الأصلية:

Culture. أصل هذه الكلمة في اللغة اللاتينية وقد أخذتها عنها الإنجليزية والفرنسية والألمانية ولغات أوروبية أخرى[١]، والكلمة في أصلها اللاتيني تعني العبادة أو فلاحة الأرض وزراعتها، وأما في اللغة الإنجليزية فتستعمل في المعاني التالية التي عددها قاموس أكسفورد الموجز[٢].

---

(١) Raymond Williams, Keywords, Fontanam1976,p77.

(٢) The shorter Oxford Dictionary, Clarendon Press, Oxford,1973.

(أ) العبادة وزراعة الأرض وهما معنيان كانا يستعملان في اللغة الإنجليزية القديمة ولم يعد لهما وجود بالنسبة لهذه الكلمة في اللغة الإنجليزية الحديثة، ولذلك لم تتأثر بهما كلمتنا العربية.

(ب) لكن المضي الزراعي مازال يستعمل استعمالا اصطلاحيا خاصا لوصف عملية تربية الكائنات العضوية المجهرية تربية صناعية. وهذا المعنى الاصطلاحي أيضا لم تتأثر به كلمتنا العربية، فنحن نستعمل لهذا كلمات الزراعة أو الاستنبات.

(جـ) تهذيب العقل والذوق والسلوك وترقيتها. وهذا المعنى يطابق أحد معاني الكلمة العربية كما سنرى. وربما كان هذا هو الذي لحظته أول من ترجم الكلمة الغربية بكلمة ثقافة.

(د) الجانب الفكري من المدنية هذا أحد المعاني التي اكتسبها كلمتنا العربية من اللغات الغربية.

Civilization أصل هذه الكلمة في اللغات الأوروبية الحديثة كلمة لاتينية معناها ساكن المدينة[1] فهي مرادفة بهذا المعنى الأصلي لكلمتي حضري ومدني أو مديني.

إن المعاني اللغوية لكلمة من الكلمات لا تكفي وحدها - مع أهميتها - لإعطائنا صورة واضحة عن المفهوم الذي ترمز إليه تلك الكلمة في إطار دين أو مذهب أو حضارة من الحضارات إن اللغة إنما تضع الحدود العامة لتلك المفاهيم، أما الوصف الدقيق لها فهو من شأن الدين أو المذهب أو الحضارة التي يوجد في إطارها ذلك المفهوم. فمن معاني الثقافة في اللغتين العربية والإنجليزية مثلا ان الشخص المثقف هو الإنسان المهذب ذو الذوق الراقي والسلوك المحبب. ولكن متى يوصف الإنسان بهذا الوصف؟ ما الشروط التي يجب توفرها فيه ليكون مثقفاً؟ وما العلوم والآداب والدربة التي تعينه على تحصيل هذه الشروط؟ هذه أمور لا علاقة لها باللغة. وإنما هي شأن مناهج الحياة التي يسلكها الناس. ولذلك فمن الممكن أن يتفق بعض الناس على المعنى اللغوي لكلمة من الكلمات ثم يختلفون بعد ذلك في تصورهم للمفهوم الذي تشير إليه بحسب اختلافاتهم المذهبية والفكرية. لذلك سنناقش المفاهيم الخاصة التي تعطاها الثقافة بمعانيها تلك المتعددة في التصور الغربي ثم تفعل الشيء نفسه بالنسبة للتصور الإسلامي.

---

(١) Raymond Williams , Keywords.

التعريفات الغربية للثقافة:

يختلف المفكرون الغربيون اختلافات واسعة جداً في تعريفهم للثقافة حتى لقد أوصل أحد الكتاب تلك التعريفات إلى ١٦٥ تعريفا[١] ويروي عن أحدهم أنه ضاق ذرعاً بتلك الاختلافات حتى قال: «إنني كلما سمعت كلمة ثقافة هممت بتناول مسدسي»[٢]، لذلك لا يسعنا إلا أن نركز على بعض تلك المفاهيم خصوصاً ما شاع منها في لغتنا العربية.

الثقافة بمعنى أسلوب الحياة:

لعل أوسع مفهوم لـ (كلشر) في الفكر الغربي هو تعريفها في بعض العلوم الاجتماعية بحصيلة الميراث الاجتماعي لمجتمع من المجتمعات البشرية وهذا يشمل كل مصنوعتهم المادية: الأدوات والأسلحة والمنازل؛ وأماكن العمل والعبادة والحكم والترويح؛ والأعمال الفنية كما يشمل كل نتاجهم العقلي والروحي، رموزهم الكتابية وغير الكتابية، آراؤهم عقائدهم، إدراكهم الجمالي، قيمتهم،..الخ. كما يشمل كل أنواع السلوك المميزة لهم: مؤسساتهم تجمعاتهم، شعائرهم الدينية، أساليبهم التنظيمية الخ[٣].

هذا التعريف للحضارة يثير قضايا منها:

أولاً: أنه يجعل الثقافة أو الحضارة كلها من نتاج البشر:

فيكون بهذا تصورا علمانيا للحضارة أو الثقافة لا يعترف بالدين بوصفه وحياً نازلاً من السماء، وهو بهذا غير مقبول إسلاميًا ولابد من تعديله كي يشكل الثقافة أو الحضارة الوحي النازل للبشر من الله تعالى.

ولكن حتى بعد هذا التعديل تكون الحضارة أو الثقافة بهذا المعنى الواسع وصفاً لكل مجتمع مع المجتمعات البشرية أياً كان. ويصبح كل مجتمع بشري بالضرورة ذا ثقافة أو حضارة، ويكون أفراده مثقفين بتلك الثقافة أو متحضرين بتلك الحضارة.

(١) The Encyclopedia Britannica, Helen Hemingway Benton, Chicago etc, Macropaedia., vol. 8, pl152

(٢) Alan Bullock and Oliver Stall brass (editors), The Fontana Dictionary of Modern Thought, Fontana Books, London,1977,p 149.

(٣) ibid,150.

وتكون الثقافة الإسلامية بهذا المعنى – بعد تعديله – الميراث الاجتماعي الذي تمتاز به الشعوب الإسلامية بصفة عامة، أو الذي يمتاز به كل شعب منها. وهي بهذا المعنى وصف لواقع بشري أسميناه إسلاميًا؛ لأن أهله يتسمون بالمسلمين أو لأن في ثقافتهم عناصر إسلامية، أو لأن حياتهم مصوغة فعلاً وفق الشريعة الإسلامية. لكن دراسة هذا الواقع البشرى الإسلامي شيء، ودراسة الإسلام كما بينه الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ شيء آخر. ولكن هذا أمر مهم يستحق مزيداً من البيان. إن كثيراً من الكتاب الغربيين ومن تأثر بهم من أبناء المسلمين يخلط بين الإسلام بوصفه ديناً نازلاً من السماء، والإسلام الواقعي الذي هو ثقافة أو حضارة لجماعة منتسبة إلى الإسلام، فيعد كل ثقافة لشعب مسلم شكلاً من أشكال الإسلام، ولذلك تجدهم يقولون إن الإسلام ليس شيئاً واحداً، بل هو دين ذو صور وأشكال متعددة، بحسب تعدد الشعوب التي تنتمي إليه. وتجد بعضهم يستنتج من ذلك أن مسألة الإسلامية نفسها مسألة نسبية، فما يراه كل شعب مسلم إسلاماً فهو إسلام، وإن اختلف عما يراه شعب مسلم آخر، ولا حق لأحد في الزعم بأن إسلامه هو الإسلام الحقيقي وأن إسلام غيره زائف أو فيه عناصر زائفة. بل إن بعضهم ليقول نعم إن هنالك قراناً وسنة هما مصدرا الإسلام، لكنه يرى أن هذه مسألة نظرية لأنه يرى أن فهم هذين المصدرين هو نفسه امر نسبي خاضع لتطورات الزمان وتغيرات المكان؛ أي أنه هو نفسه أمر ثقافي (بالمعنى الذي نناقشه الآن) ويرى لذلك أنه لا جدوى من محاولة فهم الإسلام الصحيح الذي تقاس به إسلامية تلك الشعوب.

وكل هذا خطأ وخلط ناتج عن جهل أو سوء قصد. إذ الحقيقة التي لا يرتاب فيها مسلم ولا كافر له أدنى معرفة بالإسلام، أن محمداً ﷺ هو رسول هذا الدين، وأن القرآن الكريم هو الكتاب الذي قال أنه وحي الله إليه، وأن لهذا الرسول سنة قولية وأخرى عملية تعد تفسيراً وبياناً للرسالة التي تضمنها القرآن الكريم. فإذا اعترفنا بهذه الحقيقة، قادنا الاعتراف بها إلى حقائق أخرى منها: أن هذا القرآن وتلك السنة مصوغتان بلغة معروفة هي تلك اللغة العربية التي كان يتحدّثها الناس في زمان الرسول ﷺ. وهذه الحقيقة وحدها كافية لأن تضع على مبتغى فهم القرآن قيداً موضوعياً هو أن ذلك الفهم ينبغي أن لا يخرج عن حدود تلك اللغة. وهذا يكفي لنفي النسبية المطلقة عن فهم الإسلام لأن كل من كان صادقاً في إرادته لفهمه سيتقيد بقيد هذه

اللغة. كما يتقيد بقيود أية لغة كتب بها أي نص بشري يريد فهمه. فلا يفسر ما كتبه ارسطاليس مثلا بلغته اليونانية القديمة، إلا بتلك اللغة، لا باللغة اليونانية الحديثة، ولا يفسر نصاً لشوسر إلا بعد معرفته للغة الإنجليزية التي كانت سائدة في عصر ذلك الكاتب والتي تختلف كثيراً عن اللغة الإنجليزية الحديثة.

وقد عدد العلماء المسلمون قواعد عملية أخرى تنفي الذاتية والنسبية عن فهم الدين، لأنها تعطينا المعيار الموضوعي الذي نميز به بين الخطأ والصواب في فهم نصوصه وتفسيرها، نذكر منها باختصار شديد ما يلي:

(أ) أن القرآن الكريم - بما أنه كلام الله تعالى - كتاب متسق لا اختلاف فيه ولا تناقض في آياته: فكل تفسير لآية منه يجعلها متناقضة مع آية أو آيات أخرى فهو بالضرورة تفسير غير صائب.

(ب) أن مهمة الرسول ﷺ كما أوضحها القرآن الكريم هي بيان هذا الكتاب بياناً قولياً وعملياً. فهي بهذا تعد المصدر الثاني للإسلام فنبغي التقيد بها في فهم مصدره الأول الذي هو القرآن الكريم.

(جـ) أن الله تعالى كما أنه اختار لرسالته رجلاً هو خير البشر فجعله نبياً مرسلاً، اختار أناساً من الرجال والنساء هم خير الناس بعده، فجعلهم له أصحاباً. فهم أعرف الناس به، بلغته وأحواله وهم الأمناء على نقل رسالته إلى الأجيال بعده، فيجب إذن أن لا يفهم الكتاب أو تفهم السنة فهماً مخالفاً لما أجمع عليه هؤلاء الأصحاب، بل يجب أن لا يقدم قول رجل بعدهم على قول أحد منهم، وإنما الذي يقدم على آرائهم هو الدليل من كتاب أو سنة.

فهنالك إذن فرق يجب أن يراعى بين الثقافة الإسلامية بمعنى نمط الحياة الواقعي لمجتمع من المجتمعات الإسلامية، والثقافة الإسلامية بمعنى الشريعة التي تصف ما ينبغي أن تكون عليه هذه الحياة.

إن الفرق بين هذين المعنيين فرق بينه الإسلام نفسه. فالدين يرد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بمعنيين مختلفين؛ فهو تارة يعني الكلمات التي أنزلها الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله لتكون هادياً ومرشداً للناس في حياتهم، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]،

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، ويرد تارة بمعنى ما يدين به الناس فعلاً سواء كان موافقاً لهذا أو مخالفاً له. وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]، وقوله: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦]، وقول الرسول ﷺ: **(وإن الله يبعث لهذه الامة على راس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)**[1]، فالدين الذي يجدد ليس هو الكلمات التي أنزلها الله تعالى، فهذه محفوظة لا تبلى ولا تتغير فلا تحتاج إلى تجديد. وإنما الذي يجدد هو ما يدين به الناس حين يبلى بالانحراف عن الدين بالمعنى الأول وتجديده يكون بجعله موافقاً له.

وإذن فكما أن الحكم على مدى صحة الدين بالمعنى الثاني، هو مدى مطابقته للدين بالمعنى الأول، فكذلك تقاس ثقافة كل مجتمع من المجتمعات المنتسبة إلى الإسلام، بمدى قربها من الثقافة الإسلامية بمعنى الشريعة التي أنزلها الله تعالى لتكون حاكمة لحياة الناس.

وإذا قسنا ثقافة المجتمعات الإسلامية وحضارتها بهذا المقياس كان أكثرها إسلامية مجتمع الصحابة في عهد الرسول ﷺ وعهود الخلفاء الراشدين بعده، بل لعله يمكن القول بأن ثقافة هذا المجتمع وحضارته كانت صورة واقعية للثقافة الإسلامية بمعنى الشريعة، لأن دينه الواقعي كان في مجمله صورة صادقة للدين الذي أنزله الله تعالى. وبسبب هذه الميزة لهذا المجتمع كانت صورته الواقعية نفسها مثلاً يحتذيه كل مجتمع يريد أن يكون إسلامياً ومعياراً يقاس به ما كان من الإسلام وما لم يكن منه.

لكن يجدر بنا أن ننتبه إلى أننا إنما نتحدث هنا عن مجتمع لا عن كل فرد في ذلك المجتمع؛ وذلك لأن الفرد الوحيد الذي تعد حياته كلها صورة واقعية للإسلام كما يريده الله، إنما هو محمد رسول الله، ﷺ.

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الملاحم. وهو حديث صحيح.

ثانياً: الثقافة بمعنى الجانب الفكري والروحي من الميراث الاجتماعي:

لاحظ بعض العلماء الاجتماعيين أنه إذا أعطيت الثقافة أو الحضارة ذلك المفهوم الواسع الشامل الذي بيناه لم يعد هنالك فرق بينها وبين المدنية، لذلك آثروا أن يطبق مفهوم الحضارة أو الثقافة حتى يتسنى التمييز بينها وبين المدنية، وهذا هو المفهوم الذي سنناقشه الآن.

الحضارة أو الثقافة بهذا المعنى هي جزء من المدنية، التي تحتفظ حينئذ بذلك المعنى الواسع الشامل الذي ذكرناه آنفاً. والمقصود بالجانب الفكري عند أصحاب هذا التعريف ما كان مشتركاً بين مجموعة من البشر من طرق التفكير والاعتقاد والإدراك والتقويم. فمجال الحضارة هو الفكر والآمال، القيم والرموز. إنها التخطيط للحياة الذي تنتج عنه طريقة حياة متميزة[1].

في هذا التعريف كذلك مسائل منها:

(أ) أن الثقافة بهذا المعنى هي أيضا وصف لواقع وإن كان واقعاً فكرياً أو روحياً.

(ب) أن الثقافة الإسلامية بها هذا المعنى الذي هو كما قلنا وصف لواقع فكري أو روحي قائم في ذوات الناس وظاهر في حياتهم، تكون ما يدين به فعلاً مجموعة من البشر المنتسبين إلى الإسلام، سواء كان هذا الذي يدينون به موافقاً للدين النازل من السماء أو مخالفاً له في بعض جزئياته.

(جـ) من القضايا المهمة التي يثيرها هذا التعريف، بل والذي سبقه أيضاً كما رأينا، قضية ناقشها كثير من المفكرين الغربيين نقاشاً واسعاً وهي هل من الممكن أن نفضل بعض الحضارات أو الثقافات على بعض، فنقول إن هذه الحضارة أحسن من تلك أو أرقى أو أكثر مناسبة للإنسان وأوفى بحاجاته المادية والروحية؟ وإذا كان ممكنا فما المعيار الذي نصدر به أمثال هذه الأحكام؟ إن كان معياراً مأخوذًا من حضارتنا، فبأي حق نجعل حضارتنا حكماً على حضارات الآخرين؟ ولماذا لا يكون من حقهم هم أن يفعلوا مثل ما فعلناه؟ وإذا لم يكن هذا التفعيل ممكناً لزمنا القول بأن الحضارة أمر نسبي.

---

(1) Leonard Broom/ Philip Selznick, Sociology,A Text With Adapted Readings, Harber And Row, New York etc,1973,p57.

لقد كان القول بنسبية الحضارة أو الثقافة عند كثير من المفكرين الغربيين صادراً عن دوافع إنسانية. وذلك أنه كان رد فعل للغطرسة الأوروبية التي تصف كل ما خالف حضاراتها من حضارات الشعوب الأخرى بالبدائية أو التأخر أو البلى أو القصور؛ بل إن هذه الغطرسة بلغت عند بعضهم حداً جعلهم يعتقدون أن تفوق حضاراتهم أو ثقافتهم أو مدنيتهم راجع إلى تفوق عرقي جعل الجنس الأبيض قادراً على إنجاز ما لا تستطيع الشعوب الأخرى إنجازه. فجاء أصحاب المذهب النسبي ليقولوا إن الناس كلهم سواسية، فحضاراتهم لذلك متساوية لا فضل لواحدة منها على أخرى؛ وأن تقويم أي مكون من مكونات حضارة ما إنما يكون بمعايير من داخل تلك الحضارة لا بمعايير مأخوذة من حضارة أخرى.

القول بنسبية الحضارة فيه شيء من التناقض؛ فهو من ناحية يجعل المعايير كلها معايير حضارية أي نسبية، ومن ناحية أخرى يجعل الحضارات كلها متساوية لتساوي الناس في الإنسانية. فمن أين جاء هذا الحكم بتساوي الناس؟ لا يمكن أن يأتي من داخل حضارة من الحضارات؛ لأن كل إنسان حبيس حضارته، فهو مضطر لأن يحكم على الآخرين بمعاييرها فيجدهم أقل منه؛ وإذا جاء من خارج الحضارات فقد بطل القول بالنسبية، واضطررنا للقول بأن هنالك معايير عامة لا تخضع لحضارة من الحضارات المرتبطة بزمان أو مكان معين وهي التي تقاس بها كل الحضارات.

وهذا القول الأخير هو القول الصواب الذي ترجحه الأدلة والذي يوافق الإسلام. أما الأدلة فقد وجد دارسو الحضارات أنه بالرغم من اختلافها فهناك قيم مشتركة بينها جميعاً مثلاً لا توجد حضارة تبيح الكذب أو السرقة أو العنف بصفة مطلقة. ولا حضارة تعد العذاب في نفسه شيئاً مرغوباً فيه. وفي كل الحضارات يعرف الشخص غير السوي (عقليا) بالشخص الذي لا يمكن بحال مخاطبته أو الذي ليست له سيطرة ما على نزواته[1].

أما في الإسلام فيمكن القول بأن لثقافة الإنسان– وبالتالي لمعاييره – ثلاثة مصادر:

(أ) الفطرة كل مولود يولد على الفطرة.

(ب) البيئة: **(فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)**[2].

---

(١) Ibid. p75.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(جـ) الوحي لمن بلغته الرسالة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

فبالمصدرين الأول والثالث يحكم على المصدر الثاني وذلك لأن المصدر الأول يتضمن المعايير العقلية والخلقية والجمالية الأساسية المشتركة بين كل عباد الله. ولأن المصدر الثالث مصدر رباني لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثالثاً: الثقافة بمعنى النتاج الفكري والفني:

إذا كانت الثقافة بالمعنى الثاني وصفاً للإنسان المثقف، فإن الثقافة بهذا المعنى الثالث هي ما ينتجه المثقفون خصوصاً في مجال الموسيقى والأدب والرسم والنحت والسينما والمسرح. فوزارة الثقافة هي الوزارة المختصة بهذا النوع من النشاط، وقد يضاف إليها أحياناً الفلسفة والتاريخ وبعض الدراسات العلمية الأخرى. هذا فيما يبدو هو أكثر الاستعمالات الآن شيوعاً[(١)].

الثقافة الإسلامية بهذا المعنى تشمل كل أنواع الإنتاج هذه باستثناء ما حرمه الإسلام منها كالنحت، وبالقيود التي وضعها على ما أباحه، كتحريمه لتصوير الناس والحيوانات، وعدم إباحته للمعازف إلا الدف، الخ. إن هذا النوع من الإنتاج الفكري والفني لا يعطي في إطار الإسلام – حتى بعد تقييده. بتلك القيود – تلك القيمة الكبيرة التي يعطاها في إطار المدنية الغربية. وذلك إنهم يعدون الموسيقى وما يسمونه الفنون الجميلة غذاء للروح لا تستقيم ولاتكتمل إلا به.

ولذلك فإن وزارة للثقافة في دولة تلتزم بالإسلام لن تحصر نفسها في تلك المسائل التي ذكرناها نقلاً عن الكاتب الغربي، بل لابد أن تضيف إليها أموراً أخرى سنعرض لها، تعد–بالمعيار الإسلامي – الغذاء الحقيقي للروح البشرية.

رابعاً: الثقافة بمعنى الانشغال بالقضايا الفكرية والفنية:

المثقف هنا هو في الأساس منتج الثقافة بالمعنى السابق، لكن المفهوم أحياناً يتسع ليشمل فئات أخرى من المتعلمين. يقول الأستاذ ريمون آرون إن الشعراء والروائيين والرسامين هم الحلقة الصغرى للمثقفين؛ لأنهم يعيشون من مواهبهم وعن طريق

---

(١) Raymond Williams, of cit ,p8.

استخدامها. والفنانون الذين يظلون يجترون أفكار الماضي دون إبداع شيء جديد، وأستاذة الجامعات، ورجال البحث في مختبراتهم، كل هؤلاء يشكلون الهيئة العامة التي تقوم على شؤون المعرفة والثقافة في الوقت الحاضر. وهم من المثقفين ويأتي دونهم في المرتبة الصحفيون وموظفو مختلف أجهزة الإعلام. ولكن وبمجرد أن يصبح الفرد من هؤلاء عبداً للمال أو ذوق الجمهور، أي حين يكف عن الإبداع من عندياته يتجرد عن كونه مثقفاً. ومما أسلفنا يمكن الاستنتاج بأن كلمة مثقف ليست ذات مدلول معين، بل إن مدلولاتها متغيرة حسب المجتمع نفسه، وحسب درجة ازدهاره الاقتصادي أو تأخره على وجه الخصوص[1].

خامسا: الثقافة بمعنى السلوك والذوق المهذب:

هذا التعريف هو أقرب التعريفات إلى المعنى اللغوي الأصلي للكلمة، وهو معنى مشترك بين الكلمتين العربية والإنجليزية كما سنرى. والمثقف بهذا المعنى عند الغربيين هو الإنسان الذي صقله ذلك الإنتاج الثقافي، فصار سلوكه متحضراً وذوقه راقياً. إن الثقافة هنا هي غذاء الروح، وأهم غذاء للروح عند الغربيين هو الفن وربما أضافوا إليه الدين.

نقد الغربيين لثقافتهم وحضارتهم:

إذا كان بعض الغربيين قد تعصب لحضارته تعصباً أعمى عن رؤية ما في الحضارات الأخرى من مزايا لا توجد في حضارته فذهب يحتقر كل حضارة غير الحضارة الغربية، وإذا كان بعضهم قد ذهب إلى الطرف الآخر فجعل كل الحضارات متساوية لا فضل لواحدة منها على أخرى، فقد وجد فيهم من وقف الموقف الصحيح المعتدل فجعل الحضارات قابلة للمفاضلة بينها وجعل معيار المفاضلة بعض القيم الإنسانية التي فطر الله تعالى الناس عليها، فاستطاع أن يرى بعض ما في الحضارة والثقافة الغربية من أوجه النقص والتقصير والانحراف[2].

---

(١) ريمون أرون، افيون المثقفين، دار الكتاب العربي، ص١٧٢-٧٣.

(٢) انظر مثلاً:

EWF tomlin, psyche, Culture,And The New Science,Routledge & Kegan paul, London etc, 1985.

Allan Bloom, The Closing of The American Mind, Simon and Schuster, New York,1987.

التعريف الإسلامي للثقافة:

درج كثير من المتحدثين عن الثقافة الإسلامية على حبس أنفسهم في دائرة التعريفات الغربية للثقافة، ثم محاولة بيان ما تمتاز به الثقافة- بواحد من تلك التعريفات – حين تتصف بالإسلامية. والذي ينكر على هؤلاء هو حصرهم أنفسهم في نطاق تلك التعريفات الغربية: أما مجرد استخدامها أو حتى تبنى بعضها فأمر قد يكون له ما يسوغه. ومن مسوغاته أن الفكر الغربي صار معروفاً لعامة المثقفين من المسلمين بسبب النظم التعليمية الحديثة المعتمدة في معظمها على هذا الفكر في إنتاجه وفي طرقه ووسائله بحيث إن التصور الغربي لكثير من الأمور يكون الذي يسبق إلى ذهن المتعلم من شبابنا، فيكون به بمثابة اللغة التي لا يستطيع التفاهم بغيرها. فلا بأس أن نبدأ معه باستخدام هذه اللغة لتعديل المفهوم الذي سبق إلى ذهنه. وإذا كان هذا المسوغ مقبولا بالنسبة لمخاطبة أبناء المسلمين الذين نشؤوا في بيئات إسلامية عربية أو غير عربية، فأولى به أن يكون مقبولاً في مخاطبة من لا يعرفون غير تلك المفاهيم من أبناء الحضارة الغربية.

لا بأس من هذا إذن ولكن البأس كل البأس أن نجهل أو نتجاهل المعاني العربية الأصلية للثقافة وأن لا نفكر في تعريفات ومفاهيم للثقافة الإسلامية مبنية على تلك المعاني الأصلية. لذلك سنحاول فيما يلي تقديم مفاهيم للثقافة مبنية على ذينك الأصلين العربي والإسلامي.

لعلنا نستطيع بناء على المعاني اللغوية لكلمة ثقافة، والمحتوى الإسلامي الذي يمكن أن تعطاه تلك المعاني، أن نقدم تعريفا واحدا شاملا للثقافة من منظور إسلامي فلنبدأ إذن ببيان المعاني اللغوية.

المعاني اللغوية الأصلية لكمات " الثقافة" و" الحضارة " و"المدنية":

الثقافة:

قال ابن فارس: «الثاء والقاف والفاء كلمة واحدة إليها يرجع الفروع، وهو إقامة درء الشيء، ويقال تثقفت القناة إذا أقمت عوجها. وثقفت هذا الكلام من فلان ورجل ثقف

لقف، وذلك أن يصيب علم ما يسمعه على استواء»[١]. وقد بين صاحب اللسان[٢] هذه الفروع التي أشار إليها ابن فارس.

ويمكن إجمالها فيما يلي:

(أ) تقويم الشيء المعوج وتسويته بالمعنيين الحسي والمجرد: الثقاف حديدة تكون مع القواس والرماح يسوى بها الشيء المعوج. وفي حديث عائشة تصف أباها رضي الله عنهما: (أقام أوده بثقافة) تريد أنه سوى عوج المسلمين.

(ب) الحذق: ثقف الشيء ثقفا وثقافا وثقوفة، حذقفه.

(جـ) الذكاء والفطنة: ورجل ثقف وثقِف وثقُف، حذق فهم. وهو غلام لقن ثقف، أي ذو فطنة وذكاء. ويقال ثقف الشيء وهو سرعة التعلم.

(د) معرفة ما يحتاج إليه: والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج اليه وفي حديث أم حكيم بنت عبد المطلب (إني حصان فما أُكلَّم، وثقاف فما أُعلَّم).

(هـ) المعرفة القائمة على حسن التصور والمؤدية إلى حسن العمل: ورجل ثقف لقف، إذا كان ضابطا لما يحويه قائما به.

(و) الظفر بالشيء بحذق ومهارة : وثقفته إذا ظفرت به. قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ﴾ [الأنفال: ٥٧]، هذا ما اكتفى به صاحب اللسان لكن المفسرين بينوا أن الثقف ظفر فيه مهارة، فقال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]، يعنى تعالى ذكره بذلك واقتلوا أيها المؤمنون الذين يقاتلونكم من المشركين حيث أصبتم مقاتلهم وامكنكم قتلهم وذلك هو معنى قوله: ﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ ومعنى الثقفة بالأمر الحذق به والبصر يقال إنه لثقف لقف إذا كان جيد الحذر في القتال بصيراً بمواقع القتل[٣]، وقال الزمخشري في تفسير هذه

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط عبدالسلام محمد هارون، دار الكتب العلمية، قم، المجلد الأول، ص ٢٨٢-٢٨٣..

(٢) لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر بيروت.

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن، لابي جعفر محمد بن جرير الطبري، طبعة بولاق، ١٣٢٣هـ، المجلد الثاني، ص١١١.

الآية: والثقف وجود على وجه الأخذ والغلبة ومنه رجل ثقف سريع الأخذ لأقرانه»[1].

يلاحظ في هذه المعاني العربية للثقافة:

(أ) أنها صفات فردية حسنة – بعضها فطري وبعضها مكتسب–يمتاز بها أناس دون آخرين.

(ب) وأنها ليست قاصرة على المعلومات بل تشمل المهارات العملية.

(جـ) وأن المثقف إنسان مهذب مستقيم السلوك قال في أساس البلاغة ومن المجاز: أدبه وثقفه: ولولا تثقيفك وتوقيفك لما كنت شيئاً: وهل تهذبت وتثقفت إلا على يدك.

(د) وأن العلم أو المهارة التي يحذقها شيء يحتاج إليه.

حضارة:

قال في اللسان: والحضر خلاف البدو: والحاضر خلاف البادي: وفي الحديث: **(لا يبيع حاضر لباد)**: الحاضر المقيم في المدن والقرى: والبادي المقيم بالبادية؛ ويقال فلان من أهل الحاضرة وفلان من أهل البادية وفلان حضري وفلان بدوي والحضارة الإقامة في الحضر (أو) الحضارة بالفتح. والحضر والحضرة والحاضرة خلاف البادية وهي المدن والقرى والريف سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار. والحضارة والحاضر الحي العظيم أو القوم؛ وقال ابن سيدة الحي إذا حضروا الدار التي بها مجتمعهم.

مدنية:

قال في اللسان: مدن بالمكان أقام به... ومنه المدينة. ومدن الرجل إذا أتى المدينة.

التعريف العربي للثقافة:

بما أن تلك المعاني اللغوية كانت كما رأينا في أغلبها وصفاً للشخص المثقف لا تعريفا للثقافة فيحسن أن يكون تركيزنا على تعريف المثقف لا تعريف الثقافة. ولعل الخطوة الأولى نحو هذا التعريف هي تلخيص الصفات الواجب توفرها في المثقف على ما توحيه المعاني اللغوية البحتة فنقول: «المثقف إنسان ذكي فطن علم علماً نافعاً وتصوره

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، طهران، ج١، ص٣٤٢.

تصوراً صحيحاً، وحذق العمل به وأتقنه، وضم إليه مهارات عملية فأثمره ذلك فيه سلوكاً قويماً مهذباً وذوقاً رفيعاً».

كيف يكون الإنسان ذكياً فطناً؟ وما العلم النافع الذي يثمر سلوكاً قويماً وذوقاً رفيعاً. وما أهمية أن يتصور صحيحاً أو أن يعمل به؟ وما المهارات التي يجدر بالمثقف أن يحذقها؟ وما معيار السلوك القويم والذوق الرفيع؟ بالإجابة عن هذه الأسئلة تعطي تلك الصفات محتوى معيناً.

والذي يجيب عن هذه الأسئلة فيعطي الثقافة محتوى معيناً هو الثقافة بمعناها الغربي الثاني، وإذن فكما أننا أخذنا بعض التعريفات الغربية للثقافة وحاولنا أن نتصور ماذا تكون الثقافة الإسلامية بواحد منها، فكذلك يستطيع إنسان غير مسلم وغير عربي أن يأخذ هذا التعريف العربي للثقافة، ويعطيه محتوى من حضارته ليقول لنا من المثقف الشيوعي مثلا- بذلك التعريف العربي ولا يستغربن أحد هذا لأن كلمة ثقافة" بمعانيها تلك كلها سابقة على ظهور الإسلام، فلا بد أن يكون المحتوى الذي تضمنته آنذاك مختلفاً على الأقل في بعض جوانبه- عن ذلك الذي جد لها بعد أن صارت مفهوماً إسلامياً.

خصائص المثقف المسلم:

لكن الذي نحن بصدده الآن هو كيف يكون المسلم – بذلك التعريف – مثقفا؟ ولنجيب عن هذا السؤال سنأخذ صفات المثقف تلك واحدة واحدة؛ لنرى ما صلتها بالإسلام، وكيف تكون حين تأخذ شكلاً إسلامياً.

العلم النافع:

أكثر العلوم نفعاً هو ذلك العلم هو ذلك العلم الذي يحتاج إليه الإنسان بما هو إنسان، وبغض النظر عن فترته الزمانية أو بقعته الجغرافية، أنه العلم الذي يعطي الإنسان الإجابات الصحيحة عن تلك الأسئلة الفطرية الكبرى التي يوجهها كل إنسان إلى نفسه حيثما كان مولده، وأيا كانت بيئته من أين جئت؟ ولماذا أنا هنا؟ وإلى أين المصير؟ إنه في ضوء الإجابة عن هذه الأسئلة تحدد الأمم أساليب حياتها ويحدد الأفراد مهامهم في الحياة بل وفي ضوئها تتحدد كثير من قيم الأشياء والعلاقات بينها.

وفي القرآن الكريم والسنة أجوبة واضحة قاطعة عن تلك الأسئلة وهي أجوبة تحمل معها الأدلة على صدقها وعلى زيف نقائها، فالله تعالى هو الحق الأكبر، ومعرفته أهم المعارف وعبادته أجل الأعمال. والحياة التي نحياها الآن فترة اختبار قصيرة لا تكاد تساوي شيئاً بالنسبة لحياة الجزاء والخلود التي ستعقبها، ومهمة الإنسان في هذه الحياة أن يسير في الطريق الذي رسمه له خالقه في كتابة وعلى لسان رسوله لكي تكون حياته العملية موافقة لمهمته الفطرية التي خلق من أجلها، والتي لا تتم سعادته في هذه الحياة وما بعدها إلا بها.

فالإنسان لا يكون مثقفاً حقاً بالمعيار الإسلامي إذا هو لم يعرف هذه الحقائق الأساسية ويؤمن بصدقها؛ لأنه بغير معرفتها والإيمان بها لا يكون الإنسان إنسانا حقيقيا، دعك أن يكون عالما أو مثقفاً لقد كان العرب الذين أرسل إليهم الرسول ﷺ أكثر خلق الله مقدرة على التعبير اللغوي نثراً وشعراً. وأكثرها تذوقاً لهذا التعبير، والتعبير اللغوي نثراً كان أو شعراً هو أرقى أنواع الفنون. وكانت للعرب إلى جانب ذلك بعض الأخلاق الحميدة كالشجاعة والكرم والنجدة وكانت لهم كما لغيرهم حكم ومعارف نافعة في الحياة العملية. ولكنهم كانوا رغم ذلك كله في حكم القرآن أهل جاهلية لجهلهم بتلك الحقائق التي لا تستقيم حياة بغيرها. فلكي يكون الشخص إنساناً لابد له من معرفة محملة بتلك الحقائق؛ وأما إذا أراد أن يكون مثقفاً فلا بد له من أن ينتقل إلى معرفة أكثر تفصيلاً، وأن لم تبلغ درجة التوسع والعمق التي لا تتسنى إلا للقلة ممن أكرمهم الله من العلماء المختصين. يكفيه لكي يفي بشرط الثقافة أن يلم إلماما عاما بالعلوم الإسلامية، فيعرف سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ويحسن تلاوة القرآن الكريم. ويعرف مبادئ تفسيره، ويطلع على بعض دواوين السنة، ويلم بالتاريخ العام للإسلام والاتجاهات الفكرية الصحيحة والمنحرفة التي كانت فيه وأن يجيد اللغة العربية إذا كان عربياً أو يكون له إلمام بها إذا لم يكن عربياً. الخ.

ولا يبلغ المسلم أن يكون مثقفاً إذا هو لم يجمع إلى هذه المعرفة بدينه إلماماً بأهم معارف عصره وقضاياه، إلماما يجعله قادراً فهم ما يقال عنها في وسائل الإعلام العامة

ومتابعته، فالمسلم المثقف يكون له إلمام بلغة بلده وآدابها بالمعتقدات التي تحكم بلده سواء كانت دينية أم علمانية، وبتاريخ هذا البلد وجغرافية ونظامه السياسي والاقتصادي والتعليمي، وأهم القضايا والمشكلات التي تواجهه كما يكون له إلمام بالمعارف الحديثة من علوم طبيعية واجتماعية وشيء من تاريخ العالم، وأوضاع الأمم وعلاقاتها، الخ. وقد يكون مع ذلك مختصاً بعلم من العلوم أو بفرع منه يتقنه، ويعرف تفاصيله ويشارك فيه مشاركة المجتهد الأصيل.

إن بعض من يسمون بالمثقفين في بلادنا يريدون أن يكونوا مثقفين بالمعنى الغربي فقط؛ أعنى أن لا يعرفوا إلا ما يتوقع من المثقف في بلد غربي أن يعرفه. فتجد أحدهم يجيد لغة أو أكثر من اللغات الغربية، ويعرف الفلسفة اليونانية ويطلع على تاريخ أوربا ويعرف زعماء الغرب المفكرين والسياسيين، الخ، لكنه يجهل الإسلام جهلا مطبقا فلا يميز بين الآية والحديث.

التصور الصحيح:

إن الإنسان لا يكون عالماً في حكم الإسلام بمجرد نطقه بالعلوم وقراءته لها، وإنما يكون عالما بفهمه لما يسمع ويقرأ ويحفظ وبتصوره له تصوراً صحيحاً؛ لأن العلم النافع غذاء للروح ومقوم للسلوك، فأنى له أن يكون كذلك إذا ظل ألفاظاً يرددها اللسان أو كلمات يسطرها البنان؟ أما مثل العلم الذي لا يتجاوز اللسان أو البنان كمثل غذاء مفيد يشم الإنسان رائحته ولا يأكله، أو يلوكه ثم لا يبتلعه، فهل تراه ينفع الجسم بشيء؟ والمؤمن يزداد يقينا بكل هذا من كتاب ربه. فهو يقرأ فيه أنه إنما أنزل ليعقل. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]. بل ليكون موضع تدبر متواصل وتذكر دائم.. ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وأن عدم تدبره وفهمه دليل على عمى عقلي.. ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]. وقد نفى القرآن حقيقة العلم عمن لم يتجاوز علمه التلاوة: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨].

العمل بالعلم:

العمل هو غايته وثمرته، فإذا لم يكن عمل بالقلب أو بالجوارح فذلك الدليل على انتفاء العلم. ولذلك ربط القرآن الكريم بين خشية الله والعلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. فمن لا نصيب له من الخشية لا حظ له من العلم. والعلم الصحيح هو الذي يؤدي إلى الإيمان بالحقيقة التي علمت، ثم يؤدي الإيمان بها إلى إحداث حالة في النفس تناسبها، ثم تكون هذه الحالة دافعاً إلى العمل بمقتضى تلك الحقيقة: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]، وأما الذي يظل علمه بالقرآن قولاً باللسان فقد يكون من أكثر الناس شراً مهما كثرت قراءته له، أو حسن نطقه به؛ فعن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: **(أن بعدي من أمتي - أو قال سيكون بعدي من أمتي - قوم يقرؤون القرآن لا يتجاوز حلاقيهم يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه هم شر الخلق والخليقة)**[1].

الذكاء والفطنة:

هذه بالطبع أمور فطرية سابقة للبينات الثقافية التي يولد فيها الناس، لكن هذا لا يعني أن تكون مبتوتة الصلة بتلك البينات. وذلك أن بعض المعتقدات والتصورات من شأنها إذا استقرت في عقل الإنسان أن تساعده على تنمية ملكاته الفطرية، كما أن من شأن بعضها أن يقتل تلك الملكات أو يضعفها، والإسلام بما أنه دين الفطرة فإنه ينمي الاستعدادات الخيرة في الروح الإنسانية ويقويها. وذلك لأن ملكات الخير في الإنسان متصل بعضها ببعض؛ إذا أدرك الإنسان حقيقة مهمة واعترف بها فإن هذا يساعد على إدراك حقائق أخرى متصلة بها، وإذا أنكرها فقد يعمى عن رؤية تلك الحقائق. وأيضا لأن هناك صلة قوية بين الصفاء القلبي والمقدرة على رؤية الحقائق، فالإنسان الصادق الأمين قد يرى من الحقائق ما لا يرى إنسان خبيث النفس، وإن كان الأخير في الأصل أكثر منه ذكاء. وفي القرآن الكريم إشارات كثيرة إلى هذه المعاني

---

(١) رواه مسلم في صحيحه الباب٤٩ من كتاب الزكاة.

التي ذكرتها أكتفي بأمثله منها إذ لا مجال هنا لاستقصاء هذا الأمر. يعلمنا القرآن الكريم أن هنالك صلة بين الالتزام بالحق واكتمال العقل؛ ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]، والايمان يعطي الإنسان مقدرة عقلية على رؤية حقائق لا ترى بغيره: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥]، ويعطيه علما لا يتم العقل إلا به: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، والتقوى تتضمن قوة للتمييز الدقيق بين الحق والباطل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩].

الحذق والإتقان:

في الإتقان جمال وهو أمر ترتاح إليه النفوس وتحبه، وقد جاء في السنة النبوية الحث عليه مهما كان نوع العمل مادام عملاً مشروعاً. فعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال ثنتان حفظتهما من رسول الله ﷺ: **(إذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح؛ وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته)**[1]، وقال ﷺ: **(إن الله يحب إذا عمل أحدكم العمل أن يتقنه)**[2].

السلوك المهذب والذوق الرفيع:

الصلة وثيقة بين حسن وسمو الذوق وكلاهما ثمرة طبيعية للعلم النافع والإيمان الصادق، فالرسول ﷺ وهو أعرف الناس بالله وأتقاهم له، كان على خلق عظيم، خير الناس لأهله، أحرص الناس على نفع الناس ودفع الشر عنهم، رحيماً بهم، بعيداً عن الفظاظة والجفاء، يبلغ به الحياء أن لا يعترض على الناس حين يفعلون ما يؤذيه،

---

(١) صحيح مسلم، الباب ١١ من كتاب الزكاة.

(٢) المقاصد الحسنة، للزرقاني، تحقيق الدكتور محمد بن لطفي الصباغ، مكتب التربية لدول الخليج، الرياض، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٧٢، قال المحقق: «وقد درست الطرق التي ساقها السخاري في المقاصد فوجدت أن كل واحدة منها ضعيفة: فلعل الحديث بمجموعها يرتفع إلى درجة الحسن؛ والله أعلم».

ينادي الناس بأحب الأسماء إليهم بل يغير ما سموا به من أسماء قبيحة إلى أخرى حسنة جميلة، لا يجرح شعور المؤمنين بالتصريح بأسمائهم حين يريد أن ينتقدهم، إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق وحسن المعاملة للناس، ومراعاة مشاعرهم.

لكن ينبغي لنا أن نميز هنا بين هذا النوع من حسن الخلق الذي هو أمر محبب ومطلوب في كل زمان ومكان، وبين الآداب الشكلية التي يتواضع عليها الناس في بيئة من البيئات. لا بأس أن يحاول الإنسان الالتزام بهذه الآداب ما دام يعاشر أهلها ومادام لا يجد فيها مخالفة لدينه، لكن الذي ينبغي أن نحذر منه كل الحذر هو رفعها إلى مصاف الأخلاق الإنسانية التي يلزم الناس الالتزام بها في كل زمان ومكان. كما يفعل الآن كثير من مثقفينا بالنسبة لبعض آداب السلوك التي تواضع عليها الناس في الحضارة الغربية، حتى صار الكثير منهم يحمل التقاليد الغربية في الطعام والشراب واللباس والمخاطبة معياره الذي يقيس به مدى تحضر الناس وتهذبهم ورفعة ذوقهم.

المهارات المفيدة:

لا يبلغ المرء أن يكون مثقفاً حق التثقيف بالمعيار الإسلامي-إذا هو لم يضف إلى علمه بأمور الدين ومعارف العصر علماً ببعض المهارات التي يحتاج إليها الإنسان في كل زمان والتي يحتاج إليها الناس في العصر الذي يعيش فيه أو البيئة التي يسكن فيها. لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يجمعون بين تلك العلوم وتلك المهارات، فكانوا يحسنون الرمي واستعمال السيوف وركوب الخيل والبغال والحمير، وكانوا يجيدون فن الحرب، ويعرفون المهارات التي يحتاج إليها الناس في زمانهم في حياتهم اليومية، وقد حثهم الرسول ﷺ على تعلم الرمي والركوب، فقال معلقاً على قوله تعالى: **﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾** [الأنفال: ٦٠]: **(ألا أن القوة الرمي. ألا أن القوة الرمي)**[١]، وقال ﷺ: **(ارموا واركبوا وأن ترموا خير من أن تركبوا)**[٢].

ولكن مما يؤسف له أن أنظمه التعليم عندنا تفصل بين التعليم الأكاديمي وبين التدريب على المهارات حتى ما كان منها متعلقاً بالحياة الأكاديمية أظن أن ثقافة

---

(١) رواه مسلم، الباب ٥٢ من كتاب الأمارة (٣٣).

(٢) المرجع نفسه.

الطالب الأكاديمي لا تتم في عصرنا هذا إذا هو لم يعرف الكتابة على الآلة أو استعمال الحاسوب (الكمبيوتر) الشخصي فكم من طلابنا اليوم يعرف هذا؟ وإذا كان الرسول ﷺ يحثنا على الركوب وعلى الرمي فإن تنفيذ هذا الأمر في عصرنا يمنى أن يكون التدريب العسكري جزءاً لا يتجزأ من برامجنا التعليمية، وأن لا يتعلم الشباب قيادة السيارات فقط، بل أن يلموا بشيء من الميكانيكا. بل لماذا يكون شيء مهم كالإسعافات الأولية قاصراً على الشباب الذين ينضمون إلى فرق الكشافة وما شابهها من الجماعات؟ لقد رأيت بعض أبناء المسلمين الذين تربوا في أمريكا يعرفون من هذه المهارات أكثر بكثير مما يعرف الشباب في العالم العربي. فهم يعرفون عن الكهرباء مايستطيعون به تركيب آلاتها المنزلية، وإصلاح الكثير من عطبها، وعن الزراعة ما يمكنهم من رعاية حدائقهم المنزلية وهم يعرفون شيئاً من مبادئ النجارة وكيفية طلاء الحيطان، بل فن الطبخ إلى غير ذلك من الحاجات المنزلية وغيرها كالمهارة في السباحة. وأنبئت بأن هذا كله وغيره جزء طبيعي من ثقافة الشباب بأمريكا. أنا لست من المعجبين بنظام التعليم الأمريكي، فإن فيه عيوبا كثيرة يشكو منها الأمريكان أنفسهم ولكن ما ذكرت شيئا حميداً ومفيداً حبذا لو استفدنا منهم فيه. ورأيت على التلفاز الإنجليزي برنامجاً استمر عدة أسابيع يعطي المشاهدين دروساً في ترميم المنازل وإصلاح بعض الأثاث، بل كيفية صنع بعضه من مواد رخيصة ورأيت دائرة معارف كاملة تعلم القارئ كيف يقوم بنفسه بصنع بعض الأشياء المنزلية وإصلاح بعضها[1] حبذا لو ترجمتها بعض المؤسسات إلى اللغة العربية، أو ألفت شيئا شبيهاً بها مناسباً للناس في بلادنا.

المفهوم الإسلامي للمثقف:

المثقف إذن إنسان آمن بالله تعالى عن علم وبصيرة، واتبع هدى الله الذي جاء به محمد رسوله، فتفقه في دينه، فزكت نفسه واكتمل عقله، وحسنت للناس معاملته واجتهد في أن يلم بما استطاع من معارف عصره ومهاراته النافعة وأن يكون داعية إلى العلم والخير، بلغة جميلة وبيان قوي وقدوة حسنة.

---

(١) 42- The knack, The Fllustratated Encyc lopaedia of Home Improv Cavenddish, London & New York,1984.

هذا ليس بالطبع تعريفاً جامعاً مانعاً للمثقف المسلم، وإنما هو أشبه بما يسمى في علم المنطق بالقول الشارح إنه وصف للمثقف المسلم الأنموذج الذي يحاول كل منا الاقتراب منه، لا تعديدًا للشروط التي لا يكون المسلم مثقفاً إلا إذا استوفاها جميعها.

الثقافة الإسلامية.. مادة دراسية:

حاجة الطلاب إلى هذه المادة:

للثقافة الإسلامية بوصفها علماً جديداً نرجو له أن يكون مادة تدرس في جامعات العالم الإسلامي ومعاهده، وبكل أنواعها وتخصصاتها مفهوماً خاصاً تحدده الغاية من دراستها والدافع إليها. لقد جاءت هذه المادة لتسد أنواعاً من النقص في مناهجنا التعليمية أدت لتشويه صورة الإسلام في أذهان الكثير من شبابنا سواء منهم من درس في الجامعات الإسلامية أو ما يسمى بالجامعات المدنية.

تتمثل أنواع النقص هذه في:

(أ) أن الطالب في كثير من الجامعات الإسلامية وإن أتقن دراسة بعض جوانب الإسلام وفروعه إلا أنه لا يتمثل صورته العامة وموقع تلك الأجزاء التي درسها منها.

(ب) وأن بعض هذه الدراسات تقدم للطالب معزولة عن الواقع الذي يعيش فيه سواء كان واقعاً فكرياً أو لغوياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً أو سياسياً. إنه يستطيع بتلك الدراسة أن يدرك – بصورة مجملة – الفرق بين ما ينبغي أن يكون بحسب ما علم وماهو كائن بحسب ما يرى ويشاهد. لكنه لا يستطيع أن يؤدي عملاً كبيراً مجدياً في تغيير هذا الواقع وإصلاحه لأنه لا يعرف مؤسساته ولا علومه التي قام عليها، بل ولا حتى لغة أهله لكن لابد من الاعتراف بأن خريج هذه المعاهد والجامعات هم الذين حفظوا لنا ميراثنا الإسلامي، فكان لهم الأثر المحمود في حياة الناس الفردية تلك التي لا تتغير بالتطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

(جـ) وأما أصحاب الدراسات "المدنية" فقد ضاعت منهم الصورة العامة كما ضاعت التفاصيل.

(د) بل وقد حلت في أذهان كثير منهم ذلك بسبب النقص، وبسبب التأثير القوي للفكر الغربي تصورات عامة مخالفة للتصور الإسلامي ومنافية له، آمن بها بعضهم

فترك دينه، وحاول بعضهم أن يضع الإسلام في داخل الإطار الغربي الجاهلي، فاضطر لأن ينكر بعض دينه أو لأن يعيد تفسير بعضه وتأويله بحيث يكون مناسباً لذلك الإطار.

وعليه فإن مقصود مادة الثقافة الإسلامية هو في تصوري أن يعيد إلى الأذهان تلك الصورة الإسلامية العامة، مقصودها أن تقدم للطالب خريطة للإسلام يرى فيها كل شيء بحسب حجمه وفي موضعه بالنسبة لغيره، كما يرى الفروق بين معالم هذا الإطار الإسلامي والأطر الأخرى السائدة في عصره من ديمقراطية ليبرالية أو أممية شيوعية أو غير ذلك من التصورات والأطر العلمانية. ليس قصد الثقافة الإسلامية إذن أن يجد الطالب فرعا من فروع العلوم الإسلامية وإنما مقصودها أن ترسم في ذهنه معالم الصورة العامة لدينه وللأسس والأصول التي يقوم عليها هذا الدين، ولكيفية فروعه من تلك الأصول وعلاقتها بها ومكانتها بالنسبة لها.

المرجو أن تكون نتيجة هذه الدراسة إعانة الطالب على أن يعرف لكل أمر من أمور دينه مكانته، فلا يقدم مهما على أهم منه أو يجعله حاكما عليه، وأن يدرك كثيراً من حكم التشريع الفرعي حين يرى هذه الفروع في مواقعها من تلك الصورة الكبيرة. فيعرف مثلا لماذا أمر الإسلام بإيتاء الزكاة وحرم الرباء لماذا نهى عن الخمر والميسر، لماذا شدد عقوبة الزاني لماذا أمر بقتل المرتد؟... الخ.

إن هذه التشريعات تكون مشكلة وتصير غير مفهومة وتسبب لكثير من الناس حرجا لأنهم يضعونها – ربما وهم لا يشعرون – في إطار غير إسلامي يسلمون بصحته. فإذا افترض الإنسان مثلا صحة التصور الديمقراطي الليبرالي فلن يجد فيه مكاناً للتفرقة بين المواطنين بسبب الدين، ولا لقتل مواطن بسبب انتقاله من دين إلى دين، أو إلى لا دين.

والمرجو أيضا أن تعين هذه الصورة العامة الطالب على رؤية الروابط المنطقية بين أجزاء الإسلام فيزداد ثقة بدينه واطمئنانا إليه واعتزازاً به.

خصائص منهج الثقافة الإسلامية:

ولكي تحقق مادة الثقافة الإسلامية هذه الغايات العظمي لابد أن يتميز منهجها بمايلي:

أولاً: لابد في محاولة رسم تلك الصورة العامة من التركيز على الحجج العقلية والحكم التي وردت في الدين نفسه دليلا على حقيقة أو انتصار لتشريع، حتى تزول عن نفس الطالب المقابلة بين العقل والدين، أو الفتن بأن الدين مجرد مزاعم يسلم بصحتها بغير دليل أو مجرد أوامر ونواه لا حكمة وراءها، ولا فائدة لها إلا امتحان المأمور ثم مكافأته في الدار الآخرة.

ثانياً: التركيز على قضية الإيمان : ببيان الأدلة على وجود الخالق واستحقاقه وحده العبادة وتفرده بصفات الكمال، والأدلة التي تخاطب العقل المجرد، والأدلة التي تخاطب العقل الذي آمن وسلم، وبيان أن كلا الدليلين في القرآن الكريم والاستفادة في هذا كله من جهود العلماء السابقين الذين عنوا بجمع تلك الأدلة، وشرحها وبسطها واستخدامها في الرد على خصومهم. وببيان أنواع الشرك التي وقع فيها كثير من عوام المسلمين: ومثقفيهم" وأهم أنواع الاتجاهات المنحرفة عن أصول عقيدة التوحيد الخالصة وببيان ضرورة أن نعرف لهذه العقيدة حقها ومكانتها فلا نقدم أصلا آخر من أصول الدين – بله فروعه- عليها. وأن يرى الطالب كيف أن معرفة الله تعالى بصفات كماله تلك تقتضي الإيمان بكتبه ورسله لأن رحمته تقتضي أن يفيض علينا نعمة الهداية كما أفاض علينا نعم الطعام والشراب واللباس وغيرها من متع الحياة الدنيا. وأن إحسانهم ويعاقب فيها المجرمون على إحرامهم. ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]. وأن عموم علمه وحكمته ومشيئته تقتضى معرفته بما كان وما سيكون وأنه لا يمكن أن يحدث شيء إلا بعمله وتقديره وإرادته وقوته سبحانه وتعالى. ثم يبين للطالب كيف أن هذه الأصول تمثل القاعدة التي تنبثق منها فروع الإسلام الأخرى، كيف أن الإيمان لها ورسوخها في القلب يؤسس القاعدة النفسية لتقبل سائر احكام الإسلام ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]. وكيف أن هذه الأوامر والنواه مع علو شأنها ليست مثالية بمعنى أنها غير قابلة للتطبيق في دنيا الواقع بدليل سيرة الرسول ﷺ. ثم الصالحين بعده من جيل الصحابة ومن سار على نهجهم من أئمة المسلمين.

وهناك لا بد من التعرض لسيرة المصطفى ﷺ، لا لسرد حوادثها التاريخية ولكن لبيان ما انطوت عليه من حكم، وبوصفها برهانا جليا على صدق قوله تعالى عن رسوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وصدق وصف زوجة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لسلوكه بقولها: (كان خلقه القرآن)[1].

ثالثاً: بعد دراسة تلك الأصول بالمنهج الذي حاولنا أن نبين شيئا من خصائصه ينتقل الطالب إلى دراسة عامة للعبادات، يكون القصد منها بيان أهميتها للإيمان بوصفها الغذاء الذي يحفظه ويديم حياته ويزيد من قوته وبوصفها مع الاسمان الدرع الذي يقي المؤمن شرور الشبهات والشهوات..

رابعاً: ثم يعطي الطالب صورة مجملة عن أصول الاخلاق التي أقرها ودعا إليها الإسلام وعلاقتها بالإيمان وبالعبادات.

خامسا: ثم يعرف الطالب معالم نظام الحياة الإسلامي السياسي والاقتصادي الاجتماعي يدرس بشيء من التفصيل بعض جوانبها التي تشتد الحاجة إليها بحسب مقتضيات الأحوال.

سادسا: أن تدرس كل هذه القضايا دراسة تصلها بالواقع الذي يعيش فيه الطالب مقارنة لها بدعاوى المذاهب والأيدولوجيات الأخرى في كل هذه المجالات وبيانا لفضلها عليها ونقدا لهذه في ضوئها واستجابة لتحدياتها تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] (٤٧).

سابعاً: أن يتضمن منهج الثقافة الإسلامية مقررات تختص بالقضايا الفكرية والعلمية المعاصرة. فلا بد من دراسة للفكر العلماني بصفة عامة، والرد على الشبهات التي يثيرها أصحابه ضد تطبيق الشريعة الإسلامية، ولابد من دراسة للقضايا التي تثيرها الأيدولوجيات الرأسمالية والشيوعية في مجال الاقتصاد والسياسة ومن دراسة للقضايا التي تثيرها بعض النظريات في العلوم الطبيعية كالنظرية الدارونية، ومن المهم

---

(١) رواه مسلم، كتاب المسافرين الباب ١٨.

بقضايا الأمة الإسلامية السياسية المحلية والدولية وقضاياها الاقتصادية والتعليمية وما إلى ذلك.

إذا رسخت في ذهن الطالب الصورة الكلية للإسلام بالطريقة التي أوجزناها آنفا، يكون قد خطى خطوة كبيرة نحو أن يكون تصوره للأشياء وحكمه عليها إسلاميًا وتكون مادة الثقافة الإسلامية بهذا قد نجحت في تقديم عون كبير للطالب لحل مشكلة من أعقد المشكلات النفسية والفكرية التي تؤدي إليها نظم التعليم " الديني" و" المدني" المعاصرة. إنها نظم تجعل من يكتفي بها ذا شخصية ممزقة.

فهو إما أن يكون من الذين قضوا وقتهم الدراسي مع كتب العلماء السابقين وقضاياهم وطرقهم في التعبير فانعزل بفكرة عن واقعة وعاش في هذا الواقع بجسده فلم يستطع لذلك أن يتعامل معه بشخصيته الإسلامية التي ركزتها تلك الدراسة فصار إما من الذين أعرضوا عن هذا العصر وقضاياه الفكرية فلم يؤثر فيه أو يتأثر به أو من الذين جذبتهم هذه الحياة المعاصرة فنسى ما درس وانغمس فيها كما ينغمس غيره من الذين لم ينعموا بدراسة إسلامية أو تدين فطري.

وإما أن يكون من الذين قضوا وقتهم الدراسي إلا أقله في دراسة علوم طبيعية أو اجتماعية أو رياضية لا يذكر فيها اسم الله قليلا ولا كثيرا بل إن حقائقها- ودعك عن نظرياتها – لتعرض على الطالب بأسلوب غربي، وفي إطار فلسفي غربي ينتقل إلى ذهن الطالب مع انتقال تلك الحقائق والنظريات إليه، بل إن بعض الطلاب لا يميز فيما يدرس بين ماهو حقائق موضوعية صحيحة وما هو من قبيل الآراء والفلسفات والأفكار التي كثيراً ما يجانبها الصواب فيحسب أن هذه كتلك قواطع عملية لا ريب فيها.

وبهذا كله يحدث انفصام في شخصيته بين عمومات الدين التي ورثها عن آبائه وتلقاها من مجتمعه أو لقنها في المرحال الأولى من دراسته وبين هذا التصور العلماني الذي يأتيه في ثوب علمي، فيلجأ إلى العيش بشخصية مزدوجة مسلماً في عبادته وسلوكه ومأكله ومشربه وعلمانياً في فكره وتصوراته أو يلجأ إلى تأويل ما عرف من الدين تأويلاً يجعله موافقاً لهذه التصورات التي صارت جزءاً من فكره أو يصير علمانيًا بحتا فيترك العقدية والعبادة والسلوك الإسلامي، بل قد يكون حرباً عليه.

خريجو الثقافة الإسلامية:

نعم لقد نجا كثيرون منا بفضل الله ورحمته من ويلات نظم التعليم هذه لعدم اكتفائهم بما تعطيهم إياه في قاعاتها الرسمية. لقد بذلوا جهوداً فردية كبيرة فأكملوا ما استطاعوا إكماله من نقص دراستهم " الشرعية" أو نقص دراستهم " المدنية" فصاروا مسلمين مفكرين معاصرين، يجمعون بين الفقه بالدين والاستمساك به وبين المعرفة بعصرهم والاهتمام بقضايا، والقدرة على مخاطبة أهله، فكان أن حملوا هم الإسلام إلى عقول هذا العصر ومؤسساته فكان لهم في كل ذلك الأثر الحميد.

والذي نطمح الآن إليه هو تعديل نظم التعليم وإصلاحها بحيث تعطي معظم طلابها في دراستهم الرسمية ما حصل عليه هؤلاء بجهودهم الفردية، والمرجو أن تكون مادة الثقافة الإسلامية خطوة أولى في هذا الطريق، تتبعها خطوات بإذن الله. وإذا ما عدلت نظم التعليم بحيث تنجح في حل تلك العقدة وفي إعطاء الطالب هذا المنظار الإسلامي الذي يجعله واثقاً من صدق ما جاء به دينه، عالماً بفضله وتفوقه قادراً على الدعوة إلى أصوله وما تخصص فيه من فروعه ببعض الحجج العلمية والبراهين العقلية فإنه سيكون حينئذ مهيأ بإذن الله تعالى لاكتساب المزايا التالية:

أولا: أن تدفعه هذه الثقة والمنهج الذي تسلحه به مادة الثقافة الإسلامية إلى مواصلة دراسته بجهوده الفردية.

ثانيا: أن يكون قد تحصن ضد إغراءات المذاهب العلمانية التي تصور له الإسلام شيئا قد مضى عهده، وانقضى زمانه، فلم يعد يناسب الحياة المعاصرة، بل إنه ليغلّها ويعرقل تطورها، إن مادة الثقافة الإسلامية وما يتبعها أو يصحبها من تعديل في مناهج الدراسات الأخرى ستقدم للطالب الدليل على أن هذا الدين ذو رسالة عالمية إنسانية لا تتقيد بملابسات زمان دون زمان، ولا بخصائص مكان دون مكان، وستبين له أن الأمر على عكس ما يدعي أصحاب هذه المذاهب الإلحادية، إن مذاهبهم بما أنها من صنع البشر واختراعاتهم فإنها لهي المقيدة بتلك الملابسات وبالأهواء السائدة في زمان أولئك المخترعين وبيئتهم المحلية وظروفهم العالمية كما يدل على ذلك ما لايزال يكتشف من جوانب نقصها بعد مدة ليست بالطويلة من تعرض بعضها لمحاولة التطبيق.

ثالثا: أن يكون له القدرة على التمييز بين ما هو أمر فلسفي ورأي بشري أو اقتراح نظري، وماهو حقيقة عينية دل عليها برهان حسي أو عقلي في كل ما يتعرض له من دراسة للعلوم الطبيعية أو الرياضية أو الاجتماعية ولا يأتي إلى هذه العلوم إتيان المنهزم المستسلم المهيأ لا يسلم بكل ما يسطره كتاب أو يتفوه به أستاذ. إلا إنه مالم تتحرر عقول شبابنا من هذه النظرة التبعية المقلدة التي قررت إغلاق باب الاجتهاد بل حتى مجرد التفكير في نتاج الفكر الغربي فلن تكون لهذه العلوم جذور في بلادنا ومجتمعاتنا، ولن تستطيع أن نشارك فيها بشيء أصيل جديد، كما لا يزال أصحابها في الغرب يفعلون. بل سنظل دائما طلاباً ندرسها أو مدرسين لشرحها أو متفرجين مبهورين بها. ولن نكتسب روح التفكير والنقد والاجتهاد والتجديد والأصالة هذه إلا إذا أفاض علينا نظام تعليمنا ثقة بأنفسنا، وإنه لمن أهم وسائل اكتساب هذه الثقة أن نكون على بينة من نظرتنا الخاصة إلى الحياة والإيمان بأنها هي النظرة التي ينبغي أن تعلو على غيرها وتسود. والمرجو من مادة الثقافة الإسلامية إذا ما تصورت تصوراً صحيحاً نستعين عوناً كبيراً في هذا المجال فتساعد الطالب على إدراك ذلل التمييز بين الحقائق القاطعة من جهة، والنظريات والآراء والأهواء من جهة أخرى. فيطرح هذه وينتقدها، ويحاول أن يستبدل بها ما يراه أقرب إلى الحق ويقبل الأخرى لكنه يخرجها عن إطارها الغربي الآنف ليضعها في إطار إسلامي صحيح، فينظر إليها بنور ويرى بينها علاقات لا يراها صاحب الإطار الغربي المادي الإلحادي، ويستنتج منها مالا يستنتجه. ثم يفكر في قضايا ويحاول حل مشكلات تنشئها بيئته الفكرية أو أحواله الاجتماعية إلى آخر ما هناك من مزايا الروح الحرة الأصيلة.

رابعاً: وإذا كان من دارسي العلوم الاجتماعية أو التاريخية أو الأدبية فسيقبل عليها أيضا بتلك الروح الإسلامية المتحررة من أسر الانبهار بالفكر الغربي انبهار جعل كثيرين من " مثقفيها" راضين لأنفسهم بموقف الناقل لفكرهم الشارح له، المبشر به، المعتقد أنه لا يمثل رأياً بشرياً عادياً، وإنما يعده تعبيراً عن روح العصر ومقتضى من مقتضياته بحيث لا يكون الإنسان مثقفاً معاصراً إلا إذا قال به، ولا تكون الأمة متطورة ومتحضرة تعيش عصرها إلا إذا عملت على نشره بين أبنائها نريد لمادة الثقافة

الإسلامية أن تعين في تخليص أبنائنا من شعور العبودية والذلة هذا للفكر العربي سيما في هذا المجال مجال العلوم الاجتماعية والنفسية والفلسفية والأدبية والتاريخية؛ لأن هذه العلوم والمعارف ألصق بتصورات الناس وأكثر بنظراتهم الحياتية فما ينقل عن طريقها من أهواء الفكر الغربي، وتحيزه وانحرافه أكثر بكثير مما يأتي عن طريق ما يسمى بالعلوم البحتة وإن كانت هذه أيضا لا تخلو – كما قدمنا- من ملابسات الثقافة أو الحضارة التي نشأت فيها.

إلا إنه لن تقوم لنا حضارة إسلامية متميزة، ولن نستطيع بناء حياتنا على أسس إسلامية ما لم نبدأ بجعل علومنا الاجتماعية هذه علوما إسلامية. وإسلاميتها لا تعنى أن تكون كل مسألة فيها مستندة إلى نص أو إجماع أو قياس؛ فإن هذه إنما يشترط في مسائل الفقه، أما العلوم الاجتماعية والطبيعية فيكفي في مصدرها مخالفة النصوص؛ لأنه إذا كان بعضها مصدره تلك النفوس فإن بعضها مصدره الواقع ودليله التجربة والمشاهدة أو الخبر الصادق؛ وهي طرق للمعرفة أقرها الشرع.

خامسا: والثقافة الإسلامية بهذا المعنى هي جزء من الثقافة بمعناها العربي الإسلامي الذي أوضحناه وهي بهذا شرط ضروري في ثقافة المسلم لكنها ليست بالشرط الكافي؛ بل لابد أن تضاف إليها الأجزاء الأخرى.

سادسا: وهذه الثقافة التي يتلقاها الطالب في قاعات الدراسة هي التي تعطيه المعيار الذي يقيس به الثقافة الإسلامية بتلك التعريفات الغربية التي ذكرناها والتي قلنا إنها أصبحت الآن جزءاً من مفهوم الثقافة في لغتنا العربية، بل لعله أكثر معانيها شيوعا: الثقافة الإسلامية بمعنى أسلوب الحياة الذي تتبعه الأمة التي نشأ فيها، والثقافة الإسلامية بمعنى الجذب الفكري والروحي والفني من أسلوب الحياة هذا، والثقافة بمعنى ما تخرجه أمته من نتاج في هذه المجالات تصورات غير صحيحة لمادة الثقافة الإسلامية، وإذا كنا قد ابنّا ما نراه التصور الصحيح لمادة الثقافة الإسلامية، فيحسن أن نتناول بإيجاز نقد بعض التصورات التي نراها غير صحيحة.

(أ) فمن ذلك أن بعض الأساتذة المختصين بالعلوم الطبيعية أو الاجتماعية يريدون لمادة الثقافة الإسلامية أن تكون مادة تابعة لتلك التخصصات وخادمة لها: فطالب

الزراعة مثلا يدرس الآيات والأحاديث والأحكام الفقهية المتعلقة بهذا العلم الذي تخصص فيه، وكذلك يفعل طالب الطب البشري أو الحيواني أو طالب علم النفس. أما مثل هذه الدراسة فشيء مهم ما في ذلك شك، وهي مما يعين الطالب على أن ينظر إلى علمه الذي اختص به نظرة إسلامية لكن تحويل مادة الثقافة كلها إلى مادة تابعة للتخصص عليه اعتراضات كثيرة.

منها: أنه من الخطأ أن ينظر إلى مادة التخصص على أنها شيء يستغرق حياة الطالب ويفي بكل متطلباته. إن الاسنان كما أنه طبيب مثلا فهو أيضا أب أو أم أو ابن وهو زوج وجار ومواطن..الخ. وهو بكل هذه الصفات محتاج إلى علوم وقيم ومعايير لا يجرها كلها بل قد لا يجد شيئا منها في مادة تخصصه. وهو قبل ذلك ومعه عبدالله، مهمته في هذه الحياة أن يفي بشرط العبودية فيجعل حياته كلها في هذه الدنيا تعبيرا عن شكره لله وعبادته له. وهو بهذا محتاج إلى هذا النوع بكثير من ذلك الذي يجده في مادة تخصصه حتى بعد ان يضاف إليها ما يناسبها من نصوص الكتاب والسنة.

ومنها: أنه قد ثبت الآن ضرر المبالغة في التخصص ضرره على شخصية الإنسان بصفة عامة، لأنه يضيق أفقه؛ وضرره من ناحية علمية بعد أن بدأت العلوم كلها تتداخل ويؤثر بعضها في بعض تأثيرا كبيرا وبعد أن ثبت اتصال العلوم حتى الطبيعي منها الذي كان يسمى علما بحتا ثبت اتصالها الوثيق بالبينات الفكرية لأصحابها وتأثرها بها.

(ب) لقد نظرت في بعض كتب الثقافة الإسلامية التي تدرس في بعض الكليات الشرعية فوجدت أصحابها قد حولوها إلى مادة فرعية بل مادة طفيلية تكرر ما درسه الطالب من مواد العلوم الإسلامية وتعرضها بصورة أقل علمية وأكثر تعميما لأن أصحابها ليسوا من المختصين بهذه المواد، ولذلك بدأ الطلاب بل بعض هؤلاء المدرسين أنفسهم يشعرون أن الثقافة الإسلامية مادة لا يحتاج إليها طلاب العلوم الشرعية ولا يستفيدون منها، لأنها لا تأتيهم بجديد لم يكونوا يعرفونه.

(جـ) وقد فات بعضهم أن علاج هذا الأمر يكون بالبحث عن مادة لها تعلق بالإسلام لا يدرسها الطلاب ضمن ما يدرسون من علوم شرعية. ولكن هذا وإن كان سيحل

مسألة التكرار ويقدم للطالب شيئاً جديداً قد يكون أيضاً مفيداً إلا إنه لا يحل المشكلة التي أنشئت مادة الثقافة الإسلامية من أجلها إن كل ما يفعله هو تدريس مادة جزئية أو فرعية جديدة تكون في أحسن أحوالها في مستوى المواد الفرعية الأخرى التي يدرسها الطالب.

مراجع المادة ومدرسوها:

من المعلوم أنه لابد لنجاح كل مادة دراسية من جودة المراجع وجودة المدرس، وهذه وإن كانت موضوعات خارجة بعض الشيء عن نطاق هذا البحث إلا إنني رأيت أن أقول فيها كلمة تكملة لتصوري لهذه المادة تاركا لزملاء آخرين إيفاءها حقها.

أن هذه المادة مادة جديدة ليس لها من العراقة ما لمواد مثل أصول الفقه ومصطلح الحديث والنحو واللغة التي ظلت التي تدرس لمئات السنين، والتي خدمت لذلك خدمة كبيرة، وتوفرت لها مئات المراجع الجيدة.

لذلك أرى أنه يجب أن لا يترك أمرها في هذه المرحلة البدائية من مراحلها لاجتهادات الأساتذة وتصوراتهم الشخصية بل يحسن – لكي تفي هذه المادة بالمرجو منها – أن يشترك في وضع تصور لها وكتابة مقرراتها نخبة من الأساتذة الممتازين في عالمنا الإسلامي، ثم توضع هذه الكتابات بين أيدي الطلاب والأساتذة ويترك للأستاذ بعد ذلك حرية محدودة في أن يزيد عليها قليلا أو ينقص منها قليلا، كما يرجى من هؤلاء الأساتذة أن يكتبوا للجنة المؤلفة ملاحظاتهم على المادة قبل تدريسها أو بعده، وأن تخضع هذه المقررات للمراجعة السنوية لعدة أعوام حتى تستوى على سوقها وتحدد معالمها، وتبرز شخصيتها.

كما يحسن أن يراعى في اختيار أساتذتها أن يكونوا ممن تمثلت فيهم النتائج التي نتوخاها فيمن يكمل دراسة هذه المادة من الطلاب، حتى يكونوا لطلابهم مثلا يُحتذى في ثقافتهم، بكل تلك المعاني التي شرحناها.

والله الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد.

* * *

عملية التحول إلى الاتجاه الإسلامي بشائرها وتحدياتها

وهذا بحث قدمه الدكتور جعفر شيخ إدريس في المؤتمر السنوي الثالث عشر لاتحاد الطلبة المسلمين الذي عقد في جامعة توليدو بولاية أوهايو بالولايات المتحدة الأمريكية في أواخر شهر أغسطس ١٩٧٥م ونشرته مجلة المسلم المعاصر ١٩٧٩م[1]

كيف يأتي نظام اجتماعي معين إلى الوجود؟:

إن الإجابة عن هذا السؤال تعتمد في تحليلها الأخير على وجهة نظر الإنسان بالنسبة لطبيعة الحقيقة؛ وذلك لأن تحقيق بعض النتائج الاجتماعية المعَيَّنة يعتمد على الأداء السليم لبعض الأفعال التي بدورها تقوم على أساس الاعتقاد في وجود عَلاقة سببية بين تلك الأفعال والنتيجة المرغوبِ في تحقيقها، واختيار تلك الأفعال السببية يعتمد على مفهوم الإنسان للحقيقة ككل. إن الشخص المؤمن بالمذهب المادي – الذي يعتقد بصفة أساسية أنه لا يوجد شيء في الكون سوى المادة وحركتها – لن يُضمِّن تلك الأفعال أشياء مثل الصلاة، أو النِّيات، أو القِيَم الأخلاقية؛ لأن تلك الأشياء في اعتباره ليست بأكثر من مجرد أسماء لا تشير إلى أيَّة حقيقة، ولذلك ليس من الممكن بحال أن تكون ذات أثر.

وإذا كانت الوسائل التي تُتخذ لتحقيق الأهداف ترتبط بتلك الكيفية من وجهة نظر الإنسان بالنسبة للكون؛ فإن عملية التحول إلى الاتجاه الإسلامي يجب أن ترتبط بوِجْهَة النظر الإسلامية تُجاه الحياة. ولقد ثبت ذلك الأمر من خلال حقيقةِ أن الإسلام يعتبر بمثابة رسالة ونظام، إنه يُعتبر كمجموعة من الحقائق التي يجب أن يحولها المؤمن إلى واقع، وإنه يعتبر بمثابة النظام الذي يتم ذلك التحول بمقتضاه. ولقد ورد تلخيص مبادئ ذلك النظام في القرآن، ولكننا لا نستطيع أن نفهمها بطريقة صحيحة إلا في إطار سيرة النبي التي تعد بمثابة ترجمة صحيحة لتلك المبادئ.

إنني فيما يلي أقدم بيانًا مفصَّلا لذلك النظام، ولكنني آمل أن يكون شاملاً، وسأبتدئ من القضايا المتعلقة بالمفاهيم حتى أصل إلى بعض التفاصيل العملية.

---

(١) وقد نشر اتحاد العلماء الاجتماعيين المسلمين سير جلسات اجتماعاته السنوي الرابع في جزأين تحت عنوان (من المسلم إلى الإسلامي) في أغسطس ١٩٧٥، إبريل ١٩٧٦م.

النظرية الحتمية للتاريخ:

إن أسلوبنا للتحول إلى الاتجاه الإسلامي يجب أن يقوم على أساس مفهومنا للعَلاقة الاجتماعية بين السبب والمسبِّب والتفسير التاريخي، أي على أساس وجهة نظرنا تُجاه العملية التي بمقتضاها ترتفع وتسقط الأمم والحضارات. وحتى نتعرف على التفسير الإسلامي لذلك النوع المهم من التغيير الاجتماعي، فمن المفيد أن نضاهيَه بالفلسفة التاريخية المعاصرة التي تُعد مضلّلة بالرَّغم من سطوتها. وطبقًا لتلك الفلسفة فإن التاريخ يعد بمثابة حركة ذات مسار منفرد ومحدَّد يؤدي بطريقة تدريجية وحتمية إلى الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى أكثرَ تطورًا، ويستطيع الناس أن يؤثروا على تلك الحركة إما من خلال الزيادة أو الحد من درجة سرعتها، ولكنهم ليست لديهم القدرة على إيقافها أو تغيير مسارها، وإن هؤلاء الذين يحاولون إيقافها أو تغيير مسارها ليؤدُّوا إلى إبطائها هم الرجعيون، أما هؤلاء الذين يدفعونها ويعجلون مسارها فهم التقدميون. وإذا كان الإنسان يهدُف إلى تحقيق ثمرات جهوده؛ فإنه يجب أن يستكشف تلك الحركةَ التاريخية، ويرى ما هي المرحلة المستقبلة التي سوف تؤدي إليها، ويرى إلى أي مدى تتماثل أهدافه ومُثُله العليا مع تلك المرحلة، ثم يوجه جميع جهوده إلى الهدف الذي تؤدي إليه تلك الحركة التاريخية بطريقة حتمية، وإلا فإنه سوف يضيع وقته في جهود رجعية لا طائل منها.

ونحن نعلم أن الشيوعيين يقرون بذلك الرأي، ولكنهم ليسوا وحدهم الذين يفعلون ذلك؛ إذ يوجد الكثير من أعداء الشيوعية الأشداء الذين يفترضون حقيقة ذلك الرأي دون قصد، ونجد من بين هؤلاء الناس الرجال والنساء الغربيين والمتشبهين بالغرب الذين يعتقدون أن المرحلة التي وصل إليها الغرب الآن - وخاصة الولايات المتحدة - تعتبر في مجموعها أكثر تطورًا في كلٍّ من الناحيتين المادية والحضارية، وفوق ذلك فإنها هي المرحلة التي يتحتم أن تنتقل إليها جميع الأمم الراغبة في تحقيق الثورة الصناعية وإحراز المدَنيَّة. وهذا الاتجاه الذي يعتنقه الكثيرون في العالم الإسلامي ممن يعتنقون الشيوعية أو يخفون أنفسهم وراء القناع الغربي يَعتبر أن الموقف الذي يقضي بتحويل المجتمع إلى الوجهة الإسلامية غيرُ ذي جدوى لأنه يتعارض مع الاتجاه التاريخي. وبالنسبة للشيوعيين فإن الاتجاه التاريخي يؤدي إلى الاتحاد السوفيتي وإلى الدولة الشيوعية المثالية، أما بالنسبة لعملاء الغرب والمتشبهين به، فإنه يؤدي إلى الولايات المتحدة، ومن ثم إلى ما سوف تصل إليه الولايات المتحدة.

النظرية الإسلامية للتغيير الاجتماعي:

لعل أفضل طريقة لتقديم الفلسفة الإسلامية للتغيير الاجتماعي - في ضوء ما يجب أن نقيم برنامجنا للتحول إلى الوجهة الإسلامية على أساسه - تتمثل في تعليقنا على تلك الآية القرآنية الشهيرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

إن النقاط الرئيسة التي نجدها في هذه الآية هي:

١- إله لديه قوة مطلقة للعمل.

٢- بشر لديهم حرية محدودة للعمل.

٣- تغيير يحدثه الإنسان داخل ذاته.

٤- تغيير في حالة الإنسان يحدثه الله نتيجة لذلك التغيير الإنساني.

إن تلك النقاط الأربع تُكَوِّن الشرح الإسلامي أو فلسفة التغيير الاجتماعي؛ ولذلك فلندرس ما تتضمنه تلك النقاط بإيجاز.

إن النقطة الأولى تميز مفهومنا للتغيير الاجتماعي عن النظريات المادية والطبيعية التي تفترض عدم وجود الله، ومن ثم تعتنق مبدأ الاكتفاء الذاتي للكون، أي المبدأ القائل: من الممكن تقديمُ تفسير وافٍ للظواهر في هذا الكون، سواء كانت ظواهر اجتماعية أو خلافها بالاستعانة بالقوانين الخاصة بها. إن تلك الفكرة الإلحادية - لسوء الحظ - قد تمت مطابقتها مع الطريقة العلمية بشكل كبير حتى إنه يتم في الحال استبعاد أية إشارة إلى الله في تعليل تلك الظواهر باعتبارها شيئًا يتنافى مع العلم وليس مجرد أنها تتنافى مع الفكر الإلحادي. ومن الواجب أن نحذر من ذلك التشويش الذي لا مبرر له، وأن نُصِرَّ على أهمية وضرورة واستحسان إدراك دور الله في تفسير الظواهر الطبيعية والاجتماعية في عالمنا[1]، وتلك النقطة تميز مفهومنا كذلك عن وجهات النظر الإلحادية التي بمقتضاها يُعَد الخالق مجرد محرك رئيس، دوره الوحيد هو بَدْء الخليقة، ثم تركها بعد ذلك لتعنى بأمرها.

---

(١) لقد حاولت أن ألقي بعض الضوء على تلك المشكلة في مقالتي "العلم الاجتماعي الإسلامي، معناه وملاءمته في (من المسلم إلى الإسلامي)" سير جلسات المؤتمر السنوي الرابع لاتحاد العلماء الاجتماعيين المسلمين، الجزء ٢، اتحاد العلماء الاجتماعيين المسلمين ١٩٧٥، ص١ - ١١..

وإن النقطة الثانية تُظهِر تفوق مفهومنا للتغيير الاجتماعي على النظريات الحتمية التي تفترض أن الإنسان ليست له فاعلية حقيقية أو حرية للاختيار، وأن كل شيء يقوم به يكون مفروضًا عليه بقوة إلهية أو بواسطة مسبِّبات طبيعية أو اجتماعية. والإنسان حقيقةً لا يستطيع أن يفعل أيَّ شيء ضد مشيئة الله، ولكن الله قد شاء أن يمنحه حرية الاختيار، والحرية في تحقيق بعض نياته وإن تعارضت مع الإرشاد الذي قدمه الله له، وإن واحدًا من المجالات المهمة للغاية التي أعطى الله فيها الإنسان حرية العمل هي حالته الداخلية. وبما أن الكثير مما يحدث للإنسان يعتمد على حالته الداخلية؛ فإنه يمكن القول بأن الإنسان يعد مسؤولا إلى حد كبير عن مصيره.

وإن النقطة الثالثة تخبرنا عن تغيير يحدثه الإنسان داخل ذاته. فأي نوع من التغيير هذا؟ هل تغيير من الخير إلى الشر أو العكس، أو إنه من الممكن أن يكون أيا منهما؟ إن التفسير الغالب لتلك الآية الآن هو التفسير الأخير، وإن ما يفهمه معظم الناس الآن من تلك الآية هو أنه عندما يتغير الناس من الخير إلى الشر، يعاقبهم الله بتغيير أحوالهم من الخير إلى الشر والعكس بالعكس. ولكن ذلك يختلف عن التفسير الذي نجده في التعليقات القديمة؛ فإن المعلقين الأقدمين يبدو أنهم يفهمون أن التغيير الذي يشار إليه في الآية هو تغيير من الخير إلى الشر[1] ويبدو لي أن هذا هو التفسير السليم؛ لأنه الوحيد الذي يتوافق مع المبدأ الإسلامي الرئيس ولأنه قد تم تأييده بآيات أخرى كثيرة.

---

(١) هنا بعض الأمثلة:

(أ) الطبري: «إن الله لا يغير حالة القوم، من الصحة والنعمة بأن يحرمهم منها ويهلكم إلا إذا غيروا هم ما بأنفسهم بقيامهم بالأعمال الآثمة تجاه بعضهم البعض واعتدائهم بعضهم على البعض» محمود محمد شاكر (طبعة) تفسير الطبري القاهرة، ١٩٥٧ الجزء ١٦، ص ٣٨٢ - ٣٨٣.

(ب) ويقول ابن كثير في تعليقه على سورة الأنفال ٥٣: «إن الله يخبرنا عن عدالته التامة وإنصافه في الحكم، و أنه لا يغير نعمة منحها لشخص إلا بسبب إثم يكون قد ارتكبه ذلك الشخص»، كما قال..: «ثم اقتبس الآية التي نتحدث عنها. تفسير القرآن العظيم»، بيروت، ١٩٦٩، الجزء ٢، ص ٣٢٠.

(جـ) ويقول ابن الجوزي: «الله... هو الذي لا يحرمهم من نعمة إلا إذا... وارتكبوا ما يحرمه» زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٦٥، الجزء ٤، ص ٣١٢.

(د) وإن القرطبي قد ضرب مثل ذلك التغيير بالهزيمة التي عانى منها المسلمون في غزوة أحد، والتي كانت نتيجة للتغيير الذي حدث في أنفس المحاربين (أي عصيانهم لأوامر النبي) الجامع لأحكام القرآن: القاهرة ١٩٦٥، الجزء ٩ ص٢٩٤..

وإن النقطة الرابعة تقول لنا أنه عندما يتغير قوم، ويعاقبهم الله بأن يحرمهم من بعض النِّعَم الرُّوحية والمادية التي منحها لهم وهكذا يجعلهم يعانون الضِّيق.

النِّعَم فضل من عند الله:

ولكن لماذا أُفَضِّل التفسير القائل بأن التغيير الذي ذكرناه في الآية هو تغيير من الخير إلى الشر؟ إن السبب في ذلك يرجع بصفة رئيسة إلى أن النعم - طبقًا للقرآن - لا تمنح للناس في بادئ الأمر نتيجة لأي عمل خير يقومون به، ولكنها تمنح لهم فضلاً من الله. إن الله هو الرحمن، وذلك يعني أنه سبحانه هو الذي يبادر بالخير ويمنحه دون مقابل ولا ينتظر حتى يبادر الناس بفعل شيء يتسم بالخير ثم يكافئهم من أجله. إن النعم - سواء كانت روحية أم مادية - تمنح للناس من خالقهم وذلك ينبع من رحمته وفضله. ولو أنهم كانوا شاكرين، فسوف تُحفظ لهم تلك النعم، بل إنها سوف تزداد، ولكن لو أنهم ارتكبوا أفعالا تتسم بالجحود، فإن الله يعاقبهم بأن يحرمهم من بعض تلك النعم إن لم يكن منها جميعها، ولكنهم إذا تابوا وعادوا إلى الطريق القويم فإن تلك النعم تعود إليهم. إن المَثَل الذي يدل على ذلك تمامًا هو مَثَل آدم، إن الله قد خلق آدم ووضعه في أفضل الحالات ومنحه الطُّمأنينة ووفر له وسائل الراحة المادية، ولكنه عندما أكل من الشجرة المحرَّمة (التي لم تكن شجرة المعرفة) فإنه فقدَ بعض ذلك. وينطبق نفس المبدأ على المجتمعات والأمم الأخرى التي يُشار إليها في القرآن، كالقرى، أو أهل القرى. فلنبتدئ بالسُّنن التي تتحكم في سقوط أو هلاك الأمم الجاحدة، ثم ننتقل إلى تلك التي تتحكم في بقاء وسطوة الأمم الشاكرة.

وفيما يلي بعض الأمثلة مما يحدث للأمم الجاحدة: إن أهل سبأ الذين عاشوا بين حديقتين قد أمروا أن يأكلوا مما رزقهم الله، ويكونوا شاكرين لفضله، ولكنهم أعرضوا، ومن ثَم أَرْسَلَ عليهم الطوفانَ (سيل العرم) وبدلاً من الحديقتين اللتين أعرضوا عنهما أُعطوا حديقتين بهما فاكهة مُرَّة وأشجار الطرفاء، وقليل من الأشجار الأخرى، يقول الله بصدد ما حدث لهم: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧]. ولقد أخبرنا القرآن أيضًا عن: ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا

كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]. وهكذا فإن السقوط والهلاك هو المصير النهائي المحتَّم لكل أُمة جاحدة، أي لأية أُمة تتمرد على الله وتَتَّبع طريق الفسوق.

ولكن ذلك الهلاك النهائي يحدث طبقًا لمبادئ، وفيما يلي بعض منها:

(أ) إن الهلاك أو العقاب لا يقع على أمة إلا بعد أن تُنذَر إنذارًا كافيًا، ومن الممكن أن يأتي إليها هذا الإنذار من خلال وسيط أي رسول من عند الله: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ**﴾ [القصص: ٥٩]. ﴿**وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾ [الشعراء: ٢٠٨، ٢٠٩].

أو أنهم يتم إخبارهم بطريقة أخرى أنهم ظالمون حتى يُعِدُّوا أنفسهم للعقاب. ﴿**وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾ [الأعراف: ٤-٥]. إن معنى تلك الآية يبدو أكثر وضوحًا في ضوء حديث النبي الذي يؤكد أنه لا تُهلَك أمةٌ إلا بعد أن تقر أنها هي وحدها الملومة وأنها هي التي جلبت على نفسها الهلاك[1]، وذلك يثبت بالآية: ﴿**ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ**﴾[2] [الأنعام: ١٣١].

نستطيع أن نستنتج من ذلك المبدأ الإلهي أو السنن أنه: إذا كان هناك مجتمعان يتساويان في فُسوقهما وجحودهما؛ فإن المجتمع الذي أُنذر سوف يَهلِك قبل المجتمع الذي لم ينذر؛ ومن ثم فإننا نرى من القِصص التي تروى في القرآن حول الأمم المندثرة أن هلاك وسقوط تلك الأمم قد جاء بعد رفضها لرسل الله.

---

(١) ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم.

لقد اقتبس الطبري هذا الحديث في تعليقه على الآية، وهو يقول أنه يوجد دليل واضح في الآية على صحة ذلك الحديث. نفس المرجع الجزء ١٢، ص٣٠٤.

(٢) إن الترجمة الأخرى الجديدة للآية هي:

That is because, the Lord would never destroy for theirworong doing.

(ب) إن الهلاك لا يأتي مباشرة، أي إنه لا يتم إهلاك الأمم أو إسقاطها مباشرة بعد أن تُبْدِيَ ما يدل على الجحود. ومرةً أخرى فإن ذلك يرجع إلى رحمة الله، إن الله يعطي بلا مقابل وبلا حدود ولكنه لا يأخذ ما وهبه دفعةً واحدةً: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨]. ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٨-٥٩].

(جـ) إن سقوط كل أمة كما قرأنا في الآية السابقة يكون طبقًا لأجَل محدد ليس من الممكن إرجاؤه أو تعجيله: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحجر: ٤-٥].

(د) قبل أن تَهلِك الأمة قد تمر بمحن قاسية مما قد يجعلها تتوب وتعود إلى الطريق المستقيم: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

(هـ) لا يتم إنزال العقاب بالنسبة لجميع الآثام في العالم وإلا لهلك جميع الناس: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١].

لقد كانت تلك هي أسباب المحن والبؤس وسقوط الأمم فما هي إذن أسباب ارتفاع الأمم وازدهارها المادي والروحي؟

توجد بصفة رئيسة أحوال إنسانية معتادة يجب أن نكون جميعًا عليها، ويحب الله أن يرانا بها، إن الله يزود كُلاً منا ساعةَ مولده بطباع كريمة، يكون جوهرها الاعترافَ بأننا عباد الخالق الأحد، ويعد ذلك الاعتراف بمثابة جوهر إنسانيتنا ويُعَدّ مَنبعَ وقِوام كل شيء حميد بنا؛ مثل: التفكير المنطقي، والشعور الأخلاقي، الذَّوْق الفني، والمشاعر الأخوية، إلخ... وفوق ذلك، فإن الله خلق كل ما يحيط بنا بغرض منفعتنا؛ ولذلك فإن الحالة المعتادة التي نكون عليها هي حالة من السعادة الداخلية

والطمأنينة التي تجيء نتيجة لشهادتنا الفطرية بعبوديتنا لله، تلك الشهادة التي تجد تجاوبها في الرسالة الإلهية التي تنقل إلينا عن طريق رسل الله، وهي أيضًا تعد حالة من النعيم الخارجي الذي يتحقق نتيجة لأن كل شيء يكون خاضعًا لنا ومقصودًا به إشباع حاجاتنا. إن كل واحد منا يولد تصاحبه تلك الحالة من السعادة الداخلية، ولكن واأسفاه، فإنه ليس هناك أيٌّ منا يجد نفسه في تلك الراحة المادية. إن الكثيرين ممن جاؤوا قبلنا قد غيروا تلك الحالة الداخلية التي خلقهم الله عليها ومن ثم فإنهم تسببوا في أن يمنع الله الكثير من نعمه عن العالم. ولكن الله أكثرُ رحمةً من أن يصيبنا باليأس؛ لذا فإن الباب لا يزال مفتوحًا لجميع الناس ليعودوا إلى هدى الله حتى يتمتعوا بذلك النعيم المادي. وهنا سنقدم بعض أنواع السعادة التي يَعِد بها القرآن هؤلاء الناس:

(أ) الراحة المادية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

(ب) السعادة الروحية: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

(جـ) النصرة على الأعداء: بقدر ما يؤمن الناس بالله ويثقون به، ويطيعونه، يكون الله بجانبهم: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

وعندما يكون الله بجانبهم فإنه سوف يدافع عنهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، وسوف ينصرهم: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]. ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]. وإذا دافع عنهم الله ونصرهم؛ فلن يستطيع أي شيء أن يتغلب عليهم: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]. ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وما داموا

يحفظون عهدهم مع الله، فإنهم لن يقعوا أبدًا تحت سيطرة الكافرين أو يخضعوا لهم: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

إن جوهر فلسفتنا للتغيير الاجتماعي قد أصبح واضحًا الآن. إن الأمم لا ترتفع وتسقط اعتباطا أو بدون قوانين تنظم نشأتها واندثارها. إن التاريخ ليس بمسار منفرد يجب أن تخطو فيه كل أمة سواء رغبت أم كرهت، فإن عالمنا الاجتماعي يحكمه الخالق الذي يجعل الأمم ترتفع أو تسقط أو تزدهر أو تعاني، وتنتصر أو تخضع طبقًا للقانون الأخلاقي للإقرار بفضل الله.

تطبيق النظرية:

ولكن كيف يستطيع أن يعاوننا ذلك الشرح النظري لارتفاع وسقوط الأمم في إيجاد الطريق للاتجاه بالمجتمع إلى الجهة الإسلامية؟

أولاً: لما كان الاتجاه إلى الوجهة الإسلامية يجب أن يُخطط له، وأن التخطيط يقوم على أساس التنبؤ بأحداث المستقبل؛ فإن ذلك التفسير القرآني للتغيير الاجتماعي يعاوننا في أن ننظر إلى ما وراء المظاهر المتمثلة في القوة المادية لأي أمة حتى نرى العوامل الحقيقية التي تؤدي إلى تماسُكها أو تتسبب في انحلالها. وإننا الآن نعلم أن الطريقة الوحيدة لضمان استمرار نِعَم الله هي اتباعُ الطريق الذي اختاره الله لعباده، وأيةُ أمة تنحرف عن الطريق من المؤكَّد أنها سوف تصاب بالضعف، إن لم تصب بالهلاك التام، ولن تستطيع أي ثروة، أو أي معرفة دنيوية أو قوة مادية – من أي نوع – أن تنقذها من ذلك المصير المحتوم ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم: ٩-١٠]. إن واجبنا ليس هو أن نجلس وقلوبُنا مفعمةٌ بالبهجة في انتظار السقوط المحتوم للمجتمعات المنحرفة، كلَّا إن ذلك ليس بموقف أناس يَدينون بالشعور بالمسؤولية، إن واجبنا هو أن نُنذر تلك

المجتمعاتِ بطريقة مخلِصة ورحيمة ومقنِعة؛ حتى نساعدهم في إدراك التماثل بين أساليبهم والأساليب التي أدت إلى سقوط المجتمعات الأخرى، ونشرحَ لهم ببعض التفصيل العملية التي بمقتضاها يؤدِّي الانحراف عن طريق الله إلى الشقاء والمحن، بل ويؤدِّي في نهاية الأمر إلى سقوط المجتمع أو حتى هلاكه التام. إن ذلك الموقف الذي يتضمن تقديم إنذار مخلص ومقنع يجب أن يكون هو موقفَنا تُجاه جميع المجتمعات والأمم سواء كانت تنتمي إلى الإسلام أم لا، إن هدفنا وواجبنا ليس هو تدميرَ المَدَنية الغربية والبناءَ على أنقاضها، ولكنه يتمثل في بذل الجهد لإنقاذها وإرشادها إلى الطريق الصحيح، ولكنها إذا لم تبالِ بإنذارنا أو تستمع إلى نصحنا؛ فإن سقوطها سوف يكون محتومًا، ونكون حينئذ قد أَعفَيْنا أنفسنا من المسؤولية.

ثانيًا: ومما يُعَد أكثر أهمية، أننا بمقتضى معرفتنا أن التقرب إلى الله هو سرُّ النجاح يجب أن نفعل ما في طاقتنا من أجل تحقيق ذلك الهدف، ونرفضَ بحزم كل ما يجعلنا نحيد عنه مما قد يُصاغ إلينا في إطار أساليبَ وحِيَلٍ قد تبدو بمثابة الطريق الممهِّد للنجاح بالنسبة للأشخاص قليلي التبصر الذين تبهرهم الأضواء الوامضة. وإذا كنا نعني بالنجاح مجرد حيازة مجموعة من الناس للسلطة - وذلك ما يحدث كثيرًا - فإننا حينئذ لا نكون في حاجة إلى السعي للحصول على الإرشاد الإسلامي بالنسبة لكيفية تحقيق ذلك، ولكننا إذا كنا نرغب أن تقع تلك السلطة في أيدي أشخاص يستخدمونها لتكوين والحفاظ على مجتمع يتمتع بالتأييد الذي وعد الله بمنحه المجتمعاتِ التقيةَ؛ فإنه حينئذ توجد طريقة واحدة فقط لتحقيق ذلك. وأي جماعة من الناس تحب أن تكون جديرةً بالحظوة التي تضعها في مَصاف أفضل الأمم، يجب أن تُثبت أولاً أنها تسير على هدى الله. إن جوهرَ أن يكون الإنسان على طريق الله هو شيءٌ يكمن في القلب، ومن ثم فهو غير قابل للملاحظة المباشرة بواسطة الأشخاص الآخَرين، ولكنه يكون شيئًا واضحًا لله، وإن الله ينظر في قلوبنا ليرى إذا كنا جديرين بمعاونته لنا أم لا، وبقدر ما نُدين بالإخلاص، بقدر ما نحصل على معاونته وتأييده. إن كل عنصر من عناصر الشرك والنفاق يكون بمثابة عائق كامن في طريقنا، وسببًا كامنًا لهزيمتنا. وهكذا كلما كان المسلمون في وقت النبي يعانون

هزيمةً أو نكسة مؤقتة في معاركهم ضد الكفار، كان الله يوجههم لأن يبحثوا عن سبب ذلك في قلوبهم. فمثلاً فإن سبب هزيمتهم المؤقتة في أُحُد كان يرجع إلى حقيقة أن بعضًا منهم قد رغبوا في متع الحياة الدنيا، وفي حُنين كان يرجع إلى مباهاتهم بأعدادهم الكبيرة. ولذلك فإننا يجب أن نكون منتبهين حتى لا يزحف ذلك الزيف إلى قلوبنا، ولو أنه وجد طريقًا إلى قلوبنا، فإننا يجب أن نبذل كل ما في طاقتنا لنطهر أنفسنا منه بالاستغفار والتوبة، وبإقامة الأعمال الصالحة وغيرها من أعمال العبادة. إن آثامنا هي عدونا الحقيقي، وإن الإخلاص هو سلاحنا الحقيقي الذي لا يمكن تدميره.

إن التأكيد على تلك النقطة من الممكن أن يثير القلقَ ظنا بأن ذلك قد يكون بمثابة دعوة إلى نوع من الصوفية السلبية، وإنكارًا لجميع الأنشطة العامة، وخاصةً السياسية. ومن الممكن أيضًا أن يقودنا إلى الاستنتاج الخاطئ بأن رغبة الجماعة من المسلمين في تولي السلطة تعد شيئًا آثمًا. ولذلك فإنني أود أن أؤكد أن ذلك ليس هو غرضي، وأحب أن أضيف أن ذلك النوع من القلق هو نفسه يعد نتيجة لمفهوم خاطئ للعَلاقة بين حالتنا العقلية وأعمالنا وأنشطتنا. إن جهدنا في تطهير قلوبنا لا يجب تصوره كفعل تَحوُلي يعوق أو يبطّئ أنشطتنا العامة، ولا يجب أيضًا أن نتجنب الأنشطة العامة باعتبارها أعمالا دنيوية غير جديرة بالشخص التقي. إن القلب الطاهر الواعي بالله يعد بمثابة قوة دافعة تقودنا إلى الأعمال الدنيوية الصالحة، وإن طبيعة أنشطتنا العامة تعد بمثابة التعبير الظاهري لنوع الإيمان الذي يكمن في قلوبنا. لقد أعلنتُ فيما سبق أن أسلوب الشخص في تحقيق هدف مرغوبٍ فيه يعتمد على ما يعتبره بمثابة مسبِّباته الفعالة وعلى مفهومه للعَلاقة القائمة بين تلك المسبِّبات. إن المُلحدين يَقصُرون أنفسهم على الأسباب الطبيعية والجهد الإنساني، ظانين أن تلك فقط هي الأسبابُ الحقيقية الفعالة لأي تغيير في العالم. ونحن نضيف إلى تلك الأسباب اعتقادنا أنه بما أن كل شيء في العالم هو من خلق الله؛ فإن الله وحده هو المسبِّب النهائي لكل ما يحدث في العالم؛ ولذلك فإنه يكون أمرًا طبيعيًا بالنسبة لنا أن نُضمِّن في نظامنا للأسباب الفعالة أشياءَ مثل الصلاة، والاستغفار، والتوبة، وعمل ما يوصي به الله وتجنب ما يحرمه، ويصل الإنسان إلى مصاف أولياء الله من خلال أفعال العبادة تلك. وعندما نكتسب

محبة الله (المكتوب حب الكائن) الذي يتحكم في العالم لن يستطيع أي شيء أن يقف في طريقنا. إن اتجاهنا هذا سوف يبدو غريبًا عندما تتم مقارنته بالأفكار والفلسفة السائدة الآن في عالمنا. وطبقًا لما قال النبي ﷺ فإن الإسلام قد بدأ غريبًا حينما ظهر، وسوف يعود غريبًا مرةً أخرى، يقول رسول الله ﷺ: **(بَدَأَ الإِسلام غَرِيبًا، وسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ)**؛ رواه مسلم. ولو أننا رغبنا في أن نكون على طريق الله ونحظى بتأييده، فإن من الضروري - ولكنه ليس من الكافي - أن نكون مخلصين طاهري القلوب، وإلى جانب الرغبة المخلصة في إرضاء الله، فإننا يجب أن نضيف التعرف على الأفعال الصالحة والأساليب التي ترضي الله والتي يَعتبرها أفضل الوسائل لتحقيق الغايات التي وضعناها نصب أعيننا، وأن ذلك ينطبق على رغبتنا في تحقيق الدولة الإسلامية المثالية. ونظرًا لأن هدف النبي ﷺ عندما كان في مكة كان أن يُكَوِّن مثل تلك الدولة؛ فإننا يجب أن ندرس سيرة النبي ﷺ وأحاديثه الموثوقَ بصحتها إلى جانب القرآن.

الأهمية الأساسية للدولة الإسلامية:

بانتقالنا إلى سيرة النبي ﷺ أجد من الضروري أن أبرر العبارة التي طرحتها الآن حول هدف النبي ﷺ بالنسبة لتكوين الدولة الإسلامية. إن هدف النبي ﷺ باعتباره رسولاً لله كان يتمثل في نقل رسالة الله إلى عباده، وتلك حقيقة، ولكن من الحقيقي أيضًا أن المحاولة لتكوين مثل تلك الدولة الإسلامية تعد جزءًا مهما من تلك الرسالة. ولقد قيل: إنه إذا كان أحد أهداف النبي ﷺ يتمثل في تكوين مثل تلك الدولة لَمَا رفض العرض الذي جاءه من مكة لتولي منصب الرئاسة، ومعلوم أن النبي عليه السلام قد رفض ذلك العرض، ولكن السبب في ذلك هو أن قبوله لم يكن: "نجعله رئيسًا لدولة إسلامية"؛ بل كان سيصبح رئيسًا لقوم لم يؤمنوا حتى برسالته، ولكنهم عرضوا عليه ذلك المركز كرشوة لحثه على التوقف عن نشرها، والشخص الذي يقبل مثل ذلك العرض لا يكون نبيا حقيقيا، بل يكون إنسانا تتملكه الرغبة في السلطة، ويكون الادعاء في النبوة بالنسبة له ليس بأكثر من وسيلة لتحقيق تلك الرغبة. إن حقيقة أن النبي ﷺ كان تَوَّاقًا إلى تكوين دولة إسلامية تَظهَر بوضوح

حين ندرك أنه إلى جانب محاولته إقناعَ الناس باعتناق الإيمان الجديد، فإنه كان يبذل أقصى جهده ليظفر بتأييد جماعة منظّمة ومستقلة تكون بمثابة معقل لذلك الإيمان. ولتحقيق تلك الغاية فإنه اعتاد أن يتصل برؤساء القبائل المختلفة، وخاصةً في وقت عَقْدِ الأسواق السنوية في مكة، ويطلب منهم أن يَقبلوه كنبيٍّ وأن يكونوا حماة الإيمان الجديد، وأخيرًا فإن قبيلتين من المدينة، وهما الأوس والخزرج فعلتا ذلك ومكنتا من قيام أول دولة مسلمة نشأت في أراضيهم.

ولنفترض الآن أن عددًا من المسلمين قرروا العمل لتحقيق تلك الغاية. فبأي وجه يستطيعون أن يَفيدوا من سيرة النبي ﷺ في المرحلة المكية؟

موقفان متطرفان:

اعتنق عدد كبير من الناس موقفين متطرفين: الأول: هو أنه نظرًا لأن رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - قد اكتملت أخيرًا في شكل القرآن ومجموعة الأحاديث الموثوق بها، التي تحت تصرفنا الآن؛ فإن المراحل الأولى التي مرت بها تلك الرسالة لا تتلائم الآن مع نوع النظام الذي يجب أن نتَّبعه في نشرها أو ممارستها، ولكن ديننا كامل ويجب أن تتم ممارسته في مجموعه، وليس من الممكن إيقافُ أو إرجاء تطبيق جزء منه لأي سبب من الأسباب.

أما الموقف الآخر: فهو أن الناس الآن قد ارتدوا إلى نوع من الجاهلية المكية التي كانت سائدة في وقت رسالة النبي ﷺ؛ ولذلك فإنه يجب علينا أن نبتدئ من النقطة التي ابتدأ منها النبي، ونمر بجميع المراحل التي مر بها، حتى نستطيع في نهاية الأمر تكوينَ دولتنا الإسلامية.

وكلٌّ من هذين الموقفين ليس من الممكن الدفاعُ عنه؛ أما الأول فلأنه يتجاهل الحقيقة المهمة التي ذكرناها سابقًا، وهي أن الإسلام يعد بمثابة رسالة ونظام، وأن الأسلوب الذي بمقتضاه يتم نقل الرسالة وممارستها يعد جزءًا لا يتجزأ عن الرسالة ذاتها، ومن ثم ليس من الممكن تجاهله. وإذا قبلنا ذلك الأمر، فإننا نستطيع دائمًا أن نسترشد بالأساليب التي اتبعها النبي ﷺ في أي فترة من حياته.

وكذلك الموقف الثاني؛ لا يمكن الدفاع عنه؛ لأنه من المستحيل أن ننقُل موقفًا تاريخيًا كاملاً من إحدى الفترات الزمنية، ونفرضَه على الفترة الزمنية التالية. وذلك

هو ما يطالب به الموقف الثاني تمامًا. ويمكننا رؤية نتائج مثل تلك المحاولة في المثل الحي لبعض الشباب الذين أعرفهم، والذين حاولوا اتباع ذلك الأسلوب؛ نتيجةً لفهمهم الموضوعي للكاتب المسلم العظيم الشهيد سيد قطب، وهم قد ابتدؤوا بتكوين جماعة وانتخاب قائد، وقد كان من المفترض أن تكون تلك الجماعة متماثلة مع جماعة المسلمين الأوائل، ولكنهم تجاهلوا حقيقة أن هؤلاء الذين تجمعوا حول النبي ﷺ قد كانوا هم المسلمين وحدهم على وجه الأرض، وحتى يضاهوا تمامًا بين تلك الجماعة وجماعة النبي ﷺ فإنهم أطلقوا عليها اسم جماعة المسلمين، وتلك عبارة توحي أنهم هم المسلمون الوحيدون، وهم قد اعتقدوا بالفعل أن من لا ينتمي إلى جماعتهم لا يكون مسلمًا، أو كما يقول المعتدلون منهم يكون مجهول الحال، أي مشكوكًا في أمره، وعندما سألتُ بعضهم ذات يوم: بأي حق ينكرون الإسلام على شخص ينطق بالشهادة، ويقيم الصلاة ويعرف باستقامته الأخلاقية؟ وكان الجواب "ولكن من أجل أن تكون مسلمًا يجب أن تنتمي إلى المجتمع الإسلامي، وهؤلاء الناس يعيشون في مجتمع الجاهلية!" قلتُ: "إذا كنتم تَعنُون بالمجتمع الإسلامي مجتمعًا مثل مجتمعكم، حينئذ فإنه يوجد الكثير من المجتمعات الإسلامية الأخرى" فقالوا: "إنها ليست بإسلامية لأنها تقبل هؤلاء الذين يعيشون في مجتمع الجاهلية كمسلمين وإن أي شخص يَعتبر مِثلَ هؤلاء الناس مسلمين يكون هو نفسه ليس بمسلم!!" وهم اعتقدوا أنهم نظرًا لكونهم في المرحلة المكية؛ فإنهم يجب عليهم أن يَحْذُوا حذو النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يدعوا الناس فقط إلى مبادئ العقيدة، ولا يتحدثوا إطلاقًا عن أشياء مثل الاقتصاد، والأمور السياسية، والعدالة الاجتماعية، إلخ... وقد ظهر سؤال حول ما إذا كانوا هم أنفسهم يجب أن يمارسوا ذلك الجزء من الشريعة الذي أوحي في المدينة؟! وانقسمت الآراء حول تلك المسألة إلى قسمين، وعلى الأقل كان واحد من القسمين يعتبر الآخر غير مسلم!!.والمجموعة التي اعتقدت أنهم لا يجب أن يمارسوا ذلك الجزء من الشريعة الخاص بالمدينة قد وصلت في تطرفها إلى حد إهمال دراسة الآيات القرآنية المدَنيَّة!

أما ذلك الجزء من المجموعة الذي اعتقد بوجوب ممارسة الشريعة في مجموعها ذهب إلى مدى جَلْد أحد الأعضاء الذي اعترف بأنه ارتكب الزنا. إنني أعتقد أن المثل الذي

ضربه هؤلاء الشباب المتحمسون والمخلصون في كثير من النواحي يشكل إنذارًا ملائمًا ضد ذلك النوع من التطرف.

التماثل والاختلاف:

الموقف الصحيح - كما أعتقد - هو أن الإنسان يجب أن يبحث عن التماثل ولكنه يجب أيضًا أن يُقر بالاختلافات بين أي جماعة مسلمة معاصرة في بلدة معينة وبين النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في كل من فترتي مكة والمدينة. وعندما تجد مثلُ تلك الجماعة نفسَها في موقف يتماثل مع موقف المسلمين الأوائل فإنها يجب أن تقتدي بسلوك النبي في ذلك الموقف. ونستطيع أن نصور تلك النقطة بقليل من الأمثلة:

١- إن القوم الذين قَبلوا الإسلام في مكة لم يُتركوا ليعيشوا كأفراد منعزلين، بل كَوَّنوا جماعة منظمة، وإنني أعتقد أن الحكمة من وراء ذلك هي:

أولاً: أن المسلمين - طبقا للقرآن - يُعَدون بمثابة أمة، أي إنهم أخوة، ومن ثَمَّ ليس من الممكن أن يكونوا مسلمين تماما لو أنهم عاشوا متفرقين. إن ذلك قد يبدو موهما بالتناقض، ولكنه صحيح، فإننا عندما نعيش منعزلين لن نحقق كِياننا أو نشعر بالرضاء لأنه يوجد بداخل كل منا فراغٌ ليس من الممكن أن يملأه سوى أخوة المسلمين الآخرين.

ثانيًا: إنه إذا كان هدفنا النهائي هو تكوين مجتمع خاص بنا، حينئذ فإنه يجب أن يتم تكوين بَذْرة ذلك المجتمع داخل المجتمع الذي نرغب في تغييره. وبتلك الطريقة فقط نستطيع أن نواجه تحديات المجتمع الذي نعارضه، وحينئذ نستطيع أن نشعر بنعمة العيش في مجتمع مسلم ونعطي الآخرين مَثَلا حيا لذلك المجتمع.

والعبرة في ذلك بالنسبة لأي قوم يرغبون في تكوين مجتمع مسلم صحيح يمكنه التطور حتى يصبح دولة مسلمة، هي:

(أ) أنهم يجب أن ينظموا أنفسهم في جماعة ويكون لهم قائد. وإن الشيء السليم هو أنه يجب أن تكون هناك جماعة واحدة فقط من المسلمين تعمل في مجتمع معين من الجاهلية أو شبه الجاهلية. وكلما كثر عدد الجماعات التي لدينا، كلما انحرفنا عن الاقتداء بالنبي ﷺ ومن ثم تأخرت عملية التوجه بالمجتمع إلى الوجهة الإسلامية.

ولكنه إذا حدث لسبب أو آخرَ أن وُجِدَ أكثر من جماعة واحدة فإن أفضل موقف هو أن تتعايش تلك الجماعات بطريقة ودية، وتتعاونَ في العمل على تحقيق الغايات المشتركة، وتُنسقَ جهودها من أجل ذلك. ويجب أن تتذكر تلك الجماعات أن الرابطة التي تربطها سويا وهي شهادة أن لا إله إلا الله - تعد أكثر أهمية من الخلافات التافهة التي تَبُثُّ الفُرْقة بينها.

(ب) ويجب أن يتذكروا أن قائدهم ليس بنبي يجب الإيمان بكل كلمة يتفوه بها واتباعُها، فإنه هو نفسه تابعٌ للنبي ﷺ؛ ولذلك يجب اتباعه فقط بقدر ما يَتَّبع هو النبيَّ ﷺ، ويجب أن يقوم الأَتْباع المثقفون لمثل ذلك القائد ببذل ما في طاقتهم ليحصلوا على المقياس الذي بمقتضاه يستطيعون تقويم قائدهم، أي القرآن والسنة. إن مثل ذلك القائد لا يصل إلى مرتبة النبيِّ فحسب؛ بل إنه لا يصل حتى إلى مرتبة أمير المؤمنين مثلما كان أبو بكر وعمر، أو أيٌّ من الخلفاء المسلمين. ومن أجل أن يكون الشخص أميرا بتلك الكيفية، فإنه يجب أن يكون بمثابة القائد الفعلي للمسلمين، أي يكون هو الشخصَ الذي يمسك بزمام السلطة الحقيقية ومن ثم يستطيع تطبيق القانون الإسلامي. إن قادتنا يُعتبرون حقيقة كأمراء، ولكنهم أمراء في مفهوم أضيق؛ ولذلك فإنه يكون من الخطأ من ناحيتهم أن يطالبوا بالسلطات التي منحها النبي للقادة، ومن الخطأ من ناحيتنا أن نزودهم بمثل تلك السلطات.

(جـ) أنهم يجب أن يبذلوا ما في وسعهم ليحافظوا على الأُخُوة التي تعتبر قوام وَحْدَتهم، ويتذكروا أن الشيطان سوف يفعل ما في طاقته ليقضي على تلك الوَحْدَةِ بما يطلق عليه القرآن (النزغ)، وأن يكونوا على ثقة من أن النزاع والصراع لن يجلب لهم سوى الفشل والانحلال.

(د) طبقا لنفس المَثل الأعلى؛ فإنه يجب أن يكون هناك أيضًا تعاوُنٌ بين التنظيمات الإسلامية على النطاق العالمي، وبين تلك التنظيمات وأي دولة مسلمة حالية تكون راغبة في تقديم المساعدة والعون. ونأمل أن يأتي الوقت الذي تَعتبر فيه الدولةُ المسلمة أرضَها مقرًا لجميع المسلمين المخلصين وتَفتح أبوابها لهم، وتقبلهم كمواطنين يتمتعون

بجميع الحقوق، وتُعجل بعملية التوجه إلى الاتجاه الإسلامي في العالم بأجمعه كجزء من واجبها، وهكذا تقدم لها جميع التأييد المعنوي والمادي والمساندة التي تحتاج إليها.

٢- إن النبي ﷺ في مكة، باتباعه إرشادَ القرآن، قد ابتدأ في دعوة الناس إلى المبادئ الرئيسة للإيمان، وإنني أعتقد أنه فعل ذلك لأن الإسلام ليس مجردَ مجموعة من الأوامر والنواهي، إنه نظام يتمشى مع كل من الناحية المنطقية والنفسية. وهكذا فإننا لو لم ندعم الأساس الداخلي لن نستطيع أبدًا أن نقيم أي بنيان خارجي قوي، أي لو لم يتم دعم الإيمان بقوة في قلوب الناس؛ فإنه يكون من غير المجدي أن نطالبهم بفعل ما أمر به الله وتجنُبِ ما نهى عنه. وقد وضح ذلك تمامًا في كلمات عائشة التي قالت - طبقا للبخاري: إنه عندما جاء النبي ابتدأ في إخبار الناس عن الله والآخرة فقط، وبعد أن آمنوا بذلك فإنه ابتدأ في إخبارهم أنهم يجب أن لا يشربوا الخمر أو يرتكبوا الزنا. ولو أنه كان ابتدأ بالأمر الثاني لكانوا قد رفضوا بصلابة أن يلتزموا بأوامره ويكفوا عن تلك الآثام.

القضايا الكبرى:

ولكن هنا نقطتان يجب أن نلاحظهما:

(أ) أن النبي ﷺ لم يَقصُر نفسَه على الحديث عن أمور العقيدة فقط، بل أيضًا - مَثَله مَثَل من جاء من قبله من الأنبياء - قد شرح النتائج الأخلاقية والاجتماعية لتلك العقيدة، وأن ذلك الأمر هو الذي يؤثِّر في القلب أكثر من الحديث النظري عن العقيدة، وهو الذي يتسبب - عادة - في جانب معارضة الناس من ذوي المصالح في مجتمعات الجاهلية المتعارضة مع الإسلام، واضطهادِ هؤلاء الناس للأنبياء.

(ب) عند دعوة الناس للإيمان الجديد، فإن النبي ﷺ لم يتحدث إليهم بأسلوب جازم أو عاطفي بحت، ولكنه لجأ إلى المناقشة المنطقية وإلى البراهين المادية. لقد تحداهم عقليا وأنذرهم بإخلاص، وطلب منهم النظر في التاريخ بترو للاعتبار به، وشرح لهم حقيقة أنه كان يدعوهم إلى الطريقة الوحيدة التي تجلب لهم السعادة المادية والروحية في هذه الحياة والحياة الآخرة. إن حقيقة أن تلك الطريقة الحكيمة لتعريف الناس بالإسلام لم تقتصر على الفترة المكية قد تم الإلماح إليها في حديث النبي ﷺ حول غربة الإسلام: (**بَدَأَ الإسلام غَرِيبًا، وسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**). إن

ذلك الحديث يشرح ويثبت ما ذكرته عن التشابه في المواقف؛ فإنه يخبرنا أنه سوف يأتي وقت عندما ينظر الناس إلى الإسلام بنفس الأسلوب الذي نظر به المكيّون إلى الإسلام عند ظهوره لأول مرة، وإن ابن تيمية بنفاذ بصيرته المعتاد قد استنتج من ذلك الحديث أنه عندما يصبح الإسلام غريبا للمرة الثانية فإنه يجب أن نعتنق نفس الأساليب التي اتُّبعت لنشره عندما بدأ غريبًا في المرة الأولى. ونقصد بذلك أنه يجب أن نركز على القضايا الأساسية الرئيسة، ونستخدم العقل والمناقشات المنطقية لإثبات حقيقة تلك المبادئ، وإثبات زيف المذاهب المضادة. ولذلك يجب علينا - طبقا لسنة النبي ﷺ - أن نبذل ما في وسعنا لأن نشرح النتائج الأخلاقية والاجتماعية لتلك الحقائق الأساسية، وأن نطبق النقد الشامل على مجتمعنا، ونقدم بديلاً مقنعاً. وعند عَمَلِنا ذلك، فإنه سوف يكون من غير العملي ومما يشكل جمودا غير ضروري أن نقصر أنفسنا على تعليمات الإسلام المكية، إنه يكون من غير العملي؛ لأن الأمر يختلف عن حالة المكيين الأوائل، فإن الكثير من الناس الآن - بما فيهم غير المسلمين يعرفون تفاصيل الإسلام التي أوحيت في المدينة. ولذلك لا نستطيع أن نعاملهم كما لو كانوا جهلاء بالسُّور المدَنِيَّة، ولا نستطيع أن نرفض الإجابة عن بعض الأسئلة التي يطرحها مثل هؤلاء الناس بدون أن نضعف من موقفنا. إن مثل ذلك الجمود يعد ضارًا لأنه يحرمنا من مَيْزَةٍ وضعها الله تحت تصرفنا. إن كُلاً من الرسل الذين جاؤوا قبل محمد ﷺ - إلى جانب دعوتهم الناس إلى الحقيقة الأساسية للدين - فإنهم كانوا يُعْنَوْنَ بالمشكلة الاجتماعية المعينة للناس المعينين الذين أُرسلوا إليهم. وهكذا فإن موسى قد اهتم بتحرير قومه من الحكم المستبد لفرعون واستئصال الظلم الاقتصادي، وكان لوطٌ يوجه اهتمامه للقضاء على الفساد الاجتماعي، ولكن الإسلام يَعنى به أن يكون لجميع الناس وجميع الأجيال القادمة، ومن ثَمَّ فإنه يعالج جميع المشاكل الإنسانية الرئيسة. والآن نظرًا لوجود ذلك الكنز تحت تصرفنا، ونظرًا لأن الناس في وقت ما ومكان ما قد يشعرون بإلحاح بأيٍّ من تلك المشاكل؛ فإننا نستطيع أن نكتسبهم إلى الطريق المستقيم بأن نقدم لهم حل المشكلة التي تقلق راحتهم. وإنني لا أجد أي سبب لعدم استغلالنا لتلك الميزة. وحتى نفعل ذلك بطريقة فعالة ونقدم الإسلام لأي مجتمع بطريقة مقنعة، فإنه يجب أن نحترس بالنسبة للمبادئ الإسلامية التي صِيغَتْ في إطار تاريخي مشوش في

فترة ما في الماضي، بما في ذلك الإطار الذي صَوَّرَ فيه النبي عليه السلام أن المبادئ تعد بمثابة الجوهر، وأن تطبيقها في وقت معين هو الشكل الخارجي المتغير، ولكننا يجب أيضا أن نحترس من أن نصوغ تلك المبادئ في شكل غير ملائم لمجرد أنها سوف تُقَدَّمُ إلى مجتمع معاصر ومتقدم من الناحية المادية مثل الولايات المتحدة الأمريكية.

٣- إنني الآن سوف أنظر باختصار - في ضوء السيرة - إلى مجموعة من الأفكار الخاطئة حول عملية التوجه إلى الاتجاه الإسلامي:

(أ) إن بعض الجماعات في حين أنها لا تذهب إلى مدى الاعتقاد الواعي بأنها تتكون من المسلمين الوحيدين، فإنها تقوم بالعمل والتخطيط على أساس ذلك الافتراض، ومن ثَمَّ ترفض الاعتراف بالمساهمات القيمة للجماعات الأخرى، والأفراد والهيئات الرسمية وتحاول أن تعزل نفسها عنهم. وفي الحقيقة لم يكن هناك شيء إسلامي في الفترة المكية سوى أفعال النبي ﷺ والمسلمين القلة الذين اتبعوه، ولكن النبي ﷺ قد شجع كل شيء كان يُعتبر حميداً طبقاً لمقاييسه الإسلامية، وكان يقر به كشيء حميد. وهكذا حينما كان في المدينة فإنه تذكر حلف الفضول وامتدحه، وقد كان هدف ذلك الحلف هو الدفاعَ عن المظلومين ومساعدة الفقراء، وكان النبي ﷺ قد اشترك في تكوينه عندما كان في العشرين من عمره، لماذا يجب حينئذ أن نرفض الاعتراف بالطبيعة الإسلامية لشيء أو عمل لمجرد أن شخصًا آخر هو الذي قام به؟ إنني أعتقد أن الاتجاه السليم هو الاعتراف والتشجيع لكل شيء إسلامي بصرف النظر عمن قام به، واعتباره مصدر قوة لعملية التوجه إلى الوجهة الإسلامية.

(ب) يوجد بعض الذين يعتقدون أننا لا نستطيع أن نُكَوِّنَ دولة إسلامية في بلدة معينة:

١- إلا حينما نجعل جميع من سَيَكُونون بمثابة أعضائها مسلمين حقيقيين ومخلصين، ولكن النبي ﷺ لم يفعل ذلك، ومن المؤكد أنه من الخطأ وغير العملي أن نعتقد أنه ليس من الممكن إقامة مثل تلك الدولة في أية بلدة إلى أن يقتنع معظم أهلها، أو إلى أن نكون قدمنا تعليماً وتدريباً إسلامياً صحيحاً لجميع الموظفين الذين سوف يتولون مؤسساتها.

٢- وإلا حينما نُعِدُّ مُخَطَّطًا لمجتمع المستقبل هذا. ومرة ثانية، فإن النبي ﷺ لم يفعل ذلك ولم يفعله أي مُصلِح أو أي حركة ثورية في أي وقت.

٣- وإلا حينما يكون لدينا قادة يتمثلون في رجال يحوزون على المعرفة والتقوى مثل أبي بكر وعمر. ولكننا لا نقوم بأي عمل من أعمال العبادة في الشكل السامي الذي كان يقوم به أبو بكر أو عمر، وإنهما هما أنفسهما لم يصلا إلى مستوى النبي، ولذلك فلتكن دولتنا ناقصة مثل صلاتنا، وبأية حال فإنها سوف تكون أفضل من الدولة الغير المسلمة، مثلما تعتبر صلاتنا الناقصة أفضل من لو لم نصل على الإطلاق. فلنفترض الآن أن مجموعة من المسلمين الذين يعملون على تكوين دولة إسلامية في جزء ما من العالم هم:

(أ) مخلصون.

(ب) ويَتَّبِعُونَ الأسلوب الصحيح للتحول إلى الوجهة الإسلامية.

إن الجواب هو أن نجاحهم يعتمد على شرط آخر، وهو أن هؤلاء الصادقين منهم عن حق يجب أن يتصفوا بالحكمة بالمقارنة مع هؤلاء الذين يعارضونهم. وإلا فإنهم قد يتعرضون للاغتيال بواسطة أعدائهم، أو قد يُرغَمُون على ترك وطنهم إلى مكان آخر مثل الأنبياء، وكثير من المؤمنين المخلصين مثل أصحاب الأخدود.

أولاً: لأن الله يقول: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧]. ونظرًا لأن عون الله في تلك الحالة لم يأت في شكل النصرة على أعدائهم - للسبب الذي ذكرناه - فإنه من المحتم أنه سوف يجيء في شكل عقاب لهؤلاء الأعداء جزاءً لما ارتكبوا. وهكذا، إذا لم تنجح الجماعة الصغيرة للمسلمين المخلصين في أن تحل مَحَلَّ الجماعات الكبرى من غير المؤمنين، فإنها على الأقل سوف تؤدي إلى سقوطهم، وفي أثناء ذلك فإنها سوف تنجح في الحد من الشر في العالم، وهكذا تمنح الخير فرصة جديدة لأن يزدهر.

ثانيًا: لأنهم بالطبع سيحصلون على الأجر الحقيقي في الحياة الحقيقية، الحياة الخالدة بعد الموت، ويتمتعون بالسعادة القصوى بأنهم سيكونون دائماً في حضرة الله سبحانه وتعالى.

* * *

منهج مونتغمرى واط في دراسة نبوة محمد ﷺ

وهذه دراسة قدمها الدكتور جعفر شيخ إدريس ضمن بحوث عن مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية التي تولتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربي لدول الخليج بمناسبة احتفائهما بحلول القرن الخامس عشر الهجري، ونشرها مكتب التربية لدول الخليج ١٤٠٥هـ الموافق ١٩٨٥م.

هل كان محمداً صادقاً في قوله إنه رسول الله؟

وهل القرآن كلام الله حقاً؟

وما طبيعة الوحي المحمدي؟

وما العلاقة بين القرآن وبين وعي محمد؟

وبينه وبين البيئة التي عاش فيها محمد ﷺ.

هذه أهم الأسئلة التي حاول الإجابة عليها المستشرق البريطاني مونتغمرى واط MONTGOMARY WATT فيما يتعلق بنبوة الرسول ﷺ في ثلاثة من كتبه هي التي سنقصر الحديث على جوانب منها في هذا البحث الذي قسمناه ثلاثة أقسام.

نبدأ الحديث في الجزء الأول عن المنهج الذي زعم الكاتب أنه سينتهجه ويلتزم به، ثم نتحدث في القسم الثاني عن مدى التزامه بهذا المنهج في معالجته للقضايا التي أثارها وفي النتائج التي تصل إليها، ثم نبين في القسم الأخير الفرق بين المنهج الذي أدعاه والمنهج الذي سلكه في الواقع.

المنهج المدعى:

يبدأ واط مقدمة كتابه "محمد بمكة" بفقرة عنوانها: " الموقف"، أي الموقف الذي يلتزمه في بحثه فيقل: «إن هذا الكتاب سيهتم به ثلاثة أنواع على الأقل من القراء: أولئك الذين يهتمون بالموضوع باعتبارهم مؤرخين وأولئك الذين يقبلون عليه باعتبارهم مسلمين والذين يقبلون عليه باعتبارهم نصارى، ولكنه على كل حال موجه أساساً إلى المؤرخين. وقد حاولت أن ألتزم الحياد في القضايا المختلف فيها بين الإسلام والمسيحية، مثلا لكي أتجنب الحكم على القرآن بأنه كلام الله أو ليس بكلامه فقد تجنبت

حين الاشارة إلى القرآن استعمال عبارتي قال الله" أو " قال محمد " فلم أقل إلا " قال القرآن" إننى لا أعتقد أن الانصاف التاريخي ينطوي على نظرة مادية وإنما أكتب باعتباري موحداً»[١].

ثم يعترف بأن نظرته الأكاديمية هذه لا تكفي، ويدعو المسحيين لا تخاذ موقف ديني من محمد، ويقول إن كتابه وإن كان ناقصاً من هذا الجانب إلا «أنني أزعم أنه يضع بين أيدي المسحيين المادة التاريخية التي يجب اعتبارها في تحديد الحكم الديني»[٢].

ثم يطمئن قراءة المسلمين بأنه قد حاول مع التزامه بقواعد البحث التاريخي الغربية إلا يقول شيئاً يقتضى «رد أي من مبادئ الإسلام الأساسية». ويؤكد أنه «ليس من الضروري أن تكون هنالك هوة لا يمكن اجتيازها بين هذه البحوث الغربية والعقيدة الإسلامية» وإذا كانت بعض النتائج التي توصل إليها الباحثون الغربيون غير مقبولة للمسلمين فربما كان السبب أن هؤلاء الباحثين لم يلتزموا دائماً بقواعد بحثهم وأن نتائجهم هذه تحتاج إلى مراجعة حتى من الوجهة التاريخية البحته. ولكن ربما كان صحيحاً أيضاً أن هنالك مجالا لإعادة صياغة المبادئ الإسلامية من غير تغيير في جوهرها.

هكذا يوجز لنا واط موقفة أو منهجه في دراسة السيرة النبوية ثم يعود إلى الحديث عنه في ثنايا كتابه هذا وكتابيه الآخرين إما بتكرير ما قال أو تفصيله أو زيادته.

فهو يكرر في احدهما القول بأنه محايد بين القول بأن القرآن كلام الله أ أنه من محمد أو أنه فعل إلهي صادر بوساطة شخصية محمد، لأن هذه الآراء خارجة عن مجال المؤرخ وأنه قد حاول – مجاملة للمسلمين – أن لا يقول شيئاً فيه انكار لشيء من معتقداتهم الأساسية. ولذلك درج على استعمال عبارة " قال القرآن" بدلاً من " قال محمد" ولكنه يحذرنا من أنه إذا قال عن كلام أنه أوحى إلى محمد فإن هذا لا يعنى أنه يعتقد بأن القرآن كلام الله[٣].

---

(١) محمد بمكة ص٣.
Muhammad at Mecca, The Clarendon Press, 1953.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

وأما الكلام عن البحث العلمي وأنه لا يقتضي الالتزام بالنظرية المادية فإنه يفصله في كتابه "الوحي الإسلامي في العالم الحديث"[١]، حيث يقول إن مقصوده بالنظرة العلمية هو العقلية الحديثة القائمة على إنجازات العلم وعلى الاعتقاد بإمكانية تطبيق طرقه في مجالات كثيرة. ولكنه ليس مع الذين يذهبون إلى أبعد مما تقتضي النظرة العلمية ويتخذون العلم ديناً قادراً على إعطاء الإنسان حلولا لكل أسئلته العميقة. ويقول إن الموقف الذي يتخذه في دراسته هو أننا ينبغي أن نقبل نتائج العلم اليقينية، وكثيراً من نظرياته التي تحتمل الصدق، وأن نؤمن بصحة تطبيق المنهج العلمي على معظم مجالات الحياة، مستثنين مجالات أهمها مجال القيم لأن القول بأنه لا منهج إلا المنهج العلمي يؤدي إلى نظرة علمانية للكون لا مجال فيها للقيم الدينية والخلقية[٢].

ويكرر اعتقاده بأن اتجاهات البحث العلمي الغربي لا يلزم أن تتعارض مع الإسلام وأنه من الممكن أن يجمع الإنسان بين الالتزام بمقتضيات هذا المنهج وبين قبول مخلص للإسلام وإن كان قبولاً غيرساذج[٣].

وأما قوله بأن الانصاف التاريخي لا يعني الالتزام بالنظرة المادية فإنه يزيده وضوحاً، ويذكر من مسوغات كتابته عن سيرة الرسول أن اتجاهات المؤرخين منذ نصف قرن تقريباً قد طرأ عليها تغيير، فأصبح المؤرخون أكثر إدراكاً للعوامل المادية الكامنة وراء التاريخ. وهذا يعني أن المؤرخ الذي يعيش في نصف القرن العشرين يريد أن يسأل أسئلة كثيرة عن الجذور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للحركة التي بدأها محمد، من غير أن يهمل أو يقلل من قيمة جوانبها الدينية والأيدلوجية. وأنه وإن كان يعتقد بأن هذه العوامل لا تحتم سير حركة التاريخ إلا أنه يعترف بأهميتها[٤].

فالأستاذ واط يريد إذن أن يكتب باعتباره مؤرخاً منصفاً، مؤمناً بالله الواحد، ملتزماً الحياد في القضايا الدينية التي يختلف فيها الإسلام والمسيحية، ويقرر الحقائق التاريخية كما هي، ويرى أن التزام المنهج العلمي في البحث لا يقتضى الوصول إلى

---

(١) الإسلامي في العالم الحديث ص٥٢
Islamic Revelation in The Modern World, Edinburgh,1969.

(٢) محمد بمكة ص٢.

(٣) المصدر نفسه ص٧١.

(٤) المصدر نفسه.

نتائج مناقضة للمعتقدات الإسلامية، ولا يقول قولا يلزم عنه انكار لشيء من معتقدات المسلمين الأساسية وهو وإن كان مؤمنا بأهمية العوامل المادية وباحثاً عنها، إلا أنه لا يعدّها المسيرة لحركة التاريخ، ولا يؤمن بالنظرة المادية إلى الحياة.

إن المسلم لا يكاد يطلب من باحث غير مسلم الالتزام بأكثر من هذا الذي ألزم واط به نفسه. ولعل بعض القراء يقول مستغرباً: حتى بحثه عن العوامل المادية لظهور الإسلام؟ وأقول نعم، ما دام الباحث لا يلزم نفسه بأكثر من البحث عن هذه العوامل. ففرق بين البحث عنها والاعتقاد بأنها لا بد أن تكون موجودة وراء كل ظاهرة تاريخية. فليبحث المؤرخ غير المسلم عن هذه العوامل ثم ليقل بعد البحث – إن كان منصفاً – إنه لم يجد لها أثراً، ولعل هذا أن يدله على أنه أمام ظاهرة لا كالظواهر التي ألفها.

ولا يكتفي واط ببيان هذا المنهج الذي يراه صحيحاً ومنصفاً بل ينتقد المناهج التي درج على سلوكها الغربيون الذين كتبوا عن الرسول ﷺ فيقول: «منذ محاضرة كارلايل عن محمد في كتابه (الأبطال وعبادة الأبطال) أدرك الغرب أن الاعتقاد في خلاص محمد تسنده حجة قوية، فاستعداده لأن يتحمل الأذى في سبيل معتقداته، والمستوى الأخلاقي الرفيع الذي اتصف به الرجال الذين آمنوا به اتخذوه إماماً، وعظمة المنجزات التي انتهى إليها. كل هذا ينم عن استقامته والافتراض بأن محمداً كان مدعياً يثير مشاكل أكثر مما يحلها. أضف إلى ذلك أنه لا أحد من الشخصيات التاريخية الكبيرة يقدر في الغرب تقديراً أدنى مما يقدر به محمد».

«إن الكتاب الغربين يجنحون في معظم الأحيان إلى تصديق أسوأ ما يقال عن محمد، وحيثما كان التفسير السَّيئ لعمل من أعماله تفسيراً مقبولاً في الظاهر اعتبروه كذلك في الواقع. ولذلك يجب علينا إلا نكتفي بنسبة محمد إلى الأمانة واستقامة الغاية إذا كنا نريد ولو قليلاً من فهمه».

«وإذا كنا نريد تصحيح الأخطاء التي ورثناها من الماضي فينبغي أن نستمسك عند كل قضية بالاعتقاد بإخلاصه حتى يتبين لنا العكس بحجة قاطعة. وينبغي أن نتذكر أن الحجة القاطعة مطلب أصرم من الحجة التي تبدو في الظاهر معقولة، وأنها لا تنال في مثل هذه الأحوال إلا بعسر»[1].

---

(١) محمد بمكة ص٥٢.

المعالجة والنتائج:

إلى أي مدي التزم واط بهذا المنهج في دراسة لنبوة الرسول ﷺ؟

من مجموع ما يقرّ به واط يمكن أن نقول إن منطقه سار على نحو مما يلي:

(أ) أنا مؤمن بالله ولست مادياً ولا مشركاً.

(ب) واعتقد أن محمداً صادقاً فيما يقول وأمين.

(ت) وأنه ظل محتفظاً بقواه العقلية إلى النهاية، فهو لم يكن إذن مريضاً بصرع أو غيره من الأمراض التي تقدح في قوى الإنسان العقلية.

(ث) ومحمد الصادق الأمين الوافر العقل هذا يقول إنه رسول الله.

(جـ) ويقول إن القرآن وحى أوحاه الله إليه، وأنه إذن ليس من اختراعه ولا جاء نتيجة لتفكيره.

(ح) لكن لا يلزم من صدق الإنسان أن يكون مصيباً فيما يقول بل يمكن أن يكون صادقاً ومع ذلك مخطئاً.

(خ) إذن فمحمد مخطئ في ظنه أن القرآن وحي يأتيه من الخارج بوساطة ملك.

(د) وإذن فالقرآن صدر عن جهة من جهات نفسه وتلك الجهة هي (اللاشعور الجماعي).

ما يقوله واط في الفقرة (ح) صحيح، ولكن صحيح أيضاً أن الرجل المعروف بالصدق إذا قال كلاماً فينبغي أن يصدق إلا إذا قامت شواهد قاطعة تدل على أنه أخطأ. ويمكن حصر هذه الشواهد فيما يلي:

❖ أن يكون ما قاله مخالفاً لصريح المعقول كأن يقول كلاماً متناقضاً.

❖ أن يكون ما يحكيه مخالفاً لأمر حسي مشاهد. أو لأمر يستنتج استنتاجاً عقلياً صحيحاً من الحقائق المشاهدة.

❖ أن يكون مخالفاً لما قرره عدد من الناس في مثل أمانته واطلعوا على ما اطلع عليه فتصديقهم أولى من تصديقه، بل إذا وجد واحد من هذا النوع أوجب الوقوف عن تصديق الأول حتى يترجح صدق أحدهما بأسباب أخرى.

لكن واط لا يذكر شيئاً من هذا صراحة.

لو كان واط ملحداً لقلنا إن سبب تخطئته لمحمد هو اعتقاده بعدم وجود الخالق ولكن واط يقول إنه معترف بوجود الخالق.

فما هي إذن أسبابه في عدم تصديق محمد ﷺ؟

❖ أيقول إن الله موجود لكنه لا يرسل رسلاً ولا ينزل كتباً ولا يوحى إلى مخلوق؟

❖ أم يقول إن الوحي الذي أدعاه محمد مخالف لوحي الأنبياء قبله؟

❖ ام يقول إن الرسالة التي جاء بها لا يمكن أن تكون من عند الله؟

إن واط لا يصرح بشيء من هذا بل يقفز من القول بإمكانية الخطأ إلى افتراض الخطأ ثم إلى اعتقاده.

لقد أوقع الكاتب نفسه في ورطة إذ ادعى الالتزام بمنهج يقوده حتماً إلى نتيجة لا يريد الالتزام بها. ولذلك اضطربت حججه وتلجلج كلامه.

وقد كان بإمكانه أن يختار أحد طرق ثلاثة:

❖ فإما إلا يدعى الالتزام بهذا المنهج الذي ذكره.

❖ أو يلتزم به ويتحاشى الحديث عن نبوة الرسول ﷺ.

❖ أو يلتزم به ويقبل نتيجته فيعلن أن محمداً رسول الله حقاً.

ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك بل ناقض نفسه فادعى منهجاً والتزم عكسه.

وإليك أهم النظريات أو التخرصات التي قال بها والنتائج التي استنتجها منها.

ماذا رأى الرسول في بداية الوحي؟

ترجم الكاتب ما راه الطبري بسنده إلى الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة في كيفية بدء الوحي، وقسم هذه الرواية إلى فقرات أعطى كلاً منها حرفاً ثم نقل ما رواه بالسند نفسه عن فترة الوحي وفعل الشيء نفسه. ولكي تسهل مناقشة الكاتب فقد تابعته في هذا التقسيم والترقيم.

(أ) ... سمعت النعمان بن راشد، يحدث عن الزهري عن عروة عن عائشة أنها قالت كان أول ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، كانت تجيء مثل فلق الصبح.

(ب) ثم حبب إليه الخلاء، فكان بغار حراء يتحدث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ثم يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها، حتى فجأه الحق فأتاه فقال يا محمد أنت رسول الله.

(جـ) قال رسول الله ﷺ: «فجثوت لركبتي وأنا قائم، ثم زحفت ترجف فؤادي، ثم دخلت على خديجة فقلت زملوني زملوني حتى ذهب عني الروع، ثم أتاني فقال: يا محمد أنت رسول الله».

(ح) قال فلقد هممت أن أطرح نفسى من حالق جبل فتبدي لي حين هممت بذلك فقال: يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله.

(خ) ثم قال اقرأ قلت ما أقرأ قال فأخذني فغتنى ثلاث مرات حتى بلغ مني الجهد ثم قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١] فقرأت.

(د) فأتيت خديجة فقلت: لقد أشفقت على نفسي، فأخبرتها خبري فقالت أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً. والله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق.

(ذ) ثم انطلقت بي إلى ورقة بن نوفل بن أسد قالت: اسمع من ابن أخيك، فسألني فأخبرته خبري. فقال هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران، ليتني فيها جذع، ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك. قلت أمخرجي هم؟ قال نعم أنه لم يجيء رجل قط بما جئت به إلا عودي ولئن أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً[(١)].

(ر) ثم كان أول ما نزل من القرآن ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ إلى ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ﴾، و﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾.

(ز) عن الزهري قال فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة، فحزن حزناً شديداً، جعل يغدو إلى رؤوس شواهق الجبال ليتردى منها فكلما أوفي بذروة جبل تبدى له جبريل فيقول إنك نبي الله فيسكن لذلك جأشه وترجع إليه نفسه.

(س) فكان النبي ﷺ يحدث عن ذلك قال: **(فبينما أنا أمشي يوماً إذ رأيت الملك الذي كان يأتيني بحراء، على كرسي بين السماء والأرض، فجثوت منه رعباً فذهبت إلى خديجة فقلت زملوني).**

---

(١) تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الطبعة الرابعة ص٢ ص٢٩٨ إلى ٢٩٩.

(ش) فزملناه – أي دثرناه – فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾.

(ص) قال الزهري فكان أول شيء أنزل عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ حتى بلغ: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

بدأ الكاتب تعليقاته بقوله: «لا توجد أسباب جيدة للشك في المسألة الأساسية للفقرة (أ) وهي أن تجربة محمد النبوية بدأت بالرؤيا الصادقة" وترجم الرؤيا الصادقة بكلمة VISION» ثم قال: «هذا شيء مختلف جداً عن الرؤيا المنامية». وهذا خطا لا شك فيه لأن الرؤيا الصادقة هي الرؤيا المنامية. ومن الأدلة القاطعة علي ذلك ان حديث الطبري هذا رواه البخاري أيضا في أول صحيحه فقال: (حدثنا يحيي بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا لصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح).

ثم يقول : «إن الرؤي VISIONS ذكرت أيضاً في الفقرات (ب) و(س)» أما الفقرة (ب) فتقول: «حتى فجأه الحق فأتاه فقال يا محمد... الخ» وأما الفقرة (س) ففيها: «إذ رأيت الملك الذي كان يأتيني بحراء».

والحديث هنا عن رؤية عين حقيقية ثم يقول إن العبارة المذكورة في الفقرة (أ) تؤيد ما نستفيده من سورة النجم وما يمكن أن نستنتجه من كلمات لمحمد صلى الله عليه وسلم، ثم يذكر آيات النجم التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١-٢، ١٨].

ثم يقول: «إن تفسير المسلمين المعتاد لهذا هو أن الرؤى المذكورة هنا هي رؤية النبي لجبريل. ولكنْ هناك أسباب تدعو للقول بأن محمداً فسر في بداية ما رآه بأنه الله»[2].

(١) تاريخ الطبري، مصدر سابق، ص٣٠٥-٣٠٦.

(٢) تاريخ الطبري، مصدر سابق، ص٣٠٥-٣٠٦..

وهذا الأسباب هي:

(أ) أنه لم يرد ذكر لجبريل في القرآن إلا في العهد المدني.

(ب) أنه الذي يدل عليه السياق، إذ بغيره تكون العبارة ركيكة.

(ت) وأن عبارة "فجأه الحق" في الفقرة (ب) تؤيد ذلك إذ إن "الحق" أحد الطرق التي يشار بها إلى الله.

(ث) وأن عبارة " ثم أتاني فقال: في الفقرة (ت) يمكن حملها على هذا المعنى.

(ج) وفي بعض روايات حديث الطبري عن جابر عن سورة المدثر لا يقول محمد أكثر من: (سمعت صوتاً يناديني فنظرت حولي فلم أر أحداً فرفعت رأسي فإذا هو جالس على العرش)[1].

نناقش الكاتب دعاواه هذه فنقول:

أولاً: إنه خلط بين ثلاثة أمور هي الرؤى المنامية التي سبقت الوحي، ورؤيا جبريل وهو ينزل بإقرأ، ورؤيا جبريل على صورته الحقيقية. فزعم أن الرؤيا الصادقة ليست رؤيا منام، ثم فسر هذه الرؤيا بأنها المشار إليها في سورة النجم، ثم زعم أن المقصورد بما رآه محمد هو الله تعالى، ثم ذهب يتمحمل لذلك بعض الأسباب.

فذكر أولاً أن جبريل لم يذكر في السور المكية، وهو يعني بالطبع أن كلمة جبريل لم ترد في هذه السور، وإلا فهو يعلم أنه وردت في هذه السور ضمائر وأوصاف يقول المسلمون إن المقصود بها جبريل، ولكنه لا يريد أن يتابعهم في ذلك بل يتابع كارل آرنز الذي يقول أن عبارة: ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ المذكورة في سورة التكوير كانت في أول الأمر مطابقة لكلمة "الروح" وذلك لأن جبريل لا يذكر في السور المكية دائما تذكر الملائكة بصيغة الجمع فقط كما في الآية: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]، والآية: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، ويرى أنّ كلام آرنز هذا يوافق رأيه في أن المقصود بالرؤية رؤية الله.

ولست أدري أسوء فهم هذا أم سوء قصد أم كلاهما!

---

(١) المصدر نفسه، ص٤٢-٤٣.

نعم إن الرسول هو الروح، والروح ملك، وهو جبريل. وقول الله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ لا يفهم منه أن الروح شيء غير الملائكة بل هو من ذكر الخاص بعد العام وهو أسلوب عربي معروف له أمثلة كثيرة في كتاب الله تعالى.

إن واط وآرنز يريدان من قرائهما أن يفهما من كلمة (الروح) ما تفهم النصارى من هذه الكلمة، يريد أن يقولا عن الروح هو الله ولكن هذا المعنى تأباه اللغة العربية ويأباه سياق الآيات القرآنية. إن المعني اللغوي لكلمة الروح هو ما به تكون الحياة، ولذلك جعل اسما لما تحصل به الحياة البدنية وهو روح الإنسان ولما تحصل به الحياة المعنوية وهو القرآن وسمي عيسى روحاً لأنه كان يحيي الموتى بإذن الله. وسمى جبريل روحاً لأنه كان يأتي بالقرآن أما الآيات القرآنية فلم يرد فيها الروح اسماً من أسماء الله تعالى أو وصفاً له سبحانه وإنما ورد بالمعاني التي ذكرناها آنفاً. ومما يدل على أن المقصود بالروح جبريل أن الله تعالى يقول: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ ويقول: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]، فالروح الأمين هو الرسول الكريم، والله سبحانه وتعالى ليس رسولاً وإنما هو مرسل، والمرسل إليه محمد فماذا يكون الرسول إذن إن لم يكن ملكا؟ أما قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ فهي كما قدمت من ذكر الخاص بعد العام وهي كقوله تعالى ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، والضمير في (إليه) راجع إلى الله سبحانه وتعالى فهل يقول عاقل إن الله يعرج مع الملائكة إلى نفسه؟

ثم لنفرض أنه لم يرد ذكر لجبريل في السور المكية فكيف يكون هذا دليلاً على أن ما رآه محمد ﷺ في بدء الوحي لم يكن جبريل إذا كان محمد نفسه يقول أن ما رآه كان جبريل؟ إن هذا لا يكون حجة إلا لإنسان لا يعتمد إلا ما جاء في القرآن الكريم وسلوك واط لا يدل على أنه كذلك.

أو إنسان يشك في صحه الرواية من جهة السند وواط يقول إنه لا فائدة من مناقشة السند[1].

---

(١) تاريخ الطبري، مصدر سابق، ص٤٢-٤٣.

أو إنسان يرى أن الرواية تناقض ما جاء في القرآن الكريم وواط لم يعطنا دليلاً على ذلك، وإذا أراد واط أن يساير هذا المنطلق فليقل إن الرجل الذي أوحي إليه بمكة لم يكن محمداً، لأن اسم محمد لم يذكر في السور المكية.

❖ ننتقل الآن إلى حجته الثانية وهي زعمه أن سياق آيات سورة النجم يدل على أن المرئي هو الله تعالى. فهو يقول أن كلمة (عبده) الواردة في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، لابد أن تعني (عبدالله)، والمسلمون متفقون على ذلك. ثم يقول: «ولكن هذا يجعل التركيب ركيكاً إلا إذا جعلنا (الله) هو الفاعل المضمر للأفعال[(١)]. لعل واط فهم من الرأي الإسلامي الذي ينتقده أن جبريل هو فاعل (أوحى) الأولى و(أوحى) الثانية: وأن المقصود بالعبد هو محمد ﷺ فيكون المعنى على هذا الفهم. «فأوحى جبريل إلى عبده محمد ما أوحى جبريل»، وهو كلام ركيك فعلا بل باطل. ولكن الذي نجده في كتب التفسير هو أن المعنى فأوحى الله تعالى إلى عبده جبريل ما أوحى جبريل إلى محمد ﷺ.

❖ أما حجته الثالثة وهي أن عبارة «حتى فجأه الحق فأتاه فقال...» مشابهة في المعني لآيات النجم لأن كلمة الحق يقصد بها الله فقريب من الصواب لأن الذي فجأ الرسول ﷺ في الغاز هو الملك كما أن الذي دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى هو ايضا جبريل، غير أنه في حالتي سورة النجم جاء في صورته الحقيقية فسد الأفق. وأما قوله أن الحق يقصد به الله فصحيح أيضاً بمعني أن الحق اسم من أسمائة تعالى ولكن كلمة الحق يوصف بها غيره سبحانه بل إن كل حق يوصف بأنه الحق كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢]، وقوله: ﴿قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١].

والمقصود بالحق في هذا الحديث الحق الذي جاء به الملك وهو القرآن الكريم أو هو البشارة بأنه رسول الله ويؤيد هذا التفسير رواية البخاري التي تقول «حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك»[(٢)].

---

(١) تاريخ الطبري، مصدر سابق، ص٤٢.

(٢) فتح الباري كتاب بدء الوحي ١: ٣ص٢٢ وفي كتاب التفسير ٦٥: ٩٦ حتى فجأه الحق وهو في غار حراء فجأه الملك، (فرواية الطبري ينبغي أن تفهمه في ضوء هذه الروايات).

قال ابن حجر: (حتى جاءه الحق) أي الأمر الحق»، وقال: « وسمي حقاً لأنه وحي من الله تعالى»[1].

❖ وشبهته الرابعة هي أن الفقرة (ج) يمكن حملها على المعنى نفسه لأن ألفاظها تقول فقط : (ثم أتاني) فقال : يعني أن فاعل "أتاني" هو الله سبحانه وتعالى، والذي حمله على هذا التأويل المستكره للعبارة أنه قسم حديث عائشة وهو سياق واحد إلى فقرات ثم عدّ كل فقرة منها رواية مستقلة عن الأخرى[2].

والحق أن السياق واحد وأن فاعل (أتاني) هو فاعل (أتاه) في الفقرة السابقة فإذا استمسكنا بالفهم الصحيح قلنا إنه الملك، وإذا سايرنا واط قلنا إنه الله وإذن فليس في هذه الفقرة شبهة جديدة يتعلق بها الكاتب.

❖ أما شبهته الخامسة فهي مثال عجيب للبعد عن المنهج العلمي، إن المنهج العلمي يقتضي أن يجمع الإنسان الروايات الخاصة بموضوعه ثم ينظر فيها فيختار أصحها سنداً ومتناً، ثم يجمع بين ما جاء فيها ما أمكنه ذلك لأن الروايات في الغالب يكمل بعضها بعضاً، وتعطي الذي يجمع بينها صورة أكمل مما تعطيه كل واحدة منها منفردة، أما الذي لا يكون مقصده الحق، بل مقصده أن يحرف الحق حتى يوافق هوى في نفسه، فإنه لا يفعل شيئا من هذا، بل ينظر في الروايات المختلفة ويتخير منها ما يراه أقرب إلى موافقة هواه، ولذلك يكون أمره مضطرباً، فمرة يأخذ من الطبري ويدع ابن هشام والبخاري، وأخرى يأخذ من البخاري ويدع الطبري وهو بين يديه، وثالثة يختار من البخاري رواية ويترك أخرى، وهكذا فعل واط فهو لكي يناقش مسألة بدء الوحي أخذ بروايات الطبري وترك ابن هشام، وعلل ذلك بأن روايات الزهري تمتاز بأنها لم تعد كتابتها كما أعيدت كتابة روايات ابن هشام لتعطي سياقاً سلساً وإنما تجمع قطعا من مصادر أولية كما وصلت إلى الزهري[3].

والحقيقة فيما يبدو أنه إنما اختار روايات الزهري التي في الطبري لأنه لا ذكر في أولها للملك، والدليل على ذلك أنه ترك رواياته التي في صحيح البخاري وغيره والتي فيها ذكر الملك، ثم عندما ذهب البخاري أخذ حديثاً رواه عن غير الزهري عن أبي

---

(١) فتح الباري، مصدر سابق، ص١، ص٢٣.

(٢) محمد بمكة، ص٤٠.

(٣) المصدر نفسه.

سلمة عن جابر وترك أحاديث كثيرة رواها بسنده عن الزهري عن أبي سلمة عن جابر، وذلك لأن أحاديث الزهري هناك فيها ذكر الملك فمنها حديث يقول: «بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض»[١].

وحتى هذا الحديث الذي ليس فيه ذكر الملك أساء ترجمته - إما هو أو شيخه بل الذي أخذ الحديث عنه - فجعله أكثر موافقة لغرضه فقد ترجم الحديث Dell كالآتي:

Iheard a voice calling me, and I looked all around but could see no one, then I looked above my head and there he was sitting upon the throne[٢].

وترجمة هذه الترجمة هي: «سمعت صوتاً يناديني فنظرت حولي فلم أرأحداً ثم نظرت فوق رأسي فإذا هو هنالك جالس على العرش».

والمرجع الذي يعطينا إياه لهذا الحديث هو البخاري الكتاب ٦٥ الرقم ٧٤ وبالرجوع إلى فتح الباري نجد الأحاديث الآتية في هذا الكتاب وتحت هذا الرقم: حدثنا رسول الله ﷺ قال: (**جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أرشيئاً ونظرت عن شمالي فلم أرشيئاً ونظرت خلفي فلم أرشيئاً فرفعت رأسي فرأيت شيئاً**)[٣].

قال رسول الله ﷺ: (**جاورت في حراء فلما قضيت جواري هبطت فاستبطنت الوادي فنوديت، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض**).

ثم حديث الزهري الذي نقلته آنفاً ثم حديث له آخر وفي كليهما ورد ذكر الملك فترجمته كلها ليست دقيقة، ولكن أهم تحريف فيها هو قوله: «فإذا هو هناك جالس على العرش» فجعل العرش عرشاً معرفاً معهوداً وبذلك جعله أقرب إلى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، بينما الرواية تقول: (على عرش) بالتنكير، وتصف العرش بأنه «بين السماء والأرض» وعرش الله تعالى لا يكون بين السماء

---

(١) فتح الباري، كتاب بدء الوحي (١)، ٤.

(٢) محمد بمكة، ص٤٣.

(٣) فتح الباري، كتاب بدء الوحي (٦٥)، ٤٩٢٤.

والأرض وإنما هو أعظم مخلوقاته وخارج أرضه وسماواته. والعرش الذي ذكر في هذه الرواية هو الكرسي المذكور في غيرها من الروايات.

وقد يتساءل القارئ الآن لماذا أصر الكاتب المستشرق كل هذا الاصرار على أن محمداً ﷺ فهم أولا أن الذي رآه في بدء الوحي كان الله تعالى ولماذا أطلت في الرد عليه سترى الآن.

يقول الكاتب إنه إذا كان من الممكن جدا أن يكون ما ذكره هو تفسير محمد الأول فإنه لا يمكن أن يكون تفسيره الأخير وأن هذا التفسير يتناقض مع آيه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ثم يقول إن سورة النجم تحتمل تفسيراً آخر هو أن ما رآه محمد إنما كان رمزاً لعظمة الله وجلاله لأن عبارة ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨] لا تنطبق في العادة على رؤيا مباشرة لله وأن الآية ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١] التي ربما أضيفت مؤخراً- هكذا يزعم واط – توحي بتطور آخر لهذه النظرية؛ أي أنه بينما رأت العينان الآية والرمز فإن القلب رأى المرموز. فإذا كان محمد قد فسر أولا ما رآه أنه رؤيا مباشرة لله فهذا يعني على الرغم من أن تفسيره هذا لم يكن عين الصواب، فإنه في جوهره لم يكن خطأ ربما كان من الأفضل إذن أن نترجم الآية: «أن القلب لم يخطئ بالنسبة لما رآه الرجل» بهذه الطريقة نتجنب القول بأن الرؤيا لجبريل وهذا يجعلها غير تاريخية ونتجنب مناقضة الرأي الإسلامي التقليدي بأن محمداً لم ير ربه[1].

فالكاتب لا يريد إذن أن يقول إن محمداً رأى جبريل لأن هذا يجعلها رؤية غير تاريخية، ماذا يعني هذا ؟ أيعني أن واط لا يعدّ من التاريخ إلا ما كان أمراً حسيا؟ ألم يقل لنا في بيان منهجه أنه مؤمن وليس مادياً؟ فما الذي حدث الآن؟ الواقع أن واط كثير غيره من المستشرقين لا يتحدث عن الإسلام وينتقده إلا وهو ملتحف برداء العلمانية والمادية.

❖ قد تقول فلماذا إذن اختار أن يكون ما رآه محمد هو الله فهذا اكثر بعداً في نظر العلماني؟ وأقول اختاره لسبب جوهري هو التشكيك في أن القرآن وحي من الله وذلك بعدة وسائل منها:

---

(١) محمد بمكة ص٤٣.

أولا: أن كل عاقل يفهم أن الله تعالى لا يرى عياناً في هذه الحياه الدنيا فإذا كان محمد قد ظن أن، ما رآه كان الله فهذا يجعل رؤياه من قبيل "الهلوسة" والوهم والخيال.

ثانيا: أن محمداً يكون متناقضاً في كلامه فهو يقول أولا إنه رأى الله ثم يقول أخيراً ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

ثالثا: أن محمداً عندما لا حظ خطأه اعتذار عنه بإضافة آيه: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١].

رابعا: أن محمداً لم يكن يعرف أن الله لا يرى وإنما تعلم ذلك من أهل الكتاب فيما بعد ولذلك غير رأيه وقال إنه رأى جبريل[1].

هل ذهب محمد إلى حراء ولماذا؟

هل ذهب الرسول إلى حراء فعلاً؟ يقول واط: «انه ليس من غير المحتمل أن يكون قد ذهب. حسناً».

ولماذا ذهب؟ يقول ربما كانت هذه طريقة لتفادى حر مكة للذين لا يملكون القدرة على الذهب إلى الطائف! ثم يقول في السطر الذى يلى ذلك:

«أن الحاجة إلى العزلة واستحسانها يمكن أن يدل عليه الأثر اليهودي النصراني – كمثل الرهبان – أو أن يكون نتيجة تجربة شخصية قصيرة»[2].

وقبل أن يبين لنا أي هذين الدافعين المتباينين يرجح فإن واط ينتقل إلى الحديث عن موضوع التحنث، وذلك لأنه لا يكتب ليصل إلى حقيقة وإنما ليثير شكوكاً فحسب. إن كل المصادر التي أمامه وكل ما يعلم من سيرة الرسول يدله على أنه إنما كان يذهب للعبادة، وأن هذا النوع من الانقطاع للعبادة بحراء كان مما تحنث به قريش في الجاهلية، فما الداعي لذكر احتمال الذهاب تفاديًا للحر؟ ولماذا لم يكلف واط نفسه بالسؤال عن الطقس في جبل حراء أمختلف هو عن سائر مكة أم لا ؟ ولماذا لم يسأل نفسه عن مساحة هذا الجبل الذي جعله مصيفا للفقراء الذين لا يستطيعون الذهاب إلى الطائف

---

(١) محمد نبياً ورجل دولة ص١٥.

(٢) محمد بمكة ص٤٤.

وأين يجلس هؤلاء الفقراء المصطافون أتتخذ كل أسرة منهم لنفسها غاراً كما فعل النبي ﷺ أم ينصبون الخيام على سطح الجبل؟ ولماذا هذا الجبل بالذات ومكة كلها جبال؟ ولكنه سوء القصد يجعل الإنسان يرمي الكلام على عواهنه بغير علم ولا رَوِيَّة.

واين الدليل بل أين الشبهة التي تجعل الإنسان يقول إن طلب العزلة كان نتيجة لأثر يهودي نصراني رهباني.

فيم كان يفكر محمد قبل أن يوحى إليه؟

لا يجد الكاتب مادة تاريخية يعتمد عليها فيما يريد أن يقول هنا ، إنه يريد أن يقول إن محمدًا ﷺ كان متهيئا نفسياً لأن يكون نبياً لأن هذا سيساعده في نظريته التي سنتعرض لها فيما بعد ، وإذا كانت المادة التاريخية لا تسعفه بل تشهد بعكس ما يريد فلا عليه إذن من أن يفترض فروضاً تساير نظريته يقول الكاتب: لا بد أن محمداً كان واعياً منذ وقت مبكر من عمره بمشاكل مكة الاجتماعية والدينية. وكونه يتيماً جعله بلا شك أكثر إدراكاً للعلة الموجودة في المجتمع. أما نظرته الدينية فالمحتمل أنها كانت نوعاً من التوحيد الغامض الموجود بين أكثر المكيين استنارة ولكن لابد أنه كان بالإضافة إلى ذلك يبحث عن نوع من الاصلاح في مكة وكل الأشياء في بيئته ستجتمع لتقترح أن هذا الاصلاح لا بد أن يكون دينياً. بهذه الحالة العقلية تعمد محمد فيما يبدو البحث عن العزلة ليفكر في مسائل الهية ويقوم ببعض العبادات ربما للتكفير عن الذنوب[1]".

محمد إذن كان موحداً يريد القيام بإصلاح وكان يريد لهذا الاصلاح أن يكون دينياً أي مبنياً على التوحيد ، وتعمد البحث عن العزلة ليفكر في هذه الأمور. لقد كاد واط أن يقول لنا أن محمداً كان يبحث عن سبب يبرر به رغبة كامنة في نفسه أن يكون نبياً يدعو للتوحيد. والله يقول: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦] وصدق الله العظيم.

من الذي قال لمحمد أنت رسول الله؟

يقول الكاتب إن عبارة" أنت رسول الله" وردت أربع مرات في المقاطع التي رويت عن الزهري هي الفقرات (ب) و (ج) و (د) و (ط) المتحدث في الأخيرتين منها هو جبريل وفي

---

(١) محمد بمكة ص٤٤.

الأولى (الحق) وفي الثانية (هو) هل هذه روايات مختلفة لحادثة واحدة أخذت لسبب أو آخر سمات مختلفة[١].

لا يجيب واط هذا السؤال الذي ألقاه. والجواب عليه سهل يدل عليه السياق نفسه فالزهري يروي عن عروة عن عائشة قصة واحدة ذات حوادث مختلفة فالرسول ﷺ كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ومما رآه في هذا الطور قصته مع جبريل قبل أن تقع[٢]، ثم حدث في الواقع ما رأى في المنام فجاءه جبريل فقال اقرأ.... ثم ذهب إلى خديجة وهنالك رأى جبريل مرة ثانية، ثم إنه كلما هم أن يلقي نفسه من حالق جبل تبدى له جبريل وقال يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله.

بعد أن ألقى سؤاله ذهب ليكررما قاله آنفاً من أن ذكر جبريل في هذا الوقت المبكر أمر مريب لأنه لم يذكر في القرآن إلا بعد مدة طويلة، ثم ذهب ليربط بين ما جاء في الفقرة(ب) وما جاء في آيات سورة النجم، فهو يظن أن سورة النجم تتحدث عن أول مرة رأى فيها محمد من أوحى إليه، ولكن سياق الآيات كما يقول الكاتب: «يدل على أنه قد سبقها وحي، وإذن فهذا الوحي الذي سبقها لم يكن مرتبطاً برؤية، وإذن فالنتيجة العملية للرؤية تكون فيما يبدو شيئاً عاماً كالاعتقاد بأن هذه المقاطع رسائل من الله وأن المطلوب من محمد أن يعلنها. وهذا يفترض أن محمداً كان قد تلقي وحياً قبل هذا ولكن لم يكن متأكداً من الطبيعة الحقيقة للكلمات التي جاءته وأما الآن فقد جاءه يطمئنه عنها. أو يمكن أن نعد الرؤية دعوة لمحمد بأن يتطلب الوحي وربما يكون محمد قد علم شيئاً عن طرق استحداثه»[٣].

أرأيت هذا الهراء؟

يعترف الكاتب بأن سياق الآيات يدل على أنه قد سبقها وحي، وأن النبي ﷺ أعلن ما أوحي به إليه، ولقي معارضة من قومة، ثم يقول إن محمداً لم يكن متأكداً

---

(١) المصدر نفسه ص٤٥.

(٢) وقد جاء مصرحاً بذلك في مغازي موسى بن عقبة عن الزهري أنه رأى ذلك في المنام ثم جاءه الملك في اليقظة (السيرة النبوية) لابن كثير تحقيق مصطفي عبدالواحد جـ١ ص٣٨٧ عيسى البابي الحلبي القاهرة ١٣٨٤هـ -١٩٦٤م.

(٣) محمد بمكة، ص٤٥.

من طبيعة الكلمات التي أوحيت إليه. ومن هذه الكلمات بالطبع كلمات سورة اقرأ وسورة المدثر على أقل تقدير، فهل كان النبي جاهلاً أو شاكاً في معاني هذه الكلمات التي بلغها للناس؟ وأعلن بها أنه رسول الله، وآمن بها معه عدد منهم وصدقوا بأنه رسول الله؟

وأما القول بأن الرؤية ربما كانت دعوة لاستدعاء الوحي فهو أكثر من هراء من أين جاءت هذه الدعوة؟ أمن مجرد الرؤية؟ أم من الكلمات التي صاحبتها؟، وأما الرؤية وحدها فلا تكون دعوة لاستدعاء الوحي، وأما الكلمات التي صاحبتها فأين هي؟ أهي آيات سورة النجم ؟ فليس في هذه الآيات من ذلك شيء، أم هي وحي آخر لم يأت في قرآن ولا في حديث للرسول؟ فكيف إذن عرفه المستشرق واط؟

وأما حكاية استدعاء الوحي أو استحداثه Inducing التي كررها الكاتب في أكثر من موضوع من كتبه فسنتحدث عنها فيما بعد.

نرجع الآن إل سؤالنا: من الذي قال لمحمد أنت رسول الله؟

إجابة واط هنا واضحة جداً فهو يقول مستعملاً عبارات أخذها عن كاتب آخر.

من المحتمل أن الكلمات" أنت رسول الله" لم تكن عبارة خارجية Exterior Locution وربما لم تكن حتى عبارة تخيليه Imaginative Locution وإنما كانت عبارة عقلية Intellectual Locution أي إنه لم يسمع بأذنه ولا حتى تخيل نفسه يسمع ولكن هذه الكلمات صياغة لخطاب جاءه من غير كلمات. وربما كانت هذه الصياغة متأخرة جداً عن الرؤيا الحقيقية[1].

يشرح لنا واط معنى هذه المصطلحات نقلا عن الكاتب الذي أخذها عنه فيقول إن الرؤى Visions والعبارات Locutions تنقسم إلى خارجية وداخليه فالعبارات الخارجية هي التي تسمعها الأذن من مصدر غير طبيعي، وكذلك الرؤى الخارجية هي صورة شيء مادي – أو شيء يبدو كذلك – تراه العين العادية فالرؤى في سورة النجم رؤى خارجية. والرؤى الداخلية تنقسم إلى تخيلية وعقلية فالأولى تستقبل مباشرة من غير الاستعانة بالأذن ويمكن القول بأنها تستقبل بالحس التخيلي. وأما الثانية فهي خطاب بلا كلمات – وعليه فبلا لغة معينة – وبمثل ذلك تنقسم الرؤى الداخلية[2].

---

(١) محمد بمكة، ص٤٥-٤٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٤.

مرة أخرى: من الذي قال لمحمد أنت رسول الله؟ حاصل جواب واط الذي قدمناه أن هذه الكلمات لم تأت محمداً من الخارج فهي إذن ليست من الله ولا من جبريل وأنا جاءته من داخل نفسه. وحتى حين جاءت من نفسه لم تأته في صورة كلمات تخيل انه سمعها وإنما هي فكرة أحس بها من غير كلمات، ثم جاءت الكلمات المعبرة عنها فيها بعد، ومع ذلك يقول لنا الكاتب في أول كتابه إنه سيجامل المسلمين، وإنه لن يقول شيئاً يتعارض مع معتقداتهم الأساسية، وإنه يكتب باعتباره مؤرخاً محايداً بالنسبة للمسائل الدينية!

ثم يزيدنا علماً بطبيعة الوحي الذى عاناه رسول الله ﷺ فيقول: «من الطبيعي أن نفترض أن محمداً كان يتذكر رؤياه الأولى في أوقات اليأس. ربما انقدحت ذكراها في عقله في لحظات حرجة فعزا ذلك إلى عامل علوي»[1].

ما معنى ما أنا بقارئ؟

يقول الكاتب عبارة.... (ما أقرأ؟) التي رد بها محمد عل قوله الملك (اقرأ) ينبغي ترجمتها I can not read (or recite) لا أستطيع أن أقرأ (أو أتلو). وهذا توضحه رواية" ما أنا بقارئ I am not a reader (or reciter) أو يوضحه التمييز في ابن هشام بين(ما أقرأ) و (ماذا أقرا) فالعبارة الثانية لا يمكن أن تعني إلا What shall I recite? وهذا الأخير هو المعنى الطبيعي لـ(ما أقرأ)[2].

هل المقصود بالقراءة شيء مكتوب أم المقصود بها ترديد كلمات وتلاوتها من غير نظر في شيء مكتوب؟

نرجع إلى ابن هشام الذى فرق كما قال الكاتب بين (ما أقرأ) و (ماذا أقرأ) لنرى روايته تقول: «..... قال رسول الله ﷺ: (فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ قال: (قلت : ما أقرأ .....).

واضح من الرواية إذن أن المقصود قراءة شيء مكتوب معنى (ما أقرأ) (لا أعرف القراءة) ونستمر مع الرواية: (قال: فغتني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ.

---

(١) محمد بمكة، ص٤٦.

(٢) المصدر نفسه.

قال: قلت ماذا أقرأ؟ قال: فغتنى به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قال فقلت : ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي. فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾)[1].

فالرسول ﷺ بحسب هذه الرواية قال للملك أولا بأنه لا يعرف القراءة فلما غته قال له ماذا تريدني أن اقرأ وفسر ذلك ﷺ بأنه إنما قاله افتداء منه أن يعد له بمثل ما صنع به، فإذا كان واط يريد الاعتماد على رواية ابن هشام فلا شك أن القراءة فيها تعني قراءة شيء مكتوب ولا تعنى التلاوة، ويؤيد هذا الرواية الأخرى التي ذكرها وهي: **(ما أنا بقارئ)** إذ لا يمكن أن يكون معناها أنا لا أعرف القراءة بمعنى تلاوة شيء غير مكتوب، لأنه وكل إنسان ليس في لسانه عاهة يعرف ذلك. فإذا قيل للإنسان الذي يعرف القراءة بمعنى التلاوة" اتل" فإنه لا يقول أنا لا أعرف القراءة، وانما يقول ماذا أتلو؟ فيكون السؤال هنا سؤال استفهام عن الشيء المراد تلاوته ولا يكون نفياً للمقدرة على التلاوة.

وقد ناقض الكاتب نفسه فقال أولا إن (ما أقرأ) ينبغي أن تترجم I con not read or recite ثم قال أخيراً أن هذا الثاني (يعني ماذا أقرأ What shall I recite) هو المعني لـ(ما أقرأ) فجعل (ما) في البداية نافية للقراءة وجعلها في النهاية استفهاماً عن القراءة.

وقد قال بعض العلماء استناداً علي رواية: **(ما أنا بقارئ)** وهي رواية صحيحة، إن (ما) ليست استفهاميه، قال ابن كثير " فالصحيح أن قوله: **(ما أنا بقارئ)** نفي، أي لست ممن يحسن القراءة. وممن رجحه النووي وقبله الشيخ أبو شامه. ومن قال إنها استفهاميه فقوله بعيد لأن الباء لا تزيد في الاثبات[2].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام تحقيق مصطفي السقا وآخرين جـ١ ص٢٥٢-٢٥٣ إحياء التراث العربي، بيروت ١٣٩١هـ-١٩٧١م.

(٢) السيرة النبوية، لابن كثير، ج١، ص٣٩٣.

ثم يقول: «يكاد يكون من المؤكد أن رواة الأحاديث المتأخرين تحاشوا المعنى الطبيعي لهذه الكلمات لكي يجدوا فيها ما يسند الاعتقاد أن محمداً لم يكن قرأ وقد كان ذلك جزءاً هاما من البرهان على إعجاز القرآن»[1].

كيف تحاشوا هذا المعنى الطبيعي؟ هل حرفوا الروايات؟ إن واط لا يقول هذا، لأنه يعترف على الأقل بالنسبة للزهري أنه روى ما وصله كما وصله.

أم يعنى أنهم قالوا إن هذا هو المعنى المستقيم الذي يدل عليه السياق وتدل عليه اللغة؟ فإذا كان واط لا يجيز لرواة الأحاديث والأخبار أن يفعلوا هذا فكيف أجازه لنفسه؟ ثم كيف يكون القول بأمية الرسول من اختراع الرواة المتأخرين والقرآن يقول: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

لكن الكاتب يكشف لنا عن دافعه الحقيقي في عدم الأخذ بالمعنى الذي ذكره العلماء المسلمون؛ إذ يقول في كتاب آخر: «إن الإسلام التقليدي يقول بأن محمداً لم يكن يقرأ ولا يكتب. ولكن هذا الزعم مما يرتاب فيه الباحث الغربي الحديث، لأنه يقال لتأكيد الاعتقاد بأن إخراجه للقرآن كان معجزاً وبالعكس لقد كان كثير من المكيين يقرؤون ويكتبون، ولذلك يفترض أن تاجراً ناجحاً كمحمد لابد أن يكون قد عرف شيئاً من هذه الفنون»[2].

إن واط يخلط بين الارتياب والرفض. نعم للباحث - غربياً كان أم شرقياً حديثاً أم قديماً - أن يرتاب في ما يدعيه خصمه تأييداً لدعواه. ولكن هذا الارتياب ينبغي أن يكون عند الباحث المنصف خطوات أولى تدعوه للتثبت في الأمر، فإن وجده كما قال خصمه قبله حتى ولو كان فيه تأييد لأمر كان ينكره وإن وجده غير ذلك عده تأييداً لدعواه هو، أما أن يرفض كل ما يدعيه خصمه مما يؤيد زعمه لمجرد أنه يؤيد هذا الزعم فمسلك لا ينتهجه باحث منصف، لأنه إذا كان يتهم خصمه بأنه إنما قال ما قال لأنه يؤيد دعواه، فسيقول له الخصم وأنت إنما رفضته لأن قبوله يضعف دعواك، وقبلت ضده لأنه يؤيدها.

---

(١) محمد بمكة، ص٤٦.

(٢) محمد نبياً ورجل دولة، ص٣٩-٤٠.

أما افتراضه بضرورة عدم أميه التاجر الناجح فكان بإمكانه أن يتثبت من مدى صحته بالسؤال عن حال التجار الناجحين في بعض بلدان العالم في زمننا هذا ودعك من الزمن الذي عاش فيه الرسول ﷺ وإني لأعرف على الأقل تاجراً واحداً ناجحاً بالنسبة لبلده لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة، ولكنه كان ذا ذاكرة جيدة، ومقدرة حسنه على الحساب فإذا جاز هذا في القرن الرابع عشر الهجري فلماذا لا يجوز قبل الهجرة؟

أما قوله إن أمية محمد ﷺ "جزء هام من البرهان على إعجاز القرآن" فإذا كان يعنى به أن الأمية من مكونات البرهان بحيث أنه لو لم يكن محمد أمياً لكان البرهان على إعجاز القرآن ناقصاً، فقول غير صحيح، وإن كان يعنى به – كما قال في الكتاب الآخر- أنه من الأدلة المؤيدة لإعجازه فهو صحيح. وذلك أن القرآن يقول: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾. [العنكبوت: ٤٨]، فالقرآن لا يقول (إذن لثبت أن القرآن ليس وحياً) وإنما قال: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي لوجد الجاهلون في ذلك شبهة يتمسكون بها. فالأمية دليل مؤيد وليست دليلا ضرورياً، كعدم التناقض – مثلا – الذي قال الله تعالى عنه "أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا" فقرر أن تناسق القرآن دليل ضروري لأن الاختلاف لو وجد لدل على أنه من عند غير الله.

وبعد هذا كله يقول لنا الكاتب إنه «قد يكون معنى (اقرأ) هنا (أتل من ذاكرتك) أي مما وقع في ذاكرة بطريقة علوية Supernatual[1]، ويقول إن شكل المادة الانجليزية في القرآن يجعلنا نجزم بأن محمداً لم يقرأ الانجيل Bible ومن غير المحتمل أن يكون قد قرأ أي كتب أخرى»[2].

وإذا لم يكن قد قرأ أي كتاب فهل كتب اي كتاب. بالطبع لا فهذا أكثر استبعاداً، إذن لماذا الاصرار على أن محمداً كان يقرأ ويكتب؟ ماذا استفاد الكاتب

---

(١) محمد بمكة، ص٤٧.

(٢) محمد نبياً ورجل دولة، ص٤٠.

من هذه الدعوى إذا كان حاصل كلامه أن محمدا وإن كان يعرف القراءة والكتابة إلا أنه لم يقرأ كتابا قط ولا خطه بيمينه، إلا يري أن هذه النتيجة التي قاده إليها البحث قسراً تؤيد إعجاز القرآن، ذلك الأمر الذي فرّ منه أولا، ورفض على اساسه قول المسلمين إن محمداً ﷺ كان أمياً؟

قلت: «النتيجة التي قاده إليها بحثه قسراً" لأنه لا حظ أنه إذا قال إن محمداً قرأ الإنجيل واخذ منه مادة ضمنها القرآن، لزمه القول بأن تكون المادة التي في الكتابين متطابقة، ولكنه عرف أنها ليست كذلك فاضطر للقول بأنه لم يقرأ الإنجيل وأن «ما حصل عليه من معرفة عن المفاهيم اليهودية والنصرانية لا بد أن يكون قد حصل عليه شفاها»[1] وهذا تفسير بعيد لأنه إذا كان محمد ﷺ مهتما بالتعاليم اليهودية والنصرانية اهتماماً جعله ينقل عنها - بزغم واط واخوانه المستشرقين - كل هذا القدر الذي نجده في القرآن الكريم، وكان يعرف القراءة والكتابة كما يزعمون، فلماذا لا يقرأ هذه الكتب بنفسه؟ إن الأقرب إلى العقل أن نقول إنه لو لم يعرف القراءة لتعلمها ليقرأ هذه الكتب، ولم يتعلمها لما عدم يهودياً أو نصرانياً يقرؤها عليه وهو يستمع. ولو فعل ذلك لاشتهر عنه كما اشتهر عن غيره، بل لاعترف هو به وهو الرجل الصادق الأمين كما يسلم بذلك واط، ولكان إذن ما في القرآن مطابقاً لما في كتب اليهود والنصارى. ثم إذا كان كل ما في القرآن الكريم مما له ذكر في كتب اليهود والنصارى مأخوذا من تلك الكتب مباشرة أو بالرواية عن أهلها تكون معلومات محمد عن اليهودي والنصرانية حتى قبل مبعثه أكثر من معلومات رجل كورقة بن نوفل. فلماذا إذن تأخذه زوجه الكريمة إليه؟ ولماذا يفترض ورقة ان محمداً لا يعرف شيئاً عن الناموس الذي جاء لموسى، وعما حصل للأنبياء قبله؟ ولماذا يتساءل هو مستغرباً: **(أو مخرجي هم؟)** حين قال له ورقة: «ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك" ومع ذلك يقول لنا واط" هنا الأيسر أن نفترض أن محمداً كثيراً ما كان يتصل بورقة في وقت مبكر وأنه يعلم شيئا كثيراً ذا صفة عامه»[2].

---

(١) محمد نبياً ورجل دولة، ص٤٠.

(٢) محمد بمكة، ص٥١.

كيف كان محمد يتلقى الوحي؟

يقول الكاتب: إنها لحقيقة تاريخية لا ريب فيها أن محمداً كان يميز بين القرآن الذي كان يعتقد أنه آتيه من مصدر علوى وبين ما يصدر عن وعيه المعتاد[1]. وإننا إذا كنا نعده أميناً فلا بد أن تميز بينها. ثم يقول: «أما كيف فليس بالأمر الواضح تمامً»، والأمر في الحقيقة واضح كل الوضوح. لقد كان يقول أن القرآن كلام يأتيه به جبريل من عند الله تعالى فيسمعه منه ويعيه ثم يأمر كتابه بتسجيله ثم يقرئه الناس، وهذا شيء مختلف عن كلامه العادي. إن كلامنا يستطيع التمييز بين كلام سمعه من غيره أو قرأه في كتاب وبين كلامه المعتاد. والأمر بالنسبة للنبي كان أوضح، لأن كلام الله تعالى مختلف عن كلام البشر، بل إن غير النبي من معاصريه ومن جاء بعدهم ممن يحسنون العربية يرون الفرق واضحاً بين القرآن وأحاديث الرسول ﷺ، مع أن معاني هذه الأحاديث وحي من الله تعالى لكن صياغتها من الرسول ﷺ.

يقول الكاتب كما قدمنا أنها محمداً كان يميز هذا التمييز. أما تفسير هذه الحقيقة وكيفية فهمها فشيء آخر. وبما أنه يتضمن مسائل دينية فهو لن يناقشه لكنه يقول إن هنالك نظريات ثلاثا:

فالمسلمون التقليديون يعتقدون أن القرآن كله من مصدر علوى، وأنه كلام الله غير مخلوق.

والعلماني الغربي – إذا ما أراد أن يأخذ في الاعتبار التمييز الذي كان يميزه محمد – يرى أن القرآن صادر عن جانب من شخصية محمد غير جانب عقله الواعي.

والرأي الثالث أن القران عمل إلهى لكن صادر بوساطة شخصية محمد بحيث أن بعض ملامح القرآن يمكن عزوها بصفة أساسية إلى بشريته. وهذا الأخير هو فيما يبدو رأي النصارى الذين يسلمون بوجود حقيقة إلهية في القرآن.

ثم يقول إنه محايد بالنسبة لكل هذه الآراء لأنها مسائل دينية وهو يتحدث في كتابه هذا باعتباره مؤرخاً ولا يريد الخوض في القضايا الدينية. لكنه يرى أن من حق المؤرخ بعد هذا أن يعني بتحديد صورة تجربة الوحي هذه في وعي محمد. كيف بدت

---

(١) كلمة (وعي) تستعمل في التعبير الحديث بمعنى كلمة Consciousness وهي مجموع مشاعر الشخص (أو الجماعة) وأفكاره.

له، وكيف وصفها. فهذه وقائع تاريخية وإن كانت تتعلق بوعي محمد، وإن كان من المحتمل أن وصفه إياها قد تلون بتصوره السابق لهذه الأمور"[١].

فالذي يهم الكاتب هذا الكلام هو الوقائع التاريخية المتعلقة بكيفية الوحي المحمدي ومصدر هذه الحقائق هو بالطبع الرجل الذي خاض هذه التجربة. وهو رجل – حسب اعتراف واط – صادق أمين. وإذن فإذا أردنا معرفتها فما علينا إلا أن نستمع إلى وصف إياها. لكن واط يضيف – كعادته – عبارة تشكيكيه، هي أنه من المحتمل إلا يكون وصف محمد لتجربته وصفاً موضوعياً، بل ربما تأثر في وصفه إياها بتصوراته السابقة لهذه الأمور. أي أمور؟ الافتراض هنا هو بالطبع أن محمداً قد عرف الكثير من مسائل الدين – ومن بينها الوحي- من اليهود والنصارى فمن المحتمل إذن ألا يصف لنا ما حصل له هو، بل ما تصوره بحسب معرفته السابقة أنه ينبغي أن يحدث.

بعد أن حذرنا هذا التحذير يبدأ في مناقشة موضوعه.

فيستبعد أولا الرؤى الموصوفة في سورة النجم باعتبارها أمراً استثنائياً وهو إنما يبحث عن الأمر المعتاد، ثم يشرح لنا مصطلحات "الرؤى" و"العبارات الداخلية" و"الخارجية" التي أخذها عن الكاتب باولين A. Poulain والتى سبق أن قدمناها للقارئ، ثم يدخل في صلب موضوعة وخلاصة ما وصل إليه بعد نظر في الآيات والأحاديث المتعلقة بالوحي وبعد استعانة بنظرية باولين وآراء شيخة بل Bell يمكن وضعها في الفقرات التالية لتسهل مناقشته فيها:

(أ) أن الوحي قد لا يكون خطاباً شفاهياً.

(ب) أنه طيلة الفترة الملكية كان يعدّ مثل هذا الوحي من عمل " الروح".

(جـ) وأن الحديث عن ملك يحمل رسالة كان متأخراً فيما يبدو.

(د) وأنه لا ذكر في العهد الملكي لسماع الرسول لما نزل إليه.

(هـ) وأننا نستطيع إذن نتصور أن الروح كان يأتي بالرسالة إلى قلب محمد بطريق غير طريق المخاطبة.

(و) وأن هذا النوع من الوحى يكون بلا ريب " تعبيراً داخلياً" وربما " عقلياً " لا " تخيلياً" إنه يكن مصحوبا بأية رؤية ولا حتى الرؤية العقلية.

---

(١) محمد بمكة، ص٥٣.

(ز) وأن ذكر " الروح" كان فيما يبدو نظرية لتفسير التجربة لا وصفا لجانب منها.

(ح) وأن " سماع صلصلة الجرس " التي وصف بها النبي ﷺ حالة من حالات الوحي هي بلا شك تجربة تخليلية.

(ط) وأن العلماء المسلمين المتأخرين هم الذين «تبعوا الرأي القائل بأن الرسول كان جبريل، وأن هذه كانت طريقة الوحي المعتادة منذ البداية. لكن العلماء الغربيين تنبهوا إلى أن اسم جبريل لم يذكر إلا في العهد المدني، وأن كثيراً مما في القرآن والسنه يتناقص مع هذا الرأي الإسلامي الشائع، وأن هذا الرأي الإسلامي يفسر ما حدث في الفترة الأولى بمفاهيم متأخرة عنها».

(ي) وأنه ربما كانت طريقة جبريل هذه هي الطريقة المعتادة في العهد المدني والمفترض في هذه الحالة أن يكون الوحي تعبيراً تخيلياً مصحوباً بلا شك برؤية تخيلية أو عقلية لجبريل وعبارة في صورة رجل توحي بأنها تخيلية.

(ك) وأنه من الجهل أن يقال إن رؤى محمد وعباراته كانت هذيانا أو أنه كان مصروعاً وأن كون الرؤى والعبارات –خارجية أم داخلية أم عقلية– ليس معياراً لصدقها وصحتها.

(ل) وأنه من المحتمل أن الوحي كان في البداية يفاجئ محمداً لكن تعلم بعد ذلك طريقة يستجلبه بها. هل كان يضع الدثار لهذا السبب؟ ربما كان "يتسمع" أثناء تلاوته المتأنية للقرآن وربما كانت هذه طريقة لاكتساب الآيات المفقودة في سياق كان يشعر أنه ناقص. تفاصيل هذه المسألة غير معروفة يقيناً، لكن يبدو من المؤكد أنه كانت لمحمد طريقة لتصحيح القرآن وهذا يعني – بالنسبة له – اكتشاف الصيغة الصحيحة لما أوحى إليه في صيغة ناقصة أو غير صائبة. وعلى كل فإن مسألة ما إذا كانت لمحمد طريقة يستجلب بها تجربة الوعى (بالتسمع أو التنويم المغناطيسي الذاتي أو غير ذلك) أمر لا تعلق له بحكم عالم اللاهوت على صحتها[1].

---

(١) محمد بمكة، ص٥٤-٥٨.

فيما يلى نعلق هذه الدعاوى حسب ترتيبها وترقيمها:

(أ) قوله في هذه الفقرة إن الوحي قد يكون بغير كلمات صحيح، لأن أصل الوحي هو الإعلام الخفي وهذا قد يكون بغير كلمات كما في قوله تعالي: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، وقوله تعالى عن النبي يحيى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]، أي أشار وأومأ. وأما القرآن الكريم فإنه وحي بكلمات، سواء القاه الله تعالى في قلب نبيه مباشرة أو كلمه به من وراء حجاب، أو أرسل ملكا يبلغه كلام ربه. وسواء جاء هذا الملك على صورته الحقيقية أو جاء في صورة رجل فكل هذا لا يتنافى لا لغة ولا شرعاً مع الوحي بالكلمات. لكن واط يقول لنا إن شيخة بل Bell قد درس استعمالات كلمة وحي وخرج منها" بأن كلمة وحي لم تكن تعني – في الأجزاء الأولى من القرآن على أيه حال – بلاغاً شفهياً لنص وحي، وإنما كانت تعني" الاقتراح أو الإيعاز أو الإلهام المقصود بـ (الأولى) هنا الأولية بحسب ترتيب نستطيع أن نقول بصفة قاطعة إنه حيثما استعملت كلمة الوحي في شأن الرسول ﷺ فإنها إما تدل صراحة أو من السياق على أن الوحي كان كلاماً، أولا يكون فيها ما يتناقض مع هذا المعنى يستوى في ذلك الآيات المكية والمدينة.

واليك أمثله على ذلك من بعض السور المكية:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣].

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧].

فالآية الأولى تقول أن ما أوحى إلى الرسول هو هذا القرآن الذي بين أيدينا وهو بلا شك كلام.

والآية الثانية أكثر صراحة فهي تأمر الرسول ﷺ أن يتلو ما أوحى إليه، وهل يتلى إلا الكلمات؟ ويسمى هذا الذي أوحى كتاباً وهل يكون الكتاب إلا من كلمات؟ ثم تطلب من الرسول ﷺ أن تكون تلاوته هذه من غير تبديل لكلمات الكتاب وفي الآيات المكية مثل هذا كثير فهل يشك بعد هذا في أن القرآن يدل على أن ما أوحي إلى الرسول كان (كلاماً)؟

(ب) ما قاله في الفقرة صحيح ولكن هذا " الروح " كما بينا من قبل هو جبريل، وهو الذي كان يأتي بالوحي في الفترتين المكية والمدنية.

(جـ) هذا غير صحيح فنحن نقرأ في سورة التكوير وهي مكية ونزلت قبل سورة النجم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢٢] فالرسول الكريم المذكور هنا هو الملك.

(د) إذا كان يعني هنا كلمة "سمع " فإنها لم تسمع في حق الرسول ﷺ لا في السور المكية ولا في السور المدنية. أما إذا كان يعني مقتضاها فإنه موجود في الفترتين. قال تعالى في سورة القيمة وهي مكية: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٩].

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآيات: «هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك. فإنه كان يبادر إلى أخذه ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله عز وجل – إذا جاءه الملك بالوحي – أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه.... ولهذا قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أي بالقرآن كما قال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ثم قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي في صدرك: ﴿قَرَأْنَـٰهُ﴾أي تقرأه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ﴾ أي فإذا تلاه عليك الملك عن الله عز وجل: ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي فاستمع له ثم اقرأه كما أقراك[1]».

(هـ) بينا فيما سبق خطأ هذا القول.

(و) هذا هو الذي يريد واط الوصول إليه من كل تلك المحاولات والتحريفات. إنه يريد أن يقول إن القرآن ليس كلاماً أتي لمحمد من الله أو بوساطة ملك وإنما هو شيء نابع من نفسه وتفكيره وعقله. وقد كان بإمكانه أن يلقي بهذه الدعوى كما ألقى

---

(١) تفسير القرآن العظيم عند تفسير الآيات المذكورة.

بها غيره من غير دراسة لحياة الرسول ﷺ أو اعتماد على القرآن الكريم. ولكن الغريب أنه يريد أن يعتمد على القرآن نفسه لتأييد هذه الدعوى وهيهات.

(ز) أنكر واط الأحاديث التي فيها ذكر لجبريل على أساس أنه لا ذكر لاسم جبريل في القرآن المكي، وإنما الذي يذكر فيه هو الروح. ولكنه الآن يقول لنا إن ذكر الروح يعطي انطباعاً بأنه " نظرية " لتفسير التجربة لا جزء منها. ولم يقل لنا ما سبب هذا الانطباع " والقرآن يقول " نزل به الروح الأمين"، ثم من هو صاحب هذه" النظرية" أهو الرسول ؟ إذن فأين أمانته التي قال واط إنه يعتقدها؟

كيف يكون أميناً من لا يرى ملكا ولا يخيل له أنه رآه ثم يفسر ما حدث له أنه رآه، ثم يفسر ما حدث له على أنه لا بد أن يكون من فعل ملك، ثم يذهب إلى الناس ويقول لهم إنه رأى بالفعل ملكا هو جبريل. أم يقول لنا إنه فعل ذلك وهو يعتقد صادقاً أنه رأى ملك، إذن فرؤية الملك لا تكون" نظرية" لتفسير الوحي وإنما تكون تخيلاً ولكنه ينفي حتى التخيل في هذه الفقرة.

(ح) ذكر هنا حديث البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ : **(أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول)**، قالت عائشة رضي الله عنها : (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً)[1].

ونقول:

أولاً: إن واط يتحدث عن الوحي في الفترة المكية ولذلك حصر نفسه في الآيات المكية ولم يأخذ بالآيات المدنية «بل ولم يأخذ بالأحاديث التي تصف الوحي في الفترة المكية لأنها تذكر اسم جبريل. ولكنه الآن يستدل بحديث الحارث بن هشام وهو صحابي جليل أسلم يوم الفتح أي قرب نهاية الفترة المدنية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام».

---

(١) فتح الباري، كتاب بدء الوحي، الحديث رقم (٢).

وثانياً: إن الحديث يقول أحياناً كذا وأحياناً كذا، ولم يقل إنه في البداية كان مثل صلصلة الجرس، ثم صار الملك يتمثل رجلاً.

ثالثاً: إن الحارث رضي الله عنه سأل بصيغة المضارع: (كيف يأتيك) ولم يقل كيف كان يأتيك، فالوصف المذكور إذن هو الطريقة التي كان يأتي بها الوحي حتى وقت السؤال وهو يشمل العهدين المكي والمدني.

رابعاً: إن صورة مثل صلصلة الجرس لا تتنافى مع وجود الملك، بل إن الذي يصفه الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحالات التي يأتيه بها الملك الوحي، فأحياناً يكون وحيه إليه مثل صلصلة الجرس وأحياناً يكلمه كلاماً عادياً، وربما كان الصلصلة مقدمة للوحي لا صورة من صوره. وقد جاء هذا الحديث برواية أخرى في البخاري نفسه تؤيد ما نقول: (...... كيف يأتيك الوحي؟ قال: **(كل ذلك يأتيني الملك، أحياناً مثل صلصلة الجرس.... ويتمثل لي الملك أحياناً رجلاً....)**[1].

(ط) يا للعجب! العلماء المسلمون الذين يتكلمون العربية سليقة، ويجيدون نحوها وصرفها وبلاغتها، ويحفظون القرآن عن ظهر قلب، ويرددونه صباح مساء، ويتدبرون آياته وكلماته ويعظمونها مؤمنين أنها كلام الله تعالى، ويحفظون آلاف الأحاديث النبوية ويتدبرونها ويفسرون بها كلام الله، ويجلونها باعتبارها وحياً ثانياً بعد القرآن، هؤلاء يجمعون على القول بشيء يخالف كثيراً من الآيات الأحاديث لا آية واحدة ولا حديثاً واحداً. ومن الذي يكتشف هذا؟ حفنه من الغربيين المستشرقين الذين يتعلمون العربية من الكتب ويأخذونها عن بعضهم ولا يكاد يستقيم لسان أحدهم بآية أو حديث. ما هذا الغرور؟ ما هذا التعالي على عباد الله؟ ماذا يكون شعور واط لو أن جماعة من الأدباء العرب الذين لا يحسنون الكلام بالإنجليزية قالوا إن جميع من كتب عن شكسبير من الإنجليز والأمريكان وسائر المتحدثين بالإنجليزية يفسرون بعض ما جاء في كتبه تفسيراً يتناقض مع كثير مما نجده في مسرحياته وقصائده؟

(ي) إذا كانت هذه هي الطريقة المعتادة في العهد المدني فما الذي يمنع أن تكون هي ذاتها طريقة العهد المكي؟ لماذا يصر الكاتب على أنه من الضروري أن تكون

---

(١) المصدر نفسه، كتاب بدء الخلق (٥٩)، الحديث رقم (٣٢١٥).

طريقة الوحي المكي مختلفة عن طريقة الوحي المدني؟ ولكنه يقول على كل حال إنه حتى على افتراض أن الوحي المدني كان يأتي عن طريق جبريل فإنه يكون تعبيراً تخيلياً مصحوباً برؤية تخيله لجبريل وأن عبارة (في صورة رجل) تدل على ذلك، كيف؟ هل فهم من (صورة رجل) أنها تعني (خيال رجل)؟ إن كان قد فعل فهو مخطئ لأن الحديث يعني أنه لم يأت في صورته الحقيقية وإنما تشكل بصورة رجل يراه الرسول وغير الرسول من الناس.

(ك) نعم إنه لمن الجهل الفاضح أن يقال ذلك ولكن ما الفرق الحقيقي بين تفسيرك للوحي وبين هذا التفسير الذي لا يقول به إلا جاهل كما ذكرت؟ لا اختلاف إلا في الألفاظ.

أما قوله إن كون العبارات والرؤى داخلية أم خارجية ليس دليلاً على صدقها وصحتها فليس بصحيح على إطلاقه. بل تفصيله أن يقال إذا كان داخلية فنعم لأن صحتها تحتاج إلى دليل آخر. وأما إن كانت خارجية فالأمر يعتمد على نوع المصدر الخارجي فإذا كان الله سبحانه وتعالى فهو دليل على صدقها. وإن كان غيره فالأمر فيه كالأمر في الوحي الذاتي أو الداخلي.

(ل) كرر الكاتب مسألة استدعاء الوحي أو استجلابه Inducing هذه عدة مرات في كتبه. وهي تساير بالطبع نظريته لأنه إن كان الوحي أمراً داخلياً ذاتياً فلا غرابة أن يتعلم صاحبه كيف يستجلبه ويستحدثه سواء بالتنويم الذاتي كما يقول الكاتب أو بغيره من الوسائل. ولكن مشكلة الكاتب كما ذكرت أنه لا يريد أن يلقي بهذه التهم كما يلقي بها الملحدون المنكرون للوحي من غير نظر في سيرة الرسول ﷺ، بل يريد أن يجد لها شواهد من هذه السيرة. فإذا أعوزته الشواهد الحقيقية تمسك بأوهام وعدها شواهد. وإلا فكيف يخطر ببال إنسان أن يكون ((الدثار)) وسيلة لاستجلاب الوحي، والدثار كما تحدثنا الروايات إنما حدث مرة واحدة، وحدث بعد الوحي، وخوفاً منه، وجاء الوحي بعده ليأمره بإلقائه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾، ثم إذا كان محمد قد تعلم طريقة يستجلب بها الوحي ويصحح أخطاءه فلابد أن يكون واعياً بهذه الطريقة، وإلا فكيف (يتعلم) الإنسان طريقة وهو لا يعي أنه يتعلمها؟ وإذا كان واعياً

فهو إذن يعلم أن الوحي ليس أمراً خارجياً وإما هو شيء ذاتي يحدثه هو في نفسه، فكيف يكون إذن صادقاً في قوله إنه من الله؟ وإذا قلنا إنه لم يكن واعياً حتى بهذا، فكيف يفسر واط مثل هذا السلوك من إنسان يعدّه أميناً عاقلاً غير مجنون سليماً غير مريض حوله رجالا عقلاء أقوياء. كيف يعيش رجل كهذا في مثل هذا الوهم طيلة ثلاثة وعشرين سنة؟ وكيف يتابعه في هذا الوهم طيلة هذه المدة هؤلاء الرجال العقلاء الأقوياء؟

ما هو مصدر الوحي المحمدي:

يمكن أن نوجز إجابة واط على هذا السؤال بقولنا إن اللاوعي الجماعي يمكن Collective unconscious هو مصدر كل وحي ديني سواء كان الإسلام أو النصرانية أو اليهودية.

ولشرح هذا الرأي يقول لنا واط إنه في عمومه رأي جونج Junge وهو رأي يقول: «إن ما ينبثق من اللاوعي إلى الوعي في رؤى الأفراد المنامية وأحلام اليقظة وكذلك في الأساطير الدينية لمجتمع كامل تأتي من "اللبيدو" أو طاقة الحياة، وهو ينبوع المناشط في كل الناس. في الشخص الواحد يكون "اللبيدو" في أحد أجزائه شيئاً خاصاً وفي الجزء الآخر شيئاً مشتركاً بينه وبين أفراد جماعته ثم بينه وبين الجنس البشري كله. هذا الجزء المشترك بينه وبين الآخرين هو الذي يسميه جونج "باللاوعي المشترك" وإلى هذا اللاوعي المشترك تعزى كثير من الأساطير وكذلك المعتقدات الدينية، ولا سيما شخصيات مثل "البطل" و"القائد" و"الطفل الإلهي" و"العذراء" التي توجد في كثير من الأديان[1]».

ولتطبيق هذ النظرية العامة على الوحي المحمدي يقول واط ان هذا يعني أن كلمات الوحي (كانت لها صلة بمحمد قبل أن يصير واعياً بها) ثم يقول إنه يمكن الجمع بين هذه المسألة وبين الآراء الإسلامية التقليدية بأن نقول بأن الملك وضع الكلمات في ناحية من نواحي الوجود المحمدي يسمى اللاوعي وأنها برزت من هنا إلى وعيه[2].

---

(١) الوحي الإسلامي في العصر الحديث، ص١٠٩.

(٢) المصدر نفسه، ص١٠٩.

هذا كلام إنسان لا يتصور ما يقول. متى وضع الملك هذه الكلمات؟

هل وضعها قبل حادثة حراء؟ وأية مدة ما الدليل التاريخي على ذلك؟

وإذا كان واط مستعداً للقول بأنها من لملك فما فائدة نظرية «اللاوعي المشترك»؟

لماذا يضعها الملك في اللاوعي أولاً ثم يدعها تبرز إلى الوعي ويجعل محمداً يتخيل أنه يرى ملكاً يحدثه بكلام لم تكن من قبل صلة به؟ إذا كان من المكن أن تكون الكلمات من الملك، وإذا كان من الممكن أن يضعها في

اللاوعي، فما الذي يمنع من وضعها في الوعي منذ البداية؟

وإذا كانت الكلمات من ملك فمعنى ذلك أنها شيء جديد لم يكن يعرفه محمد ولا مجتمعه، ولكن نظرية اللاوعي المشترك كما يشرحها صاحبها جونج، وكما يوافقه عليها واط، تقتضي أن تكون هذه الآراء معبرة بطريقة ما عن المجتمع ومتوافقة مع مشاعره ومصالحه ومصاغة بمقولاته ومبنية على مسلماته.

وقد أشار الكاتب في أماكن كثيرة من كتبه إلى أن كثيراً مما في القرآن مأخوذ من اليهود والنصارى ومن الأفكار السائدة في البيئة العربية فهو يقول إن القرآن لم يكن باللغة العربية فحسب بل صيغ بمفاهيم النظرية العربية والمكية المعاصرة له، وبأشكالها الفكرية، وانه لذلك أعطى الجمل اهتماماً خاصاً، وأنه كذلك لم يتعرض على تعاطي الربا في العهد المكي، وأن تحريمه في العهد المدني كان موجهاً أساساً ضد اليهود، وأن تحريم الخمر ووضع قيود على الزواج ربما لم تكن مسائل إسلامية وإنما استدعاها الفرق بين الحياة البدوية والحياة المستقرة، وأن تصور القرآن لله وحسابه مطابق على وجه العموم للتصور اليهودي والنصراني، وأن القرآن استفاد من هذه الأفكار اليهودية والنصرانية في شكلها المعرب الذي كان معروفاً للمكيين المستنيرين قبل القرآن، وأن أصالة القرآن كانت في أنه حدد هذه المفاهيم وفصلها[1].

ثم يصدر حكماً عاماً بأنه لا شيء من الأفكار الأساسية التي جاءت في القرآن لم يكن في عقل محمد والمستنيرين من معاصريه[2].

---

(١) الوحي الإسلامي في العصر الحديث، ص٨٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٨٤.

المنهج المتبع:

لعل فيما قدمته من أمثلة للنتائج التي وصل إليها واط عن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ما يكفي للدلالة على أنه ما كان ليصل إلى مثل هذه النتائج وما كان ليقول كثيراً مما قالوا لو أنه التزم المنهج الذي صدر به كتابه وكرره في ثناياه وثنايا كتب أخرى.

فما الذي حدث إذن؟

الذي حدث أن الكاتب ادعى منهجاً والتزم بنقيضه. وفيما يلي أوجز للقارئ أهم دعائم هذا المنهج الذي اتبعه، والذي رأى القارئ له بعض الشواهد أثناء هذا العرض المجمل لآرائه عن النبوة.

العلمانية:

التزم الكاتب في حكمه على ما يمكن أن يقع وما لا يمكن وقوعه بفلسفة علمانية تستبعد إمكان وقوع الظواهر الدينية التي لا تخضع لقوانين الأجسام المادية المعروفة. ولم يلتزم بهذه الفلسفة فحسب بل اعتمد عليها صراحة في بعض تعليلاته. فمن أمثلة ذلك أنه بعد أن لخص حياة النبي ﷺ قبل الزواج بخديجة في نصف صفحة قال «هذه هي الحقائق الأساسية عن حياة محمد قبل الزواج من وجهة نظر المؤرخ العلماني..».

... وهنالك على كل حال عدد كبير من القصص التي يمكن أن يقال إنها ذات طابع ديني ويكاد يكون من المتيقن أنها ليست حقيقية من وجهة نظر المؤرخ العلماني الواقعية[1]. واستبعد رؤية النبي لجبريل على أساس أنها لا يمكن تكون تاريخيه[2].

المادية:

ولا يكتفي واط الفلسفة العلمانية العامة بل يأخذ أحياناً بفلسفة علمانية ضيقة لا يقول بها إلا غلاة الماديين. فبعد أن يتحدث عن أثر العوامل الاقتصادية في تنمية الشعور بالاتجاه الفردي وبعد أن قال إنه نشأت بمكة وحدة أساسها المصالح المادية المشتركة لا الانتماء القبلي، وبعد أن تبرأ من قول الماركسيين إن الدين وسائر الأيدولوجيات تعتمد بصفة مطلقة على العوامل الاقتصادية، بعد هذا كله يختم كلامه بقول: «إن

---

(١) محمد بمكة، ص٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٣.

التوتر الذي كان يشعر به محمد وبعض معاصريه يعزى في النهاية وبلا شك إلى هذا التنافر بين سلوك الناس الواعي والأساس الاقتصادي لحياتهم»[١].

اتباع الظن:

كثيراً ما يترك الكاتب القضايا التي تسندها بعض الشواهد التاريخية التي يجدها في مصادره ويستبدل بها مزاعم لا دليل عليها وليس لها ما يسوغها علمياً اللهم إلا كونها لا تساير تحيزه ضد الوحي. ويبدو أنه لا حظ ذلك فحاول أن يجد له مسوغات "علمية". فبعد أن أتحفنا بإحدى هذه الظنون مضى يقول: «أعترف بأنه لا توجد طريقة للبرهنة على أن هذا هو الذي حدث. إنه مجرد فرض ولكن السير على أساس مثل هذه الفروض هو جزء من النظرية العلمية الحديثة»[٢].

ولكن فلاسفة العلوم يخبروننا بأن من شروط الفرض أو النظرية أو القضية العلمية أن يكون بالإمكان التثبت من صحتها على رأي، أو إمكانية إبطالها على رأي آخر. أما أن يقول لنا إنسان كلاماً لا يعطينا على صحته أو احتمال صحته دليلاً، ولا ندري كيف تثبت صحته أو بطلانه فإن كلامه لا يعدّ من العلم في شيء.

عدم الثقة في علماء المسلمين وعامتهم:

على هذا المنهج سار واط في كل كتاباته عن الإسلام والشواهد عليه لا تكاد تحصى. فهو يورد الحقائق التي ذكروها أو حتى أجمعوا عليها بصيغة التمريض والتشكيك، إن لم يجد في إنكارها ما يخدم غرضاً. وأما إن كان فيها ذلك فإنه لا يتردد في إنكارها وردها. ولو كان هذا منهجاً مطرداً لواط في كل علماء الدنيا لقلنا إنه منصف وإن كان مخطئاً. لكن المؤسف أنه يعامل علماء بلاده بعكس ذلك تماماً فهو يظهر احترامه الشديد لهم ويعتذر عن مخالفتهم إن اضطر لذلك. وإليك بعض الشواهد على ما ذكرت:

يقول عن سورة اقرأ: «لا توجد اعتراضات مقبولة على الرأي الذي يكاد يكون مجمعاً عليه بين العلماء المسلمين وهو أن هذه هي أول سورة أوحي بها».

---

(١) محمد بمكة، ص٢٠.

(٢) الوحي المحمدي في العالم الحديث، ص١٨.

ويقول عن الفرق بين النبوة والرسالة «استناداً إلى ما تجمع عليه الأحاديث وإلى ما ترجحه طبيعة الأمر يمكن أن نفترض أنه كان هنالك فرق بين هذين الطورين من أطوار عمل محمد وأن التواريخ التي تذكر عدة صحيحة تقريباً»[١].

«وليس هنالك ما يدعو لرفض الرواية التي تقول إن خديجة طمأنت محمداً»[٢].

ويقول: «المسلمون في العادة يفسرون معنى السطر الأول: قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤]: (علّم استعمال القلم) ولكن هذا لا وجه له ولا سيما إذا كان محمد لا يقرأ ولا يكتب»[٣].

ويقول «الإسلام التقليدي يقول بأن محمداً لم يكن يقرأ ولا يكتب ولكن هذا القول مريب بالنسبة للعالم الغربي الحديث، لأنه إنما قيل ليؤكد الاعتقاد بأن إنتاجه للقرآن كان أمراً معجزاً»[٤].

ويقول عن قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزمر: ٢٨]، إن يتضمن معاني لم يدركها المسلمون إدراكاً كاملاً ولكنها معان ذات أهمية كبيرة في عالمنا المعاصر عالم الاتصال بين الأديان[٥].

وأما العلماء الغربيون فالأمر معهم مختلف تماماً كما ذكرناه.

وهذه بعض الأمثلة:

«القول بأن رؤى محمد وكلماته كانت هذياناً... يدل على جهل مؤسف بعلم كتاب من أمثال بولين Poulain وحكمتهم...»[٦].

«إن مخالفة جولدزيهر ليست بالأمر السهل»[٧].

---

(١) الوحي المحمدي في العالم الحديث، ص٤٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٠.

(٣) المصدر نفسه، ص٥١.

(٤) محمد نبياً ورجل دولة، ص٤٠.

(٥) الوحي المحمدي في العالم الحديث، ص٢٥.

(٦) محمد بمكة، ص٥٧.

(٧) المصدر نفسه، ص٨٢.

وبلغت ثقته بعلماء بلاده وتحقيره للعلماء المسلمين أن ترك أقوال هؤلاء واعتمد على أقوال أولئك حتى في ترتيب سور القرآن الكريم بحسب نزولها[١]، وإن وصف بعض ما قال إنهم أجمعوا عليه بأنه مخالف لكثير مما في الكتاب والسنة، وإن انتقد تفسيرهم لبعض آيات القرآن الكريم، كل ذلك اعتماداً على آراء اخوانه من المستشرقين.

تعصب ضد العرب والمسلمين:

يقول واط عن العرب كلاماً لا يتفوه به إلا إنسان أخل التعصب بعقله فلم يعد يدري ما يقوله ولا يتصوره.

(أ) فهو يقول لنا إن الربا لم يحرم في مكة ثم يتساءل: كيف كان يمكن أن ينتقد الربا؟ بل كيف كان يمكن أن يفهم المكيون أي نوع من النقد؟ ما كان الإنسان ليستطيع أن يقول إن الربا خطأ، لأن النظرة العربية لم يكن فيها تصور مجرد للخطأ والصواب[٢].

كيف عرف هذا؟ إذا أراد الباحث أن يتحقق من وجود مفهوم معين في تصور أمة من الأمم أو عدم وجوده، فإن المنهج العلمي يقتضيه أن يبحث أولاً في لغتهم فإن وجد فيها ما يدل على هذا المفهوم صراحة أو ضمناً فبها. وإن لم يجد بحث في وسائلهم التعبيرية الأخرى. فإن لم يجده جاز له حينئذ أن يقول إن هذا المفهوم لا وجود له في تصور هذه الأمة.

وكاتبنا بالطبع لم يفعل هذا لان لغة العرب مليئة بالألفاظ الدالة على المفهوم الذي أنكر وجوده عندهم، وإلا فما معنى وجود ألفاظ مثل الخطأ والصواب والحق والباطل والحسنة والسيئة والحرام والحلال والحسن والقبيح وغيرها من الألفاظ التي كان يستعملها العرب ويدركون معانيها قبل نزول القرآن الكريم؟

ثم إن المفهوم الذي أنكر واط وجوده عند العرب هو في حقيقة الأمر من المقولات الأساسية التي فطر الله عليها العقل البشري، والتي لا يمكن أن تخلو منها لغة قوم من البشر. لعل الكاتب يقول لنا إن إنما أنكر المفهوم المجرد للحق والباطل ولم ينكر المفهوم النسبي.

---

(١) المصدر نفسه، ص٦٠-٦١.

(٢) محمد بمكة، ص٨١.

فنقول إن النسبية بالمعنى الذي شرحه[1] هي الصفة الغالبة على استعمالات الناس لمثل هذه المفاهيم التقويمية. ولكن هذه النسبية تتطلب – منطقاً – مفاهيم غير نسبية سمها مجردة او مطلقة أو ما شئت، لأن الذي يقول أن (أ) حسن لأنه (ب) و(ب) حسن لأنه (جـ) وهكذا لا بد أن يصل إلى شيء يقول أنه حسن بلا تعليل، وإن كان قد يغير رأيه فيما بعد إذا اكتشف شيئاً أعلى منه في هذا السلم المنطقي التقويمي.

وهذا هو الذي حدث للعرب. فقد كان من معاييرهم أن الحق لابد أن يكون موافقاً لما عليه الآباء وأن من علامات الباطل أن يكون مخالفاً لهم. ولذلك رفضوا الدين الجديد معللين رفضهم بهذا المعيار الذي كان جزءاً هاماً من مكونات تفكيرهم. ولذلك ركز القرآن الكريم على نقده تركيزاً شديداً، وكرر هذا النقد بأساليب مختلفة، فلفت نظرهم بذلك إلى معيار أرقى من ذلك الذي كانوا يعدونه الحد الأقصى. ولكنهم ما كانوا ليفهموا هذا النقد لولا ان في عقولهم استعداداً لفهمه، وهذا الاستعداد يعتمد على تصور غير نسبي للحق والباطل. أقول (يفهموا) ولا أقول (يقبلوا) لأن بعضهم ظل متعصباً لرأيه القديم. ولكن حتى هؤلاء الذي رفضوا المعيار الجديد إنما فعلوا ذلك بعد أن فهموا معناه. فمشكلة الرسول صلى الله عليه وسلم معهم لم تكن مشكلة عدم فهم منهم لما يقول وإنما كانت رفض لما يقول. ولست أدري لماذا اختار الكاتب مسألة الربا بالذات.

فالمعروف أن الإسلام لم يدخل في تفاصيل الحياة الاجتماعية طيلة العهد المكي، لأن هذا العهد كان عهد وضع الأسس الجديدة ونقد الأسس القديمة وإزالتها، ولأن التفاصيل الجديدة لا يكون لها معنى حقيقي إلا في الإطار الجديد. ولذلك لم يتطرق الإسلام للحديث عن مسائل الطعام والشراب واللباس والزواج وتفاصيل المسائل الاقتصادية والسياسية. بل ولا تفاصيل الشعائر التعبدية، وإنما ركز على العقيدة في الله والإيمان بالدار الآخرة والإستمساك بمكارم الأخلاق. ولعل من سوء حظ الكاتب أننا نملك دليلاً من كلام العرب على أنهم كانوا يعرفون أن الربا خطأ وإن مارسوه. فقد جاء في السيرة أن أبا وهب بن عمرو قال لقريش لما أرادوا أن يعيدوا بناء الكعبة

---

(١) انظر: محمد بمكة، ص٨١.

قبل مبعث النبي ﷺ: **(يا معشر قريش لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً، لا تدخلوا فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس)**[1].

(ب) ويقول وينبغي أن نتذكر هنا أن التفرقة الغربية بين الحقيقة المجردة ومغزاها لا توجد واضحة في الشرق. ربما عرف محمد الحقائق المجردة.... ولكن ربما لم يقدر مغزى هذه الحقائق المجردة ولذلك طلب أن يوضح له ذلك بعبارة أخرى.

أقول وينبغي أن نتذكر نحن أن هذا الشرق الذي يتحدث عن واط ورفاقه المستشرقون ليس شيئاً واقعياً يشار إليه بالبنان – وإنما هو – كما قال الدكتور ادوارد سعيد – شيء من نسج خيالهم، ينشأ عليه صغارهم ويشيب عليه الكبار.

هل يعني واط أن لغات أهل الشرق كلها لغات وصفية ليس فيها كلمات تقويمية؟ هذا مستحيل عقلاً. لأن اللغة تكون لغة ولا تؤدي وظيفتها في الحياة إذا لم تكن تقويمية. بل إن فلاسفة العلوم يحدثوننا أن هذا يعسر – ويقول بعضهم لا يوجد – حتى في اللغة العلمية البحتة لأن اللغة لا تقتصر على استعمال الكلمات العلمية التي تشير إلى وقائع جزئية وإنما تستعمل كلمات عامة مثل ذرة، طاقة، إنسان، نقود.... الخ وهذه الكلمات العامة – هكذا يقول هؤلاء الفلاسفة – ليست وصفية بحتة وإنما هي مشحونة بأفكار نظرية.

أم يقول واط إن أهل المشرق يصفون ويقوّمون من غير شعور منهم بالحد الفاصل بين هذا وذاك؟ وأقول نعم إن هذا قد يحدث لهم كما يحدث لأهل الغرب فكثير ما يصف الإنسان وهو يظن أنه يقوِّم، وأكثر منه أن يقوِّم الإنسان وهو يحسب أنه يصف. أما أن يعمى فرد من الناس–ودعك عن أهل المشرق قاطبة – عمى كاملاً عن رؤية الفرق بين الوصف والتقويم فهذا لا يحدث إلا لإنسان معتوه.

لنأت الآن إلى العرب. لقد كان كثير منهم يعتقد كما يعتقد كثير من الغربيين الآن أن التاريخ لا معنى له ولا مغزى، وإنما هو شمس تطلع هنا وتغيب هنالك، ويوم يعقبه يوم، وأرحام تقذف وقبور تلقف، ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

فأصحاب هذا الاعتقاد كانوا يفرقون إذن بين الحقيقة المجردة ومغزاها أو معناها، فاعترفوا بالحقيقة وأنكروا المغزى في هذه المسألة، وربما في مسائل غيرها، لا في

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص٣٠٦.

شيء. فلما جاء الإسلام لم يعلمهم الفرق بين الحقيقة المجردة والمغزى، وإنما لفت أنظارهم إلى المعاني التي تنطوي عليها هذه الحقائق المجردة التي كانوا يعلمونها، فالحقائق الكونية لم تعد مجرد أشياء تشغل زماناً ومكاناً وإنما صارت (آيات)، ودلائل على خالقها، والطعام واللباس وكل ما يستفيد منه الإنسان لم يعد مجرد حقيقة فيزيائية أو بيولوجية وإنما أصبح ((نعمة)) تستوجب شكر المنعم، وتقتضي التصرف فيها بطريقة ترضيه. وفي آية رائعة من آيات القرآن الكريم في هذا المجال يقول تعالى ذاما المشركين على وقوفهم عند معرفة الحقيقة المجردة وعدم النظر إلى مغزاها الحقيقي. ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠]. هل يفهم مثل هذا الكلام أناس لا يفهمون الفرق بين الحقيقة المجردة والمغزى.

وإذا كان القرآن قد فرق هذه التفرقة، وإذا كان القرآن نابعاً حسب اعتقاد الكاتب من اللاوعي المشترك للعرب فهذه التفرقة إذن موجودة عندهم في هذا (اللاوعي) على الأقل.

(جـ) وأما ثالثة الأثافي فهي اتهام العرب أن عقليتهم لا ترفض التناقض، ولذلك فإن الحنابلة «تفادوا تصورات الأشاعرة وغيرهم التجريدية واستمسكوا بعبارات القرآن والسنة كما هي. والذي ينتج عن هذا أننا إذا اكتشفنا شيئاً من التناقض في القرآن فإن هذا يكون دليلاً على غناه وتجاوزه المثمر للفكر التجريدي المجدب. يمكن الاحتفاظ بعبارتين متناقضتين لأن كل واحدة منهما لا تعبر عن الحقيقة إذا انفردت. بل إن كل واحدة منهما تكشف جانباً من الحقيقة تهمله الأخرى. وعليه فإن العبارتين وإن لم يكن الجمع بينهما منطقياً تعطياننا معا صورة أكمل للحقيقة»[1].

وأقول:

أولاً: من هم الأشاعرة؟ أهم من الإنجليز أو الأمريكان؟ ألم يكونوا عرباً كالحنابلة؟ إذن لماذا عدّ هؤلاء الممثلين للعقلية العربية وترك أولئك؟

---

(١) الوحي الإسلامي، ص٣٤-٣٥.

وثانياً: هل ما قاله الكاتب هو حكاية وتصوير أمين لقول الحنابلة أم هو تفسير منه وتأويل؟ الذي نعرفه عن الحنابلة أنهم لم يستنتجوا من استمساكهم بالقرآن والسنة هذه النتيجة التي استنتجها الكاتب، وإنما كانوا كغيرهم من عباد الله يعتقدون أن الكلام المتناقض باطل وينزهون – كغيرهم من المسلمين – كتاب الله تعالى عن مثل هذا الباطل. وقد رد إمام الحنابلة، بل إمام أهل السنة، الإمام أحمد على الزنادقة الذين زعموا مثل هذا الزعم في القرآن فكانت ردوده مثلاً رائعاً للعقل المستنير الذي يرفض كل شائبة من شوائب التناقض. ولم يقل لهم: نعم إن هناك تناقضاً وإنه يدل على خصومة القرآن وشمول وصفه لكل نواحي الحياة. بل كان يبدأ كثيراً من ردوده على شبهاتهم بقوله. (فشكوا في القرآن وزعموا أنه متناقض) وإليك مثلاً من هذ الردود:

أما قوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: ٢٨]، و﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧]، و﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠].

فشكوا في القرآن وقالوا كيف يكون هذا من الكلام المحكم؟

أما قوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ فهذا اليوم الذي يستوي فيه الليل والنهار أقسم الله بمشرقه ومغربه.

وأما قوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ فهذا أطول يوم في السنة وأقصر يوم في السنة أقسم الله بمشرقها ومغربها.

وأما قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ فهو مشارق السنة ومغاربها. فهذا ما شكت فيه الزنادقة[1].

تعبر كل من هذه الآيات الثلاث – حسب تفسير الإمام أحمد – عن جانب من جوانب الحقيقة كما قال واط وهي في جملتها تعبر عن الحقيقة كلها في هذا الأمر. ولكن هذا ما كان ليحدث لو أن الآيات كانت متناقضة. ولست أدري كيف يفوت على كاتب مثل هذا أن العبارات المتناقضة لا تفيد شيئاً لأن كل واحدة منها تنقض أو تمحو ما تقرره الأخرى فالجمع بينها لا يؤدي إلى ثراء بل إلى جدب كامل.

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد، تحقيق الدكتور عبدالرحمن عميرة، الرياض ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص٩١.

وثالثاً: كيف يخطر ببال عاقل أن أمة من العقلاء إنساً كانوا أو جناً أو ملائكة تقبل التناقض ولا ترى الفرق بينه وبين الأحكام والاتساق؟ نعم قد يقال ان أمة يوجد في كلامها من التناقض ما لا يوجد في الأمم الأخرى. أما أن يقال إن عقلها لا يميز بين المتناقض والمتسق، بين المستحيل والممكن فهذا غير معقول. إذا قال أحد هؤلاء لآخر: هل كتبت أنت هذا الكتاب؟ فأجابه نعم أنا كتبته غير أنني لم أكتبه؟ فماذا يفهم إذا كان يعلم أن صاحبه يتحدث على سبيل الحقيقة لا المجاز؟ هل يفهم أنه كتبه؟ لكنه يقول إنه يكتبه. هل يفهم أنه لم يكتبه لكنه يقول إنه كتبه. هذا كلام يقال للشاذين في علم المنطق، وما كنت لأثقل به على القراء لولا أن كاتبنا وبعض بني جلدته يحسبون أن معايير العقلانية نسبية وأن عدم قبول التناقض شيء تخص به العقلية الغربية[1].

(د) ويقول معلقاً على قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]. يبدو أن المفروض هنا أن العلم بالأسماء يتضمن العلم بالطبيعة الحقيقية للشيء، وأن العلاقة بين الاسم وطبيعة الشيء أوثق من مجرد (العلاقة) العرفية. والمحتمل أن هذا كان من مسلمات عقلية العرب قبل الإسلام[2].

لقد ناقش العلماء المسلمون طبيعة العلاقة بين الاسم والمسمى نقاشاً عميقاً مستفيضاً واختلفوا كما اختلف غيرهم بين قائل إنها توقيفية وقائل بأنها عرفية. ولكننا لم نسمع أن أحداً من الفريقين زعم أن معرفة الاسم تتضمن المعرفة بطبيعة الشيء. وليس في قصة آدم ما يدل على ذلك أو ما يشير إليه، فالذين يقولون إن الأسماء توقيفية لا يدعون أكثر من وجود علاقة طبيعية بين الاسم والمسمى اقتضت أن يسمى بهذا الاسم بالذات لا بغيره ولكن هذه العلاقة لا تدرك بمعرفة الاسم وحده، بل لا بد من معرفة المسمى أيضاً لاكتشاف العلاقة والذي فهمه المسلمون تعليم آدم الأسماء أنه

---

(١) انظر: الحوار الذي دار في هذا بين فنش P. Winch وماكنتير A. Macintyre وليوكس S. Lukes في كتاب Rationality, Bryan R. Wilson (ed.) Oxtord, 1974.

(٢) الوحي الإسلامي، ص٣٥.

لم يعلمه ألفاظاً فحسب وإنما قرن له بين الأسماء والمسميات لأن الإنسان كما يقولون صاحب المفردات لا يعرف الاسم. «فيكون عارفاً لمسمّاه إذا عرض عليه المسمى، إلا إذا عرف ذاته. إلا ترى أننا لو علمنا أسامي أشياء بالهندية أو بالرومانية ولم نعرف صورة معالم تلك الأشياء لم نعرف المسميات إذا شاهدناها، بمعرفتنا الأسماء المجرّدة، بل كنا عارفين بأصوات مجردة. فثبت أن معرفة الأسماء لا تحصل إلا بمعرفة المسمى وحصول صورته في الضمير»[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهل الحد يفيد تصور الأشياء؟ فيقول المحققون من النظار على أن الحد فائدته التمييز بين المحدود وغيره، كالاسم، ليس فائدته تصوير المحدود، وتعريف حقيقته وإنما يدعي هذا أهل المنطق اليونانيون أتباع أرسطو ومن سلك سبيلهم تقليداً لهم من الإسلاميين وغيرهم»[2].

واضح من هذا الكلام – وهو لعالم عربي مسلم – أن الاسم لا يفيد تصوير حقيقة الشيء، وواضح منه كذلك أن الذين يقولون كلاماً قريباً من هذا هم اليونان، أجداد الكاتب الفكريون الذين كان يرى فيلسوفهم الأكبر أن الحد يفيد تصور ماهية المحدود.

وبعد، فإذا كان الرجل يكتب باعتباره علمانياً، وكان لا يثق بالعلماء المسلمين ويغلو في الثقة بالدراسين الغربيين، وإذا كان هذا الذي ذكرناه أخيراً – وهو قليل من كثير – هو رأيه في الأمة العربية، فلا يستغربن أحد تلك النتائج التي انتهى إليها من دراسته للسيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

* * * * *

---

(١) المفردات في غريب القرآن، تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، بيروت، ص٢٤٤.

(٢) نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان، وهو مجلد واحد مع صور المنطق والكلام للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٢٠٦.